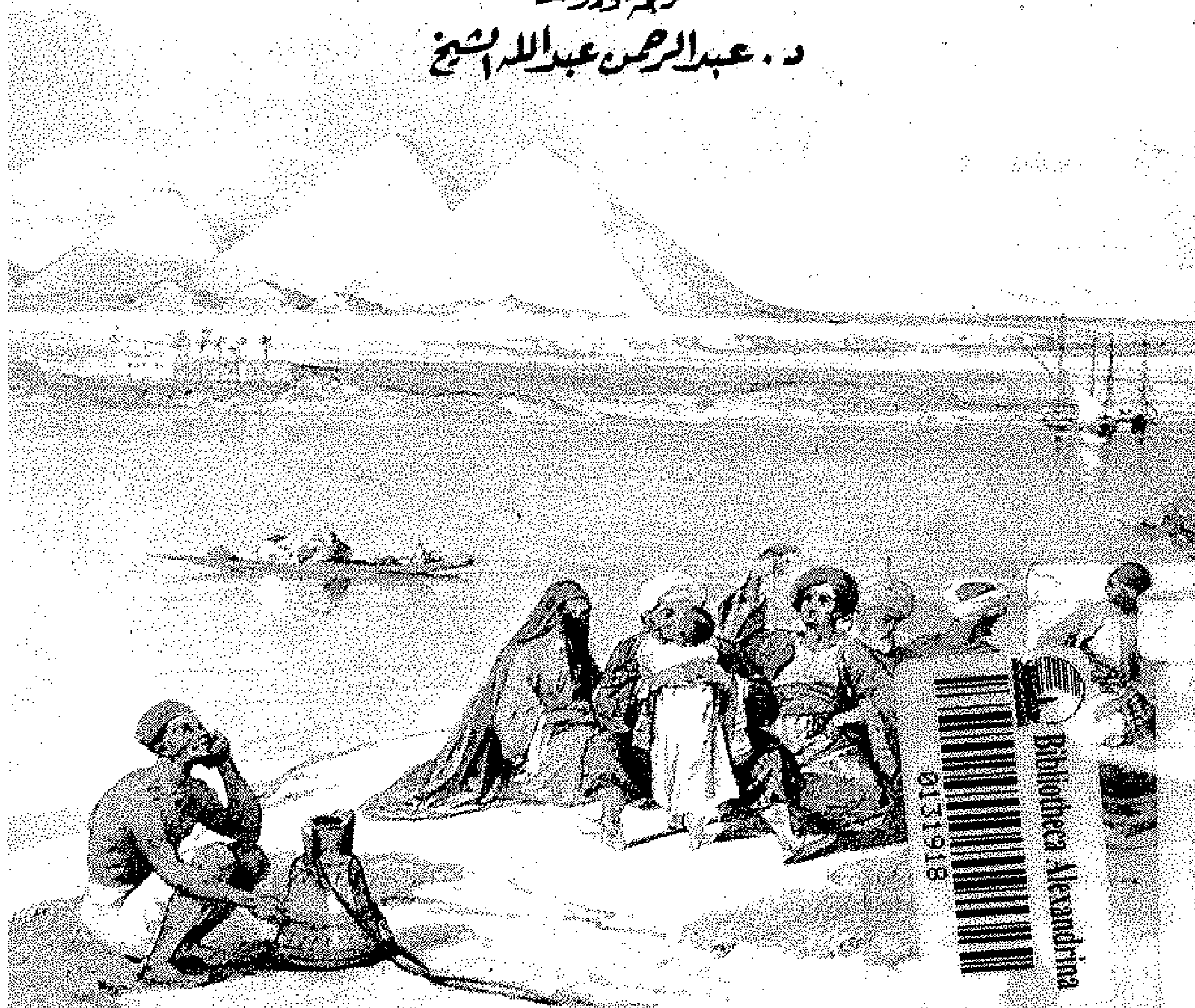
الألف كتاب
الثاني
١٩٧

# رحلة .. الأمير رُدولف إلى الشرق

ترجمة ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ




الجزء الأول

الهيئة المصرية العامة للكتاب

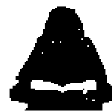
رحلة..
الأمير رودولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

# رحلة ..
# الأمير رودلف
# إلى الشرق
## (مصر والقدس)

### الجزء الأول

لصاحب السمو الإمبراطوري والملكي
الأمير رودلف

ترجمة ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتـــاب :

TRAVELS IN THE EAST

# الفهـــــرس

# مقدمة الترجمة العربية

قام الأمير ردولف ( صاحب السمو الامبراطورى والملكى ) وهو أحد الأمراء المهمين من آل هبسبرج ، برحلته فى عهد الخديو اسماعيل ، وقد قطع مصر من أدناها الى أقصاها ، فزار الاسكندرية وسواحل مصر الشمالية ، والقاهرة والفيوم (وهو ما نقدمه فى هذا الجزء ) وتوغل فى صعيد مصر حتى أسوان ، فوصف رحلته النيلية والظواهر الجغرافية ، وأبدى انبهارا بآثار « مصر المقدسة » على حد تعبيره ، وعاد من أسوان ليمكث فى القاهرة فترة أخرى ثم يتوجه الى بورسعيد ، ويقطع قناة السويس ، ويتجول فى البحر الأحمر ( وهو ما نقدمه للقارىء فى الجزء الثانى ) ، ثم يتوجه الى الشام ويزور بعض موانئها ويتجه للقدس الشريف ، ثم يعود الى فينا ( وهو ما نقدمه فى الجزء الثالث ) ٠

والرحلة ممتعة وغاصة بالمعانى والتلميحات ذات الدلالة ، وبالنسبة لمن يقرءون الرحلات كمصدر للتاريخ السياسى والاجتماعى ، لابد أن نذكر لهم توطئة أو دراسة تفسر كثيرا من المصطلحات والأمور الواردة بها ٠



قد يكون أول ما يلفت النظر هو لقب الأمير « صاحب السمو الامبراطورى والملكى » ، فقد تمت الرحلة والنمسا والمجر تشكلان كيانا سياسيا واحدا عرف بالمملكة الثنائية أو مملكة النمسا والمجر ، وكان لكل منهما دستور مستقل وحكم ذاتى ، أما السياسة الخارجية وأمور الدفاع فمن اختصاص امبراطور النمسا والمجر ، وهو الرمز الذى يجمع المملكتين وتوابعهما فى كيان واحد ، فالأمير ردولف اذن صاحب سمو امبراطورى لأنه من آل هبسبرج ، وقريب للامبراطور فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا والمجر وتوابعهما فى ذلك الوقت ( استطعنا الحصول على صورة معبر قله الحقناها بالفصل الثانى ) ، والأمير ردولف فى الوقت نفسه من أمراء النمسا أو مملكة النمسا ، فهو اذن صاحب « السمو الملكى » ٠



لقد رسم الساسة المجتمعون فى مؤتمر فينا الشـــهير ( ١٨١٤ ــ ١٨١٥ ) خريطة أوروبية جـديدة ، بهدف اتقاء أخطار تاتى من فرنســـا ، كتلك الأخطار التى صـدرت عنها بسبب ثورتها الشهيرة وما تلاها من تتابعات ، فحوصرت فرنسا بمجموعة من الدول الحاجزة ، وعمل الساسة المجتمعون على الشد من أزر النمسا حتى يسود الاتجاه المحافظ فى أوربا ، باعتبـار النمسا من أهـم الكيانات الأوربية المحـافظة التى تحكمهـــا أسرة عريقة تهددها أية أفكار ثورية ٠ ومن هنا فقـد جعـل مؤتمر فينـــا من نصيبها شمال ايطاليا ووسطها ، وترييست والساحل الدلماسى (دلماشيا)، وظهرت النمسا بعد مؤتمر فينـا كرئيسة لاتحـاد جرمـانى ٠ وقد أجبرت الظروف هذه الامبراطورية العتيدة على منح المجر استقلالها الذاتى مع تبعيتها للامبراطورية ، وقد طغت على الامبراطورية التقاليد والشـكليات وزادت الاستثنـاءات ، وكان نبلاؤها معفون من الضرائب وكان الفلاحون يعانون كل أنواع المعاناة ، وظل هذا الوضع على حاله فى عهد الامبراطور فرديناند ( ١٨٣٥ ــ ١٨٤٨ ) بل وتفاقم سوءا فى عهد الامبراطور فرانسوا جوزيف ( ١٨٤٨ ــ ١٩١٧ ) الذى تمت الرحلة فى عهده ٠ والأمير ردولف كاتب رحلتنا هذه هو ابن بيئته وابن النمسا وابن الأسرة الحاكمة ، فهـــل ترك كل ذلك أثره فى رحلته ؟ اننا نلاحظ أن حال الفلاح المصرى لم تستثره، ولم يتعرض لذلك الا لماما وكان وصفه للأحوال البشرية مجردا خاليـــا من العاطفة ، وكأنه يرى أن هذا هو الوضع الطبيعى للفلاح ، وكان اهتمامه عندما كتب رحلته هذه منصبا ــ غالبا ــ على وصف الظواهر الجغرافية والحياة الحيوانية والنباتية ، ووصف الآثار ، والتعرض لتاريخ المدن ، والتغنى بجمـال الطبيعة ، والاشـارات لأصول الســكان ( اشـارات انثروبولوجية ) مع اشارات ذات دلالات سياسية ونفسية ٠

ومع أن النمسا ــ فيما يقول المؤرخ فشر ــ كان بهـــا فى ذلك الوقت أقسى أنواع الشرطة فى أوربا « وافظعها وحشية وأشـدها قمعا ٠٠ » ، الا أن الأمير حــدثنا فى رحلته هذه عن مدى خـوف المصريين من رجال السلطة المصرية ، بل من كل لابسى الملابس الرسمية ٠٠ مجرد ملابس رسمية تخيفهم وتجعلهم « يختبئون بين أعواد القصب » على حـد قوله الذى يرى فيه واقعة محددة ، لا مجرد تشبيه بلاغى ٠

ومتابعة تاريخ امبراطورية النمسا ، أو المملكة الثنائية بعـد ذلك ( مملكة النمسا والمجـر ) توضح هذا الحشد من الأجناس المختلفة التى استقبلت الأمير ردولف ورفاقه عند قدومه لمصر : ايطاليون ، ويونانيون ، ودلماشيون ( أهل دلماشيا والساحل الدلماشى ــ الساحل الممتد من شـــمال

الحدود الألبانية حتى تريست بما فى ذلك ساحل استيريا ) والبان • الخ • فقد كانت الامبراطوريه النمســـاوية تمج باجنـاس مختلفة ، عنـدما استقرت بعض جالياتها فى مصر حصلت على الحمـــاية النمساوية ، بل وسعى بعض افراد هذه الجنسيات ممن لا يتبعون النمسا سياسيا للحصول على الحماية النمساوية ، وقد حقق بعض هؤلاء ثراء بالغا فى مصر ، وقدم لنا ردولف عن هذا التريستى الذى تخصص فى انتاج كل التحف الشرقية فى خان الخليلى وسوق الحمزاوى •

ولم ينس ردولف أن يذكرنا برأيه فى الأزهر الشريف والتعليم الدينى وهو يعتبر الأزهر الشريف « مفرخة » للتعصب الاسلامى ، على حد قوله ، وبث همومه لقارئيه ذاكرا ان هذا المعهد ـ وقد أسماه جامعة القـاهرة ـ يصدر التعصب للعالم اجمع ، وهو فى هذا يذكرنا برأى بيرتون ( نشرت رحلته الهيئة العامة للكتاب ـ الألف كتاب الثانى ) ـ الذى يفضـــل ـ من وجهة نظر أوربية ـ اسلام الدراويش أو بمعنى آخر الاسلام اللاعقــلانى ـ اسلام الغيبيات والجان وما الى ذلك •

النصوص الأثرية المترجمة ، ووصف الآثار :

ومما يزيد من أهمية هذه الرحلة أنها تضـم عـددا غير قليل من النصوص الأثرية المترجمة للعربية ، يزيد من قيمتها أن مترجمها هو العالم الأثرى الشهير برجش Brugsch . •

وكان برجش باشا هو ناظر مدرسة اللســان المصرى القديم ( اللغة الهيروغليفية ) التى أسست سنة ١٨٦٩ ، لكن هذه المدرسة ألغيت سنة ١٨٧٦ وقد تخرج فى هذه المدرسة عدد من الآثاريين منهم أحمد كمـال باشا (١) • وقد نشر برجش فى غير هذه الرحلة كثيرا من الترجمــات لنصوص هيروغليفية قـديمة (٢) •

وبالاضافة للنصوص الأثرية ، فقد قدم لنا برجش باشا وصفا لبعض المواقـع الأثرية ، وفيمـا يلى قائمــة بكليهما ( النصـــوص المترجمـــة ، والوصف التقريرى للمواقع ) لأهميتها للمهتمين بالدراسات التاريخيـة والأثرية :

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ • دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠٥ •

(٢) وردت اشارات لذلك فى : نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم • جيمس رتشارد • ترجمة عبد الحميد زايد ، نشر هيئة الآثار المصرية •

١ ــ تقرير عن هليوبولس ــ الفصل الثانى ·
٢ ــ الحـرابة المدفونة ــ الفصـل الرابع ·
٣ ــ دنـدره ــ الفصـــل الرابع ·
٤ ــ آثار الكرنك ــ الفصل الرابع ·
٥ ــ طيبـــة ــ الفصـل الرابع ·
٦ ــ ترجمة لوحة جرانيتية فى أرمنت ( ترجع لحوالى سنة ١٩٦٠ ق·م ) الفصـــل الرابع ·
٧ ــ كـوم امبـــو ــ الفصـــل الرابع ·
٨ ــ عن آثار اسـوان ــ الفصـل الرابع ·
٩ ــ فيـــلة ــ الفصـــل الرابع ·
١٠ ــ تقرير اثرى عن مقابر بيبان الملوك ــ الفصل الخامس ·
١١ ــ ترجمة نص هيروغليفى فى مقبرة سيتى الأول (١٣٥٠ ق·م) الفصـــل الخـامس ·
١٢ ــ آلهة مصر الفرعونية ( شجرة نسب ) ــ الفصل الخامس ·
١٣ ــ تاريخ ملف ــ الفصـل الخـامس ·
١٤ ــ الأهرامات وابو الهول ــ تقرير اثرى ــ الفصل الخامس ·
١٥ ــ عن التاريخ القديم لبرزخ السويس ــ الفصل السادس ·
١٦ ــ برزخ السويس جسر الأمم ــ الفصـــل السادس ·

**المصريون فى رحلة ردولف :**

حظيت الملاحظات الأنثروبولوجية بمكانة مهمة فى هذه الرحلة · لقد رأى الأمير أن أهل مصر فى معظمهم من عرق عربى ، بمعنى أنه كغريب وافد طبق ما قرأه ودرسه عن صفات العرب الفيزيقية ، فوجدها تنطبق على نحو أو آخر ــ على معـظم المصريين ، حتى الفـلاحين الذين رأى فيهم استمرارا للمصريين القدماء رأى فى ملامحهم سمات سامية Semitic ووجدهم عنصرا تسرى فى عروقه الدماء العربية على نحو أو آخر ، أما العنصر الثانى الذى ترك بصماته على دماء المصريين فيتمثل فى الأتراك وأهل شرق أوربا والقوقازيين وأهل الشرق الأدنى · لقـد لاحظ ذلك بمجرد وصوله للاسكندرية : « ··· واحتشدت على امتداد الماء قوارب ملأى بالعرب من كل الطبقات : فمنهم الغنى ومنهم الفقير ولكنهم كـانوا يلبسون ملابس فاخرة لها طابع خاص ··· ورأينا كثيرا من أهل المدن

من الشرق الأدنى واليونانيين والايطاليين واليهود ، وكان منهم من يضع فوق رأسه طربوشا بينما كان آخـرون منهم بغير طرابيش » · ولما دخـل الاسكندرية بالفعل لفت نظره العربي من الحمارين والسقائين والبائعين والفلاحين ذوى الجلاليب الزرق داكني البشرة ·· وجميعهم داكنو البشرة ، فالعربي الحقيقي داكن اللون وله ملامح جميلة ونبيلة ، وشكله رقيق لكنه مفعم رجولة ، والعربي ــ وان كان أرقى من اليهودي بكل المقاييس ــ الا أنه يشبهه بشكل واضح لا تخطئه عين ·· » ، لكنه يعود فيقول : والفلاحون رغم أن الدماء العربية تسرى فيهم الا انهم أقرب شبها بالمصريين القدماء » ·

وكل هذا لا يمنع أن المصريين قد تمازجوا تماما وأصبحوا عنصرا واحدا ، فعبد القادر باشا الذى أشرف على رحلة الأمير النمساوى كان « نصفه تركي ونصفه عربي » ولم ير الأمير أى فرق عرقى ــ فيما يقول هو ــ بين المسيحيين في سوق الحمزاوى ، وهي سوق التجار المسيحيين زمن الرحلة ، واليهود في حي الجواهرجية والمسلمين في حي النحاسين · ويقول : « وفي السوق يؤكد العرب انهم جنس سامي حقـا كأشـقائهم اليهود · وأنت لا تستطيع التمييز بينهم الا بمشـقة » ·

ويشكل البربر ــ فيما يرى ردولف ــ جزءا من سكان مصر خاصة في الصحراء الغربية ، وقد رآهم يعملون جنبا الى جنب مع النوبيين في حراسة مراكز الصرافة وبيوت المال · ويقول عن المصريين في الصحراء الغربية : « انهم بربر أصلاء ··· ألوانهم داكنة ومظهرهم الخارجي يوحي بصلابة أشد مما عليه سكان النيل الأدنى ( الدلتا ) وغالبهم طوال القامة ويتسمون بالنحـول ، وان كانت ملامحهم أقل نبلا وجمالا من ملامح القبائل البدوية في الشمال ، فالدماء الزنجية واضحة فيهم وبعضهم سود تماما ، له شعر مفلفل قد يحسبهم المرء من البربر ، والحقيقة أنه قد تم استرقاقهم ــ عنـدما كانوا أطفالا ــ من موطنهم في داخل أفريقيا ثم حصلوا على حريتهم من القبيلة التى نشأوا بها ، ومع هذا فقد ظلوا محتفظين بلغـة البدو وزيهم وعاداتهم ونسـوا أصولهم الافريقية تماما » ، وعن أهـل الفيوم ــ نلاحظ أن ردولف يثبت تأثرهم بالعرق البربرى ·

كل هذا لا ينفى بأية حال من الأحوال الامتزاج العرقى الكامل للشعب المصرى ، لكن أهمية ما نذكره الآن أن التراث الثقافى والعادات والتقاليد ، وما الى ذلك ــ كل ذلك يورث تماما كما تورث الصـفات الفيزيقيـة ، ومن هنا لابد من دراسة هذا التراث الأفريقى والبربرى والعربى والأوربى الشرقى لفهم العقلية المصرية ، بالاضافة بطبيعة الحـال لدراسة التـراث

الفكرى الفرعونى والقبطى الأساسى • ولم ير ردولف فى أقباط مصر أى اختلاف عرقى يفرق بينهم وبين المصريين الآخـــرين فهم من ( الخلطة ) نفسها • وتلك ترجمة دقيقة لعبـــارته الدالة على ذلك : « ومن الناحية العرقية ، فان قبط مصر ينتمون للعـــرق نفسه الذى ينتمى اليه المصريون الاخرون » ، ووصف بعض رجال الدين المسيحى الأورثوذكسى الذين قابلهم فى مصر القديمة بأن « بشرتهم داكنة •• وسحنتهم تشبه ـ بشكل واضح ـ سحن اليهود ••• » • والأمير كما سبق القول ـ يرى بين العرب واليهود شبها فيزيقيا ، ويقول : « وقد رأينا بين الكهنة والقسس وغلمان الخورس الوجوه البنية الداكنة كوجوه الأفارقة الخلص » • ولاحظ الأمير أنه « كلما توغلنــا للجنــوب ، زادت دكانة البشرة » وهــذا طبيعى نتيجـــة الأثر الأفريقى فى المصريين ، فمصر افريقية على أية حال ، ومع هذا فقد لاحظ الأمير عددا كبيرا من الراقصات القوقازيات والبربريات فى صعيد مصر •

ومعظم الدراويش الذين رآهم الأمير كانوا ـ فيما يقول ـ يعودون فى أصولهم الى شرق أوربا وآسيا الصغرى •

ومع هذا فقد أشار الأمير الى أعراق غريبة كالعبابدة ، الذين رأى فيهم ( العبابدة ) جنسا غير سامى ، وغير زنجى كذلك ، وزعـم أنهم من الكوش (الجنس الـكوشى Kushites) ، ويســكنون التـــلال الى الشرق من النيل أى بين النهر والبحر الأحمر واســتقر بعضهم على ضفاف النيل ( الفصل الرابع ) •

وعن سكان أسوان ( فى الفصل الرابع ص ٦٢ ) رأى ردولف فيهـم تجارا عربا ( وصفهم بأنهم ساميون ماكرون ) يخدعون ويغشون زبائنهم الذين هم نوبيون وزنوج وسلالة الأثيوبيين القدماء والعبابدة وقبــائل كوشية صغيرة •

وحول بحيرة المنزلة رأى ردولف ـ فيما يقول ـ بقايا الكوشيين ( الهكسوس ) • قد يكون هذا خطأ على نحو أو آخر ، وقد يكون صحيحا ، لكنه على أية حال رؤية من عيون غريبة ، وقد ترى عين الغريب ما لا تراه عين القريب •

الحياة الحيوانية الطبيعية فى مصر وقت الرحلة :

غطى وصف الحياة الحيوانية شطرا كبيرا من هــذه الرحلة ، لسبب بسيط وهو أن الأمير ردولف اتخذ هواية الصيد وسيلة للاستمتاع أثنـــاء رحلته هذه ، أو أنه كان بالفعل مهتما بعــلم الحيوان ، ونورد فى السطور

التالية المامة شاملة عن الطيور والحيوانات البرية التى اصـطادها وحصل منها على نماذج ، ومن هذا يتضح مدى ثراء مصر فى هذا المجال خاصة زمن الرحلة ( النصف الثاني من القرن التاسع عشر ) ٠

لقد حدثنا عن كثرة طيور البلشون او مالك الحزين وهى ما نعرفه فى مصر بطيور ( أبو قردان ) ، واذا كان النوع الأبيض هو المعروف من هذه الطيور الآن ، وهو النوع الذى نراه بكثرة فوق الأشجار المحيـطة بحديقة الحيوان بالجيزة ، وكنا نراه ونحن صغارا يملأ الحقول فى الريف خاصة بعد ريها ، الا أن الأمير يحدثنا عن الوان أخرى لهذا الطائر فمنـه البلشون الأسود والبلشون الأرجواني ٠ وقد وجد الأمير هذا الطائر فى حدائق شبرا وفى كل مكان ذهب اليه فى مصر سواء فى الصعيد أم شرق الدلتا وحول بحيرة المنزلة ، كما وجده فى الحقول حول الاسكندرية ٠

وبالاضافة لهذا فان الأمير يحدثنا عن حوالى خمسين طيـرا منهـا النسور Vultures وقد رأى منها انواعا عدة عند المحجر فى جبل المقطم ورصدها على ضفتى النهر اثناء رحلته الى أسوان وجزيرة فيلة ، كما حدثنا عن الحدءات التى كانت شائعة جـدا فى مصر ، وطيـور الشنقب ( بتشديد الشين وضمها وتسكين النون وضم القاف ) Snipe وهى – كما ورد فى معجم مصطلحات العلوم الزراعية – من فصيلة دجاجات الأرض وتسمى فى بلاد الشـام شكب ( بضـم الشـين والكاف ) ، وقـد صادها فى حدائق شبرا وأثناء رحلته النيليـة للصعيد ، كما رأى الكراكى ( جمع كركى ) وهى طيور طويلة الساق ، وصادفها فى الدلتا والصعيد ، وطيور الوروار bee-eater وهـذا الطـائر يسـمى أيضـا الخضـار ( بتشديد الضاد وفتحهـا ) كما يسمى أيضـا بالتصـغير الخضـيرة أو الخضيراء ، واسم الوروار شائع فى الشام ٠ وهو طير من الجوائم ملتصقة الأصابع ، وقد صاد منه عددا لا بأس به فى حدائق شبرا ٠

ومن الطيور التى حدثنا عنها أيضا أبو طيط ويسمى هذا الطائر البيوويت peewit وفى العامية المصرية الزقزاق الشامى ، وسيقانه طـويلة ويعيش حول المستنقعات وعلى ضفاف الأنهار ، وقد صاد الأمير منه فى حدائق شبرا ٠ وطيور الحجل (بفتح الحاء والجيم) Partridge ولما زار الفيوم وجـد حـول بحـيرة قـارون الصـقور الحوامة eagle buzzard والبجـع وطيـور الغطـاس diver ٠ وحدثنـا عن طيور النورس ويسـمى الواحـد منهـا أيضـا زمج المـاء ( بضـم أوله وتشـديد الميم وفتحها ) gull ويبحث عنها فى معاجم الحيوان تحت اسم larus وهى طيور ريشها طويل ، وهى من رتبة كفيات القدم وتطير أسرابا فوق البحيرات والشواطىء ووصفها الأمير بأنها طيور ساذجة يسهل صيدها

كما حدثنا عن نسور النهر river eagle ويقـال لهـا أيضا عقبان البحر وقد وجدها حول بحيرة قارون • وفى الفيوم ايضا حدثنا عن البط أسرى وطيور الغراء السوداء ( بتشديد الراء وفتحها ) black coots وقد وجدها تتردد بكثرة حول البوص ( الغاب ) القريب من بحيرة قارون ويسمى الواحد من هذه الطيور ايضا عرد ( بتشديد الراء وفتحها ) وهى من طيور المستنقعات وسـيقانها طويلة ، ومن أسـمائها المعجمية ايضـا Fulica ودجاجات الأرض وهى طيور برية طويلة الساق اسمها العلمى Scolopax rusticola كما حدثنا اثناء رحلته النيلية فى الصعيد عن طيور ابو ملعقة Spoonbills ، واوز النيل والخطاب ( بتشديد الطاء وفتحها ) أى السنونو Swallow واللقالق Storkes • وكانت رحلته لبحيرة المنزلة ثرية فى هذا الصدد ، فحدثنا ـ بالاضافة لطيور أخـرى ـ عن طيور الغاق Cormorants وهو طائر مائى من الفصيلة البجعية من كفيات القدم ويسـمى أيضـا غـراب البحر Sea raven ، وطـائر مزرة البطـائح moor buzzard • ويمكن البحث عنه فى معاجم الحيوان تحت مصطلح Circus • وحول المنزلة أيضا حدثنا عن طيـور التفلق ( بكسر التـاء

وتسكين الغين وكسر اللام ) rail وهو طائر مائى قصير الجناحين طويل الساق ، وطيور الزقزاق Plover وتسمى أيضا قـلقـاط ويسميه العامة فى مصر أبو الروس ، وصادف طيور السمان كثيرا ، وهى الطيور التى تسمى بالعامية الشامية فرى ، وأن كان من الملاحظ أن هـذا المسمى الشامي بدأ يشيع فى العامية المصرية • وقد لفت نظره كثيرا ـ وانال أعجابه أيضا ـ طائر البشروس ( الفلامنجو Flamingo) • كما حدثنا عن طائر زمار الرمل Sand pipers ويسمى ايضا طيطوى ( بتشديد الياء ) وهو طائر طويل الساق والمنقار ، وفى قنا صادف البوم الصياح Screech owl ، ويسمى ايضـا البوم الأصـم والواحـدة منهـا البومة الصماء ، وبالعامية المصرية ( البومة الطرشة ) ، وقد التقى بها فى المعابد الجنائزية بالصعيد وثمة نوع من هذا البوم يسمى الهامة • كما حدثنا عن طيور أبو مجرفة Oveset or Scooper وهو طائر ريشه أبيض وأسود وساقاه طويلتان ، ومنقاره مقوس لأعلى ، ومن هنا سمى ( أبو مجرفة ) لتشابه منقاره مع المجرفة •

وقبل أن يودع الأمير مصر فى طريقه لفلسطين حدثنا عن صدى الكروان •

★ ★ ★

أما عن صيده من الحيوانات البرية ، فقد اندهش — هو نفسه — لكثرتها حتى فى المناطق المزروعة والآهلة بالسكان ، فقد اصطاد فى حدائق شبرا حيوانات ابن اوى Jackal ، والاسم العلمى لهذا الحيوان هو Canis aureus وهو من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم ، ووصف الأمير الذئب المصرى بالوسامة ، وقد اصطاد منه فى حدائق شبرا ، وفى كل مكان — سواء فى الصعيد أو الدلتا — قام فيه برحلة صيد ٠

وحدثنا عن ثعالب الصحراء والسحالى والنموس حول الفيوم ، كما اصطاد الأمير حيوان الوشق ( بفتح الواو والشين ) Lynex وتكتب أيضا Lynx بدون حرف ، وقال ان عيونه خضراء ، وقد التقى به حول بحيرة قارون ، وهو حيوان مفترس من جنس السنور ٠ وكان له تجربة فى صيد الأرانب البرية فى الفيوم ومنطقة السويس ، أما الضباع فقد كان شغوفا شغفا زائدا بصيدها وكأن بينه وبينها ثأرا ٠

**الحياة الحيوانية الطبيعية فى فلسطين وقت الرحلة :**

بعد أن زار الأمير مدينة القدس تفرغ للنزهة والصيد ، فحدثنا عن طيور الصرد ( بضم الصاد وتشديدها ) وعن طيور القمرية ( بضم القاف وتسكين الميم ) Turtle-dove والسمان (الفرى ) وعن العقاب النسارى Osprey على نهر الأردن وطيور الشرقرق roller ويسمى الواحد من هذه الطيور أيضا شقراق ( بكسر الشين وتسكين القاف ) وهو طائر أصغر من الحمام ، له الوان زاهية ، ومنه الأحمر الوردى ومنه الأزرق ومنه الأخضر ، وطيور الوروار ، وطيور الدراج ( بتشديد الراء وفتحها ) Frankolin وهى طيور تشبه الحجل ، وطيور التدرج ( بفتح التاء وتسكين الدال وضم الراء ) Pheasant ومن هذه الطيور ما هو فضى وما هو ذهبى وما هو مطوق ، بمعنى أن لون الريش حول رقبته يختلف عن لون الريش فى سائر جسمه ٠

أما عن الحيوانات البرية التى صادها حول مسيلات نهر الأردن فأهمها على الاطلاق الخنازير البرية التى كانت توجد هناك بأعداد كبيرة ٠ كما حدثنا عن حيوان الشيهم ( بتشديد الشين وفتحها — Porcupine وهو حيوان شائك من القوارض ويسمى أيضا النيص (بتشديد النون وفتحها ) وحيوان الأرماديللو Armadilo ويسمى أيضا ( المدرع ) وهو حيوان ثديبى ، لرأسه وجسمه دروع من الصفائح العظمية الصغيرة ، وهو يستطيع أن ينكمش داخل هذه الدروع على هيئة كرة ، ويسمى

بالتـسفير أيضـا ( دوبيرع ) وقام الأمير باصطياد بعض الأيا
التلال بين يافا والقدس . وهى حيوانات مجترة مختلفة الأذو
عن حيوان كسـار البندق nutcraker والأرانب الداكنة والثعـ
على نحو خاص ــ كالمهد به بحيوانات ابن آوى والضبا
لنا من خلال معاينته لما اصطاده أن ابن آوى فى فلسطين أد
اوى المصرى وأطول منه سيقانا ، وان كان ذيله اقصر من
المصرى .

★ ★ ★



والنوع الابيض من هذا الطائر يعرف أيضا باسم بلشون الغيط



وقد اشار الامير في رحلته للباشون الأرجواني ، والبلشون الاسود ٠



أبو منجل ويسمى أيضا المقدس ( بتشديد الدال وكسرها )



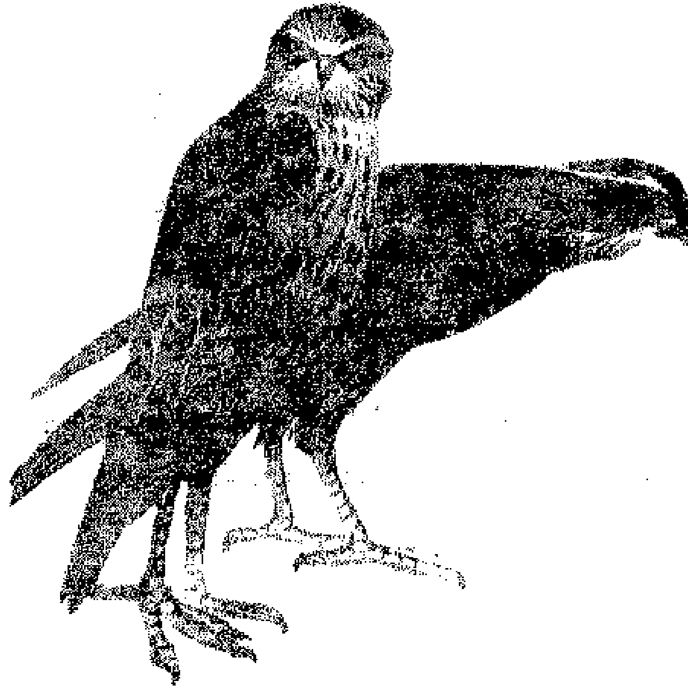
أبو ملعقـة



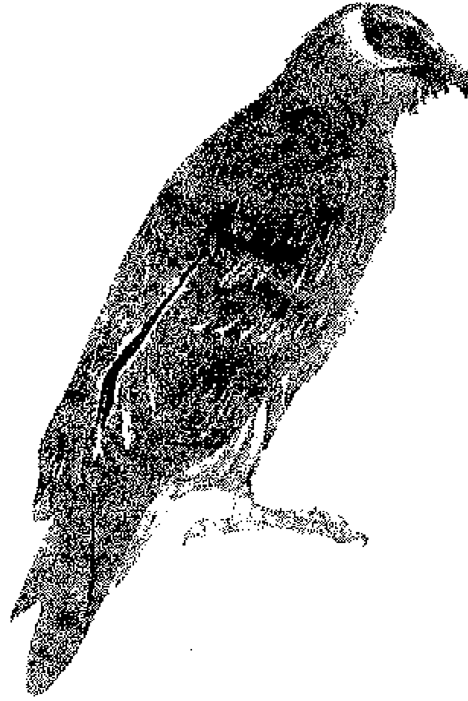
البشاروس ويسمى أيضا النحام ( بضم النون وتشديدها )
وجده حول بحيرة المنزلة وفى جزرها •



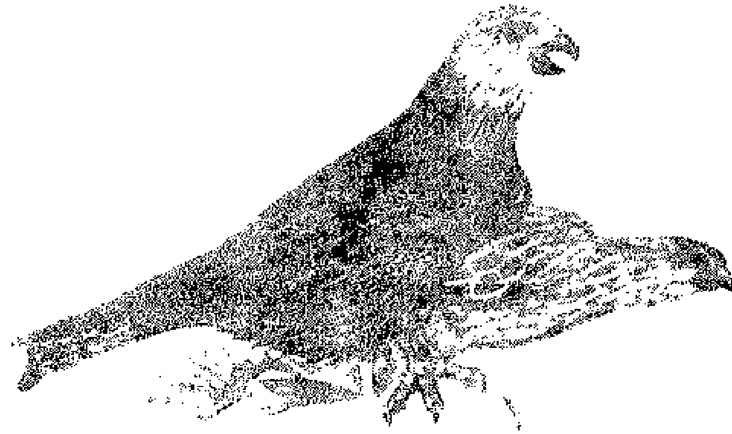
الغاق أو غراب البحر وجده الأمير ردولف بكثرة في جزر بحيرة المنزلة



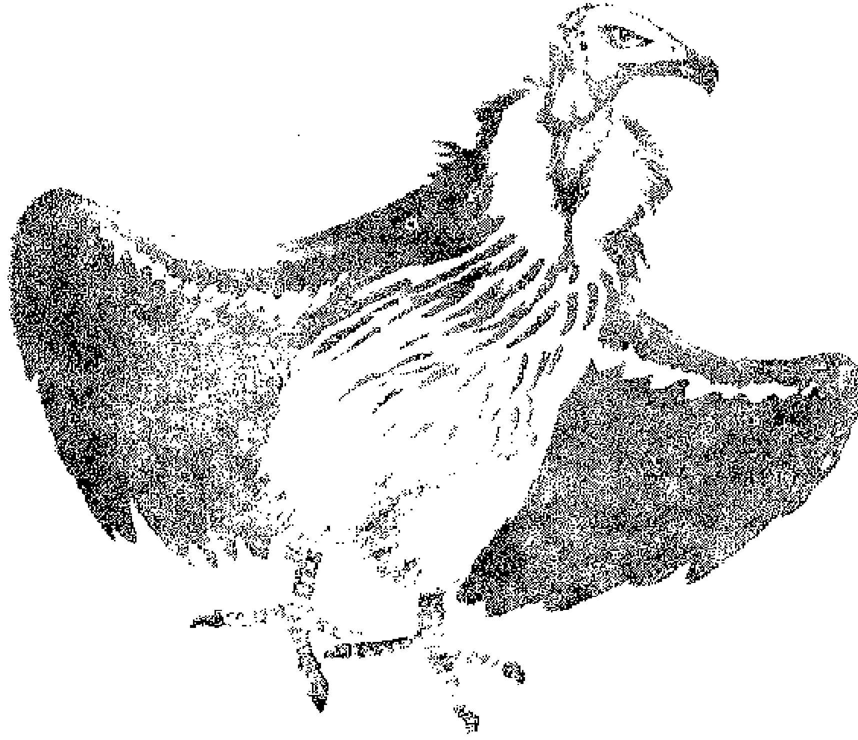
مرزة الوديان أو مرزة البطائح ـ طائر جارح
Moor buzzard شاهده الأمير فى جزر بحيرة المنزلة ٠



النسر أبو ذقن



الحداة ـ وكانت من الطيور الجارحة المنتشرة جدا فى مصر لكن أعدادها قلت الآن



النسر ابو اذن ( ابو ودان ) وقد اشار اليه ردولف بالنسر الاصلع



النسر الأسمر ويطلق عليه أحيانا العنقاء

**ماذا أضافت الرحلة لتاريخ عصر اسماعيل ؟**

حظى عهد الخديو اسماعيل باهتمام بالغ من الدارسين لأسباب عدة ، لعل أهمها رغبة الخديو فى نقل مظاهر الحضارة الأوربية الى مصر لتكون قطعة من أوربا ، واهتمامه بتدعيم استقلال مصر عن الدولة العثمانية ، وامتداد الادارة المصرية فى عهده لمساحات واسعة فى أفريقيا خاصة ، فقد رفع العلم المصرى على مملكة أونيورو المتاخمة لبحيرة ألبرت شرقا سنة ١٨٧٢ . وأعلن ملك أوغندة ولاءه لحكومة مصر وتم توسيع نطاق الادارة المصرية فى مديرية خط الاستواء بعد ذلك وضم كل منطقة البحيرات ، وضم زيلع وبربرة سنة ١٨٧٥ ، واعترف الانجليز بسيادة مصر فى الصومال . وكانت كل هذه المناطق تعد مديريات أو محافظات مصرية ... الخ .

لقد كان عصر اسماعيل - اذن - عصر توسع . كل هذا معروف مطروق ، لكن هذه الرحلة تضيف الى معارفنا التاريخية أبعادا طريفة ، فقد انتشرت فى مصر فى ذلك الوقت الطرق الصوفية ذات الطابع الجهادى ، حتى وان كان هذا الطابع مظهريا أو غير حقيقى . والطابع الجهادى يخالف تماما روح الطرق الصوفية فى مصر . وعلى أية حال فان الطابع الجهادى لهذه الطرق الصوفية فى مصر آنذاك لم يخرج عن كونه تغييرا فى تصميم رقصات الدراويش ( وهو ما يسمى حلقات الذكر ) على النحو التالى :

- بينما يدور الدرويش دورانا عنيفا حول نفسه يرفع احدى يديه الى أعلى باسطا كفه ، بينما يمد يده الأخرى للامام ، وقد قبض كفه بشدة ( كأنه يقبض على سيف ، وهو فى الحقيقة يقبض على الهواء ) ، وهذا التصميم الفنى للرقصة ( لحلقة الذكر ) يعنى أن الدرويش - بيده المقبوضة - يحارب الكفار ، وأنه فى مقابل ذلك يطلب عطايا الرحمن التى يتلقاها بيده المبسوطة ( يد مبسوطة لتلقى العطايا - ويد قابضة على سيف وهمى ) .

- عندما تأخذ الجلالة أحد الدراويش وتعتريه ( الدوخة ) نتيجة الدوران الشديد حول نفسه ، فانه ينطلق الى شوارع القاهرة وحواريها صائحا : الجهاد .. الجهاد ضد الكفار .. الموت للكفار .. وهكذا .

لقد وظفت الدولة المصرية اذن الطرق الصوفية لخدمة أغراضها . لاضفاء طابع جهادى على التوسع المصرى فى أفريقيا . لقد لعبت الطرق

فى مصر دور الوسيلة الاعلامية لصالح الدولة ، وهـو دور ـ على أيـة حال ـ لا يتناقض مع طبيعتها ·



وقد تعرضت القناطر الخيـرية لعملية ترميم واصـــلاح فى عهـد اسماعيل ، وقد زار الأمير ردولف هذه القناطر وردد ما كان يردده أعـداء مصر فى ذلك الوقت وهو أن سلبيات هذه القناطر أكثـر من ايجابياتها ، وانها مشروع غير اقتصادى لأن ما أنفق عليها يفوق فوائدها ·· الخ ، وقد أصبح معروفا أن القناطر الخيرية من أعظم المشروعات التى انشاها محمـــد على ·

القـدس الشريف :

سنتناول فى مقدمة الجـزء الثالث من هذه الرحلة بالدراسة المفصلة شيئا ما ـ ما تعرض له الأمير من نقـــد مرير لقصص اليهود المتعلقـــة بالأماكن المقدسة فى فلسطين ، وما قرره من أن الاسلام هو الأمين عـلى مقدسات القدس لأنه دين ـ على حد تعبيره ـ يضم بين دفتيه كل الأديان السابقة عليه بصورة نقية بعيدة عن الخرافة ·

اما الذى يعنينا الآن ، فهو ان الأمير كان يضع العهد القديم نصب عينيه وهو يجول فى فلسطين ، بل حتى وهو يجول فى مصر ، فقد كان مهتما بالبحث عن اسم فرعون موسى وعن مواضع الخروج ( خروج اليهود من مصر ) ، وكان مهتما بالآثار المحيطة بنهر الأردن وما يقال له قبر موسى عليه السلام ·· الخ · لقد كان ينظر للعهد القديم ككتاب تاريخ ، رغم انه اعتبر بكاء اليهود عند حائط المبكى نوعا من أنواع « التعصب والخرافة » ·

ويهمنا أن نقول ان النقد الموجه لروايات العهد القديم أكثر من أن يدخل تحت حصر ، لكننا نفضـــل هنا ـ لأسباب علميـــة ـ الرجوع لكتاب « نصوص الشرق الأدنى القديمة المتعلقة بالعهد القديم » الذى جمعـه ونشره جيمس بريتشارد ( عربه وعلق عليه د· عبد الحميد زايد · وراجعه محمد جمال الدين مختار ـ ونشرته هيئة الآثار المصرية ) ، فالحقائق الأساسية التى سيطالعها القارىء فى السطور التالية يمكن الوصول اليها فى مقدمة معرب هذا الكتاب الآنف ذكره · « لم يأت كتاب العهد القديم وحيا كما لم يكتب دفعة واحدة ·· وهو عبارة عن سجل تاريخى اختلف الناس فى أقسامه وعدد أسفاره » ولما كان عدد حروف اللغة العبرية اثنين

وعشرين حرفا ، فان عدد اسفار العهد القديم عددها اثنان وعشرون ، بينما يرى آخرون انها اربعة وعشرون سفرا ، ويميل فريق ثالث الى أن عدد الأسفار هو تسعة وثلاثون سفرا • وقد تطلب وضعه حوالى ألف عام •

واللغة العبرية ليست هى اللغة الأولى أو اللغة الأم للعهد القديم •• وقد فكر اليهود فى جمع الموجود من الأسفار المقدسة ســواء المحفوظ فى صدور الناس أو المدون •• ولا تتفق التــوراة السامرية التى ترجع للقرن الرابع قبل الميلاد مع الترجمة السبعينية للتوراة الا فى الثلث فقط •

وقد تمت الترجمة السبعينية أيام بطليموس الثــانى فيـلادولفوس ( ٢٨٥ ــ ٢٤٧ ق•م ) وترجع تسميتها بالترجمــة الســبعينية الى أن القائمين عليها كان عددهم اثنين وسبعين عالما ( ستة من كل سبط من أسباط بنى اسرائيل ٦ × ١٢ سبطا = ٧٢ ) ، وتمت هذه الترجمة فى الاسكندرية ، وهى ترجمة غير دقيقة ، ثم ظهرت ترجمات أخرى بعد ذلك ، وتطورت أسفار العهد القديم فى عصور مختلفة وتنقسم هذه الأسفار الى ثلاثة اقسام رئيسية هى : التوراة ( توراة ) والأنبياء ( نبيم ) والكتابات ( كتوبيم ) ، ولا توجد وحدة فى أسفاره التى امتد جمعها منذ ١١٠٠ ق•م• تقريبا حتى القرن الثانى قبل الميلاد تقريبا •

وفى القرن التاسع عشر أظهرت الآثار المكتشفة امكانية اعادة العهد القديم الى أصوله فى حضارات الشرق ، وظهرت دراسات تثبت اعتماد العهد القديم على العقائد البابلية ، وقد أشار الدكتور فؤاد حسنين (١) المتخصص فى الدراسات العبرية أن التوراة الحالية العبرية ليست هى صحف موسى عليه السلام ، لأن العبرية لم يعــرفها موسى عليــه السـلام ولا عرفها اليهود فى عهده ، فموسى عليه السلام ولد فى مصر وتسمى باسم مصرى وتعلم لغة المصريين الهيروغليفية وتكلم بها وكذلك كل اليهود الذين كانوا فى مصر ، واذا كانوا يتحدثون لغة أخرى غير الهيروغليفيــة فان هذه اللغة لابد أن تكون الآرامية وليس العبرية ، واللغة العبرية مقتبسة من الكنعانية التى هى الأم لكل من العبرية والفينيقية والموآبية ، فاللغة العبرية اذن لاحقة جدا لموت موسى عليه السلام ، فصحف موسى والتوراة لم تدون بالعبرية بل بالمصرية القديمة ، ويرجع الدكتور فؤاد حسنين أن التوراة الحقيقية وثيقة الصلة بالعقيدة المصرية التى دعا اليها أخناتون •

---

(١) فى كتاب التوراة الهيروغليفية ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، ص ٥٧ ــ ٥٩ •

وكل هذا التحليل لا ينفى عقائد المسلمين الراسخة فى أن التوراة من عند الله سبحانه وتعالى • ولكن أين هى ؟ فاعتبار العهد القديم مصدرا وحيدا للحقائق التاريخية القديمة فيه تجاوز خطير للمنهج العلمى السليم •

## النساء فى رحلة صاحب السمو :

مر الأمير ردولف مرورا عابرا على جزر البحر الأدرياتى والساحل اليونانى ، فابدى ملاحظات عابرة عن النساء ، وفى مصر لم تسترع النساء كثيرا انتباهه ، لكنه توقف أمام بعض الرقصات الشعبية ولم يكن رأيه فيها طيبا بأية حال ، ولما غادر مصر متوجها الى يافا فالقدس فبيت لحم نجده يتوقف كثيرا امام جمال نساء بيت لحم ، ولم يعفهن من التمعن فى مفاتنهن حتى وهن راكعات ساجدات باكيات فى الكنائس والأماكن المقدسة الأخرى •

ويقول عن الشابات فى الجزر اليونانية أن فيهن ذوات « وجوه جميلة صبوحة ، أما العجائز منهن ــ فيالهول منظرهن ، « اذ لا يطيق النظر اليهن الا أهل الجنوب الأوربى » ! •

يقول الأمير : « لم أر أبدا نساء أجمل من نساء بيت لحم • أهذا العدد الكبير من النساء الجميلات فى مدينة واحدة ؟! •• ان المرء لا يستطيع أن يلاحق بعينيه هنا كل النساء الجميلات • عاصفة من الجمال تتلوها عاصفة أخرى • انهن نماذج من العذراء مريم النبيلة • » (ص ٣٠٦ من النص الانجليزى ــ ص ٩٣ جـ ٣ الترجمة العربية ) • ولم يعف الرجل جميلات بيت لحم من نظراته المتغلغلة حتى وهن يصلين ويتعبدن • يقول وهو يراقبهن فى مصلى المهد : « وتزاحمت الجموع أمامنا على المواضع المقدسة تحت الأرض ، وركعت بعض نسوة بيت لحم الجميلات جمالا مدهشا ــ على الصخرة الجرداء • لقد كن متألقات تألقا غريبا فى ضوء المصابيح الباهت •• » •

وتقدمت احدى نساء بيت لحم بالتماس للأمير لم يحدثنا عن محتواه ، لكنه وصفها بأنها شابة جميلة ، وراح الرجل يتابعها بعينيه ــ كما قال هو ــ وهى مقبلة لتقديم الملتمس ، كما راح يتابعها بعينيه ، وقد استدارت ، ولم تكف عيناه عن ملاحقتها حتى اختفت من أمام ناظريه • لقد رأى فيها جمالا هادئا ، كما قال هو ــ كجمال العذراء مريم •

ولا نتوقع أن يتغلغل الأمير ردولف فى الحياة المصرية كما تغلغل الرحالة بيرتون مثلا ( صدرت ترجمة رحلته فى سلسلة الألف كتاب الثانى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ) • ذلك أن الأمير أتى لمصر فى موكب رسمى ، وكانت كل زياراته وتجولاته واضحة فى النور • لذا ، فرحلته كانت فى مجال وصف المعالم الجغرافية والأثرية واستدعاء المعلومات التاريخية ، أكثر مما هى مفيدة فى وصف نفسية الشعب وتوجهاته •

لقد ذكر ردولف على سبيل المثال أنه « لا توجد اشارة بل أدنى اشارة لوجود طبقة المومسات أو نساء المتعة بالاسكندرية ، تلك الطبقة التى نعرفها فى فينا أو بين •• وغالب المومسات فى مصر ـ كما قيل لى ـ أتين من النمسا •• » ويبدو أن الرجل الطيب صدق ذلك •

**الأزهر والتعليم الدينى فى رحلة الأمير ردولف :**

أشرنا الى أن الأمير أشار فى رحلته الى الأزهر الشريف باعتباره محملا لتفريخ التعصب فى العالم الاسلامى وليس مصر فحسب • ونحسب أن هذا الرأى من قبيل الفكرة الثابتة التى حملها الأمير معه ، ولم يكن ما رآه ليغير شيئا حتى لو كان مناقضا تماما لفكرته هذه • ولم يكن الأزهر الشريف فى حالة ازدهار فى الفترة التى زاره فيها ، فالمؤرخ عبد الرحمن الرافعى يحدثنا أنه : « لم يكن لعلماء الأزهر فى عهد اسماعيل شأن كبير فى تطور الأحوال العامة سياسية كانت أو اجتماعية ، فقد ضعفت مكانتهم عما كانوا عليه أيام الحملة الفرنسية وأوائل عصر محمد على » لكن الرافعى ـ على أية حال ـ يعود فيقول أنه « يلوح له أن الأزهر ومن اتصل به من العلماء والطلبة قد استردوا فى عهد أسماعيل شيئا من المكانة التى كانت لأسلافهم من قبل ، فقد نال بعضهم مكانة عالية ومنزلة سامية فى الهيئة الاجتماعية • »

ويمكن ارجاع مثل هذه الأفكار المتعصبة التى حملها الأمير وغيره ضد الأزهر الشريف الى ما عرف عن الأزهر من دور جهادى أثناء الحملة الفرنسية على مصر وتصدى الأزهر للدفاع عن رأى الجمهور باجبار السلطان العثمانى على تولية محمد على أمور مصر ، وقيام الأزهر بالتوعية الدينيـة •

ولا نتوقع ـ كما سبق أن ألمعنا ـ أن يصل الأمير ردولف لجوهر الأمور ، على نحو ما وصل رحالة خبير كرتشارد بيرتون الذى زار مصر

سنة ١٨٥٢ وأشار بصراحة ووضوح الى أن الأزهر الشريف والتعليم الجاد هما الخطر الحقيقى ـ على المستوى الشعبى ـ اللذان يتحتم علـى أى تدخل أجنبى فى مصر أن يواجههما ، أما قوى الدراويش او التنظيمات الصوفية فلا خطر منها ، أما الأمير ردولف فقد أخذ الأمور وفقا لظواهرها فاعتبر حلقات الذكر التى يقيمها الدراويش دليلا على تعصبهم وخطورتهم واحتمال قيامهم بحركات جهادية ٠ وحقيقة الأمر ان الأزهر وعلماء مصر بذلوا ـ ولا زالوا ـ جهودا مضنية لتنقية الحركة الصوفية فى مصر من كثير من الخرافات والأمور الخارجة عن الدين ٠

## كلمـــــة اخيـرة :

من الضرورى أن ننوه هنا الى عدة امور مهمـة :

١ ـ أن الأمير ردولف هو صاحب السمو الامبراطورى والملكى ، وانه لم يكن وليا للعهد ، وبالتالى ليس أرشيدوق من الناحية الرسمية ، ومع هذا فقد عرفت رحلاته برحلات الأرشيدوق ٠

٢ ـ كتب الأمير رحلتـه بأسـلوب انجليزى سلس لكننا لم نستطع الاستدلال على المقابل العربى لبعض القرى المصرية والفلسطينية ، فكتبناها بالحروف اللاتينية كما هى دون ايراد المقابل العربى ٠

٣ ـ مجمل أفكار الرحلة لا تصدم القارىء العربى ، ومع هذا فقد أورد الأمير بعض الافكار غير الصحيحة أو التى لا يرضى عنها القـارىء العربى فعلقنا عليها فى الصفحات نفسها ، وأفردنا جانبا للتعليقات المفصلة عن كل فصل بآخر الكتاب ٠

والله من وراء القصـد ٠٠٠٠

**د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ**

## الفصـــل الأول

**الاستعداد للرحلة ـ مغادرة فينا ـ السـفينة ميرامار ـ ميناء مـيرامار ـ كـورفو ـ زانطه ـ انطراد الروسي ـ حديث عن الساحل الألباني ـ حديث عن ساحل استيريا ، زيارة دير وكنيســة أورتوذكسية ـ وصف أهل الشرق الادنى ( يدخل فيهم اليونانيون ) ـ تعرض السـفينة لعاصفة ـ القمامة والرائحة النتنـة في زانطـة والســاحل الدلماشي ـ أهل زانطة والثرثرة عـلى المقـاهي ـ كاهن المعبـد يصـطاد الأرانب ـ جبـال كريت ـ سواحل مصر المقدسة ـ رسـوم الفنــان المـرافق للرحلة ـ تعليقات المترجم •**

اتخذت القرار للقيام برحلتي لبـلاد الشرق بسرعة • وعلى عجل تم الاعداد لها • فتصفحت تصفحا غير وئيد كتبا عن الرحلات لبلاد الشرق ، وقبل أن تبدأ الرحلة بأيام قلائل سـبقنا متاعنـا ، كما سبقنا المسئول عن الثياب ومعـه كل ما يلزمنا ، والخدم والبنادق (١) وقدر كبير من الـذخائر وعـدد من الـكلاب الى تريست Trieste ، حيث كان اليخت ميرامار فى انتظارنا ليكون رهن اشارتنا •

وفى التاسع من شهر فبراير تجمعت مجموعتنا المسافرة فى المحطة الجنوبية فى فينا Vienna (٢) فى مساء يـوم شتاء قارس البرودة فالجليد يغطى الطـرقات ، والسـحب

الكثيفة تحجب السماء • انه جو كئيب لكنه ملائم للابحار ، فجنسنا الاوربي البائس تعود ــ في غالب الاحيان ــ على تحمل هذا المناخ الغادر •

وكنت قد عدت من رحلة سريعة وطويلة للغرب الاوربي البعيد منذ يومين لأودع صديقا صدوقا لمثواه الاخير •

وبهذه الأفكار الحزينة خطوت لأركب حافلتي • لقد خيم البرد الشديد الذى نتحمله الان وحدنا ــ أملا بان نستمتع عما قريب بدفء الشرق المتوهج • وتحرك القطار نافثا دخانه ــ بعد أن أطلق صفيرا ــ من المحطة ، فودعنا ليل حالك السواد كالقار ، وجليد متساقط ورقائق ثلج غطت كل شيء ، وعواصف •

لقد تجمعت مجموعتنا الصغيرة المسافرة في عربة النوم بالقطار ، وكانت هذه المجموعة رغم قلة عددها تتكون من أشخاص محبين للرحلة والمغامرة هم عمي دوق تسكاني الأكبر وكونت فالدبرج Waldburg والقس أبوت ماير Abbot Mayer والماجور فون اشنباشر Von Eschenbacher والكونت جوزيف ( يوسف ) هويوس Hoyos ، والفنان بوسنجر Pausinger وأنا ، وكنا جميعا في طريقنا للحج (٣) لبلاد الشرق ، وقد صحبنا الكونت هانز فلتسيك Hans Wilczek الى ساحل البحر ومنه اتخذ طريقه الى ايطاليا •وسرعان ما انسل الواحد اثر الواحد من مجموعتنا لينعم بالراحة ، ولم يبق الاى وفلتسيك فرحنا نتجاذب أطراف الحديث حتى غلبنا النوم أخيرا بعد أن أوغل الليل •

لقد أيقظنا البرد الثلجي في الصباح الباكر والتصق بعضنا ببعضنا الآخر فقد كنا نرتعد • وقد أخبرنا الحارس أن الترمومتر يشير الى عشرين درجة برودة(؟)(٤) وأن رقائق الجليد التي تتخذ شكل سعف النخيل فوق النوافذ تؤكد

صحة ما يشير اليه الترمومتر • لكننا سننعم قريبا بنخيل أخرى متألقة فى صيف مصر الهادىء •

وشمخت أدلسبرج Adelsberg وسط الجليد الكثيف وشكلت آخر غابات للصنوبر منظرا جميلا من مناظر الشتاء ، ومكنتنا السماء الصافية من رؤية منظر على البعد للمنطلقة من كارست Karst الى جبال الألب • لقد كان الجليد فى كل مكان ، فحتى فى نابرسينا Nabresina كنا لازلنا نرى بقعا بيضاء ، الا أننا كلما توجهنا للجنوب توهج النور ، فغدت السماء أكثر زرقة وأشعة الشمس اكثر دفئا ــ وكان هذا الدفء وهذه الزرقة هما أول تحية نتلقاها من الجنوب الشمسى • وامتد البحر أمام نواظرنا رائعا وهادئا وناعما كصفحة بركة جبلية صقيلة كمرآة • لقد كان البحر الأدرياتي Adriatic أزرق دافئا رائعا ، ولم يكن كالمحيط الرمادى الكئيب الذى كنت قد رأيته مؤخرا(٥) • وقد كان اثنان من رفاق رحلتى يريان هذا الجمال الطبيعى الرائع للبحر الأدرياتي للمرة الأولى فى حياتهما ، فراحا يحملقان فى المناظر بدهشة واعجاب •

لقد توقفنا عند محطة ميرامار Miramar ثم اتخذنا سبيلنا الى ميناء صغير • لقد كان منظر القلعة المقامة بموقع رشيق فوق صخور تبرز من المياه ذات الأمواج الصاخبة وبين خضرة الجنوب التى لا تنضب ــ أكثر المناظر جدارة بأن تكون موضوعا للوحة فنان • وبالقرب من هذه القلعة رست سفينتنا التى تحمل الاسم نفسه (ميرامار) ، ولما نظرت لميناء ميرامار طافت الذكريات الجميلة بخاطرى كأنها حلم ، لقد رأيتها وكأنما ألتقى بصديق قديم فقد سبق لى أن قمت برحلتين اليها ( الى ميرامار ) •

وانتظر قارب عند نهاية السلم وحملنا سريعا للسفينة ، وعند الممر وقف القائد روديجر Rodiger قبطان الانقاذ

البحرى وصعدنا لظهر السفينة ، بينما يعزف السلام النمساوى المجرى واستعرضنا مجموعة العاملين على ظهر السفينة الذين أصبحوا لاستقبالنا • وكان المسئولون ( الضباط ) الاخرون هم الملازمين ، كونت خورنسكى Chroinsky ( الذى سبق أن قمت بصحبته برحلتي الى اسبانيا ) بالاضافة الى هامن Hahn وساكس Sacks ورزنكيك Resnicek
وقد صحبنا الدكتور هيرش Hirsch كطبيب للرحلة ، وكنت قد عرفت الدكتور هيرش هذا خلال رحلة سابقة الى كورفو Corfu (٦) •

لقد ألقيت نظرة عجلى على السفينة جعلتنى أكن اعجابا لها ، وارتبطت كبائنها وجناحى الخاص ، وكل موضع بها ، فى ذهنى بكثير من الذكريات السعيدة •

وقد صحبنا فيلتسيك الى السفينة ، وكان قد قضى معى منذ عامين أياما طيبة ، وتناول معنا طعام الغداء ثم تركنا عائدا للشاطىء ، وبعد دقائق قليلة كان يلوح لنا بتحية الوداع من شرفة القلعة •

وبقينا جميعا فوق سطح السفينة نمتع البصر بالمنظر الجميل ، فقد كان ضوء الشمس يغمر قلعة دينو Duino وميرامار ومرتفعات كارست Karst شديدة التحدر ومدينة تريست ذات الموقع الجميل ، وبدت هذه المناظر أول صورة باعثة على البهجة فى رحلتنا هذه • ومررنا بالقرب من قطع الأسطول النمساوى والطراد الروسى أسكولت Ascolt .
وكانت السفن الحربية حتى وهى تحيى تبدو مستعدة للقتال (٧) ، وانسابت من سفينة الأدميرال النمساوية ألحان نشيدنا الوطنى •

ولما اقتربنا من الطراد الروسى أرسلنا بتحية وقور — لكنها جميلة « ترنيمة القيصر Hymn to the Szar » •

وسرعان ما بدأت تريست تتلاشى أمام نواظرنا فقـــد أبحرت سفينتنا جنوبا على طول ساحل استيريا Isterian Coast (٨) وبقينا لبضع ساعات فوق سطح السـفينة • وكانت درجة الحرارة ــ حقيقة ــ منخفضة ، لكن الجو كان بالنسبة لنا ــ مبهجا بعد أن تركنا شتاء وسط أوروبا • وقد شغلنا أنفسنا فى فترة ما بعد الظهر بترتيب الحقائب ، وأفضى كل منـــا بما فى صدره للآخر وتآلفنا تآلفا اجتماعيا لطيفا بعـــد أن تركنا سطح السفينه ، وتناولنا عشاءنا فى وقت متأخر مما جعل فترة المساء تنقضى دون ملل ، فأدركنا وقت النـــوم سريعا •

وقد ادخر لنا اليوم الحادى عشر من شهر فبراير سماء ذات سحب داكنة ، ورياحا وبحرا هائجا وبرودة ، فاصـــبح معظم المسافرين مرضى ، وقد ترك كل هذا اثرا واضحا على كثير من المسافرين فتعكر مزاجهم فجلس الجمع الجميع ــ مرضى واصحاء ــ على ســطح الســفينة وراحـــوا يراقبون الامواج الهائجة لبحر مخادع لعوب • وفى حـــوالى الســـاعة العاشرة صباحا تبدى لنا جرف ليسا شديد الانحدار ، ونظر كل نمساوى نظرة مشوبة بالعاطفـــة والشـــجن لتلك الجزيرة التى تعد شاهدا عـــلى الأعمـــال البطوليـــة النبيلة لبحارتنا •

وفيما يتعلق بمنظر ليسا Lissa فلا شىء فيه يجذب الانتباه • انها جزيرة قاحلة ذات جروف شديدة الانحـــدار وتلال متشابهة لا تباين بينها ، وليس فيها ما يحث الفنـــان المبدع على الابداع •

وعلا موج البحر بعد الظهر ، وأبرقت السماء وأرعدت مساء ومضى اليوم رتيبا فقد منعتنا حركة السفينة واهتزازها من قطع الوقت بالقراءة أو الكتابة ، كما كان مســـارها فى عرض البحر بعيدا عن الساحل ، ومضى الليل أكثر رتابة ،

ولم يكن امام المصابين بدوار البحر من حل سوى البقاء فى أماكنهم بينما تمضى الساعات فاترة مملة ، واهدانا اليوم الثانى عشر من شهر فبراير عند الشروق بحرا اكثر هدوءا. ولما اسرعنا الى سطح السفينه حيتنا ــ بمنظرها ــ قمم الجبال الألبانية (٩) التى كستها ثلوج كثيرة •

ولجبال ألبانيا جاذبية خاصة للمسافر ، فمن السفينة تراها تشكل طبقات كالشرفات وتجذب البصر بوديانها الصخرية الجميلة ، وتثير جروفها العادة التى تهبط شامخة حتى البحر اعجاب الرائى •

وبالنسبة لى فان جبال الجنوب كانت أكثر جاذبية بكثير من جبال الألب فى وسط أوربا ، فجبال الجنوب بتكويناتها ، وما يحيط بها من ضوء ودفء تشكل مع زرقة السماء العميقة وخضرة الجنوب منظرا خلابا ، يجذبنى أكثر من غابات الصنوبر ذات المنظر النمطى التى تظلها سماء مظلمة كئيبة صبغها الرصاص بلونه •

ولا يرى المرء على الساحل الألبانى الا قليلا من المدن الفرادى ، اذ يلمح هنا وهناك منازل مسطحة الأسقف مطلية بألوان فاتحة تشكل قرية أقيمت على مدرجات فوق المنحدرات والأماكن غير المنحدرة بين أشجار السرو (١٠) العابسة وأشجار الزيتون الخضراء التى اعترى خضرتها لون رمادى •

وقبل الظهر ظهرت لنا جزيرة كورفو Corfu اليونانية الجميلة والى الغرب منها جزر مرليرا Merlera (١١) وجزر فانو Fano ، وهى جزر صخرية صغيرة ، والممر بين جزيرة كورفو والبر من أجمل الممرات فى العالم بلا شك • والى الشرق تمتد الجبال الألبانية حول حوض بوترينو Butrino وواديه ، وثمة بحيرة جميلة بين الجبال فى وسط وادى بوترينو ، ويحيط بها (أى بهذه البحيرة) غابات

ممتدة من البلوط ومستنقعات ضخمة ، وتشكل هذه الغابات وتلك المستنقعات تناقضا حادا مع الجبال الجيرية الجرداء التي يرى المرء قممها الشامخة في خلفية الصورة على البعد ·

والى الغرب يرى المرء ناحية اليمين الجزيرة الخضراء بتلالها ذوات التكوينات الجميلة وجبلها الشامخ دكا Decca وأشجار البلوط والزيتون ، وأشجار السرو الكثيرة وأشجار الفاكهة المزهرة ، وتتناثر في كل مكان في الجزيرة المنازل البيض الباهرة والقرى · حقيقة ، ياله من تناقض ، فاذا نظرنا للشمال وجدنا البر الألباني غير المزروع والذى يسكنه جبليون محبون للقتال ، بينما الى اليمين تقبع كورفو المزدهرة التي حولها اليونانيون المحبون للتجارة والمتسمون بالمرونة الى حديقة غناء ·

وعبرنا خليج ابسا Ipsa (١٢) ورأينا قلعتين ومدينة كورفو ذات الموقع الجيد على قنة الجبل الداخلة في البحر وفى موقع متوسط على هذه القنة ·

وكلما رأيت كورفو استولى هومر (١٣) على فكرى طوال فترة مرورى بين هذه الجزر الأيونية (١٤) ، وفى أيام صباى عندما كنت أقرأ الأوديسة (١٥) كنت أتخيل هذه الجزر خضراء يغمرها نور أزرق تحت سماء أشد زرقة ، وقد غمرتها أشعة الشمس الضاحكة فأضفت عليها لونا ذهبيا ·

وتفاصيل المنظر ممثلة فى الأشجار المنتشرة فوق الصخور ، وقد تسلق فوقها اللبلاب فبدا كضفائر لها ، والشجيرات المزهرة والينابيع الرقراقة ، كل أولئك يذكر المرء بمناظر الباليه السحرية ، ويدعونى الى أن أطلب الصفح ان شبهتها ــ أى هذه المناظر ــ تشبيها دنيويا ، فغالبا ما يتوقع المرء أن يرى ديانا (١٦) وقد طوقت خصرها ولوحت برمحها الذهبى وهى خارجة من الدغل · لكنه كان

علينا أن نعود لأرض الواقع ، فقد سارت السفينة ميرامار بالقرب من ساحل المدينه حيث كان يتحتم علينا التوقف لبضع ساعات للتزود بالفحم ، وكورفو التى اعتادت أن تكون هادئة ممعنه فى الهدوء ، بدت الآن وكأنها تلبس لبوس الحرب ، ففى جزيرة فيدو Vido المواجهة لكورفو اقيم معسكر ، وامتلأت الجزيرة الصغيرة بحشود العساكر ذوى السترات الزرقاء • وكانت بعض السرايا تطلق النيران على الأهداف ، وراحت قوارب عديدة تنقل المساكر الى احدى البواخر ، وكما علمنا ــ بعد ذلك ــ فان احدى الكتائب كانت تعبأ فى الجزيرة لارسالها فى هذا المساء لليونان(١٧) ، لقد كان الهيلينيون يحلمون حلم البطولة ولم يكن أهل كورفو الطيبون أقل استثارة ، فقد ظنوا أن أيام ليونيداز (١٨) Leonidas سوف تبزغ من جديد •

وبينما كنا فى المرسى ، ظهر الدكتور نائبا عن القنصل الذى كان يعانى من وعكة صحية وكذلك ظهر خادم القنصلية Valet de place الذى كنت أعرفه فى ظروف سابقة ، وهو رجل ضئيل بشع المنظر ، ومن سوء الحظ أن هذا البشع كان من سلالة الاغريق ذوى الوسامة •

وقد فجع معظم رفاقى الذين لم يزوروا الجزيرة من قبل بالأخبار التى أفادت أن مرض الجدرى سائد فى المدينة • لذا ، فقد كان ممنوعا تماما أن ننزل للبر ، فقضينا فترة ما بعد الظهيرة فى نزهة فى زورق ملحق بالسفينة ، ومررنا بالقرب من المدينة ، وكانت المساكن القديمة المتزاحمة ، مقامة على مدرجات ، درجة تعلو درجة ، وكانت جدرانها بيضاء متألقة ونوافذها خضراء وأسقفها مستوية ، وكان طابعها العام يذكر المرء بايطاليا ومع هذا فكان ثمة طابع اغريقى معين مرتبط بكل ملمح من ملامحها ، ويزيد من قوة هذا الطابع الاغريقى ويوضحه تلك القباب المستديرة التى تعلو الكنائس الأورثوذكسية •

ولما مررنا بالسور الصخرى للقلعة الغاطس عموديا فى البحر سارت سفينتنا على طول الجانب الجنوبى لقنه الجبل الخارجيه منه والداخلة فى البحر، فرايناها قد عطتها الحدائق الغناء ! والفيلات الرائعات لاهالى كورفو الاغنياء ، ورأينا المقـر الريفى الملكى ذا المـوقع الجميـل والبنـديكونيسى Pondikonisi وضاحية كاستدرادس Kastrades ، والى الأدنى منه — على الساحل بين غابات أشجار الآس العطرية — تقبع بقايا ( خرائب ) معبد اسكولابيوس Aesculapius (١٩) القديم ، وواصلت سفينتنا الابحار الى خليج كارداكيـو Karadakio الذى يموق مدخله وجود جزيرتين صغيرتين ، وفى المقدمة صخرة ضخمة تغطيها أشجار البرتقال والسفرجل والسرو ، وضريـح اغـريقى قديم ومنزل لراهبين تابعين لمذهب القديس بازل Basil وتسمى هذه المنطقة بونديكونيس Pondikonis ، وكانت فى أصلها سفينة أوديسيوس Odisseus (٢٠) ثم سخطها بوسيدون Poseidon (٢١) فجعلها حجرا :

**لكن صانع الزلزال اقترب منها ،**
**وصفعها بيده المفلطحة صفعة حاسمة ،**
**وسخط السفينة حجرا ،**
**وغرسها هناك فى هذه البقعة ،**
**لتكون شـاهدا ،**
**على أن الخير قد ولى !**

لقد تذكرت هذه الأبيات الشعرية وغرقت فى أفكار بعضها عن أيام الكفاح ودراسة الألعاب الرياضية ، وبعضها عن العالم السحرى للاغريق القدماء ، وخطونا فوق الجزيرة وتسلقنا جانبها .

وقد حيى راهبان الغرباء القــادمين ، وكان الراهبان يلبســـان عبـــاءتين زرقاوين مهترئتين ، وكانا حافيين . وشعرهما طويل ، ولحيتاهما مهملتان غير مرجلتين ·

وكانت الكنيسة عــلى الطراز الأورتوذكسي الحقيقي ، فهي مقسمة الى قسمين يفصــل بينهما حاجز مذهب ببدح ، وعلق على جدرانها صور مختلفة لقديسين وزخارف مذهبــة وبعض الكتابات الاغريقية ، وأمام الكنيسة أشجار فاكهــة مزهرة تبهج العيون القادمة من أرض الشتاء في الشمال · والمنظر من الجزيرة في اتجاه كورفو والبحر منظر جــذاب فاتن ، وموطن مناسب للنساك الحالمين ·

وعلى أية حال ، فقد كان يعوز هؤلاء الرهبان البؤســاء النظرة المتأملة ، كما كان يعوزهم روح الورع ، وانما كانوا في حالة ذهول كامل ، وربما كان هذا لرتابة الحيــاة التي يحيونها · وكان الراهب الأكثر شبابا عاشقا للقطط ، وكان معه رهبان آخرون يبدون وكأنهم يكادون يموتون جوعا . وكانوا يموءون بشــكل يدعــو للشــفقة والرثاء ، وكانوا يتبعون خطى هذا الراهب الأكثر شبابا · وكان في الجزيرة المواجهة مبنى له برج يقطنه نساك معتزلون · وبعــد زيارة قصيرة تحولنا الى مجموعة صيد فتجولنا بقواربنا في خليج كارداكيو Kardakio الضحل ·

وتبعثر جمع طيــور البلشون (٢٢) ( مالك الحــزين ) والغاق (٢٣) والغواص (٢٤) والبط والنورس (٢٥) عند محاولتنا الاقتراب ·

واليونانيون ــ مثلهم في ذلك مثل الايطاليين ــ يقتلون كل شيء ويبددونه ، لذا فرياضة الصيد في هــذه المنــاطق ليست متعة أكيدة · وقد نجحت ــ بعد محاولات عديدة ــ في اسقاط أحد طيور الغاق ، وابتهاجا بهذا وجهنا وجوهنا صوب الوطن (٢٦) ·

ولقد كان فى رؤيتنا لسهل بينيزا Benizza الأخضر الجميل ، وجبل هوجيوى دكا Hogioi Decca ذى القمة الشامخة — خير عزاء لنا عن فشلنا فى الصيد ، وسرعان ما عدنا الى سفينتنا ميرامار • لقد بدأ الليل يرخى سدوله ، واصبحت البرودة شديدة ، وبعد العشاء كانت فى انتظارنا ليلة كئيبة بعد هذا النهار الهادىء •

واستيقظت مبكرا صباح الثالث عشر لأتحقق — بعد أن أصابنى غثيان غير قليل — من أن كل شىء يدور حولى ، فالمناضد والمقاعد والأسرة ، وكل شىء حولى كان يرقص ، فالسفينة كانت تدور وتهتز بشدة ، وتصر صريرا مفزعا بفعل الأمواج الصاخبة •

وألقيت نظرة عجلى على العاصفة العنيفة ، لقد كانت الأمواج ترتفع وكأنها جبال ويتحطم بعضها فوق بعض ، ثم تصير زبدا بلوريا • وربما كانت العواصف البحرية هى أشد المناظر التى تقدمها الطبيعة هولا خاصة اذا عاون البرق والظلال والسحاب فى رسم الصورة • لقد كانت السحب آنئذ تغطى السماء وراح ضوء البرق يخطف البصر بين الفينة والأخرى •

لقد كنا بعيدا عن جزيرة سيفالونيا Cephalonia التى كانت جبالها الشاهقة تعلو السحاب، وكان الجبل الأوسط — مونت نيرو Monte Nero — هو الأجمل والأكثر شموخا ، وكان الجليد الأبيض يكسو قمته • انه جبل اينوز القديم The ancient Ainos •

واعترانا الخوف من أن يغدو الجو أسوأ مما هو عليه ، فقد كانت المنحدرات الصخرية متجهمة عابسة ، وكانت الظلال رمادية غير ودودة •

وشقت سفينتنا الجسورة طريقها بين الامواج سوقا حثيثا لكنه بطيء ، وفى منتصف النهار مرت على طول الحافة الغربية لجزيرة زانطة Zante (٢٧) ذات الجبال • ان منظرها في حاجة لريشة فنان• ووصلنا الى طرف الجزيرة الجنوبي •

وازدادت قسوة العاصفة فقرر القبطان ان يعود بسفينته في قناة زانطه ( الممر البحرى بينها وبين البر ) باعتبارها ملجأ آمنا وهكذا عدنا المهمرى بدلا من ان نقطع - في البحر - مسافة اطول • لقد وصلنا ببطء لطرف الجزيرة الجنوبي ثم عدنا في القناة ( الممر البحرى ) الواقع بين الجزيرة والبر الرئيسى المواجه لها • وسرعان ما قدمت لنا الجزيرة الحماية الكافية من الرياح الغربية العاتية • لقد كان البحر في هذا الممر هادئا ، وبعد هذه المعركة الحامية مع الموج الصاخب انزلقت سفينتنا ميرامار الى المدينة ( ميناء زانطة ) •

لقد أصبح فى امكاننا الآن أن نلقى - بسرور - نظرة على المشهد الجميل ، فالى الشرق ، وراء الساحل المستوى - تقع أمام نواظرنا سلسلة الجبال اليونانية كلها • انها جبال البلوبونيز Peloponnosus ، بتراس Patras وآخيا Achaia ، واليس Elis ، وقد غطت الثلوج قممها جميعا (٢٨) • والى الجنوب يقع سيفالونيا أجرد مكشوفا Cephalonia (٢٩)، أما زانطة فالى الغرب منا ، وكانت هذه الجزيرة الجميلة - كغيرها من الجزر - مزدانة بجبال صخرية ذوات تكوينات جميلة ، وان كانت سهولها خصبة ملأى بالبساتين ، وتلالها تجللها الخضرة • أما جزيرة كورفو Corfu فأكثر بهجة ، تعج بالزروع وتهفو النفس للاقامة بها أكثر مما تهفو للاقامة بغيرها ، الا أن زانطة هى « وردة الشرق » كما يقول الايطاليون •

لقد كانت مدينة زانطة تمتد معانقة الخليج بمنازلها البيض ذوات الأسقف المسطحة وكنائسها الكثيرة ، وأبراجها

تقف شامخة بجوارها ، والتل بقلعته الصغيرة ، وكانت كلها تفترش بساطا أخضر سندسيا • انه منظر جميل ! •

لقد رست سفينتنا حالا فى مواجهة المدينــة ( زانتة ) وكانت سفن أخرى عديدة قد فعلت ما فعلناه فلجات للميناء هروبا من العاصفة • لقد نزلنــا للشــاطىء بعد ان زرنا الطبيب • ولم تخل زيارتنا لزانطة من متعة فلها شخصيتها الخاصة بها ، فنمة بقايا من ازدهار غابر ، اما الان فشوارعها بغير استثناء ضيقة جدا ، وكثير منها يصعد لها المرء بدرجات ( سلالم ) ولا يمكن ان يمر بها الانسان الا سائرا على قدميه (لا تسمح بمرور الراكبين) ، والخنازير تتمرغ فى الساحات الرئيسية ( الميادين ) ، وتعج المدينة بروائح نتنه لا تطاق • وكثير من منــازلها ليس بهــا نوافذ زجاجيـــة فليس ثمــة الا مغاليق تتأرجح فى الهواء ، ولا حلية أخرى ، وان كانت كثير من هذه المساكن ذوات طـرز معمــارية قديمة وجميلة تذكرنا بالقصور الايطالية ، أما الكنائس فزينة المدينة ، بل هى الملمح الأساسى الجميــل بهــا • انها أماكن العبــادة اليونانية ، التى تتبع المذهب الأورثوذكسى ومن الغرابة أن تكون أبراج أجراسها على نسق أبراج كنائس القديس مرقص Mark's ويلاحظ أن كهانها ذوو ثياب رثة • وكان هذا اليوم هو يوم الاحتفال بذكرى أحد القديسين اليــونانيين ، وراح المؤمنون يقبلون الأوعيــة التى تحفظ فيهــا الذخائر الدينية وكان شكل هذه الأوعية فظا خاليا من الذوق • لقد حدث هذا فى الكنيسة الكبرى •

ان التجوال فى المدينة (زانطة) يعطى انطباعا مشوقا• فاحدى الحقائق التى يكتشفها المتجول هى هذا الشبه الصارخ بين المدن من الداخل فى ثلاث ممالك أوربية جنوبية •

ففى زانطة يمكنك أن تتصور نفسك فى مدينة ايطالية أو أسبانية خربة ، حيث يمكن رؤية كل جوانب الحياة فى الطرقات • فأمام المقاهى المــديدة يجلس الرجال بقبعاتهم

ذوات الحواف العريضه وقد لموا الشيلان من قماش مربع نفشه حول اكتافهم ، وقد لبسوا ثيابا باليه ، وراحوا يتارجحون بكسل على مقاعد قواعدها من قش وللواحد منها ثلاث ارجل ، بينما فنجان القهوة موضوع امام الواحد منهم على كرسي أخر وقد أمسك كل واحد بسيجار · تارجح كسول وفنجان قهوة وسيجار ، وراحوا يثرثرون ويضحكون ويغمزون · ان حياة الناس وعاداتهم هنا متشابهة الشبه كله مع حياة الناس وعاداتهم في المدن الايطالية والاسبانية ، فهنا تجد القهوة والسجائر التركية والاعلانات اليونانية والكهنة بقبعاتهم المستديرة العالية ، وهناك تجد الشيكولاتة والسيجار الهافاني ( من هافانا ) ، ورجال الدين الكاثوليك بقبعاتهم ذوات الزوايا الثلاث ــ لا بأس من هذا الاختلاف ، فحقيقة الأمر أن الناس هنا وهناك متشابهون في عاداتهم وأساليب حياتهم · ويمكنك أن ترى وجوها جميلة صبوحة بين الشابات . أما العجائز من النساء فيالهول منظرهن ، اذ لا يقدر على رؤيتهن الا أهل الجنوب الأوربي ·

لقد صعدنا الى تل القلعة بعد أن مررنا بطرقات مختلفة وبمنازل بائسة ونحن نركب عربة ( دروسكية ) لا تليق الا بمدينة ألمانية · لقد كان الطريق متعرجا منحدرا بشدة كما كان محفوفا عن أيامننا وشمائلنا بسياج من نبات الصبار وأشجار الفاكهة وبعض النخيل هنا وهناك ·

ولا يستطيع أحد الوصول الى القمة فالطريق ينتهي فجأة وتعوقه بعض أكوام من الحجارة · فكان يتحتم علينا أن نكمل ما بقي من الطريق سيرا على الأقدام ·

لقد كان التل غاصا بالجنود ، فهنا أيضا ، توجد كتيبة سبق استدعاؤها ، وقد شرح لنا القائد ــ وهو رجل مثقفه عاش في باريس ــ بفرنسية سوية كل شيء ، فالقلعة مهدمة، لذا فقد جعلوا الجنود في حظائر مدرعة وفي الأكواخ ·

لقد كان المنظر من القلعة يسترعى النظر ، فالى الشرق – عبر القناة ( الفاصل المائى ) يوجد الساحل اليونانى ، والى الادنى – عند اقدامنا – توجد المدينة ، وعلى طول الجانب الجنوبى للتل توجد حدائق زاهرة • وعند المنحدر الغربى للتل توجد تربة طفلية وتكوينات طميية صفراء ذكرتنى بشدة بجبال مورسيا Murcia في اسبانيا • وتمتد على طول الساحل الشرقي للجزيرة سلسلة من التلال المكسوة بالاشجار بينما تلال الساحل الغربى جرداء قاحلة ، وبين هاتين السلسلتين سهل عريض منخفض ، ويفصل هذا كله عن طرف الجزيرة الشمالى شريط ضيق مستنقعى يبدأ بالقرب من المدينة ، أما طرف الجزيرة الجنوبى فقد زانه جبل سكوبو Mount Shopo وهو كتلة صخرية مستقلة منفصلة عن بقية السلسلة كلها •

وبدا أننا غير قادرين على اشباع رغبتنا بالتمعن في الصورة الحية الرائعة الكائنة أمامنا ، فتباين الجبال والتلال التى تكسوها الخضرة ومدينة زانطة نفسها ومياه الفاصل المائى ( القناة ) ذى الزرقة الهادئة ، والبحر العاصف فيما وراء البرازخ ، كل ذلك شكل أمامنا خليطا متشابكا مؤثرا جدا بحيث يصعب التأمل فى أى عنصر من عناصر المشهد على حدة • وبدا المنظر أكثر جلالا عندما تجمعت السحب الداكنة الرعدية فوق الجبال • واشتدت الرياح ولمع البرق ودوى الرعد وهطلت السماء بغزارة ، فجعلنا كل ذلك نعود سراعا الى ميرامار •

وفى صباح اليوم التالى لم يكن الموج مناسبا للابحار فقرر القبطان أن نقضى النهار – على الأقل – فى زانطة • فقررنا أن نصعد جبل سكوبو • ومن رصيف الميناء استقللنا عربة تجرها خيول صغير حجمها جدا ، فسارت بنا فى عدد من الشوارع وتجاوزنا آخر منازل المدينة وسرنا على طول الساحل – وسرعان ما انتهى الطريق الذى يمكن للعربة أن

تسير فيه فسرنا على الاقدام بين حقول ومغارس بين أشجار الزيتون وعبر ممرات مائية جافة حتى وصلنا لسفح الجبل • وقسمنا فريق التسلق الى قسمين • وقد قفزت متجاوزا أحد المساقط التي يقطنها بشر (٤٦) ثم صعدت منحدرا شديدا تنمو عليه شجيرات كثيفة ، ومازلت أصعد حتى وجدت نفسي على بعض الالواح الحجرية وأكوام الدبش •

لقد كان تسلق الجبل شاقا ولا يبعث على الارتياح ، فقد كانت الشمس تسفعنا بضراوة وكنا قد ارهقنا انفسنا — دون مبرر — بحمل بنادقنا ، فقد كان صيد ذوات الأربع امرا غير قائم أما الطيور فلم تكن كثيرة هنا خلا بعض طيور أوربا الوسطى التي لجأت الى هنا طلبا للدفء في الشتاء •

وفوق قمة الجبل يوجد معبد يوناني صغير بسيط وليس فيه ما يثير والى جواره مسكن الكاهن وخادمه ، وكلاهما — المعبد والمسكن — يتسمان بالقذارة والاهمال ويكادان يسقطان •

وبالقرب منهما مخروط صخرى ذو تكوين مميز، ويبدو هذا المخروط الصخرى على البعد جديرا بالرؤية ، فقد استرعى انتباهنا عندما رأيناه ونحن في البحر في اليوم السابق •

وكان علينا أن نتسلق هذا المخروط الصخرى باعتباره أعلى نقطة فوق الجبل فزحفنا بشق الأنفس حتى وصلنا للقمة ووضعنا هناك علما مكونا من منديل جيب وعصا •

لقد كان المنظر — على البعد — جميلا جدا ، لكننا لم نمكث طويلا لنستمتع به ، لأن الاعصار البحرى أصابنا بزخات مطر شديدة • ودعانا القس لبيته لتناول جرعة نبيذ • وكان الرجل (القس) تبدو عليه سيماء الوقار بلحيته الطويلة وشعره المنساب كشلال ، وقدم لنا بطريقة ودودة

بعض الجبن الردىء جدا المصنوع من حليب الماعز وخبزا وبعضا من النبيذ الجيد جدا مما تنتجه المنطقة ، لكنه شديد المفعول مما ذكرنى بجرعات النبيذ الشائعة فى اسبانيا • وكانت الغرفة التى استقبلنا فيها تشبه تماما الفوندا .... الاسبانية الصغيرة وقد غطيت أرضيتها بحصر مهترئة ، أما المقاعد فمكسورة ، والجدران عارية ، وهواؤها ثقيل كئيب رطب • وتؤكد صورة العذراء المسودة على الجدار الوطنية اليونانية •

**Ablackened Virgin on the Wall Vouched for the Greek nationality**

وبعد أن تناولنا وجبتنا البسيطة استأذنا القس الكريم وهبطنا الجبل • وتجاوزنا بعضا من مجموعات النخيل الجميلة وبين الأدغال الكثيفة والزهور والينابيع ذوات البقبقة كانت توجد بقع كالتى يتخيلها المرء عند قراءته للميثولوجيا الاغريقية ( الأساطير الاغريقية ) اذ كانت مناسبة لرياضة الآلهة المرحة •

ومرة أخرى عبرنا الحدائق لنصل للساحل ، وقضينا فترة ما بعد الظهر والمساء فوق ظهر السفينة •

وقد أجبرتنا التقارير عن أحوال الجو غير الملائمة الى قضاء يوم آخر فى زانطة فكان لابد من تدبير أمر نزهة جديدة فبدأنا مبكرا فى صباح الخامس عشر من الشهر فى الاتجاه الى طرف الجزيرة الشمالى ، فاتجهنا فى العربة نفسها التى أوصلتنا فى اليوم السابق واخترقنا شوارع ثم قطعنا طريق الجزيرة المبسوط بشكل جيد والمحفوف بالحدائق ، وبعد ذلك كان عن أيامننا سلسلة جبال خضر وعن شمائلنا جبال جرداء وعرة ، ومررنا ببعض المنازل المنعزلة وبقرى صغيرة • وقابلنا الفلاحون وهم يحملون نتاج حقولهم الى المدينة (زانطة) وكان بعضهم يسير على الأقدام أما غالبهم فكان يستخدم حميرا بائس منظرها صغيرة الحجم ، أو عربات

للواحدة منها عجلتان . لقد تأملتهم جيدا ، فبدوا لى على نحو ما جنسا ضئيل الحجم داكن الجلد والشعر أما ازياؤهم فلا هي جذابة ولا مبهجة ولا ملائمة فسراويلهم واسعة وينتعلون أحذية تشبه الأخفاف ( جمع خف بضم الخاء ) الدلماشية (٣٠) ، ويضعون على رءوسهم طواقى صغيرة أو قبعات عريضة أطرافها ، ويحمل كثيرون منهم بنادق للواحدة منها ماسورة واحدة .

وبعد ساعتين اقترب الطريق من الجبال فكانت عن أيماننا تنتهى الى بحيرة ضحلة ، بينما تتلألأ مياه الأدرياتيكى الزرقاء على البعد .

وتتلاقى الجبال عن شمائلنا بالساحل بجدار صخرى عمودى وينتهى الطريق عند قرية مشيدة على مدرجات منحدر جانب الجبل . والجبال الشاهقة التى أصبحنا عندها الآن قاحلة تماما من هذا الجانب فلا أثر للخضرة فى جلاميدها وجروفها شديدة الانحدار ، وانطلقنا من القرية سيرا على الاقدام حول قاعدة الجرف الشامخ الواقع بينها وبين البحر وسرعان ما وصلنا لطرف الجزيرة الشمالى . يا لروعة المنظر! لقد رأينا سيفالونيا Cephalonia الواقع صوب الشمال . وكان أمامنا مباشرة حوض واد ضيق تنمو فيه غابة بلوط فى وسطها دير تكاد تخفيه الأشجار يقع بين تلين . واتجهنا الى كنيسة الدير التى كانت تغص بالتحف والصور حيث المذاخر المذهبة ( أوعية وصناديق لحفظ الآثار والمحفوظات الدينية ) وصور القديسين السوداء . وبدا الموضع مكانا أثيرا لدى الحجاج .

ودعانا بعض القسس الودودين لتناول الغداء فى الدير ، وعندما استفسرت عن الصيد فى هذه الأنحاء اقترح الرجال الطيبون بلسان واحد أن نقتنص الأرانب البرية . وبعد أن انتهينا من تناول الطعام بدأنا رياضتنا بارشاد

أصفر القسس الذى ارتدى عباءة قصيرة وسروالا أزرق واسعا وخفا ، ووضع على رأسه بيرتا biretta ( قلنسوة مربعة يعتم بها بعض رجال الدين ) (٣١) وحمل بندقيته طويلة . وتبعه كلبان من سلالة غير عريقة وفلاح .

ورحنا نصعد لأكثر من ساعة فى وهاد كئيبة شديدة الانحدار ، فلا يرى المرء عن يمينه وشماله الا منحدرات ولا شىء غير حجارة ناعمة بيضاء تحير النظر لكثرة ما ينبعث منها من ضياء ، وكان يتخلل الصخور شريط ضيق من شجيرات ذوات خضرة داكنة وتركت الشمس بصماتها عليها كما هو الحال فى كثير من جبال المناطق الجنوبية فى دلماشيا واسبانيا .

وراحت الكلاب تتشمم حول الصخور وراح القس يقفز بنشاط من صخرة لصخرة ، حاملا بندقيته المحشوة مستعدا لاطلاقها ، لكن شيئا مثيرا لم يحدث . وحامت بعض النسور الضخمة عاليا فى الهواء .

وأخيرا وصلنا لقمة الجبل فتجلى أمامنا منظر البحر الجميل ، وكان فى امكاننا أن نرى على البعد منظرا شاملا للجبل بأحجاره وصخوره وقممه وأطرافه .

واسترحنا قرابة ربع الساعة ، وسمعنا طلقات متعددة تقذف من مكان قريب ، وسرعان ما ظهر بعض الفلاحين يحملون بنادقهم . لقد كانوا قد فقدوا أحد الأرانب البرية .

وفى طريق عودتنا ظللت متمسكا بالمواضع المرتفعة واتخذت أقصر الطرق للدير ( آنف الذكر ) وفجأة جرى أمامى أرنب برى صغير ( ربما كان من نوع أرانب البحر المتوسط Lepus Mediterraneus (٣٢) ، وكانت المسافة بينى وبينه بعيدة فلم أطلق عليه النار ، لكن القس والكلاب اندفعوا يثبون وراء الحيوان النبيل ومن الطبيعى أن يكون

الأرنب هو الأسرع فاختفى في الحال ، ويلعب الأرنب البرى دورا مهما فى زانطة ـ نظرا لندرته الشديدة ، وعاد الصيد البـــائس بعـــد مطاردته الفاشـــلة يلهث ويتمتم ويخطب باليونانية •

ولما وصلنا للدير اسرعنا الى عرباتنا فقد انقضى منتصف النهار بوقت طـــويل ، وسرنا بالعربات طويلا وكان مسلا جميلا ، لكننا كنا نشعر بالبرد وحل المساء قبل ان نصل الى ميرامار وبدت لنا زانطة جميلة الجمال كله وهى تسبح فى ضوء القمر ، وغادرناها فى الصباح بعد أن وصلت تقارير تفيد أن حالة الجو تسمح لنا باستكمال رحلتنا •

كان صباح السادس عشر من الشهر طيب المناخ ، وكان البحر يبدو كصفحة زجاجية ، لقد تحركنا بالفعل فى الساعة الرابعة صباحا ومتعنا العيون بمناظر لطيفة وذكرتنى جبال أركاديا Arcadia ومســـينيا Messenia التى يجللها الجليد بجبال الساحل الاسبانى الشمالى (٣٣) • لقد كان مثيرا ذلك التناقض اللونى بين زرقة السماء العميقـــة وبياض القمم الثلجية ، وكلما أوغلنا للجنوب أصبحت الألوان فاتحة وقلت الجبـــال الصـــخرية ، وأصبحنا نرى تلالا متـــدرجة الصفرة كجبال شبه جزيرة أيبيريا القاحلة •

وتجاوزنا نافارينو Navarino وبعد ذلك رأينا رأس ماتابان Matapan ذات التعاريج ، ثم تتابعت الجزيرتان الصخريتان أريجو Arigo وأريجيتو Arigetto ، وبعد الظهر ظهر لنا فى الأفق جبل كنديا Candia (٣٤) ، وفى المساء مررنا بالطرف الغربى لهذه الجزيرة الجميلة الكبيرة ، وفى ضوء القمر رأينا شـــكلا ضبابيا لجبـــال كريت • وقضينا ساعات بهيجة فوق السفينة نســـتمتع بقمر الجنـــوب المتالق وهو يلقى بضيائه على موج البحر •

وفى اليوم التالى كان الجو هادئا وجميلا ايضا فاستمتعنا بهواء البحر العليل ، وفى الصباح الباكر كنا لازلنا نرى كنديا Canaia ، وكنا نرى جبل ايدا Ida المدهش زعيره من الجبال العاليه فى الجزيرة مغطاة بطبقات كثيفه من الجليد . وعند الظهر احسسنا باقترابنا من افريقيا وسعدنا للمرة الاولى بالدفء القادم . كم هو مبهج ان تستلقى فوق ظهر السفينه مستمتعا بدفء شمس الجنوب ، وان تتحرر فى البرودة التى خلفناها وراءنا فى وسط اوربا منذ أيام قلائل . وتجاوزنا احدى بواخر لويد Lloyd's Steamers ، وفيما عدا ذلك فقد كان كل شيء ساكنا فوق صفحة الماء الممتدة .

واستيقظنا فى الثامن عشر من فبراير لنستمتع بجو رائع وكان اول ما بادر به بعضنا بعضا هذا السؤال : الم يظهر البر الافريقى بعد ؟ . لا شيء أمامنا سوى الماء على امتداد البصر . وفى الساعة الثامنة صباحا ظهر لنا الساحل الأفريقى شيئا فشيئا وبدت ــ فى الأفق ــ بعض مآذن الاسكندرية ، فحياها كل المسافرين معنا بالصياح والتهليل .

تلك هى المرة الثانية التى تتاح لى فيها رؤية قارة أفريقيا، أما المرةالأولى فقد أعجبت فيها بالسواحل الصخرية لمنطقة أطلس Atlas region ، أما الآن فقد كنت سعيدا فرحا عندما رأيت الساحل المستوى لمصر المقدسة Sacred Egypt (٣٥) .

★★★

# الفصــــل الثــانى

الوصول للاسكندرية ـ يوم فى الاسكندريه ـ مسيحيو الشرق الأدنى فى مصر ـ ازدحام أحياء الاسكندريه ـ الشبه بين العرب واليهود ـ الفتى الأوربى ـ الجنس المختلط ـ أهل الاسكندرية ـ المحطه الجنوبيـة ـ الرملة ـ ترعة المحمــودية ـ جنينــة النزهة ـ لا وجـود للعــاهرات ـ الثرى اليـونانى ـ أكوام القمـامة ـ عمــود بمباى ـ الندابون المستأجرون ـ خط القطار ـ سـبخات شمال الدلتا ـ البدو يعبرون الأراضي الزراعيـة بجمالهم ـ دمنهور ـ كفر الزيات ـ طنطا ـ الالهة بباستيس ـ مـولد أحمـد البــدوى بطنطا يعج بالفجور ـ بنها العسل ـ حديث عن مقتل عبـاس باشا حلمي بقصره في بنها ـ الوصول للقاهرة ـ شبرا ـ قلعة قصر النزهة ـ الحي العربى بالقاهرة ـ قصر طوسـون ـ مـزارع القصب ـ الخــولى والكرباج ـ خوف الفلاح من الملابس الرسمية ـ حى القاهرة القديمة ـ مسجد قصر العين ـ زيارة كنيسة قبطية ـ قبط مصر ينتمون للعرق نفسـه الذى ينتمى اليه المصريون الآخـرون ـ القبطيات محجبـات ـ الأزهــر كمركز لتفـريخ التعصب والرد على ذلك ـ الموسكى ـ الغش اليهودى والعربى ـ الأهرام ـ الأزبكية ـ الصيد فى هليوبولس ـ المحجر ـ رسوم الفنان المصاحب للرحلة ـ تعليقات المترجم ٠

يبدو الساحل المصرى للرائى كموجات من تلال رملية، ترتفع هنا وهناك على شكل كثبان صفراء شكلتها الرياح (١) ٠

وأول ما يصافح النظر بعض المآذن السامقة ، ثم المنارة ، وبعض الطواحين الهوائية خارج المدينة ٠ وسرعان ما ارتفع أمامنا قصر مصطفى باشا وكأنما انبثق من بين الأمواج ، وكان القصر ذا طابع شرقى خيالى ، وهو مخصص لنائب الخديو (٢) ٠

والآن ، أصبح وصولنا للاسكندرية حقيقة واقعة ، فاتجه أحد القوارب نحو سفينتنا بعد ان رفع مرشدنا العلم ، ليحدد للقارب هدفه ٠ وقام هؤلاء الشرفيسون — وهم ليسوا عربا خلصا — فالعاملون فى صناعة البحر ، هم جماعات من أجناس مختلطة — قاموا بالتجديف بقوة ونشاط ، حتى وصلوا بالقارب الينا ٠ وكان هؤلاء البحارة ذوى جلود سمراء مصفرة ، ويلبسون ملابس كالتى يلبسها أهل آسيا الصغرى ، وعلى رءوسهم عمائم ، وكانوا يصيحون ويومئون لنا كلما اقتربوا منا ٠ وكان يجلس بينهم رجل داكن البشرة يرتدى لباسا شرقيا جميلا ، وقد لف حول رأسه غترة ( لفاع أو وشاح ) ، وكان له لحية جعدة سوداء ، أعطت انطباعا واضحا بأنه عربى ٠ وكانت يداه السمراوان مزدانتين بحلقات من فضة ( يقصد الخواتم غالبا ) (٣) ٠

لقد هدأنا من سرعتنا وتسلق المرشد السلم بهدوء ووقار وبعد أن تبادلنا التحية ، جلس فى مكانه عند عجلة التوجيه ، وتم ربط قاربه بالحبال بسفينتنا ٠ وتقدمنا نحو قناة حجرية ضيقة تصل للميناء القديم ٠

وجذبت انتباهنا قلعة سعيد باشا الملك (٤) Said Pasha el-Mek ، وكانت تقع عن أيامننا ، بعمارتها التى تدعو للتأمل ، ورأينا عدة مدافع وبعض بساتين نخيل ولما درنا حول حائل الأمواج دخلنا الميناء ، فتجلى لنا منظر مدينة الاسكندرية البهى ٠

ولولا المآذن وبعض المباني الضخمة ذات الطراز العربي، لظن المــرء نفســه ازاء بعض موانيء أوروبا الجنوبية · فالاسكندرية بلا شك ـــ مثل المدن الاوربية اذا نظرنا اليها من الخارج ·

لقد تجلى لنا المشهد الفريد ونحن نعبر حاجز الامــواج ( جدار لحماية المرفأ من شــدة الامواج ) فانطلقت المــدافع تحية لنا · وحيتنا السفن الحربية التركية : السفينة محمــد علي · والسفينة المحروسة Makkarosa ويخت الخــديو وقام البحــارة باعداد الصوارى ، وكانــوا يرتدون زيا له طابع عسكرى على نحو ما · كمــا كانــوا يضعون الطرابيش فوق رءوسهم · وهبت علينا روح الشرق القــديمة الجميلة ممثلة في العزف الســلطاني ( السلام السلطاني التركي ) الذي يجعلنا نتذكر بشكل ما السلام القيصري المجري ، بينما كنا نســتمع لموســيقى الخديو ( المعزوفة الموسيقية المميزة لخديو مصر ) تعزف في اليخت ·

وكان طاقم السفينة النمساوية لويد Lloyd يرتدون ملابس ملونة ذوات طابع احتفالي · وكان الميناء غاصـــا بالسفن ، واصطف لتحيتنا عليــة القــوم في الامبراطورية التركية · كانوا بيضا كفوالق الأقمار على بسط حمراء بلون الدم ·

واحتشدت على امتداد الماء قوارب ملأى بالعرب من كل الطبقات : فمنهم الغني ومنهم الفقير لكنهم كانوا يلبسون ملابس فاخرة لها طابع خاص · انها في حاجة لريشة فنان ، ورأينا كثيرا من أهل المدن ، من الشرق الأدنى(٤) Levantines واليونانيين والايطاليين واليهود ، وكان منهم من يضع عــلى رأسه طربوشا بينما كان آخرون بغير طرابيش ·

وقدم الينا أعضاء الجالية النمســاوية المجرية(٥) في لنشات بخارية مزدانة بشكل بهيج ، وعزف فريقهم الموسيقى

موسيقا : « يحفظ الله الامبراطور » (٦) ولوح لنا أهل دلماشيا Dalmatians بزيهم الأخضر والأبيض الذى يرتديه أهل وديان بوشي دى كاترو Bocchi di Cattaro وقد لفوا الشرائط الرابطة لأسلحتهم حول أجسادهم النحيلة • وقد بدا مسيحيو الشرق الأدنى هؤلاء ، فى زيهم متناقضين — بشكل صارخ — مع المسلمين ذوى الملابس الشرقية زاهية الألوان • ولا يمكن مقارنة هذا الخليط الهائل من الأعلام والألوان والأزياء التى كانت تحيط بنا فى هذه القوارب ذوات العدد الا بالمشكال الزجاجى الذى يبعث مالا حصر له من الألوان عند تعرضه للضوء • وبعد أن وصلنا أخيرا الى عوامة ارشاد السفن راح الناس يلوحون — بشكل فضولى — حول سفينتنا •

وسرعان ما قدم البارون شيفر Baron Schaffer القنصل العام ومعه أعضاء القنصلية النمساوية ، وبعد أن تلقينا التحية منهم كان علينا أن نستقبل أصحاب المقام الرفيع من أهل البلاد الذين قدموا الينا فى بوارج الاحتفالات (الاستقبالات)وكان على رأسهم مصطفى باشا Mustapha Pasha وزير الخارجية (٧) ، مبعوثا من سيده فى القاهرة لاستقبالنا ، وتبعهم عدد من الجنرالات ورئيس الميناء ، كما حضر عبد القادر باشا فى لباس جنرال مصرى (رئيس فرقة) Egyptian General of Division • لقد كان الخديو موفقا فى تعيين هذا الرجل المقبول المتحضر المخلط ، فنصفه تركى ونصفه عربى — ليشرف على أمورنا أثناء رحلتنا لمصر • لقد تعلمنا فردا فردا كيف نقدره ونحترمه وكنا نفارقه يوميا — بعد طول تجوال — آسفين لفراقه • وبمجرد أن ينسحب المصريون ذوو المكانة ، يأتى الينا المقيمون النمساويون •

ومن الملاحظ أن عددا كبيرا من النمساويين من مختلف أنحاء المملكة موجودون هنا ، بالاضافة الى عديد من

الدلماشيين Dalmatians لهم دور كبير فى بيـوت المـال الكبرى ، وعلى ايه حال فان غالبيه النمساويين هنا ليسـوا نمساويين بالمولد ـ انهم من اهل الشرق الادنى Levantines بمختلف جنسياته ، اتوا الى هنا بحثا عن التجارة الامنـه ، وفوق كل ذلك ليقدموا الشكر لنشاط سـفينتنا لويد الذى حقق شهرة رائعة ، رغم أن هذا النشاط لا يقـدر بما فيـه الكفاية فى الوطن ( النمسا ) ، وقد وضع هؤلاء الشرقيون Levantines أنفسهم تحت حماية بلدنا ، ( حصلوا عـلى الحماية النمساوية ) (٨) ٠

وبعد أن تناقشنا لبعض الوقت مع أفراد مختلفين منهم وجدنا أن بعضهم كان من مواطنينا ( نمساويا ) بالميـلاد ، أما الاخـرون فكانوا نمسـاويين بالاسـم فقط ـ عدنا الى كبائننا بعد أن غادروا السفينة ميرامار ، وغيرنا ملابسـنا الرسمية وارتدينا أخرى مدنية ٠ وسرعان ما نزلنا جميعا على سلالم الميناء حيث كان فى استقبالنا البارون شيفر Schaffer ودلفنـا الى مركبـات كانت فى انتظارنا ، وتزاحم حولنـا الحمالون ( مفردهم حمال Hammal ) ويسمون أيضـا الشـيالين ( مفردهم شـيال Scheyyal ) وهم طائفة من أفقر العرب لهـم أذرع عارية وسـيقان بنيـة نحيلة قوية ، وقمصـانهم زرق ويربطـون خواصرهم بأحزمة محـكمة ، وموظفو الجمارك الذين يلبسون اللباس الأوربى، والبحارة الأتراك وعمال الرصيف ، وكان منظر كثيرين منهم ملفتـا للنظر ٠ لقـد أحاط بنـا الجميع وراحوا يحملقـون فينـا بفضول ٠

لقـد أحسن الخـديو صنعا بوضعه بعض حافلاته فى خدمتنا ٠ لقد كانت الحافلات ، وكذلك الخيول انجليزية ، أما الخدم فكانوا ـ بدون استثناء ـ فرنسيين ، وكان زيهم أوربيا تماما ليس فيه من الشرق الا الطربوش ٠ أما خارج

المركبات فكان هناك من يجرون دائما أمامهـا وهم يصخبون ويصيحون بلا كلل ولا ملل ، وكانوا يلبسون ملابس غريبة بأكمام واسعة بيضاء وفي أيديهم هراوات طويلة ، وكانوا نحال البنية وإقدامهم رشيقة ·

ولم نعرف فائدة هؤلاء المعينين للجرى امام حافلاتنـا الا عندما مررنا بالاحياء العربية الضيقة فى الاسكندرية ، فبدون هؤلاء كان سيتعذر مرورنا الا بصعوبة بين هـذا الحشد من البشر والبهائم، بل وكنا سنضطر للتوقف كثيرا ·

وبمجرد مغادرتنا للمناطق المحيطة بالميناء ظهرت امامنا الحياة الشرقيه بكل ابعادها · الشوارع الضيقة التى تحفها منازل على الطراز العربى ، ملأى بحشود البشر من كل لون : فالحمارون يصيحون ، والسقاءون الذين لا غنى عنهـم ، والبائعون الذين يبيعون بضائع مختلفة ، والفـلاحون ذوو الجلابيب الزرق ، يطوحون ببرانسـهم ( المفـرد برنس ) البيضـاء الزاهيـة Pure White burnous ، والنسـوة اللائى فى ملابسهن طيات تدل على الثراء ، وقد وضعن فوق رءوسهن زينات ذات طابع قديم وكأنها أوراق نبات ابريقى الأوراق antique pitchers (٩) والمتسـولون المصابون بالعمى بعصيهم الطويلة ، وأولاد صغار كالقنافد وصـخب وضجة وشغب لا يمكن أن توجد الا فى الشرق ، وقد دهشنا غاية الدهشة من الأتراك وأبناء آسيا الصغرى بسبب ملابسهم الزاهية ألوانها · لقد كانوا مختلفين تماما حتى فى طريقـة التعبير عن العرب ، وكانت جلـودهم أرق وأقل دكنـة · فالعربي الحقيقي داكن اللون وله ملامح جميلة ونبيلة وشكله رقيق لكنه مفعم رجولة · والعربي، وان كان أرقى من اليهودى Israelite بكل المقاييس ، الا أنه يشـبهه بشـكل واضـح لا تخطئه العين (١٠) · والفـلاحون الذين يزرعون التـلال ليسوا عربا خلصا ، انهم أقرب شـبها بالمصريين القـدماء ،

وأظن أنهم السكان الأصليون لمصر وسأتناول هذا الموضـــوع بتفصيل أكثر في موضع آخر (١١) ٠

وبعد أن عبرنا هذه الشوارع الشرقية وصلنا الى الجانب الأوربي من المدينة (الاسكندرية) ، حيث الشوارع العريضة والمنازل الجميلة على الطراز الأوربي والمحلات الواسعة وبدا أن ساحة محمد على هي مركز الحي وأكثر المواضـــع بهاء ٠ ولا اجد ضرورة لوصف ملامح الأوربيين من سكان الموانيء ( موانيء البحر المتوسط ) ٠

وللاسكندرية هذه الشخصية تماما فرغم انتظام شوارعها وجمالها ، الا أن شيئا ما عالقا بها يعد غريبا بالنسبة لنا ٠ فالقذارة الشرقية والفوضى ( الاهمال ) التى لفتت النظـــر للمدن العربية لا تنفى انها ــ أن هذه المدن ــ تحذو حـــذو العمارة الغربية وتحاكيها محاكاة كاملة ، فأنت تحس فى كل خطوة تخطوها بوجود الغريب الذى يسعى لوضع أثره على العالم الأجنبى ٠ وتغطى الرمال القـــادمة من الصحراء المـــدن الاوربيـــة ( يقصـــد المـــدن الشرقيـــة ذات الطـــابع الأوربى ) (١٢) وتجعل وجوه الأجانب الطامعين فى الكسب ــ شاحبة ٠

لقد وصلنا لســـاحة محمد عـــلى بعـــد أن مررنا ببعض الشوارع الرئيسية ، وفى وسط الساحة ( الميدان ) يقبـــع تمثال المقاتل العظيم محمد على على صهوة جواد ، ومحمـــد على هو الابن المغامر والناجح لاحـــد الحراس المقدونيين من قولة kawala ولم يكن اهتمام محمد على البالغ بمدينة الاسكندرية عبثا أو بلا هدف ، فقد يقارنه العالم بالاسكندر الأكبر ، ان كان ــ أى محمد على ــ قد نجح فى تطويرها فى مختلف المجالات ٠

ويجد المسافر نفسه في الاسكندرية فوق أرض تاريخية لكن هذه المدينة لن تستعيد مرة أخرى عظمة وبهاء ، كالعظمة والبهاء التي كانت عليهما أيام مكتبة الاسكندرية العظيمة ، عندما كانت مركزا للفن والأدب ومختلف العلوم ٠

ان الشوارع الأوربية مفعمة بالحياة والنشاط ( يقصد الشوارع ذات الطابع الاوربي بالاسكندرية ) (١٢) فالناس لهم منظر الجنس المختلط — بشكل واضح يفوق الوصف — بحيث يمكن وصفهم بأنهم من الشرق الادنى(١٤) Levantine ان ملامحهم خليط من ملامح الايطاليين واليونانيين والارمن والاتراك — وكلهم يلبسون اللباس الأوربي ، الا انهم — بشكل عام — يضعون فوق رءوسهم الطرابيش ٠ وبالاضافة لذلك فقد رأيت أزياء دلماشية Dalmatian وألبانية بالاضافة للأزياء التركية وآزياء آسيا الصغرى Turkish, and tho e of Asia Minor

والرهبان اليونانيون هنا كثيرون كما رأيت بعض الفرنسسكان . ويظهر الحمارون ( بتشديد الميم ) والحمالون والسقاءون في الشوارع الأوربية ( بالاسكندرية ) وان كان العدد الأكبر منهم يوجد في شوارع الحي العربي ٠ ويقف البربر Moors والنوبيون أمام بيوت البنكيين الأثرياء لمجرد التباهي والمظهرية دون أن يقوموا بعمل محدد ٠

لقد عدنا أدراجنا الى الحي العربي بعد أن أصابنا الازعاج من الشوارع المستقيمة ٠ لقد وصلنا الى الحياة الشرقية الصميمة ، بدخولنا بعض الحوارى الضيقة المشيدة على النسق الشرقي حيث للمنازل مشربيات مخصصة للنساء ، وهذه المشربيات عبارة عن نوافذ مغطاة بخشب شعرى مقصب (١٥) ٠ لقد أصبحت حافلتنا تسير أبطأ فأبطأ حتى اضطررنا أخيرا لتركها وسرنا على أقدامنا في السوق ٠

ولا يمكن للاسكندرية أن تزعم انها على شاكلة مدينة عربية ، فحتى سوقها الصغيرة التافهة بكل ما فيها من حياة وحركة تعطى انطباعا مفرطا للاوربى الذى وصل اليها لتوه قادما من الغرب دون أن يكون له المام بأحوال الشرق ٠

ان المرء يجد فى الاسكندرية حشودا من المشاهدين التافهين والبائعين والمشترين والاطفال المتشردين والكلاب والحمارين الطائشين ، والازياء الغريبة ومختلف انواع الأجناس ، ومع هذا فان هذا التباين الشديد الموجود بالاسكندرية يجد المرء أكثر منه بكثير فى القاهرة ٠ لذا فاننى سأبذل قصارى جهدى لوصف الحى العربى والسوق الذائعة الصيت لعاصمة الخلفاء القديمة ٠ لكن الالمام بمعلومات كاملة عن الحياة الشرقية يستلزم دراسة خاصة ٠

لقد اتخذنا طريقنا ببطء وصعوبة فى السوق ، وعند الطرف الاخر للسوق كانت الحافلة فى انتظارنا ، فاوصلتنا الى المحطة الجنوبية ٠ لقد كانت الترتيبات والحافلات تذكرنا بانجلترا فى كل شىء فيما عدا بعض الاهمال ٠

لقد سار بنا القطار على طول كثبان رملية كانت تفصل البحيرات عن البحر ـ الرملة Ramleh وهى المنتجع الصيفى لأثرياء مصر وموضع سياحتهم ، ويرى المرء هنا وهناك خاصة بالقرب من الاسكندرية كثبانا من رمال الصحراء الصفراء ، وتناثرت على طول هذه الكثبان خيام الغجر والبدو ، وجمال واهنة وحمير ناهقة ، وأكواخ أقامها العرب ، وقبور كئيبة ، الا أن معظم هذه الكثبان قد تحول الى حدائق وأقيمت عليها الفيلات الباسمة ٠

لقد أثمرت أشجار الليمون والبرتقال الى جانب النخيل الباسقات فبدت المكان كله يبدو كمتنزه ٠ وعند الوصول

للرملة Ramleh لم ننتظر أكثر من عشر دقائق حتى وصل القطار التالى ليعود بنا للاسكندرية • لقد اظهرت هده الرحلة القصيرة للغريب كيف ان الجهد البشرى يمكن ان يحيل أكثر الاراضى قفرا الى فردوس • واثناء عودتنا للاسكندرية كان القطار يسير بنا على طول ترعة المحمودية Mahmudiyé canal ، الى الحديقة العامة الكبيرة المسماة جنينة النزهة Ginènet-en-Nasha • وكان المنظر على طول ترعة المحمودية مسليا •

لقد كان الطريق بهيجا فقد رأينا علية القوم فى الاسكندرية فى حافلاتهم التى تجرها الخيول ( حناطيرهم ) متجهين الى الحدائق الغناء حيث كانت تهب نسائم المساء المنعشة ، كما رأينا الرجال والنساء من أكثر الطبقات فقراء وهم يتوضأون بمياه ترعة المحمودية ويؤدون صلواتهم على ضفتى الترعة وقد ولوا وجوههم صوب مكة ( المكرمة ) •

ويرى المرء بين البعض ممن يلبسون ثيابا راقية ، شيئا من سقم الذوق فى طريقة اللباس ، ومع هذا فالوجوه جميلة جمالا لا يمكن انكاره • ولا توجد اشارة ، بل أدنى اشارة لوجود طبقة المومسات أو نساء المتعة التى نعرفها فى فينا أو بيز Pesth ، وغالب المومسات فى مصر ـ كما قيل لى ـ أتين من النمسا • وحديقة « جنينة النزهة » ذات بهاء وفخامة ، ولها الطابع المدارى لحدائق مصر فروائح البهار تملأ الهواء ، والزهور المتفتحة اليانعة تسر عيون الأجانب، وراحت الفرق العسكرية تعزف أجمل الألحان ، وراح عديد من الأوربيين يسيرون فى الممرات الظليلة •

وقد زرنا أجمل بيوت الحى ـ انها فيلا الثرى اليونانى أنتونياديز Antoniadis • لقد كانت للفيلا حديقة يحيط بها سور متين ، ووحد سخاء المناخ الأفريقى بين الفن

والطبيعة في ثوب واحد قشيب ، وكانت الفيلا نفسها جميلة منسقة ، وبذل بانيها قصارى جهده ليكون جوها من الداخل باردا ، وقد سمح مالكها لنا تفضلا منه بزيارتها .

وعدنا مرة أخرى للاسكندرية عبر طريق محفوف بالشجر على الترعة ، ثم انحرفنا الى أرض بهـا عمود بمباى Pompey الشهير وهو يقع خارج الاسكندرية .

وقد جذب انتباهي الطريق الذى سلكناه ، فقد وجدت فيه ما يذكرني بمناظر في وطني . والأحياء المجاورة تمثل المدن الشرقية وكذلك تلك الموجودة في شرق أوربا ، لها الطابع نفسه . فالمنازل والأحياء تصبح أصغر ، ويبدو الاهمال وتظهر اكوام القمامة وينقلب كيان المبانى . وتبدو المقابر المنعزلة .

وهنا يبدو طابع المكان اكثر تحديدا ووضوحا ، حيث المقابر الخربة وهذه المبانى الصغيرة الدائرية ذوات القباب وأشجار النخيل المتناثرة وقد قل عـددها ، والجمال المحملة في حالة استرخاء ، والـكلاب التى تكاد تكـون متوحشـة والجواميس والحمير ، وقد انتشرت الأتربة الصفراء فى كل مكان .

وفي وسط المساكن الكائنة فى طرف المدينة يوجـد تل دائرى من صنع الانسان ، لا بفعل الطبيعة ، وفوق هذا التل ينتصب عمود بمباى الأثرى ، وهو قطعة حجرية واحدة يبلغ ارتفاعها ثلاثة وستين قدما ، وفي منتهاه ( طرفه العلوى ) صخر نارى أسوانى Syenite فوقه تاج كورنثى الطراز Corinthian ، وكان هذا التاج فى الأزمنة القديمة يحمـل تمثال دقلديانوس Diocletian (١٧) .

وأتت اللحظة الأثيرة فصعدنا هذا التل الصـخرى ( الى جوار العمود ) ومتعنا النظر ، فقد كانت الاسكندرية تمتـد

أمامنا وقد لبست غلالة من ضوء ذهبى ، ويمتــد البحر الى شمالها وتمتد الكثبان الرملية وبحيرة مريوط الى جنوبهــا الشرقى •

كانت الشمس تغرب وظهر قرصها واهنــا بين الهــواء المعبأ بالاتربة والسخونه ، فبدت خجلى واهنة ، كالشمس فى أيام بلادنا الضبابية • وكانت السماء ــ من ناحية الغرب ــ مزدانة بالوان خصبة وثرية ، برتقالى واحمر وازرق وكل لون منها واضح وغير متداخل مع الالوان الأخرى ، وكلهــا جميعا ــ اى هذه الالوان ــ تســبح فى نور ذهبى ، أما من جهة الشرق فقد كانت الســماء قد تدثرت بظــلال زرقاء ، وظهرت مقدمات المساء ، وكان يمكن رؤية نجوم متالقة هنا وهنــاك فالشرق وحده ــ ومصر خاصــة ــ مشهور بأضوائه وظلاله التى تترك فى النفس فعلا كفعل السحر •

وبينما كنا فى قمة السعادة فوق التــل لروعة المشــهد أمامنا سمعنا صوت ضجة ورأينا زحاما عند قاعدة التــل • ففى البداية أتت قطعان من الماعز بآذانها المائلة ، ثم صفوف من الجمال • لقد كانت ــ الماعز والجمال ــ فى الطريق الى زرائبها وبصحبتها رعاتها يصيحون فيها • وبعد ذلك رأينا جنازة حيث الناس يسيرون خلف تابوت خشبى بدون غطاء سوى قطعة قماش مطروحة عليه ، وفى مقدمة التابوت عمامة منحوتة من الخشب تنبىء أن الرجل فى طريقه لمثواه الأخير ، وقد أحاط بالتــابوت بعض النــدابين المســتأجرين (١٨) hired mourners ، راحوا يعصرون أيديهم اظهــارا للألم كما راحوا يولولون بصوت عال • ووراء التابوت قوم يتلون الدعوات ويمشون ببطء • لقد كان منظرا غير عادى •

وقمنا بجولة ثم عدنا للاسكندرية من خلال باب محرم بك الذى كان يمثل تحصينا للمدينــة فيما مضى ، أما الآن فليست له أية قيمة تحصينية •

وفي ساعات المساء تزداد الحركة في الشوارع عنها في ساعات النهار ، وتزداد الضوضاء ويعلو الصياح ولا يهدأ الصراخ • ان هذا يتناقض مع طبيعة الليل الذى يجب ان يتسم بالسكون ففى الليل تبقى المحلات مضاءة والمقاهى مفتوحة • وأسماء المحلات والمقاهى فى الحى الاوربى بالاسكندرية مكتوبةاما باليونانية أو الفرنسيةأو الايطالية •

لقد وصلنا لسفينتنا ميرامار بينما قد أرخى الليل سدوله وأقبل البارون ساورما Baron Saurma القنصل الألمانى العام لتناول العشاء ، وقد لزمنا هذا الرجل وانضم لمجموعتنا وقد كان مفيدا لنا فى كثير من الحالات خاصة فيما يتعلق بأمور الصيد •

لقد غادرنا ميرامار فى بكور اليوم التاسع عشر وودعناها فلن نعود اليها بعد وقت قصير • لقد أوصلتنا بارجة احتفالية مصرية خاصة بنائب السلطان ( الخديو ) Viceroy الى البر ، وكانت هذه البارجة مزينة ومعدة على نمط شرقى ، فكل شىء فيها كان أحمر اللون ، فملابس البحارة لم تكن تقل حمرة عن أغطية المقاعد ، وكانت الأركان مغطاة بجوخ أحمر ، كما كانت المظلات التى نستظل بها حمراء • والبحارة الشرقيون يجدفون بهدوء — على النقيض من البحارة الأوربيين ، وان كنا لا ننكر أن التنسيق فى التجديف مصحوبا بأغنية هادئة غريبة قد ترك فينا تأثيرا يدعو للسرور •

لقد انطلقنا من الميناء للمحطة حيث كان هناك زحام شديد من النمساويين ومن المناطق التابعة لنا وعزفت الموسيقا « يحفظ الله الامبراطور » ولوح أبناء دلماشيا بقبعاتهم تحية لنا ، بينما كانوا يرتدون زيهم الوطنى المتسم بالثراء والجمال • وفى غضون دقائق قليلة كنا قد غادرنا المحطة • لقد وضع نائب السلطان ( الخديو )

قطاره الخـاص في خدمتنـا بما في ذلك العربات الواسـعة الخاصة به ، وكان في القطار حافلة ( عربة ) مكشوفة في الوسط • وثمة ممرات جيدة تمكن المرء من الانتقـال من أقصى القطار الى أدناه •

لقد كان في القطار بالاضـافة لمجموعتنا ( التى قدمت من النمسا ) البارون شيفر Schaffer وأعضاء المنصلية النمساوية والبارون سـاورما Saurma ، وعبد القادر باشا مسئول الشئون الخارجية المصرية ، ومصطفى باشا وبعض المصريين ومسئولو ادارة السـكك الحديدية وعـلى رأسـهم م • زمرمان Zimmerman وهو رجل فرنسى متحضر ، ويحظى بقبول كبير وقد شملنا برقة غير محدودة •

لقد كان القطار سريعا ، لذا فقد كنا ـ بشق الأنفس ـ نستطيع أن نلقى نظرة على المناطق الجديرة بالرؤية ، بسبب سرعة القطار • لقد كان طريق القطار فى البداية على طول حافة تفصل بين بحيرات مريوط السبخة عن أيامننا ، ومياه أبى قير عن شمائلنا ، فالمساحات العريضة لهـذه المسطحات المائية كانت مغطاة بطيور الماء من مختلف الأنواع ، وعـلى الشـواطىء الرملية كانت طيـور البلشـون ( بفتح الباء واللام ) السوداء ( أو مالك الحزين ) برقابها الممتدة •

وبعد برهة تركنا خلفنا مياه شمال الدلتا وسبخاتها(١٩) لننعم النظر بالأراضى الخصبة كثيفة الزروع، ففى كل مكان ترى الحرث وحقول القمح الواسعة وغابات من أشجار القطن، وقنوات عميقة وجسورا عالية وتناثرت النخيل هنا وهناك ، وكذلك البساتين الكثيفة dusty ، والقرى ذات المبانى الطينية وقد سمقت فى سمائها المآذن • هـذه هى السـمات العامة لمصر الدنيا ( الدلتا ) •

ويرى المرء حياة نشطة على الجسور ـ التى تستخدم أيضا كطرق ـ وكذلك فى الحقول فثمة فلاحون يحرثون ، وآخرون ـ نصف عراة ـ مشغولون عند السواقى والنسوة بجلابيبهن الزرق يسرن الى جوار قوافل الجمال الفخورة ( المعتزة بنفسها ) وقد امسكن بايديهن أطفالهن العراة • وتعبر الأسر البدوية الأراضى المزروعة وهم فى طريقهم من صحراء لأخرى سواء سائرين على أقدامهم أم يمتطون خيولا ، أما البدويات فتركبن جمالا • ان هؤلاء البدو ذوو أحجام ضئيلة ، ومع هذا فهم معتزون بأنفسهم ونزاعون للاستقلال•

لقد راينا العرب الخلص والبرانس (العباءات) البيضاء والخيول الجميلة والبنادق الطويلة ، والسيوف المعقوفة ، والعمائم ، وطواقى الفلاحين البسيطة والماعز طويلة الوبر والكلاب الشبيهة بالذئاب وحمير الفلاحين السوداء المصمرة التى اعتراها الهزال ، جنبا الى جنب مع البغال والحمير البيض والسود التى تبدو عليها اثار النعمة والعلف الجيد والتى اعدها أصحابها الأثرياء للركوب ، ومواكب عربات الأثرياء والرجال ذوى العباءات المزركشة على صهوات الخيل والنساء يركبن الجمال فى هوادج ( جمع هودج ) ليدرأ عنهن نظرات المتطفلين ، وجماعات طيور النورس ( زمج الماء ) تتبع الفلاحين وهم يحرثون ، وطائر أبو طيط الرشيق • وبين أشجار الحقول على شاطىء النهر تهدل حمائم النخيل الحمراء (؟) وزميج الماء (٢٠) ذو المنقار الطويل ينقض صائدا السمك ـ انه أكثر الطيور المصرية أصالة ( انه طائر مصرى أصيل ) • ويرى المرء من القطار الذئاب وهى تعدو فى الحقول ، والحدءات تحلق بأعداد كبيرة ، وكذلك الصقور ، وتحوم النسور فوق القرى •

انه عرض متباين ومفعم بالحياة ومشوق للنشاط البشرى والحياة الحيوانية ، وقد غلفهما ضباب أزرق ملىء بالأتربة فى حر الظهيرة ، وكأن المسافر ينظر للحياة فى مصر القديمة تبعث من جديد •

لقــد خلفنــا وراءنا مدينــة دمنهــور وهى مدينـــة عربيه صغيرة ، وعبرنا الســهل وما زلنا نراقب ونتـامل ، وعبر القطار جسرا حديديا فوق النيل ، وللمرة الاولى نحيى هذا المجرى المائى العظيم الذى يعد اقدم الأنهار التاريخية ، وعلى الضفة الشرقية ( اليمنى ) مررنا بمحطة كفر الزيات وهى مدينة صغيرة قريبة من دمنهور ٠

وبعد مسافة غــير بعيدة وصلنا لمدينــة طنطا الشــهيرة والقديمة ٠ وبدت المدينه على البعد كحومة قمامه تحيصهــا حدائق مزهرة ونخيــل وأشــجار جميز كثيفة ، اما عنــدما أصبحنا اكثر قربا فقد بدت عاجة بكل أوجه الحياة الشرقية حركة وصخبا ، وقد شــيدت بيوتهــا من طين ، ويقــال ان البيوت فيها يتســاقط بعضها فوق بعضها الاخــر فى فوضى مرعبة الا أنها جميعا قد شيدت على النمط العربى فى منظر يستحق التصوير ٠

وطنطا مشهورة بسوقها التى تعقد بشكل منتظم ، وحتى في أيام هيرودوت فان هذه الاســواق كانت تعقد في مصر السفلى وغالبا ما كان ذلك فى شرق الدلتا ٠ وتبعت هــذه الأسواق الحركة والنشــاط فى القطر كله وغالبــا ما كان يصاحبها انغماس فى اللهو عــلى نحــو مسف ، وفى الأيام الماضية كانت هذه المهرجانات تعقد على شرف الالهة بباستيس Bupastis ، أما الآن فانها تعقد عــلى شرف سيد طنطا ( السيد أحمــد البدوى ) الذى توفي هنــا ســنة ١٢٠٠ م واعتبره الناس قديسا (وليا)، وسواء أكانت هذهالمهرجانات بمناسبة عقد أسواق أم على شرف الالهة بباستيس أم احتفالا بمولد سيد طنطا أحمد البدوى ، فانها جميعا قد احتفظت بروح التسيب والفجور المصاحب لها (٢١) ٠

لقد توقف القطار لدقائق معدودة فى طنطا ، وكانت المناظر التى رأيناها بعد ذلك لا تختلف عما رأينــاه آنفا ، وعند بنها العسل عبرنا فرع دمياط ٠

وثمة قلعة كبيرة تشمخ بين البساتين هنا ، وقد حققت شهرة بسبب الحدث المروع الذى جرى بها • ففى سنة ١٨٥٤ قتل هنا عباس باشا بن طوسون الذى تولى الحكم ومحمد على لازال على قيد الحياة ، على يد مملوكين • ويقال انه لم يكن يستحق هذه النهاية المأسوية (٢٢) •

لقد أصبحت مناظر الدلتا بالنسبة لنا رتيبة ، ولذا فقد كنا سعداء باقتراب لحظة مغادرتنا لها •

فهنا وهناك كنا نرى عبر المروج الأفق الأصفر للصحراء الليبية ( الشرقية ) فى اتجاه الجنوب الغربى ، والى اليمين أمامنا رأينا فى وهج النهار أهرام الجيزة رغم أن الجو كان برتقاليا ومغبرا • انها لحظة مهيبة ، فتهجم الأفكار من تلقاء نفسها فتغمر عقل الرحالة الذى يرى بأم عينيه للمرة الأولى هذه الدلالات الحضارية ذات العمر السحيق ، ويجد نفسه فى أرض الفراعنة التى تعد الركن الحجرى الصامد لحضارة العالم •

والى الجنوب الشرقى ترتفع جبال المقطم كمائدة صحراوية ، وعند سفحها جدران القلعة ومآذن مسجد محمد على ، وبين كل هذا تمتد منازل القاهرة كالأمواج المتلاطمة بين سديم حار • انها المدينة الرئيسية فى أفريقيا • ما هى الا لحظات وسنصل للمدينة العريقة ، مدينة الخليفة ، لقد حف القطار من الجانبين بحدائق غناء • غابات من النخيل والجميز حول المنازل المنعزلة ، وعلى امتداد البصر ظهرت الخضرة الداكنة لمزارع حى شبرا Schubra Avenue ، وفى غضون دقائق كان القطار فى المحطة •

كان نائب السلطان ( الخديو ) Viceroy يحيط به رجال دولته واقفين على درجات السلم ، واستقبلونا بترحاب شديد •

واستقبل أعضاء الجالية النمساوية المجرية مواطنيهم بترحاب حماسى باهر ، وذهبنا للحافلات التى كانت فى انتظارنا • لقد كانت مزودة بأثاث ومعدات اوربية فى الغاية من الجمال • وعزفت الموسيقا السلام الوطنى على شرفنا • لقد عرفنا أن الحياة فى القاهرة ساحرة فاتنة من مجرد النظرة الاولى • لقد انطلقنا فى شارع قصير الى جسر يعبر قناة ( ترعة ) فى شارع شبرا ذى الخضرة والظلال • وتتابعت الصور ، صورة فى اثر صورة وكأننا فى حلم • زحام بشرى ، وجمال محملة ، وحمير صغيرة وشرقيون فى ملابس زاهية ملونة ، ومحلات فتحت جوانب من آبوابها ومقاه يجلس زبائنها أمامها ، وأطفال يتشقلبون فوق التراب وهم يصيحون ويتدافعون بشدة ، ولم يتنح واحد منهم عن الطريق ، وفلاحات أصابهن الرعب يحملن جرار الماء فوق رءوسهن ، هربن صارخات بمجرد اقتراب الحافلات بسرعة • وقام الرجال المرافقون بتوسيع الطريق لحافلاتنا بازاحة من فى الطريق ، مستخدمين عصيهم • وعن يسار الطريق وكذلك عن اليمين لاحظت مساكن جميلة تحيط بها حدائق فاتنة • وفى غضون دقائق قليلة درنا من خلال بوابة معرشة حيث كانت توجد قلعة قصر النزهة Castle of Kasr-en-Nusha بين فيض من الأشجار والزروع الكثيفة ، وحيتنا فرقة مشاة بالنفخ فى الأبواق •

لقد كان قصر النزهة هو محل اقامتنا الذى تفضل بنا عليه بلطف كبير منه نائب السلطان ( الخديو ) عبارة عن قلعة تتكون من مبنيين مربعين ، يربطهما ممر ذو نوافذ ضخمة زجاجية فوق بوابة المدخل • ان كل شىء داخل المبنى وخارجه أوربى ولا اختلاف الا فى الزينات والمعلقات البهيجة والحمامات الشرقية وكثير من التفاصيل الصغيرة التى لا تحصى التى تذكر المرء فى كل ركن أنه فى الشرق •

لقد اتخذنا لنا مجلسا بسرعة ورحنا نمتح عبق الحياة الشرقية ببهجة • لقد كان ترتيب المكان والشرفات الجذابة والعطور المنبعثة من زهور الحديقة والهواء المنعش يذكرنا بالحكايات الخيالية الشرقيـــة • وبعـــد ان تناولنــــا افطارا سريعا ذهب بعضنا للصيد مع البارون ساورما •

لقد عبرنا القناة ( الترعة ) مرة أخرى وجلنا خـــلال الحي الاوربي بشوارعه العريضة ومنازله الجميله وبساتين أنريانه • ورأينا على البعد مدخل الحي العربي وكان مسليا لنا ان نرى الفوضى ضاربة أطنابها في الشـــوارع ، حيث يرى المرء كل شيء : الحافلات الأوربية والحناطير الباتســة وحمير الركوب وحمير التحميل والبغال والجمال ، والاغنياء والفقراء والمتسولون والشرقيون المسلمون الأصلاء وأنصاف الأوربيين من أهل الشرق الأدنى ، وبالاضافة لكل هذا يرى المرء جمعا من الغربيين كسياح وما الى ذلك • ولما عبرنا قصر النيل عبرنا جسرا وجـــدنا الممرات الظليلة بين الحـــدائق المواجهة للمدينة ( القاهرة ) ، وبالقرب من قلعة ( قصر ) طوسون باشا المحاط بالقنوات المائية والمروج توجد مزارع ممتدة لقصب السكر ، واقترحنا أن نقوم بالصيد في احدى هذه المزارع وكان الأمير تاكسيس Taxis وأخو البارون ساورما في انتظارنا في المـــكان ، وكانت البنـــادق معـــدة والكلاب على أهبة الاستعداد •

وظللنا لفترة طويلة ولم تشم الكلاب الألمانية ( من نوع داشهند Dashshunds ) ما يدل على وجود ما يمكن صيده ثم سمعنا عواء عاليا بالقرب من حافة الحقل ، ولسوء الحظ فان الذئب خرج من مخبئه الى بقعة لا يمكن أن تطوله فيهـــا البنادق لذا ، فقد عبرنا القناة (الترعة) العريضة الى مزرعة أخرى • وأطلقنا الكلاب مرة أخرى لكننا اضطررنا للتخلي عن رياضـــتنا بينما كانت الـــكلاب قد راحت تتشـــمم ريح

الطرائد بالفعل ، ذلك أن الفلاحين كانوا قد بدءوا فى قطع القصب فى أحد جانبى الحقل ٠

لقد كان عدد كبير من الفلاحين البؤساء يلبسون ألبسة متواضعة ــ رغم أن لبعضهم منظرا يوحي بالقوة ــ يعملون تحت اشراف خولى overscor يلبس عباءة طويلة ويحمل في يده كرباجا من جلد وحيد القرن ، وقد تقدم منى هـذا الخولى بزهو وتحدث طويلا وهو يومىء كثيرا أثناء الكلام ، وقد فهمت بعد لأى أنه يرغب منا مغادرة الأرض ٠ ولما رأيت أنه يرفع صوته أكثر من اللازم ويحـرك يده بعنف استدعيت عثمان الخادم الأسود للبارون ساورما ، ولما رأى هذا الشرقى الفاضل ( الخولى ) البزة المميزة لخادم القنصل انخفض صوته وتراجعت نبراته وانسحب سريعا خـوفا من خطر يحيق به ، واختبأ داخل أعواد القصب الكثيفة (٢٣) ٠

وعدنا جميعا الى الحافلات ٠ لقد كانت أول محاولاتنا للصيد غـير ناجحة ، وان كنا قد أطلقنـا النار عـلى بعض الطرائد الصغيرة ٠

وقد صحبنا البارون ساورما للقاهرة القديمـة (٢٤) وهى أكثر مناطق القاهرة قدما وتقع ناحية الجنوب ، وكان علينا أن نعبر الجسر ( الكوبرى ) مرة أخرى ثم ندور بالقرب من النيل الى اليمين بالقرب من قصر نائب الحاكم Vice-Vegal لقد أدى بنا الطريق بسرعة الى أكثر المتاهات اثارة ، حيث الخرائب والبقايا والقاذورات والأطلال من مختلف الأنواع ٠

ويقطن أفقر السـكان فى مسـاكن بائسـة عـلى وشك الانهيار ٠ لقد انتهى الطريق الذى يمكن أن تقطعه الحافلة بين الأحجار وأكوام الرمال ، وكان علينا أن نغادر الحافلات بين نخلتين وأن نتابع مسيرنا على الأقدام ٠

ومن فوق كومة عالية كان أحد جوانبهـا يمثـل بقايا جدار قديم لآخر منازل المدينة متعنا العين بالمنظـر الـرائع

وفى هذا الموضع تمرح الضباع وتعـوى أبناء آوى وتنبح الكلاب المتوحشه ليلا • لقد طوقت السحب قرص الشـمس بتدرج لونى متباين ، بينما هى تغرب فى الصحراء الليبيه ( الغربية ) البرتقالى لونها ، جعلت كل شىء يسبح فى بحـر من ذهب • والاهرامات ومآذن المدينة وفتحـات حصـــونها والقلعة ومنحدرات جبل المقطم الحادة • لقد كانت صـورة فى الغاية من الثراء تشكيلا ولونا لا شىء يمكن أن يتصوره المـرء أكثر جمـالا من ذلك • انه منظـر غاص بكل ما فى الطبيعة وما فى العمارة من بهاء •

ويقع مسجد قصر العين Kasr el-Ain Mosque المخــرب والمهجـور بين أكوام من الحطام ، وجـدرانه القديمـة قد سكنتها أنواع من طيور الكروان ، وهـو طائـر يفضـل المستنقعات وينشط فى الظلام ، فاذا هبط الليل غادر أوكاره يصيح صيحات حادة غير منقطعة ويتخذ سبيله للنيل ويسمع المصريون عزفه طوال الليل فى سائر أنحاء مصر •

وقد تمركزنا عـلى طول المسـجد ورحنا نراقب هـذا الطائر الغريب ، فكلما أعتم الليل كانت مجموعات منه تغادر أوكارها • انها طيور سريعة وحذرة للغاية حتى ان هويوز Hoyos كان هو الوحيد فينا الذى نجح فى اسقاط واحد منهـا • ورحنـا نتعثر فوق الخرائب والأطلال مسترشدين بنباح الكلاب التى رحنا نحثها ، وبحملقات العرب البارعين فى قص الأثر والذين خرجوا من جحورهم ( بيوتهم ) حتى وصلنا الى حافلاتنا •

لقد كان طريق العودة شاقا وبطيئا فلم نستطع معرفة وجهتنا فى الظلام خلال خرائب القاهرة القديمة وأطلالهـا المعقدة ، وقد وصلنا بعد ذلك لبسـاتين وحـدائق وأخـيرا وصلنا للمدينة ( القاهرة ) الحديثة بشـوارعها المزدحمـة والمضاءة اضاءة جيدة •

ولما وصلنا مستقرنا وتناولنا عشاءنا أتى مواطنونا وهم يحملون المشاعل الى حدائق قصر النزهة • وكان عزفهم « يحفظ الله الامبراطور » وصيحاتهم وترحيبهم يدوى ـ بشكل غريب ـ خلال ليل أفريقيا الهادىء الرائع • وعند انتهاء هذا الترحيب الحار ذهب كل منا لينال قسطه من النوم والراحة •

وفى بكور اليوم العشرين اتخذنا سبيلنا الى اقدم الاحياء العربية لنحضر قداسا فى كنيسة قبطية • لقد وصلنا لابواب مبنى قديم بعد ان مررنا بممر ضيق لا يمكن دخوله الا سيرا على الاقدام ، والمساكن المجاورة لهذه الكنيسة يسكنها مسيحيون وبخاصة القبط، وبمرور الوقت كثر عدد المسيحيين القاطنين حول الكنيسة التى يسمونها « بيت المسيحيين House of Christians • وكان فى انتظارنا بعض الاكليروس ( رجال الدين ) بملامحهم الداكنة ولحاهم الطويلة وسحنهم التى تشبه بشكل واضح سحن اليهود وعباءاتهم السوداء ذات الثنيات ، وهم مختلفون جدا عن كل أكليروس الملل الأخرى ، وكان أسقفهم فى مقدمتهم •

والعقيدة القبطية ـ كأى شىء آخر فى الشرق ـ بقيت دون تغيير فى الأعراف والعادات والطقوس والملابس الكهنوتية • فهم يرتلون القداس كما كان يرتله المسيحيون الأوائل الذين أدخلوا المسيحية من آسيا الى أفريقيا ويؤدون الطقوس ويبشرون بالطريقة نفسها التى كان يتبعها أسلافهم • لكن طقوسهم وشعائرهم لا تتفق أبدا مع طقوسنا وشعائرنا فى الغرب وانما احتفظوا بها (الطقوس والشعائر) كما كانت • ونحن نرى فى القبط المصريين صورة عقائدية للمسيحية فى أيامها الأولى • ان هؤلاء المصريين القبط هم ممثلو عقيدتنا فى شمال شرق أفريقيا وان كان أثرهم قد امتد بعيدا داخل القارة المظلمة •

ومن الناحية العرقية فان قبط مصر ينتمون لعرق نفسه الذى ينتمى اليه المصريون الآخرون (٢٥) ورغم انتصار الاسلام وكثرة اتباعه ورغم قلة عدد المسيحيين الاقباط بالمقارنة بالمسلمين ، الا أنهم كانوا قادرين على الاحتفاظ بعقيدتهم وتراثهم حتى اليوم •

وقد رأينا بين الكهنة والقسس وغلمان الخوروس (٢٦) ( بضم الخاء والراء ) (★) الوجوه البنية الداكنة لوجوه الافارقة الخلص • لقد كان هناك مصلون كثيرون خاصة من القبط — رغم وجود مسيحيين آخرين يتبعون طقوسا كنيسة أخرى — فى الكنيسة البسيطة الفقيرة • وترتدى نسوة الأقباط الملابس الشرقية القديمة مثل المسيحيات فى بلاد الشرق ، وقد رأينا نسوة كثيرات بعد ذلك يرتدين الملابس ذاتها عند زيارتنا للأماكن المسيحية المقدسة ، والنسوة القبطيات محجبات بحجاب أبيض مثلهن فى ذلك مثل المسلمات • وبعد تلاوة القداس استأذنا فى الانصراف من ممثلى هذه الهيئة الدينية التى تعد أكثر الهيئات الدينية طرافة ( بالنسبة لنا ) واتخذنا سبيلنا للتجول فى الأحياء العربية ومعرفة ما بها •

وقد قدمت لنا الأحياء الشرقية فى القاهرة صورة خصبة من حيث اللون والتأثير جذبت اهتمامنا ، ولا يستطيع غير الشرق أن يقدم لنا كل ذلك • دعونى الآن أشير الى بعض المسائل التى جذبت اهتمامى ، وان كانت أمور الشرق تحتاج لمساحة أكبر ودراسة أدق وجهد خاص لتسجيل خصائصها بدقة وتفصيل •

لقد مررنا بين محلات وأسواق ومقاه حيث الجلبة المتولدة عن حياة العرب — لنصل الى أول مقاصدنا وهو المسجد القديم (٢٧) ذى الطابع التاريخى •

---

(★) الغلمان الذين يرتلون فى جوقة الكنيسة — ( المترجم ) •

لقد كانت الطرقات الضيقة مسقوفة في كثير من المواضع بالحصر أو السجاد لحجب الشمس ، وكانت المنازل مبنية بالطين وبها نوافذ ناتئة مدورة ( مشربيات قوسية (bow window ) (*)(٢٨) جميلة وأخرى مشبكة خاصة بالحريم، وكل حليها (٢٩) ورخامها على النمط العربي • انه مزيج مدهش يحلو للمرء النظر اليه • لا شيء يتسم بالتناسق ( السيمترية ) ومع هذا فكل شيء يستحق التأمل بل ويستحق أن يسجله فنان بريشته فحتى الخرائب تعطي للصورة تأثيرا ينم عن خصائص الأصالة الشرقية •

لقد دخلنا ساحة the Court مسجد الحسنين وهو مسجد كبير وجميل ، بني احياء لذكرى الحسن والحسين أولاد ( الامام ) علي زوج ابنة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وقد استشهد الحسين في معركة كربلاء سنة ٦٨٠ للميلاد ، وتم الاحتفاظ برأسه في هذا المسجد ويعقد احتفال كبير كل سنة احياء لذكراه طول أربعة عشر يوما في شهر ربيع الثاني ، وهو الشهر الرابع في السنة الهجرية(٣٠) •

وقد خلعنا نعالنا وصحبنا درويش لطيف الى داخل المبنى ، وكان مبنى المسجد من الداخل حسن العمارة ثرى الزينة •

لقد كان يجلس في حلقة عدد من الناس تدل أثوابهم الشرقية على الثراء ، على سجاجيد فاخرة وراحوا يقرءون بصوت خفيض تفسير القرآن ( الكريم ) من كتب قديمة ، وفي الوقت نفسه يقوم شيخ عالم بشرح لبعض الفقرات المهمة وهو جالس وسط حلقة المؤمنين • وراح آخرون يركعون ويسجدون وهم يولون وجوههم صوب مكة (المكرمة) •

وفي هذا المسجد كما في المساجد الأخرى يتم تزيين المحراب بالمخمل الأخضر وهو يشير الى اتجاه الكعبة أكثر

---

(*) المقصود به مسجد الحسين كما سيتضح — ( المترجم ) •

الأماكن — على ظهر الأرض — قداسة عند المسلمين • وتتدلى ثريات ضخمه من القبـة ، ولا تقـل التصميمات الشرقيـة الأصيلة داخل المسجد ، في جذبهـا لانتبـاه الغرباء ، عن سلوك المؤمنين المترددين على المسجد •

وفى ساحة مجـاورة للمسـجد توجـد ميضاة جميلة يرتادها المسلمون للوضوء • ان نظرة لهذا الحوض بحوافه من الحجارة المصقوله تعطينا انطبـاعا بالنظافة الفـائقة • وبمزيد من البحث يتأكد الانسان أن القرآن الكريم فرض على المسلمين النظافة فقبل أن يدخـل المسـلم أكثر المواضع طهارة فى المسجد عليه أن يتوضأ • والمسـلم يبدأ وضـوءه وهو جالس ويتمتم ببعض الأدعية أثنـاء ذلك • ويمنعنى الأدب واللياقة من الاغراق فى الوصف أكثر من ذلك • وبعد اتمام الوضوء يتوجه المسلم الى بيت الله • ولقد لاحظت مرات عديدة أن عددا من الأشـخاص يذهبـون للميضأة فى وقت واحد ، مع أن هذا الحوض الصغير ( الميضأة ) به ماء غـير متحرك فليس له مسرب ( بفتح الراء ) يدخل الماء منه وليس له مخرج ، فالماء فيـه غـير جار ، وفى كل ممرات المسـجد وأروقته تجد زرافات من الناس يدخلون ويخرجون ولمظهرهم منظر لافت للنظر بعباءاتهم الطويلة ، ويناشـدك المتسولون المصابون بالعرج أو الشلل بمنظرهم المرعب أن تدفع لهـم الصدقات • وبينما كنا نغادر المسجد وجدنا رجلا كبير السن ذا لحة بيضاء ، يرتدى لباسا شرقيـة فخمة ويمتم بعمـامة خضراء اشارة الى أنه شريف ( من نسل الرسول صلى الله عليه وسـلم ) ، وجدناه يترجـل من فوق حصـانه القـوى ذى السرج الفاخر وسـلم رسـنه ( بفتح الراء ) للخـادم الذى يتبعه ، ثم دخل بيت الله بوقار •

لقد كان هذا الشرقى المميز صورة حية جعلتنى دوما أتخيل الحكماء فى الخرافات الشرقية الرائعة ذات المغزى •

واتخذنا سبيلنا بعد ذلك للجامع الأزهر الشهير ويرجع تاريخه الى تاريخ القاهرة ذاتها ، وقد بدأ بنيـــانه جــوهر قائد جيوش الخليفة المعز • ويتطلب وصــف هـــذا المبنى ( المسجد ) العتيق أن نرجع لتاريخ القاهرة •

فعندما استولى عمرو بن العاص قائد جيــوش الخليفة عمر على حصن بابليون الذى يقع فى القاهرة القديمة الان ( حى مصر القديمة ) .(٣١) وبدا يتخذ طريقه للاسكندرية بنت حمامة ــ فيما تقول الحكاية ــ عشها عند الخيمة التى كان عمرو يقيم فيها أثناء الحصار وبدأت ــ أى الحمامة ــ تضع بيضها ، قام القائد عمرو بعــدم هــدم الخيمة حتى لا تنزعج الحمامة • والكلمة العربية الدالة عــلى الخيمــة تعنى الفسطاط fostât (٣٢) •

وعاد عمرو الى خيمته هذه بعد أن استولى على الاسكندرية فوجد حولها مدينة تحمل اسم الفسطاط فبنى عمرو بنفســه هذا المسجد فسمى بعد ذلك جامع عمرو ، وعنــدما اســتقر العرب فى عهد عثمان بن عفان ( رضى الله عنه ) فى وادى النيل أصبحت الفسطاط هى حاضرة ( عاصمة ) مصر التى تقيم فيها الحكومة ، وعندما زار الخليفة المأمون ( ٨١٣ ــ ٨٣٣ ) بن هارون الرشيد مصر كان بالأزهر فعلا مدرســة لتلقى العلم ، وزاد ازدهار الفســـطاط تحت الحـــاكم أحمد بن طولون الذى أعلن نفســه سلطانا على مصر (٣٣)، وجعل الحكم فيها لورثته • وفى غضون حوالى مائة عام فقدت الفسطاط وضعها كعاصمة فعندما استولى جوهر قائد جيوش المعز الذى أعلن نفســه خليفة فى المغــرب ( تونس ) عــلى الفسطاط باسم سيده المعز، قام بتأسيس عاصمة جديدة غير بعيد عن الفسطاط ، ولما قدم المعز لمصر استقر فى هـــذه العاصمة الجديدة وأسماها مصر القاهرة Masr el-Kahira وهكذا أصبحت القــاهرة عاصــمة لامبراطــورية الخلفــاء الفاطميين ، وسرعان ما نمت وتطورت تطورا سريعا •

والمعز هو ابن العزيز بالله وخليفته هـو الذى أسس جامعة الازهر the University el-Azhar ، وقد امتدت المدينة الى باب النصر وباب الفتوح (وهما البوابتان الأثريتان اللتان سنتحدث عنهما فى ثنايا هذا الفصل ) فى عهد خليفته الحاكم • ولم يبذل صلاح الدين الأيوبى الذى بنى القلعـة وأحاط القاهرة بسور جهودا كبيرة كالتى بذلها الفاطميون لتطوير المدينـة • وقد زين كثير من السـلاطين المماليك القاهرة بمبـان جميلة خاصـة قلاوون والأشرف خليـل وحسن (٢٤) وبرقوق وقايد بك والغـورى ، ورغم هـذا فقد كان سكان القاهـرة ـ وهذا حقيقى ـ يعانون من استبداد المماليك وجشعهم وسـلبهم اياهم بشـكل لا يحـده حـد • وفى سنة ١٥١٧ وضـع السلطان سليم الأول العثمانى نهاية لتطور القاهرة ونموها : فبعد انتصاره فى معركة عين شمس استولى على القاهرة عنوة ، وشنق طومان باى آخـر سلاطين المماليك عـلى باب زويلة فى ١٥ أبريل ١٥١٧ ، واختفت القاهرة من صفحات التاريخ ولم تدخله مرة أخرى الا أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر •

لقد كانت كل هذه الحوادث التاريخية منذ أيام الاسلام حاضرة فى فكرنا ونحن ندخل الجامع الأزهر الذى تحول الى جامعة ( مدرسة ) فى عهـد الخليفة العزيز بالله ( ٩٧٥ ـ ٩٩٦م ) ولازال الجـامع الأزهـر هـو أكثر الجـامعات شهرة فى الشرق ، وهـو بمثـابة معمـل لتفريخ التعصب الاسلامى (★) and Likewise the breeding place of Mohammadan fanatism.

(★) هذا يبين بوضوح أهمية الازهر الشريف فى الحفاظ على روح عصر ، ويلاحظ المترجم تحامل معظم الرحالة الاجانب ضد الازهر الشريف وتفضيلهم الاسلام اللاعقلانى ـو غير العملى أو اسلام الدراويش • راجع مقدمة المترجم •

ومبني المسجد واسع جـدا وصفوف الاعمدة فيه يتبع بعضها بعضها الاخر ، والاروقة متتالية ، وقد أمتعت نفسي بملاحظة أساليب الحلاقين الشرقيين العريقين الى جانب بوابة الجامع الرئيسية • لقد جلس هؤلاء الحلاقون متربعين عـلى الارض وأمسكوا برءوس ضحاياهم ( زبائنهم ) بين ركبهم وواصلوا تفريشـها بالصـابون اللاذع وراحـوا يحـكون بأمواسم رءوس الزبائن حتى غدت ناعمة كالزجاج • فالمسلم الحقيقي يجب ألا يكون في رأسه شـعر (٣٥) ، فلا أحـد من المسلمين يحتفظ بشعر لرأسه سوى أفقر الفـلاحين أو البدو غير المتحضرين • وفي المدن تعتبر الرأس الصلعاء دالة من دلالات الجمال •

ويقوم الحلاقون بحركات رشيقة أثناء تزيين زبائنهم وقص شعورهم وغسل رءوسهم وتعطيرهم بعطر زيت الورد وغيره من الدهانات العطرية مما يروج لنشـاطهم ( يمثـل دعامة لعملهم ) •

ثم مررنا بمسجد آخر صغير تابع للجـامع الأزهر في الساحة الواسعة ، وبه أحواض ( ميضاة ) ، والممرات المحيطة به مقسمة بعوازل خشبية ، ويوجد في جدرانه شبابيك مغطاة بخشب مشغول Lattices يحفظون فيهـا المخطوطات ، وفي الجانب الشرقي للساحة يوجد الرواق الواسع للمسجد وتراه مزينا بثلاثمائة وثمانين عمودا من الرخام العادي والرخام السماقي والجرانيت وقد تم تزيينها بقطع أثرية تم حشدها جميعا بدون مراعاة كبيرة للتناسق • وثمـة أربعـة أروقة للصلاة كل رواق منها لواحد من المذاهب الاسلامية المعترف بها : المذهب الشافعي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الحنفي والمـذهب الحنبلي ، وهـذه الأروقة يفضي بعضها الى بعضها الآخر عند المؤخرة • وتتـدلى من السـقف مصـابيح ملونة لا حصر لها وتوجد ـ حجرة مزينة جانبية يوجد بها مقـام ( قبر ) الشيخ ( الولي ) عبد الرحمن كخيا Kichya .

وعلى أية حال فان أكثر المشاهد جدارة بالملاحظة هـو الطلاب البالغ عـددهم عشرة آلاف ، والقادمون من مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، والذين يزدحمون في كل موضع في المسجد ، ليس في الاروقة فحسب وانما في الممرات والصحن وكل مكان في هذا المبنى الضخم •

انك ترى هنا كل أجناس البشر من الزنوج السود الى الشركس Cherkesse الصفر الشاحبين • كل الاجنـاس ممثلة هنـا • ان التنوع الشـديد في الألوان والأزياء يبهج عين الرائي بل ويرى المـرء البدو الواعين بعبـاءاتهم البيضـاء يجلسون بين الطلاب كطلاب •

ويجلس المعلمون ( المشايخ ) عـلى مقـاعد مرتفعة في سقائف صغيرة مصنوعة من جـريد مشـبك ومضفر • ان منظرهم مضحك للغاية ، فمعظمهم طاعنون في السن وغالبهم من أصحاب العاهات وقد لبسوا المـلابس الشرقيـة ووضعوا العمائم على رءوسهم والنظارات متدلية عـلى أنوفهم • وهم يصرخون بصوت عال أثناء القاء محاضراتهم على سـامعيهم ويومئون ويشيرون اشارات لم أر أسخف منها • وليس أمام هؤلاء الأساتذة (المشايخ) الا نسخ قديمة متربة من القرآن ( الـكريم ) (★) مصـدر المعـرفة الشرقية التقليـدية ، ويستعينون بعصا طويلة من الغاب ( البوص ) لحفظ النظام بين طلبتهم ودفعهم للانتباه ، ويتحلق حول كل مدرس (شيخ) شباب فاترون لا يبدو عليهم الاهتمام وقد تربعوا أو جلسوا القرفصـاء أو اضـطجعوا فوق التراب • وبعضهم يصـغى وآخرون يكررون بصوت عال خلف مدرسهم ( شيخهم ) • ويمكنك أن تتصور مدى الازعاج في هـذه المؤسسـة التى تسمى جامعة أو مدرسة عليا • انه مشهد مربك حقا بالنسبة لأى أوربى ، فمن الصعب علينا نحن الأوربيين أن نتصـور

---

(★) النص : Old dusty Koran books, the Pros and Cons of Eastern love.

ان الأمور تجرى على هذا النحو فى جامعة القاهرة ( المقصود الأزهر ) ذات الشهرة العريضة فى العالم كله ·

وبعد أن مكثنا قليلا غادرنا الغرف الحارة التى كانت تنبعث منها رائحة مرعبة ، وتحوم فيها جيــوش من الذباب تحث الغريب على التراجع والعودة من حيث اتى ·

وكان علينا بعد ذلك أن نمر بثلاثة مساجد كانت تتميز بالوانها الزاهية ومآذنها الشامخة : جامع السلطان قلاوون الذى يرجع الى عام ١٢٨٧م ، وجامع محمــد الناصر الذى يرجع للقرن الثــالث عشر الميــلادى ، وجامع برقوق الذى يرجع للقــرن الرابع عشر الميــلادى ، وفيما عدا القيمــة التاريخية لهذه المساجد فلم يكن بها كثير مما يثيرنا ·

أما بوابة النصر ، فقد جذبت انتباهنا أكثر مما جذبته هذه المساجد ، فقد كان ــ على جانبيها ــ برجان مربعان ، وذكرتنــا أحجارها الداكنــة الــوقور بتاريخ الحــرب فى العصور الوسطى ·

ولما عبرنا هذه البوابة تتبعنا طريقا قادنا الى ما وراء مقبرة قديمة للمسلمين فوق أكوام من الأحجــار والبقايا ، على طول سور القاهرة الداكن حتى باب الفتوح الشــهير · وكلتا البوابتين آنفتى الذكر (باب النصر وباب الفتوح) ، قد تم انشاؤهما فى عهد المستنصر الخليفة الفاطمى · لقد عدنا الآن الى جانب أكثر حيوية فى الحى العربى ، لنتفحص بعناية كاملة النشاطات المتعددة داخل السوق ·

ولا يستطيع أن يصف أســواق القــاهرة وصفا مفعما بالحياة زاخرا بالألوان الا كاتب محترف عرك الرحلات وجاب الأقطار ، فوصف هذه الأسواق ليس مهمة سهلة ، لذلك فسوف أكتفى بالكتابة عن قليل من المشــاهد المتميزة التى تقــدم صورا حية لها خصوصية متفردة ·

فشارع الموسكى يقطع المدينة العربية القديمة ، ويبدأ هذا الشارع من ميدان العتبة الخضراء ويستمر حتى مقابر الخلفاء • وهذا الشارع هو عصب ( شريان ) حياة القاهريين ذات الطابع الشرقى •

فهذا الشارع يقدم لنا صورة صادقة للعاصمة الشرقية، فهو ليس عريضا ، ومبانيه غير منتظمة كما انه غير مرصوف ، ورطب ، وتتجمع فيه الاوساخ من كل نوع ، وهو مسرح لمعارك بين مالا حصر له من الكلاب الشرسة ، وقد سقف الشارع بالحصر ، ويعج بضوضاء تجلب الصمم ، وتنبعث منه روائح نتنة تثير القرف والاشمئزاز •

وفى مقدورك ان ترى هنا فى شارع الموسكى كل الجماعات الشرقية التى تخطر لك على بال بمظاهرهم المختلفة والوانهم المتباينة : رجال ذوو عمائم وعباءات واسعة غير داكن لونها تسر الناظرين ، وعسكر ، وبدو ، ويهود فى ازيائهم النوراتية ( التى ورد ذكرها فى التوراة ) واتراك، واهل اسيا الصغرى ويونانيون وميديون ومن الشرق الأدنى وارمن ، أغنياء وفقراء ، وفلاحون فى ثياب زرق وفلاحات حملن أطفالهن على صدورهن ، ونسوة ثريات يركبن حميرا ويتبعهن خصيانهن eunuchs يحرسونهن ، وراكبو الجمال ، والبغال المحملة بالبضائع ، والنوبيون داكنو البشرة ، والزنوج الخلص ، والمواكب الدينية الاسلامية Mohammedan Processians ، والدراويش المبروكون والتجار والمتسولون الذين بترت أعضاؤهم، والسقاؤون وقد حملوا القرب الجلدية فوق ظهورهم ــ كل هؤلاء سيتحركون غدوا ورواحا فى فوضى مربكة •

والأصوات المزعجة تؤذى الأذن الأوربية وتكاد تصيبها بالصمم أو تجعل فيها وقرا • فالضوضاء تنبعث من الزحام وكأنها زئير ، أضف الى هذا أنين المتسولين المرير ، وصيحات السائقين ورنين النقود وصلصلتها وقعقعة الكئوس والأكواب

عند اصطدام بعضها ببعضها الاخر ، وصياح الباعة الجائلين وبائعي القهوة (القهوجية) مادحين بضاعتهم بمبالغة وتبجح، وجئير الجمال ونباح الكلاب والصيحات التحذيرية التي يطلقها الحمارون ، وأصوات السياس وهم يجرون أمام العربات التي تجرها الدواب •

انها مناظر جديدة تصافح عيون الغرباء في كل منحنى، وتظل هذه الحركة الدائبة من الصباح الباكر ، حتى وقت متاخر من الليل على طول شارع الموسكي •

وتمتد الأسواق ذات اليمين وذات الشمال داخل ازقة وحوار ضيقة وساحات ـ وهيئة المنظر كله تمثل سوقا شرقية أصيلة تعرض البضائع الشرقية في مبان صممت عمارتها لتعطي طابعا وطنيا أصيلا ، والاهم من كل هذا من حيث صبغ السوق بطابع شرقي هو سلوك المشترين والبائعين •

وسوق الحمزاوى هي سوق التجار المسيحيين ، اما سوق العطارة فتسمى سوق العطارين ، وثمة سوق يقال لها سوق الفحامين Fahhami وهي زاخرة بالبضائع التونسية والجزائرية ، أما حي الجواهرية ( الجواهرجية ) ففي الحي اليهودى ، وخلفه سوق الصاغة ، وأخيرا سوق النحاسين ، وقد تفحصنا هذه الأسواق جميعا •

وقد اشتريت بعض الحلي العربية ودرعا قديما الى حد ما ، وبعض المشغولات الذهبية والفضية • لقد كان البائعون المعممون يجلسون في محلات مفتوحة متربعين With Crossed legs (*) وارتدوا ملابس فضفاضة وراحوا يدخنون الشبوك أو يشربون القهوة ، ويتابعون الغريب بنظرات متفحصة لمعرفة هدفه ، فاذا ما أدركوا أنه جاهل أو ليس له معين ولا يدرك طرق الخداع الشرقية ـ

(*) يمكن ان يكون المعنى « وقد وضعوا ساقا على ساق » ، لكننا فضلنا ما أوردناه في المتن ، لعدم وجود اشارة الى مقاعد ـ ( المترجم ) •

راحوا يتحدثون بحرية بلغتهم ليفرضوا عليه أغلى البضائع، ويضيع الأوربى التعس اذا لم يدركه المترجم الماهر بمدد من العون . فقد يعود الأوربى لوطنه محملا ببضائع قد تكون مغشوشة ، وبها ـ بالتأكيد ـ بعض العيوب ، بعد أن يكون قد خسر ماله كله • وفى السوق يؤكد العرب أنهم جنس سامى حقا كاخوانهم اليهود وأنت لا تستطيع أن تميز بينهما ـ العرب واليهود ـ الا بمشقة •

وأكثر أسواق القاهرة اثارة وتشويقا هى سوق خان الخليلى Chan-Chalil ، فلهذه السوق حى خاص بها ، ويعود تاريخها الى السلطان المملوكى الأشرف صلاح الدين خليل •

ففى هذه السوق تجد الحياة الشرقية مفعمة بالحركة المختلفة والنشاط المتباين • انك تجد أكثر البضائع أصالة ومن كل الأنواع ، وكلها شرقيـة ، بالاضافة الى منتجات زنجية ، خاصة من السودان •

وفى سوق السجاد ذهبت الى ساحة ( حوش ) منزل تاجر ثرى ، وبسط هذا الرجل العجوز باعتزاز يفوق الوصف سجاجيده الراقية الثمينة • انها سجاجيد تركية وعجمية ( فارسية ) ثمينة جدا ـ خاصة العجمى منها •

وبعد أن قضينا ساعات كثيرة فى الأحياء العربية فى المدينة عدنا أدراجنا الى الموسكى ، بعد أن مررنا بشوارع مزدحمة وضيقة • وأول ما لاحظته تلك الحشرات التى لا حصر لها • ملايين من الذباب الكبير الأسود تملأ الشوارع وتحلق حول الشرقيين ، فلا يذبها الواحد منهم بعيدا عن وجهه بل يسمح لها بأن تحط على وجهه فتكاد تغطيه • وهذا الذباب يحمل القاذورات والعدوى الى العيون وهذا يفسر أن عددا من الأشخاص مصابون بالعمى وآخرون مصابون بأمراض عيون تجعل مناظرهم تدعو للقرف والاشمئزاز • وبشكل عام فان المرء يرى فى الشوارع العرج والمشلولين

وأناسا مصابين بعاهات وأمراض وتشوهات بعضها لا يخطر على بال أوربى ·

وفى الموسكى استأجرنا حميرا · وهى حيوانات هزيلة مزودة بسروج ( برادع ــ والجمع بردعة ) ويستخدمها الالوف لقطع القاهرة من طرف الى آخر ، وهى بذلك تحل محل العربات التى تجرها الخيول فى أوربا ( الكايات Cabs ) .

وسارت بنا الحمير بخبب سريع حينا وبعدو حينا اخر ويحثها الحمارون السائرون خلفها ، فقطعنا شارع الموسكى كله وعبرنا الحى الأوربى وعبرنا ترعة الاسماعيلية الى حى شبرا ثم عدنا لقصر النزهة ·

وبعد ان مكثنا قليلا ذهبنا لنائب السلطان ( الخديو ) Viceroy ، لزيارته زيارة مبدئية وان كان ميعاد الزيارة الرسمية لم يحن بعد · وكان قصره الذى يصرف فيه امور البلاد يقع فى الجانب الغربى لمدينة القاهرة الحديثة ، وهو مبنى ضخم على النسق الأوربى تماما ، فليس به أى طابع محلى خاص ·

وقابلنا الخديو بود شديد وفقا للعادات الشرقية ، وقدمت لنا القهوة الممتازة فى فناجين تركية صغيرة ودخنا الشيبوك ·

وسرعان ما انتهت الزيارة ، فاتخذنا طريقنا عبر الحى الأوربى ثم مرة أخرى عبر الأحياء العربية ، حتى وصلنا لجامع السلطان حسن القريب من القلعة · انه مسجد ضخم عتيق ، لكنه ــ للأسف ــ مهمل اهمالا جسيما ، مع أنه أجمل الجوامع التى رأيتها فى القاهرة فهو مبنى على طراز عربى صميم ، ومن المحزن أن أقول ان قبر السلطان الميضأة والأروقة ــ كل ذلك مخرب ·

وعلى أحجار الأرضية يرى المرء آثار دماء لازالت باقية منذ أيام مذبحة الانكشارية الأولى سنة ١٣٥١ ·

وعدنا لمصـرنا سـالكين اقصر الطـرق لنتناول افطارا سريعا خفيفا . لنبدأ من جديد رحلة الى الاهرامات بأربعـة خيول . وحوذيين .

لقد كان الطريق الذى سلكناه يمر ـ أكثر من مرة ـ خلال كل المدينة ذات الطابع الاوربى حيث للمبانى تصميم أوربى الا انها ذات زينات وزخارف شرقية ، فكانت جذابة بفضل هذا المزج بين ما هو شرقى وما هـو غربى . لقـد أبهجتنى البساتين الناضرة بأزهارها الفـواحة وشجيراتها ونخيلها التى تداعب النسائم أغصانها وجريدها ، ورايت وسط المدينة عددا من الطيور الجارحة : آلاف الحدءات تحلق فى الجو أو تقف على الأسطح ، وصقور الجيف التى تنقض فى الشوارع . وسمعت أغانى الطيور وهديل الحمام وغمرت نفسى فى النسائم الشافية لمصر المقدسة ، متذكرا شتاء أوربا القارس الذى هربت منه ذات مرة .

وعند قصر النيل الفسيح عبرنا النهر المقدس وجزيرة بولاق وتجاوزنا بعض الفيلات Villas الخاصة بنائب السلطان ( الخديو ) وبعض الحدائق البهية ، وسرعان ما وصلنا الى طريق مرتفع تحفه الأشـجار ويمتـد بشـكل مستقيم بين الأراضى الزراعية ويمر ببعض القرى العربية البائسة حتى حافة الصحراء .

★★★

لقد سارت بنا المركبة مسافة بضع مئات من الخطوات فى الرمال الصفراء للصحراء الليبية (الغربية) ، وتوقفت عند قاعدة تكوينات عملاقة تطل علينا من عمق آلاف السنين من تاريخ العالم . ان كل رحالة يحملق ـ للمرة الأولى ـ فى هذه الآثار ( الأهرامات ) الباقية من أزمنة سحيقة لتغشـاه رهبة من نوع خاص ، أيمكنه أن يلمس بيديه أحجارا ظلت

باقية منذ أيام ما قبل ابراهيم ( الخليــل ) • انهــا لازالت باقية بسبب جهد الانسان ومهارته •

ولئن وصــفت أهرام الجيزة لكررت اذن عمــلا قدمه غيرى أكثر من مرة ، فقبور الأسرات الحــاكمة التى تعــود للعصور القديمة تغوص الى مستوى الريجى (؟؟)(★) " level of a Rigi • ويسيء السائح الغربى الى هذه الأحجــار الجليلة فهو لا يدرك كنه دلالاتها •

لقد رأينا أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع • كما رأينا ( أبو الهول ) وقد غطت الرمال نصف جسده ، وشرع بعض العرب فى تسلق الهرم الثانى لطرد حيوانات ابن آوى الكامنة بين صخوره ، ولسوء الحظ فاننا لم نكن نتخذ موقعا جيــدا لذا فان اثنين من هذه الحيوانات قد هربا دون أن يلحق بهما أذى وانسلا الى الصــحراء الشاســعة بين الــوديان الجــافة والتلال • وقد أطلقنا بعض الطلقات من موقعنا عنــد سفح الهرم على هذه الحيوانات وهى تهبط مسرعة قافزة برشاقة غير معتادة بين الأحجار ، لكن أيا من طلقاتنا لم يصب هدفا ، فقد كانت المسافة بعيدة جدا •

وقد أعطتنى الأهرامات انطباعا ــ خاصة عندما يتسلقها انسان أو حيوان ــ انها أقرب ما تكون جبال صناعية عظيمة شيدها الانسان أكثر من كونها أثرا معماريا •

وغربت الشمس وسبحت المرئيات فى بحر من الضياء البهية ، وتألقت أحجار الأهرام الرمادية كالذهب ، أما وادى النيل ومساكن القاهرة والقلعة والمقطم من وراء ذلك كله فقد صبغت بدرجات من اللون القرمزى • وكان علينــا أن نسرع بالعودة الى مقرنا فسلكنا الطريق الذى جئنا منه •

---

(★) لم نفهم المعنى المقصود ، فقدمناه كما هو ــ ( المترجم ) •

وفي حي شبرا وجدنا نشاطا صاخبا فثمة من يركبون خيولا عربية جميلة ، وثمة مركبات تسير في صفوف رائحة غادية • انه منظر ينم عن الحيوية والنشاط والمرح لا يمكن رؤيته الا في بلاد الجنوب • وذلك بعكس الحال في بلاد الشمال حيث الدورسكيات ( عربات ذات عجلتين او اربعة تشيع في بلاد أوربا خاصة روسيا ووسط أوربا )(٣٦) التي يرتعد سائقوها في أمسيات شهر مايو • وثمة مركبات كبيرة وجميلة على نسق المركبات الأوربية، لكن كل خدمها والعاملين عليها يرتدون جميعا الطرابيش • ويركب المسلمون الاثرياء والباشاوات وأهل الشرق الأدنى واليونانيون الأغنياء مركباتهم لتنسم نسائم المساء الباردة ، وقد سعدنا غاية السعادة بركوب ( الحناطير ) التي يقودها ( عربجية ) شرقيون • وكان يجلس خلفها طواشية ( أغوات ) سود بملامحهم البغيضة القاسية ، وقد ارتدوا أزياء نصف أوربية — وهم في وضعهم هذا يسدون مسد الخدم أو جنود الحراسة •

وفي داخل هذه المركبات ( الحناطير ) توجد زوجات الموظفين الكبار وزوجات عدد من البشوات ، بل وحتى بعض الأميرات • وكلهن يرتدين الملابس البيض الشرقية وتبدو من خمرهن البيض عيونهن السوداء المتألقة ، وملامحهن الجميلة وحواجبهن المزججة على هيئة أنصاف الأقواس ورموشهن الطويلة • أما الفقراء فيركبون الحمير والمركبات البائسة ( الدورسكيات ) •

وعند وصولنا لمقرنا ارتدينا ملابسنا سريعا وذهبنا لقصر الخديو وتناولنا عشاء فاخرا كان قد دعى اليه النظار ( الوزراء ) وقناصل العموم Consuls-general ، وتم تقديمنا هناك لاخوة الخديو ، وكان القصر على النسق الأوربي أما الخدم فكانوا جميعا أوربيين فيما عدا أولئك الذين يقدمون القهوة والشيبوك •

وبعد العشاء ذهبنا مع الخديو الى حدائق الازبكيه الواسعه التى تقع داخل المدينة حيث اقامت الجاليه النمساوية المجريه مهرجانا ترحيبا بنا • فعلقت المصابيح فى الاشجار وجرت الالعاب الناريه وابدى الراقصون والمغنون مهاراتهم فى خيام معدة لهذا الغرض ، وصدحت الموسيقى العربيه ، ولعب الحواة بالافاعى وابتلعوا النيران واستعرضنا الرواة (القصاص) والزنوج والنوبيين وشاهدنا مسرح العرائس • وباختصار فقد كان معرضا لكل الفنانين من هذه الطبقة التى يغص بها الشرق •

لقد تم فتح بوابات الحديقه ــ لسوء الحظ ــ فى وقت متأخر جدا فازدحمت ازدحاما شديدا فكان من المستحيل ان نتجول فيها بحرية • لقد كنا نتعرض بشكل مستمر لاحتكاك الجموع بنا ، ولم نستطع الا بمساعدة بعض أهل دلماشيا بثيابهم الكاملة ، الذين شكلوا جدارا بشريا حولنا ــ ان نصل الى البوابة ومن ثم لحافلاتنا التى تنتظرنا خارجها • وسرعان ما وصلنا لمقر اقامتنا ، وبعد هذا اليوم الحافل كان الخلود للراحة هو أفضل تكريم لنا •

وفى صباح اليوم التالى سرنا خلال جانب كبير من المدينة الأوربية ( ذات الطابع الأوربى ) فى طريقنا لمتحف بولاق فى الطرف الجنوبى لجزيرة بولاق •

ويضم هذا المتحف احدى أثرى المجموعات من الآثار المصرية وأكثرها شهرة ، وهو مبنى فسيح الأرجاء جيد التنظيم يضم مالا يقدر بثمن من كنوز الآثار التى تعود لقصر الفراعنة القديم ، ويتولى ادارته فرنسى خلف ماريت باشا Mariette الأثرى الشهير الذى وافاه الأجل مؤخرا ويشغل برجش باشا Brugsch عالم المصريات الشهير هو الآخر منصبا فى هذا المتحف • وقد دلنا على أكثر قطع المجموعات اثارة وأهمية • ووصف متحف بولاق

يتطلب أستعدادا علميا فائقا بالاضافة الى أن قطعه قد كانت موضع دراسه ووصف فى كثير من الدراسات صدرت بالفعل • لقد تمحصنا كل شىء بعنايه فى غرف المتحف وفى حديقته الصغيرة ، وجذبتنى كثيرا بعض المياوات من عصور المسيحية الاولى فلم اكن أظن – قبل رؤيتها – أن مميـاوات من هذا النوع لازالت موجودة • لقد ذكرتنى بتألقها ومظهرها ذى التزينات الثرية ووجوهها السوداء بالسيدات البيزنطيات Byzantine Madonnas (★) وبعـد طـول تجـوال فى المتحف غادرناه الى مقر اقامتنا • وما كدنا نرتدى ملابسنا الرسمية ( ملابس البلاط ) حتى ظهر الباشـا الذى يتـولى أمور المجلس العسكرى Court Marshal تحت اشراف الخديو، ليرافقنا فى زيارتنا الرسمية ( زيارتنا التشريفية ) لسموه •

وركبنا مركبة فخمة مذهبة تجرها ستة خيول انجليزية ضخمة وجميلة ، وأحاط بمركبتنا الفرسان ، وتعلق بها من الخارج بعض الأشخاص ، وسارت المركبة فى رحلة طويلة الى قصر الخديو ( نائب السلطان Viceroy ) وكان الطابع العام للحافلة ذا طعم خاص مميز ، فكان عـلى العـربة ذات التصميم الأوربى ما يشبه العباءة التى تطرح عـلى الأذرع وعليها هلال ونجمة أما الحـوذى والمتعلقـون بالعـربة من الخارج فكانوا يلبسون بذات غربية ( أوربية ) وان كانوا يضعون الطرابيش على رءوسهم ، وتقدم السـايس الموكب بزى شرقى كامل •

ووقف خلق كثير فى الشوارع وراحوا يحملقون فينـا يحفزهم حب الاستطلاع • وفى الميدان المواجه للقصر كانت فرقة من المشاة فى لباس أزرق فاتح يعزفون النشيد الوطنى وتبع ذلك تهليل عربى لاظهار الاستحسان فشرعت جمـاعة اثر جماعة تجأر ( تصيح ) وأفرادها يقدمون أسـلحتهم • وانتظرنا الخـديو بأبهتـه الكاملة كباشـا تركى تحيط به

---

(★) ربما كان المقصود صور العذراء فى الحضارة البيزنطية – ( المترجم ) •

حاشيته ، واتخذ كل منا مجلسه على مقعد فى القاعة الكبرى، واتخذ المجلس شكل دائرة ، وسرعان ما قدمت القهوة والشيبوكات المزخرفة زخرفات ثرية • وتقديم القهوة والشيبوك ليس مجرد ممارسة لبعث السرور لكنه أيضا يشير للاحترام والوقار ، على نحو ما يشير تدخين الغليون الطويل ( الكاليوميت ) ، وبعد انتهاء الزيارة عدنا لعقد النزهة فى حافلات ضخمة سارت فى موكب يتهادى •

وبعد عودتنا وصل الخديو سريعا ليرد لنا الزيارة • وعندما غادر القلعة قمت أنا والدوق الكبير باستقبال كل المقيمين النمساويين والمجريين وقناصل العموم وبعض من أراد رؤيتنا ، ومن بين هؤلاء رئيس أساقفة الاسكندرية وهو فرنسسكانى من مواليد دلماشيا ، وكان منظره مريحا بسحنته النبيلة ولحيته الطويلة • يا للبائس لقد غرق بعد ذلك واستقر جثمانه فى المياه العميقة ! •

وبعد قضاء بضع ساعات فى أمور المراسم والتشريفات، سمح لنا ، وخلعنا ملابسنا الرسمية وارتدينا ملابس الصيد، لنستعد للصيد فى هليوبولس ، بعد تناولنا الطعام • وقد صحبنا فى رحلتنا هذه البارون ساورما ، وان سبقنا الى مواقع الصيد أخوه والأمير تاكسس •

وكان علينا أن نسلك بعض الشوارع الا أننا سرعان ما تجاوزنا أخيرا بعض المنازل المتداعية على حافة الصحراء وفى الأراضى القاحلة • وقد رأينا عن شمائلنا مسلخا كبيرا دل على اقترابنا منه تحليق كثير من النسور آكلة الجيف • وعن أيامننا تجلى لنا منظر الصحراء الجميل وخلفها سلسلة جبال المقطم المرتفعة • وكانت طواحين الهواء Wind-mills والقبور التى اعتراها الخراب هى آخر المبانى فى منطقة الرمال •

والطريق محمـوف بالارض الزراعية خنيمـه الزراعه ولكنه دائما ابدا قريب من الصـحراء • وقطعنـا الحـدائق الحصر للعباسيه ولمصر توفيق بصـموف اشـجارها الطيلة وبساتين البرتقال بهـا ، وبعـد حوالى نصف الساعه وصلنا لشـجرة مريم tree of Mary التى تنتصب بين شـجيرات وحدائق خيمه • وتوقفنا لننظر الى شجرة الجميز Sycamore التى استراحت تحتها العائلة المقدسـة فيما تقـول الروايه ( النص : فيما تقول الاسطورة Legend ) • انها شجرة عتيقة يلاحظ في فروعها عقد كما ان حجم جذعها وسـماكة لحائها يسترعيان الانتباه • لقد كانت رؤيتنا لهذه الشجرة أفضل مكافأة للمشاق التى تكبدناها أثنـاء الزيارة • لقـد ذهبت جهودنا عبثا لاقتناص أى حيوان بمساعدة كلابنا في مزرعة قصب سكر صغيرة ، وأخفقنا كذلك في مزرعة نخيـل ( أشجار الأريقا Areca ) (٣٧) •

وكان ما تبقى من الطريق يمتد على طول مطبات عاليـة ضيقة ، وكان السير فيه أمرا مرهقا للحافلات الثقيلة لكننا ـ على أية حال ـ اقتربنا من هدفنـا لـكن ببطء • وكانت الأراضى الزراعية تمتد على جانبى الطريق تتخللها القنوات ويزيد من بهائها أشـجار الجميز ، وأشـجار النخيـل ذوات الحفيف • وثمـة بعض القـرى العربيـة الرمادية مشـيدة مساكنها من الطين ولا تجمعات سكنية غير ذلك ، وعلى جانبى الطريق وطواله يرى المرء الفلاحين يعملون فى الحقول •

والجاموس يدير السواقي ، والجمـال تحمـل الأحمال وطيور أبى قردان ( مالك الحزين أو البلشون Leron) تمشى خلف الفلاحين الممسكين بالمحاريث ، وسـعدت أعيننا برؤية طيور مختلفة ، ورأينا الى الجنوب الشرقى الصحراء وجبالها المارية ويعد فترة بدت لنا مسلة هليوبولس الشهيرة وقد أحاطت بها مروج خضر •

وهنا ــ فى هذه البقعة ذات الشهرة التاريخيه ساستعيد من كلمات صديقى برجش Brugsch باشا الوارده فى خطاب أرسله لى يتحدث فيه هذا العالم بالمصريات عن هليوبولس .
« عندما كان المسافر من منف Memphis فى العصور القديمة يعبر النيل ويدخل ما يسمى بالطريق المقدس الذى يؤدى فى الجانب الشرقى للنيل بعد بابليون ( بالقرب من القاهرة القديمة ) نحو الشمال ، فانه سرعان ما يرى على البعد عددا من المسلات التى تشير الى أنه أصبح قريبا من مدينة الشمس ذات الشهرة العريضة بسبب قدمها وتاريخها . انها تقع على حافة الصحراء وتختلط رمالها البرتقالية بأتربة الحقول الداكنة . وقد تم انشاؤها كحرم لاله الضوء (النور) رع Ra الذى تشير اليه أقدم الكتابات على القبور الهرمية » .

« وتشير سجلات كل العصور اليه والى المدينة المجاورة باسم أنو Annu أقدم الأسماء وأكثرها شيوعا . وهى ذاتها أون On ، فى الكتاب المقدس ، التى قطنها رجل الدين بوتيفيرا Potiphera الذى قدم فرعون هذه الأيام ابنته اسنا Asnath ليتزوجها وزيره يوسف . وبالاضافة لاسم المدينة الذى ذكرناه ، فان المدينة وكذلك المعبد حملا اسم ( بى رع bi-Ra ) وتعنى « مدينة رع اله الشمس » ومن هذا الاسم أتى المسمى الاغريقي « هليوبولس » . ويعزى التخطيط الأول وكذلك الموضع للمهاجرين العرب الذين قدموا من الشرق الى الدلتا واستقروا فى موقع مدينة هليوبولس . وهذا هو الاحتمال الأرجح » .

« وقد قام هؤلاء القادمون الجدد ــ عباد الشمس والنجوم ــ بترسيخ شعائر دينهم فى هذه البقعة ، وقد أثرت أفكارهم الرائدة فى الميثولوجيا المصرية وشكلت خطوط عقيدة محددة ، كان يتم الافصاح عنها فى مدارس الكهنة باعتبارها السر الأساسى فى تعاليمهم ، حتى الحقب المتأخرة

من التاريخ المصرى عندما زار الفلاسفة الاغريق كافلاطون ويودكسس Eudoxus المدينة • وقد نجح هؤلاء الفلاسفة الاغريق انفو الذكر بمشقة فى حث كهنة هليوبولس العلماء على أن يشرحوا لهم بعض أهم العقائد ذات الأهمية الفلكية» •

« والأصل العربى للمدينة يبدو ـ دون عناء ـ خاصة فى عبادة طائر مكرس للشمس Was dedicated to the Sun وخصص له « حرم » فى معبد اله الضوء (النور) Light god وهذا الطائر العجيب كان يسمى العنقاء واسماه الاغريق فونكس Phoenix • والسجلات الأثرية مليئة برحلاته من أراضى البخور العربية الى هليوبولس عند اكتمال الدورة الفلكية العظمى » •

« وهذا الطائر مالوف فى الآثار المصرية ، لكن السجلات المقدسة قد جردت هذا الطائر تماما من كل ما يحيط به من غموض ( نزعت عنه طبيعته الغامضة ) فلم يجد المؤلفون الاغريق والرومان حرجا فى وصفه • ووفقا للكتابات الهيروغليفية فان طائر العنقاء الذى يسمى باللغة المصرية القديمة بنو Benuu ينتمى الى جنس البلشون Ardea (★) الذى يتميز بريشه المتالق الذى يلمع كالذهب • واعتاد هذا الطائر أن يهاجر من الشرق الى مصر وقت فيضان النيل • ولم يربط الكهنة المصريون بين هذا الطائر والشمس فحسب بل ربطوه أيضا بنجمة الفجر التى تبشر بالشروق • ويمكننا أن نفترض دون أن نخدع أنفسنا أن مزارع أشجار البخور ( ذات الأصل العربى ) التى وردت فى النقوش تعتبر مرجعا دقيقا يشير الى احتراق العنقاء القديمة فى أعشاش من أخشاب البخور » •

« وتعد هليوبولس وكل المنطقة التى تعد حاضرة ( عاصمة ) لها احدى أقدم المواضع وأكثرها شهرة حتى فى عصور مصر القديمة » •

---

(★) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ـ ( المترجم ) •

« فهليوبولس ، بالاضافة الى منف وطيبة ، تعد معلما من معالم التاريخ • انها تمثل المرحلة الباكرة في التطور التاريخي للحضارة المصرية ، تماما كما كانت منف هي المرحلة التالية لهذه الحضارة ، وكما كانت طيبة هي المرحلة الزاهرة التي مثلت العظمة المصرية من القرن الثامن عشر الى القرن الثالث عشر قبل الحقبة المسيحية • وفي هليوبولس وجدنا المستوطنة الاولى للعرب الكوشيين kushite Arab في تجوالهم قادمين من الشرق • لقد امتلكوا بعد ذلك منطقة شرق الدلتا وأدخلوا عبادة الشمس ، واسسوا اول موطن ثابت لهم » •

« وخلال العصور منذ أيام أقدم الأسرات الحاكمة ازدانت هليوبولس ، بفضل ملوك مصر ، بالمعابد والتماثيل والمسلات التي لفتت كثرتها واحجامها أنظار الكتاب العرب حتى في العصور الوسطى •• أما البطالمة ــ بثقافتهم الاغريقية ــ فقد تركوا مخلفات من سبقوهم لم يمسوها بسوء ، بل وعملوا كل ما في طاقتهم لحماية المعابد من كل ما يدنسها ، وبدأ المستبدون الرومان في سرقة الأماكن المقدسة القديمة وتجريدها من آثارها ، فتم نقل مسلتين في عهد تيبريوس Tibèrus من هليوبولس الى الاسكندرية لتوضعا أمام الكاسيريوم Caesareum أو معبد القيصر • وتم نقل مسلات آخرى الى روما والقسطنطينية لتشير كشهود غامضة لعصور ما قبل التاريخ » •

« ولم تبق الا مسلة واحدة في موضعها القديم ، وهي تلك الباقية شامخة الآن وسط الأرض الزراعية بالقرب من قرية Mulariya ( ؟ ) ويبلغ ارتفاعها من تحت سطح التربة من ٢٠ الى ٢٧ مترا • انها آخر ما تبقى من مدينة الشمس التي كانت عامرة ، كما أنها أقدم المسلات المعروفة والكتابات التي تغطي أحد جوانبها هي نفسها الكتابات التي تغطي كل جانب من جوانبها الأخرى » •

« وتشير هذه الكتابات إلى الملك أوسرتاسن الأول Usertaser ( الذى حكم فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ) باعتباره الآمر بانشائها ، كما تشير أن اقامة هذا النصب ( بضم النون وتشديدها ) الضخم المتناغم المصنوع من الحجر النارى الأسوانى لتتزامن مع بداية فترة فلكية من ثلاثين عاما ، أو احياء لذكرى حلولها • وكانت رأس هذه المسلة فيما مضى مغطاة برقائق نحاسية لامعة سرقها العرب فى العصور الوسطى • والبقعة التى تنتصب فيها المسلة تشير أيضا لموقع المدخل الرئيسى لأقدم حرم لاله الشمس • وثمة أسوار تشبه المتاريس لتحديد الحدود لا تزال بقاياها قائمة تدل فى الوقت نفسه على الزمام الذى كانت تشغله مجموعة من المعابد • وقد نلاحظ ما هو أكثر مستدلين بالشواهد التى قدمتها برديات القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح ( عليه السلام ) أن هليوبولس كانت موقعا جيد التحصين ، وأنها كانت تمثل آخر حصن جنوبى من سلسلة خط الحصون الطويل الذى يمتد مارا ببباستيس Bubastis ( الآن تل بسطه Tell Bast ) وتنيس Tanis ( وهى زون Zoan الواردة فى الكتاب المقدس وتسمى الآن صان San ) حتى ديوزبوليس Diospolis ( الآن دمياط ) الواقعة على البحر المتوسط ، تلك الحصون التى صممت لحماية حدود الدلتا ضد هجوم القبائل المتبربرة القادمة من الشرق » •

« والسبيل من القاهرة الى هذه الآثار القديمة أصبح الآن محددا بطريق مرتفع Cauaseway يمتد قرابة خمسة أميال (انجليزية) على طول حافة الصحراء ، وان قطعه فى أكثر من مكان وجود مزارع وأراضى بناء • فعندما تغادر باب الحديد فى مدينة الخلفاء ( القاهرة ) ينفتح الطريق أمامك تحفه الأشجار مع الجانبين ، مخليا عينيك لتلقيا نظرة رحبة على الصحراء الى سفح المقطم ( يقال انه من حجر جيرى

نميوليتى (Numulite Limestone) . وثمة جبل منعزل (لا يدخل ضمن السلسلة ) هو الجبل الاحمر تميل حمرته للدكانة ، وهو من أحجار سيليكونية Silicious ، يقطعها الناس بكثرة ليجعلوها احجار رحاء ( جمع رحى ، بفتح الراء والحاء ) أما فى الأزمنة القديمة فقد كانوا يجلبون منه الاحجار المتينة لصناعة التماثيل وغيرها من المبانى التذكارية ٠٠ الخ ، فأحجار التمثالين الهائلين الشهيرين الخاصين بممنون Memnon فى الجانب الغربى لسهل طيبة قد جلبت من الجبل الأحمر » ٠

« وجهة اليمين يرى المرء قبور الخلفاء ومساجدهم تتوالى تباعا بغير انقطاع ، ومحطة ضخ شركة المياه القاهرية Cairene Water Company ، ومقابر حديثة للمسلمين والمقر الصحراوى لآخر نائب للسلطان Viceroy (★) عباس باشا ، وهو مخرب بكل ما فى الكلمة من معنى ، وثكنات للخيالة والمشاه ، وأخيرا خزانات ماء وبعض المبانى الصغيرة التى لا أهمية لها ٠ أما الى اليسار فتوجد مزارع حى شبرا الخصبة ، أما الأكثر قربا من الطريق فهو قصر أم الخديو اسماعيل باشا ، ومساحات مخصصة للملاحظين الفلكيين والمختصين بالأرصاد الجوية ٠

وثمة طريق ظليل تعطره الأزهار وتزينه بساتين الأعناب وحدائق الفاكهة على أحد الجانبين يؤدى ـ غير بعيد ـ الى فيلا الخديو الحالى بالقرب القريب من قرية القبة (؟) Kubbe

ويرى المرء الحقول الغناء على أرض الصحراءالزراعية ٠ وتبدو وكأنها تدعو للحياة بفعل سحر غامض ٠ ان هذه الصحراء المزروعة تؤكد ما قاله نابليون ـ وهو قول حق ـ أثناء اقامته فى مصر : « اذا أتت الصحراء للنيل عم الخراب،

---

(★) لم نترجمها (خديو ) هنا : لان هذا اللقب لم يمنح لأحد قبل الخديو اسماعيل ـ ( المترجم ) ٠

أما ان ذهب النيل للصحراء عم الرخاء » • وفى الحقيقة فان رى الصحراء ريا دائما قد أدى الى ازدهار الخضرة ازدهارا ثريا قلما يوجد فى أى مكان آخر •

وبعد أن تكون قد استدرت أمام قصر توفيق باشا ، يتجلى لك سهل زراعى عريض خلف مزرعة أشجار زيتون • وهنا ، فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ حقق الجنرال كليبر بقيادته لعشرة الاف فرنسى نصرا باهرا على ٦٠٫٠٠٠ من المصريين والأتراك •

وخلف قرية المطرية ، الى يسار الطريق — ترى شجرة مريم « التى يتردد الناس عليها للزيارة كثيرا — وهى شجرة جميز لا يزيد عمرها عن مائتى سنة ( أما الشجرة السابقة عليها فقد انتهت سنة ١٦٦٥ ) ويقال ان مريم وطفلها قد استراحا تحتها عند هجرتهم لمصر • وتروى الأرض المحيطة بالشجرة من الآبار ، وبعد ذلك أسماها العرب عين شمس Heliopolis Ain Sherus (*) .

وعلى بعد قليل من الحديقة الى الداخل فى الأرض الصحراوية توجد مزرعة نعام أسستها — مؤخرا — شركة فرنسية تحت اشراف رجل سويسرى هو السيد وتر Wetter ويتم تفقيس البيض بتعريضه لحرارة صناعية وتلقى الطيور الناتجة عناية فائقة • ومنذ أربع سنوات خلت أفرخت هذه الطيور ، وكانت آباؤها قد جلبت من السودان والحبشة • وفى مارس ١٨٨١ كان اجمالى عدد هذه الطيور ستين طائرا بين صغير وكبير وأنثى وذكر •

وعلى بعد نصف فرسخ من هذه المزرعة تقع خرائب هليوبولس التى وصفناها آنفا • وفى هذا المكان المنعزل تقف المسلة شامخة وحيدة شاهدة على أيام مغرقة فى القدم تحيى — من بعد — مسافر هذه الأيام ، ومنتظرة ساعة

---

(*) وهو خطأ مطبعى بالتأكيد والصحيح : Ain-Shmas والدليل المقابل الانجليزى Fountain of the sun — ( المترجم ) •

سقوطها واندثارها ، فاذا ما اندثرت ، اندثر باندثارها آخر شاهد على أرض مصر يدل على أنه كانت هنا مدينة الشمس الزاهرة • وليس أمامنا الا آن نتوقع أن تتبع المسلات الأخرى فتنتقل الى مكان ما فى أوروبا أو أمريكا » • .

دعونا الآن نعد لخبراتنا الشخصية بعد هذا العرض البليغ الذى قدمه برجش باشا Brugsch .

غير بعيد من المسلة يوجد بستان يمتلكه الخديو عامر بأشجار البرتقال وبينها ممرات تزينها الورود والنباتات الأفريقية • ولا تزيد مساحة الحديقة عن كثير من الحدائق الملحقة بالمساكن الريفية فى أوربا ، ويحيط بها سور طينى ، وتقع بالقرب من قرية وسط أرض زراعية •

وحثنا البارون ساورما لنستعد للصيد ، وبينما كنا ندخل الحديقة ( حديقة الخديو اننة الذكى ) خطرت لى فكرة أننا سنجد هنا فى الغالب الأعم حمائم النخيل الأفريقية او بعض طيور الجنوب الصغيرة ، لكننا سرعان ما تعلمنا شيئا مخالفا لما خطر ببالى • واختبأ عدد من الرجال تحت أشجار البرتقال المحملة بالفاكهة بالقرب من الطريق الرئيسية التى تقطع الحديقة ، أما أنا فقد كمنت بالقرب من السور •

وأطلق ساورما كلبين ممتازين من نوع الدشهند وتابعت باهتمام بالغ ميدان الصيد • وبعد دقائق قليلة سمعت الطلقات ، أعقبها فاصل قصير من السكون ، لكن الكلاب سرعان ما نبحت فى الجانب المقابل ، فتركت موقعى لأقترب وأقترب ، وفجأة سمعت حركة حيوان يأتى مسرعا من بين الأشجار يقترب فى اتجاهى ، وفى لحظة أصبح ابن آوى يقفز قفزة كاملة تحت السور ، فأطلقت عليه فهوى ، فخلصت بغنيمتى بمشقة من الكلاب التى تبعتها فى الطريق

الضيق الملاصق للسور • لقد كان من نوع ابن آوى الأفريقى الصميم . أحمر مشربا بصفرة ، نحيلا ، طويل السيقان مدبب الأذنين • وكان هويوز Hoyas أحد رفاقى — محظوظا جدا فقد ضمن لنفسه ذئبة من النوغ الأفريقى المعروف علميا باسم الذئب الشائع Canis Lupaster .

وظهر ذئب آخر بينما كنا نصطاد مرة أخرى فى الحديقة بمساعدة بعض أهل البلاد • لقد سمعت صوت تسلله بين الأشجار بل ان مساعد الصيد التابع لى رآه ، الا أن الحيوان الحذر استطاع الفرار بالقفز فوق السور دون أن يلحقه أذى • ورأينا أيضا اثنين من طيور الشنقب (٣٨) ( بتشديد الشين وضمها وتسكين النون وضم القاف ) ولم تصبهما طلقاتنا • وحلقت الكراكى ( طيور الغرنوق ) عاليا ، وانتشرت طيور مختلفة أنواعها بين أشجار البرتقال المورقة •

وغادرنا الحديقة بعد فترة صيد قصيرة — لكنها ناجحة — واتخذنا طريقنا لمقر اقامتنا • لقد غربت الشمس وزحفت الظلمة وظهر الشفق صابغا الغرب بلون احمر . لقد كان الطريق غير ملائم بما فيه الكفاية للسير فيه ليلا ، خاصة أنه طريق خطر بالنهار عند مجازه الضيق المرتفع ، لذا فقد رأينا أن نترك القناة (الترعة) التى تمر بالأراضى الزراعية وأن نتجه بخط مستقيم نحو الصحراء ، وسارت الأمور فى البداية سيرا طيبا ، لكن قوة الخيول بدأت تتلاشى فراحت تسحب الحافلات الثقيلة ببطء كان يزداد بالتدريج فى الرمال العميقة ، وبهذه الطريقة كان يمكن أن نستغرق عدة ساعات للوصول للقاهرة لذا فقد عدنا للأرض الصلبة ( الزراعية ) مرة أخرى بمساعدة حملة المشاعل •

وتجاوزنا حديقة قلعة (؟) kub Castle وكانت الخفافيش تحلق بين النخيل ذات الحفيف وأشجار الجميز الغليظة وكانت

الروائح العطرية تنبعث من بساتين البرتقال · انها عطور مزارع الشرق المسكرة · وامتلأت السماء بنجوم لا حصر لها، وأنعش الهواء الدافيء الناعم وجوه الأوربيين البائسين · لقد كانت ليلة أفريقية حقيقية فى الغاية من الروعة ، اذ ينبغى على المرء أن يدرك السحر اللذيذ لهذه البلاد السعيدة ليفهم جاذبيتها التى تفوق الوصف وفتنتها التى لا حدود لها والشوق الشديد لكل من عاش فيها ليعود اليها · ففى هذه البلاد فقط ولا سواها يمكن أن يكون مهد البشرية حيث الشرق المزهر الباسم ، والصيف الواضح غير الكئيب ، لا فى بلاد الشمال الباردة الجرداء العابسة ·

كان الطريق جيدا من kub الى القاهرة فوصلنا سريعا لقصر النزهة وكان عشاؤنا جاهزا وكذلك تجهيزات قضاء الليل استعدادا لليوم التالى ·

وبدأنا فى صباح اليوم الثانى والعشرين مع البارون ساورما فحملتنا الحافلات عبر الأحياء الأوربية ثم على طوال الموسكى حتى انتهى الطريق الذى يمكن أن تسلكه الحافلات عند آخر منزل ، وبعدها بدأت تظهر الخرائب والقبور القديمة · والمنطقة الواقعة بين القاهرة وسفوح المقطم — وهى منطقة صحراوية صخرية واسعة مليئة بما يمكن تسميته بمدينة المساجد الجنائزية القديمة بالاضافة الى قبور مختلفة الأشكال للمسلمين ، وثمة مقابر شبيهة عند الجانب البعيد للقلعة ، وان كانت مقابر المماليك أقل قيمة بالنسبة للزائر ·

ومن بين كثير من المساجد الصغيرة والكبيرة الموجودة بين قبور الخلفاء ، يعتبر جامع قايدباى kait-Bey هو الأبهى عمارة وقد زينت قبته زخارف ثرية ·

وفى حرم هذا المسجد يوجد مكعبان حجريان على كل منهما أثر قدم من قدمى الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) ، كان مؤسس المسجد قايدباى قد جلبهما ـ كما يقال ـ من مكة ( المكرمة ) ·

ويرى المرء اذا ما تجول راكبا فى مدينة القبور هذه ما هو جدير بالنظر ، فامامنا توجد المنحدرات الصخرية الوقور ، والى اليمين توجد القلعة المشيدة من الصخور وفوقها مئذنتها الجميلة السامقة ، وحولنا قبور مختلفة أشكالها ، وشواهد قبور ومساجد ، وكلها قد تساقطت بعض أجزائها وضربتها رمال الصحراء · وترتفع بينها تلال صغيرات فوقها مبان حجرية عربية فوقها ما يشبه الأبراج ، والجانب المأسوى للصورة وجود علامات كثيرة تشير الى أن الكلاب والذئاب والضباع وحيوانات ابن آوى قد حفرت قبور الموتى المسلمين ليلا ·

ووصلنا سريعا الى المحجر The Stone Quarries ، بجوانبه الشاهق ارتفاعها وكتله الحجرية الضخمة المتناثرة هنا وهناك · وتركنا حميرنا هنا وتسلقنا بشق الأنفس صاعدين ممرا ضيقا بين الأحجار من ناحية وجرف (منحدر) الجبل من ناحية أخرى حتى وصلنا لمنتصف ارتفاع الجبل · ان الرياضى المحترف يحتاج لتفكير عميق لتسلق بعض المواضع فالصخور الملساء سواء الرمادية التى تعتريها صفرة أو البنية الداكنة ، يحتاج تسلقها لحذق خاص ومهارة فائقة والا تعرض متسلقها لكارثة ·

ووجدنا عربيا الى جوار حمار ميت ، فى شعب ضيق غير بعيد عن أحد حواف الجبل التى تشبه القلعة ·

وهنا شيد البارون ساورما جدارا ( سورا ) أمام مدخل مغارة ، وتسلقت أنا وعمى وخادم ساورما وعثمان النوبى

الحاذق والمشرف على الصيد التابع لى ـ تسلقنا جميعا على أربع ( على اليدين والقدمين ) فوق حافة ضيقة وهبطنا لنكون فى مكمن غير مريح ولم يعتد أحد الكمون فيه ، وعاد البارون والعرب الى المحجر ليتابعوا القنص عن بعد ، واتضح أن المسافة مناسبة فطلقة يسيرة نطلقها تجاه قاع الشعب كافية لاصابة هدفها . ان نظرتنا للموقع من مكان مرتفع تؤكد ذلك .

لقد أصبح الجو ملبدا وتساقط بعض المطر ، وهذا أمر نادر الحدوث فالناس يقولون ان الأمطار لا تسقط فى القاهرة الا سبع مرات فى السنة ، لسوء الحظ فقد كانت احدى هذه المرات السبع من نصيبنا مع اننا كنا نريد جوا صحوا .

ومضى وقت طويل ولم يظهر ما نقتنصه ، ووصلت الى آذاننا أصوات الأبواق والصرخات القادمة من القلعة ، وكان الهواء ثقيلا ، والمكان ضيقا ، فلم نكن قادرين على الحركة، مما جعلنا لا نحس بالارتياح . وأخيرا هبط زوج من الغربان وبعض الحدءات الباحثات عن فرائس لافطارها ، كما رأينا نسرا من نسور الجيف برأسه الأصلع .

ودفعنى الملل وطول الانتظار الى أن أنصح عمى ـ الذى لم يكن قد أطلق النار أبدا على أى من هذه النسور ـ أن يطلق النار ، ولم يكن قولى بأسرع من فعله ، وهبطت سريعا الى البقعة بمجرد انقشاع الدخان وتوسلت الى عمى أن ينتظر فترة . فالشمس حامية وهبطت بالغنيمة المتواضعة الى المحجر . وعند وصولى وجدت أنا والبارون ساورما موقعا مناسب للمراقبة . وتوالت الأحداث بينما كنت أمسك بتلسكوبى .

لقد ظهرت نسور ضخمة فى البداية من النوع المعروف باسم Vultur fulvus ، وحدث هذا فى غضون ربع

ساعة من وقوفنا فى موقعنا الجديد • لقد دارت هذه النسور حول قمة الجبل وهى تضرب الهواء بأجنحتها ضربا رفيقا . لقد ظهرت هـذه النسور الواحـد فى اثر الآخـر وسرعان ما تجمع منها ستون •

لقد أزفت اللحظة المثيرة عندما كف النسر الأول بجناحيه عن التحليق وهبط بين الصخور ، فحـذت النسـور الأخرى حذوه ، فهبطوا ككتل الحجارة نسرا اثر نسر ، وبمجرد أن هبط النسر الأخير رأينا دخانا يرتفع من أعلى الموقع فتشتت شمل مجموعة النسور اثر الطلقة الأولى •

واستطعت رؤية نسر أصيب بجرح بالغ يتدحرج بين الصخور بمساعدة تلسكوبى ، كمـا رأيت عثمـان يسرع للامساك به بينما لم تغادر النسورالأخرى الموقع وانما راحت تدور حوله ، وجريت بأقصى ما أستطيع لأصعد الممر الصخرى الى المكمن • لقد استطاع الدوق الكبير قتـل خمسـة نسور هائلة بطلقة واحدة فى لحظة واحدة بينما كانت رءوسـها جميعا تمتد لنهش جيفة • ووضعت هذه الغنيمة العظيمة فى مكان بين الصخور •

ويمكنك أن تتصور مدى الرائحة النتنة المنبعثة من هذا المكان الضيق ، وظلت النسور تحلق طوال نصفه ساعة أخرى حول حافة المنحدر الصخرى ، لكنها لم تتمكن من الانقضاض على أية جيفة ، وبعد ذلك انسلت جميعا نسرا اثر نسر عائدة الى الامتداد الجبلى • ونحن أيضا اتخذنا طريقنا هابطين ، وسبقنا عثمان وكان مسـاعد القنص التـابع لى ينتظر فى الوادى ، ووضع عبء العمل الشاق والمرهق على كاهلى الدوق الكبير ، فحملنا غنيمتنا الثقيلة والثمينة على ظهورنا وهبطنا الممر شديد الانحدار •

ولما وصلنا للمحجر كان الوقت عصرا واستغرقت عودة الآخرين التابعين لمجموعتنا وقتا طويلا فقد كانوا قد وضعوا ما اصطادوه بالقرب من مسـجد مخرب وبعض المقابر علـى هضبة جبل المقطم ، وكان ما اقتنصوه عبارة عن أحد نسور الجيف وبعض الحـدءات • ولم يكن من نصـيبهم اصـطياد نسر كبير •

وركبنا عائدين خلال مقابر الخلفاء(؟) الى أقرب المساكن للمدينة حيث كانت حافلاتنا فى انتظارنا ، واتجاهنـا فى خط مباشر للموسكى أخذ وقتا طويلا لأنه فى ساعات المساء الأولى تزدحم الطرقات بالغادين والرائحين فى هذه الشوارع ذات الطابع العربى الخالص •

وعند أقصى طرف الحى الشرقى عند بداية حى الموسكى بالقرب من المدينة الأوربية يوجد معمل بارفيس Parvis المشهور وهو من مواطنى تريست Trieste • هـذا الرجـل الماهر مهارة غير معتادة ينتج كل المصنوعات الشرقية المناسبة بشكل خاص للغرف • وقدمت لى الجالية النمساوية المجرية هنا كل الأدوات الخاصة بغرفة التدخين ذات الطابع الشرقى الصميم • لذا فقد توقفنـا فى طريق عودتنا عنـد بارفيس Parvis لنطالع هذه الأدوات الجذابة المتكاملة • وبعد فترة يسـيرة عدنا الى قصر النزهة فتناولنـا عشـاءنا وخلدنا للراحة مبكرا •

وكان علينا أن نغادر القاهرة فى اليـوم التالى لنذهب كفريق صيد الى مديرية الفيوم ، فاذا ما أتممنا رحلتنا اليها صعدنا فى النيل فى رحلة للصعيد •

★★★

# الفصل الثالث

**رحلة الى ( ابو سكر ) فى الفيوم ـ الحمام ـ الخط الحديدى ـ الخط الحديدى الفرعى ـ البربر ـ قصب السكر ـ ليس فى الشرق عمل يتم بيسر وسهولة ـ البدو ـ العمال الزراعيون ـ الطيور ـ الذئاب ـ الحياة الحيوانية البرية عامة ـ بحيرة قارون ـ حصيلة الصيد ـ رمال الصحراء ـ وصف الفيوم ـ كثرة الذئاب ـ ركوب الباخرة النيلية للتوجه الى أسيوط ـ رسوم الفنان المصاحب ـ تعليقات المترجم ٠**

لقد تجمعت المجموعة المسافرة فى بكور صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر فبراير فى محطة القطار المتجه للجنوب ( خط الصعيد ) الذى لا يؤدى الى أسيوط فحسب وانما يخرج منه خط فرعى يؤدى الى مديرية الفيوم ٠

وقد تلطف الهر زمرمان Herr Zimmerman مرة أخرى فاستقل القطار معنا ليصحبنا الى المحطة الأخيرة ( أبو سكر ) أما الأمير تاكسيس Taxis فكان قد سافر قبلنا بيوم ومعه المترجم الى بركة قارون Birket el-Karun ( بحيرة قارون ) لينصب خيامنا ويجرى الاستعدادات اللازمة لأيام الصيد ٠

لقد كان مسار الخط الحديدى فى البداية بجوار شريط ضيق من الأرض المزروعة ، التى تمتد بين الشاطىء الغربى

للنيل والصحراء . ان الطبيعة الكثيفة للزراعة المصرية تتجلى بوضوح هنا فثمة زروع كثيرة فى مساحة ضيقة . وتعاقبت قرى الفلاحين البسيطة وغابات النخيل ، ويلاحظ أن القرى هنا أكبر من قرى مصر الدنيا ( الدلتا ) . وقد استرعى نظرنا أبراج الحمام المبنية على الطراز العربى ، ويقدم المصريون للحمام هذا المأوى كما يقدمون له الحماية لا لشىء الا لما ينتجه هذا الحمام من سماد طبيعى ( زبل الحمام ) وأحيانا يستفيدون من بيضه وزغبه (ريشه) وليس للحمام المصرى طبيعة داجنة باية حال فهو حمام جبلى قاس بالفعل سواء من حيث الوانه او احجامه كما انه غير ذلول أبدا .

وغالبا ما كان الخط الحديدى يقترب من النيل ، وهو دائما ــ أى الخط الحديدى ــ يقع على الضفة الغربية للنهر ( الى اليسار منا ) (١) أما الى الشرق فالجبال الصحراوية تقترب من المجرى ، أما الى الغرب فتقع الصحراء الليبية ( صحراء مصر الغربية ) التى تبدو كأمواج من الرمال المتحركة لكنها مسطحة بشكل عام .

وتجاوز القطار الأهرامات ، وقد رأيناها بوضوح ، وفى البداية ظهرت رءوس الجيزة الرمادية ( رءوس الأهرامات ) أكثر الآثار المصرية مدعاة للفخر ، ثم تلا ذلك ظهور أعضاء الأسرة الأصغر ممثلة فى أهرام سقارة . لقد تعودنا نحن الأوربيين أن نرى نخلة واحدة ، أو نخلة تقف منعزلة بمفردها فى دفيئة ( مكان لانبات الأشجار التى تحتاج لحرارة ) (٢) أو على الساحل الأوربى الجنوبى ، أما هنا فان غابات النخيل بحفيفها وكثافتها تعد رمزا صادقا لأفريقيا المشمسة .

وفى الساعة العاشرة صباحا دار قطارنا تاركا الخط الحديدى الرئيسى الذى يتبع مجرى النيل حتى أسيوط ، لينتقل الى الخط الحديدى الفرعى المتجه غربا بين صحراء جدباء قاحلة . ان الرحلة فى هذه المنطقة الجرداء رائعة جدا فى تفردها واثارتها للدهشة .

لقد انتقلنا فى لحظات تاركين النيل العامر والخضرة اليانعة المثمرة التى أشبعت ريا لا مثيل له الا فى هذه القارة السوداء ( المظلمة ) Dark Continent الى صحراء ساكنة لا حياة فيها .

ويخطىء الذين يتصورون الصحراء مكانا مسطحا مستويا ككثير من مستنقعات الأدغال المجرية أو سبخات شمال المانيا فللصحراء منظر الأمواج كما أن بها مناظر متباينة ، وغالبا ما يكون فيها تمعجات كثيرة كما تقطعها الوديان وتجللها التلال ، وغالبا ما تكون هذه التلال فرادى لا تشكل سلاسل ، ولا أثر لحياة نباتية على الاطلاق وليس بها من الحياة الحيوانية الا الشىء القليل عند أطرافها القصية حيث استطاعت بعض الحيوانات التكيف مع ظروف الجفاف .

ومع هذا فالصحراء تبدو للرحالة جليلة جميلة ، انها صورة للراحة كما أنها ثرية بألوانها ، لقد وهجتها شمس أفريقيا المحرقة . أما تباين الألوان فيرجع لاختلاف أنواع الصخور التى تتخذ فى الغابات لونا أصفر شاحبا ثم تراها أحيانا داكنة ، وأحيانا أخرى تراها منقطة بسواد على أرضية بيضاء ، كما أن هناك صخورا مخلطة . ان اختلاف الصخور يعطى المشاهد خليطا سحريا من الألوان .

ولم نر أى مظهر من مظاهر الحياة ونحن ننظر من القطار الذى يقطع هذه الفيافى الجرداء . الا أننا شاهدنا

بعض البدو فى عباءات بيض ( برانس burnous) يحملـــون بنــادق طــويلة قادمين من وراء التــل • انهم بربر خلص يقطنون هذا الجزء من الصحراء (٣) • انهم أبنــاء الأرض الأحرار انهم أسعد الرجال لا يخضعون لحكم Uncontrolled شــجعان ، ســلابون نهــابون ، متمردون الى أقصى درجة • وتتباين القبائل المختلفة تباينا كبيرا فى مظهرها وازيائهــا بل وفى صفاتها المميزة وفى أســلحتها ، لــكن مصر جذبت بسبب جمالها القبائل الصحراوية القادمة مما وراء مراكش Morocco ، والقادمة من آسيا أيضا ، فجنوب غرب آسيا يقطنه أيضا العــرب الســاميون Semitic Arabs ، وعاودت الخضرة فصافحت أعيننا مرة أخرى فى حوالى منتصف النهار ، فظهرت الزروع كبقعة خضراء وسط الرمال الصفراء • انها واحة الفيوم الكبيرة • انهــا ـ بكل وضوح ـ أرض خصبة قد أحسن أهلها زراعتهــا ، تتخذ شــكل الدائرة وتحيطهــا الصحراء من كل الجهات (٤) • وتشكل بحيرة قارون الكبيرة حدها الغربى ، كما أنها ـ أى البحيرة ـ تفصل بين الأرض الزراعية من ناحية والصحراء من ناحية أخرى • لقد مررنا خلال جزء يسير من هذه الواحة الخصبة كان مزروعا بقصب السكر ووصلنا الى محطة ( أبو سكر ) Abuskar • انها محطة مخربة لا تستحق أن تكون محطة حتى فى وسط أفريقيــا ، وتشكل مبانى المحطة مع مصنع السكر الموجود هنا مستوطنة ( قرية ) صغيرة •

ولا يذهب بك الخيال الى الظن بأن مصنع السكر الذى نشير اليه هنا يعد مصنعا كبيرا على النمط الأوربى كمصانع السكر التى نراها فى بوهيميا Bohemia • ان مصــنع الفيوم هذا مجرد مبنى بسيط يعتريه الاهمال الى حد ما ، لكنه يستفيد من قربه من مزارع القصب التى تنتج كميــات كبيرة ، ولا يشير لكونه مصنعا الا بعض المداخن المنخفضة •

وتناولنـا طعـام الافطار بسرعة في غـرفة الانتظار بالمحطة • لقد كانت بدائية بل دون البدائية ، ثم أسرعنـا املا ضى ان تكون قافلتنا جاهزة ، فليس في الشرق عمل سهل فكل شخص يضغط طلبا للخدمات ، ويضغط ( يحث ) عـلى حصانه وحماره بكل ما يمتلكه من عنف ، وكل شخص يدفع الآخر لينحيه جانبا والكل يصرخ والكل يومىء ، ويضطر الغريب البائس في خاتمة المطاف لالقاء نفسـه بين ذراعي أول قادم (٥) • فبمعونة بعض العساكر وبالاستعانة بعصينا الغليظة التي تستحق الشكر استطعنا أن نحول الفوضى وعدم الوضوح الى أمر قابل للتنفيذ •

وامتطى كل واحد منا حصانا وكذلك خدمنا ، وأكثر من هذا فقد كان علينا أن نرتبط بحمالين ليحملوا كلابنا من نـوع دشـهند dachshunds ، وهـو أمر لا مفر منه في هذه المنطقة ، وقسمنا الكلاب لمجموعات منتظمـة ، فأصـبح في حوزة البارون ساورما عشرة من هذه الحيوانات الشـجاعة القوية ، أما نحن فكان معنا أربعة منها • وببعض المشـقة أمكن ابعاد الناس المزدحمين حولنا حبا في الاستطلاع ، وتم منعهم من متابعتنا •

وقد ركب البدو القناصون الذين اضطررنا لاصطحابهم وجعلوا خيولهم تسبقنا • انهم من قبيلة صغيرة نائية المضارب يلبسون ثيابا بيضاء ، وان شئت الصدق ــ فان برانسهم قد تحولت لفرط قذارتها الى اللون الأصفر وكان معهم بنادق طويلة وخناجر bent knives وأكياس لحفظ التوباكو ، وكل هذه الأشياء بالاضافة لأكياس البارود (أجربة البارود) والرصاص ، قد ربطوها باحكام حول خواصرهم ، وكانت سيقانهم الطويلة عارية كما كانوا يلبسون أخفافا ( جمع خف

بضم الخاء ) في أقدامهم - وهم هنا - كما هم في كل مكان بشمال افريقيا - ليسوا أكثر من متسولين بائسين • فمظهرهم الخارجي غير طيب وملابسهم رثة ، بل وهم لا يغطون رءوسهم بعمائم وانما بطواق ضيقة بنية اللوان كطواقي الفلاحين ، بل وحتى الشباب منهم كانوا حاسري الرءوس •

ان طبائع هؤلاء البدو مثيرة للاهتمام • انهم بربر اصلاء من الصحراء الليبية ، وألوانهم داكنة ومظهرهم الخارجي يوحي بصلابة اشد مما عليه سكان النيل الادنى ( الدلتا ) وغالبهم طوال القامة ويتسمون بالنحول ، وان كانت ملامحهم أقل نبلا وجمالا من ملامح القبائل البدوية في الشمال • فالدماء الزنجية واضحة فيهم ، وبعضهم أسود تماما وله شعر مفلفل قد يحسبهم المرء من البربر Moors (؟) • وقد تم استرقاقهم ( سرقتهم ) عندما كانوا أطفالا من موطنهم في داخل أفريقيا ثم حصلوا على حريتهم من القبيلة التي نشأوا فيها ( تم عتقهم ) ، لكنهم ظلوا محتفظين بلغة البدو وزيهم وعاداتهم ونسوا أصولهم تماما ، بل لقد نسوا حتى البلاد التي قدموا منها • وقد رأيت لهم شبيها في كل القبائل التي أتيحت لي فرصة معرفتها سواء في أفريقيا أو آسيا (٦) •

وحتى العمال الزراعيون حول (أبو سكر) لفتوا نظري، من حيث كونهم من نوع مختلف عن الفلاحين الذين يسكنون وادي النيل الأدنى فهم أضخم حجما وأشد دكنة وأكثر شبها بالبدو الموجودين في الواحة ( الفيوم ) التي تطوقها الصحراء ، والذين يتصلون بهم • لذا - فمن الواضح - أن هؤلاء العمال الزراعيين يمثلون جنسا مخلطا • ويلاحظ المرء بوضوح أيضا وجود عدد كبير من البربر بينهم •

وسرعان ما بدأنا الصيد ، ففي حديقة مجاورة للمصنع الآنف ذكره وجدنا طائر الوروار (٧) bee-eater

(الوروار أو الخضيراء أو الخضار) وهو طائر أزرق الوجه ، ولونه أخضر وان كان له خطوط طويلة زرقاء على جناحيه وراسه ٠

ويرجع أصل هذا الطائر الى المناطق الداخلية في افريقيا لكنه منتشر في صعيد مصر ، ولا يصل في تحليقه للقاهرة التي تبدو في موقع شمالي لا يتلاءم معه ٠ وكان حول الحقل طيور ابو طيط (٨) ( البيبويت ) وهي طيور ضخمة الحجم وجذابة كما أنها طيور أصيلة ٠ كما كانت هناك أسراب من البلشون ( طيور مالك الحزين ) ، وهنا ــ كما في أي مكان آخر بأفريقيا ــ تتجمع الحياة الحيوانية في المناطق الخصبة والتي يتوفر فيها الماء ٠ لقد كانت البشائر تشير الى أننا سنستمتع بأيام صيد طيبة ٠

وسرعان ما سمعت أصوات طلقاتنا وتساقطت قنائصنا من الطيور التي أحضرها العرب المصاحبون لنا من الحقول المبتلة ٠

واستمرت القافلة في طريقها بخيولها وخدمها وأمتعتها، الا أننا جميعا تركنا ما كنا مشغولين به عندما دعانا البارون ساورما اليه ، فقد كان قد اكتشف حقل قصب سكر كبيرا واعتزم عبوره بصحبة الكلاب ٠ وكانت المشكلة الوحيدة التي واجهتنا هي التخلص من العمال الكثيرين حتى لا تصيب طلقاتنا أحدا منهم ٠ وكان على كل السادة أن يتخذوا مواقعهم حول الحقل ، واقترح ساورما أن أدخل الحقل ومعي مسئول الصيد My huntsman وقطيع من أربعة عشر كلبا ٠ لقد كان القصب في ارتفاع قامة الرجل ٠ وقبل أن نتخذ لنا أماكن سمعنا الكلاب تنبح نباحا مرحا وأعقب ذلك صوت طلقتين ٠ وجرى واحد من جماعتنا مسرعا للأمام ، آملا أن يكون أول من يصل الى طرف الحقل البعيد ، وبينما كان

لا يزال يجرى حتى احضرت الكلاب ذئبا كبيرا كان على بعد خطوات منه في حقل مكشوف • ولسوء الحظ فقد انحشرت رصاصة في بندقية كانت مصوبة نحو طيور الزقزاق (٩) والبلشون ( مالك الحزين ) ، وأسرع ايسجرم Isegrimm وترك الحقل المكشوف الى أقرب ساتر •

وفي وقت قصير كان نباح الكلاب يدوى فى كل ارجاء حقل قصب السكر ، ودوت الطلقات ، لقد اطلق اثنان من مسئولى الصيد طلقتين صوب الذئاب دون جدوى فقد كانت هذه الحيوانات حذرة فهى لا تكاد تغادر القصب حتى ترتد عائدة اليه وتختفي داخله ، فاطلقنا كثيرا من الطلقات تجاه هذه الذئاب وهى تندفع داخل القصب ، وسرعان ما دلنا نباح الكلاب ، وبعض شرائط من دم على أن الطلقات قد أصابت هدفا فغادر عدد من الرجال مواقعهم في حماسة وراحوا يطاردون القناص ، وان كان من الصعب أن يرى المرء لمسافة خطوتين بين أعواد القصب الكثيفة ، فذهبت لذلك جهودهم سدى •

وخلال هذه الرياضة الوحشية والتى لم تكن منظمة على نحو ما ، لم أطلق طلقة واحدة • وبعد نصف ساعة من الانتظار كان معظم الرجال قد غادروا بالفعل مواقعهم ليكونوا بالقرب من الكلاب النابحة ، اكتشفت مدقا ( طريقا ضيقا ) بين مزرعة القصب •

وأسرعت على طول هذا المدق (١٠) ( الطريق الضيق فى حقل القصب ) حيث كانت هناك قناة صغيرة ( مجرى ) للرى وأتيح لى ممر لا يزيد عرضه عن ياردة ، ووجدت هنا مكانا يسمح لى باطلاق النار فوقفت منتظرا تقدم الطرائد ، وتقدمت الكلاب ببطء لأن الذئب الجريح قد استدار وهو يعوى فى اثرها ، ولما اقترب الذئب منعتنى الكلاب من اطلاق النار خوفا من اصابتها • لقد سمعت بوضوح زمجرة الذئب

مختلطة بنباح الـكلاب • وفى غضون لحظات توقف صـوت الصرخة والزمجرة والنباح ، رغم السـكون • لقد استمت الكلاب بالذئب باصرار ، ولا يستطيع المرء أن يقرر ما اذا كان هو الذئب الجريح • وبعد لحظات أخرى سمعت نبـاح مجموعة كلاب أخرى قادما من الجانب الآخر المقابل للحقل وهذا يعنى أن عملية صـيد تجـرى من جـديد • واندفع الصائدون مرة أخرى داخل الحقل فى اتجاهى، وكان يمكننى أن أستنتج ان الكلاب كانت فى اثر ذئب جريح ، ولما أصبحت الكلاب على بعد مائة خطوة منى كان يمكننى أن استنتج أنها في وضع حرج ، وبينما كنت مستغرقا فى هذا التفكير سمعت ـ عـلى حين غرة ـ حفيفـا خفيفـا بالقرب منى ، فالتفت فوجدت ذئبا غير جريح يتسلل على طول الممر الضيق (المدق)، فأطلقت عليه النار فورا وسـعدت أذناى بصـوت سـقوطه وأسرعت الى البقعة التى هوى بها ، فرأيته مكسـور الظهر يزحف فلا هـو جالس ولا هـو ممـدد ، وقد أظهر أنيابه ، وسمعت بعض الكلاب صوت الطلقة فأتت وبدأت الآن معركة حياة أو موت لكننى وضعت حدا لهذا بطلقة فاصلة •

لكن ، أذئب واحد يكفى كل فريق الصيد ؟ لقد أطلقنا النار على أربعة ذئاب أخـرى ، ولم نسـتطع أن نقطع وقتا طويلا فى متابعتها فقد أقبلت الكلاب ، كلبا فى اثر كلب الى حواف الحقل • لقد بذلت هذه الكلاب الشجاعة جهودا نشطة رغم الشمس الحارقة •

لقد عدنا جميعا الآن الى خيولنا ونحن فى حالة رضى ؟ سواء قل هذا الرضا أم كثر ، لقد ناقشنا بعجب ثروة المنطقة من الحيوانات البرية والأثر المضـحك لصـيدها فى حقـول مزروعة ، وكأنها طيور الحجل (١١) •

وتحركت قافلتنا مرة أخرى فى طرق متعرجة وموحلة فى مواضع كثيرة ، وكانت الطرق تجرى بين حقـول كثيفة

زراعتها • وتركت الشمس تأثيرها القوى علينا فأحرقت جلودنا ، فهذا دأب شمس افريقيا • حتى الفتى مرجان Fata Morgana أثرت فيه الحرارة ، وحتى البربرى الذى كان يسير بجانب حصانى راح يلعن الحرارة وهو يمطر عرقا • لقد كان هذا البربرى مخلوقا متشردا فالدماء الزنجية تجرى فى عروقه ، فوجهه أسود مغطى بالندب كما أن لحيته المدببة القاسية ، وملامحه الدقيقة تنم عن دماء عربية • وقد سمحت له أن يحمل بندقيتى فابتسم ابتسامة الرضى فظهرت أسنانه البيضاء وراح يتفحص السلاح الأجنبى بعينى خبير •

ونظرنا لطريقنا من البعد بين الحقول الباسمة والأدغال ذوات الخضرة الداكنة التى تنعكس صورتها على صفحة بحيرة قارون وكأنها صورة على صفحة مرآة صافية ، وخلفها خط برتقالى طويل من الصحراء الكبرى •

ووقف عقاب ( صقر حوام ) (١٢) ـ وهو طائر افريقى ـ فوق رابية منخفضة غير بعيدة عن خط سيرنا ، فترجلت من فوق حصانى وتسللت بالقرب منه لكننى فشلت فى اصابته بطلقتين واحدتين ، ولم تزده هاتان الطلقتان الا أن تحرك ليزداد قربا منى ، فأطلقت مرة أخرى دون أن أصيبه وما زادته هذه الطلقة الثالثة الا أن جعلته يرفرف بجناحيه وهو ثابت فى مكانه ، فما كان منى الا أن عاجلته برابعة لم تكن معباة جيدا ، فهوى •

وبعد هذه الجولة البسيطة وصلنا لقرية بائسة ضربها الفقر • اذ كانت عبارة عن بيوت طينية معظمها مهدم ، فمنظر القرية لا يتناسب أبدا مع الجمال المحيط بها ممثلا فى أشجار النخيل السامقة وأشجار الجميز الكثيرة • وخرج أهل القرية بأثوابهم الممزقة ومعهم الأطفال عراة تماما

ـ ليشاهدونا • واستدار الطريق عند القرية لنجد أنفسنا على شاطىء البحيرة •

فأنزلنا حمولة خيولنا وحميرنا وترجلنا وركبنا القوارب، التى كانت هزيلة جديرة بأن تذكرنا بقوارب أجدادنا البدائية وبيوت البحيرات فى مطلع التاريخ ، وكانت مجاديفها بدائية للغاية • انها مجرد صناديق مسطحة مربعة يقوم عليها خمسة أشخاص أو ستة • أما داخل القوارب فكان قذرا مليئا بعظام السمك وقاذورات متنوعة خاصة من السمك المتعفن • لقد كانت الرائحة العفنة شديدة فلم نجد خيرا من التدخين بغير انقطاع ـ وسيلة ليحمينا الى حد ما •

ومن المحتمل ان يكون المصريون القدماء قد استخدموا قوارب على الشاكلة نفسها ، وما كانت قواربهم على أية حال أسوأ من تلك التى يستخدمها اخوانهم هذه الأيام فى بركة قارون •

وانسابت قواربنا فوق سطح البحيرة مع رذاذ الماء الذى تثيره المجاديف البدائية ، ومع الأغانى السوداوية (١٣) • وليست هناك زروع الا على جانب واحد من جوانب هذه البحيرة الجميلة أما الجوانب الأخرى فتحيطها الصحراء • وعلى طول شاطئها يرى المرء شريطا من شجيرات منخفضة ، ويصبح هذا الشريط طورا عريضا ( ذا عمق ) وطورا ضيقا (بغير عمق) ، وهذا الشريط الدائرى الأخضر يعطى البحيرة طبيعة خاصة • ولا يرى المرء سكانا ـ انه منظر عظيم لكنه ـ بغير شك ـ يدعو للحزن • ويزيد من هذا الشعور هذا الماء المالح العميق • انه لأمر غريب أن يرى السائح هذا البحر الداخلى بعيدا عن المحيط ( ليتفضل القارىء بمراجعة الخريطة ) يعج بالأسماك وغيرها من الحيوانات البحرية •

ان الصحراء كلها مالحة تماما وكذلك البحيرات الواقعة عند طرفها • وبعد حوالى نصف ساعة من التجديف رأينا بعض البجع (٤١) يسبح قريبا فتابعناه ولم نستطع اللحاق به فهو سريع العوم • واخيرا وبعد محاولات عديدة حلقت هذه الطيور السمينه بوقار لتبحث عن مكان آخر فى البحيرة ، ولم نر غير ذلك سوى البط البرى وطيور الغطاس ( الغواص ) وطيور النورس (١٦) ( زمج الماء — بضم الزاى وتشديد الميم وفتحها ) وعدد كبير من نسور النهر (١٧) •

ان الليل يزحف ، فقد غربت الشمس وراء الصحراء مخلفة أعظم الأثر فينا بما متعت به عيوننا من ألوان وضياء ، وعم السكون •

لقد اقتربنا من جزيرة قارون Beziré karun ، حيث كان مغروطها الصخرى Rocky Cone يقف شامخا ، فى حاجة الى ريشة فنان يصوره بخلفية تشكلها سماء زرقاء داكنة •

وألقينا مراسينا عند شاطىء الجزيرة الشرقى المسطح ونصبنا خيامنا على بعد حوالى مائة خطوة من الماء ، وأشعلنا النار ، وانكمش العرب بين الشجيرات، وحيانا الأمير تاكسس Taxis الذى كان قد سبقنا فوصل الى هنا فى الصباح الباكر ومعه قافلة كبيرة •

وتناولنا بعد وصولنا عشاء ممتازا أعده طباخ عربى فى خيمة أعدت لتكون صالة طعام • وكانت الخيام مريحة تماما ومصنوعة من خامات جيدة ، وكان لكل رجلين خيمة واحدة مزودة بالأسرة ، بل وحتى المناضد • ويجيد الشرقيون اعداد الوجبات فى الخلاء ، كما يجيدون نصب الخيام بسرعة وبشكل مريح • ولا أحد يباريهم فى ذلك ، فسعيد هو من يسافر معهم •

وبعد العشاء تجولنا ودخنا ورسمنا خططا لليوم التالى ، وقبيل العاشرة خيم السكون على المعسكر • وقد تمدد العرب حول المعسكر على الرمال فى الهواء الطلق فبدوا كالأشباح بعباءاتهم البيض •

ولم يمر الليل بهدوء كما توقعنا خلال امسيتنا الجميلة فقد هبت عاصفة عاتية فكادت تقتلع الخيام ، فتسلل حسن المسيجم من خيمة الى خيمة وراح يثبت اركانها ، وقد تم اصلاح ما افسدته العاصفة بسرعة لحسن الحظ . وفى الصباح كانت العاصفة قد خمدت •

وتناولنا افطارنا باكرا قبل شروق الشمس ، ورحنا نلاحظ أسراب طيور الماء أثناء تجوالنا على شاطىء الجزيرة لاختيار البقع المناسبة لتمركزنا •

وما كدنا نغادر الخيام حتى رأينا أسرابا من الغاق وأنواع مختلفة من البط البرى والبلشون ( مالك الحزين ) والبجع • وبدا منظر البجع بالذات يبعث على السرور ، فمنقار البجعة الطويل يتدلى بشكل مضحك ويبدو جناحاها الهائلان قادرين على حمل جسمها السمين الضخم بصعوبة فى الهواء • ومع هذا فالبجعة من الطيور التى تعتبر قادرة على الطيران لمسافات طويلة • وقد ذهبت ومعى الدوق الكبير The Grand Duke الى ساحل منبسط ، بالقرب من الخيام واختبأنا بقدر ما استطعنا بين شجيرات الصفصاف •

ومر علينا فى مكمننا هذا كل أنواع الطيور فأطلقنا وكانت النتائج مثمرة فلم نكن نمكث الا قليلا لنطلق طلقات أخرى • لقد كانت طلقاتنا متتابعة • وكان من بين صيدنا طير النورس ( زمج الماء ) وهو نموذج مشوه لطيور الجليد عندنا • ومما يؤسف له أننا لم نصطد بجعا ، فلم تمر علينا واحدة فى مكمننا هذا •

وسمعنا الطلقات تدوى من كل جانب فتـوقعنا صـيدا وفيرا • وفى اليوم الاول كانت الطيور تحوم حولنا ، اما فى اليوم الثالث فكانت الطيور تتحاشى الصخرة الخطرة لتدور على البعد •

وفى غضون ساعة كانت معركتنا الصباحية مع الطيور قد انتهت وعدنا لخيامنا • وعـلى أية حال فقد اصطدت فى غضون دقائق قليلة نسرين من نوع نسور النهر كانا يحلقان فوق رأسى •

وأقبل الرجال ، واحدا فى اثر الآخر • وكان بوسـنجر Pausinger هو أوفرنا صيدا ، فقـد اختبأ خلف شـجيرة غير عالية بالقرب من الخيام فلما اقتربت بجمة بعـد انتظار يسير ودنت فى طيرانها من الأرض أطلق عليها طلقة محظوظة قهوت •

وقبل أن أسجل لكم مزيدا من أحداث هذا اليـوم أريد أن أصف الجزيرة نفسها ، فالجزء الشرقى منها ــ مثله مثل الجزء الجنوبى الشرقى ــ مسطح وتغطيه الشجيرات ، أما بقية أجزاء الجزيرة فصخرى منحدر فيما عدا الجزء الشمالى فيه شريط صغير مسطح ، وهو ( لاجون ) سبخ متصل بمياه البحيرة • وبين الساحل والصخرة الوسـطى مسافة مسـطحة قلما تزيد عن ثلاثمائة خطوة وهى مغطاة بالرمال الناعمة •

وفى الجانب الشمالى للجزيرة يمتلىء هذا السهل الضيق بالصخور الضخمة المتحطمة من الصخرة الوسطى الضخمة • وخلا بعض الشـجيرات عـلى السـاحل فكل الجزيرة قاحـل فلا وجود حتى للأعشاب • وتنحر الميـاه سـواحل الجزيرة المتآكلة ولن يمضى وقت طـويل قبـل أن تتـلاشى الجزيرة ولا يبقى منها سوى هذه الصخرة الوسطى الصامدة •

وقد غادر الدوق الكبير The Grand Duke والأمير تاكسس Taxis المعسكر بعد ان مكثا معنا قليلا ، وسرعان ما تبعتهم ومعي البارون ساورما • لقد كانت خطتنا ان نقسم أنفسنا الى مجموعتين مع كل مجموعة عدد من كلاب الداشهند وأن يبدأ كل فريق من ناحية ، ثم نتقدم حتى الصخرة الوسطى •

وبين الصخرتين الأوليين ارتفع طائران من طيور الزقزاق ، فأطلقت النار على أحدهما ، فقاد عثمان البارع الكلاب وأطلقها بين الصخور • لقد بدأنا الآن الصيد المشوق والجاد • لقد كان على الواحد منا أن يقفز فوق صخور ناعمة وأكوام من حجارة قاسية ليتابع الكلاب •

وأمام شق من الشقوق التي لا تحصى نبحت الكلاب واختفت تبحث بين الأحجار ، وفي غضون ثوان قليلة ظهر حيوان الوشق Lynex (١٨) مغادرا جحره وهو يقفز قفزات واسعة ، فوقفت فوق صخرة خمنت أنه لابد أن يمر أدنى منها ، وتم ما أردت فقد سقط بفعل الطلقة الأولى ولما عاجل القيام عاجلته بالطلقة الثانية فخر • لقد كان حيوانا قويا جدا ذا لون رمادي له قنازع من شعر على أذنيه • انه وشق الصحراء الأفريقية الحقيقي • انه أضخم وأقوى من نظيره الأوربي •

وفي هذه الأثناء كان الدوق الكبير يبحث عن المنحدر المقابل للجبل ( الصخرة الوسطى ) ومعه الكلاب فرأى وشقين ( بفتح الواو والقاف ) لكنهما مرا سريعا فلم يستطع اطلاق النار عليهما ، وتقابلت معه في المكان المتفق عليه وسرنا معا مصحوبين بالكلاب ، وسرعان ما سمعنا صوت الكلاب المرح ( النباح الدال على استدلالها على طرائد ) فأسرعنا للأمام ولسوء الحظ ، فان عمي ــ وقد كان عليه الدور لاطلاق

النار ــ لم يتمكن من السير سريعا فوق الصخور فغادر الوشق جحره دون أن يلحقه أذى واختفى بسرعة بين الصخور ، وأسرعت الكلاب تلاحقه بقدر ما تسعفها أرجلها القصيرة وبقدر ما يسمح به انحدار الصخور . وفي غضون دقائق قليلة توقفت عند مدخل جحر تحت صخرة كبيرة . وكان في الجانب الآخر للصخرة مدخل آخر أوسع ، فحثثنا الكلاب على الدخول فاندفع بعضها في الجحر المظلم ، فخرج الوشق ليقع فريسة لبنادقنا ، واختلطت دمدمة الوشق بعواء الكلاب التي عضها . لقد كان عواء حزينا وتوالت الطلقات الجديدة فقد كان الرجال يمارسون عملهم ( الصيد ) بشجاعة .

ووقفنا زهاء ساعة بجوار الجحر دون أن نلحظ شيئا جديدا ، وكان علينا الآن ان نحث الكلاب على الخروج لنخلي الطريق للوشق ، وأخيرا خرجت الكلاب وقد اعتلاها التراب وبدا عليها الارهاق ، ولم يبق في الجحر الا كلبان كان من الواضح أنهما أكثر الكلاب دأبا واصرارا .

وأخيرا اكتشفنا شقا يمكننا من خلاله أن نسمع ــ بوضوح ــ نباح الكلاب، فوسعناه قدر ما نستطيع واستطعت أن أسبر غور داخله بقضيب ، وعندما سحبت القضيب كان على طرفه بعض من شعر الوشق الرمادي ، فنظرت بحذر داخل الشق فرأيت عيونه الخضراء ( عيون الوشق ) لامعة مفعمة حيوية ، فدفعت بالقضيب بأقصى قوتي نحو الحيوان فأحسست للحظات أنه قد تراجع . ان عملية القنص تجري الآن تحت الأرض ، فالمعركة دائرة بين الكلاب والوشق الهارب .

وما هي الا لحظات أخرى حتى خرج الوشق من الجحر بقفزات طويلة من الطرف ( المخرج ) الذي يقف عنده الدوق الكبير ، فعاجله بطلقة ، فولى الحيوان العميق جرحه مذهولا

يسحب نفسه حتى اختبأ تحت صخرة كبيرة • ولحسن الحظ فقد لاحقته الكلاب الشجاعة فى مخبئه ونجح الأمير تاكسس ــ بعد أن زحف فوق الصخرة ــ فى أن يوجه له طعنة بسكينه • وهكذا تمددت أمامنا طريدتنا ، لقد كانت أنثى جميلة لكنها ضعيفة ولم تكن ضخمة فى حجمها أو قوية فى بنيتها ، كالوشق الذى اقتنصته •

وبعد هذا الانتصار كففنا عن البحث وعدنا للمعسكر ومعنا الكلاب المنهكة التى أصيبت بجروح بعضها اصابته شديدة ، وبعضها اصابته سطحية •

وقبل الظهر اصبح المناخ سيئا فغطت سحب رمادية غير داكنة كل السماء وتساقط مطر خفيف متقطع ، وهذا أمر نادر الحدوث فى هذه المناطق ، واشتدت رياح الشمال فجعلت الجو باردا برودة تتناقض بشكل اضح مع الحرارة اللاهبة فى اليوم السابق • وارتفع الموج فى البحيرة وأعلن مسئولو القوارب استحالة مغادرة الجزيرة فى هذا الجو •

لقد أصبحنا هنا مثل روبنزون كروز معزولين عن العالم فى هذه الجزيرة الصغيرة • وفى المعسكر راح فريق الصيد يعرضون صيدهم فعلقوا على حبال الخيام وشقين وجلد الذئب الذى تم اصطياده بالأمس والبجعة التى اصطادها بوستجر ونسرين •

وبعد أن تناولنا غداء ثريا أعده لنا حسن الطباخ الممتاز ، دخنا ــ بسعادة ــ خارج الخيام ــ واستمتعنا بحياة البر ( حياة الخيام ) الشرقية الرائعة حتى اكتشفت فجأة أن المسافة المستوية بين الصخرة الوسطى والساحل الشمالى للجزيرة مغطاة بكل أنواع الطيور فقد استطعت ــ باستخدام المنظار ــ أن أرى أسرابا من البلشون ( مالك الحزين ) والبجع والنوارس وبينها بعض نسور النهر ، فزحفت على طول

الشاطىء بأفضل ما أستطيع لأصل الى سرب من الطيور يكاد يكون فى حالة نوم كما كان بعضها يحتضن افراخه • لقد كدت اصل بالفعل اليها لكننى فزعت عندما رأيت بجعتين تسبحان بالقرب وكأنهما تقومان بدور الحراسة لهذه الطيور، وقد أصبحت مكشوفا للرؤية من الجانبين ، وتنبهت الطيور جميعا • لقد صدمتنى الطيور البارعة ونهضت فنبهت الطيور الأخرى فخفقت جميعا بأجنحتها وطارت متفرقة فى كل اتجاه •

ولم يبق الا طيور النورس الساذجة التى راحت تتقصى سبب هذا الهياج ، ثم راحت تحلق فوقى صارخة ، وسعدت كثيرا عندما اكتشفت بين الطيور الصغيرة نورسا ذا رأس بنى كبير من النوارس الصيادة للسمك ، وكان بالنسبة لى نوعا جديدا ، فأطلقت طلقة ناجحة فهوى ووضعته فى حقيبتى •

ولابد أن تكون هذه البقعة التى كانت تستريح فيها أسراب الطيور الآنف ذكرها مكانا تتردد عليه هذه الطيور كل يوم وتمكث فيها للراحة ، وذلك لأن أرض البقعة كلها كانت مغطاة بطبقة سميكة بيضاء من زرق ( بفتح الزاى والراء ) هذه الطيور ( برازها ) وتناثر فيها ريش طويل هنا وهناك بالاضافة لبقايا كثيرة من أسماك متعفنة •

وعند عودتى للمعسكر قررنا مرة أخرى أن نقسم الساحل بيننا ، استعدادا لمعركة صيد نخوضها بعد الظهر وفى المساء •

وقد اخترت لنفسى البقعة التى اصطاد فيها الصديق بوسنجر بجعته فى الصباح ، فجثمت بين الشجيرات وخلفى الحمال العربى التابع لى • لقد كان مع كل واحد منا واحد من هؤلاء الرفقاء ( الحمالين ) داكنى البشرة • ومهمتهم أن يحضروا لك الطيور التى تسقط فى الماء ويساعدوك فى غير

دب من الاعمال ، وما على المرء الا أن يحــذر الدخول في احاديث طويله مع هؤلاء الناس الذين يحبون المال وان يحذر المبالغة في ابداء سروره عند كل نجاح يحققونه في عملهم ، والا فانهم سيبدءون في المســاومة ويرفعون الثمن المطلوب بشكل مرعوب • لقد أدرك هؤلاء الناس بنظرة ماكرة ازدياد حبنا لرياضة الصيد • لقــد كان يجب عــلى المرء أن يريهم العملة ( النقود ) قبل بدء الصيد كما أن شــيئا من الضغط ذى الطابع الودى يجعلهم ينزلون الى المــاء ( لجلب الطيــور التى سقطت به ) •

وكان على أن أنتظر ــ عبثا ــ نصف ساعة قبل أن تتجه بجعة ــ رأيتها على البعد ــ نحو مكمني ، ولما أصبحت قريبة قربا كافيا أطلقت طلقــة مزدوجة ( طلقتين بضــغطة زناد واحدة ) فاصابت الطائر واخترقت ريشه السميك ، وهبط الطائر بخفقات واهنة من جناحيه للماء وظل يسبح لدقائق قليلة ببطء ويدور حــول نفســه ، وبدأ رأســه ومنقــاره الســـميك يهبطان رويدا رويدا ثم ما لبثت الأمــواج أن قلبته • لقد أسلمت البجعة الروح وهي مقلوبة على ظهرها•

ولم يفلح الاغراء كما لم يفلح التهديد في حث الحمال العربي المرافق لى على النزول للماء لأن البجعة كانت ــ وهذا حقيقي ــ على بعد غير قليل ، فعدت مسرعا للمعسكر لطلب مزيد من العون ، ولما عدت رأيت رجلا داكنا أصبح بالفعل قريبــا من البجمــة بين الأمــواج ذات الزبد • وكم كانت سعادتي وفرحتي ! فان الدوق الكبير كان في مكمن غير بعيد ولما رأى الطائر قد هوى ومات أرسل تابعه ( الحمال المرافق له ) وكان سباحا ماهرا لاحضاره •

وما هي الا دقائق حتى عاد العربي الشجاع سابحا وهو يسحب خلفه الطائر الثقيل من منقاره • وقد كنت ســعيدا بأول بجعة أصطادها • لقد كانت بجعة ضخمة بشــكل غــير

عادى . وفى ساعات المساء تجولت على شاطىء الجزيرة بحثا عن الطيور الصغيرة ٠

ولما عم الظلام ولم نستطع تبين أهدافنـا عدنا جميعـا لتناول العشاء ، وشهدت الأمسية عرضا آخر لما اقتنصناه ، وسرعان ما استغرقنا فى النوم بعد يوم ممتع ٠

وكان علينا أن نجدف الى الجانب الآخر من الجـزيرة فى بكور الصباح التالى لننتظر على لسان من الأرض مرور أسراب الطيور الا أن الجو فى الليل ــ للأسف ــ كان سيئا ، وقبل شروق الشمس زادت العاصفة وكشرت عن أنيابها حتى ان المسئولين عن القوارب رفضوا الاقلاع بهـا ، ولم يكن أمامنا الا أن نقضى يوما آخر فى الجزيرة ٠ ونمنا جميعا الى وقت متأخر وذهبنا فى فترة قبل الظهر مع الكلاب نفتش بين الصخور وذهب جهدنا هباء فلم نجد وشقا واحدا ، أما بقية اليوم فقضيناه على شاطىء الجزيرة ٠

لقد كانت الطيور البحرية تبتعد عنا وتتجنب بمهارة الاقتراب من الجزيرة ، ولما اقترب المساء درت حول شاطىء الجزيرة كله ، وأطلقت بندقيتى على بعض برنت جميـل ، وعلى بعض طيور الشاطىء ، وأيضا على غراب ٠

وهدأت العاصفة وصفت السماء فابتهجنا بما تبقى من أشعة الشمس ، وبالأثر الجميل للضياء ٠ ولم أشعر بالرضـا التام الا بعد أن رأيت فى اليوم التالى قارب صيد يأتى بهدوء حول الطرف الغربى للجزيرة ٠ لقد أتى راكبو القارب من ناحية الغرب وكانوا فى طريقهم للأرض الزراعية ، فمروا بالقرب من مكمنى ٠

لقد كان مستقلو القارب ذوى نظرات وحشية ويرتدون أسمالا بالية ، وكانوا يغنون اثناء تجديفهم اغانى مخصوصه معدةللغناء اثناءالعمل، وهى اغان كئيبه وغريبه ـ لقد نظرنا اليهم بدهشة ، فليس ثمة اثر للحياة البشريه على هذهالجزيرة من بعيد او قريب ، وهناك ، خلف البحيرة صحراء ، فما الذى جاء بهذا القارب الوطنى الافريقى الذى يستقله رجال سود الى ماء البحيرة ؟! ولم يكن هؤلاء الناس الطيبون أقل دهشة عندما رأونى ، فقد كانت عيونهم تتساءل : اوربى أبيض على الجزيرة القاحلة ؟! ان ما نعرفه أن البجع وحده هو قاطنها الوحيد • وبدأ العربى المرافق لى حوارا طويلا معهم لم أستنتج من معانيه الا ما يتعلق بالمناخ وكيفية العبور •

كانت حصيلتنا من الصيد قليلة جدا هذا اليوم مقارنة باليوم السابق • لقد بدت الجزيرة خالية ، وبعد أن تناولنا العشاء قام العرب المرافقون لنا ببعض الألعاب النارية ، وهى ألعاب تثير البهجة فى نفوس كل الشرقيين ، وكانوا أثناء ألعابهم هذه يثيرون ضجة مرعبة ، ولم ندعهم يستمرون طويلا فى ألعابهم هذه وجلبتهم تلك ، حتى نقضى الليل بهدوء •

وقبل طلوع نهار اليوم السادس والعشرين من الشهر غادرنا خيامنا ، وتناولنا افطارا سريعا ، وبدأنا يومنا ، فقد كان ماء البحيرة هادئا لذا ، فقد استطعنا عبور البحيرة الى الجانب الصحراوى ، وكانت الخطة تقضى أن ينتقل معسكرنا الى الجانب الآخر حيث الأرض الزراعية فى المساء • وقد مضى وقت طويل قبل أن يستقل رجالنا القوارب ، فكل أهل الشرق لا يتسمون بالدقة • لقد بدأ المسئولون عن استقلالنا القوارب وهم نصف نائمين ، لقد قلبوا الشاطىء رأسا على عقب وتسببوا فى فوضى كبيرة واستغرقت اعادة الأمور لنصابها وقتا •

وبعد برهة ركبنا ومعنا الكلاب ثلاثة قوارب وجدف العرب المرافقون لنا تجديفهم المعتاد وغنوا أغانيهم بصوت أجش • وكانت الرائحة المنبعثة من القوارب لا تكاد تحتمل• ولحسن الحظ فان البحيرة كانت تمتد أمامنا هادئة ناعمة ، ففى مثل هذه القوارب التى يقودها عرب يداعب عيونهم النعاس وفى مثل هذا الوقت حيث لم يغمر الكون الضياء ـ كان يمكن أن نمر بتجارب محزنة خاصة اذا هبت عاصفة • وبعد ساعة وصلنا الشاطىء عند رأس مكون من كتل حجرية ممتد فى الماء ولا يربطه بالبر الرئيسى سوى ممشى ( عنق ) ضيق جدا • ونزلنا الشاطىء وأرسلنا العرب بالقارب لعنق الصخرة ، ومضى بعض الوقت قبل أن تنزع تعليماتنا الواضحة والتى تتطلب نشاطا ، رفاقنا العرب داكنى البشرة من صمتهم ، ولم يكن هناك وقت نضيعه فلابد أن يكون العبور من عند عنق الصخرة الموصل للبر الرئيسى آمنا ، خاصة وقد بدأ الخط الأبيض يطل من الشرق مزيحا الخط الأسود ••

ونظمنا أنفسنا على طول هذه الرقبة وكمنا خلف الشجيرات الكثيفة ، فعند الفجر يبدأ مرور طيور الماء ، وكان البلشون ( مالك الحزين ) أول ما أطل علينا ثم تلاه الغاق ، ثم البط والبجع والنوارس وطيور الرمال الصغيرة ـ الصقور ـ ونسور النهر ، وتوالت الطلقات على طول الخط ( العنق ) وحظيت البجعات خاصة بطلقات لا تكاد تتوقف الا أن المسافة كانت ـ لسوء الحظ ـ بعيدة جدا ، وشردت بجعتان فقط الى المرتفعات المنخفضة فأطلق عليهما رجلان منا • لقد اختفت النجوم للتو وأشرقت الشمس الأفريقية الجميلة وبدأنا نشعر بحرارة الشمس المشرقة فى سماء صافية • ولما غادرنا أماكننا كانت أسراب الطيور قد اختفت • وحمل كل واحد منا ما اصطاده وعدنا الى مكان رسونا غير المعد جيدا عند الصخرة ، وهنالك تجمعنا حيث كانت قواربنا والعرب المرافقون لنا وعثمان فى حالة استعداد •

لقد سقطت بجمتان وعدد آخر من طيور الماء بالاضافة ونسر بائس من آكلات الجيف كان يمر بين خط النار وكان عليه أن ينجو بحياته ٠

وبعد آن استرحنا قليلا نهضنا ثانية لنبحث عن الطرائد بين اشجار الشاطىء ، وبدانا من عند اللسان (الرقبه) حيث اشجار الطرفاء الكثيفة (١٩) غير كامله النمو والغاب والحشائش المنتشرة على الشاطىء الى الشمال والى الجنوب من اللسان (الرقبه) انف الذكر ٠ ولا يكاد الانسان يخترق هذا الغطاء النباتي الكثيف ـ في كثير من الأماكن ـ الا بشق الأنفس رغم ضيق الشريط الذى يغطيه اذ قلما يزيد عرضه عن عشر خطوات أو عشرين خطوة ، اذ تطغى الصحراء العظيمة على الخضرة بتلالها ووديانها ( الجافة ) ورمالها الناعمة ، وأحيانا بأحجارها ذوات الألوان المتعددة ٠

لقد بقى البارون ساورما ومعه الكلاب عند الموضع الذى تبدأ فيه الشجيرات بالقرب من العنق انف الذكر ٠ وتم وضع البنادق الأخرى على مسافات متساوية ، وذلك وفقا لخطته ، وقد اتخذت لنفسى أبعد المواقع في بقعة كانت الشجيرات تترك بينها فرجة ضيقة ، حيث كان المدى أمامى مكشوفا وآمنا لاطلاق النار بحرية على الساحل ٠ وقد حددت هذه البقعة الحدود الطبيعية للضربة الأولى ٠

وفى طريقنا خلال الرمال أتيحت لنا فرصة تفحص آثار أقدام كثيرة ومختلفة ٠ يبدو أن وحوشا تأتى من الصحراء ليلا الى الشاطىء لتشرب وربما أيضا لتفاجىء الطيور المائية النائمة ٠ لقد كانت هناك آثار متتالية ويعلو بعضها بعضا ، فتلك آثار ضبع والى جوارها آثار ذئب بالاضافة لآثار ابن آوى وثعلب الصحراء وهناك ما يشير الى السحالى الضخمة ، وآثار عريضة لزحف الحيات كانت واضحة على الرمال

الناعمة . وما كدت أصل لموقعى حتى بدأت الكلاب فى الصيد ، وان كان ذلك ــ والحق يقال ــ على مسافة بعيدة منى ، لكن نباحها العالى اقترب من موقعى .

وفجأة ظهر بالقرب من الشاطىء الرملى حيوان طويل رمادى خشن الوبر له راس مستدق وذيل طويل بسيط ( عديم الشكل Shapeless ) . فاطلقت عليه النار فمس . انه النمس ، وهو حيوان افريقى اصيل ، كما انه حيوان بسيط جدا ، فلم ار له شبيها فى الشكل والعادات بين الحيوانات الأوربية التى سبق لى اقتناصها . وسرعان ما تتبعته الكلاب . وكان علينا ان نبحث عن مكمن آخر قريب بعد أن كسرت الشجيرة التى كنا نكمن وراءها . ولم تنجح محاولتنا الثانية ــ لسوء الحظ ــ فى القنص .

وقد دلتنا آثار أخفاف البعير فى الرمال على وجود قبيلة بدوية فى المناطق المجاورة وسرعان ما رأينا عددا من جمالها ترعى تحت الشجيرات وسمعنا نباح كلابها ، ورأينا بعض أفراد هذه القبيلة ــ على البعد ــ يقتربون من الخيام . وقيل لى ان القبائل البدوية هنا بائسة جدا وان التعامل معها لا يبعث على الارتياح فهى قبائل صحراوية خالصة وليس لأحد سيطرة عليها البتة .

لقد انقسم فريق الصيد الآن الى قسمين ، وقد اقترحت أنا والبارون ساورما ، الدوق الكبير أن نستقل أحد القوارب المتاحة وأن نحاول الاقتراب من بعض البجع الذى كان يسبح غير بعيد عن البر ، بينما كان على الرجال الآخرين أن ينشغلوا بطيور الغراء السوداء black Coats التى تتردد بكثرة على البوص ( الغاب ) النامى على ساحل البحيرة .

لقد ذهبت كل مناوراتنا سدى مع هذه البجعات الحذرة ولا حتى طائر البلشون الفضى الكبير الواقف على الساحل

سمح لنا بالاقتراب • لقد ذهبنا الى أماكن أبعد حيث البوص ( الغاب ) أكثر كثافة ، وحيث امتداده أعمق اذ كان يغطى الماء لمسافة مائة خطوة من الشاطىء ، وظهر البط الجميل ذو العيون البيضاء فى طريقه للهجرة وارتفع سرب من هذه الطيور المتشابهة فوق الشجيرات أمام قاربنا وظهر البلشون ذو اللون النيلي والازرق والفضى وغير ذلك من الالوان من بين الغاب ( البوص ) الكثيف • واصطدنا عددا كبيرا من البط ليكون مئونة نحتفظ بها فى وعاء حفظ اللحوم ( اللادر Lader ) ، وجلس المسئولون عن القوارب وقد تجردوا من ملابسهم وعند كل طلقة تصيب هدفا ، يقفز الواحد منهم للماء ليحضر الغنيمة ، وفجأة انشق الغاب عن بدوى ضخم ذى كبرياء يحمل بندقيته الطويلة ، وكنا عند ظهوره على بعد ياردات معدودة من الشاطىء • لقد أتى ليعرض علينا شراء بعض الطيور التى صادها فى الصباح •

وقد اختفى هذا البدوى بهدوء وبلا ضجة كما ظهر ، وكان سعيدا بما أعطيناه من قطع عملة فضية قليلة • لقد اقترب الظهر ( منتصف النهار ) فجدفنا عائدين الى الراس الصخرى • ان الشمس لاهبة ، والرائحة فى قاربنا فى هذا الوقت تكون أشد عفونة من الرائحة المنبعثة ليلا • وكان يجلس بالقرب منا رجل عجوز أعور مشوه الخلقة على نحو ما له لحية مجعدة بيضاء وعلى رأسه عمامة ، وكان مظهره الخارجى ينم عن عدوانية ، ولم يجدف ، وانما أتى معنا فقط حبا للاستطلاع •

ولم نكن سعداء بضيفنا المتطفل هذا فلم يكن قربه منا فى الحقيقة يخلو من خطر •

ووصلنا للصخرة بأمان فى غضون نصف ساعة حيث كان الرجال الآخرون فى انتظارنا وكانوا قد اصطادوا عددا كبيرا من طيور الغراء السوداء(٢٠) Black Coat ، وقد وضعنا

كل ما اصطدناه فى النصف الأول من النهار فى أحد القوارب ، وأرسلناها فى عهدة المسئول عن الصيد التابع لى الى الشاطىء المقابل حيث كانت خيامنا ( معسكرنا الجديد ) قد نصبت هناك •

لقد وافق فريق الصيد الآن على قضاء فترة راحه لمدة ساعة ، وتناولنا افطارا متقشفا بالقرب من الشاطىء على منحدر الراس الصخرى ، وكان افطارنا يتكون من اللحم البارد والخبز وبعض الطعام المعلب غير الجيد ، وشراب ليمون غير طيب المذاق • وراحت جماعتنا تتسلى باقتناص السحالى الصغيرة غريبة الشكل والتى للواحدة منها عرف أو شىء كالعرف فوق ظهرها ، وكانت الحيات كامنة تحت الصخور بأعداد غير قليلة •

ولم تكن فترة الراحة هذه كافية لانعاشنا فالشمس كانت تلقى بأشعتها الحارقة بشكل مرعب على المنحدر الصخرى وكانت الأرض ملتهبة أما الهواء فكان رسول الحرارة التى تسفع جلودنا • لقد كان أشد أيام رحلتنا حرارة ، وهو أشد حرارة بكثير من أشد أيام صيفنا الأوربى حرارة • وسرعان ما نهضنا مرة أخرى وسرنا تحت الشجيرات بالقرب من الساحل فى الاتجاه الشمالى • لقد كان السير على رمال الصحراء الحارقة التى تعكس الحرارة الشديدة أمرا لا يمكن احتماله الا بشق الأنفس • ومرة أخرى أحطنا بالشجيرات فى فترات محددة وبدأنا رياضة الصيد المحببة للنفوس • وعلى أية حال فان فريق الصيد بدا غير مستعد وكانت المطاردة غير منتظمة فكنا نتقهقر ونتقدم مرات عددا • وبعد أن توقفنا عند الخليج لوقت قصير ظهر نمس أمام الدوق الكبير فقلب الحيوان القبيح لكنه سرعان ما انسحب بين الشجيرات فتعقبته الكلاب ودارت بينها وبينه معركة شرسة ، واشتبك كلب ( من نوع داشهند ) ضخم طويل

الأرجل مع النمس ، وانفض الغريمان أحدهما عن الاخر بصعوبة فائقة بعد تدخل بعض الرجال فأصابت يد احدهما عضة من الكلب وأصابت الآخر عضة من النمس ٠

وفي هذه الأثناء مرت كثير من طيور الغاق والبلشون بالقرب منى على طول الشاطىء لكننى لم أطلق النار عليها ، انتظارا للغنيمة الاكبر ( النمس ) ٠ ولما كانت فترة بعد الظهيرة قد حلت فقد قررنا أن نبدأ فى التجديف عائدين الى الجانب الآخر وأن نتخذ فى طريق العودة خطا مباشرا مستقيما ٠ لقد أصبح الهواء أبرد وكان بامكاننا الاستمتاع الآن بأن نلقى نظرة على مياه البحيرة ، وأن نلقى نظرة شامله على الصحراء ، فالظروف الآن مواتية أكثر مما كان عليه الحال فى الصباح الباكر ٠

وكان مسئولو القوارب يتمتعون بروح معنوية عالية ، فكانوا يخلعون ملابسهم ويقذفون بأنفسهم فى الماء بين صياح طيور الماء واضطراب صغارها غيرالقادرة على الهرب، ثم يسبحون عائدين ليلحقوا بالقوارب ، وقد قدم كل واحد منهم من اتجاه مختلف ، وكانت لهذه المباراة ميزة عملية لنا فقد جعلت المجدفين يجدفون بطريقة أسرع ٠

ووصلنا بعد رحلة استغرقت الساعتين ، وبعد أن مررنا بأدغال الصفصاف على الساحل الرملى الذى اقمنا عليه خيامنا ، وجدنا كل شىء جاهزا ومنظما بطريقة مريحة ٠ لقد اختاروا هذه البقعة بعناية فهذا الساحل الجاف يفصل البحيرة عن المستنقع (المنطقة السبخة) ٠ ولأن العشاء لم يكن جاهزا فقد ذهب بعضنا مباشرة للمستنقع ( المنطقة السبخة ) الذى يقع بين معسكرنا وأول الحقول المزروعة ٠

وفى هذه المنطقة التى يغطيها البوص وأشجارالصفصاف والأعشاب والخث ( بضم الخاء ) (٢١) البنى كريه الرائحة ،

يجد المرء حشودا من طيور دجاجات الأرض والشناقب ( المفرد : شنقب بضم الشين وتسكين النون ) ــ البط ايضا وتوعين من طيور الزقزاق ، وراحت الضفادع تقفز هنا وهناك بأعداد كبيرة ، وكانت البقعة كلها تمج بالحشرات السامة •

وأطلقنا كثيرا من الطلقات على أنواع مختلفة من طيور المستنقعات وانسحبنا من هذا المكان المعبأ بجو المستنقعات الجالب للحمى ، قبل ظهور الشفق ، وكان منظر الشمس الجميل حال غروبها ، وطعام العشاء الجيد هما خير نهاية لهذا اليوم المثير ، وخلدنا للراحة فى معسكرنا •

وفى اليوم السابع والعشرين من الشهر بدأنا مبكرا بهدف ممارسة الصيد طوال طريق عودتنا الى محطة ( أبو سكر ) •

فى البداية سرنا عبر الأرض السبخة واصطدنا بعض الشناقب وأنواع أخرى من الطيور ، وعند عبورنا لحقل كان به عدد من طيور مالك الحزين ( أبو قردان ؟ ) وطيور البويت ( أبو طيط ) ، أصابت طلقاتنا أهدافها ووصلنا لمنطقة التلال الرملية التى تغطيها حشائش قصيرة وبعض الشجيرات التى تفصل المستنقع ( الأرض السبخة ) عن الأراضى الزراعية • وطاردت الكلاب بعض الأرانب البرية ، وكان من حظى أنا وأحد المرافقين لنا أن يصطاد كل منا واحدة من هذه المخلوقات المضحكة droll •

لقد كان الأرنب الذى اصطدته أرنبا صحراويا حقيقيا ، اذ كان ضئيلا هزيلا طويل السيقان ، لونه كلون الأيائل وكانت أذناه طويلتين مضحكتين تكادان تكونان شفافتين • وبينما كنا نطارد الأرنبين ، أطلقنا النار أيضا على أحد

العواسق ( المفرد عوسق وهــو نوع من الصــقور ) وبعض الحمـــام ٠

واسترحنــا لنصف ســاعة عنــد المنطقة الفاصلة بين الأرض الزراعيــة ، وأرض الشــجيرات البرية ، وتنــاولت افطارا من طعام بارد وضعه أمامنا بعض العرب ٠

وبعد أن تناولنا وجبتنا غير المترفة تابعنا طريقنا عبر الحقول والقنوات واختلطنــا بالفــلاحين المجهــدين الذين استخدمناهم لاثارة الطــرائد ، وتبعنا الأطفــال والنســاء وتركوا الجواميس والمحاريث طمعا فى البقشيش ٠ ولمحنا ــ غير بعيد ــ حقول قصب السكر الواسعة لازالت دون حصاد رغم بدء موسمه ، فأسرعنا اليها يحدونا الأمل ٠

وناقشنا مشروع الصيد في هذه الحقول بينما كنا نسير على حافتى قناة جافة عريضة ٠

ولما وصلنا للبقعة (حقل قصب السكر) وضعنا البنادق، وانتظر الدوق الكبير فى ركن بجوار القناة أما انا وهويوز Hoyos فوقفنا عند الجانب الذى يحد الحقل من ناحيــة القناة وأحاط الآخرون بكل نواحى الحقل ٠ ومما يؤسف له أن عدد البنادق كان قليلا جــدا كمــا كانت المســافات بين القناصين بعيدة ٠ وبالقرب منا كانت الجواميس والجمــال تحملق فينــا ٠٠ ودخــل مثيرو الطرائد بين أعــواد القصب بصعوبة وراحوا يصيحون صيحات مفزعة ، وفى هذه الأثناء أطلق جارى النار فى الحقل ناحية اليمين ، ومن ثم قفز ذئب ضخم بينى وبينه ، وأسرع بخطى فزعة عبر القناة ، ورغم أن المسافة كانت بعيــدة فقــد جريت عبر القنــاة وأطلقت بندقيتى ذات الماسورتين اثر الحيوان الهارب ٠ فأسرع يعبر الحقول ورجله اليمنى الخلفية مجروحة ٠

وسرعان ما ظهر مثيرو الطرائد ، وظهر من بين أعـواد القصب الصفراء ، الفلاحون الداكنون ينظرون بدهشـــة شديدة بل ان البربر Moors فعلوا الشيء نفســه ، وكان عدد هؤلاء البربر كبيرا ، وقد أقبلوا الواحد اثر الآخــر ، وفي يد كل منهم عود قصب يقضم منــه ويمتصــه • ورحنا نثير الطرائد في الحقل للمرة الثانية •

وفي هذه المرة أطلق جارى طلقة نحــو اليســار فقتل ذئبا كبيرا بطلقته الواحدة هذه • وسرعان ما سمعت صوت قعقعة البندقية القديمة ( الرفل ) التى يحملها احد الرجال على الجانب الأيسر • لقد أصاب ذئبا لكن اصـــابته لم تكن مميتة فأصابته الطلقة الثانية بجرح بالغ ، فغادر خارجا من بين أعواد القصب وتلقى الطلقة الثالثة فى الخلاء •

وبعد ثلاث دقائق قتل جارى الـواقف عن يمينى ذئبـا آخر كبير الحجم بطلقة واحدة ، وبعد لحظة وثب ذئب اخـر بينى وبينه وعبر القناة وولى ، فأطلقت أنا وجارى النار معا فى اثره ورأيناه يجر نفسه بين الجاموس نحو حقل قمح ، وقد كانت اصابته بالغة •

ولما ظهر مثيرو الطرائد من مكامنهم تركناهم يخترقون الحقل للمرة الثالثة ، وسرعان ما أدركت أن طريدة ما ستمر فى طريقى ، وبالفعل فقد مر أمامى ذئب كبير وسيم يتحرك بسرعة وسط أعواد القصب ، فأطلقت عليه فكان من حسن حظى أن أصيب وهوى • وبعد ذلك بدقائق قليلة أطلق جارى الواقف عن يسار طلقة على ذئب آخر فجرحته جرحا قاسيا فزحف بصعوبة نحو حقل فول مجاور • وهرب ذئبان دون أن يلحقهما أذى ، اذ لم تطلهما طلقات البنادق •

وأطلق أحد الرجال طلقة على نمس فجرحه جرحا غائرا، لكنه زحف واختبأ بين أعواد القصب الكثيفة، وذهبت جهودنا

سدى فى البحث عن الذئاب الجريحة على مدى ما تصل اليـــه عيوننا ٠

لقد ذهبنا الآن الى الجانب الآخـــر لحقـــل القصب حيث كان مترجمنا قد أمر باعداد خيول الركوب والحمير لتـنتظرنا فى انتظارنا ٠ ووضعنا الذئاب التى اصطدناها بعناية فوق حمار ، وتحركت قافلتنا مرة أخرى ٠ وتفرق مثيرو الطرائد من مكامنهم فى اتجاهات مختلفة ولم يبق معنا الا الحماران والمرشدون ( الأدلاء ) ٠

وبدا أحـــد الحمـــارين يمارس فى أوقات فراغه مهنـــة الحاوى ، وهى مهنة محببـــة للمصريين ، فقـــد كان يحتفظ بثعبانين كبيرين فى كيس جلدى كان يخبئه تحت ثوبه وكان قد أمسك بهما بالقرب من البحيرة بالأمس ٠٠ ولا شك أنه ابتدع طريقة لجعلهما يتنفسان ٠ ومع ذلك فقد بدا كأنهما ماتا ٠ وفى غضون دقائق قليلة فان هذين الثعبانين البائسين اللذين نزعت أنيابهما ـ قد استعادا نشاطهما ، وزحفـــا عائدين للكيس الجلدى البنى ٠ وكنـــا نســـير ببطء وكانت الكلاب ( من نوع الداشهند ) تجرى بجوار الخيول ، لـــكن عندما اقتربنا من قرية صغيرة بائسة ليس فيها ما يسترعى الانتباه الا بعض النخيل وبعض أشـــجار الجميز ٠ اختفت الكلاب فى حقل فول مربع الشكل ، وعلى الفور بدأنا عملية صيد متسمة بالحيوية ٠ لقد ترجلنـــا عن خيـــولنا وأحطنـــا بالحقل الذى كان يمكن أن نغطيـــه بطلقاتنـــا من جانب الى جانب ، واستمرت عملية الصيد فى هذا الحقل الضيق زهاء ربع الساعة ، وأطل نمسان بالقرب من بنادقنا لكننا أحجمنا عن اطلاق النار مخافة أن يصيب أحدنا جاره وأدرك النمسان الموقف فلم يغادرا الحقل الآمن رغم مطاردة الكلاب ٠ ولأن الوقت يمضى سريعا فقد كان علينـــا أن نســـتدعى الـــكلاب ونستمر فى مسيرنا دون أن نحقق أهدافنا فى الصيد ، وأدى

بنا الطريق الى تجاوز خط السكك الحديدية الذى يربط بين حقول القصب ومصنع السكر فى ( أبو سكر ) ، وأوقفنا قطارا عابرا ودخلنا عربة فارغة ، وبهذه الطريقة وصلنا ( أبو سكر ) بسرعة ٠

وركب العرب المصاحبون لنا بمهارة وسرعة لا تصدق بين العربات ٠ ولما كان لدينا متسع من الوقت فقد قررنا ان نثير الطرائد فى حقل قصب السكر الذى كنا قد اصطدنا فيه أول يوم ، وذلك على سبيل التجربة ، وأحطنا بالحقل وجمعنا اكبر عدد من سائقى الدواب والسياس ، وما كدنا نبدأ العمل حتى قفز ذئب بجوار احدى البنادق التى كانت قائمة فى أحد الأركان ولم يستطع جارى اطلاق النار لقرب الذئب منه ومخافة اصابة أحد الحضور ، ولما استعد للاطلاق كان الذئب قد ولى بعيدا ٠

وما هى الا ثوان حتى أطلق أحد رجالنا النار على ذئب وسيم جدا ٠ لقد كان اضخم من كل الذئاب التى سبق لنا قتلها ، وقبل أن يخرج مثيرو الطرائد كانت البنادق قد أصابت ذئبين ، وضاعت منا احدى دجاجات الأرض a wood cock (٢٢) ٠

لقد غادرنا هذا الحقل الآن وكان حصادنا منه من الطرائد هذه المرة أكثر مما كان عليه الحال فى المرة السابقة ٠ وعلى المحطة ، بدا حصادنا من الطرائد غير عادى : ستة ذئاب أحدثنا بها جروحا فى يوم واحد ، وكان لدينا ما يجعلنا نرضى عن حصاد رحلتنا من الصيد فى الفيوم، فقد كان هذا الحصاد يتمثل فى وشقين ( الوشق حيوان من فصيلة السنانير وهو أصغر من النمر ) وسبعة ذئاب وتمسين وأرنبين بريين ، وأربع بجعات ونسرين من نسور النهر ، وأحد صقور الجيف ونسر أفريقى جارح، ومائة وسبعين طائرا صغيرا كان من بينها أنواع غريبة ٠

وتناولنا عشاءنا فى صالة الانتظار ، وكان المساء وقد هبط الليل ووقفنا مستعدين فوضعت حاجياتنا فى الحافلات وغادرنا ( أبو سكن ) وبقى معنا الاخـوان سـاورما والأمير تاكسس Taxis طوال ساعتين ثم فارقانا عنـد وصـولنا لوادى النيل •

★★★

وبعد وداع حار ركبنا الباخرة متجهين جنوبا الى أسيوط الهدف التالى لرحلتنا النيليـة الممتعـة وخلدنا للـراحة فى الحافلات وسرعان ما وجدنا أن النوم هو أفضل مكافأة بعـد الجهد الذى بذلناه •

# تعليقـات المترجـم

## عن الفصـل الأول

(١) تريست أو تريستا ـ الآن ـ ضمن الحدود الايطالية فى أقصى الشمال الشرقى لايطاليا ، قريبة من حدود ما كان يعرف بيوغسلافيا ، لكن الأمور لم تكن على هذا النحو وقت قيام الأرشيدوق ردولف برحلته ، ومن المفيد هنا استعراض وضع تريست هذه للقارىء الذى يقرأ الرحلة من منظور تاريخى ، فقد استعادت النمسا سيطرتها على تريست والساحل الغسانى بل وامتدت سيطرتها على معظم ايطاليا • بعد مؤتمر فينا الشهير ١٨١٥ • كل ذلك بمباركه أوربية ، رغبة فى سيادة المبـادىء المحافظة ، ورغبة فى ابعاد فرنسـا عن التاثير فى الساحة الأوربيـة ، وكانت رغبة الايطاليين فى استعادة تريست ـ بالاضافة لأسباب أخرى • أحد أسباب انضمام ايطاليا للحلفاء ضد دولتى الوسط ( ألمانيا والنمسـا ) فى الحرب العالمية الأولى • وقد قام ردولف برحلته هذه فى الفترة التى يعتبرها المؤرخون ممثلة للتحالفات والتحالفات المضادة التى مهدت للحرب العالمية الأولى •

(٢) وقت القيام بالرحلة كانت النمسا والمجر تشكلان كيانا سياسيا واحدا باسم مملكة النمسا والمجر أو المملكة الثنائية ، وكان نظامها يقوم على أساس أن لكل من النمسا والمجر دستورها وادارتها الذاتية ، أما شئون الدفـاع والسياسـة الخارجيـة فكانت من اختصـاص الادارة الامبراطورية فى فينا ، وكانت المملكة الثنائية تضم عديدا من الأقليات القومية النشطة كالتشيك والبولنديين والسلاف والكروات والطلبات ، وظل هذا الكيان السياسى قائما فى الفترة من ١٨٦٧ الى ١٩١٨ • وهذه المعلومة تفسر كثيرا من العبارات الواردة فى ثنايا الرحلة •

(٣) كما سيتضح من سياق الرحلة ، فان الأمير رودلف كان يعتبر تقسه ـ سواء فى مصر أو فى القدس فى أرض مقدسة ، وقد وصف مصر فى أكثر من مكان فى رحلته هذه بأنها أرض مقدسة ، كما وصفها لاعتبارات دينية بأنها أرض الرب ، فلا غرابة اذن أن يصف نفسه ومن معه بأنهـم حجاج •

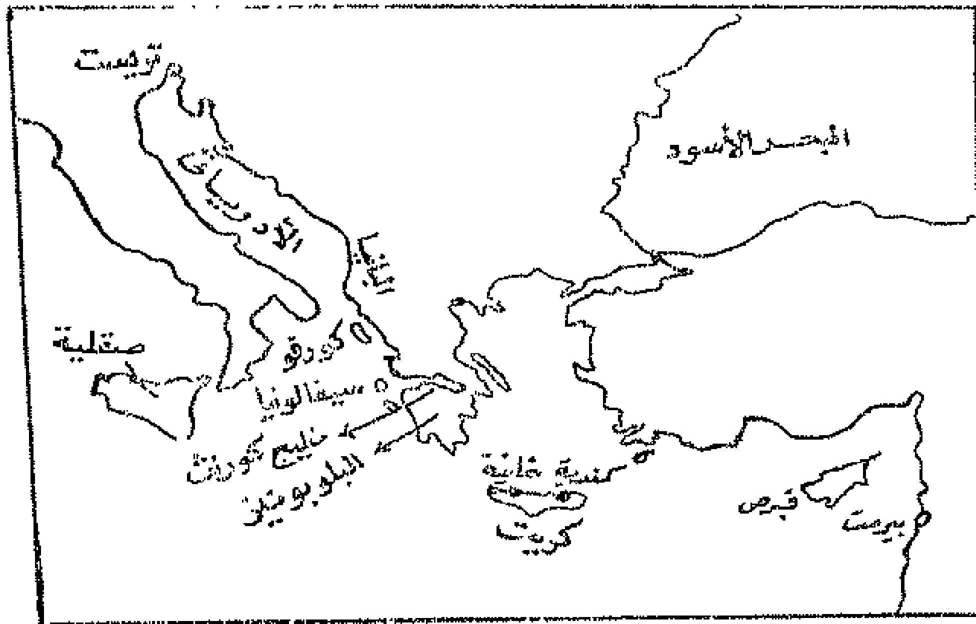
(٤) هكذا بالنص ، وهو تعبير غير دقيق ، والمقصود أن البرد كان قارسا ، وأن درجة الحرارة قد بلغت عشرين درجة مئوية •

(٥) اشارة الى رحلة قام بها فى غرب أوربا ، والمحيط المقصود هنا هو الأطلنطى •

(٦) فى مواجهة الساحل الالبانى حاليا ، لكنها ذات طابع يونانى • انظر الخريطة •

(٧) اشارة للصراع القديم على البانيا التى كانت تطمع النمسا فى ضمها ، ويطمع الصرب الذين يؤيدهم الروس فى اجتياحها وجعلها جزءا من صربيا الكبرى • ترى هل اختلفت التحالفات والتحالفات المضادة ازاء البلقان فى القرن التاسع عشر عما هى عليه الآن ؟ أيهم المانيا والنمسا قيام الصرب الكبرى المتحالفة تقليديا مع روسيا ؟ — ( المترجم ) •

(٨) تشير الخريطة التالية لكثير من المعالم التى أشار اليها الأمير ردولف فى هذا الفصل :




(٩) أشرنا للصراع على البانيا فى حاشية سابقة — انظر أيضا مقدمة الترجمة العربية •

(١٠) السرو Sypresses — كما ورد فى معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية : شجر حرجى دائم الخضرة هرمى وشكل ، وهو على أنواع •

(١١) انظر الخريطة التفصيلية التالية :




(١٢) انظر الخريطة بالحاشية السابقة .

(١٣) هو الشاعر الاغريقى العظيم هوميروس الذى نسبت اليه الالياذة والأوديسة ، وقد اثرت اشعاره فى آداب العالم كله ، عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد . ويتشكل الباحثون فى نسبة الأوديسية اليه

سيد احمد الناصرى : الاغريق تاريخهم وحضارتهم . مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٨٤ .

(١٤) أهمهـا : كورفو وزانطـة وكتالونيـا • انظـر الخريطـة حاشية ١١ •

(١٥) بطلها أوديسيوس ويسميه الرومان أوليكسيس Ulixea لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع الى :

ـ أمين سلامة : معجم الاعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية •
ـ صقر خفاجة : هوميروس ، ١٩٥٦ •
ـ لطفى عبد الوهاب يحيى : هوميروس ، تاريخ حيـاة ، ١٩٦٨ •

(١٦) ديانا ، وبالاغريقية أرتميس ، يطلق عليها هى وأختها مينرفا « العذراوان البيضاوان » سلحها جوبيتر بقوس وسهام وجعلها ملكة الغابات وجعل لها حاشية من ستين حورية » ، ألزمتهن ديانا عفة كاملة ، وكان الصيد هو تسلية ديانا المفضلة •••

انظر على سبيل المثال :

كوملان ، ب : الأساطير الاغريقية والرومانية ، ترجمة أحمد رضـا محمد رضا ( الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ ) ، ص ٣٨ •

(١٧) راجع مقدمة المترجم •

(١٨) اشارة لازدهار الحضارة أيام العظمة اليونانية القديمة •

(١٩) تقول الأسطورة الاغريقية ان اسكليبيوس تدرب حتى أصبح طبيبا ماهرا قادرا على احياء الموتى ، فأرسل زوس صاعقة قتلته ثم عاد فعفا عنه ورفعه مرة أخرى لمرتبة الآلهة وقامت عبادة اسكليبيوس هذا فى بعض مناطق اليونان ، وكان الثعبان الملتف حول قائم من الرموز التى تشير اليه ( الرمز نفسه لازال مستخدما للاشارة للطب والدواء ، ونجده معلقا فى الصـيدليات ) وكان الكلب أيضـا مقدسـا فى ديانته ، انتقلت عبادته للرومان •

انظر : أمين سلامة : معجم الأعلام فى الأساطير اليونانية والرومانية •

(٢٠) بطل الأوديسة ـ انظر حاشية ١٣ و ١٥ •

(٢١) رب البحر فى الأساطير الاغريقية والرومانية وله سلطان على الرياح •••

أمين سلامة : مرجع سبق ذكره ·

(٢٢) من الفصيلة البلشونية ورتبته طويل الساق ، والاسم الشائع فى مصر ( أبو قردان ) وهو أبيض طويل الساق ويسمى صديق الفلاح ، وثمة أنواع أخرى بعضها رمادى وبعضها حمراء ــ ( المترجم ) ·

(٢٣) Cormorant غاق ، والمؤنث غاقة · طير مائى من الفصيلة البجعية ورتبته كفيات القدم ، ومن أسمائه أيضا Sea ravenو Cool goose . عن معجم الشهابى ــ ( المترجم ) ·

(٢٤) الغواص diver طائر له قدرة على الغوص المحدود فى الماء · صغير الحجم · يرى بكثرة محلقا على ضفاف النيل ــ ( المترجم ) ·

(٢٥) Sea mew ويسمى أيضا زمج الماء (بتشديد الميم وفتحها) ويطير أسرابا فوق البحار والشواطىء وريشه طويل ، ومن رتبة كفيات القدم ·

راجع مادة Sea-gull بمعجم الشهابى .. ( المترجم ) ·

(٢٦) هذه العادة ( توجيه الوجه صوب الوطن عندما يحرز المــرء انتصارا أو يقوم بعمــل مشرف ) لازالت فيما يبدو موجودة بوضوح عند بعض الشعوب الأوربية ، وكان الشخص يهدى ــ بتصرفه هذا ــ انتصاره أو عمله الى بنى وطنه ، ومنذ عدة أعوام رأيت بعض الشباب الانجليز والألمان ( كان عددهم ثلاثة ــ انجليزيان والمانى ) فى منطقة الأهرام ، ولما أفلح الألمانى فى تسلق بعض صخور الهرم ، راح ينظر بعيدا موليا ظهره لزميليه ( الانجليزيين ) ، ولما سألت سؤالا عابرا : لأى شىء ينظر ؟ قال الانجليزيان وهمــا يضحــكان : الى ألمانيــا To Germany · ولم أدرك وقتها الأبعاد الكاملة لهذا التصرف · ومن أغرب ما رأيت فى هذا الأمر وتحققت منه تماما أن بعض الايرانيين فى منطقة الخليج ، بعــد أن يؤدوا صلواتهم ووجوههم صوب الكعبة المشرفة ، يغيرون اتجاه وجوههم ليجعلوها صوب فارس ( ايران ) وهم يقولون الدعاء أو التسبيح ، فكأنهم يصلون صوب الكعبة ( المشرفة ) ويدعون ويسبحون صوب ايران ، كمــا لاحظت أنهم يفعلون الشىء نفسه ( تولية الوجه صوب بلدهم ) فى مواقف مختلفة ، ومن المؤكد أنهم فى شهر رمضان المبارك لا يفطرون الا اذا انطلق مدفع الافطار فى ايران ، وليس فى البلد الذى يقيمون فيه رغم الفــارق الزمنى · حقا أن الرّحلات منبع لا ينضب للعلم والمعرفة ــ ( المترجم ) ·

(٢٧) من الجزر الأيونية ــ انظر الخريطة ، حاشية ١١ ·

(٢٨) انظر الخريطة ·

(٢٩) انظر الخريطة ·

(٣٠) يطلق الاسم على الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأدريا
فيما بين الساحل الألباني وتريست بما في ذلك ساحل استيريا ، وقد
هذا الساحل الأخير حتى تريست · انظر الخريطة ·

(٣١) ما بين القوسين توضيح من المترجم ــ عن معجم المورد

(٣٢) راجع مادة Lepus في معجم الشهابي لمصطلحات ال
الزراعية لمعرفة الفرق بين مصطلح Hare وتعني الأرنب الو
و Lepus وتعني الأرنب البري ، فيما يرى صاحب المعج
( المترجم )

(٣٣) خطأ مطبعي غالبا ، والصحيح الشرقي ــ ( المترجم ) ·

(٣٤) في كريت ، وثمة ميناء بالاسم نفسه ( كانديا ) أو كاند
انظر الخريطة ــ حاشية ١١ ·

(٣٥) الاشارة الى مصر المقدسة هي ايمان ضمني بما ورد
الكتاب المسيحي المقدس ــ وصاحب الرحلة مسيحي ــ فقد ورد في
التكوين ( جنة الرب أرض مصر ) ، وفي السفر نفسه ( نهرك يا
النيل ·· هو النهر الثاني من أنهار الجنة ) وثمة حديث عن الرسول ﷺ
( صلى الله عليه وسلم ) لا يبعد في معناه عن هذا النص الانج
الاخير ــ ( المترجم ) ·

# تعليقـات المترجـم

## عن الفصــل الثانى

(١) الساحل المصرى الشمالى يختلف الآن ــ كما يلاحظ القارىء ــ عن الوصف الذى يرد فى كتب الرحالة خاصة ، الذين زاروا مصر منــذ عصور بعيدة نسبيا ، ويرجع ذلك الى أن مكونات الساحل الشمالى ترجع فى الاساس الى طمى النيل ومكونـات العـصر الجـيولوجى الحـديث ( البلايستوسين ) ، فمدينة دمياط على سبيل المثـال عندما تم انشـاؤها كميناء كانت تطل على ساحل البحر المتوسط مباشرة ، اما الآن فبينهـــا وبين الساحل عدة كيلو مترات بحيث يمكن القول أن دمياط نفسها لم تعد ميناء ، ويرجع ذلك الى أن طمى النيل الذى كان يجلبه النهر قبل انشاء السد العــالى كان يزيد من امتداد الدلتا فى البحر أربعة أمتار فى السنة على الأقل ، وذلك فى المتوسط ، ومن هنا نشأت على نحو خاص عدة رؤوس طينية واضحة على خريطة مصر أهمها رأس دمياط ، ورأس رشيد ورأس بلطيم ، وقد طغى طمى النيل فى مواضع كثيرة فى ساحل مصر الشمالى خاصة بين بورسعيد والاسكندرية على المكونات الرملية ، فالقادم الى مصر هذه الأيام عن طريق البحر المتوسط ، لا تقـابله هذه الكثبان الرملية فى المنطقة الآنف ذكـــرها للسبب الذى ذكرنـــاه سابقا وللتوســع الزراعى واستصلاح الأراضى ولامتداد البنيان العمرانى · وليس أدل على تغير المسرح الجغرافى للأحداث التاريخية من أن فروع النيل فى الدلتا كانت سبعة أفرع فى التاريخ القديم، تقلصت الى ثلاثة أفرع فى العصر الاسلامى، وهى الآن فرعان كما هو معروف ، أما بقية الشبكة المائيــة فهى جهــد بشرى ، وقد تقلص عدد الافرع بسبب انسدادها أو امتلائها بطمى النيل · كيف يمكن لباحث تاريخى أن يلم بالأحداث فى العصور القديمة والوسيطة ، بل والحديثة دون معرفة التغيرات الجغرافية أو المسرح الجغرافى التى تجرى فوقه الأحداث غير منفصلة عنه ؟ ــ (المترجم ) ·

انظر على سبيل المثال :

محمد عوض محمد : نهر النيل · القاهرة ، ١٩٦٢ ·

محمد حجازى محمد : نحو دراسة فى جغرافية مصر ، القــاهرة ، ١٩٨٦ ·

محمد صفى الدين ومحمد صبحى عبد الحكيم : دراسات فى جغرافية مصر · القاهرة ، ١٩٥٩ ·

(٢) وقد يكون المقصود نائب السلطان ( الخديو ) ٠

(٣) ما بين القوسين توضيح من المترجم ٠

(٤) استخدام الأمير ردولف أكثر من مصطلح تشير جميعا للشرق وكان له استخدام خاص بها ، وقد يختلف عن المفاهيم السائدة لدى المؤرخين ٠

ونبدأ بالمفاهيم السائدة لدى المؤرخين ، اذ يرون أن مصطلح الشرق الأدنى Levant يلي مصطلح الشرق الاوسط من حيث المساحة ، وكان المصطلح ( الشرق الادنى ) يطلق على البلاد الواقعة تحت الحكم العثمانى عندما كانت الدولة العثمانية في ذروة قوتها واتساعها ، ففي القرن السادس عشر كانت تمتد ـ احيانا ـ من مشارف فينا الى القرم ومن البحر الأسود الى العراق ومسقط وعدن وشبه الجزيرة العربية وسواحل البحر الأحمر الغربية ومصر والشام وليبيا وتونس الجزائر ٠

أما مصطلح الشرق الأوسط فيضم الى جانب الدول العربية ايران وتركيا ( الحالية ) وكريت وقبرص والصومال واثيوبيا وباكستان ٠ ( أنظر على سبيل المثال كتابات عبد العزيز نوار عن تاريخ العالم العربى ) ، اما أرنولد توينبى فقد قسم الشرق الادنى من الناحية الحضارية ـ فيما يقول محمد أنيس فى كتابه عن الدولة العثمانية والشرق العربى ـ الى ما يسميه مناطق حضارة الشرق الادنى Near eastern civilization ويقصد بها الحضارة اليونانية ، وحضارة الشرق الأوسط ويقصد بها المناطق التى ظللتها الحضارة الاسلامية فى الشرق الأدنى ٠ ويقول محمد أنيس في مطلع كتابه آنف الذكر : ان الاوربيين يقصدون بالشرق الأدنى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ٠

ولكن المتصفح لهذه المرحلة يلاحظ أن ردولف لا يدخل اليونان ضمن مصطلح الشرق الأدنى Levant كما لم يدخل أهلها اليونانيين ضمن مصطلحه Levantine ، والشيء نفسه فعله بالنسبة للأتراك ، وقد يكون النص عليهم ( الأتراك ) من باب التأكيد عليهم والاهتمام بهم لا لعزلهم عن مفهوم الشرق الأدنى ؟

(٥) كانت إمبراطورية النمسا والمجر تضم العديد من القوميات والأجناس ، وقد حاقت بها الهزائم في القرن التاسع عشر على يد الحلف الايطالى الفرنسى وعلى يد بروسيا سنة ١٨٦٦ ، فاضطرت الى تعديل أوضاعها بما عرف بالملكة الثنائية ، وكان نظام المملكة الثنائية يقوم على أساس أن لكل من النمسا والمجر حكما ذاتيا أو ادارة ذاتية ، كما أن لكل

منها دستوره ، وتتولى الادارة المركزية ( الامبراطورية ) شئون الدفاع وشئون السياسة الخارجية • وكانت هذه المملكة الثنائية تبسط سيطرتها على عديد من الأجناس والقوميات كالتشيك والبولنديين والسلاف والكروات والايطاليين ـ وهذا يفسر لنا لماذا لم يعتبر ردولف كل هؤلاء ( فيما عدا الطليان ) ضمن مفهوم الشرق الأدنى ، كما يفسر لنا لماذا أقدم أهل ساحل دلماشيا لاستقباله عندما قدم الى مصر •

(٦) امبراطورية النمسا والمجر فى الفترة التى قام بها ردولف برحلته هو فرنسوا جوزيف الذى يقول عنه المؤرخ فشر : « ••• خلال الحقبة الطويلة ( ١٨٤٨ ـ ١٩١٦ ) التى استوى فيها فرنسيس جوزيف على عرشه بفينا ، ظل يكدح ويدأب فى مكتبه ، ويوسع ويقرأ ، من الصباح الباكر الى عتمة الليل : رجل مفجوع القلب مكلوم الفؤاد ـ هذا اذا كان فى مقدوره أن يشعر بثقل الفجيعة • فقد اغتالت زوجته يد قاتل زنيم ، وازهق ابنه الوحيد روحه بيده ، وألحق ابن أخيه ووريث عرشه العار بأسرته بقران لم يغتفره له الامبراطور ، وذلك بزواجه من سيدة كلف بها ، تدنو مرتبتها الاجتماعية من منزلة الامارة •

لكن سواء أكانت كل مقدرة لفرنسيس ( فرانسوا ) جوزيف على الشعور والاحساس قد نضب معينها وجف ماؤها نفسه أم لشعور سخ فى دخيلته بعظمة منصبه الرفيع ، أم لمجرد أن طبيعته كانت باردة جوفاء ، فان هذا الرجل العجوز واصل السير دون أن يهزه شىء ـ رجل متعبد زاهد آلى ، كان يشاد بمدحه بوصفه الفارس الأول فى مملكته والسيد النبيل الأول فى أوربا ••• وقد منيت الامبراطورية النمساوية فى عهده بضربات ساحقة عديدة ••• » •

فشر : تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، ترجمة أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع • ط ٧ • دار المعارف ، ٧٦ • صص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ •

(٧) ليس هذا هو مصطلح العصر •

(٨) من الطبيعى أن يضع أهل شرق أوروبا من الأجناس التى توجد منها جاليات فى الأراضى التى تسيطر عليها مملكة النمسا والمجر تحت الحماية الامبراطورية كهذه المملكة ، ومن الطبيعى أيضا أن ترحب المملكة بذلك خاصة أنها كانت ذات أطماع توسعية •

(٩) نبات تنتهى أوراقه بحقاق صغير • ( عن معجم المورد ) •
( المترجم ) •

(١٠) بعد خروج المسلمين من الأندلس بناء على أوامر كنسية أو حكومية ، وخروج اليهود أيضا بناء على رغبة شعبية عارمة ، لم يجد

اليهود من ملجأ لهم الا الدولة العثمانية ومراكش ، ويبدا لأوربا ان المسلمين واليهود فى حالة وفاق وتحالف ، وكان الامر كذلك بالفعل لتعرضهم ( المسلمين واليهود ) لمشاكل مشتركة ، ولم تكن اوربا سعيدة بهذا التحالف حتى انهم كانوا يشبهون المسلمين بأهل السبت Sabathero ، وقد ظل هذا التحالف حوالى قرنين من الزمان وقد حمى اليهود من الابادة ، اما نتائجه بالنسبة للمسلمين او الدولة العثمانية فلم تكن على ما يرام ، فقد عمل اليهود فى البلاط العثمانى على منع اى تقارب اسلامى مسيحى ، كما عملوا على الا يتم صلح عثمانى اسبانى ، وكانت بعض الجهود قد تم بذلها فعلا على هذا الصعيد ، وكنا نظن ان مثل هذه الأفكار – ونعنى بها وجود تشابه خلقى ( بكسر الخاء ) وخلقى ( بضم الخاء ) بين المسلمين واليهود قد انتهت من العقل الأوربى بعد القرن الثامن عشر ، ولكننا نقرؤها مرة اخرى فى رحلة ردولف (القرن ١٩) خاصة وانه قارن فى موضع آخر بين ( المكر والغش ) بين كل من المسلمين واليهود على سواء ٠

عما اوردناه فى هذه الحاشية راجع :

- رحلة جوزيف بتس ( الحاج يوسف ) الى مصر والحجاز ، ترجمة د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ( نشرته الان الهيئة العامة للكتاب – سلسلة الالف كتاب الثانى ) ٠
- العثمانيون فى أوربا ، تأليف بول كولز ، ترجمة د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ٠ الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة الالف كتاب الثانى ٠
- رحلة فارتيما ( الحاج يونس المصرى ) ٠ الهيئة العامة للكتاب سلسلة الالف كتاب الثانى ٠
- دور المسلمين فى انهاك الاقتصاد الاسبانى فى القرن ١٦ وبداية ١٧ ٠ تأليف د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ٠ مجلة جامعة الملك عبد العزيز – جدة ٠ المجلد الأول ، ١٩٨٨ ٠

(١١) سكان مصر الأصليون عرب ، ويرى الرحالة العالم بيرتون ان قبط مصر عرب تحجروا أى انعزلوا لفترة بحكم احاطة الصحراء بالوادى والدلتا ، بل ان ردولف نفسه يذكر فى موضع آخر من رحلته ان قبط مصر لا يختلفون شكلا ( فيزيقيا ) عن المسلمين ٠

راجع :

رحلة بيرتون لمصر والحجاز ج ١ ، ٢ ، ٣ ٠ ( الترجمة الكاملة ) سلسلة الألف كتاب الثانى – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

(١٢) ما بين القوسين توضيح من المترجم ٠

(١٣) ما بين القوسين توضيح من المترجم ٠

(١٤) راجـــع حاشـــية رقـــم ٤ ٠

(١٥) نوع من الأشغال الخشبية الدقيقة ٠

(١٦) رحلة ردولف ـ كما هو واضح ـ رحلة رسمية أو شبه رسمية فهو محاط من كل جانب بالمراقبين والمرافقين ولم يحـاول ـ ولا يستطيع ـ أن يتغلغل تغلغلا حقيقيا فى صفوف الشعب ، ومن هنا الغموه هذه الاجابة غير الحقيقية ، فهذه الظاهرة لا يخلو منها مجتمع على نحو أو آخر ، وهذه الطائفة من النساء قد تكون من النمســا أو غيرها ٠

(١٧) الامبراطور الرومانى ديوقلديانوس Diocaletianus واسمه الأصلى ديوقليس ، توفى سنة ٣١٦ م ٠ تعرض المســيحيون فى عهــده لاضطهاد شديد ، لدرجة أن الكنيسة المرقسية القبطية فى الاسكندرية قررت فيما بعد جعل تاريخ تولى ديوقلديانوس بداية التقويم القبطى ٠

سيد النــاصرى : تاريخ الامبراطوريـة الرومـانية ، ١٩٧٨ ٠ ص ٤٢٠ ـ ( المترجم ) ٠

(١٨) ليس من الضرورى أن يكون كل الندابين مستأجرون ، وقد ذكر الأمير نفسه فى الفصل الأول أنه شيع أحد أصدقائه الى مثواه الأخير وأنه حزن لذلك حزنا حقيقيا ، وكان ذلك فى فينا ، وفى بلاد الشرق هناك من يحزنون الموتى حزنا حقيقيا ٠

(١٩) قلت هذه السبخات بمرور الوقت لامتداد العمران ، واستصلاح الأراضى ، بالاضافة لدور طمى النيل الذى كان يعمل على ردم بعض هذه السبخات ٠ والسبب الأصلى فى وجود هذه السبخات والمسطحات المائية المالحة ـ فيما يقول الجغرافيون ـ أن البحر كان يطغى على الدلتـا ثم يعود فينحسر عن سواحلها ٠

(٢٠) راجع حواشى الفصل الأول ـ (المترجم) ٠

(٢١) الفجـــور فى مولد الســـيد البدوى ، وقبل ذلك على شرف الآلهـــة ببـــاستيس ٠

(٢٢) يمكن تفسير العبارة المتعاطفة التى ذكرها الأمير ردولف عن عباس حلمى باشا ( ١٨٤٨ ـ ١٨٥٤ ) انه كان مناهضـا للنفوذ الفرنسى فى مصر ، ورفضه مشروع قناة السويس الذى تم ، على أية حال ـ فى عهد سعيد باشا والخديو اســماعيل ، ويجمع المؤرخون أن عبـاس باشـا حلمى لم يكن مرحبا بالنفوذ الأجنبى الأوربى رغم استعانته بالانجليز لانشاء السكك الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة والسويس ٠ أما فيما يتعلق بمقتله فنفضل هنا نقل الروايات المختلفة التى أعـاد عرضــها عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عصر اسماعيل جـ ١ :

« ... اتفقت الروايات على أن عباس مات مقتولا فى قصره ببنها . وهذا أمر مقطوع بصحته ، ولكن الخلاف فى رواية مقتله . وليس عجيبا أن يختلف الرواة فى ذلك ، فان قتل عباس كان نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصور ، وهذه المؤامرات لايسهل اكتساب حقيقتها ، او الاتفاق على روايتها ، لما يكتنفها من الاسرار ، ولانها تقع فى جنح الظلام : بعيدة عن الانظار ، فلا يعرف الناس عنها الا ما تتناقله الالسنة بعد وقوعها ؛ ومن هنا ينشأ الاختلاف فى الرواية : ولدينا عن مقتل عباس روايتان ، احداهما ذكرها اسماعيل باشا سرهنك فى كتابه ( حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٦٥ ) والاخرى ذكرتها مدام اولمب ادوار كما سمعتها بمصر فى أوائل عهد اسماعيل ودونتها فى كتابها ( كشف الستار عن اسرار مصر ص ١٤٣ ) .

ويؤخذ من رواية اسماعيل باشا سرهنك ، ان ( عباس ) كانت له حاشية من المماليك يقربهم اليه ويصطفيهم ، ويتخذ منهم حراس شخصه ، ولهم عنده من المنزلة ما جعله يغدق عليهم الرتب العسكرية العالية ، على غير كفاءة يستحقونها ، حتى حاز اكثرهم رتبة قائمقام وكان لهم كبير من خاصة غلمانه ، يسمى خليل درويش بك ، وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير ؛ وقد اساء هذا الرئيس معاملة اولئك المماليك ، فاستطالوا عليه بالغمز واللمز ، وخاصة لأنه كان صغير السن ، فاتخذوا من مداعباته مغمز الأقاويل . فسخط عليهم . وشكاهم الى مولاه ، فأمر بجلدهم . فجلدوا ؛ وجردوا من ثيابهم العسكرية . والبسوهم خشن اللباس وأرسلهم الى الاصطبلات لخدمة الخيل . فعز ذلك على « مصطفى باشا » أمين خزانة عباس ، لأنهم كانوا من أتباعه المقربين اليه . فسعى جهده لدى سيده ليعفو عنهم . فلم ينل بادىء الأمر بغيته . فلما ذهب عباس باشا الى قصره ببنها يصحبه أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الالفى محافظ العاصمة ، رجاهما مصطفى باشا ان يطلبا العفو عنهم ، فطلبا ذلك الى عباس . فأجاب ملتمسهما . واصدر امرا بالعفو عنهم . وردهم الى مناصبهم . فجاءوا الى بنها ليرفعوا واجب الشكر للأمير . ولكنهم اضمروا الفتك به انتقاما لما اوقع بهم . فائتمروا به مع غلامين من خدمة السراى . يدعى أحدهما عمر وصفى والآخر شاكر حسين . واتفق الجميع على قتله . وكان من عادة عباس عند نومه أن يقوم على حراسته غلامان من مماليكه . ففى ليلة ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ ( ١٤ يولية سنة ١٨٥٤ م ) كان الغلامان المذكوران يتوليان حراسته ، فجاء المؤتمرون فى غسق الليل على اتفاق معهما . وفتحا لهم الباب ، فدخلوا غرفة الأمير . وهو نائم ، ولما أرادوا الفتك به استيقظ وحاول النجاة ، فصده عمر وصفى ، وتكاثر عليه المؤتمرون ، وقتلوه ، ثم أوعزوا الى الغلامين بالهرب فهربا ، وكتم المتآمرون الخبر الى اليوم التالى ولما لم يستيقظ فى موعده دخل عليه أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الالفى فوجداه مقتولا ، فذعرا لهذه الفاجعة ، واتفقا على اخفاء الخبر حتى نقل الأمير القتيل الى القاهرة فى عربة ، ووصلا به قصره بالحلمية ، وهناك ذاع خبر قتله .

وأراد جماعة من انصار عباس • وعلى رأسهم ابراهيم باشا الألفى أن يجعلوا الحكم من بعده لنجله ابراهيم الهامى باشا الذى كان وقتئذ باوروبا • فاتفقوا على استدعائه ليولوه الحكم ، ويمنعوا عنه عمه سعيد باشا أكبر أنجال محمد على وأحق الأمراء بالولاية طبقا للنظام القديم • وكان سعيد باشا وقتئذ بالاسكندرية ، يقيم بسراية بالقبارى • فكتبوا سرا الى محافظ الاسكندرية اسماعيل سليم باشا • وأبلغوه بما اتفقوا عليه • وبالغوا اليه القيام على النفر حتى يحضر الهامى باشا • فلما تلا الرسالة لم يشاطرهم رأيهم • لعلمه أن الحكم من حق سعيد باشا ، فقصد اليه من فوره • وأنهى اليه فحوى الرسالة • فشكره سعيد باشا على اخلاصه • وذهب بصحبته الى سراى رأس التين • وأعلن اعتلاءه العرش • وأجريت حفلة الجلوس • وأطلقوا المدافع • ثم سافر سعيد باشا الى القاهرة بصحبة امراء الأسرة الحاكمة الذين كانوا مبتعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس من العداء والنفور ، فلما وصلوا الى القاهرة ذهب سعيد الى القلعة وتولى زمام الحكم •

تلك خلاصة رواية اسماعيل باشا سرهنك •

اما رواية مدام اولمب ادوار فخلاصتها ، أن الأميرة نازلى هانم عمة عباس هى التى ائتمرت به وهى فى الاستانة ، واتخذت مملوكين من اتباعها لقتله ، واتفقت وإياهما ، على أن يعرضا أنفسهما فى سوق الرقيق بالقاهرة ، كى يشتريهما عباس ويدخلهما فى خدمته • وكان المملوكان على جانب من الجمال • مما يرغب وكيل الأمير فى شرائهما ، فجاءا القاهرة فعلا ونزلا سوق الرقيق ، الى أن رآهما يوما وكيل الأمير ، فراقه جمالهما ، فاشتراهما وأدخلهما سراى مولاه بنها ، فأعجب بهما عباس ، وعهد اليهما بحراسته ليلا ، قالت مدام اولمب ادوار ، فلما كانت الليلة الأولى لم يجرؤ المملوكان على ارتكاب القتل ، لأنهما خشيا بأس عباس ، اذ كان قوى البنية ، شديد البطش ، وخافا أن يقاومهما وينجو من فتكهما ، فينكل بهما شر تنكيل ، ويوردهما موارد الهلاك المحتوم ، فانقضت الليلة الأولى بسلام ، ومرت أيام عدة وهما يستجمعان قواتهما لانفاذ القتل عند سنوح الفرصة • حتى جاءتهما النوبة ثانية لحراسة مولاهما ، فاعتزما أن يكونا أكثر شجاعة من قبل ، فلم يكد يستغرق عباس فى النوم حتى انقضا عليه وقتلاه ، ولم يدعا له الوقت ليصيح أو يقاوم ، ولما ارتكبا الجريمة نزلا اصطبلات الخيل الملحقة بالسراى ، وطلبا الى السائس أن يجهز لهما فورا جوادين بحجة أن الباشا يطلب حاجة له من قصره بالعباسية ، فلم يشك الخادم فى الأمر ، وجهز لهما الجوادين فسارا بهما عدوا الى القاهرة ، ومن هناك فرا الى الاستانة ، حيث نقدتهما الأميرة نازلى مكافأة سخية على انفاذ المؤامرة •

وتقول مدام اولمب ادوار أن الهامى باشا تعقب المملوكين القاتلين ليثأر لأبيه ، فالتقى بأحدهما فى الآستانة ، فقتله رميا برصاص مسدسه ،

ولم يستطيع اللحاق بالثاني ولم يعثر له على مكان ، وقيل انه أوى الى بلاد الأرناءود فرارا من القتل ٠

فالروايتان ، مع اختلافهما فى بيـان المحرضين على القتل وطريقة ارتكاب الجريمة متفقتان كما ترى فى أن عباس مات مقتولا اثر مؤامرة دبرت لقتله وانفذت فى قصره ببنها ٠

(٢٣) أجمع الرحـــالة الذين زاروا الشرق ان الخوف ، والخوف وحده ، هو الذى يجعــــل الشرقى يلزم حدوده ، وبتعبير عامى ( يخاف ولا يختشى ) ، وقد افاض الرحالة بيرتون فى وصف هذه العـلة خصوصا بالنسبة للموظف الشرقى ، ورفاق السفر ، كما اشار بعض هؤلاء الرحالة من خوف المصريين من ذوى المناصب الرسمية ، بل من مجرد زيهم الرسمى ، وقد يكون فى هذا بعض المبالغة ، والذى لا شك فيه ان دراسات جادة ومحايدة لم تتم ، حتى الآن لتفسير ذلك من منظور تاريخى ونفسى وانثروبولوجى ٠

(٢٤) يقصد ما يعرف بحى مصر القديمة ٠

(٢٥) اكد الرحالة بيرتون هذا القول فى النصف الثـانى من القـرن التاسع عشر ٠

راجع رحلة بيرتون الى مصر والحجاز ج ١ ، ٢ ، ٣ نشر الهيئـة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة الألف كتاب الثانى ٠

(٢٦) مكان وقوف الشمامسة أمام حامل الأيقونات ٠ أنظر : ملحق المترجم ( ابراهيم سلامة ) لكتاب بتلر : الكنائس القبطية فى مصر ، ج ٢ ٠

(٢٧) المقصود مسجد الحسين كما سيتضح من السياق ٠

(٢٨) مشربيات قوسية ـ اجتهاد من المترجم ٠

(٢٩) النص Scroll ، وفى معجم مصطلحات الفنون ( نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ) تعنى « لفيفة مصورة » واثرنا ما اوردناه فى المتن لوضوحه ٠

(٣٠) النص : السنة المحمدية ٠

(٣١) ما بين القـــوسين توضيح من المترجم ٠

(٣٢) ثمة خلاف فى أصل كلمة فسطاط ، ومن ذلك انها معـربة عن الكلمة الاغريقية Fossatum وتعنى المدينة الحصينـة وقد نقلها العرب عن البيزنطيين عند اتصالهم بهم فى حروب الشـام اثناء الفتح الاسلامى ٠ لكن الكلمة وردت فى المعاجم العـربية بمعنى الخيمة ، وفى المعجـم الوجيز ـ على سبيل المثـال ـ أن الفسطاط بيت يتخذ من الشعر ، وأنها مدينة مصر العتيقـة التى بناها عمرو بن العاص موضع فسطاطه ٠

انظر : المعجم الوجيز مادة فسطاط ·

أيضا : أحمد مختار العبادى : أحداث مصر الاسلامية والمغرب والأندلس ( ملحق بكتاب أزمنة التاريخ الاسلامى ج ١ : الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة ؛ ١٩٨٢ · ص ٤٦٠ ) ·

(٣٣) أحمد بن طـولون ·

(٣٤) جامع السلطان حسن ، هل حسن هذا سلطان ؟!

(٣٥) لا نعرف أهذا أصلا ·

(٣٦) ما بين القوسين توضيح من المترجم ·

(٣٧) Areca — ترجمها معجم الشهابى كوثل ( بفتح الكاف والثاء وتسكين الواو ) أو كنتيه ( بفتح الكاف وتسكين النون ) وذكر انه جنس نبات للزينة من النخاميات ، وذكر منه أنواعا — ( المترجم ) ·

(٣٨) طيور من فصيلة دجاجات الأرض فيما يقول صاحب معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ، ويسميه الشوام شكب ( بضم الشين والكاف ) وهو على أنواع — ( المترجم ) ·

## تعليقات المترجم

## عن الفصل الثالث

(١) ما بين القوسين توضيح من المترجم ٠

(٢) عن معجم المصطلحات الزراعية للشهابى ٠

(٣) الهجرة البربرية الى مصر ، هجرة واسعة لم تحظ بالدراسة الكافية ، فقد اهتم الباحثون بهجرة القبائل العربية من شبه الجزيرة العربية الى مصر ، وكذلك هجرة بعض الشوام ، كما اشارت المراجع لاستيطان الأتراك وأهل الروميللى ( شرق أوربا من المسلمين خاصة ) ، أما هجرة المغاربة الى مصر واستيطانهم بها فهى لم تحظ بدراسة كافية ومن خلال هذه الرحلة يتضح أن عددا كبيرا منهم قد راحوا يجولون فى صحراء مصر الغربية ، واستقروا فى مصر والفيوم والصعيد ، مما يؤكد عمق الروابط المصرية بالمغرب العربى ، عمقـا لا يقل عن ارتباطها بالمشرق العربى — ( المترجم ) ٠

(٤) وصف ردولف منخفض الفيوم أكثر من مرة فى رحلته هذه بأنه واحة ، ويمكن التماس العذر له فى ذلك الوقت لأنه وجد الصحارى تحيط بالمنخفض من كل الجهات ، لكن الحقيقة انه امتداد طبيعى لوادى النيل رغم انه لا يختلف من حيث التكوين والشكل عن بقية المنخفضات الأخرى بالصحراء الغربية من حيث انخفاض القاع وانحدار أراضيه واحاطته بهضاب مرتفعة ، ومنخفض الفيوم متصل بوادى النيل عن طريق بحر يوسف وهو فرع قديم للنيل ، ويغطى طمى النيل وكان بحر يوسف يخرج من النيل مباشرة قرب ديروط ، ولكنه يستمد مياهه حاليا من ترعة الابراهيمية التى تم حفرها سنة ١٨٧٣ فى عهد الخديو اسماعيل وتخرج من عند أسيوط ، ومن هنا فوصف ردولف منخفض الفيوم بأنه واحة Oasis خطأ واضح — ( المترجم ) ٠

عن جغرافية الفيوم أنظر على سبيل المثال :

محمد السيد غلاب وآخرون : جغرافية مصر وحوض النيل ٠ القاهرة ، وزارة التربية ، ١٩٩٥ ، ص ٣٢ ٠

(٥) اتفق كل الرحالة على هذه النقطة ( لا شىء يسير فى الشرق ببساطة وهدوء ، وانما لابد من تعقيدات نتيجة البلادة فى العمل ، أو نتيجة عدم الانضباط ، أو نتيجة طبيعة الموظف الشرقى الذى لا ينجز عملا الا اذا تعرض لضغط أو خوف ، أو أشبع غروره بتذلل الآخرين له

أو تقاضى رشوة ... ) يشير لذلك بوضوح وتفصيل ، وها هو الأمير ردولف يشير لذلك من منظور آخر في اواخر عهد الخديو اسماعيل وأشار قبلهما الرحالة فارتيما لشيء كهذا ـ ( المترجم ) .

(٦) تأكيد آخر على عمق التأثيرات المغربية فى سكان مصر ، بحيث يمكن القول انه لا يقل كثيرا عن أثر القبائل العربية النازحة من شبه الجزيرة العربية .

(٧) ويسمى أيضا خضار ( بضم الخاء وتشديد الضاد ) ، وكلمة الزروار شائعة فى الشام ولكنها لم ترد فى كتب التراث العربية وهو من رتبة ملتصقات الأصابع . عن معجم الشهابى ـ ( المترجم ) .

(٨) طيط أو ابو طيط أو الزقزاق الشامى وهو طائر طويل الساق يعيش حول الأنهار والمستنقعات ويسمى بالانجليزية أيضا Lapwing ، عن الشهابى ـ ( المترجم ) .

(٩) اسمه العلمى Charadius ويسمى بالعامية أحيانا ( أبو الروس ) وأحيانا دمشق ( بفتح الدال وتسكين الميم ) طويل الساق . وهو على أنواع : زقزاق ذهبى ، وزقزاق شامى ، وما ذكرناه فى حاشية سابقة .

(١٠) يلاحظ قارىء الرحلة أشارة ردولف كثيرا لمزارع قصب السكر ، والحقيقة ان الخديو اسماعيل توسع كثيرا فى زراعته لارتفاع أسعار السكر اثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، وزادت العناية بزراعة القصب بعد تراجع اسعار القطن عقب انتهاء الحرب الأمريكية ، واستحدث اسماعيل صناعة السكر وأكثر من مصانعه حتى لا تعتمد البلاد على القطن وحده كمصدر للدخل . الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ص ١٦ .

(١١) حجل ويسمى أيضا قبج ( بفتح القاف والباء ) ، والمفرد حجلة ، وهو على أنواع : دراج ( بضم أوله وتشديد الراء وفتحها ) وحجل رومى وحجل اشهب ... الخ .

عن معجم الشهابى ـ مادة Partridge (pedix) ـ ( المترجم ) .

(١٢) ويسمى أيضا سقاوة ( بفتح السين والقاف ) وهو من رتبة الجوارح ـ عن معجم الشهابى ـ ( المترجم ) .

(١٣) أغان حزينة ، وهى أغانى أصحاب القوارب والعاملين عليها غالبا .

(١٤) من أسمائه المعجمية أيضا حوصل ( بتسكين الواو وفتح الحاء والصاد ) وذلك لأن له حوصلة كبيرة ـ ( المترجم ) .

(١٥) حاشية سابقة ـ ( المترجم ) .

(١٦) حاشية سابقة ــ ( المترجم ) ·

(١٧) رغم تحذير صاحب المعجم الزراعى من أن الناس يترجمون Eagle على انها نسر وهــو خطأ ، فقد أوردنا فى المتن ما اعتــاد عليــه الناس ونورد هنا التصحيح الذى ينبهنا له معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية :

Eagle تعنى العقاب ( بضم العين ) ، ولا يصح ترجمتها نسرا لأن النسر هو Vulture ، والعقاب كلمة مؤنثة تطلق على الذكر والأنثى ، وهى من رتبة الكواسر وفصيلة الصقوريات ، وهى على أنواع :

ــ عقاب رخماء بيضاء الرأس ·

ــ عقاب ذهبية ·

ــ عقاب البحر ·

ــ صرارة ( بفتح الصاد وتشديد الراء وفتحها ) ·

راجع المادة بالتفصيل ــ ( المترجم ) ·

(١٨) من الفصيلة السنورية ورتبة اللواحم ، وهو حيوان مفترس ·· عن الشهابى ــ ( المترجم ) ·

(١٩) وهى على أنواع : انجليزية ، أفريقية ، لا ورقية تنمو فى الصحارى وعلى السواحل ، وطرفاء عقداء أو مفصلية وهى الأثل ويذكر صاحب معجم المصطلحات الزراعية أنواعا كثيرة ، والمقصود غالبا هو ما يعرف فى مصر بأشجار السنط ــ ( المترجم ) ·

(٢٠) الغره ساقها طويلة وتعيش فى مياه المستنقعات · راجع مــادة Fulica فى معجم المصطلحات الزراعية ــ ( المترجم ) ·

(٢١) Peat والخث بضم الخاء هو الطحلب اذا يبس وقدم عهده ، والكلمة أيضا تعنى التراب العضوى الناتج من تحلل بعض النباتات المائية كالطحالب ويسمى فى مصر ( الأشنة ) بفتح الألف والشين وهو الحزاز ( بفتح الحاء وما بعدها ) كما يسمى فى مصر أيضا ــ ( المترجم ) ·

(٢٢) طائر يصاد ، طويل الساق ، غير الدجاج الداجن ــ ( المترجم ) ·

## اقرأ فى هذه السلسلة

| | |
|---|---|
| احلام الاعلام وقصص اخرى | برتراند رسل |
| الالكترونيات والحياة الحديثة | ى · ادونسكايا |
| نقطة مقابل نقطة | الدس هكسلى |
| الجغرافيا فى مائة عام | ت · و · فريمان |
| الثقافة والمجتمع | رايموند وليامز |
| تاريخ العلم والتكنولوجيا ( ٢ ج ) | ر · ج · فوربس |
| الأرض الغامضة | ليستردبل راى |
| الرواية الانجليزية | والتر الن |
| المرشد الى فن المسرح | لويس فارجاس |
| آلهة مصر | فرانسوا دوماس |
| الانسان المصرى على الشاشة | د · قدرى حفنى وآخرون |
| القاهرة مدينة الف ليلة وليلة | اولج فولكف |
| الهوية القومية فى السينما العربية | هاشم النحاس |
| مجموعات النقود | ديفيد وليام ماكدوال |
| الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق | عزيز الشوان |
| عصر الرواية ـ مقال فى النوع الادبى | د· محسن جاسم الموسوى |
| ديلان توماس | اشراف س · بى · كوكس |
| الانسان ذلك الكائن الفريد | جون لويس |
| الرواية الحديثة | جول ويست |
| المسرح المصرى المعاصر | د· عبد المعطى شعراوى |
| على محمود طه | أنور المعداوى |
| القوة النفسية للاهرام | بيل شول وأدنبيت |
| فن الترجمة | د · صفاء خلوصى |
| تولستوى | رالف ئى ماتلاو |
| ستندال | فيكتور برومبير |

| | |
|---|---|
| رسائل وأحاديث من المنفى | فيكتور هوجو |
| الجزء والكل ( محاورات في مضمار الفيزياء الذرية ) | فيرنر هيزنبرج |
| التراث الغامض ماركس والماركسيون | سدنى هوك |
| فن الأدب الروائي عند تولستوى | ف ٠ ع ٠ ادنيكوف |
| أدب الأطفال | هادى نعمان الهيتى |
| أحمد حسن الزيات | د ٠ نعمة رحيم العزاوى |
| أعلام العرب في الكيمياء | د ٠ فاضل احمد الطائى |
| فكرة المسرح | جلال العشرى |
| الجحيم | هنرى باربوس |
| صنع القرار السياسى | السيد عليوة |
| التطور الحضارى للانسان | جاكوب برونوفسكى |
| هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟ | د ٠ روجر ستروجان |
| تربية الدواجن | كاتى ثير |
| الموتى وعالمهم في مصر القديمة | أ ٠ سبنسر |
| النحل والطب | د ٠ ناعوم بتروفيتش |
| سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى | جوزيف داهموس |
| سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤ | د ٠ ليونارد تشامبرز رايت |
| كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة | د ٠ جون شندلر |
| الصحافة | بيير البير |
| اثر الكوميديا الالهية لدانتى في الفن التشكيلى | الدكتور غبريال وهبه |
| الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها | د ٠ رمسيس عوض |
| حركة عدم الانحياز في عالم متغير | د٠ محمد نعمان جلال |
| الفكر الأوربى الحديث ( ٤ ج ) | فرانكلين ل ٠ باومر |
| الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥ | شوكت الربيعى |
| التنشئة الأسرية والأبناء الصغار | د٠ محيى الدين احمد حسين |

| | |
|---|---|
| نظريات الفيلم الكبرى | تاليف : ج . دادلى اندرو |
| مختارات من الادب القصصي | جوزيف كونراد |
| الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد؟ | د. جوهان دروشسلر |
| حـــرب الفضـــاء | طائفة من العلماء الأمريكيين |
| ادارة الصراعات الدوليــة | د . السـيد عليــوة |
| الميكروكمبيـــوتر | د . مصطفى عنـــانى |
| مختارات من الادب اليابانى | صـــبرى الفضـــل |
| الفكر الأوربى الحديث ٢ ج | فرانكلين ل . باومر |
| تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثه | جابرييـــل بايــر |
| اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة | انطـونى دى كرسبنى |
| كتـابة الســيناريو للسينما | دوايت ســوين |
| الزمن وقيـــاسه | زافيلســكى ف . س |
| اجهـزة تكييف الهـــواء | ابراهيم القرضـاوى |
| الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى | بيتر رداى |
| سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى | جــوزيف داهموس |
| التجـــربة اليـــونانية | س . م بــورا |
| مراكز الصناعة فى مصر الاســلامية | د. عاصم محمد رزق |
| العـلم والطـلاب والمـدارس | رونالد د . سمبسـون |
| | ونورمان د. اندرسون |
| الشــارع المصرى والفــكر | د. انور عبـد الملك |
| حوار حول التنمية الاقتصادية | ولت وتيمان روستو |
| تبسيط الكيمياء | فريد . س . هيس |
| العادات والتقاليد المصرية | جون بوركهـــارت |
| التـــذوق الســينمائى | الان كاسبيار |
| التخطيط الســـياحى | سامى عبد المعطى |
| البـــذور الكونيــة | فريد هــــويل |
| | شاندرا يكراماسينج |
| دراما الشاشة ( ٢ ج ) | حسين حلمى المهندس |
| الهيـروين والايـدز | روى روبرتســون |
| صـــور الافريقيـــة | دوركاس ماكلينتوك |
| نجيب محفوظ على الشاشة | هاشم النحاس |

| | |
|---|---|
| الكمبيوتر فى مجالات الحياة | د. محمود سرى طه |
| المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية | بيتر لورى |
| وظائف الأعضاء من الألف الى الياء | بوريس فيدوروفيتش سيرجيف |
| الهندسة الوراثية | ويليام بينز |
| تربية أسماك الزينة | ديفيد الدرتون |
| كتب غيرت الفكر الانسانى ( ٣ ج ) | أحمد محمد الشنوانى |
| الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ ج ) | جمعها : جون ر. بورر وملتون جولدينجر |
| الفكر التاريخى عند الاغريق | ارنولد توينبى |
| قضايا وملامح فى الفن التشكيلى المعاصر | د. صالح رضا |
| التغذية فى البلدان النامية | م. هـ. كنج وآخرون |
| بداية بلا نهاية | جورج جاموف |
| الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية | د. السيد طه ابو سديرة |
| حوار حول النظامين الرئيسيين للكون | جاليليو جاليليه |
| الارهاب | اريك موريس وآلان هو |
| اخناتون | سيريل الدريد |
| القبيلة الثالثة عشرة | آرثر كيستلر |
| الفلسفة وقضايا العصر ( ج ) | جون بورد |
| الأساطير الاغريقية والرومانية | ب. كوملان |
| تاريخ العلم والتكنولوجيا | ر. ج. فوربس |
| التوافق النفسى | توماس أ. هاريس |
| الدليل البيليوجرافى | مجموعة من الباحثين |
| لغة الصورة | روى أرمز |
| الثورة الاصلاحية فى اليابان | ناجاى متشيو |
| العالم الثالث غدا | بول هاريسون |
| الانقراض الكبير | ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك |
| تاريخ النقود | فيكتور مورجان |
| التحليل والتوزيع الأوركسترالى | اعداد محمد كمال اسماعيل |
| الشاهنامة ( ٢ ج ) | أبو القاسم الفردوسى |
| الحياة الكريمة (٢ ج) | بيرتون بورتر |
| قيام الدولة العثمانية | محمد فؤاد . كوبريلى |

| | |
|---|---|
| عن النقد السينمائى الأمريكى | ادوارد ميرى |
| ترانيم زرادشت | اختيار / د. فيليب عطية |
| السينما العربيـة | اعداد / مونى براح وآخرون |
| دليل تنظيم المتـاحف | آدامز فيليب |
| سقوط المطر وقصص اخـرى | نادين جورديمر وآخرون |
| جماليـات فن الاخراج | زيجمونت هبز |
| التاريخ من شتى جوانبه ( ٣ ج ) | ستيفن اوزمنت |
| الحملة الصليبية الأولى | جوناثان ريلى سميث |
| التمثيل للسينما والتليفزيون | تونى بار |
| العثمانيون فى أوربا | بـول كولز |
| صناع الخلود | موريس بير برابر |
| الكنائس القبطية القديمة فى مصر ( ٣ ج ) | ألفريد ج. بتلر |
| رحلات فارتيما | رودريجو فارتيما |
| انهم يصنعون البشر ( ٢ ج ) | فانس بكارد |
| فى النقد السينمائى الفرنسى | اختيار / د. رفيق الصبان |
| السينما الخيالية | بيتـر نيكوللز |
| السلطة والفرد | برتراند راسل |
| الأزهر فى ألف عام | بيارد دودج |
| رواد الفلسفة الحديثة | ريتشارد شاخت |
| سفر نامه | ناصر خسرو علوى |
| مصر الرومانيـة | نفتالى لويس |
| كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر | جاك كرابس جونيور |
| الاتصال والهيمنة الثقافية | هربرت شـيلر |
| مختارات من الآداب الآسيوية | اختيار / صبرى الفضل |
| كتب غيرت الفكر الانسانى ( ٣ ج ) | احمد محمد الشنوانى |
| الشموس المتفجرة | اسحق عظيموف |
| مدخل الى علم اللغة | لوريتـو تود |
| حديث النهر | اعداد / سوريال عبد الملك |
| من هم التتـار | د. ابرار كريم الله |

| | |
|---|---|
| ماستريخت | اعداد / جابر محمد الجزار |
| معالم تاريخ الانسانية ٤ جـ | هـ٠ج٠ ولز |
| حضارة الاسلام | جوستاف جرونيباوم |
| الحملات الصليبية | ستيفن رانسيمان |
| الطفل ٢ جـ | ارنولد جزل |
| افريقيا الطريق الآخر | بادى او نيمود |
| السحر والعلم والدين | برنسلاو مالينوفسكى |
| الكون ٠ ذلك المجهول | جلال عبد الفتاح |
| تكنولوجيا فن الزجاج | محمد زينهم |
| حرب المستقبل | مارتن فان كريفلد |
| الفلسفة الجوهرية | سوندارى |
| الاعلام التطبيقى | فرانسيس ج٠ برجن |
| تبسيط المفاهيم الهندسية | جى كارفيل |
| تحول السلطة | الفين توفلر |
| فن المايم والبانتوميم | توماس ليبهارت |
| السيناريو فى السينما الفرنسية | اعداد كريستيان سالين |
| خفايا نظام النجم الأمريكى | بول وارن |
| رحلة جوزيف تبسى | الحاج يوسف |
| الفيلم التسجيلى | اعداد محمود سامى عطا الله |
| بين تولستوى ودووستويفسكى | جورج ستاينر |
| المرأة الفرعونية | كريستيان دى روشى |

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/١٠٥٤٠

ISBN — 977 — 01 — 4613 — 7

قام الأمير النمساوي رودولف برحلته لمصر والقدس في أواخر عهد الخديوي إسماعيل وقد مسح مصر من شمالها إلى جنوبها ووصف معظم المدن المصرية وأشار إشارات مفيدة للآثار ونشر ترجمات رائعة لبعض الكتابات الهيروغليفية وبعد مغادرته مصر توجه إلى حيفا ومنها زار القدس الشريف وغيرها من المزارات المقدسة ووصف الحياة البدوية حول نهر الأردن وأبدى إعجابا بروح التسامح في القدس وتعرض للمذاهب المسيحية والممارسات الطقسية المختلفة كما أورد بعض القصص اليهودية وأبدى رأيه فيها

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

# رحلة الأمير رودولف إلى الشرق

الجزء الثاني

الألف كتاب

الثاني

٢٠٧

ت: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



# رحلة..
# الأمير ردولف
# إلى الشرق
(مصر والقدس)

# الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

**د. سمير سرحان**

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

**أحمد صليحة**

سكرتير التحرير

**عزت عبدالعزيز**

الإخراج الفنى

**علياء أبو شادى**

# رحلة ..
# الأمير ردولف
# إلى الشرق
## (مصر والقدس)

الجزء الثاني


لصاحب السمو الإمبراطوري والملكي

الأمير ردولف

ترجمة ودراسة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ





الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

# الفهـــرس

# مقـــدمة المترجم

يتابع الأمير ردولف ــ وصحبه ــ رحلته فى هذا الجزء فيصل الى أسيوط ومنها يتابع رحلته النيلية الى أسوان وجزيرة فياه ، وفى رحلة العودة يزور ما لم يكن قد زاره فى رحلة الذهاب بمعنى أن عودته ليست عودة تقليدية لشخص أدى مهمته وانتهى ، وانما نجده يزور مناطق لم يزرها من قبل مثل كوم الأمير وأرمنت ، ويتابع زيارته للأقصر وقنا وسوهاج ، وحتى عندما يعود للقاهرة يحدثنا من جديد عن مشاهداته فيها : حديقة الأزبكية ، مولد الحسين ، ويقوم برحلة صيد للهرم ٠

ويتابع رحلته لشرق الدلتا فيزور بحيرة المنزلة ودمياط والاسماعيلية وبور سعيد ويلتقى بفردناند دى ليسبس المشهور وكان وقتها رجلا عجوزا على حد وصف الأمير ردولف ويعبر قناة السويس فيزور عيون موسى ، ويعود مرة أخرى للقاهرة فيحدثنا عن شجرة مريم ومزرعة النعام والحمام التركى والقلعة والكتبخانة ويتجه بباخرة نيلية للقناطر الخيرية ، ثم يعود لمنطقة السويس ، ويزور بور سعيد ، ثم يغادر مصر الى يافا ٠

وقد خصصنا مقدمة الجزء الأول لتكون دراسة مفصلة نسبيا عن الرحلة كلها ، أما فى الجزء فنكتفى بايراد بعض النقاط ٠

**تعقيد الأمور فى الشرق :**

لاحظ ردولف ــ كما لاحظ رحالة آخرون سبقوه أو أتوا بعده ــ أن الأمور أو الأعمال لا تجرى فى الشرق ( ومصر شرق ) بسهولة « ٠٠ فليس فى الشرق عمل سهل فكل شخص يضغط طلبا للخدمات ، وكل شخص يحث حصانه أو حماره بكل ما يمتلكه من عنف ، وكل شخص يدفع الآخر لينحيه جانبا ٠٠ والكل يصرخ ٠٠ والكل يومىء ٠٠ ويضطر الغريب البائس فى خاتمة المطاف لالقاء نفسه بين ذراعى أول قادم » ٠

**الرقص الشرقى :**

يصف الرقص الشرقى فى صـــعيد مصر بأنه عربدة تعود لخيال مريض ٠

**البرود الانجليزى :**

أشار ردولف الى أنه أثناء ابحاره فى قناة السويس اصطدمت سفينته اصطداما خفيفــا بسفينة انجليزية والتصقت السفينتان ، ولكن القبطان الانجليزى ظل ينظر من فوق سطح سفينته متابعا تتابع الموج ،وكأن الأمر لا يعنيــه بينما راح الرجـــال الراكبـون مع ردولف يوســعون ما بين الســـفينتين ٠

**القنـــاطر الخـــيرية :**

وقد شاهد الأمير ردولف القناطر الخيرية ونقل ما كان يتردد عن هذا المشروع العظيم فى ذلك الوقت من أنه أعاق الملاحة فى النيـــل ، وأن مردوده الاقتصادى لا يتناسب مع المبالغ التى تم انفاقها عليه ٠ وغنى عن البيان أن هذه الآراء كان يرددها أعداء مصر وأعداء محمد على ، خاصة وأن الذى كان يتولى أمر مصر ـ زمن الرحلة ـ هو الخديو اسماعيل ، الذى كان يترسم بوضوح خطى جده العظيم ٠

**الطرق الصـــــوفية :**

الطرق الصوفية لم يعرفها الاسلام فى عصـــوره النقية الزاهرة الأولى ، وكان معظم الدراويش الذين رآهـم الأمير من أهـل شرق أوربا وآسيا الصغرى ، ورأى فى بعض عمائمهم وطقوسهم تأثيرات فارسية ٠

ولا نجد أى اعتراض على قوله ان الاسلام فى عصوره الزاهرة الأولى لم يعرف الطرق الصوفية ٠

**د٠ عبد الرحمن عبد الله الشـيخ**

# الفصل الرابع

**أسيوط ـ أبو تيج ـ بركات الشيخ ـ أخميم ـ جرجا ـ الوكيل القنصلي القبطي ـ موسيقا ورقص ـ البلينة ـ العرابة المدفونة ـ بقايا جثث الجيش الروماني ـ تاجر آثار أعمى ـ قنا ـ معبد دندرة ـ طيبة ـ آثار الكرنك العظيمة ـ العبابدة ـ أرمنت ـ ترجمة برجش لبعض النصوص الأثرية ـ اسنا ـ الكاب ـ معبد كوم امبو ـ جزيرة فيلة ـ أسوان ـ العبابدة في أسوان ـ الذئب الميت يتحرك من جديد ـ رسوم بوسنجر ـ تعليقات المترجم ·**

وصلنا أسيوط في الصباح الباكر والظلمة لازالت حالكة ، ولم نكن سعداء لأنهم أيقظونا من نوم مريح ، وغادرنا الحافلات وسرنا على الأقدام ـ يسبقنا حملة المشاعل ـ هابطين في طريق جيدة اضاءته ، حسنة زينته، حتى وصلنا لمرسى البواخر النيلية · وقد قابلنا وكيلنا القنصلي بود وحرارة ، وهو تاجر قبطي ثري ، وكان هو الذي أعد كل هذه الترتيبات ·

لقد تفضل الخديو فأعارنا الباخرة فيروز Feruz التي رست على الشاطيء وانتظرنا قبطانها المصري العجوز على الجسر الموصل لها ·

لقد نما في نفوسنا حب هذا القبطان المصري النشيط والمقتدر · لقد كان أفريقيا داكن البشرة ، ولسوء حظنا فانه كان لا يعرف الا كلمات انجليزية قليلة بالاضافة للغات الشرقية ، لذا فقد كان نقاشنا معه مضحكا ذا طابع فكاهي فقد كنا نستعين بالمترجمين أحيانا وبالاشارات ـ التي ابتكرناها للتعبير عن مرادنا ـ أحيانا أخرى ·

وقد صحبنا برجش باشا Brugsch Pasha (١) عالم المصريات الشهير في رحلتنا صاعدين في النيل ، وقد جلس مع الهر راث Herr Rath ( المساعد القنصلي ودارس الشرقيات الذي كنا مدينين

له كثيرا بكل جولاتنا فى بلاد الشرق ) على سطح يخت نائب السلطان viceroy ( الخديو ) وهو يخت ضخم فخم مؤثث بكل ما هو مريح ٠

لقد كانت الكبائن كلها فى الغاية من الأناقة ، وقد تم تخصيص الغرفة الأخيرة الواسعة لى ، والى الأعلى ـ على سطح اليخت ـ توجد غرفة طعام رحبة كنا نقضى فيها أيضا فترة ما قبل الظهيرة كما كنا نقضى فيها ساعات للدراسة ٠

وعلى سطح اليخت أيضا منصة ( منبسط مدرج ) مغطاة بالكنافاه Canvas تمكن المرء أن يلقى نظـرة أكثر شـــمولا ، وقد وضـعنا جلود الحيوانات التى صدناها وكذلك الطيور فوق سطح اليخت وقد أعددنا ورشة مزودة بكل ما يتعلق باعداد الجلود ٠

فى هذا اليخت الرائع كان علينا أن نقضى أياما لا يمكن أن تنسى ، فقد رأينا على ضفتى هذا النهر التاريخى العريق ذى المياه الصفراء أراضى لازالت عليها بقايا الجاذبية الساحرة لآلاف السنين من الحضارة القديمة ، بين مناظر فى الغاية من الروعة والجمال ، جبال شامخة وصحار مهيبة وبساتين عامرة ، وأقدم الآثار فى تاريخ العالم لازالت باقية لتعطى ذروة معانى البقاء والخلود ٠

ان الرحلة فى النيل ـ بلا شك ـ هى من أفضل وأجمل الرحلات التى يمكن أن يقوم بها المرء ، فهى الأثرى من حيث تنوع المناظر وهى الأكثر اثارة للقضـايا التاريخيـــة والاثنوجرافيا ( المتعلقة بالانثروبولوجيـــا الوصفية ) ٠ واذا كانت أهرامات الجيزة والآثار المحيطة بها فى القاهرة تشد اهتمام الرحالة وتثير فى ذهنـــه كثيرا من القضايا ، فانها ـ أى الأهرامات ـ مجرد بوابة للكنوز الأثرية التى يقدمها صعيد مصر ٠

لقد نظرنا الى السجلات الباقية للحياة الاجتماعية والسياسية لشعب انتعشت حضارته منذ آلاف السنين ، فحقق لنفسه القوة ، وأفرز ثقافة حقيقية ٠ وقد تمثلت لنا هذه السجلات الباقية فى صالات المعابد الواسعة وفى السراديب الغامضة والقبور الممتدة فى الصخور ٠ تعال معى لتنظر الى الجدران التى تزينها الكتابات الهيروغليفية التى تكشف لنا حكـــاية العصور الفرعونية ٠

وعند شروق الشمس ، بدأنا الرحلة عندما حضر المرافقون وتم تحميل أمتعتنا ٠ لقد استمر النيل جميلا هادئا ـ كما كان قبل ذلك خلال الرحلة ، فقد كانت مياهه الصفراء تتهادى فى مجراه الواسع ببطء ، وكانت الأرض

على ضفتيه مستوية وتمتد الرمال بعيدا ، أما شاطئاه المرتفعان فمن تربة سوداء ثرية تكثر فيها المضخات والسواقى متعاقبة يتلو بعضها بعضا على نحو منتظم جميل ٠

وتشكل جبال شبه الجزيرة العربية الداكنة ، وجبال ليبيا البرتقالية بشموخها وجمالها شخصية الصحراء القاحلة تماما ٠ انهما ـ جبال شبه الجزيرة العربية وجبال ليبيا (*) ـ تقتربان اقترابا شديدا ـ فى كثير من المواضع ـ من مجرى النهر ٠

ثم تتراجع هذه الجبال مرة أخرى عن المجرى تاركة أحواضا واسعة جافة ٠ ويرى المرء خلال صعيد مصر كله تتابعا منتظما للممرات الضيقة من ناحية والسهول الواسعة من ناحية أخرى ٠

وعرض الأرض المنزرعة حول النيل ـ والتى تبدو كشريط أخضر ـ تختلف باختلاف ابتعاد الجبال والصحارى عن النهر ٠ وتختلط غابات النخيل ذوات الثراء الاستوائى بحقول قصب السكر الصفراء وحقول الفول الخضراء وحقول القمح التى تبدو متموجة ٠

وفى كل مكان تتقاطع القنوات التى يرفعون الماء اليها ـ عندما يكون الماء منخفضا فى مجرى النيل ـ بالعديد من الآلات البدائية للغاية ٠

ومما يعطى الحياة على ضفتى النيل مذاقها أنين السواقى التى تديرها الجواميس والتى لا تكف عن الدوران ليلا أو نهارا ، والفلاحون السمر العراة الذين يجلسون على طول الشاطىء أمام الماء ـ واهب الحياة ـ الذى يسحبونه لقنواتهم وترعهم ٠

لقد مررنا على طول مجرى النيل بمدن وقرى ٠ وكانت المزارع الخضراء والمآذن السامقة وأبراج الحمام هى أهم سمات هذه القرى المشيدة بالطين فغدا لونها كلون الأرض ، وكانت الفوضى الواضحة من سماتها التى لا تخطئها العين ، وتحلق حدءات كثيرة فوق مساكن الفلاحين ، كما أن نباح الكلاب وخوار الجاموس ونهيق الحمير ورغاء الجمال وأنين السواقى وصياح العرب ، والأتربة والقذارة ، والفوضى هى من الأمور المعتادة ٠

---

(*) المقصود بجبال شبه الجزيرة العربية ، كما هو واضح ، جبال صحراء مصر الشرقية ، والمقصود بجبال ليبيا جبال صحراء مصر الغربية ـ كما هو واضح ايضا ، والاشارة كما ـ لا يخفى ـ اجبال المقطم التى تقترب كثيرا من النهر فى بعض المواضع ٠ ( المترجم ) ٠

وتقف النسور الضخام على طول الشاطىء الرملى ، والطيور آكلة الجيف بجانب الجيف التى سحبتها من فوق سطح الماء • وقد أعطى المنظر حيوية وحركة ، تلك الأسراب من الكراكى ( جمع كركى ) واللقالق ( جمع لقلق بفتح اللامين وتسكين القاف ) وطيور ( أبو ملعقة ) والبجع وأوز النيل والعديد من البط وكلاب النهر وطيور الخطاب ( السنوتو ) وجيوش من طيور الرمال الصغيرة ( العصافير غالبا ) تلهو وتمرح • ويطلق الأوروبيون النار من كل دهبية على طيور الماء التى تلجأ الى هذه البلاد فى الشتاء • واطلاق النار على الطيور من فوق السفينة ، أمر غير مجد •

**بركـــات الشـــيخ :**

لقد مررنا بمدينة ( أبو تيج ) وعندها تتراجع الجبال لتخلى المكان ليصبح مساحة مزروعة زراعة كثيفة •

وتوقفت الباخرة ، واقترب قارب ، فسألت عن سبب توقف الباخرة واقتراب القارب ، فعرفت — ويا للدهشة — أن بين الجبـال الصحراوية القاحلة ، قبر أحـد الأولياء الصـــالحين ، ويســـمونه شـــيخا Moslem Saint, a So Called Sheik وهـــو يطـــالب بالضريبـــة Claims a toll (*) ، والسفينة التى تمر دون أن تدفع هذه الضريبة تتعرض وفقا للمعتقدات الشـــعبية للاصطدام أثناء سيرها فى النهر • ويتلقى ربان السفينة الأمين الذى يدفع ( هذه الضريبة ) دعوات وتبريكات من المتسولين التابعين لمقام ( قبر ) هذا الشيخ •

لقد مررنا الآن بسرعة أمـــام مدن طهطا Tachta وفوباس Faubas ( ؟ ) وشيداون Shidawin ( ؟ ) ، ومدينة سوهاج ذات الموقع الجميل بمنازلها ومآذنها الجميلة •

---

(★) المقصود كما هو واضح : دفع مبلغ من المال نقدا أو عينا لضريح الشيخ ، أو ان شئنا الدقة لخدام ضريح الشيخ ، مقابل أن يقوم الشيخ المتوفى بحماية السفينة من الارتطام أو التعرض لأحداث مؤسفة ، وليقوم خدام الضريح بالدعاء باسم الشيخ ( الولى ) المتوفى ••• الخ • وغنى عن القول أن المسلمين المثقفين لا ينذرون الا لله سبحانه وتعـالى ، كما بات معروفا أن « البقشيش » ، « الحلوان أو الحلاوة » و « النذر للشيوخ والأولياء » ما هى الا أساليب تفتق عنها العقل الشرقى للحصول على « أموال » بدون عمل أو نتيجة عمل الآخرين ، وهو الأمر الذى يفسر أيضا ازدهار مهنة « السمسرة » غير المقننة لمجرد التدخل غير الايجابى فى أية عملية بيع أو شراء أو تداول للأموال والأعمال ••• كما يرى القارىء فان هذه الأمور لم تلق الدراسة الكافية بأبعادها الحقيقية — ( المترجم ) •

وتتابعت المشـاهد الجميلة : جبال رائعة ومنحدرات تخلى المكان لتحل محلها غابات النخيل والمدن • لقد رحنا ندخن بارتياح ونتجاذب أطراف الحديث أو نقرأ ونحن جلوس فوق ظهر السفينة ننعم بالهواء النقى الذى برده النهر ، وبروائح النباتات الأفريقية العطرة وبأشـعة الشمس الرائعة • وبين الحين والحين كنا نطلق النار على بعض طيور الماء من مسافات بعيدة ، وغالبا ما كانت طلقاتنا تذهب سدى • انها حياة كسول ، لكنها مسلية وتضيف لمعارفنا ما يزيدنا ثقافة •

## اخميم وجرجا :

وبعد الظهر مررنا بالمدينة الهامة أخميم Al-Achmim التى تقع بين النخيل ، وفى المساء ظهرت لنا مدينة جرجا Girgeh الجميلة والثرية ، عند منحنى حاد للنهر •

لقد لونت أشعة الشمس الغاربة المنظر كله بلون ذهبى • فأصبح كل شيء ــ بما فى ذلك الجبال والنهر والأشجار والمدينة والحقول ــ يسبح فى فيض من الألوان لا يمكن للغة أن تصف مدى تأثيرها فى النفس روعة وبهـاء •

فأضواء أمسيات القاهرة الشهيرة تعد مظلمة اذا قورنت بأضواء الصعيد التى تزفها الشمس اليه • لقد اقتربنـا من مدار السرطان وهو حد المنطقة المدارية ( الشمالى ) واتجهت باخرتنا نحو مرسى جرجا وقضينا الليل عند الشاطىء المترب المرتفع •

## الوكيل القنصلى القبطى :

وبعد تناول العشاء صعدنا للشاطىء ــ مستخدمين سلما ــ استجابة لدعوة وكيلنا القنصلى • هذا القبطى الثرى ، وأحاط بنا جمع غفير متنافر من الشرقيين المحبين للاستطلاع •

ووصلنا لمقر الوكيل القنصلى بعد أن مررنا بشارع ضيق على جانبيه تقع المساكن الطينية المعتادة المزينة ببعض الزخارف والكتابات العربية •

ووجدنا فى الطابق الثانى ــ بعد أن صعدنا سلما ضيقا منحدرا ــ غرفا عوانا بين حضارتين ، فنصفها شرقى ونصفها أوربى •

فرائحة عطر الورد والأرائك التركية ــ فلا وجود للكراسى ــ والقهوة والسجائر المعطرة والجدران العارية ، والأقمشة والستائر المتنوعة من

الخامات الشرقية الثرية ـ كلها عناصر حضارية شرقية ومع هذا فقد بذلت جهود سقيمة لتبدو أوربية ـ تلك سمات مساكن الأثرياء الشرقيين ٠

**موســـيقا ورقص :**

وما كدنا نجلس وندخن حتى ظهر فريق موسيقى مكون من أربعة عازفين ذوى منظر زرى ويبدون عربا بعمائمهم الكبيرة وأثوابهم الزرق المتواضعة ، وكانت آلاتهم الموسيقية بدائية : ناى خشبى ، وجرس من صفيح ( يقصد غالبا التار أو الطار tam-tam- ) وما يشــبه الطــبلة ، وكمان يشــــبه آلة الجـــوزلا Gusla فى جنـــــوب ســـــلافونيا الجنوبية Our south-Sclavonic (٢) ٠

وفى كل مكان يسود فيه الاسلام تجده هذه الآلات الموسيقية السخيفة ذوات الأنغام الرتيبة المملة الخنفاء بشكل عام ، والتى تصدر ضجيجا وحشيا فى أحيان أخرى ، ثم يعود عازفوها ليعزفوا عليها ألحانا عابسة كئيبة بعد أن عزفوا قليلا من الألحان المرحة ٠

وفى جنوب أسبانيا حيث يكثر المسلمون Moors سمعت الأنغام الموسيقية نفسها بين الغجر ، انها ـ أيضا الموسيقا التى يجعلها السلاف الجنوبيون Southern Sclaves تصاحب أغانيهم الكئيبة عن البطولة بينما هم يجلسون القرفصاء فى ليالى الشتاء حول نار التدفئة يحلمون بأيام كراجوئ ماركو Kraljewic Marko المعنـــة فى القـــدم ٠٠ انها نفس خصـــائص الأنغــــام العنيفـــة ـ التى تدعو للرقص المرح ـ التى سمعتها فى جرجا

لقد تم عزف المقطوعة التمهيدية ثم ظهرت الراقصات فى ملابسهن الطويلة الضيقة البهيجة بقوامهن النحيل وحليهن المتدلية حول أعناقهن ، وكانت وجوههن ـ بحكم طبيعة عملهن كراقصات ـ غير محجبة ، لقد كن مسلمات ( مغربيات ) Moors جميلات ، وقوقازيات بيضــــاوات يتناقضن فى مـــلامحهن مع الفـــلاحين الخلص الذين يشبهون المصريين القدماء : منخاران واسعان ، جبهة منخفضة ، أنف محدد واضح ، وفم صـــغير ٠

وهؤلاء الراقصات يشكلن طبقة منغلقة يزدريها المسلمون الأتقياء ٠ وقد طردن من شــــمال مصر لما يثرنه من فتنة وغواية بتصرفاتهن غير المنضبطة لذلك فهن منتشرات الآن فى كل مـــدن صـعيد مصر ، وتعود بعضهن فى أصولهن لبعض مدن الصعيد ٠

وتعشن ـ بشـــكل عــام ـ معا فى أحياء نائية عن المدن ويعرضن خدماتهن على أفقر الطبقات وعلى الغرباء الفضوليين ، ويعملن فى بيوت الأثرياء حيث يرقصن بعد المآدب فيشـــاهد الحاضرون الذين يدخنون الشيبوك والنرجيلة ـ رقصهن باستمتاع كبير ·

ويبـدأ الرقص بأن تتحلق الراقصات فى دائرة ويتثنين ، ويقمن بحركات كثيرة غير محتشمة يمنعنى الخجل من الاستطراد فى وصفها ، انها عربدة توجع ـ وفقا لانطباعى ـ لأزمنة شاع فيها الانحلال والخيال المريض (٣) ·

وبعد أن مكثنا قليلا عدنا الى باخرتنا ـ مخترقين المدينة ـ لننال راحة كنا فى حاجة ماسة اليها ·

البلينـــة :

وفى الفجر واصلت الباخرة رحلتها وقبل الظهر بوقت غير قليل كنا عند البلينة Belianeh وهى قرية طينية غير مهمة تحيط بها غابة نخيل جميلة ·

ونزلنا للشاطىء دون توان والعيون المتفرسة تكاد تخرق جلودنا ، وركبنـا حميرنا ضئيلة الحجم التى لم تعـد اعدادا جيدا وانطلقنا خلال بساتين النخيل والحدائق خارج القرية ·

لقد امتد شريط عريض بشـــكل مقبول من الأراضى الزراعية على شاطىء النيل ويحيط بالشريط سلسلة جبال شامخة من الجانبين ، ورأينا حقول قصب السكر والفول والقمح وحقول أشجار نخيل قصيرة وأشجار جميز ، كل ذلك على ضفة النيل الغربية ( صوب الصحراء الليبية ) ·

لقد كانت هناك حركة دءوبة على المروج الخضر ، فقد كان السكان مشغولين بالعمل والحرث أو رعى القطعان الكبيرة · وأثناء رحلتنا لاحظنا أنه كلما أوغلنـــا فى الجنـوب ، زادت دكانة بشرة السـكان وأصبحت ملابسهم أكثر بساطة ·

العرابة المدفـــونة :

لقد رأينا لأول مرة نخيل جوز الهند الجميل bushy palm وهو شجر متوطن فى مناطق أفريقيا الداخلية ·

وعند الطرف الحاد للأراضى المزروعة وبداية الصـــحراء القاحلة المهجورة تقع القرية القـــذرة الحقيرة المعروفة باسم العرابة المدفـــونة Arabât-el-Madfûne بين بستان نخيل صغير • ولا يملك السكان الفقراء هنا سوى أبراج حمام ضخام ويرى المرء آلاف الحمائم ترفرف بالقرب من أبراجها • انها حمامات كبيرة تكاد تكون برية •

وتبدأ الصـــحراء المحيطة بوادى النيل واضحة وحادة حيث ترتفع الأرض ولا يصلها ماء النيل ، ويمكن تأكيد هذه الملاحظة هنا عند آخر منزل من منازل العرابة المدفونة • انك تنتقل فجأة من أثرى الحياة النباتية الخضراء الى صحراء بيضاء تبهر النظر بضيائها ـ بدون المرور بأية منطقة انتقالية •

وتقع بقايا أبيدوس Abydus ذات الجدران الخالدة الزاخرة بالرسوم التى تذهل الرحالة وتبهجه ـ بين أحجار وقمامة على بعد مئات قليلة من الياردات من القرية ( قرية العرابة المدفونة ) •

انك تجد نفسك بين بقايا عصور سحيقة بقيت محفوظة لم يعترها الخراب ، بسبب مناخ صعيد مصر الجميل المشمس الجاف •

ومنذ زمن الأسرة الفرعونية السادسة ( حوالى ٣٣٠٠ ق•م ) وهذه البقعة قريبة من حافة الصحراء ، وكان اسمها القديم أبيدو Abidu ، وكان ينظر اليها كمقبرة مخصصة لأوزوريس Osiris مصر العليا • ومن هنا كانت أمنية المصريين القدماء الطبيعية هى أن يجدوا فى هذه البقعة مقبرة ( مثوى أخيرا ) فى رمال الصحراء • فثمة معابد عديدة لأفراد ، ومقابر فخمة لبعض ملوك مصر ترتفع فوق الرمال ، تغرى الزوار بالوقوف اجلالا للملك الموتى أوزوريس الطيب ، احياء لذكراه • ومعابد الملك سيتى الأول Seti I ( ١٣٦٠ ق•م ) وابنه ووريثه رمسيس الثانى ( ١٣٠٠ ق•م ) هى أوضح المبانى الأثرية التى تعرضت للنهب • ومعبد الملك سيتى ـ خاصة ـ يمتاز بالرسوم والكتابات الهيروغليفية التى تغطى جدرانه وأعمدته وهى تمثل أزهى فترات الفن المصرى القديم • وحقق هذا المعبد أيضا شهرة بسبب القائمة التى تضم أسماء الملوك ( السبعة والسبعون فرعونا ) منذ أيام مينا ( يسميه الاغريق مينز Menes حتى أيام رمسيس الثانى ، وتعد هذه القائمة الأساس الذى لا يقدر بثمن لكل البحوث فى مجال التاريخ المصرى القديم •

والمعبد الجنائزى الثانى بناه رمسيس الثانى ويقع الى الشمال من المعبد الأول ، ولم يحتفظ برونقه بنفس درجة احتفاظ معبد سيتى بها ،

لكن بقاياه تتكون من أحجار محببة وكتل من الالاباستر والجرانيت تحمل على سطوحها الناعمة الملساء عديدا من الرسوم والكتابات ذات قيمة فائقة للدراسات التاريخية والجغرافية والميثولوجية ( أساطير الآلهة خاصة ) المتعلقة بمصر القديمة · وقد اتخذ العديد من شواهد القبور من نكروبولس Necrcpolis فى أبيدوس Abydus طريقه الى فينا ·

وبينما كنا نتفحص جدران المعابد وحالاتها شاهدت بعض النسور من الجبال الصحراوية المجاورة يحلق فوق رءوسنا ثم حلقت دائرة بعيدا فى الفضاء ، وقررنا باصرار أن نغرى هذه الطيور الضخمة لنقتنصها لكن المسألة الآن كانت هى أين نجد المكان لنطرح فيه جيفة ·

لقد كان خلف المعابد بعض أكوام عالية من القمامة والأحجار يمكن للمرء ان اعتلاها أن يلقى نظرة على السهل الصحراوى الواسع الذى يمتد من حافة الأرض الزراعية حتى سطوح الجبال بتكويناتها الجميلة وقممها الشامخة ، واتخذت قرارا بأن أتجول فى هذا السهل بحثا عن بقعة مناسبة ( لاغراء النسور ) ، وبينما كنت أجول شاهدت ( حقلا ) من المقابر على بعد مئات قليلة من الأمتار من المعبد ·

**بقايا جثث الجيش الرومانى :**

وفى أيام الأباطرة الرومان دمرت الأمراض والمجاعة جيشا رومانيا فى هذا المكان ، وظلت جثث المقاتلين الرومان ملقاة دون دفن فى فوضى هائلة ، وحتى هذه اللحظة يمكن للمرء أن يتحدث — حرفيا — عن جثثهم ( أجسادهم bodies ) ، فالشمس الأفريقية والرمال الحارقة والهواء الخالى من التلوث عملت جميعا على حفظ الجثث فجعلتها كأنها محنطات طبيعية · لقد وقفت أمام أجساد وأذرع وسيقان وأيد لازال اللحم الذى سفعته الشمس عالقا بها · والجماجم المكشرة لازالت تتغلف بفروة الرأس ، وطيات اللحم الداكنة على الوجنات لفتت نظرى على نحو خاص ، وأخذت معى — كتذكار — واحدة كان منظرها لا يبعث على الرعب كمنظر الجماجم الأخرى ، ان المرء يخوض بالفعل فى بحر من الهياكل العظمية والأتربة · لقد كانت صورة الصحراء كالتالى : سهل أبيض متألق ، رمال تحرق الأقدام ، عظام مبيضة متناثرة ، مسرح للثعالب وحيوانات ابن آوى ، والنسور الصلعاء تحلق عاليا ، وفى خلفية الصورة الحيود الجرداء العارية لجبال الصحراء · ليس من ورقة نبات خضراء تسعد العين وليس من شىء يخفف من وطأة انعكاسات الشمس الحارقة على كتل الصخور البيضاء والصفراء وأكوام الرمال التى اتخذت أشكالا واضحة تحت السماء

العميقة زرقتها • ليس من شك فى أن روح الشعر تغمر الصحراء ، فهى رغم رتابتها تقدم لنا مناظر فخمة مهيبة • وأخيرا وجدت تلا منخفضا بدا يمكن استخدامه لنحجب به تقدمنا ، لذا فقد أسرعت أقود الخروف الى الموضع وطمنته ونزعت أحشاءه ، وهيأت القطعة الأولى لاغواء النسور ، وأسرعت عائدا لرفاقى فى المعبد •

وبعد أن تفقدنا بدقة كل الآثار تناولنا افطارنا الذى كنا قد أحضرناه معنا فى احدى القاعات القديمة • وماكدنا ننهى طعامنا حتى قمت ومعى هويوز Hoyos بزيارة موضع الخروف ، وما كدنا نصل الى مسافة يمكن منها أن نطلق النار حتى اكتشف نسر حذر ، اقترابنا فضرب بجناحيه وارتفع عن الأرض ، وتبعه مالا يقل عن عشرين من رفاقه شديدى البأس • وكان هويوز Hoyos حسنا حظه حتى انه أسقط نسرا أبيض كبيرا أصلع الرأس من بين هذه المجموعة • أما أنا فكنت أقل مهارة فأصبت نسرا كبيرا جدا بجرح غائر فطار على ارتفاع منخفض عبر السهل • لقد مزقت هذه الطيور الجارحة جثة الخروف المسكين بشراسة والتهمتها ، فلم يبق منه سوى فروته ، وبعض القطع الممزقة •

**فلاح أعمى يتاجر فى الآثار :**

وبعد انتهائنا من هذه الجولة من جولات الصيد ، عدنا لرفاقنا الآخرين وذهبنا معهم نحو القرية حيث زرنا فلاحا أعمى ، وكان هذا الرجل المحترم واحدا من أغنى ملاك العقارات فى القرية ، ويمارس بالاضافة لذلك الاتجار فى الآثار المصرية ، فهو يحفر المعابد وحولها ، رغم مخالفة عمله هذا للقانون • وقد حصلنا ـ بتوجيه من برجش باشا ـ على بعض العاديات الصغيرة ، وأتيح لنا ـ فى الوقت نفسه ـ أن نتفقد المنزل البدائى ـ ولا أقول القذر ـ لسكان وادى النيل •

ومن العرابة المدفونة ركبنا عائدين عبر الريف الى البلينة Belianeh وكنا نمارس الصيد أثناء الطريق ، فقد أطلقنا بنادقنا على طرائد صغيرة ، وكنا مشوقين على نحو خاص لاصطياد النسر المنقض ( ؟ ) Glide-eagle وهو طائر أفريقى جارح له ريش أزرق وأبيض ، ويرتاد بأعداد كبيرة بساتين النخيل وآبار السحب •

وبعد الظهر عدنا للباخرة ، وتابعنا ابحارنا فى النهر جنوبا لمدة ساعتين قبل أن يحل الظلام ، لم تتغير المناظر الا قليلا ، لكن المساء الجميل ومنظر الشمس الفاتن عند الغروب أمتعانا ، لا بسبب جمال الألوان

وتدرجهـــا فحسب ، وانما لأن ذلك أتاح لنا الخروج ببعض الملاحظات الاثنوجرافية الشائقة • فعند الغروب يقود الفلاحون جمالهم وجواميسهم وحميرهم وماعزهم وأغنامهم لتشرب آخر شربة لها فى النهار ، فيزدحم الناس على شاطىء النهر لهذا الغرض : انهم رجال ونساء كأنهم أتوا من عصور سحيقة ، يتوضأون وفقا لتعاليم القرآن (الكريم) ، وتحمل النسوة جرار الماء ( الزلع أو البلاليص ) ، انهـــا الجرار نفسها التى استخدمها الفراعنة ، لم تتغير أشكالها أو مادتها ، انهن يملأنها من ماء النيل الجارى لاستخدام المساء ، وتبتل ثيابهن الزرق الرقيقة بالماء فتلتصق بأجسادهن الرشيقة ، وعيونهن السـوداء الواسـعة تتلألأ حزنا على صفحات مياه النيل ، وأفواههن المفتوحة شيئا ما تنطق بالأغانى الحزينة • انهم البشر نفسه الذين رأيناهم مصورين على جدران المعابد ، وبدا لنا وكأن القبور فتحت للسماح لرعايا الفراعنة بالعودة على ضفاف النهر المقدس •

وأوقفنا باخرتنا عند قرية صغيرة ، وبعد أن قضينا أمسية بهيجة خلدنا للنوم ، وعند شروق شمس الثانى من مارس واصلنا رحلتنا ، وقضيت فترة الضحى على ظهر السـفينة ألاحظ المنـاظر الجميلة على الشاطىء ، مع أنها المناظر نفسها التى مرت بى فى الأيام الماضية : حقول خضراء وبساتين نخيل ومدن صغيرة وجبال تنحدر فى الوادى • وعلى طول الشـــاطىء الرملى الطويل كان يوجد ــ على أية حال ــ ثراء فى الحياة الحيوانية لم نعتده من قبل • أسراب هائلة من البجع ، وطيور البلشون ، والأوز • وأكد مساعد الصيد التابع لى أنه رأى تمساحا •

**قنـــا :**

وعند الظهر وصلنا قنا ، وهى مدينة ذات مساحة معقولة ومشيدة بيوتها من الطين وتزدان بمئذنة سامقة ، وقد رست بنا السفينة ، فركبنا حميرا ومررنا ببساتين نخيل جذابة ، الى جانب قرية بائسة كانت نسور الجيف تقف على أكوام السماد ( السباخ ) فى حدائقهـا ، رغم وجود الدجاج غير بعيد عنها ، وسرعان ما وصلنا للسهل المزروع زراعة جيدة •

وينثنى النيل عند قنا ويقترب كثيرا من جبال الصـحراء الغربية ( الجبال الليبية ) ، لذا فالشريط الزراعى ضيق جدا وبعد ركوب دام نصف ساعة وصلنا ــ لمعبد دندرة Dendera الشهير • انه يقع ــ مثل بقايا أبيدوس ــ على حافة الأرض الزراعية ، وان كان المعبد نفسه قائما فى جبال الصحراء •

ولا أجد فى هذه المناسبة أفضل من ايراد كلمات صديقى برجش Brugsch عن هذا المعبد :

« دندرا اسم حديث لمعبد يتردد النـاس عليـه كثيرا للزيارة على الضفة الغربية للنيل فى مقـابل مدينة قنا الواقعـة على الضفة الشرقية للنيل ، وكلمة قنا تعريب للكلمة الاغريقية Caenepolis وتعنى المدينة الجديدة كما أسماها الجغرافيون اليونان ، والكلمة اليونانية بدورهـا مساوية ( مرادفة ) للاسم القديم تنتار Tantare · ومعبد دندرة لا زال يحتفظ برونقه القـديم وهو مخصص لعبادة الربة هاتور Hathor ، وهى بمثابة الربة فينوس Venus عند اليونانيين ، ويرجع تاريخ المعبد الى أواخر عهد البطالسة وبداية عهد الرومان فى مصر · وترجع أهميته الى المعلومات التى يقدمها عن تصميم المعبد المصرى القديم ، بوحداته المختلفة ·

واذا وضعنا فى اعتبارنا معبد ادفو كمعبد مشـابه ، بل وأكثر اكتمالا ، اتضح لنا أن وحدات ( أجزاء ) المعبد المصرى القديم كالتالى :

١ ــ برجان ، كالجناحين فى مقدمة المعبد ، بينهما يقع المدخل الرئيسى · والى اليمين واليسار من البوابة مسلتان وتمثالان للملك المؤسس تشكل ( التمثالان والمسلتان ) الواجهة الأمامية للمعبد ·

٢ ــ ساحة مكشوفة ذات أروقة معمدة تسمى البهو المعمد Peristyle ·

٣ ــ مجاز ( أو ردهة ) ذو واجهة نصف مفتوحة فى المقدمة ، تتجلى واضحة فى معبد دندرة ، وتزين الصور الفلكية ، والكتابات المناسبة هذا المكان ·

٤ ــ صالة الطعام banquet وعن يمينها ويسارها غرف ·

٥ ــ غرفة الأضاحى ومنها غرف جانبية ·

٦ ــ الغرفة الوسطى ، ومنها أيضا غرف صغيرة ·

٧ ــ المقدس أو قدس الأقداس ويقع فى وسط الجزء الأكثر ايغالا للداخل وكأنه معبد داخل معبد · وفى قدس الأقداس مصلى حجرية بهـا صورة لاله الضريح ، بالاضافة للقوارب المخصصة لأغراض نبيلة خاصة ، وفيها صور الكهنة يحملون صور الآلهة ، ويفصل قدس الأقداس عن الغرف الأصغر مسـاحة ممر خاص ، والغرف الأخرى الأكثر أهمية تقع مباشرة خلف هذا الممر · ان قدس الأقداس يمثل الجزء الأساسى لأى معبد فرعونى ، فالمحور الأساسى لمبنى المعبد يمر بالضبط من وسطه ·

ومن الممر يصعد المرء ما يشبه الدرجات الى كل الغرف المتتابعة ٠ وتصميم معبد سـليمان Temple of Soleman بصـفوف أعمدته وقاعاته وممراته وقاعة أضحياته وقدس أقداسه ( مكان العهد ) يمـاثل بالضبط معمار المعبد المصرى القديم ٠

وقد تفحصنا على ضوء المشاعل كل غرف المبنى الكبير ، والسراديب الضيقة ، والسلالم ، والممرات ٠ وبقيت مدة طويلة فى الظلام تحت القاعات المعمدة ، وكانت كتل الأحجار الضـخام غـير المطلية مزدانة بالنقوش الهيروغليفية الثرية مستدعية فى أفئدتنا تلك الأيام الخوالى ٠ ان المرء لا يتصور بقايا من العصور القديمة أكثر حيوية من تلك الموجودة فى معبد دندرة بجمالها الغامض البديع ، فالمرء يرى بعينى روحه كهنة هذه الديانات القديمة يتحركون بثيابهم البيض الطويلة ولحاهم السود المجدولة وأغطية رءوسهم المرتفعة ، حاملين الأضاحى لتقديمها للآلهة القوية لمملكة النيل القديمة ٠

وفى الممر المهجور تعشش الخفافيش الآن بأعداد كبيرة لا تصدق ، وفى الصالة الكبيرة تقف بومة ، بينما على الافريز بنى زوج من الغربان عشيهما ٠ وأطلقت بندقيتى على أنثى الغراب السوداء الكبيرة بينما تطير محلقة عبر البوابة ٠

وألقينا نظرة ممتعة ــ من بعيد ــ من فوق سطح المعبد ، على النيل والأرض الخضراء على احدى الضفتين ، وعلى الصحراء الشاسعة والجبال من خلفها ، على الضفة الأخرى ٠ انها صورة جليلة : آثار داكنة وصحراء خالية وجبال متفردة ، لا شيء أخضر ولا حتى شعاع من أشعة الشمس يسعد العين ، فعظمة الألوان وتألق السماء قد غابا عنـا هذا اليوم بعد الظهر ، فكل شيء لفته الظلال الداكنة ، وأصبحت السماء قاتمة لا من سحاب ــ فهذا غير معروف فى مصر العليا ــ وانما بفعل الأتربة والرمال وركود الهواء ، وكل أولئك مقدمة لهبوب رياح الخماسين Champsin التى تعد من رياح الصحراء القاسية ٠

وعدنا مساء لسفينتنا ومارسنا الصيد طوال طريق العودة وقضينا الليل على سطح السفينة وهى راسية فى الموقع نفسه ، وفى بكور الصباح واصلت السفينة ابحارها فى النيل ٠ كانت رياح الخماسين الثقيلة تعبث فى الوادى وغطت سحب الرمال الصحراوية الجبال وكأنها ضباب ٠

وظهرت الشمس كقرص أحمر ــ لم تستطع أشعتها اختراق جيوش الأتربة والرمال ٠ كل شيء غطته الرمال التى كانت تتوغل حتى الى كبائن

سفينتنا المغلقة ، وسببت ازعاجا مرعبا ، وساد الهواء الثقيل الباعث على الاحباط ، لكن ذلك أعطى المناطق الأخرى ( البعيدة عنا ) منظرا جميلا ، وتأملنا مندهشين فى هذا الأمر الذى بدا لنا بعدا غريبا من أبعاد الطبيعة ·

وأطلقنا البنادق على البجع ، ودجاجات النهر وبعض نسور الماء المزعجة ، لكن ذلك كان بلا جدوى ، فقد كانت المسافة بيننا وبينها طويلة · ومررنا ببعض المدن ، كان من بينها قفط Kuft وقوص Kus .

طبيعة المنطقة هى نفسها ، وكل ما حدث من تغيير هو تراجع الجبال لتخلى مكانا لطيبة ذات الشهرة فى التاريخ القديم بالاضافة لثرائها وجودة زروعها ·

**طيبة :**

وفى الساعة الثانية عشرة وصلنا لمرسى مدينة الأقصر المهمة · وكان فى المرسى باخرة بريد وبعض الدهبيات ( البواخر ) الخاصة بالمسافرين الأوربيين · والأقصر الحديثة ، مدينة عربية أصيلة ، مساكنها مشيدة من الطين ، وتقع فى وسط بقايا الآثار المصرية القديمة ، وان امتدت على نحو ما فى مواجهتها · فعلى ضفتى النيل نجد الارض مغطاة لمسافة طويلة ببقايا طيبة ، وتمتد على الضفة الغربية ( الشاطىء الليبى ) حتى الجبال ·

ورست سفينتنا بمجرد وصولنا وصعدنا الى الشاطىء الرملى واستأجرنا بعض الحمير من ميدان بدائى يقع أمام فندق الأقصر ، وهو فندق صغير قذر ، وركبنا الحمير ومررنا بشوارع المدينة الضيقة مارين بسوق غير عامرة بالبضائع ، وان رأينا فيها خلقا كثيرا ، يترددون جيئة وذهابا على أحد أحياء المدينة لا تسكنه الا الغوازى Ghawazi ( الراقصات ) ، فالأقصر مشهورة برصيدها الكبير من الراقصات · وبعد آخر المساكن أقيم معسكرنا ذو الطابع الغجرى فى أرض رملية ، ولم يكن المكان نظيفا ·

وسرعان ما وصلنا لمنطقة مكشوفة فسارت حميرنا بسرعة بين أشجار النخيل والحقول المزروعة · وعلى البعد أمكننا رؤية بقايا الكرنك العظيمة : بوابات ضخمة وأعمدة وجدران · فالكرنك يقع فى الأرض الزراعية الى جوار بستان نخيل رائع ·· وتعد النخلة الجنوبية شعارا لأفريقيا فهى تقدم للرائى صورة ذات تأثير ، بالاضافة للآثار المتألقة التى تعيد للأذهان حضارة أعرق شعوب الشرق حضارة ·

وعند مدخل الكرنك تقع قرية صغيرة ومزرعة لم تنم أشجارها نموا كاملا · وثمة أسراب من طيور آكل النحل برءوسها الزرقاء ، وبحركتها التى تشبه حركة الفراشات كانت لا تكف عن الطنين ، وقد أطلقنا بنادقنا على كثير من هذه الطيور الأفريقية الجميلة طمعا فى ريشها الجميل ·

**آثار الكرنك العظيمــــة :**

دعونا الآن نأخذ قبسا من كلمات برجش باشــا الذى كان دليلاً ومعلما وذواقة طاف بنا خلال آثار الكرنك العظيمة ، تلك الآثار التى تعود لأزمنة موغلة فى القدم :

« معبد الكرنك كان فيما مضى يرتبط بالأقصر بطريق طويل بشكل غير عادى (طريق أبى الهول Sphinx avenue) وهو ــ أى المعبد ــ عبارة عن مبنى ضخم يتكون من مبان تعود الى حقب تاريخية مصرية مختلفة · فغالبا ما كان كل ملك ــ خلال فترة امتدت حوالى ألف وسبعمائة سنة يشعر أنه لزاما عليه أن يخلد ذكره بتشييد مبنى ، ومن هنا فان تاريخ الامبراطورية طوال هذه القرون قد مثل فى هذا المعبد الامبراطورى · ويعتبر الفراعنة الذين سنذكر أسماءهم توا هم أبرز مؤسسى هذا المبنى :

١ ــ تحتمس الثالث وأخته حتشبسوت Hatchep ( حوالى سنة ١٦٠٠ ق·م ) واليهما تعود مسلات الكرنك وقد سجلت إنتصارات تحتمس الثالث فى آسيا وأفريقيا من خــلال رسوم وكتابات ثرية قدمت معلومات مهمة تاريخية وجغرافية عن هذه الحقبة ·

٢ ــ سيتى الأول ( ١٣٦٠ ق·م ) وهو مؤسس الصالة الكبيرة فى المعبد ، تلك الصالة المقامة على ١٣٤ عمودا تذكرنا ــ بتصميمها وزخارفها ــ بمعبد أبيدوس · وفى الجدار الشمالى الخارجى صور تمثل الحروب بين هذا الملك والقبائل العربية والسورية كما تمثل عودته لمصر · وهى رسوم ذات قيمة تاريخية عالية ·

٣ ــ رمسيس الثانى ( سيزوستريس ) (٤) وهو الذى أكمل ممر الأعمدة بعد موت والده سيتى الأول ، وسجل الجدار الجنوبى الخارجى حروب هذا الملك مع ملك الحيثيين Heth وحلفائه الآسيويين ··· وثمة اشارة أيضا الى شيشانق الأول Shashank I ( وهو الملك شيشاق الوارد فى الكتاب المقدس ) ليسجل معركته ضد مملكة يهــــوذا Judah من وجهة نظر مصرية · والى الجنوب من معبد الكرنك ــ فى اتجاه النهر ــ يوجد معبد بحالة جيدة هو معبد الاله

القمرى شوزو Chousu وقد أنشأه رمسيس الثالث ( ١٢٠٠ ق٠م ) وثمة عمود مربع Pylon مهيب أمامه يعود لأيام البطالمة ، ومعبد الاله Chousu يشير أيضا لسقوط الفراعنة الرمماسة Ramses ( انتهاء دولتهم ) » ٠

وفى الاتجاه الجنوبى من الكرنك ، يوجد حرم مقدس خاص لموت Mut زوجة آمون الذى يعتبر بمثابة زيوس zeus اليونانى ــ الى جوار بحيرة لا تزال موجودة ٠

وتماثيل آلهة القمر والنور المصرية Egyptian Juno كلهـــا من جرانيت أسود لها رءوس أســود ، والواحد منها يمثل ربة تقف وقفة جليلة ، وكلها محيطة بالنافورة المقدسة ، وحتى الآن لا تزال بعض هذه التماثيل فى مواضعها القديمة ٠ وقد تم نقل بعض أفضــل هذه التماثيل ــ منذ أعوام عديدة ــ الى متاحف أوروبا المختلفة » ٠

وبعد أن تجولنا بين القاعات الواسعة وبين ما لا حصر له من الأطلال والأعمدة عدنا من الطريق نفسه الى الأقصر ٠ وفى أوسط المدينة يقع منزل الوكيل القنصلى لبريطانيا وهو عربى ثرى ، وكان بيته محاطا بغاية من الآثار القديمة ، وقد استقبلنا هذا الرجل العجوز الماكر بزى نصفه أوربى ، ورحب بنا بحرارة ، وعرض أن يبيعنا آثارا مصرية بأثمان باهظة ٠

واشترينا بعض القطع الجميلة وشربنا فناجين القهوة ، وهذا أمر لا مفر منه ، ثم تابعنا تفقدنا للآثار داخل المدينة ٠ ومرة أخرى أدع برجش يتحدث بدلا عنى :

« كانت طيبة منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وطوال ألف وسبعمائة سنة العاصمة المتألقة للامبراطورية المصرية ، وحتى أغانى هوميروس Homer أشارت الى شهرتها وعظمتها ٠ ويقسم النيل المدينة الى قسمين كما ورد فى كتابات كثيرة ، ووفقا لبقايا المبانى القديمة التى مازالت باقية ٠ والشطران معا يمثلان مدينة Uas أو Pi Amon أى مدينة آمون أو كما سماها الاغريق ديوزبولس Diospolis والجزء الواقع على الضفة الشرقية للنيل يختص باسم آبى Api أو تابى T-Api ، والى هذا الاسم الأخير يرجع الاسم اليونانى Thebai أو Thebae .

وقد أطلق المصريون المحدثون على الآثار والخرائب على هذا الجانب اسم الأقصر El-lugsor ( القــلاع باللغــة العربية عـــادة ما تكتب الأقصر ) (*) وهذه الآثار بالاضافة للكرنك لا تزال ــ حتى الآن ــ تثير

---

(*) هذا غير صحيح كما لا يخفى على فطنة القــارىء ــ ( المترجم ) ٠

اعجابا شديدا · ففى الأقصر مبانى الملك أمنوفيس الثالث Amenophis III ( سنة ١٥٦٦ قبل الميلاد ) والى الشمال منها مبانى رمسيس الثانى ( سيزوستريس ) ، وكلها مبان قوية جليلة ، والجانب الأمامى لجناح بوابة معبد رمسيس مزدان برسوم عن معركة رادوش Radosh فى أورنت Orontes وهى المعركة التى حقق فيها الملك نصرا واضحا على الحيثيين وحلفائهم ، وقد بقيت مسلة واحدة ( وهى المسلة الشرقية ) من المسلتين فى موضعها القديم · أما عن الأبعاد المتعددة للتماثيل الضخمة لهذا الملك فيمكن جمعها من الرءوس الناتئة من الأرض » ·

وبينما كنا ننظر لمختلف الآثار تحلق العرب الجشعون حولنا حاملين معهم قطعا أثرية صغيرة ( وهى آثار فى غالبها ــ وفقا لما قاله برجش باشا ــ مزيفة ) وقالوا انهم استخرجوها من الحفائر ، عرضوها علينا بطريقة لحوحة تبعث على الضيق ، وكان لابد أن ندافع عن أنفسنا بطريقة عنيفة ازاء اندفاعهم وزحامهم وكثرة ايماءاتهم ·

**العبابدة :**

وفى شارع جانبى وجدنا جماعة من العبابدة Ababdehs وهم جنس غريب ، فهم ــ على الأقل ــ ليسوا عربا ، ومظهرهم أجنبى تماما وبعيد عن الجنس السامى ، كما أنه بعيد تماما عن أن يكون جنسا زنجيا ·

وهم يدعون أنهم منحدرون من بعض الأجناس الآسيوية النائية ، وكان هذا الجنس الآسيوى فى حالة هجرة فى أيامه الأولى ــ انه الجنس الكوشى Kushites ــ متخذا الاتجاه الجنوبى ثم مساحلا لسواحل المحيط الهندى فسواحل جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم دخلوا أفريقيا ، واستقرت هذه العشائر المميزة فى الحبشة وما وراءها وفى مناطق الصومال ومن ثم اتجهوا الى أسوان ومنها الى طيبة ·

والعبابدة Ababdahs بشكلهم المميز يعدون حتى الآن طبقة منفصلة واضحة تسكن التلال الى الشرق من النيل بين النهر والبحر الأحمر بدءا من طيبة الى جنوب أسوان · انهم جبليون بؤساء يعيشون فى الأودية الصحراوية الجبلية ، واحتفظوا بطابعهم دون تغيير وظلوا دون كبير تطور ·

انهم متوحشون وغير أليفين ، بكل ما فى هذه الكلمات من معان ، وتنبىء جلودهم النحاسية وأجسامهم النحيلة وملامحهم الدقيقة عن أصول هندية · وشعورهم سوداء يدهنونها بالشحوم ويجعلون منها قرونا

يثبتونها في هيئتها بقطع من الخشب ، أما ثيابهم فبعض أسمال بسيطة قذرة يلفونها بشدة حول أجسامهم ٠

ويضعون جميعا حلقات في آذانهم وحول أذرعهم فحتى الصبي الصغير يضع حلقة في أنفه ٠ أما أسلحتهم فسيوف عتيقة — من بينها سيوف أوربية تعود لفترة الحروب الصليبية — وعصى خشبية ورماح بدائية ودروع جلدية وسهام وأقواس وجعبة سهام تلقى منهم عناية خاصة ، ولكنهم لم يرغبوا في بيع أي من أسلحتهم هذه ، واحتاج الأمر لتدخل عبد القادر باشا ليدبر لي كثيرا منها ٠

لقد كانت ضربة حظ أن نلتقي بالعبابدة في طيبة فهم نادرا ما يأتون لأسواق هذه المدينة ، لكننا عندما وصلنا لأسوان ، أتاحت لنا الظروف أن نعرفهم بشكل أفضل (٥) ٠

وبعد هذه المقابلة الشائقة مع العبابدة انقسمت مجموعتنا : أما الدوق الكبير وأنا فقد ركبنا عائدين للكرنك مرة أخرى لنمارس صيد الحيوانات البرية مساء ، بينما عاد باقي الرفاق الى الأقصر ٠ وقد أرشدنا صياد عربي اسمه خليل الى منطقة قريبة من آثار الكرنك ، وكانت هذه المنطقة التي دلنا اليها خليل بالقرب القريب من منازل قرية صغيرة ، فبمجرد أن تركنا هذه المنازل استدرنا في الحقول وسرعان ما وصلنا لتل رملي يقع فوقه مقام أحد الأولياء المسلمين القدماء ٠

وأوقفنا الصياد العربي في مركزين ( نقطتين ) مختلفين في ظل بستان نخيل صغير ، وأصدر الى تعليمات بأن نجعل بنادقنا جاهزة للاطلاق وأن ننتظر بسكون كامل حتى تجري الأمور في مجراها الصحيح ٠ كانت رياح الخماسين قد بدأت تهب بعد الظهر ، لكن المساء كان جميلا عقب نهار سيئ ٠ وغربت الشمس بعظمة غامرة سهل طيبة الواسع وجبال الصحراء التي تتسم بالشموخ هنا ، وآثار الكرنك الجليلة بألوان بهية غاية في البهاء ٠ وحركت النسائم العليلة جريد النخيل وسعفه ، وهبت الروائح الشافية من النباتات اليانعة وهدل الحمام فوق الشجيرات هديله ذا الشجن ، وشمل السكون كل ما حولنا فكان لهذا تأثيره الملطف بالنسبة لي ، فكاد النوم يغلبني ، فهزني خليل بشدة ، على حين غرة — وكان يكمن بالقرب مني — وأخبرني بلهجة حادة أن حيوانا من حيوانات ابن آوى مر بالقرب مني وأفلت ٠ كان الليل في هذه الأثناء قد هبط فاتخذت مع الدوق الكبير طريقنا عائدين ٠ وأثناء العودة لمحت شبح حيوان يمرق سريعا ، فأطلقت بندقيتي كيفما اتفق ، وغمرتني السعادة اذا اكتشفت أنني

قد اصطدت حيوانا من حيوانات ابن آوى . وبعد حصولى على هذه الغنيمة الثمينة ، وصلنا فى الحال الى حيث الحمير تنتظرنا ، فركبنا مسرعين الى الباخرة وقد غمرنا السرور •

وأخذ بعض منا بنصيحة خليل فبدءوا فى بكور صباح اليوم التالى قبل بزوغ الشمس بوقت طويل وذهبوا الى بركة بعد آثار الكرنك (٦) ، تنجأ اليها الحيوانات الكبيرة غير المستأنسة لتروى ظمأها إبتداء من فترة ما بعد الغروب • كان الطريق طويلا يخيم عليه سكون الموت فليس من صوت الا عواء حيوانات ابن آوى ونباح الكلاب شبه المتوحشة ــ تأتينا بين الحين والحين لتقطع سكون الليل • وأخيرا وصلنا للبركة أو ان شئنا الدقة مستنقع الماء المتخلف عن فيضان النيل • وأعد خليل مواضع البنادق بسرعة بينما رحنا نحن نلاحظ باهتمـــام شديد حتى أشرقت الشمس ذهبية حمراء على النيل العربى ، ولم نر شيئا سوى واحد من حيوانات ابن آوى تركه الهر راث Herr Rath ينسل هاربا •

ان الفترة القصيرة التى تمثل مرحلة انتقال بين ظهور حمرة الأفق حتى شروق الشمس ، تمثل ثراء فى الألوان ، وتباينا ساحرا ، لا مثيل له الا فى داخل أفريقيا • ورأينا كثيرا من الطيور من أنواع مختلفة ترد الماء فقررنا أن نقضى فترة ما قبل الظهر فى اصطياد الطيور ، وبالفعل أصبح فى حوزتنا عدد كبير من الطيور الصغيرة كان من بينها عدة أنواع من السمان ، ويجد هذا الطائر فى هذه المنطقة منتجعا شتويا له • ووصلنا لآثار الكرنك بعد جولة فى الحقول • وقد عاد عدد من الرفاق الآن الى الأقصر بينما تخلفت أنا وتخيرت لى مكمنا بين الخرائب لأراقب جيفة قريبة فى انتظار قدوم النسور الكبار • ولسوء الحظ لم يظهر الا واحد من نسور الجيف وحدأة ، ولم أطلق بندقيتى على أى منهما •

ولم يكن هذا النهار ملائما لهذا النوع من الرياضة ( صيد الطيور ) لأن سحب الرمال كانت تغطى المكان حاجبة عنا حتى رؤية أقرب الجبال ، فقد عادت رياح الخماسين عاصفة هذا الصباح ؛ لذلك سرعان ما غادرت مكمنى بين أطلال مصر القديمة واتجهت الى بركة مائية صغيرة تحفها ألواح حجرية وهى بركة قديمة تقع بين البقايا الأثرية ، فهنا تلجأ بعض طيور الشنقب ( أو الجهلول ) وبعض طيور زمار الرمال ( أو الطيطوى ) لتلتقط أنفاسها بعد رحلة شاقة ، وقد أطلقت بندقيتى مرات عدة فأنهيت حياتها المضطربة •

وركبت شاقا أقصر الطرق الى الأقصر ومن ثم للباخرة ۰ وكنا قد خططنا لفترة بعد الظهر للقيام بأول زيارة لآثار الضفة الغربية ، لكننا اضطررنا لتغيير خططنا بسبب العواصف الرملية وقررنا تأجيل زيارتنا لطيبة الغربية بعد عودتنا من زيارة الشلالات ( الجنادل ) ۰

وقضينا جانبا من فترة ما بعد الظهيرة فوق ظهر السفينة وجانبا آخر في الأقصر ، وذهبت مع برجش باشا لزيارة الوكيل القنصلي لألمانيا ، انه رجل قبطي يعمل بتجارة الآثار ، ووجدنا عنده قطعا أثرية أفضل من تلك التي كانت عند الوكيل القنصلي لانجلترا الذي زرناه في الأمس ۰ وقد اشترينا منه قطعا مختلفة قيمة وضعناها فوق ظهر الباخرة ۰ ومما يذكر أن مجموعة المتحف المصري تنمو بسرعة ۰

**أرمنت :**

وواصلنا رحلتنا جنوبا عند شروق شمس اليوم الخامس من الشهر ۰ وبناء على نصيحة بعض الأوربيين في الأقصر قررنا التوقف عند قرية مجاورة هي قرية أرمنت مشهورة بمصنع السكر ، وبكثرة مزارع القصب بها ، وخصصنا عدة ساعات للصيد هناك ۰ وبعد ساعتين وصلنا الى أرمنت ، وقد استقبلنا بعض السادة الفرنسيين المسئولين في المصنع ــ المصمم على النسق الأوربي تماما ــ بحرارة ووضعوا في خدمتنا عددا كبيرا من عمال المصنع كنا نحتاجهم لاثارة الطرائد المختبئة في مزارع القصب الكثيفة ، وأعدوا لنا قطارا كان علينا استقلاله للوصول الى المناطق الملائمة للصيد ، فمررنا في طريق تحفه أشجار الجميز الجميلة بالقرب من المصنع ، وفي غضون دقائق وصلنا لمحطة صغيرة لخط سكك حديدية قصير يربط المصنع بمزارع القصب ۰

وكان علينا بعد ذلك أن نجمع العمال الذين سيقومون باثارة الطرائد ، وأتى حشد من الفلاحين قادمين من المصنع وتجمعوا مباشرة في عرباته خاصة تستخدم لنقل القصب ، وجعلنا أنفسنا في آخر عربة من هذه العربات وبدأنا نشق السهل مخلفين وراءنا البساتين الجميلة للموظفين الفرنسيين ثم مررنا بقرية ريفية بائسة حولها بستان نخيل صغير ۰

وبعد رحلة قصيرة توقف القطار ۰ ليس ثمة الا شريط ضيق من الأرض الزراعية يفصل النيل عن الصحراء التي تقترب كثيرا من النهر في هذه المنطقة ۰

وأثار الفلاحون الطرائد فى أقرب حقول القصب ، ولسوء الحظ أن حقل القصب كان واسعا وكثيفا جدا فلم نظفر بما كنا نأمل فيه ، غير أن ذئبا واحدا ظهر واستطاع أن يهرب من مكمنه دون أن يمسسه سوء • وسرعان ما أدركنا ألا جدوى من محاولاتنا فعدنا للقطار ، وفى طريق العودة — من خلال القرية التى ذكرتها للتو آنفا — أطلقت بندقيتى أثناء ركوبى على نسر من نسور الجيف كان يقف مع نسور أخرى الى جوار منزل طينى • وفى حديقة أحد الموظفين الفرنسيين أرونا حيوانات ابن آوى ، كما أرونا — ما يظنه هؤلاء الناس الطيبون — أوكارا للذئاب • ولم تكن محاولة احضار كلاب الدشهند هنا مجدية ، فعدنا لباخرتنا بعد أن غبنا عنها فترة وجيزة •

وكان لأرمنت دور مهم فى التاريخ القديم ، فاسمها باليونانية هرمونتز Hermonthis وبالمصرية القديمة اسمها آنمونث Anmonth.

ولأن أرمنت تقع على الضفة الغربية للنيل كما تقع الى الجنوب من طيبة ، فانها بمعابدها المكرسة لعبادة الاله مونت Month ( وقد نهب اللصوص المصريون آخر هذه المعابد منذ سنوات قليلة ) تعد من بين اقدس المواضع •

وبعد التدهور السياسى لمدينة طيبة ، أصبحت أرمنت عاصمة للطيبيين ، كما كانت أرمنت المقر الفعلى لحكومة السلطات الاغريقية الرومانية فى جنوب مصر • ويوجد ضمن المجموعة الامبراطورية فى فينا الآن قطع عمود من الجرانيت الأسود كان موجودا على شاطىء أرمنت • وفيما يلى ترجمة برجش باشا للوحة الجرانيتية السوداء الموجودة فى أرمنت والتى تعود الى الملك أمينوفيس الثانى Amenophis II ، حوالى ١٥٦٠ قبل الميلاد وهى مجرد تكرار لما فى معبد Amada فى النوبة :

« فى السنة الثالثة ، فى اليوم الخامس عشر من شهر أبيب
In the year 3, on the 15th day of the month Epiphi,

تحت حكم حورس المهيب الجليل القوى ،
Under the government of Horus the mighty and powerful bull,

تحت حكم صاحب السلطة الملكية الذى يمتد سلطانه بعيدا ،
Of the possesser of the diadem whose power reaches far,

الذى توج فى طيبة ،
Who Was crowned in Thebes.

تحت حكم حورس المنتصر الذى وحد ( مصر ) كلها بالقوة ،
Of the victorious Horus who had taken possession by force of all the Country.

تحت حكم المقدس صاحب الفضل ،
of the divine benefactor,

تحت حكم الاله الذى جعل ( مصر ) ثرية ،
of the Lord who makes Egypt rich.

تحت حكم ملك مصر العليا ومصر الدنيا ، رع ـ آ ـ شبيرو
of the king of upper and lower Egypt, Ra-à-cheperu,

تحت حكم الابن الحبيب لرع ـ اله الشمس ،
of the very own son of the sun-god Ra

تحت حكم حاكم أرمنت الشبيه بالاله ،
cf the God-Like ruler of Hermonthis,

تحت حكم صديق خنوم رب فيلة العظيم ،
of the friend of the great good Chnum of Elephantine.

فصاحب الفضل المقدس الذى خلقه رع ( الشمس ) ملك عظيم منذ ولادته ،
The divine benefactor created by Ra (the sun) is a great king from this birth up.

انه قوى كحورس على عرش آبائه ، ليس لقوته كفوا أحد ،
Powerful as Horus on the threne of his fathers, the strong-armed has none who is his equal.

انه الملك ذو البطش ، ( أو ذو اليد القوية ) ·
That is a king of a strong hand

ليس من بشر يقدر على قياس قوسه ،
Whose bow no man Can Span

سواء من بين المقاتلين التابعين له أو من بين أمراء الشعب أو من بين ملوك أشور ·
Neither among his worriis. nor among the princess of the people, nor among the Kings of Assyria,

فقوته أعظم من قوة كل الملوك مجتمعين •

for his strenth is greater than that of all the kings.

ان غضب صار نمرا ( كالنمر ) فى غضبته ،

In his wrath he is like the leopard

وفى ساحة الوغى لا يجسر أحد على مواجهته •

If he head the battlefield there is none that will meet him.

منتصر فى الحروب فهو درع مصر وحاميها •

Victorious in battle he is a bulwark for Egypt.

تمتزج قوته بالشجاعة ، ويبقى منتظرا فى الشعب فهو يعف عند المغنم •

Strong in Courage, he waits in the defile the hour of plunder.

يولى أعداؤه الادبار أمامه ،

His adversaries flee before him

لأن قوته تحلق ممتدة فوق كل الناس ، فرجاله جبارون وكذلك خيوله ،

for his power is out-stretched over all people with their mighty men and horses,

واذا أقبل أعداؤه بالملايين لا يساوره خوف ، فالاله آمون هو حارس دربه •

and if his foes came in millions he need not fear the God of whose path is Amon.

واذا خرج فى حملة تلبس بدنه فى الحال كل قوى البشر ،

if he is on an expedition forthwith man's strength takes possession of of his body,

وأصبح مثل الاله خم chim ( بان Pan ) (*) يوم الفزع ،

and he is like to the God Chim (pan) in time of herror,

---

(★) رب الغابات والمراعى والرعاة عند الاغريق وهو قبيح الخلقة • معجم المصطلحات الأثرية لمحمد كمال صدقى ـ ( المترجم ) •

فلا يستطيع أحد أن يفلت من قبضته ٠
and no man can save himself from his arm.

وكل الشعوب والبلاد أصبحت خدما له ٠
all the peoples & countries became his servants.

وكل من يكرهون الملك أصبحوا أسرى لقواه السحرية ٠
They that hated the king have become subject to his magic powers,

نعم ، فهذا آكيد ، فقواه السحرية تطولهم حتى آخر فرد فيهم ٠
Yea to the very last of them

الجارح وما جرح ، ( لا يستطيع جيش أن يوقف تقدمه ) ٠
His hands give wounds, and no arm can stay him.

ففي ظل أنفاسه — وحدها — تكمن الحياة ٠
only in his breath is life.

ملك الملوك ، أمير الأمراء أتى الى هنا بكل سكان المعمورة ٠
The King of Kings, the prince of princes has brought hither the inhabitants of the utmost ends of the earth.

فهو وحده ينصر من ينصره ، ويؤمن به كالشمس في السماوت
He is the only one, and a champion for those who extol him and acknowledge him as a sun in the heavens.

نظرته مرعبة في الحروب
His glance is terrible in the day of battle.

لا حد لسطوته على الناس والشعوب
No bounds are set to him to the number of the people.

اتحد الغرباء ، لكنهم سقطوا على الأرض من شدة الحرارة ، لأن فمه يزفر نارا محرقة ( لأن فمه كالنار المحرقة )
The strangers unite, they fall to the ground at the heat, for his mouth is like a Consuming fire.

لم يفلت منهم أحد ، والذين خروا لم يقوموا
None of them escape, those who fall do not arise.

انهم كأعداد باسبت ( ديانا ) فى طريق ...

They are like the adversaries of Bast (Diana) on the way of ...

لكن آمون أعطاه الصحة وباركه لانه يعرف أنه ابنه وأنه خرج واياه من جسد واحد ليحكما كل ما ألقت عليه الشمس نورها من شعوب الأرض وبلادها .

But Amon gives health & blessing to him hwo Confesses that he is his son, Sprung from one body with him, to rule whatever the sun encompasses, the people and countries of earth.

فحالا ينظر الى كل هذه الشعوب والبلدان تغدو ملكه بفعل جبروته وقوته .

As soon as he beholds them, they are his possession through conquest and mighty strength

انه الملك الذى يجد المسرة فى قلبه بفضل أعمال الأرباب ، وبناء معابدها واقامة التماثيل ( الصور ) لهما ، ويجد المسرة لزيادة الأضحيات الطازجة والخبز والجعة بوفرة " والحمام والدجاج اليوم وكل يوم والى الأبد . و ( الأضحيات ) من الثيران والماعز فى الأعياد حيث لا مجاعة .

That is the king who finds pleasure in his heart for the works of the gods, the building of their temples, the setting up of their images, in the increase of fresh' scarificcs, bread and beer in abundance, doves and winged fowl for to-day and daily for ever. Of oxen and goats in their seasin (the festivals) there is no lack.

انه يهب المعبد للاله ( معبد فيلة للاله خنوم ) مزودا بكل شيء : كثير من الثيران والأبقار والدجاج .

He gives the Temle (i.e. the Temple of Elephantinc to the god Chnum), Provided with all things, oxen, Claves, and fowl in abundance.

وهذا المعبد مزود أيضا — تأكيدا لعظمته — بالقرابين ، وبالخبز والجعة والنبيذ .

This temple also is provided for in its greatness with offerings, with bread and beer and wine.

وقد أعاد تجديده ليحظى باعجاب البشر واعتراف كل الشعوب ويظل للآباء والآلهة فترة طويلة من الزمن بعد ذلك » .

That which the fathers and Gods long after, he has instituted a new to the admiration of men and the acknowledgment of all peole.

★★★

لقد وجد برجش باشا هذا التسجيل الجميل والشائق بينما كنا نمارس الصيد واتخذنا قرارا بضرورة أخذ هذا الجرانيت الأسود عند عودتنا الى أرمنت قادمين من أسوان ٠

وواصلنا رحلتنا دون مزيد من التأخير وسرعان ما وصلنا الى نقطة انثنى عندها النيل ثنية حادة ، وتقترب الجبال من المجرى فى الضفتين ، وعند منطقة الجبلة Gebeleh تنحدر الجبال بشدة نحو النهر ٠ والمسيلات ( الوديان الصغيرة ) ، والصخور والمنحدرات الصخرية لجبل نساح Nissah الشامخ الأجرد شرق النيل - كلها مناظر تتسم بجمال خاص ٠

وبينما كنا فوق ظهر باخرتنا النيلية سعداء برؤية الأرض الزراعية الجميلة لمحت جاموسة ميتة على الشاطىء الرملى تحيط بها النسور ٠ واكتشفت - مستعينا - بالتلسكوب نسورا كبيرة زرقاء رءوسها وهى طيور أفريقية خالصة ، الى جانب النسور ذوات الرءوس البيضاء ٠

ومما يؤسف له أن الطيور الجبانة لم تسمح لباخرتنا بالاقتراب لتهيئة المسافة المناسبة لاطلاق بنادقنا ، فتوقفنا وذهبت أنا والدوق الكبير الى الشاطىء ٠ واتخذنا من بعض الشجيرات غطاء كافيا وانتظرنا بهدوء آملين أن تعود النسور ذوات الرءوس الزرقاء لاكمال وجبتها ٠

يا خسارة ، لم يأت أى منها وانما أتى زوج من نسور الجيف النهمة فأطلقت النار من بندقيتى الخفيفة على واحد منهما ، وأقبل رهط من الفلاحين المستطلعين عند سماع صوت البندقية ( لقد كانوا داكنين تماما وغالبهم عراه ) ، فعقدت معهم صفقة مؤداها أن يضعوا بعض الجيف - يوميا - فى هذا الموضع وألا يزعجوا الطيور بأية حال من الأحوال ، على أمل أن أجرب حظى فى اصطياد النسور ذوات الآذان ( الزرقاء رءوسها ) عند عودتى ٠ووعدنى الناس الطيبون - لقاء الحصول على البقشيش - أن ينفذوا - حرفيا - ما طلبناه منهم ٠

وجدفنا عائدين لباخرتنا وتابعنا الابحار جنوبا دون مزيد من التأخير ، وبعد أن مررنا الى الأدنى من تل أجرد فى أعلاه ضريح أحد الأولياء ( الشيوخ ) القدامى ، بدأت الجبال تتراجع عن الوادى فيصبح السهل عريضا شيئا فشيئا ، حتى غدا عند اسنا واسعا حسنة زراعته ٠

**اسنا :**

وقبيل الغروب وصلت سفينتنا الى مدينة اسنا الكبيرة التى تحيطها بساتين النخيل والحدائق الخصبة اليانعة ٠ ولما رست الباخرة ألقينا نظرة

من فوقها استمتعنا خلالها بحيوية الحياة الشرقية وصخبها ، تلك الحياة التى تعج أمامنا على ضفاف النيل ٠

كان المساء باردا منعشا ، بعد أن عانينا من الحرارة الأفريقية الأصيلة التى أعقبت هبوب رياح الخماسين ٠ وبعد أن تناولنا غداءنا غادرنا السفينة فاستقبلنا المدير بحفاوة ، فركبنا الحمير ودرنا حول المدينة لنصل الى معبد شهير بالقرب منها ٠

واسنا هى مدينة سينى Sini المصرية القديمة ، وقد أسماها الاغريق لاتوبولس Latopolis بسبب عبادة سمكة اللاتوس Latus وهى عبادة كانت موجودة فى هذه البلدة ، وبها عدد من المعابد والأماكن المقدسة مكرسة لعبادة الاله خنوم Chnum ، وثمة بقايا مجاز ( ردهة ) لا زالت باقية لواحد من أكبر هذه المعابد ، ويقع غائرا الى منتصفه فى تربة المدينة الحديثة ٠

ومما يعطى هذا الأثر الذى يعود لزمن الامبراطورية الرومانية أهمية خاصة ما يشير اليه من التقويم المصرى القديم القائم على العام السكندرى والصور الفلكية فى سقفه ٠ وفى ضوء مشاعل كثيرة رأينا أن صالة ( ردهة ) هذا المعبد تبدو بحالة جيدة جدا ، وقد بقينا لفترة طويلة فى غرفة مظلمة نستمتع بالمناظر ( الصور ) الشائقة ، ومما يذكر أن هذا المعبد حديث نسبيا اذا قورن بالآثار الأخرى فهو يعود الى زمن الامبراطورية الرومانية ٠ وفى طريق عودتنا قبلنا دعوة المدير الودود وسرعان ما وجدنا أنفسنا جالسين فى الطابق الأرضى لمبنى حكومى جميل ، واسترحنا فوق الكنب divans ودخنا بسعادة وشربنا القهوة وما كدنا ننتهى من تناول هذه التحية التى قلما نعفى منها فى ( الشرق ) حتى فتحت الأبواب ودخلت فتيات خفيفات الخطو ليرقصن مصحوبات بموسيقا مناسبة ٠ لم تكن الفتيات ــ هنا ــ جميلات ، خلا واحدة كانت حبشية ذات ملامح محددة جميلة وبشرة بنية داكنة متألقة ٠ وبعد أن مكثنا فترة يسيرة استأذنا المدير وعدنا للباخرة ٠

**الكاب ثم ادفو :**

وتابعنا رحلتنا فى بكور السادس من مارس وسرعان ما وصلنا الى ممر الكاب El-Kab حيث تقترب جبال الضفتين من مجرى النهر بوحشية وشاعرية ٠ لقد كانت المنطقة جميلة ٠ وبعد أن اجتزنا هذا الممر تراجعت الصحراء الغربية ( الليبية ) لتخلى مكانا لسهل ادفو العريض المزروع بشكل جيد ، بينما استمرت جبال الصحراء الشرقية ( العربية )

قريبة من النيل • لقد تغيرت – أيضا – طبيعة الجبال : فبدلا عن التلال المحددة أشكالها والشامخة أصبحنا نرى جبالا من حجارة رملية تشكل قممها المنخفضة أشكالا ذوات طبيعة خاصة •

وقبل الظهر وصلت باخرتنا الى ادفو Edfu فركبنا عبر بعض الحقول الى قرية بائسة جدا بالقرب منها ، ووصلنا الى أفضل معابد مصر العليا من حيث بقائه مصونا ، وواحد من أفضل وأجمل القطع المعمارية فى كل العصور ، وذلك بعد أن مررنا بشوارع ضيقة قذرة حتى وصلنا لهذا المعبد الجليل الذى يقع بين أكوام القمامه والخرائب • وبدانا تفقد المعبد يرشدنا برجش باشا • وادفو هى ديبو Debu او ادبو Edbo المصرية القديمة ، وأسماها الاغريق أبولونوبولس العظيمة Apollonopolis ، ويعد معبد ادفو بالفعل أحد أعظم المعابد وأوسعها ، وقد ظل منذ العصور القديمة حتى الآن محتفظا برونقه ومصونا بشكل يدعو للاعجاب •

والمعبد – بشكل عام – مصمم وفقا للخطة ( التصميم ) التى ذكرناها آنفا ، ولذا فهو يقدم للمراقب المعاصر أكثر الصور صدقا لبناء المعبد فى مصر القديمة •

وهذا المعبد الواسعة أرجاؤه مخصص لعبادة حورس Horu اله النور وهو بمثابة أبولو اليونانى الذى وصفته النقوش بدقة باعتباره اله الشمس فى مصر العليا ويتمثل فى رأس صقر ويبدو الاله منتصرا على جحافل الظلام ويرمز له بفرس النهر غير المروض • وقد حفرت المناظر فى الجانب الداخلى للجدار الذى يمثل الحد الغربى حيث تبين – أى المناظر – معركة اله النور ضد الظلام والشر ، بشكل أخلاقى ، وتذكرنا بالأسطورة اليونانية الشهيرة عن عمال هرقل الاثنى عشر Twelve labour of Hercules • ان ثراء الرسوم والنقوش التى تغطى كل سطوح الجدران الملساء والأعمدة فى هذا المعبد تتفوق فى محتواها على سائر آثار مصر الأخرى •

فالتفاصيل الدقيقة التى عرضت بها المعلومات تجعلها حقا معينا لا ينضب • انها معلومات تاريخية وجغرافية واثنوجرافية وفلكية ومعلومات متعلقة بنظام الخدمة فى المعبد ••• الخ ، وثمة جزء منفصل تماما عن التراث الميثولوجى (الأسطورى) المتعلق بالآلهة ، انها معلومات ثرة يمكن أن تملأ مجلدا سميكا ، وطول المعبد – اذا قسناه من جداره الخارجى الذى يحدد حدوده : ٤٣٣ قدما و ٦ بوصات ، وعرض كل جناح : ١٠٠ قدم و٦ بوصات أما ارتفاع كل جناح من الأجنحة فيبلغ ١٠٣ أقدام •

وساحة المعبد وبهوه المعمد يقومان على ثلاثة وثلاثين عمودا ، وهما ( الساحة والبهو ) يتسمان بالجمال والبهاء ، ويتركان في النفس تأثيرا ، والصالات التى تحاذى اتجاه المحور من الجنوب الى الشمال ، يتلو بعضها بعضا فى نظام مفروض حتى تصل الى قدس الأقداس حيث توجد حتى الآن مصلى القداسة الحجرية التى تعود لأيام آخر فرعون وطنى
national pharaoh

وأخيرا ، يجب أن نلاحظ أن المبنى كله مشيد على نسـق تصاميم قديمة على عهد الملوك البطالمة من سنة ٢٣٧ الى ١٤٢ قبل الميلاد ومن ثم فقد استغرق تشييده خمسـة وتسعين عاما ، وذلك وفقـا لما تشـير اليه النقوش ٠

وبعد أن تفقدنا كل أرجاء المعبد صعدنا الى سطحه المسطح وألقينا نظرة على النيــل والوادى الأخضر وعبر الصحراء التى تبدأ بالقرب من المعبد وعلى ما وراءها من تلال التى تتخذ شكل الأهرامات لقد كان المنظر جميلا ٠

ولان النسور كانت تحلق فوقنا ، فقد وضعت ذبيحة خلف كومة من الدبش وانتظرت فوق سـطح المعبد خلف فتحـات فى سوره حتى تأتى الطيور الجارحة الكبيرة ، ومما يؤسف له أنه لم يأت الا نسور الجيف فأقنعت نفسى بهذه الغنيمة المتواضعة ، فقد كنا فى عجلة لمواصلة الرحلة فى موعدها ، فركبنا عائدين الى باخرتنا بعد أن مررنا بقرية بائسة وسلكنا الطريق نفسه الذى وصلنا للمعبد منه ٠

وما هى الا دقائق حتى واصلت الباخرة ابحارها فى مجرى النيل ، وكانت المناظرة مألوفة متشابهة ، وكانت جبـال صحراء مصر الشرقية ( الجبال العربية ) ذات لون أبيض ضارب للرمادى كما كانت منخفضة غير محددة ، وكانت تقترب من النهر كثيرا كلما تقدمنا ( صوب الجنوب ) فلم تترك بينها وبين النهر سوى شريط ضيق جدا ، وفى بعض الأحيان كان هذا الشريط يختفى تماما ٠

وجبـال الصـحراء الغربية ( الليبية ) منخفضـة أيضا ويميل لونها للصفرة وقد اتخذت أشكالا معقدة غريبة ٠ والى الجنوب من ادفو تقترب كثيرا من مجرى النيل باستمرار ٠

ان الرقعة الخضراء فى هذا الجانب أصبحت ضيقة جدا حيث التربة ممتازة لكنها ــ للأسف ــ مهملة ، وليس ثمة مدن هنا أما القرى فنادرة ٠

ومرت أسراب كبيرة من طيور اللقلق فوق الوادى متجهة شمالا وكانت الطيور الجارحة تحلق عاليا أو تتجمع فوق الصخور ، ودجاجات الماء تملأ الضفتين بين الحين والحين • وبعد الظهر استمتعنا بمنظر جبل السلسلة الجميل Gebel-selseleh من فوق ظهر سفينتنا ، وفى المساء ـ عند غروب الشمس ـ وصلنا للنقطة الشمالية لجزيرة واسعة كثيفة الزروع ، فأبحرت سفينتنا الى الشرق منها، وسرعان ما رأينا معبد كوم امبو الصغير ، الا أن موقعه ممتاز • وهذا المعبد القديم يقع على شاطىء النيل فى موضع مرتفع وشديد الانحدار مغطى بالخضرة • ويمكن رؤية هذا المعبد من مسافة بعيدة وليس من مدن قريبة منه ولا حتى أية تجمعات بشرية ، فهو قائم بين النهر والصحراء التى تتقدم هنا على هيئة هضبة مرتفعة الى حافة الشجيرات النابتة على ضفة النهر • وليس ثمة ما يمكن أن يقال له جبل •

**معبد كوم امبو :**

ولأن الليل كان يزحف ، فقد رسونا الى الأدنى من المعبد : وكان الى جوار سفينتنا دهبية ( سفينة أخرى ) يشغلها أوربيون ، وكان مترجمهم من دالماشيا خبيرا نصحنا أن نذهب بعد تناول العشاء الى المعبد ومعنا عنز نحثها على الثغاء ، ثم نكمن فى انتظار الذئاب ، وأشفعنا قوله بالعمل ، ففى الساعة التاسعة تسلقت مع هويوز الشاطىء المنحدر وتلمسنا طريقنا خلال المعبد المنعزل ، فوجدنا فى جانبه الشرقى عمودا اتخذنا منه غطاء نختبىء خلفه للمراقبة ، وربطنا الماعز ـ التى راحت تثغو ـ على بعد عدة خطوات الى الأمام ، ولبثنا منتظرين نراقب بحذر بالغ طوال ساعتين • لا شىء يتحرك ولو تحركا يسيرا ، كان المرء يحس بالرهبة رغم جمال المناظر ، فالمعبد القديم بممراته العابسة والصحراء الممتدة لا يحد من امتدادها واستوائها شىء سوى بعض البقايا والأحجار ، وقد بسط عليها القمر الأفريقى سناه ـ انه قمر حقا لا كالقمر الأوربى الذى يشبه ضوؤه ضوء المصباح الليلى الشاحب ( السهارة ) ، ففى نور القمر الأفريقى المتألق كنور النهار يمكنك أن ترى أصغر حصاة ، فنور القمر الأفريقى لا يكفى الصياد والرياضى فحسب ، وانما يمكن للفنان أن يرسم ويلاحظ ويتأمل فى الليالى المقمرة •

ولسوء الحظ فان الأوربيين القادمين من الدهبية ( الباخرة المجاورة لباخرتنا ) كانوا يمارسون الصيد بالقرب من مكمننا ورجعوا عائدين متجاوزين المعبد ومعهم دجاجات تصيح كانوا قد أخذوها معهم لجذب الطرائد ، ومن ثم تلاشى أملنا فى صيد ثمين فأسرعنا عائدين لباخرتنا •

ولا يمكن أبدا أن أنسى هذه الليلة المقمرة فى كوم أمبو ( الاسم يعنى تل أمبو ، واسمها الهيروغليفى نوبى Nubi وتعنى مدينة الذهب ، أما الاغريق فأسموها أمبوس (Ombus) ببقايا معبدها ذى الجمال والجلال ، والمطمور الى نصفه فى الرمال ، لا يمكن أن أنسى عاصمة الاقليم الذى حمل فيما بعد اسم أمبيتس Ombites . وهذه المدينة وهذا المعبد كانا مكروهين من سائر المصريين الآخرين ، ففى هذه المدينة كان ست set ( يقابل تيفون فى الأساطير الاغريقية ) يعبد فى أحد أشكاله ( تجسداته ) الرئيسية his chief embodiments لذا فان عديدا من تماثيل التمساح ، وهو الحيوان الدال على هذا الاله ( ست ) ــ موجودة هنا ، كما أنها مذكورة فى الكتابات المنقوشة .

وعند الشروق غادرت سفينتنا كوم أمبو الجميلة متابعة رحلتها الى أسوان . لقد أبقتنا روعة المشاهد على ظهر السفينة ، فقد كانت التلال المنخفضة ذوات التكوينات الجميلة تقترب اقترابا شديدا من ضفتى النهر فى مواضع كثيرة بحيث لا تترك مجالا للزراعة أو تترك مجالا ضيقا . وهنا وهناك متعنا أعيننا برؤية بساتين النخيل الرائعة والشجيرات الكثيفة وخلفها ترتفع الجبال كتلا صخرية وقطعا حجرية مكونة طبقات ذوات طبيعة خاصة .

وكلما اقتربنا من أسوان تغيرت صورة الأرض عما كانت عليه قبل ذلك حول النيل ، وأصبحت المدن أقل ، والقرى أكثر ، ولاحظنا بعض المستوطنات الزنجية Negro لقبيلة أتت من الجنوب ، مندفعة نحو الشمال ( المقصود نحو مصر ) وثمة أكواخ بائسة من القش على شكل الخيام تحت نخيل البلح ونخيل الدوم date and Dom thepan palms . لقد وطن هؤلاء السود أنفسهم فى مناطق خصبة . لقد كانت صورة للحياة الأفريقية الخالصة قدمت من أعماق القارة ، فقد لاحظنا هؤلاء الناس من خلال التلسكوب : كانوا سودا كالفحم ، وكانوا يجيئون ويروحون بين الأشجار الخضراء وهم عراة تماما .

وبدأ منظر الأرض حول ضفاف النيل يتغير كلما اقتربنا من الساعة الحادية عشرة ليصبح أكثر تطرفا وأقل استواء ، فقد بدا النيل أمامنا وكأنما طوقته كتل صخرية جبلية : كتل من الحجارة والألواح من الصخر ردىشى حف النهر ــ الذى أصبح مجراه يضيق شيئا فشيئا ــ من الجانبين . والجبال على الضفة اليمنى ( الشرقية ) أخلت مكانها ليحل محلها سهل متفرد خال ، تتناثر فوقه كتل الصخر ويظهر خلاله بين الحين والحين أشكال مخروطية مثلمة ( غير ملساء ) ، وعلى الضفة الغربية تل مرتفع

بشكل ملحوظ يتغمس سفحه فى مياه النيل ، وفوق قمته مبنى قديم ذو طابع معمارى اسلامى ، وسرعان ما ظهرت النخيل ، ومن ثم الحدائق الخضر التى ترقد فى أحضانها مدينة أسوان الصغيرة المضغوطة بين الصحراء والنيل ·

## جزيرة فيلة وأسوان :

وهنا يتشعب النيل الى شعبتين ، وحيتنا جزيرة فيلة Elephantine – المعروفة بغطائها النباتى المدارى – بابتسامة عند اقترابنا · كانت تحيط بالجزيرة الجذابة دائرة من الحيود الجرانيتية السوداء الغادرة ، وكانت النتوءات الصخرية الحادة تبرز من بين أمواج النيل حولها ، وتلك أول اشارة ( أو دلالة ) للشلالات ( الجنادل ) القادمة ·

صخور ذوات شقوق وصدوع ، وصحراء وعزلة ، جلال فى الملامح ، بهاء فى الألوان بين النهر المندفع ، والتكوينات الصخرية الرائعة المهيبة ، ومدنية اسلامية خالصة حيث يختلط الاسلام (*) وأجناس مختلطة من داخل القارة جنبا الى جنب ، وآثار مصرية عريقة وجزيرة جميلة ذات طابع مدارى – كل أولئك أمامنا فى هذه اللحظة · وحملقنا باعجاب فى المنظر الرائع الذى يمثل المرحلة الأخيرة لرحلتنا ، بالقرب من مدار السرطان ، حافة المنطقة المدارية ·

واتخذت السفينة طريقها ببطء وسط العوائق التى تعترض القناة · وما هى الا دقائق حتى رست عند شاطىء طينى شديد انحداره · وكان معنا فى المرسى باخرة بريد وعدة دهبيات ( بواخر نزهة ) . وبمجرد وصولنا غادرنا سفينتنا لنزور المدينة ونتفقدها تفقدا كاملا · انها – بالتأكيد – من أكثر المواضع تشويقا وجاذبية على مدى رحلتنا النيلية · انها مدينة عربية ذات طابع سامى Semitic غالب حقا فى مبانيها وسكانها ، وواحدة من آخر المراكز التجارية · انها مدينة اسلامية فالاسلام دين الدولة من الناحية الرسمية ، لكن من الناحية الواقعية فاننى أشك فى ذلك بالنسبة لهذه المدينة (*) ·

منازلها مشيدة من طين ولها – تماما – طابع مدن مصر القديمة فالشوارع ضيقة وعفنة · الا أن الشوارع الأقرب للنهر تضم بعض المنازل الأعلى ، وبها سوق جديرة بأن يراها المرء · أما الأحياء الأخرى ( البعيدة

---

(*) يستخدم الارشيدوق كلمة الاسلام فى أكثر من موضع للدلالة على الجنس او العرق وليس مجرد دين ؛ وهذا – كما لا يخفى – غير صحيح – ( المترجم ) ·

نسبيا عن النهر ) فتتكون من مساكن طينية بائسة وبها أركان تتخذ كل الأشكال غير المنتظمة • ويحيط بجزئها الشرقى سور تهدم فى أكثر من جزء من أجزائه وتلتصق به بقايا مقابر اسلامية تشغل منطقة واسعة •

وكان السوق هو أول مكان نتوجه لزيارته • انه طريق محفوف من الجانبين ـ تماما ـ بالزرائب والاصطبلات ، ومسقوف بالألواح الخشبية لحجب الشمس • والتجار فى المحلات عرب بأثوابهم الشرقية الطويلة وعمائمهم • والبشر الذين يتحركون جيئة وذهابا ويحضرون بضائعهم للسوق ويتعرضون لغش الساميين الماكرين Cunning Semite وخداعهم ـ ليسوا شرقيين ولا حتى فلاحين • والبدو أيضا لا وجود لهم هنا ، الناس من جنس أفريقى خالص : كثيرون منهم زنوج negroes ونوبيون داكنو البشرة ، وسلالة الاثيوبيين القدماء والعبابدة والبشا Beshas ، وكل القبائل الصغيرة ذات الأصول الكوشية Kushite .

لقد وصلنا لطرف الشرق القصى ، فهنا يزدهر المكان كمدينة تجارية لنقل المنتجات الأفريقية شمالا من خلال نهر النيل •

والمنتجات الشرقية الأصيلة كتلك التى رأيناها فى الموسكى فى القاهرة غير موجودة هنا ، أما المواد الخام المدارية فمطروحة بكثرة فى محلات ضيقة •

ريش نعام أبيض ورمادى ، قرون الوعل ، جلود الأبقار الوحشية وجلود الغزلان ، وأغطية من جلود النمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ، وبيض ، وفواكه مدارية وصمغ وبهارات وأسلحة أفريقية ، وعصى يستخدمها الجمالون ، وحلى كالتى يلبسها الزنوج وأدوات لملابس النسوة النوبيات ـ مثل خيوط يصنعون منها حبالا منقوعة فى سوائل ذات رائحة بشعة لطرد الذباب ، وقبعات من قش ترتديها القبائل المتبربرة وبعض الأشياء التافهة المختلفة •

ورأيت على أبواب بيوت كثيرة تماسيح صغيرة محنطة ( محشوة ) ومثبتة بالمسامير ، كما رأيت قرودا مستأنسة تجلس عند مدخل بيوت أخرى • وقد اشتريت بنفسى واحدا منها أمتعنا كثيرا وسلانا ، ومما يؤسف له أنه مات بعد ذلك فى القاهرة •

**العبابدة :**

لقد كانت الحياة فى السوق شائقة جدا ، وقد لفت نظرى ـ على نحو خاص ـ العبابدة بمنظرهم المحارب فهم مدججون بالسلاح ملتفون

بأسمالهم القليلة ، وقد صففوا شعورهم بطريقتهم الخاصة التى ذكرناها آنفا .

وراح الجميع ينظرون الينا نظرات وحشية فضولية ، وقد باعنا العرب الماكرون بلؤمهم البارع بضائع أفريقية بأسعار باهظة . لقد ربحوا - بدهاء - من وجودنا بينهم .

وفى ساحة مكشوفة بين المساكن والمرسى رقص العبابدة أمامنا رقصة الحرب . وهذه الرقصة لا تعدو أن تكون قفزا وحشيا هنا وهناك ، يمارسها قوم متوحشون فى أدنى درجات التطور ، والموسيقا المصاحبة لا تزيد عن كونها قرعا مرعبا بنواقيس معدنية ذكرتنى بالصلصلة المصاحبة لرقصات العبيد الزنوج فى مراكش ، لكن الرقص نفسه يشبه الرقص غير المنضبط الذى يمارسه قراصنة منطقة الريف فى الساحل الشمالى الغربى لأفريقيا .

لقد كان العبابدة المحترمون يقفزون بكل ما أوتوا من قوة ويصلون بقفزاتهم الى ارتفاعات لاتصدق، وهم - أثناء ذلك - يصيحون ويصرخون . ويهزون سيوفهم ويدفعون رماحهم بعنف عاليا ، ويضربونها بشدة فى تروسهم الجلدية ، ويقوم الواحد منهم بهجوم غير حقيقى على رفاقه .

لقد كان هؤلاء البشر ( المخلوقات ) ببشراتهم البنية الداكنة وملابسهم القليلة حتى انه ليمكن وصفهم بأنهم أنصاف عراة ، وبشعرهم الذى تتخلله قطع خشبية ، والمستشزر فى كل اتجاه كأنه أشعة ، وبالحلقات المعدنية فى أنوفهم وآذانهم وحول أذرعهم - يبدون وكأنهم صورة خيالية تمثل خليطا وحشيا .

وبعد هذا العرض ركبوا جمالهم بسرعة غير مألوفة ، وقد اشترك الشباب منهم فقط فى هذا العرض ، أما كبار السن فقد وقفوا وقد ظهرت أسنانهم البيض المتألقة من بين شفاههم الداكنة وابتسامة الرضا تشع من وجوههم . وبعد فترة عدنا للباخرة محملين بالبضائع التى اشتريناها وبفيض من الانطباعات الجديدة .

وأثناء تناولنا الافطار حلقت الحدءات بأعداد كبيرة فوق السفينة ، اذ كانت نهمة تبحث عن قطع الخبز الملقاة فى الماء ، وحتى طلقات البنادق لم تستطع ابعاد هذه الطيور النهمة . وبعد انتهاء وجبتنا بدأنا فورا - مرة أخرى - نزهة الى المحاجر التى حققت شهرة منذ الأزمنة القديمة . فركبنا بسرعة ومررنا خلال المدينة ، وعند آخر كوخ بائس بها كانت الصحراء الخالصة فى انتظارنا برمالها البيضاء وانعكاساتها الحارقة .

الوادي عند أسوان عريض لكنه غير مستو وتحيطه التلال حيث أضرحة الأوليـاء •

وهنا أيضا مقابر الخلفاء وبعض الطواحين وثمة بعض شواهد القبور لكنها ـ أى الشواهد ـ بائسة لا تدل على الفخامة ، وقبور الأولياء قبابها تشبه قباب المساجد ، لكنها ـ أى القبور ـ غير مصونة صيانة جيدة •

لقد ركبنا فى الشمس المحرقة على طول الجانب الشمالى ( ؟ ) للوادى العريض خلال المقابر غير المنظمة ، لكنها أكثر جاذبية طبيعية من مقابر القاهرة الواقعة أدنى القلعة • فالتلال الجرداء التى تقترب من الوادى والصحراء ذات الأحجار البيضاء والصخور الصلدة ، والألوان الزاهية التى زاد بهاءها أشـعة شمس الظهـيرة الأفريقية ـ كل أولئك قد طبع المكان بطابعه •

لقد ركبنـا فى الحرارة اللاهبة على طول الجانب الشمالى للوادى العريض خلال مدينة الموتى التى تعج بفوضى هائلة • وبعد برهة أضحت المقابر شيئا فشيئا أكثر تفرقـا وتبـاعدا حتى اختفى كل أثر من عمل الانسان •

ليس من بادرة عشب هنا تسعد العين ، فلا شىء سوى الأحجار العارية والرمال والغبار ، وفى الوقت نفسه فان الصحراء ليست مستوية وانما اتخذت شكل تلال يتلو بعضها بعضا •

وثمة بعض الكتل الجرانيتية ذوات الأشكال المتفردة مما يشـير لقربنا من المحجر • وسرعان ما وصلنا لمنحدر صخرى شاهق ، أدناه مغطى على نحو ما بالأحجار المكسرة حيث توجد مسلة ، وأترك صـديقى برجش يحدثنا عنها وعن أسوان بشكل عام :

« أسوان ( بالمصرية القديمة سوان Suan وباليونانية سين Syene) تمثل آخر مدن مصر صوب الجنوب ، ويسكنهـا الآن العرب والمصريون ويزورها خلق كثير من قبائل الصـــحراء التى تجول فى صحراء مصر الشرقية حتى سواحل البحر الأحمر • وصخور المنطقة الجرانيتية التى تبدأ من هنا مغطاة بكثير من النقوش التى تعود لمختلف الحقب والتى تؤكد بوضوح مرور المسئولين المصريين عبر هذه المناطق • وبناء على أوامر الملوك الفراعنة فان المحاجر الثرية الواقعة الى الجنوب الشرقى من أسوان ( والتى تعرف باسم الجبل الأحمر ) قد عمل بهـــا آلاف العمال راحوا يقطعون منها الأحجار لعمل المسلات والتماثيل والمعابد والألواح الحجرية

المختلفة . وثمة مسلة لم تكتمل مطروحة هنا تنتظر - عبثا - تعليمات منشئها .

ومنذ أيام الفراعنة تعرضت هذه المحاجر للاهمال ، فالمنحدر الصخرى المهشم وكتل الصخر المنزوعة منه نجمل شواهد على حضارة انتهت منذ عهود سحيقة كانت موجودة فى هذه المنطقة منذ آلاف السنين .

وعند مدينة الموتى ( المقابر ) انقسمت مجموعتنا الى قسمين : مجموعة ركبت عائدة للباخرة ، بينما تسلقت أنا مع هويوز تلا متوسط الارتفاع صخريا أجرد تماما يحيط بالوادى قرب أسوان .

وعلى قمة التل يقع قبر أحد الأولياء ( الشيوخ ) على شكل مبنى له عقود دائرية ، وكنا قد وضعنا فى وقت سابق ذبيحة ( طعما ) الى جواره لجلب النسور التى تحلق عاليا .

وكنا فى موقع ممتاز ، وما هى الا دقائق حتى راحت الحدءات ونسور الجيف تأكل فى الخروف الميت ، ولم تصل الجوارح الكبيرة فاكتفيت باطلاق بندقيتى على واحد من نسور الجيف فلم يكن لدينا الوقت الكافى للانتظار .

وخرجنا من القبور العابسة فاستمتعت عيوننا بمنظر سنى تماما ، فالى الشمال - أدنى منا مباشرة - يقع وادى النيل الضيق تحيطه الجبال ، فالنهر يشق طريقه خلال شقوق الجنادل ( الشلالات ) شقا ، وخلفنا جزيرة فيلة المدارية وأسوان ذات الموقع الجميل ، ومدينة الموتى العابسة ، وحول كل ذلك - غير بعيد عنه - ما لا حصر له من الجبال والوديان والسهول والهضاب والتلال المنعزلة الجرداء وصحراء الرمال الحقيقية - كل أولئك قد لمسته أشعة الشمس الحمراء ، فغدا أبيض محمرا ، لا يقطع هذا اللون ويحول دون استمراره سوى بعض الصخور البرتقالية أو الجرانيتية السوداء ، هنا وهناك ، ومن فوقنا سماء زرقاء خالصة الزرقة رائقة كالبلور لا تعكرها سحابة . وعدنا بسرعة الى أسوان .

وسأحسن صنعا فأترك برجش باشا يحدثنا عن جزيرة فيلة :

« فيلة بمقياسها الذى يعود للعصر الرومانى ، وبآثارها التى تعود لبواكير التاريخ المصرى - لا يزورها المسافرون الآن الا للاستمتاع لموقعها الجميل المتميز عند مدخل بوابة الجنادل ( الشلالات ) ، فقد ولت عظمتها السابقة منذ اندمجت عاصمة منطقة النوبة - التى كانت قائمة فوق الجزيرة - بما فيها من تماثيل ومعابد :

.. ففى هذه البقعة كانت توجد حتى العصر الرومانى حامية قوية ، كان منوطا بها حماية المنطقة من الغارات القادمة من الجنوب • والسور القديم فى الطريق من أسوان الى جزيرة فيلة شيد للغرض نفسه ، فهو بمثابة متاريس ضد غارات السلب القادمة من الجنوب ، وبقايا هذا السور – المطمور نصفه فى الرمال – يمكن حتى الآن تتبعها » •

وغادرت مع هويوز – مرة أخرى – سفينتنا ، فقد كانت الشمس تغرب وماجت المنطقة فى فيض من الألوان الجميلة •

وقادنا رجل نوبى فى ثوب أبيض ويحمل بندقية طويلة ، ومعروف كصياد فى أسوان – قادنا خلال المدينة حتى وصل بنا الى أبعد منازلها ، ونصحنا أن نكمن هناك لدقائق قليلة لأن الحيوانات المفترســة تنتظر طرائدها خارج أسوان كل ليلة بعيد الغروب •

الكلاب تنبح ، والأطفال يصرخون ، وجماعة من العبابدة يصيحون وهم فى طريقهم لمساكنهم فى الصحراء ، ورغم كل ذلك ظهر واحد من حيوانات ابن آوي على تل صغير واختفى سريعا بين الأحجار • ولأن حمرة الشفق آخذة فى التلاشى فقد أسرعنا داخل مدينة الموتى ( المقابر ) ، كان ابن آوى يجرى غير بعيد فأطلقت بندقيتى فتمدد • وبالقرب من سفح التل – الذى أطلقت فوق قمته بندقيتى بعد الظهر فأصبت واحدا من نسور الجيف – وغير بعيد عن آخر القبور ، يوجد حوض قديم تحفه التلال الرملية فى واد صغير •

وكنا قد أمرنا بوضع طعم ( ذبيحة أو حيوان ميت ) فى هذا المكان ، وكنا فى موضع مجوف ، كان القمر مرتفعا يغمر بنوره المنظر الجليل المخيف ، فقد كان الصمت والموت يحكمان المكان ، صحراء ومقابر شيوخ ( أولياء ) قدماء وقباب وشواهد حزينة • ليس من صوت يقطع حبـل الصمت سوى نباح كلاب القرية وعواء حيوانات ابن آوى •

لقد مكثنا – بشق الأنفس – حوالى نصف الساعة فى هذا المكمن غير المريح فأحسست بحفيف حيوان يأتى نحوى ، ورأيته يتحرك كالظل أكثر من مرة • فلما اقترب وظهر شكله الخارجى صوبت بالدقة التى أستطيعها وأطلقت لأجرب حظى ، فكان صوت عواء مرير حزين هو اجابة طلقتى ، فلما أسرعت اليه وجدت أننى أصبت ذئبا يبذل قصارى جهده – بألم – ليزحف بعيدا ، فألقمت الحيوان المتين العنيد طلقة أخرى فانطرح أرضا •

وحملته فى حقيبتى وسرت نحو رفيقى مائة خطوة فقد كان يكمن فى مكان آخر ، لقد كان الذئب الذى يبدو وكأنه مات – ثقيلا ، وكانت حرارة الليل شديدة ، فطرحت حملى وانتظرت حتى يأتينى الصياد النوبى •

وما هى الا ثوان بعد أن طرحت حملى على الأرض حتى تحرك الذئب مرة أخرى وناضل حتى وقف على قدميه لكن طلقة ثالثة أخمدته للأبد •

وسرنا الآن بغنيمتنا الكبيرة المكونة من ذئب وواحد من حيوانات ابن آوى ، وعدنا للسفينة حيث تناولنا عشاءنا ، أما بالنسبة للدوق الكبير واشنباخر فقد كمنا فى مبنى على شكل قبة فى الجانب الآخر من المقابر ، لكنهما لم يحققا ــ لسوء الحظ ــ نجاحا •

وفى الثامن من شهر مارس بدأنا فى الساعة السابعة صباحا ، فركب معظمنا حميرا ، أما أنا وهوبوز ففضلنا أن نجرب ركوب الجمال ، ودرنا حول أسوان ووصلنا سالكين طريقا موجزا ــ عبر المقابر ــ الى الصحراء • كانت الوديان والتلال والرمال والصخور والمسيلات تتعاقب تعاقبا بعث فينا البهجة •

وأدى بنا مسيل عميق الى الوادى الضيق للنيل الذى تحفه تلال مختلفة خشنة على جوانبها كتل جرانيتية سوداء ، ومن موقع وقفنا فيه ــ كيفما اتفق ــ طالعت عيوننا منظرا رائعا : كتل صخرية داكنة عابسة ، النهر يندفع بسرعة خلال المضايق ، جزيرة فيلة الخضراء ، والبقايا الشامخة لمعابدها ، والى الجنوب يصبح الوادى عريضا وعلى ضفتيه زروع كثيفة • كل هذا تجلى أمامنا فى لحظة • اننا فى النوبة ، وبالقرب من الجزيرة تقع قرية نوبية بائسة من أكواخ طينية • انها قرية شلال Shallal ، وخرج كل أهل القرية بثيابهم كاملة أو بثيابهم الداخلية ــ من مساكنهم البائسة •

ومررنا على طول صخور داكنة وأشجار جميز حزينة ونخيل حتى وصلنا لسهل صغير فوجدنا بعض القوارب ، وثمة بعض الجنود النوبيين فى ثيابهم الرسمية يقفون للحراسة ، وكانت ملابسهم بيضاء خالصة ومصممة تصميما أوروبيا • وللوهلة الأولى سعدنا بقربنا من جزيرة فيلة الجميلة التى قدمت لنا نفسها محاطة بكتل صخرية ملونة تنبثق من الماء ، وركبنا قاربا كبيرا مرتفعة جوانبه وجدف بنا عدد من النوبيين راحوا يغنون وعبروا بنا للجزيرة •

أما شكل القارب فقديم وربما يعود تصميمه الى أيام كليوباترا ، كانت مقصورة القارب بأرائكها الناعمة وستائرها الحمراء التى تحمى من الشمس قد جعلتنا نضحك من هذا القارب الذى يقوم بدور البارجة النيلية •

وفى غضون دقائق قليلة وصلنا لشاطىء الجزيرة المنحدر وأسرعنا صاعدين المنحدر ـ بشجيراته الكثيفة ـ نحو المعبد الجميل •

ومبـاني المعبد في هذه الجزيرة الجميلة التى كانت معروفة لدى المصريين القدماء باسم بيلاك Pilak ـ تعد حديثة نسـبيا ، فقد تم تشييدها فى ظل البطالة والرومان على نسق التصميمات القديمة ، وقد تم تشييد المراسى الحجرية للسفن فى الجزيرة بطريقة تنبىء عن معـرفة عملية بطبيعة النهر ( عمارة النهر river architecture) ـ خاصة أن الجزيرة غير بعيدة عن المسـاقط المائية waterfalls والتيـارات المائية العنيفة • ومع أن أبنية المعابد فى الجزيرة ذات قيمة غير عالية ـ على نحو ما ، الا أن تأثيرها الكلى وصفوف أعمدتها ، ومبانيها ذوات الصحون ( الباحات المكشوفة ) ، وسط بقايا المنازل المتهدمة والنخيل والشجر الأخضر الجميل ـ كل ذلك حباها جمالا لا يمكن التعبير عنه • فسطوح المعبد ترتفع فى تناقض مدهش مع الكتل الصخرية الداكنة التى تحيط فى هذا الموضع بالجانب الآخر من مجرى النهر • وفوقنا القبة السماوية الزرقاء فى بلاد الجنوب هذه بنورها المتألق الذى يغمر المشهد كله • كل شىء من بقايا العالم القديم لم ينمح تماما ـ يموج فى النور •

راعية بلاد النوبة ـ الربة ايزيس Isis ـ كانت تحظى بقداسة خاصة فى هذا المكان • فالمصريون والنوبيون ـ على سواء ـ كانوا يضحون على مذبحها ويوقرونها • ويقدم معبدهـا برسومه المتألقة على الجدران والأعمدة ـ حتى الآن ـ فكرة واضحة عن هذه العبادة ـ بألوان زاهية ! •

وعندما هجرت معابد ايزيس وغمرها النسيان ، شيدت المسيحية الوليدة هنا احدى أقدم كنائسها وكان البرابرة النوبيون Nubian Barabras يزورونها ( يحجون اليها ) بحماسة دينية • أما الآن فانهم قد هجروا عقيدة آبائهم المسيحية وذكرى عقيدتهم الأولى التى لم يبق لها أثر الا فى كلمة من كلمـات لغتهم وهى كلمة كيرى Kiraye ( باليونانية Kyriake ) وتعنى يوم الأحد •

فالبرابرة ( النوبيون ) أصبحوا الآن مسلمين بكل ما فى الكلمة من معنى ، لكن موطنهم القديم ـ وجزيرة فيلة فى وسطه ـ بقى كما هو •

وبعد أن زرنا كل أرجاء المعبد اتجهنا الى أقصى الطرف الجنوبى للجزيرة عبر بقايا كثير من الجدران والأسوار القديمة •

وفى الطرف الجنوبى للجزيرة ثمة درجات من أحجار داكنة تفضى للنهر ، من بينها منبسط ( حجر منبسط ) يعود للتاريخ المصرى القديم ، وثمة حشائش طويلة وشجيرات كثيفة تنمو حول هذا الحجر الداكن ·

وبقلب حزين آسف تسلقت ـ بجهد ـ آخر حدود المنحدر ـ وألقيت نظرة على النيل المقدس والوادى العريض وحقول النوبة · لقد وصلنا لآخر نقطة قررناها لرحلتنا فى هذه الأنحاء صوب الجنوب ·

مدار السرطان ، حدود النوبة ، والكوكبة الجنوبية Southern Cross ، والقبة السماوية الزرقاء الصافية ـ كل أولئك كان يغرينا بالاستمرار جنوبا لكن كان علينا أن نعود متجهين شمالا ، فعدنا راجعين لعبد ايزيس ، وقلوبنا مثقلة حزينة ·

★★★

# تعليقات المترجم علـى الفصل الرابع

(١) عالم ألمانى فى الآثار المصرية ، عمل ناظرا لمدرسة اللسـان المصرى القـديم ( اللغة الهيروغليفية ) التى أنشئت سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٦ ، وقد تخرج فى هذه المدرسة بعض علماء الآثار منهم أحمد كمال باشا ، وقد أثرى برجش باشا هذه الرحلة بترجمة كثير من النصوص الأثرية المهمة ٠

عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٢٠٥ ٠

(٢) نجد فى كتاب وصف مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية دراسة مفصلة عن الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين ، وفيما يلى موجز لهذه الآلات كما وردت فى الترجمة العربية التى قام عليها الأستاذ زهير الشايب ( ج ٩ ) ٠

ـ العود :

قدم بعض علماء الحملة الفرنسية دراسة تفصيلية عنه ذات طابع تاريخى وفنى ، ورغم الاختلاف فى التفاصيل فلا نجدها تختلف عن الآلة المعروفة بيننا الآن بهذا الاسم ذاته راجع التفاصيل في ترجمة زهير الشايب ج ٩ ( صص ١٥ ـ ٤٠ ) ٠

ـ الطنبور التركى الكبير :

يطلق اسم الطنبور على آلة موسيقية تشبه الماندولين فى أوربا ، وأوتار الطنبور معدنية ولها ملامس ثابتة تتكون من ثقوب عدة ويستخدم العازفون عليها ريشـة عزف من قطعة خشب ملساء أو ريشة نسر جافة ـ ( ص ٤٢ ) ٠

ـ الطنبور الشرقى :

وصلت هذه الآلة لمصر ـ غالبا ـ من آسيا ، وربما من فارس بالتحديد وهو يشـبه الكمثرى ويميل الى التسطح بعض الشىء ، وبها ٢١ ملمسا ، وخمسة أوتار ثلاثة منها من النحاس الأصفر واثنان من الصلب ( صص ٦٣ـ٧٢) ٠

ـ الطنبور البلغارى وهى بالتمام الماندولين البلغـارى ، وهى آلة تغطى بكثير من الزخارف ، وهو أصغر حجما من الطنبور التركى الكبير ، والطمبور الشرقى ، وله ١٢ ملمسا من أوتار معى الحيوان ، ولها ثلاثة أوتار من الصلب ووتر من النحاس ـ ( صص ٧٥ ـ ٧٧ ) ٠

ـ طنبور البزرك ( بفتح الباء والراء ) :

وكلمة بزرك تعنى بالفارسية الكبير ، لذا فهذه الآلة بمثابة ماندولين كبير فارسى ، وهى أكثر تعقيدا من الطنبور الشرقى وأكثر بساطة من الطنبور التركى الكبير ، وله ستة أوتاد ( عصافير ) وستة أوتار وسبعة وثلاثون ملمسا وهو يشبه نصف ثمرة الكمثرى ( ص ٨١ ) ٠

ـ طنبور البغلمة ( بفتح الباء ) وهو مصغر الطنبور البرزك ( ص ٧٩١ ) ٠

ـ الكمنجة الرومى ( اليونانى ) ، وهى الكمان المعروفة Violon ٠

ـ القانون ٠

ـ السنطير ( وتكتب بالصاد ايضا ) ، وهى آلة يشيع استخدامها بين المسيحيين واليهود ، ويتكون من صندوق مسطح مصنوع من الخشب على شكل معين وله جانبان مائلان وله وتران من معدن ينقران بعصاتين صغيرتين من الخشب ـ ( صص ١٤٢ ـ ١٤٣ ) ٠

ـ الكمنجة العجوز ، والكمنجة الفرخ أو الصغيرة ـ ( صص ١٥٠ ـ ١٧٧ ) ٠

ـ ربابة الشاعر ( بوتر واحد ) وربابة المغنى ( بوترين ) ( ص ١٨٢ ) ٠

ـ الكيصار ( القيثارة الأثيوبية ) ، وهى منتشرة بين الأثيوبيين والنوبيين الذين يعملون كبوابين وحراس للمحال ٠ وتسمى أحيانا جيزركة فى النوبة ( صص ١٩٥ـ٢٢٠) ٠

ـ المزمار المصرى (صص ٢٢٥ـ٢٤٧ ) ٠

ـ البوق ( أو النفير ) صص ( ٢٦٣ ـ ٢٧٥ ) ٠

ـ الناى المصرى ذو المنقار ( شبابة ) ( صص ٢٧٥ ـ ٢٨٠ ) ٠

ـ مزامير القرب ـ ( ص ٣٣٦ ) ٠

ـ آلات الايقاع الصاخبة ، وسنطيل العرض فى هذه الفقرة من الحاشية لأن الآلات المذكورة هنا هى التى أشار اليها الأمير عند زيارته لفرق الدراويش أو الطرق الصوفية ، الصلاصل أو الجلاجل أو الصنوج والضارب على الصنوج يسمونه ( صناج ) ، وتستخدم الراقصات المصريات الكاسات والمفرد كاس وتسمى أيضا الصاجات ، وهناك الدفوف وهو على أنواع منها الطار والرق ، وثمة سبعة أنواع من الطبل يهمنا منها طبلة المسحر وطبلة المشيخ وتسمى طبلة المسحر باسم الباز ويتم الضرب عليها بعصى صغيرة من الخشب ويسعى كثير من الطرق الصوفية ( طوائف الفقرا ) الى تنظيم حركاتهم ورقصاتهم أو أذكارهم على صوت هذه الآلة ، وهو ما تفعله على سبيل المثال طرق الملاوية ( نسبة الى جلال الدين الملاوى من ملاو بالمغرب ) والشناوية ( طريقة أحمد البدوى ) والعلوانية ( يضربون أنفسهم بالسكاكين والأحجار فى مناسبات بعينها ) والبرهامية ( طريقة ابراهيم الدسوقى ) والسعدية ( نسبة الى سعد الدين الشيباوى من العراق ) والخلوتية ( اسسها أبو اليزيد البرهامى ) ٠٠٠٠ الخ ٠

(٣) لا يختلف رأى ردلف فى الراقصات المصريات عن رأى علماء الحملة الفرنسية ، يقول فيوتو أحد علماء الحملة ، « ٠٠٠ انهن يقمن بالغناء بمصاحبة نوع من الدفوف تسمى بالعربية : طار أو دربكة ٠٠٠ والراقصات العموميات يسمون بالغوازى ، ويظهرن فى الأماكن المطروقة كثيرا ٠٠٠ ورقصاتهن لا تقيم سوى مشاهد مثيرة للغاية ٠٠٠ ومن العسير أن نصف هذا النوع من الرقص بلغتنا فى دقة فلا أحد يستطيع أن يتخيل مدى فحش حركاته ، ويعبر هذا الرقص الذى لا تكاد تسهم فيه سوى القدمين وأعلى الجسم بأكبر التبذلات جسارة ـ عن الانفعالات الجامحة التى يمكن أن تخدثها الشهوة فى النفس ، والأفعال التى يمكن أن تؤدى الى تصاعد عاطفة شبقة ودغدغة بالغة القوة لرغبة حسية ملحة ٠٠٠ وتكاد تحاكى تشنجات الوصال ٠٠٠ وتمثل كل ما فى الخلاعة من عهر ٠٠٠ انه

بمثابة تمثيل صامت خليع ·· ويصاحب الرقص رنات الأجراس النوبية ·· وتمسك الراقصات بالصناج بين أصابعهن ··· » ·

وصف مصر ج ٨ ص ١٥٥ ـ ١٥٨ ·

(٤) تشير كتب التاريخ القديم المتداولة الى أن سيزوستريس هو سنوسرت الثالث ، من الأسرة ١٢ ، وانه أمن حدود مصر الجنوبية حتى ما وراء الجندل الثانى وأسس لذلك قلعتى سمنة وقمنة ، وأنه طهر مجرى النيل الى منطقة الجندل الأول لييسر ابحار السفن وانه وصل النيل بالبحر الأحمر بقناة عرفت باسمه « قناة سنوسرت » وأسماها اليونانيون قناة سيزوستريس وهو اسم سنوسرت باليونانية ·

(٥) يقول دى بوا أحد علماء الحملة الفرنسية بصدد حديثه عن القصير وما حولها : « · · · ولا يزال يعيش فى هذه المنطقة ( الصحراء الشرقية ) شعب يستحق ـ بسبب تشابهه مع سكان الكهوف القدامى ـ أن ندخل فى بعض التفاصيل عن عاداته وتقاليده ، ونقصد بهذه المجموعة البشرية : العبابدة ، وهم أبناء قبيلة جوابة تشغل الجبال الواقعة الى الشرق من النيل ، فى جنوب وادى القصير وهى منطقة كانت تعرف فيما مضى باسم « سكان الكهوف » Troglody tique . وتمتلك هذه القبيلة كذلك عدة قرى على الشط الأيمن ( الشرقى ) للنيل أهمها دراو ، والشيخ عامر ، والرديسية · ويدفع كل التجار الذين يمارسون تجارة القصير الى العبابدة مبلغ ٢٣ مدينى عن الجمل المحمل ومكيالا صغيرا ( ١/٢٤ من الأردب ) من القمح أو الفول أو الدقيق أو الشعير ـ حسبما يحمل الجمل ـ كما يأخذ العبابدة عينا ١/٢٠ من الخراف والماعز والدجاج والمواد التموينية الأخرى من تلك الأنواع التى تصل الى القصير ، وقد أقام هؤلاء مخيمهم الذى نصبوه فى ضواحى هذه المدينة ( القصير ) بقصد منع أى نوع من التهرب من الاتاوة ، وكان العبابدة ملزمين فى مقابل هذا بالسهر على تأمين الطريق وحماية القوافل ، ولكنهم لا يتعهدون مطلقا بالرد على الحوادث وبخاصة تلك التى يمكن أن تأتى من جانب عربان الحويطات الذين ينتشرون فى هذه الصحراوات حتى قلزم السويس ، وتدور بين هاتين القبيلتين ( العبابدة والحويطات ) حرب مستمرة منذ زمان لا تعيه الذاكرة ·

وفى وقت معين عندما يشكل القمح والمواد الغذائية الأخرى التى يقدمها التجار أكواما هائلة وسط المخيم ، يكثر عدد العبابدة الذين يجتمعون لتقسيمها بينهم ولا يخلو الأمر من مشاحنات ·

وعدد الخيول لديهم قليل ، فهم لا يركبون الا الهجين ··· ولا تشبه سروجهم السروج المستخدمة فى مصر اذ تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة بسيور من جلد ··· وفى العادة يبسط فوقه فرو خروف ·· ومن فوق هذه السروج لا تتدلى ساقا الراكب كما يحدث للفارس المتطى حصانا ، ولكنه يكون جالسا وساقاه ممتدتان للأمام ؛ تستقران أو تتشابكان فوق رقبة الحصان · ويربى العبابدة عددا هائلا من الجمال ··· والعبابدة مسلمون ، ولكن البلاد التى يقطنونها والحياة النشطة التى يحيونها على الدوام لا تمكنهم من اتباع كل مبادىء الاسلام بدقة واخلاص ··· ويتباهى العبابدة بأنهم شعب محارب ، فاذا سألت أى واحد منهم عن نفسه بادر قائلا : أنا جندى ··· ويزعمون أنه يمكنهم تجهيز ألفى رجل رجل تحت السلاح وقد يكون فى هذا مبالغة ·

··· ويختلف العبابدة اختلافا تاما فى تقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم وبنيتهم عن القبائل العربية التى تشغل ـ مثلهم الصحراوات التى تحيط بمصر ، فالعربان بيض البشرة

يحلقون رؤوسهم ويرتدون العمامة ولديهم أسلحة نارية ورماح يبلغ طول الواحد منها من أربعة الى خمسة امتار وسيوف مقوسة ··· أما العبابدة فسود البشرة لكن ملامحهم تتشابه كثيرا مع ملامح الأوربيين وشعرهم جعد بشكل طبيعى لكنه ليس كوبر الصوف وهم يحتفظون به طويلا يتدلى على اكتافهم اذ هم لا يحلقون رؤوسهم مطلقا ، ( لم يشر الى قطع الخشب فى رؤوسهم كما تحدث ردولف ، ولعل ردولف رأى طائفة منهم على هذا النحو ) وتنحصر ملابسهم فى قطعة من القماش يعقدونها أعلى الكليتين ولا تتدلى لأبعد من منتصف الفخذين ··· ويدهنون أجسامهم بالدهون ويضعون كمية منه فوق رءوسهم ·· وشيوخهم هم وحدهم الذين يرتدون العمامة فى بعض الأحيان بالاضافة الى قميص يستخدمونه أحيانا بمثابة ثوب · وليست لدى العبابدة أسلحة نارية على الاطلاق ، ويتسلح الرجل منهم برمحين يبلغ طول الواحد منهما ١٦٠ الى ١٨٠ سم وبسيف مستقيم ذى حدين وبسكين مقوسة يعلقها الواحد منهم فى ذراعه اليسرى ويحمل ترساً مستديراً من جلد الفيل يبلغ قطرها ما بين ٦٠ و ٧٠ سم · ويعرف العبابدة اللغة العربية بالاضافة الى لغتهم الخاصة ، وربما كان العبابدة منحدرين من أصلاب تلك الشعوب الجوالة التى كانت تمتلك هذه المناطق فى الزمن القديم والتى حدثنا عنها المؤلفون القدامى مثل استرابون وديودور الصقلى ( هذا الاستثناء يناقض ما ذكره ردولف وذكر أنه سمعه منهم وهو انهم كوشيون من أصول آسيوية ) فالصفات التى ذكرها المؤلفون القدامى تنطبق عليهم ، فقد وصفوهم بانهم سكان الكهوف وأنهم كانوا يحملون من السلاح دروعا مستديرة من الجلد ورماحا وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والكليتين ، كما كانوا يمارسون الختان . وأخيرا فقد كانت لهم طريقة لدفن الموتى خاصة بهم ، فقد كانوا يلقون الحجاره فوق الجثة حتى تغطيها بشكل تام ، ولازال العبابدة حتى اليوم يمارسون الطريقة نفسها فى الدفن ·· وقد لفت البعض نظرى فى وادى القصير الى أكوام عديدة من الحجارة كانت هى مقابر لبعض العبابدة الذين قتلوا فى المعارك ، ورأيت أيضا فى منتصف الطريق ـ على بعد ثلاثة فراسخ من القصير ـ تلالا من الحجارة ، وقيل لى انه من المحتمل ان هذه الأحجار تغطى جثة أحد أثرياء التجار قتله العربان ···· ولم نشاهد أية خيمة فى معسكر العبابدة بالقرب من القصير . ففى أثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس يضع الرجل منهم سرج جمله ويقيم تجاهه على مسافة معينة حجرا يماثل السرج ـ فى الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعامتين سيفه ورماحه ثم يبسط فوق ذلك كله جلد خروف · وهكذا ينهض البيت الذى قلما يبلغ ارتفاعه فى الواقع اكثر من أربعة أو خمسة ديسيمترات ، ولا يستطيع الرجل بداخله الا أن يكون راقدا ، ويحتمى آخرون من الشمس فى كهوف صغيرة كانوا قد حفروها على منحدر الجبل ، ولم أشاهد فى هذا المعسكر نساء على الاطلاق ، ومن المحتمل ـ الى حد كبير ـ أن تكون الأكواخ والخيام فى المعسكرات التى توجد بها النساء أكثر من تلك اتساعا ···· وليس للرقص عند العبابدة أية علاقة بذلك الرقص الشهوانى الخليع لدى المصريين ، فهو يتخذ على الدوام صورة المعارك والمبارزات ، فيتسلح الراقصون بالرماح والدروع ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عديدة بخفة وقوة وتتجلى المهارة فى الدفاع عن الدرع وتحل الهزيمة بمن يترك درعه تلمس · وفى كثير من الأحيان يندفع أحد الراقصين نحو واحد من المشاهدين ويضع طرف سيفه على صدره مطلقا صيحة عالية ينبغى أن يجيب عليها بكلمة : عبابدة ! وعندئذ يبتعد الراقص عنه ويواصل رقصه ···· » ·

وصف مصر ، ترجمة زهير الشايب ج ٢ ، صص ٢٥١ـ٢٥٦ ·

(٦) عن البرك التى يتحـدث عنهـا ردولف فى هـذا الموضع وفى مواضع اخرى ، يورد علماء الحملة الفرنسية أن نظام الرى المصرى القائم على الغمر اثناء الفيضان . وعلى التحكم فى توزيع مياهه ـ أى الفيضان ـ من خلال سلسلة من الجسور الترابية ٠ يؤدى الى تكوين سلسلة من البرك مع انحدار النهر ، وبعـد انحسار مياه الفيضان تظل بعض هذه البرك أو التجمعات المائية فى الأماكن الأكثر انخفاضا أو فى الأماكن ذات التربة غير المسامية التى لا تسمح بتسرب المياه ٠

انظر تفصيل ذلك في دراسة ب٠س٠ جيرار فى كتاب وصف مصر الآنف ذكره . ترجمة زهير الشايب جـ ٤ ص ١٥ ٠

(٧) الكاب الحالية بالقرب من ادفو بمحافظة قنا ، واسمها القديم نخب ، وكانت عاصمة لملكة الوجه القبلى أو مملكة الجنوب قبل أن يوحد مينا ( نارمر أو نعرمر ) مصر فى مملكة واحدة وكان شعارها زهرة اللوتس ، ولون تاج ملكها أبيض ٠

# الفصل الخامس

**من فيله الى أسيوط ـ نظرة على أسوان ـ النوبيون ـ ارتطام بقاع النيل ـ كوم الأمير ـ الكاب ـ كلاب مصر ـ أرمنت ـ الوصول للأقصر ـ مقابر الملوك ـ نقوش يقرؤها برجش ـ قنا ـ سوهاج ـ الى أسيوط ـ ركوب القطار من أسيوط ـ الوصول للبدرشين ـ منف وحديث أثرى ـ عن الأهرامات وأبى الهول ـ خلاف مع أغا ( طواشى ) فظ ـ وعدنا للقاهرة الجميلة ـ رسوم الفنان بوسنجر ـ تعليقات المترجم ·**

تناولنا افطارنا ـ الذى جلبناه معنا ـ فى أحد الأجنحة القديمة للمعبد الذى كان لا يزال محتفظا برونقه القديم ، ويقع جناح المعبد هذا على جسر مرتفع ، وثمة شرفة أمامه ترتفع شامخة الى أعلى من مستوى النهر ذى الأمواج التى تخللها الزبد ·

لقد استمتعنا بالقاء نظرة من أعلى على جمال فائق غير مألوف ، وذلك من خلال بوابة احدى القاعات ذات الأعمدة · ان الصحراء تنشد أشعارا رائعة لا يمكن وصف روعتها ، ويشع عبق التاريخ من بقايا مضت عليها عصور سحيقة من جزيرة ذات خضرة بهية تقبع وسط المجرى المقدس · ان فيلة صورة لا يمكن أن تنسى وانما تقبع للأبد ـ كبقعة نور ـ فى الذاكرة ·

لقد هبطنا من المعبد الى الشاطىء واتخذنا سبيلنا فى النهر تجاه الجنادل فى قارب قديم طرازه ، وصففناه لتونا · وظللنا لفترة نتأمل الجزيرة الصخرية والجرانيت الأسود والنباتات المزهرة ، والمعبد الشامخ ، وغنى المجدفون ذوو البشرة الداكنة أغانى حزينة تشكل تكاملا هارمونيا مع عظمة المنظر المثير للعاطفة ·

وقبل أن نصل بالفعل للجنادل التى تقسم النهر الى مجار متعددة رسونا بقاربنا وسرنا على طول الشاطىء الصخرى حتى وصلنا لبقعة يمكننا منها أن نلقى نظرة على الصخور الشامخة والمياه المتلاطمة أمواجها ، ولا تسبب هذه الجنادل شلالات وانما منحدرات تتسبب فى تدفق المياه تدفقا سريعا rapids · ان آلاف الجزر الصخرية الصغيرة والجروف

Cliffs • والحيود riffs تملأ مجرى النهر لأكثر من كيلو متر ، ويبدو النهر ــ وكل ذلك يعترض طريقه ــ يرغي ويزبد ويزأر وهو يشق طريقه ، انه بلا شك منظر مهيب يزيد من جماله ذلك اللون الأسود وأشكال الحيود والمخاضات بين الصخور التي ترتفع بين المياه ذات الزبد الأبيض ، انه لأمر شائق أيضا أن ترى النيل الوديع الهادىء قد تحول في هذه المنطقة من المجرى الى نهر جبلي عنيف •

**النوبيـــون :**

وفي اللحظة التي وصـــلنا فيها الى أفضل نقطة تمكننا من رؤية المشهد ، ظهر عدد من النوبيين العراة وقفزوا بين الأمواج متجنبين الصخور وألقوا بأنفسهم بين أكثر الأمواج صخبا وأشد التيارات سرعة • وفي ثوان قليلة وصلوا للشـاطىء وكأنهم سـهام انطلقت من أقواسها ، ثم زحفوا خارجين من الماء ليصلوا الينا طالبين البقشيش وهم يقطرون ماء وقد أحدثوا جلبة وصخبا • وعدنا للقارب وجدفنا مسافة قصيرة صاعدين في النهر ثم ركبنا الحمير التي كانت في انتظارنا وعدنا الى أسوان من الطريق نفسه الذي قدمنا منه صباحا •

.. استغرقت الرحلة طوال النهار ، ولم نصل الى باخرتنا الا قبيل الغروب فتناولنا غداءنا ، وبعد ذلك ذهبت أنا وهويوز Hoyos ــ مرة أخرى ــ عند الشفق عند مواضع القنص التي كنا فيها البارحة • وقد اضطرنا مساعد الصيد التابع لي لذلك لأننا عندما كنا في فيله استنتج وجود ضباع ــ عند ملاحظته لآثارها حول بقايا بعض الجيف •

كان الليل لطيفا واقترحت ألا نطلق النار على أية طريدة أقل من ضبع ، فلننتظر اذن حتى تظهر الضباع حتى لو قضينا شطرا طويلا من الليل • وظهرت بعض حيوانات ابن آوى فتركناها تمر بلا ازعاج منا وبينما كان منتصف الليل يزحف مقتربا ــ وكنت أخوض معركة شرسة مقاوما النوم ــ رأيت بفضل نور القمر الساطع بعض البشر يزحفون غير بعيد عن مكمني ، وسرعان ما سمعت بعد ذلك عدة طلقات قوقأة ( بفتح القاف وتسكين الواو ) الدجاج ــ ذلك الصوت المألوف • لقد وقعت دجاجات في شرك هؤلاء البشر الزاحفين •

والآن لقد أخلت هذه الضجة بما يتطلبه قنص الضباع من هدوء وسكون كاملين . وبدلا من أن أضيع وقتي هباء رجعت الى مقر اقامتي وقابلت المترجم بولووتش Paulowich لقاء عابرا ، وكان لسوء الحظ مع البارون سكيندورف Seckendorf في البقعة نفسـها التي كنت فيها •

وكان هويوز Hoyos قد قتل ابن آوى وجرح آخر في مكمنه القريب من المدينة . كما أن كـلا من اللوق الـكبير ، وايشـنباشر Eschenbacher قـد أحاطت بهما حيـوانات ابن آوى وهي تعـوى • وحدث هذا في الوقت نفسه ، فاضطر كل واحد منهما للانطراح أرضا بشكل غير ملائم لاطلاق النار • وبينما كنت عائدا في منتصف الليل تمكنت من القاء نظرة على مدينة أسوان ، ونهر النيل وجزيرة فيله • انه منظر رائع في حاجة الى ريشة فنان ، لقد بدا المنظر — في فيض نور القمر المتألق السحري — لا ينسى •

## ارتطام في قاع النيل :

وفي الساعة الثامنة صباح اليوم التاسع من شـهر مارس غادرت السفينة البخارية أسوان • ان هذه المدينة الواقعة وسط أفريقيا ، والمتسمة بالبهـجة تسـتحق اهتماما كاملا من الناحية الاتنوجرافية ، لقد انطلقت باخرتنا في النيل بأقصى سرعة ورأينا مناظر أضحت معروفة لنا ، ومر الوقت سريعا وانتهزنا فرصة رحلة العودة هذه لترتيب ما جمعنـاه من ملاحظات ، وفي الظهر جلسنا في القمرة ( الكابينة ) وتوقفت السفينة فجأة وبعنف ، ولم نستوعب كيف أن سفينة بخارية كبيرة يرتطم قاعها في طمي قاع النهر •لقد ارتطمت سفينتنا بقاع النهر ونحن نبحر في وسط المجرى صعدا . وكنا قد تحاشينا الابحار قرب الشاطيء لأن كل البواخر النيلية تجنح عند رمال الشاطيء — وعلى أية حال فان ارتطام سفينتنا في المرات السابقة لم يكن بالحدة نفسها التي كان عليها الانتطام هذه المرة نظرا لأننا كنا في طريق العودة حيث ينحدر النهر من الجنوب للشـمال •

وأعلن ربان السفينة العجـوز أن الأمر يتطلب ساعتين على الأقل لتطفو السفينة من جديد • لذا فقد انتقلنا للشاطيء عند بقعة تسمى كوم الأمير Kom el-Emir حيث تقترب الجبال العالية الصخرية من المجرى وتنحدر عليه انحدارا حادا ، لكن شريطا ضيقا جميلا من الأرض المزروعة جعل للمكان روحا كروح السهول •

وتفرق جمعنا في مختلف الاتجاهات يتريضون ، وقد حاولت — في البداية — أن أزحف صاعدا الصخور الجرداء لأصـل الى بعض الطيور الجارحة لكنني لم أفلح ، لذا فقد فضلت أن أمارس الصيد بين أشجار السهل وعلى شاطيء النهر • لقد اصطدت خلال هذه الرحلة القصيرة يمامة صغيرة كانت ألوانها مدهشة ، انها حقا من طيور وسط أفريقيا ،

وكانت فى حجم القنبرة ، ولها ذيل طويل • يالها من مخلوق مدارى جــذاب ! •

وبينما كنت أبحث على الشـــاطىء الرملى عن الطيور لاحظت أن سفينتنا البخارية أصبحت جاهزة لمتابعة الرحلة بعد ساعتين من محاولات تعويمها ، فركبنا قواربنا وجدفنا عائدين وتابعنا الرحلة التى قطعتها هذه النزهة الباعثة على السرور •

**الـــكاب :**

وفى المســـاء ــ بعد غروب الشمس ــ رست سفينتنا عند الكاب El-Kab (١) على الشاطىء الشرقى • ويفصل ــ هنا ــ شريط ضيق من الأرض المزروعة بين النهر من ناحية والصحراء وما يليها من جبال عالية من ناحية أخرى ، وحالما وصلنا قررنا أن ننتهز الليل الذى يغمره ضوء القمر لصيد الحيوانات المفترسة فتفرقنا فى مختلف الاتجاهات لاختيار مراكز اقامتنا •

فسرت ومعى بوسنجر Pausinger ومعنا الفلاحون عبر الحقول وتجاوزنا قرية بائسة حتى وصلنا للصحراء • ورأينا بقايا مدينة نخبت Nechebt المصرية القديمة ( يسميها اليونانيون ايليثيا Eilethyia) ، وان كان المنظر ضبابيا غير واضح • ويشمخ مبنى متين خارج السور من طوب لبن فوق كل شىء ويشير بوضوح الى أنه بقايا قلعة ذات شأن • ويوجد هنا أيضا على افريز الجبل ( الافريز هنا هو ما نتأ من الجبل ) بعض القبـــور الحجرية • وقبر حجرى أسسه بطلميـــوس يورجيتس Ptolemy Euergets وعلى البعد يوجد حرم ( معبد ) أمنحتب الثالث وهو مخصص للالهة نخبت Nechebt .

والصحراء فى هذا الجزء مشبعة بكربونات الصوديوم ، وفى كل خطوة يسمع المرء صوت طقطقات القشرة الأرضية • لقد ذهبنا بالقرب من سفح الجبل واختبأنا بين صخرتين كبيرتين ، وربطنـــا عنزا صغيرا راح يثغو أمامنا على بعد خطوات قليلة • وما كادت تنقضى ربع ساعة حتى ظهر بدوى ملتف بعباءة بيضاء راكبا جملا ويغنى أغانى حزينة ، وبدا هــذا الراكب الغريب مثيرا للدهشة فى هذه الصحراء الخالية • وظهر أن الماعز الذى يثغو قد لفت نظر البدوى ، فتوقف وتطلع حوله وراح يجرى حوارا مع نفسه بصوت يكاد يكون مســـموعا ، ثم استمر فى طريقه دون أن يكتشف مكمننا •

ولما عم الهدوء مرة أخرى سمعت حفيف حيوان يزحف ، وأصدر الماعز ما يشبه الأنين وقفز عاليا خوفا وفزعا ، وعقب ذلك مباشرة رأيت جسدا أسود أكبر من الكلب يقترب من الشرك (العنز) ، فصوبت باحكام وأطلقت النار ، وأسرعت الى حيث الطريدة ولكننى لم أجد شيئا خلا آثار زحفها الى الجبل ، فاعترانى غيظ وخيبة أمل من جراء ذلك لكننى حسبت أننى أصبت ضبعا فعدنا الى سفينتنا البخارية ، وطلبت من مساعد الصيد التابع لى أن يعود فجر اليوم التالى ليتتبع آثار الحيوان الجريح .

ولما عدنا للباخرة كان سائر أفراد المجموعة قد سبقونا بالعودة . وكان الدوق الكبير قد رأى حيوانات ابن آوى لكنه لم يصب — لسوء الحظ — أيا منها أما هويوز Hoyos فقد حالفه الحظ فأصاب أحدها .

وفى العاشر من الشهر ارتفعت الشمس فى كبد السماء قبل أن أستيقظ وأبحرت بنا السفينة هابطة فى النهر لأكثر من ساعة ، وسألت عن مساعد الصيد التابع لى فعلمت أنه وجد الحيوان الجريح على بعد مئات قليلة من الخطوات من موضع اصابته ، لكن — وياللأسف — انه لم يكن ضبعا وانما كان أحد كلاب القرية ، والكلاب فى مصر تكاد تكون متوحشة، فالكلاب فى مصر تتجول طوال الليل حول المدن باحثة عن فرائس ، كما رأى مساعد الصيد التابع لى وشقا lynx ضخما حجمه ، على بعد خطوات قليلة منه سرعان ما اختبأ فى ثقب فى جدار الكاب El-Kâb العتيق .

**كلاب مصر :**

وليسمح لى القارىء أن أذكر فى كلمات قليلة فكرة عن الكلاب فى مصر . لقد أجريت ملاحظات استطلاعية خلصت منها الى أن كلب القرية the village dog والولف الأفريقى African Wolf (Cains lupaster) وأبو الحسين Abu el-Hossein أو ( الديب ) كما يسميه العرب وابن آوى Canis aureus والثعلب المصرى والواوى Waui السورى — كلها قد اختلطت معا فنتجت عنها سلالة مخلطة (*) .

فلم يحدث أن أصبنا اثنين من حيوانات ابن آوى ولا اثنين من الذئاب ( الولف ) الا ووجدنا بينها تشابها تاما ، سواء فى الحجم أو اللون .

(*) عن مدى صحة ذلك لابد من الرجوع لعلماء الحيوان ، فما يذكره — غير صحيح — فيما يبدو — ( المترجم ) .

وفي فلسطين نجد أن هذا الاختلاف أكثر وضوحا • وبشكل عام فان حيوان ابن آوى الآسيوى أضخم من حيوان ابن آوى فى شمال افريقيا ، الا أنهما متشابهان ، وقد اقتنصت أحد هذه الحيوانات لا يمكن مقارنته بالنماذج السابقة سواء فى الحجم أو اللون بل ولا يمكن وصف هذا المخلوق غير العادى بأنه ذئب •

وعلى أية حال ، فان كلاب الشرق تحمل غالبا دلائل تشير لأصلها المتوحش وهذا لا يثير الدهشة عندما يتذكر الانسان أنها حيوانات غير مروضة لا صاحب لها • وتظل تجوس طوال الليل من الغسق الى طلوع الفجر مع الذئاب وحيوانات ابن آوى ، فى المناطق المحيطة بالمدن والقرى •

بل اننى أود أن أذهب لأبعد من هذا وهو أنه فى هذه الأنحاء من أفريقيا وآسيا حيث الكلاب والذئاب وحيوانات ابن آوى تقطن منطقة محدودة وان ابن آوى الخالص ( غير المخلط ) لا وجود له فى الواقع (*) أما الكلاب والذئاب فأجناس حافظت على نوعها بطريقة أفضل أما ابن آوى Canis aureus كما ورد فى الكتب العلمية فقد بحثت عنه عبثا فلم أجده كجنس أو سلالة محددة •

دعنا الآن نعد لمغامرات رحلتنا • لقد تابعت السفينة مسيرها حتى الساعة العاشرة صباحا حتى توقفت فى الدبابيه Dabbabieh عند شاطىء رملى ، ورأيت على مكان مرتفع نسرا ضخما ، وعندما رسونا وجدنا الفلاحين الذين كانوا ينفذون أوامرنا حرفيا •

وأقاموا كوخا صغيرا من البوص ، وقد أظهرت عظام الخراف والكلاب أن النسور قد تناولت وجبتها اليومية ، وقد وجدنا صعوبة كبيرة فى ابعاد الفلاحين المحبين للاستطلاع عنا ، فقد كانوا راغبين فى موافقتنا لأنهم كانوا فخورين بما أنجزوه فى سبيل مساعدتنا •

وسرعان ما ظهرت بعض نسور الجيف وتبعتها ثلاثة نسور ، لون رءوسها مختلف عن لون سائر أجسامها hooded vultures ، وهذا النوع الأفريقى من النسور متوسط الحجم أسود ورأسه صلعاء • لم يحدث أن رأيت أبدا هذا الطائر البشع منظره قبل ذلك ، فأسرعت — لذلك — باطلاق النار ليكون لدى واحد من هذه الطيور • وأسرع الفلاحون قادمين من كل ناحية بمجرد سماع طلقتى وراحوا ينظرون لصيدى باستغراب وراحوا يثيرون جلبة وصخبا بطلب البقشيش

---

(*) لا ادري مدى صحة ذلك ، والامر متروك للمتخصصين — ( المترجم ) .

لقد كان النسر الكبير يحوم دائريا فوق رءوسنا ، وكانت اللحظة مناسبة لمتابعته وكان يمكننا أن نحقق نجاحا كبيرا ، ومع هذا فقد كنا مضطرين للتراجع بقدر ما نستطيع لنحمى أنفسنا من الناس فقد وصل عدد آخر من الفلاحين من كل اتجاه ، فاستدعينا سفينتنا البخارية الى الشاطىء وواصلنا رحلتنا ٠

**أرمنت :**

وفى أرمنت Erment التى وصلناها بعد الظهر كان علينا أن نبقى لبعض الوقت لنحمل معنا قطعة الجرانيت الشهيرة ، وخلال هذه الفترة اليسيرة نجحت فى اصطياد ست وأربعين حمامة من حمامات الحقول كانت تعبر النهر من جانب الى آخر مارة فوق سفينتنا ٠

وسرعان ما تابعنا رحلتنا فوصلنا الأقصر مرة أخرى عند الغروب ، وبمجرد أن لمست سفينتنا مرساها أسفل الفندق حتى ظهر خليل ومعه بعض الحمير ، فركب بعض أفراد جماعتنا بأقصى سرعة واتخذنا سبيلنا الى طريق الكرنك الشهير لنكمن للضباع فى عدة مكامن ٠

واتخذت لنفسى موقعا بجانب احدى البرك pond (٢) القديمة أستمتع بجمال الماء ، ورحت أشد ريش الدجاجة الحية التى كنت قد أحضرتها معى ــ بين الحين والآخر ــ عسى أن يجذب صياحها الحيوانات المتوحشة ٠ ولسوء الحظ ، فبدلا من أن تجذب حيوانات ابن آوى ، ظهر بعض الرجال الانجليز فنظروا الى بدهشة ، وسرعان ما واصلوا طريقهم مبتعدين ٠

ولما عم الظلام ، انقض طائر ضخم على البركة Pond كالشبح ، فأطلقت عليه النار فوجدته طائر مالك الحزين ( البلشون ) وقد تمدد ميتا على الشاطىء ٠ وبعد ذلك غادرت مكانى وركبت عائدا الى الأقصر فوجدت أن رفاق الرحلة قد عادوا دون أن يصيدوا شيئا ٠

**مقابر الملوك :**

وفى بكور صباح اليوم التالى جدفنا الى الشاطىء الغربى ( تعليق المترجم : يسمى الأرشيدوق الشاطىء الغربى للنيل باسم الشاطىء الليبى Libyan shore) ، لزيارة مقابر الملوك ٠ وركبنا البغال ، وفى بداية الطريق عبرنا سهلا خصبا ، وكان الفلاحون يعملون فى حقولهم بهمة بينما كانت نسور الجيف تتحلق بكثرة حول الأكواخ الطينية المتناثرة ، بينما ترعى الجمال والماعز ــ ذوات الآذان الطويلة ــ والجواميس والحمير

والأغنام كلا اعترته صفرة . وكان الطريق يمر بنا بين بعض البرك ظل الماء باقيا فيها منذ أيام الفيضان وعبرنا ترعة ضحلة بها رمال الى قرية صغيرة فقيرة ، تشكل نخيلها وأشجارها الحد الفاصل بين الأراضى المزروعة والصحراء ، وسرعان ما وصلنا لسفح الجبال الشامخة لينتهى الوادى عند منحدرات جبلية حادة ، وأصبحت المنحدرات الصخرية أمامنا مباشرة . ويؤدى ممر خاص الى الأسفل الى مقابر الملوك ، وقد اختار رفاق الرحلة أن يسلكوا هذا الطريق .

فكان من رأيى أنا والدوق الكبير أن نصل الى مقابر الملوك بأن نسلك طريقا قصيرا عبر الجبل ، وبالفعل فقد استعنا بمرشد عربى معروف بأنه رياضى ممتاز وتسلقنا بعض التلال الرملية التى اختلطت بها أحجار مكسرة ، ثم هبطنا من الناحية الأخرى .

وكان الممر الضيق يلف مرتفعا على طول المنحدرات الصخرية بين كتل وجلاميد صخرية ، والى اليمين واليسار كنا نرى ما لا يحصى من القبور والكهوف الجنائزية funerat caves فالمنحدرات الدنيا لكل خط الجبال الى الغرب من طيبة القديمة بها تجويفات عميقة فتجويفات أعمق فأعمق وهكذا ، واتخذت هذه التجويفات مقابر على مدى القرون .

وقد خرج ذئب من بين هذه القبور وانسل صاعدا المنحدرات ولسوء الحظ فان المسافة كانت بعيدة لا تمكننى من اطلاق النار عليه بطلقة صغيرة ، اننا الآن فى طريقنا لتسلق الجبل صاعدين ممرات مختلفة آملين أن نتمكن من اطلاق النار عليه .

وسرعان ما وصلنا للقمة فتجلى أمامنا منظر جميل فى وادى النيل الأخضر متمثلا فى مدينة الأقصر وآثار الكرنك ، وفى الناحية المقابلة الجبال العربية Arabian mountains : قمم وذرى ومسيلات ووديان ومنحدرات صخرية وأكوام من رمال وأحجار مهشمة وكتل حجرية صلدة وكتل من أحجار جيرية ، جميعها بيضاء أو اعترتها الصفرة دون أثر لخضرة ، وانما جرداء تتلألأ وقد عكست أشعة الشمس الأفريقية . قلما يتخيل المرء صورة أكثر عظمة وجهامة من جبل صحراوى حقيقى . وفى الرمال وجدت آثار ضباع وذئاب وحيوانات ابن آوى وما لا يحصى من جحور الحيوانات البرية ، وكمنت النسور فى ظلال الصخور وحلقت العظاءات Swift فوق قمم الجبل القضية .

وجرى ذئب عبر الممر أمامى لكنه كان بعيدا لا تؤثر فيه طلقتى ، وضاعت فرصة مماثلة – لاقتناص ابن آوى – من الدوق الكبير للسبب نفسه ، وسرنا فى ضيق وهبطنا بصعوبة فى الوادى الرئيسى لنقابل الحمير

فى الموضع المتفق عليه سلفا • وركبنا الحمير عبر واد منعزل تحيطه جبال بيضاء عابسة ، لنصل الى مقابر الملوك عند بيبان الملوك Biban-el-Moluk حيث يوجد ممر مسدود من منتهاه Cul de sac ومنحدر على نسق انحدار الوادى الذى يشقه ( أى الطريق ) وينتهى بنهايته وثمة شق ( هوة ) مظلم يفضى الى مدافن الاسرات ( الفرعونية ) الأولى ، وحملنا المشاعل ودخلنا أضرحة الماضى •

وانى مدين لبرجش Brugsch باشا لكثير من الملاحظات القيمة عن هذه البقعة ، وسأتركه الآن يفضى بما عنده : « مقابر بيبان الملوك تقع فى واد جانبى فى الجبل توحى طبيعته نفسها بسكون الموت ، وهنا تم دفن الأجيال المتعاقبة من أكثر ملوك الأسرات الحاكمة فى طيبة شهرة ، وذلك فى كهوف عميقة ، ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة فصاعدا • ونجد قبر سيتى الأول Seti I الذى يمثل معبدا ( ضريحا temple ) حقيقيا لميت قد نحت خارج الصخرة ، ويعد هو الأجمل بين هذه الآثار الجديرة بالملاحظة • وتفضى الدرجات ( السلالم ) التى تهبط بشكل ملحوظ الى مجازات يمر بها حاملو الجثث ، فى ظلمة شديدة ، من ممر الى ممر ، ومن حجرة الى حجرة ، ورغم غارات النهب على هذه المقابر الا أن الرسوم والكتابة لاتزال تحتفظ ببهاء ألوانها كاملا • لقد تابعنا رؤية مناظر متتابعة مستعينين بالضوء الباهت فحملتنا هذه المناظر الى عالم الموتى وجعلت مناطق العالم السفلى المختلفة أمام نواظرنا مصورة نعيم الفردوس وعذاب من يستحقون اللعنة ، والسماوات ذوات النجوم ورحلة مراكب الشمس السرية من الغرب الى الشرق ومن الموت الى الحياة خلال الليل والظلمة • لقد تجلى كل ذلك أمامنا فى صور • وتجلى بتفصيل كامل ، ونشرت أمامنا صفحات غامضة للحياة بعد الموت ومفتاح عقائد المصريين القدماء المتشابكة هو فكرة بعث الروح بعد موت الجسد The resurrection of the soul after the death of the body ، وعودتها الى مصدر النور ، فيحظى الطيب بالنور والسعادة ويجازى الشرير بالظلمة والألم •

وفى غرفة — تم اغلاقها باحكام قبل ذلك — فى ضريح سيتى الأول Seti I ( حوالى ١٣٥٠ ق٠م ) رأينا ما يشبه بقرة السماء Cow of heaven ، وبجدارها شريط من كتابات هيروغلفية طويلة ذات أهمية فائقة ، اذ تتناول ابادة الجنس البشرى واعادة تشكيل نظام عالمى جديد ، مما يقدم لنا مفتاحا للفهم الصحيح للعقيدة المصرية القديمة • وفيما يلى ترجمة لهذا النص الغامض :

« كان لمصر العليا والدنيا ملك هو اله النور رع Ra لم يولد ( هو موجود بذاته ) ، وبينما هو يحكم اتحد الملوك البشر والآلهة فى كيان واحد (*) وبدأ البشر فى حبك المؤامرات عند اله النور رع ليتخلصوا منه ، ولأن عظمته الملكية قد غدت عتيقة عريقة فان عظامه كانت من فضة ولحمه من ذهب وشعره من ياقوت نقى ورأى بعظمته الملكية كيف يمكر به البشر ، فدعا اليه خدمه قائلا : « احضروا لى عينى ورب السحاب شو Shu وربة المطر تافنوت Tafnut ورب الأرض كب Keb وربة السماء نت Nut وأحضروا الأب والأم اللذين اتحدا معى وقت أن كنت ونفسى فى المياه الأولى ( المياه التى هى الأصل والأساس ) ، وكذلك رب المياه الأولى نن Nun الذى يحمل الوهيتى (ربوبيتى) فى نفسه ، دعوه يحضر حاشيته معه • وقولوا له : « أحضرهم هنا بلا توان أو تأخير • لا تنظر للرجال ( البشر ) ولا تدر أرواحهم بعيدا • تعال الى قصر هليوبولس مع الأرباب الذين وافقوا على خروجى من الماء الى المكان الذى أشغله الآن » وبالفعل تم احضار الأرباب فألقوا بأنفسهم على الأرض اظهارا لولائهم لعظمته حتى يلقى كلماته لوالد أكبر الأرباب الذى خلق البشر وأنجب النبلاء • وقال الأرباب لعظمته : « تحدث الينا حتى نفهم » •

« فتحدث اله النور رع Ra لرب الماء الأول نن Nun قائلا : « أنت الأكبر بين الأرباب ، منك خرجت ، وأنت أصل الألوهية ، فلتسمعنى الآن : الرجال الذين خلقوا من عينى يتحدثون ضدى ! فقل لى : ماذا أنت فاعل ؟ حقيقة انى سأنتظر ولن أحطمهم حتى اسمع رأيك فى هذا الموضوع » •

فتحدث نن Nun وقال : « يا بنى • أنت رع اله النور أنت اله أعلى درجة منه فهو أبوك وأنت أعظم منه ، أعظم من الذى أنجبك Who begat thee فأين أقيم ( أجعل ) البشر الذين يقولون هذه الكلمات عنك ، ذلك أن فزع أولئك الذين يحيكون المؤامرات ضدك سيكون عظيما كبيرا ، سيكونون الى جوارك لأنك ستطبق عليهم جفونك ( عيونك ) •

وقال عظمة رع اله النور : اذهب اليهم ، فقد هربوا للجبل لأن أرواحهم كانت مليئة بالرهبة من قربى » •

وتحدث الأرباب الآخرون لعظمته : « أرسل عينك • دعها تضرب عنك أولئك الذين حاكوا المؤامرات باعتبارهم أتوا أمرا شريرا •• » •

---

(*) أصبح اللاهوت والناسوت فى كيان واحد ، وهى الأفكار نفسها التى تسربت بعد ذلك لبعض ديانات التوحيد – ( المترجم ) •

فأرسـل الاله النور رع عينه his eye فهبطت متقمصة ( متجسدة ) شكل الربة هاتور Hathor ، وعادت بعد أن حطمت البشر ( الذين تحدثوا ضد رع ) على الجبل ٠

وتجدث عظمة الاله ( الرب ) فقال : « أبشر ٠ لقد تم تنفيذ ما كان يجب تنفيذه ٠٠ لقد أوردنا البشر موارد التهلكة » ٠

وتحدثت هذه الربة ( الالهة ) فقالت : « اننى أقسم بك اننى نفذت حكمك فى هؤلاء البشر ، وهذا يسعد روحى » ٠

وقال اله النور رع : « سوف أنفذ حكمى ( قضائى ) على البشر من خلالك فى المستقبل » ٠

وهذا هو أصل اسم الهة الانتقام ٠ الربة سخط Sokhet (٣) ٠

وهكذا تحدثت نت Nut ربة السماء أمام أبيها نن Nun رب الماء الأول ٠ وعندئذ تحولت ربة السماء نت Nut الى بقرة ضخمة وحملت على ظهرها عظمة اله النور رع ٠

« وبعد أن علم البشر الذين ذهبوا صاعدين فى المجرى ما حدث وقفوا ونظروا اليه ( رع ) وهو جالس على ظهر البقرة » ٠

وتحدث البشر وقالوا له ( رع ) : « أنت اله النور رع لا تتخل عنا ، سنقتل أعداءك الذين يحيكون المؤامرات ضدك ٠٠ سيقتلون » ٠

وذهب عظمته الى قصره لكن الذين تبعوه بقوا مع البشر ( الرجال ) حتى غرقت الأرض فى الظلمة ، الا أنه عندما أنارت الأرض وأشرق الصباح هب البشر ( الرجال ) مسلحين بالأقواس والرماح وأطلقوها على أعداء الاله ( وهذا هو أصل فكرة الأضحية ) وتحدث هذا الاله الى الالهة نت Nut السماوية : « لقد حملت نفسى على ظهرك فارفعينى الى أعلى » وفهمت ربة السماوات المعنى فتمطت ٠ وهذا أصل العبارة القائلة : اطرح نفسك فوق ظهرها تمدد ( تمطى ) ذاتها ٠

وقال عظمة هذا الاله : « والآن وقد فارقت البشر ، سأصعد الى أعلى وأراقب » ٠

وراح عظمة الاله يراقب ( الأمور ) من الخارج ، وقال : ابحثوا لى عن حمالين أشداء : « مجموعة من البشر » وهذا هو أصل عبارة « مجموعة رجال mass of men) .

وقال جل جـــلاله hir royal majesty : « يا له من عمـــل مفعم بالسلام أن أقيم حقلا واسعا ! » وهذا أصل اسم ( حقل السلام ) . سوف أنزع (؟) الأعشاب فيه ، وهذا أصل اسم (pluckfield) وســـأمد السكان بكل شيء ...

وتوقفت السفينة هناك ، وفوقها مجاديف ومعبد صغير ، وفوقها قرص الشمس ، ووقف اله النور رع فيها أمام رب السحاب شو shu ، وبجانب يده ( قراءة أخرى : خلفه الى جوار يده ) .

وتم وضع ضرع البقرة الى جوار فخذها الأيسر ، وفي الوسط . فالكتابات الموجودة عند منتصف ساق البقرة الخلفية كالتالي : « السماوات الخارجية » و « أنا حيث أكون I am where I am » و « أنا لا أدعها تعود I do not let her turn back » ، والكتابات الى أسفل السفينة في المقدمة : « لا تسترح يا ولدي » والكتابات في الاتجـاه المعـاكس ( المقـابل ) : « حملك كالحياة Thy bearing is life like » و « ابنك هنـــالك Thy son is yonder » و « الحيـاة والسعادة والصـحة ، كل ذلك ممنوح لمنخريك » والكتابات خلف شو رب السحاب بالقرب من ذراعيه هي : « حارسها Her guardian » والكتابات خلفه عند قدميه في الاتجاه المقابل : « الحقيقة » وكتابة أخرى : « هم يدخلون هنـــا » وأخرى : « انني الحامي كل يوم » .

والكتابات تحت ذراع الشكل ( الرسم ) الكائن بين الساق اليسرى وخلفها كالتالي : « منهي كل شيء » .

والكتابات فوق الرســم عنـد الربع الخلفي من البقرة بالقرب من الساقين هي : « حارس خروجها Guardian of her going out » .

والكتابات خلف الشــكلين التي تمتد من ساق البقرة الى رأس الشكلين هي : « الرجل كبير السن الذي يسبح عند خروجه » و « الرجل كبير السن الذي يتعبد عند قدومه » .

والكتابات فوق رأس الشكلين والكائنة بين الســاقين الأماميتين للبقرة « المستمع » « المصغي » و « تقلد سلطان السماوات العلا » .

« وقال عظمـــة هذا الاله للرب توت Thot ( رب الفهـــم ) : « اســـتدع لي عظمة كب Keb رب الأرض بهذه الكلمات : « تعـــال بسرعة » .

وجاء عظمة كب Keb رب الأرض وقال عظمة اله النور رع : فلتقم معركة بسبب ديدانك ( البشر ) الذين يسببون لك الازعاج ، فمن أجل سعادتهم يجب أن يخشونى طالما أنا موجود as long as I exist لذلك سأترك لك مهمة معرفة صدقهم وطهارتهم · كن مستعدا واذهب حيث أبونا الذى هو رب الماء الأول ـ نن Go where my father the God of the primordial water, Nun

وقل له :

احفظ الديدان ( المقصود البشر أو الكائنات الحية ) على الأرض وفى الماء واكتب فى التو واللحظة لكل مكان ( منطقة ) يقطن فيها ديدانك وقل : « ان حافظكم ( ربكم ) هو الذى يحيط بكل شىء » · اذا كانوا سيعرفون أننى ذهبت بعيدا ، فمن أجل سعادتهم أن أرتفع فوقهم كضوء الشمس · الشفاء ضرورى · انه الآب ( الأب ) الذى هم فى حاجة اليه · كن أننى الأب على هذه الأرض » ·

وهم أيضا سيكونون محميين ( محروسين ) بسبب أفكارهم الحكيمة وسوف يكون فى حكم أفواههم خلاصهم their Salvation ذلك لأن حكمتى قضت بالخلاص · وسيكون الشكور آمنا ، والا لن أقدم لأحد حمايتى بسبب العظمة ( الجلالة ) الذى أعطى له أمامى ( قبلى ) ·

سوف أوحدهم مع ابنك أوزوريس وسوف أحفظ أطفالهم ، وستتجلى فضائلهم فى أنهم يعملون وفقا لما يقتضيه حبهم للعالم كله وفقا للأفكار الحكيمة المبثوثة فيهم ·

وقال عظمة الاله : استدع لى الرب توت ـ رب الفهم ، فلما حضر قال عظمة الاله له : « انتبه ! عظيمة هى المسافة من السماء حيث أقيم عرشى وحيث يتحتم أن أقيم لأوزع أشعة الشمس ( بالعدل dispense ) أنت رب عظيم فى الأعماق وفى عالم القبور حيث أنت الذى تكتب وتعاقب من يسكنون هناك ومن يقترفون الخطايا فأبعد عنى أولئك الذين يتبعون الآثام who followed evil الذين يملأون قلبى بالخجل ( الحسرة ) ـ اجعل نفسك مكانى ـ ممثلى ، والا فلماذا سميت توت Thot ممثل الشمس ؟ اننى سوف آمرك أن تستدعى الأمراء باسمك » · وهذا هو أصل ابيس Ibis رسول توت « سوف أدعك تمد يدك لوجه الأرباب القدامى ( الآلهة القدماء ) الذين هم أعظم منك · وسيكون حسنا اذا ما ظللت ( رويت ) ظمئى » وهذا أصل طائر الماء التابع للرب توت · « وسأدعك تحتضن السماء والأرض بالعظمة كشعاع من نور » ومن هنا أتى اسم « مغلف enfolder » للقمر · « وسأدعك تجبر كل البرابرة على التقهقر » ومن هنا أتى اسم « الطارد expeller » للقرد الذى

يحمل رأس كلب ، وهذا أصـــل المهمة المنوطة ـ كقائد للجيـــوش ٠
« لكنك أنت ـ على هذا ـ ممثلى لكل الأشياء المرئية التى يمكن التجلى من خـلالها ٠٠ that through thee may be manifested وكل البشر سميتدحونك كاله » ٠

« واذا ادعى أى شخص هذه المرتبة لنفسه ، اجعله يحك جسـده أولا بالزيت والدهان ، ودعه يرفع المبخرة ( وعاء العطر ) بيديه الى خلف أذنيه » ٠

« واجعله يغسـل فمه بالصـابون المقـدس ، ودعه يرتدى ملابس نظيفة » ٠

« واجعله ينظف نفسه بماء الفيضان ، واجعله يلبس فى قدميه صندلا ( نعالا ) بيضاء لامعة ٠ وستنطبع صورة ربة الحقيقة خضراء على لســانه ٠

واذا كان يسره أن يقول ذلك ( الحكم ) للرب توت فاجعله يطهر نفسه تسع مرات كل يوم طوال ثلاثة أيام ٠

وليفعل الشيء نفسه الكهنة والناس والآخرون ، واذا كرر انسان ذلك ، فليراع التعليمات التالية :

اجعله يقف فى دائرة تفصله عن الآخرين ٠

اجعله يركز عينه عليها ويدير كل أطرافه نحوها ٠ ولا يجعل قدميه قادرتين على التحرك للأمام ٠ فاذا كان الانسان ( الرجل ) على هذا النحو فقل له انه لو كان كذلك لكان مثل اله النور رع فى يوم ولادته ٠ لا تتناقص عناصر الخير فيه ، ولن يفقد بيته شيئا وانما يبقى فى الطريق السوى مليون مرة » ٠

وهكذا ينتهى الوصف الدقيق للبقرة الســماوية وما يحيط بها وما حولها من كتابات ٠

ان سلالة ( الآلهة والأرباب ) التى يرد ذكرها فى عقائد هذا الدين الذى مضى عليه آلاف السنين جديرة بالاهتمام ، كما أن الوصف التفصيلى الرائع يميز هذه العقائد المتعلقة بأهل الجنوب خاصة الشرقيين ٠ وأود أن أضيف هنا شجرة نسب للآلهة المصرية القديمة مستخلصة من هذه الآثار :

نن ( شاوس ) Nun (Chaos)

اله الماء الأول

رع Ra ( الشمس )

اله النور ، عنصر النار

شو Shu ( هركيولس )

رب السحاب ، عنصر الهواء

فاسنوت Fasnut

ربة المطر

نــوت Nut (Rhea)

ربة السماء

كب ، Keb (Kronos)

رب الأرض ـ عنصر التراب

أوزوريس

عنصر الماء

حورس Horus

( أبولو )

Apollo

ست Set

( تيفون )

ايزيس

نفزيس

هربوكراتس

Harpocrates

العالم فى تجدده الدورى فى شكله المرئى

★★★

وبعد أن تفحصنا كل غرف أهم مقابر الملوك تناولنا افطارا متواضعا خارج المدخل ، وبعد راحة قصيرة صعدنا بشق الأنفس من خلال ممر ضيق ، لنعبر الجبال الى مدينة حابو Habu فوصلنا مرة أخرى الى صحراء جرداء صخرية وأصبحنا الآن عرضة لشمس الظهيرة المحرقة . وكان علينا أن نتسلق بعض الصخور شديدة الانحدار لنعبرها فلم نصل لقمتها الا بعد جهد جهيد وبعد ذلك مباشرة وصلنا لمنطقة القبور الحجرية ، ومررنا خلال خرائب وبقايا ومنازل قديمة آيلة للسقوط ، كلها تعود لعصور اسلامية فوصلنا لأرض مزروعة فتركنا خيولنا فى ظل جدار ، وأوصلنا طريق أطول من الطريق الذى قطعناه صباحا الى تمثال ممنون الضخم اللافت للنظر Collesus of Memnon الذى فاق كل توقعاتنا ، ثم وصلنا الى شاطىء النيل ، ومن ثم وصلنا لسفينتنا البخارية مستخدمين أحد القوارب فى فترة بعد الظهر ، وتناولنا غداءنا . وتبعنا بعض العرب كمساعدى صيد لزيارة بقعة بالقرب من مدينة حابو Habu فى المساء بحثا عن الطرائد . وركبت بعد الغداء ـ يتبعنى مساعدو الصيد وسلكنا مرة أخرى طريقا طويلا عبر أرض زراعية ومررنا بتمثال ممنون حتى وصلنا لقرية حابو التى لا تزيد عن كونها بضعة بيوت طينية . وثمة سهل صحراوى عريض على نحو ما يفصل بين الأرض الزراعية وسفح الجبل ـ يمتد مباشرة خلف القرية ( قرية حابو ) .

وكانت آثار أقدام الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى كثيرة ومتتابعة تربط بين الجبل والمساحة التى نمارس فيها رياضتنا فاختبأت خلف بعض الأحجار الضخام . كانت الشمس تغرب وكانت الرمال والصخور والجبال والآثار والنخيل وقرى السهل تفيض بأزهى الألوان وواصلت بومة فرعونية بنية ـ يعترى لونها البنى صفرة ـ كبيرة الحجم ـ طيرانها الصامت ، بحثا عن فريسة ، وسرعان ما أطلقت النار على ابن آوى تتبع آثار أقدام الحيوانات الآنف ذكرها ، وراح يتقدم قافزا للأمام وكأنما لا يحيق به خطر ، الا أن طلقتى طاشت فقد كان ابن آوى ـ لسوء الحظ ـ بعيدا ، وتشقلب الحيوان واضطرب واتخذ سبيله مسرعا عائدا للجبل مرة أخرى . وقد وجدت حقا خطا أحمر ـ وهذا حقيقى ، ولم يجد البحث السريع الذى لم يستغرق وقتا كافيا عن نتيجة فسرعان ما حل شفق الغروب وكان على أن أعود للمنطقة الملائمة لصيد الضباع .

وركبت قاطعا الصحراء يدلنى رجل غربى ، وكانت الصحراء تمتد وتمتد داخل السهل حتى وصلنا الى تل رملى صغير . كان المشعل الذى نحمله من النوع الجيد وكان الحمار الميت قد وضع بشكل واضح فى الرمال البيضاء .

كان السكون العميق يسود المنطقة المحيطة بنا ، وتظهر فى الظلمة غير الدامسة الخطوط التى تحدد أشكال الجبال وبدت الصحراء الصفراء شاسعة لا نهاية لها ·

وسمعت أكثر من مرة صوت تسلل ابن آوى ورأيت ظلالا سرعان ما مرت سريعا ، وميزت شكل ذئب ، لكن الضباع وهى ما نرغب فى صيده كثيرا لم تأت · فأفضل الأوقات لصيد الضباع هى الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، لكن فى ذلك الوقت يهاجمنى النوم فلا أستطيع مقاومته بعد الســـاعة الحادية عشرة ، فغادرت مكمنى ، وتركنى العربى اذهب لمســافة قريبــة واقترح أن نبقى فى انتظــار الضبع ــ بينما هو مسلح ببندقيته ·

ان أمامى مسافة طويلة لكنها لطيفة بالنسبة لى فليل مصر المقمر يحفر فى الذاكرة كأروع المناظر الساحرة ، وقد حملت ذاكرتى هذا المنظر من أرض الفراعنة العظيمة · وكانت تماثيل ممنون Memnon منتصبة كالأشباح ، زاد الليل من ضخامتها · وجرى ذئب بالقرب من النيل أمامى على بعد خطوات قليلة لكن بندقيتى لم تكن معمرة لسوء الحظ · ولم أصل للباخرة الا متأخرا جدا وحان وقت راحتى التى كنت تواقا لها ·

وفى بكور اليوم الثانى عشر من الشهر ركبنا جميعا وسرنا فى الطريق نفسه لقرية حابى ، وأطلقت النار من فوق حمارى على طائر الشنقب Snipe وطائر زمار الرمل Sand pipers ، وكانت صفوف طويلة من اللقالق ( جمع لقلق Stork) تقف على الشواطىء الرملية وفى البرك · وصلنا لقرية حابو بعد ساعة حيث كان الصياد العربى فى انتظارنا ليخبرنا أنه فقد ــ بسعادة ــ الضبع ، حوالى الساعة الواحدة ليلا · ولم أصدقه وقررت أن أعاين المنطقة بنفسى وأن أركز اهتمامى أيضا على النســـور المتجمعة بأعداد كبيرة وفقا لما ذكره العربى ·

ولسوء الحظ ، وجدت أن هذه الطيور الجارحة ــ بمجرد وصولى ــ كانت قد أنهت بالفعل وجبتها وجمدت ــ غير قادرة على الحركة ــ فى مكان غير قريب على بعد مئات قليلة من الخطوات فى الصحراء · لقد كان الحمار الميت قد مزق اربا ، وتم التهامه بالكامل تقريبا وما تبقى منه كان مغطى بريش النسور وأقذارها ·

وأخطأت كما أخطأ العربى ، فسرعان ما وجدت أثر الضبع يؤدى من جانب واحد للجيفة ، ويؤدى من الجانب الآخر للصحراء · وفى طريق العودة لقرية حابو لاحظت آثارا حديثة تماما لقدمى غزال ·

وبمجرد أن وصلت لمستراح رفاقى فى الرحلة حتى بدأنا زيارتنا لمعبد الرامسيوم Ramesseum المدهش الجميل ، وهو معبد جنائزى temple of the dead لازال يحتفظ ببهائه ، ويقع بالقرب من قرية جابو ٠

وانى مدين لصديقى برجش Brugsch ببعض الملاحظات عن هذا الجزء من طيبة أوردها هنا بكلماته هو : « الجزء الغربى من طيبة لا يقل ثراء فى الجبال عن الجزء الشرقى للمدينة ، وكان يعتبر مثوى للموتى ــ مدينة الموتى necropolis ٠ ففى سهل من الأحجار الجيرية وكذلك فى المنحدرات ذات التجويفات والثقوب فى الجبال المجاورة ــ وجد ملايين من أهل طيبة ذوى الشأن مثواهم الأخير ٠ ففى السهل عند سفوح المنحدرات الصخرية تشمخ ــ فى كل اتجاه ــ المعابد الجنائزية Sepulchral temples وأبوابها دائما مفتوحة ناحية الشرق مما يعطى مدينة الموتى طبيعة أكثر المناطق قداسة ٠ ومعبد الجرنة Gurna الذى لا يزال موجودا عند الطرف الشمالى للسلسلة الطويلة من المعابد ، والذى أنشأه رمسيس الثانى احياء لذكرى جده غير المشهور الذى يحمل الاسم نفسه ، ومعبده الجنائزى المسمى رمسيوم ، يعد مثالا فى تصميمه وزخرفته ، على نسق معبد سيتى الأول الجنائزى فى أبيدوس ( سيتى الأول والد رمسيس الثانى ) وقد سبق أن وصفنا هذا المعبد ٠

والرامسيوم فى طيبة يعد بالاضافة ــ لكونه معبدا جنائزيا ــ هيكلا لاحياء ذكرى انتصار الملك على الحيثيين Hothites وتخليدا للأعمال المجيدة التى حققها ٠ وتمثاله العملاق من الجرانيت الأحمر مطروح على أرض المعبد القديم بالقرب من بوابة الجناح الجنوبى ٠

وأبعد الى الجنوب يوجد تمثالا ممنون الشهيران ــ حارسا مدينة الموتى ، وقد شمخا منعزلين تحت سماء طيبة الزرقاء الصافية كشاهدين صامتين على تاريخ المصريين العظيم الطويل ٠ لقد زين المصريون ــ فى وقت من الأوقات ــ المساحة الواقعة أمام البوابة العظيمة للمعبد الجنائزى للفرعون أمنحتب الثالث ، وقد اختفى هذا المعبد الآن دون أن يترك أثرا فى الغالب على سطح الأرض ٠ وهذه الآثار من عمل أحد موظفى البيت الملكى وهو حى Hi بن حابو ٠

ولا زال يوجد الى الجنوب المعابد الجنائزية للفراعين : تحتمس الثالث ورمسيس الثالث تقع وسط مكان مرتفع يشبه تلا ٠ ورمسيس الثالث هو الملك رامبسينيتوس Rampsinitus فى التراث الاغريقى ، وحقق معبده شهرة لكثرة ما به من رسوم وكتابات لتخليد ذكرى انتصاراته ضد

الحلف الليبى الأيونى واذا تتبعنا المعبد الصخرى الذى أنشأه تحتمس فى الركن الشمالى الغربى لمدينة الموتى العظيمة في طيبة نكون قد أتينا على كل معابد الملوك الجنائزية التى كان هدفها هو أن تبقى شاهدا للأجيال المتعاقبة حتى لا يضيع الماضى •

ولما انتهينا من زيارة مدينة الأموات الشهيرة تلك ركبنا وعبرنا السهل عائدين الى سفينتنا البخارية • لقد كان علينا الآن أن نغادر الأقصر الجميلة وآثار طيبة العظيمة ذات المائة بوابة • وكان سـهل طيبة يرقد متدثرا بسديم حرارة الظهيرة الحارقة تحدوه الجبال الشامخة • لقد كان منظرا مدهشا ، كان خير وداع لنا •

قـنـا :

وقضينا فترة بعد الظهر فى رحلتنا فى قضاء ساعات مبهجة فوق ظهر السفينة ننعم بالنسائم الباردة التى يزفها النهر الينا ، وبالمناظر المحببة يتلو بعضها بعضا أمام نواظرنا • وفى الساعة السادسة مساء رسونا فى قنا ، وفى هذه المرة لم يكن رسونا على الشاطىء الغربى حيث دندرة Dendera وانما رسونا على الشاطىء الشرقى بالقرب من المدينة الجديدة •

وقضينا فترة المساء فى الصيد بالمناطق المجـاورة للمدينة ، فقد ركبت أنا وهويوز Hoyos عبر سهل غنى وعريض – فى هذا المكان ثم تتبعنا احدى الترع ، فاصطدنا طيورا مختلفة وعبرنا ونحن راكبون مجرى مائيا فى موضع ضحل وعدنا فى اتجاه المدينة فوجدنا بجوارها حدائق باسمة وغابات نخيل تشمخ بذراها • وكانت الحدءات والصقور والبازات ذوات الأجنحة السوداء والغربان السود وأنواع أخرى من الغربان Crows والبوم الصياع Screech-owl وكل أنواع الطيور الصغيرة – تبحث لها عن ملجأ فى هذه الغابة • أما وقد علمنا ذلك فقد اختبأنا خلف أشجار النخيل وفزنا بصيد وفير •

ولما ظهر الشفق الأحمر بعد غروب جميل ركبنا عائدين بموازاة سور حتى دخلنا المدينة الكبيرة نسبيا •

وكانت الطرق الضيقة على جانبيها منازل طينية ، بالاضـافة الى زيناتها المعمارية ومآذنها السامقة – كل ذلك ينبىء عن أهمية المكان الذى يغص بالحياة • وقادتنا الصدفة السعيدة خلال الشوارع المزدحمة الى سـوق عامرة مغطاة بالحصـير ومضـاءة بشكل جيد ، وتجارها المشغولون

يتحلقون حولنا بطمع محدثين جلبة وضوضاء ۰ وقد هربنا من الأتربة والأبخرة والروائح النتنة التى تنتشر ــ خاصة فى المساء ــ شرقى المدن ــ متتبعين المرابط Stalls التى كانت تكون خطا طويلا ، وأسرعنا عائدين الى باخرتنا ، وقد عاد رفاقى الآخرون ببعض الصيد ، لقد كان حصاد صيدنا فى قنا وفيرا ۰

وتابعنا رحلتنا فى اليوم الثالث عشر من الشهر فى جو جميل ولم نتوقف من مشرق الشمس حتى منتصف النهار فوصلنا حيث جبل طوق Tuk يقترب اقترابا شديدا من مجرى النهر وسعدنا برؤية المنطقة واقترحنا أن نتريض بعض الشيء بعد أن نرسو على الشاطىء المهشم ، ولم يكن ثمة قرية ولا منزل قريب ، فلم يكن الا الشقوق والصدوع فى الجبل الصخرى التى يفصلها عن مجرى النهر مرج أخضر لا يتعدى عرضه مائة خطوة فى أقصى اتساع له ۰ ولما زحفنا بين أكوام الصخور وعلى المنحدرات الجرداء وجدت كثيرا من آثار حيوانات ابن آوى وبعض الجحور ، ومن ثم فقد أتيت بكلابى من نوع الدشهند وتركتها تبحث فى الأخاديد والشقوق العميقة ، ولسوء الحظ فان هذا كان بغير نتيجة ۰

وفشلت جهودى كذلك فى الزحف الى الطيور الجارحة المستقرة فوق قمم التلال والصخور ، وأثناء هذه المحاولات المنحوسة وجدت بعض القبور القديمة المجوفة ، ووجدت فيها بالاضافة للعظام بقايا مومياء محنطة ــ ربما كانت مجرد لحم وعضلات حمصتها حرارة المناخ الجاف ، وأثناء عودتى من الجبل أطلقت بندقيتى على بعض طيور السمانى التى لجأت الى المرج الضيق مرهقة بسبب رحلتها الطويلة ۰

## سوهاج :

وبعد توقف لم يدم أكثر من ساعتين واصلنا رحلتنا ، وعند اقتراب الساعة الثانية وصلت باخرتنا الى مدينة سوهاج وهى مدينة كبيرة ذات موقع جيد ، فرست ليتاح لنا فرصة كشف المناطق القريبة منها ۰

وذهبت أنا والدوق الكبير فدرنا حول أبعد أحياء المدينة بالقرب من ثكنات عسكرية لحامية صغيرة وبحثنا عن بعض البرك الكبيرة لاصطياد أنواع الطيور المختلفة ۰ واضطررنا للابتعاد لتزاحم المتطفلين والقادمين ومعهم جواميسهم وجمالهم لتشرب ، وسرنا متتبعين الطريق الموازى لبحر يوسف الشهير Famous Canal of Joseph فمررنا بمنازل متناثرة وحقول يانعة وبساتين ووصلنا الى غابة من أشجار الجميز والطرفاء والنخيل ۰ لقد كان هذا المكان غطاء ممتازا تأوى اليه أعداد كبيرة من

الطيور ، وبعد غروب الشمس مباشرة أطلقنا بنادقنا على الطيور التى كانت قد شرعت فى النوم ففوجئت ، فوقع فى أيدينا فى غضون دقائق قليلة نسر صغير ، وحدءات كثيرة ، وصقور وبومتان وكثير من الحمام واليمام • ومن ناحية المنظر ، فان هذه الغابة تشتمل — فقط — على الأشجار الأفريقية مما أعطاها شكلا جذابا ، وقد غادرناها — غير راغبين فى مغادرتها — تاركين روائحها العطرة ، وثراءها وظل خضرتها ، انها تذكر المرء بحكايات الليالى العربية • وتتبعنا الطريق ذاته فوصلنا — سريعا — للمدينة فركبنا وعبرنا طرقا ضيقة ومزدحمة •

**الى أسيوط :**

وتفضل المدير على باشا فأعارنى حماره الضخم الأبيض كالثلج ، واسمه — أى الحمار — أبو جبل ، وهو حمار عربى من سلالة عربية نقية وغمرنى السرور وأنا أركبه فقد كانت خطواته ممتازة ، فلما رأى على باشا مبلغ سرورى به أهدانى اياه • وكان يجب علينا الآن أن نجد مستقرا للحمار على ظهر السفينة ، فأنشأنا له مربطا وسرعان ما دخل منزلنا المتحرك ( يقصد السفينة البخارية ) ، وشرعنا فى بكور اليوم التالى فى مواصلة الرحلة الى أسيوط ، وتوقفت الباخرة عند آخر محطاتها ، فوصلنا الى أسيوط عند الظهر ، وسلكنا طريقا تحفه الأشجار أدى بنا الى داخل المدينة • ومدينة أسيوط هى أكثر مدن مصر أهمية جنوب القاهرة ، فهى مقر المدير وبها تجارة مزدهرة ومبان ممتازة ، حقيقة ان المنازل — حتى هنا — مشيدة من الطين ، لكنها أكثر ارتفاعا وبها زينات وزخارف عربية أفضل مما هو موجود فى المدن الواقعة الى الجنوب منها : فالمآذن والبوابات الجميلة تلفت نظر المسافر ، والطرق التى تحفها أشجار الجميز والبساتين المثمرة تحيط بالمدينة من ناحية النهر •

وركبنا دوابنا وسرنا فى بعض الطرق الضيقة ، وبين المرابط Stalls الممتدة بطول احدى الأسواق المهمة التى ينتهى اليها طريق قافلة دارفور — وكانت السوق عامرة بريش النعام والعاج • وللأوانى الفخارية الأسيوطية الحمراء والسوداء خصوصيتها ، وكانت المناظر فى السوق شائقة جدا بما فيها من حركة ونشاط • وكان كل سكان وادى النيل من مختلف المديريات بأزيائهم البهيجة المختلفة — موجودين هنا جنبا الى جنب مع الفلاحين الحقيقيين الذين يمارسون التجارة •

وعبرنا المدينة ووصلنا لسفح جبال منحدرة بعد أن مررنا ببحر يوسف المعروف • وفى أسيوط تقترب الجبال من النهر أكثر فأكثر ويضيق السهل الزراعى كثيرا جنوب المدينة وشمالها بحيث لا يتجاوز

بضع خطوات • وصعدنا ممرا منحدرا ضيقـا لنلقى نظرة على الكهوف والمعابد الجنائزية Sepulchral chapels المقامة فوق الجبال بين الصخور والأحجار فى منتصف المسافة بين السفح والقمة •

وكان لهذا المكان أهمية خاصة فى التاريخ القديم ، وقد اتخذت أسيوط Ossiut ـ أكبر مدن صعيد مصر وأكثرها أهمية ـ اسمها الحالى من الاسم القديم سيوط Siut • وكان لأنوبيس Anubis ـ الربة التى تحمل رأس ابن آوى ـ معابدها ومذابحها هنا • لقد كانت كل حيوانات الفصيلة الكلبية ـ خاصة الذئب ـ هنا ، لذا فان الاسم الاغريقى للمدينة هو ليكوبولس Lykopolis وتعنى مدينة الذئب • وفى كهوف الجبال التى تقع خلف أسيوط والتى تشكل أنوفا فى سلسلة تلال الصحراء الليبية ( المصرية الغربية ) تجد حيوانات الأسرة الكلبية لا تزال ـ حتى الآن ـ محنطة وبحالة جيدة ، وبالقرب القريب منها جبانة مشهورة تعود لأيام الأسرة الثالثة عشرة ( ٢٠٠ ق•م ) والمخصصة لكبار موظفى الدولة فى هذه الفترة•وقد دخلنا احدى هذه الغرف المحفورة فى الصخر فوجدناها واسعة وبصرف النظر عن شكلها الخاص ، فاننا لم نجد بداخلها ما يستحق الرؤية •

وقد انقسمت مجموعتنا الآن ، فذهب بعض الرفاق يتجولون ببنادقهم صوب المدينة ، بينما تسلقت أنا خـلال ممر ضيق الى الحيد ، وحظيت بالقاء نظرة على المدينة الجميلة ووادى النيل والجبال العربية ( جبال صحراء مصر الشرقية ) بينما كانت الهضبة الليبية ( صحراء مصر الغربية ) خلفى •

وهبطت للوادى مستخدما ممرا آخر حيث الصخور تنحدر بشدة ، وبين أكوام من الأحجار والكتل الصخرية ، واجتزت بعض الكهوف الجنائزية funeral Caves وبعض الهيـاكل العظميـة وأخـيرا وصلت للمقـابر الاسلامية • كانت مدينة موتى اسلامية واسعة بها كثير من الآثار الجميلة الجديرة بأن يزورها المرء • انها تمتد الى الغرب من أسيوط وتصل عند أحد طرفيها الى حدائق مزهرة وأرض زراعية ، كما تصل عند طرفهـا الآخر الى قفر صحراوى •

وسرت عائدا فى المدينة وتلكأت فى شوارع الأحياء البعيدة ملاحظا أساليب الناس وطرائقهم ، وفى الوقت نفسه أطلقت بندقيتى على بعض نسور الجيف بين المنازل ، وبعد الظهر عدت مخترقا أفضل أحياء المدينة لأتناول غدائى على ظهر السفينة •

وعند الغروب ركبنا جميعا مرة أخرى الى سفوح الجبال وتمركزنا عند نقاط مختلفة ، فذهب بعض الرفاق الى المقابر ، بينما أخفيت أنا نفسي في أحد مباني الأضرحة الاسلامية • كان المساء جميلا • السكون يعم المكان فلا تسمع الا همس النسيم الخفيف يداعب الأوراق في قمم أشجار الجميز •

ولسوء الحظ ، لم تأت نحو مكمني أية طريدة من ذوات الأربع ، لكنني رأيت أكثر من عشرين نسرا كبيرا على البعد ، أتت واحدا اثر الآخر ، لتحط فوق جرف عال ، وكان أمرا مسليا أن أراقب كيف تتعارك هذه الطيور لتهيئة مجثمها الليلي ، فلم يكن أي منها براغب أن يجثم الى الأدنى من النسور الأخرى ، ومضى العراك بينها فترة طويلة قبل أن تنجح في تنظيم نفسها بأن تجثم جميعا متجاورة ، في شق طويل في الصخرة •

وبعد ساعة كان على أن أغادر المقابر فقد اقترب وقت متابعة الرحلة ، فالتحقت برفاقي عند بحر يوسف ، وكانوا قد رأوا واحدا من حيوانات ابن آوى وذئبا كبيرا ، لكنهما ــ لسوء الحظ ــ كانا بين الصخور وبعيدا عن مجال البنادق ، وكان الدوق الكبير قد رأى أيضا واحدا من طيور النزافيات Vampire ( وهو طائر في حجم الغراب ) في اللحظة التي كان فيها هذا الطائر المقرف خارجا من احدى المقابر •

**الوصول للبدرشين :**

وركبنا بسرعة عائدين لمرسى سفينتنا ، وودعنا بحرارة أدميرالنا الأسود المحترم ، وودعنا أيضا سفينتنا الشجاعة التي كانت مسكنا لنا طوال الأيام الممتعة الماضية • انها أيام جميلة لا تنسى ، وذهبنا الى محطة السكة الحديد القريبة • وسرعان ما اتجه القطار شمالا مغادرا أسيوط وسرعان أيضا ما غشانا النوم اللذيذ ، وعندما استيقظت في بكور اليوم الخامس عشر من الشهر ، كانت الشمس تتغلغل في عرباتنا وكنا قد وصلنا بالفعل لمحطة صغيرة مهملة هي محطة البدرشين • فتناولنا افطارنا في غرفة انتظار قذرة ، ثم بدأنا الركوب الى منف ( ممفيس Memphis) • وكان الطريق يمر بين برك سبخة وحقول جيدة وغابات نخيل حتى وصلنا لقرية ميت رهينة Mitrahenne الراقدة بين خضرة كثيفة يانعة ذات طابع خضري أفريقي •

وسأترك برجش يحدثنا عنها :

« لقد ولت للأبد حـكايات بهـاء مدينة منف Memphis القديمة وعظمتهـا ، أو كمـا سـمتها النقـوش المصرية ، ممنوفر Mem-nofir وتعنى ( المرعى الخصب Good pasture) فمعابد منف وقصور ملوكها القدماء الذين اتخذوا منها عاصمة قد محيت من فوق سطح الأرض ، وليس ثمة حجر واحد مما بقى منها يذكرنا بمؤسسى المدينة الأول • أما الآن فالمنطقة محاطة بأسوار طينية مهدمة تمتد على طول حزام النخيل المحيط بقرية ميت رهينـة ( وهى مينـات ـ را ـ هانـو القديمـة old Minet R. hannu) الى الشمال والى الجنوب محددة ـ أى الأسوار ـ زمام ممفيس ( منف ) الواسع ، الحاضرة السالفة للوطنية المقدسة ( الحرم الوطنى ) فهنا كانت توجد معابد الاله بتاح المبدع العظيم وصانع كل الأشياء المخلوقة • وحرم هذا الاله كان محميا بخطوط قوية محصنة ، وكانت هذه التحصينات تشكل قلعة المدينة التى يقع بداخلهـا ما يعد بمثابة تمثال ربة الحكمة أثينا الذى ارتبطت سلامة طروادة بسلامته ، فقد ارتبطت سلامة الامبراطورية المصرية بسلامة ما بداخل قلعة منف ومن ثم فقد دافع المصريون بشدة عن المدينـة ضـد الأعداء الداخليين والخارجيين خلال حقب التاريخ المصرى •

والآثار القليلة التى لا تزال باقية ممتدة على أراضى هذه البقعـة المقدسة تعود لمبانى عصور متأخرة : معابد أراد بعض الملوك الذين ترجع أصولهم الى طيبة ، بانشائهـا ، أن يقدموا الدليل على تعاطفهم وولائهم للحرم المقدس القديم للمملكة (المصرية) ، فرمسيس الثانى والد ( سيدنا ) موسى بالتبنى Adoptive father ، ويسمى أيضا سيزتورا Sestora أو ( سيزوستريس Sesostris) ولد سنة ١٣٥٠ ق•م • يعد على رأس هؤلاء المؤسسين الملكيين • وبقايا المبانى الأولى التى أسسها والتى كانت تعد على نحو ما امتدادا لخرائب معابد أقدم ـ مطروحة الآن ومبعثرة فوق الأرض • وتمثاله الضخم الذى كان ـ ذات يوم ـ شامخا أمام بوابة معبد بتاح العظيم Ptah ـ يعد ( أى هذا التمثال ) واحدا من روائع النحت المصرى ، وهو منحوت من حجر جيرى جميل Limestone يشبه الرخام ، وهو ( أى التمثال ) • مطروح الآن فى منطقة يغمرها ماء النيل سنويا فى موسم الفيضان •

وملامح هذا الفرعون العظيم تذكر ـ بحيوية ووضـوح ـ بتمثاله الجميل فى متحف تورين Turin • والقطـع العـديدة حول تمثـال رمسيس ـ والتى تحمل أسماء خلفـائه خاصـة ابنه الملك مينبتاح Mineptah ( الفرعون الذى خرج اليهود فى عهده ـ من مصر ) ـ تبين

أن هؤلاء الملوك قد قدموا القرابين المختلفة أنواعها لاله مصر ( لرب مصر الأعلى Supreme divinity) في بواكير التاريخ المصرى •

فالثور المقدس أبيس ( هابو Hapu كما أسماه المصريون القدماء ) كان مكرسا للاله نفسه ـ بتاح باعتبار هذا الاله تجسده ( حل ) في جسد الثور ، وكان الثور أبيس قائما بجانب المعبد العظيم في احدى الباحات الخارجية الملحقة بالمعبد ، وكان يحظى بالتقديس والعناية الفائقة • وعند موت الثور المقدس جرت له مراسم دفن مهيبة تكلفت تكاليف كثيرة ، وحملت جثته المحنطة المزينة بزينات كثيرة ـ في عربة ، وجيء بهـا الى مقبرة أبيس Apis » • وركبنا من منف خلف الأراضى الزراعية صاعدين في صحراء مصر الغربية ( الصحراء الليبية ) الى أهرام سقارة بعد منزل ماريت Mariette الى مقابر أبيس •

المنطقة هنا تشبه تماما منطقة أهرام الجيزة • اذ يمكن رؤية أهرام الجيزة عندما يكون المرء عند أهرام سقارة ، وكذلك يمكن رؤية القاهرة وقلعتها ، وجبال المقطم •

وتوغلنا ـ مزودين بالمشاعل ـ في شبكات طرق مقابر أبيس تحت الأرض • لقد بدت لا نهاية لها ، وكان هواؤها جافا مقبضا •

« وقد كانت الثيران ـ في أكثر فترات التاريخ المصرى ازدهـارا وكذلك في الفترة المتأخرة ـ توضع في تابوت ضخم من الحجارة الصلدة وتطرح في حجيرات منفصلة في ممرات تحت الأرض ، وكانت ترتب في مواضعها ترتيبا زمنيا ( كرونولوجيا ) ، ولكل حجيرة ( قبر ) نقوشها الخاصة بها • ومقابر أبيس في منف التى هيئت الآن بأفضل الوسائل ليزورها الأجانب ـ تضم الآن أربعة وعشرين من هذه التوابيت الضخام • وسلسلة الثيران المقدسة المدفونة هنا تبدأ من منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد وتنتهى زمن الامبراطور أغسطس Augustus .

أما الثيران التى عاشت قبل هذه الفترة فقد دفنت في هرم سقارة المدرج ، ففى داخل هذا الهرم توجد مساحة واسعة مقنطرة بها محاريب وممرات منفصلة • وبقايا عظام الثيران التى بقيت تشير بوضوح الى الهدف من انشاء هذا الهرم » •

وتناولنا افطارنا في منزل صغير بالقرب من مقابر أبيس وكان عالم المصريات الشهير ماريت Mariette ـ الذى توفى مؤخرا ـ قد أقام هذا المنزل لأغراض الدراسـة ، وبعد ذلك ذهبنـا الى المدرجات الدنيا للهرم الشهير لاصطياد حيوانات ابن آوى • وما كاد العرب يبدءون في تسلق

المدرجات حتى مر — كالبرق — واحـد من حيوانات ابن آوى ، هابطا المدرجات ، ولم أتمكن من اطلاق بندقيتى تجاهه • وبعد جولة الصيد الصغيرة هذه زرنا الأهرامات الأخرى القريبة ، وكان الصغير منها قد افتتح مؤخرا وهو يعود الى الملك بيبى الأول Pepi I •

## عن الأهرامات وأبى الهول :

وليسمح لى القارىء أن أقتبس بعض الملاحظات عن الأهرامات بشكل عام فى منف والجيزة ، وأيضا عن ( أبو الهول ) تفضـل بها صديقى برجش :

« اله منف الوطنى القديم ، بتاح ، بقدرته الخاصة كملك للموتى ، وحام للراحلين ( الموتى ) حمل اسم سوكارSokar . وهو بقدراته الخاصة تلك يعد مماثلا تماما للاله أوزوريس الذى هو بمثابة اله لكل مصر • والأماكن المخصصة لعبادته تقع فى قرية سقارة الحالية التى تحمل الاسم المصرى القديم نفسه الذى يعنى ( بيت سوكار house of Soker) • وقد اشتق الاسم العربى للقرية من الاسم المصرى القديم • ويحمى اله الموتى مقابر أهل منف الكائنة حول الأهرام بشكل منظم ويعود أقدمها الى زمن ملوك منف • وقد أقيمت مدينة الموتى الجنائزية مشيدة بالحجارة وتسمى « بيوت الخلود houses of eternity » ويشكل ما بين صفوف هذه المعابد شوارع مدينة الموتى • وتحت هذه المعابد توجـد الغرف الحقيقية التى ارتاح فيها الموتى راحتهم الأبدية فى توابيت حجرية أو خشبية • وأفضل قبر من حيث بقائه فى حالة جيدة من أيام ملوك منف ، هو هذا القبر الذى يعود لمصرى ذى مكانة رفيعة اسمه ثى Thi ، وقد عاش فى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد وقد جهز لنفسه معبدا بالقرب من أهرامات هؤلاء الملوك الذين تولى فى ظلهم منصب آمر الدولة officer of State .

وتعتبر الرسوم الثرية فى ألوانها والدقيقة والرقيقة والمتقنة على جدران هذه المقابر والمعابد ذات قيمة عالية لكثرة ما بها من مشاهد عن الحياة لدرجة أنها تضع أمام نواظرنا بشكل حى تمـاما أحوال الزراعة والصناعة ومراسم تقديم الأضحيات فى هذه الحقب الموغلة فى القدم من تاريخ الانسانية •

ويرجع وجود هذه الرسـوم الى الاعتقاد أنه فى العـالم الآخر ، ستبقى الممتلكات الخاصة بالأثرياء وملاك الأراضى المميزين تابعة لأصحابها كما كانت فى الحياة الدنيا • ولم تترك هذه الرسوم مظهرا من مظاهر الحياة ولا منشطا من مناشطها الا سجلته : الملاحة ، توليد الماشية ،

الزراعة ، فيضان النيل ، الحرف وأصحابها بدءا من مصلح الأحذية حتى النجار ، الرسم والنحت ، مما يجعل هذه الصور سجلا للحياة فى الغاية من الدقة • وللزوجة والأطفال مكان بارز فى هذه الرسوم ، فالزوجة تحظى بالتقدير بسبب صفاتها الجديرة بالاطراء والتى تبلغ الأوج فى التعبير القائل : « جمالها مضرب المثل وحلاوتها فى لطفها مع زوجها » •

وفى مدن الأموات فى منف ــ التى تمتد بغير انقطاع من أبو رواش Abu-roash الى الفيوم ــ نجد أن المقابر القديمة لملوك منف مرتفعة تبدو من بعيد عند حافة الهضبة الصحراوية • وقد حكم هؤلاء الملوك فى مصر من سنة ٤٠٠٠ ق•م الى ٢٥٠٠ ق•م•ورغم أن العدد الكبير من هذه المقابر قد سوى ــ قبل الآن ــ بالأرض ، فان ما بقى منها فيه الكفاية لتمكيننا من تكوين حكم صائب عن أسلوب بنائها ووسائل تنفيذها • ولغرفة الدفن غالبا سقف مستدق يقوم على عمودين حجريين ، يقف كل عمود منهما مقابل الآخر ويميلان الى الأعلى فى اتجاه النقطة المستدقة ، ويجب النظر الى هذه النقطة باعتبارها النقطة الجوهرية فى أى هرم • وكتل الغطاء الحجرى فوقها تأخذ شكل هرم ، وكانت زوايا الشكل الهرمى تسمى بالمصرية القديمة بيراموس Pir-am-us ، ومنها أخذ الاغريق كلمة Pyramis ويضاف للهرم وفقا لطول فترة حكم الفرعون الذى بناه ، فكلما ازدادت فترة حكمه ازداد حجم الهرم ، فالهرم ينمو بزيادة فترة حكمه ، والاختلاف فى ارتفاعات الأهرامات تمثل ــ وفقا لهذا ــ الاختلافات فى مدد حكم مؤسسيها ، بينما ترتيبها الموضعى بحيث يتبع بعضها بعضا من الشمال الى الجنوب فيمثل فى عين المراقب ترتيبها الزمنى ( الكرونولوجى ) أيضا •

والدخول للأهرامات يكون ــ دائما ــ من الشمال • ويغلق باب الهرم بكتلة جرانيتية ، وبعد المدخل يوجد انحدار ، ثم ممر مستو ينتهى بغرفة الدفن نفسها حيث موميـاء الفرعون فى تابوت عادة ما يكون من الجرانيت ، فى الجانب الغربى من الحجرة •

وأحجار الأهرام التى تشبه درجات السلم منعمة من الخارج وعندما تثبت معا تبدو ذات سطح أملس ، فيبدو الهرم بأحجاره تلك ككتلة واحدة من القاعدة الى النقطة المستدقة فى أعلاه ، متخذا شكل مثلث •

وقد فتح الباحثون عن الكنوز معظم الأهرامات منذ وقت باكر • فقد بحث الفرس بقيادة قمبيز ، وكذلك الرومان ثم الخلفاء العرب عن كنوز مدفونة داخلها ، وفى أيامنا تلك جرت محاولة أخرى للتوغل داخل أهرامات سقارة •

ووفقا لما ذكره برجش باشا ، فقد كنا أول أوربيين يزورون هرم الملك بيبى منذ فتح ٠

وحتى فى الأزمنة الكلاسية فان أهرامات الجيزة العظيمة كانت تعد من بين عجائب الدنيا ، ولا زالت هذه الأهرامات تثير اعجاب معاصرينا حتى الذين لا يعجبهم العجب منهم ٠ فالكتل الحجرية الضخمة المستخدمة فى تشييدها ، بل وحتى طريقة توزيعها فى هذه المبانى العملاقة ليس لهـا نظير فى أى مكان آخـر ٠ وهرم الجيزة الأكبر كان ارتفاعه ـ فى البـداية ـ أربعمـائة قدم وخمسـة عشر قدما ( ٤١٥ قدما ) ، وقدرت أحجاره بما لا يقل عن خمســة وسـبعين مليـونا من الأقـدام المكعبة ( ٧٥٠٠٠ر٠٠٠ قدم مكعب ) ، ومن التقديرات أن الأحجار المستخدمة فى بنائه تكفى اقامة سور بارتفاع ستة أقدام حول فرنسـا ٠ وقد حددت النقوش اسم صاحب الهرم ٠ انه خوفو Chufu ويكتبه المؤلفون الكلاسيون Cheops الذى حـكم مصر سنة ٢٧٠٠ ق٠م ٠ أمام هرم ابنه وخليفته خفرع Chafra ( وهو Chephres بالنسبة للاغريق ) فقد تم انشاؤه فى اتجاه الجنوب الغربى من الهرم الأكبر ، ولا يزال هذا الهرم الثـانى ( هرم خفرع ) يحمل غطاءه الملاطى old Coating الخارجى ٠

وعند سفحه كان يوجد هرم خاص على شكل معبد شيد من كتل حجرية كلسية وجرانيتية ومرمرية ( ألابستر ) ، ووجد طريق يمتد الى الشرق ربط هذا المعبد بما يسمى معبد أبى الهول Temple of the Sphinx وبقايا هذا الطريق لا تزال واضحة ويدل على أنه بحالة جيدة ، ، وقد تم تنظيفه مؤخرا من رمال الصحراء ٠ وأرضية معبد أبى الهول يوجد بها فى قاع بئر ممتلئة الآن بالماء ـ عدة تماثيل للملك خفرع تم اكتشافها ٠ وتحظى باهتمام خاص من السائحين الأوربيين ٠ لكن ليس من نقوش على الجدران الجرانيتية والمرمرية لهذا المبنى العملاق ، وظل الهدف من انشائه لغزا لم يحل ! ٠

## وفيما يلي قائمة بالأهرامات ومشيديها من الملوك

| المكان | الهرم | مؤسسه | الاسم باليونانية | الأسرة |
|---|---|---|---|---|
| ابو رواش Roash | خا Cha | سنفرو Snefru | سوريس Soris | الرابعة ـ ١ |
| الجيزة Gizeh | خوت Chut | خوفو Chufu | Cheops | الرابعة ـ ٢ |
| | وير Uer | خفرع Chafra | Chephren | الرابعة ـ ٣ |
| | هير Hir | منقرع Menkara | Mycerinus | الرابعة ـ ٤ |
| Zauit el-Arian | كيباه Kebeh | Scheps-Kaf شبسسكاف | Sebercheres | الرابعة ـ ٧ |
| Rigah | أب ست Ab-set | أوسركاف Userkaf | Usercheres | الخامسة ـ ١ |
| ابو صير Abusir | خابا Chaba | سحورع Sahurah | سيفر Sephres | الخامسة ـ ٢ |
| | ؟ | كيكا keka | ؟ | |
| | ؟ | نوفرا Nofra | ؟ | |
| | منست Menseet | رانوسر Ranurer | Rathures | الخامسة ـ ٦ |
| سقارة Sakkara | نوتر ـ ست | منكاهور Menkahor | Meruheres | الخامسة ـ ٧ |
| | نوفر | تاتكارا Tatkara | Tatcheres | الخامسة ـ ٨ |
| | نوفر ـ ست | اوناس Unas | Onnos | الخامسة ـ ٩ |
| | تات ـ ست Tat set | تيتا Teta | Othoes | السادسة ـ ١ |
| ؟ | ؟ | اوسركارع Userkara | Usercheres | |
| | من ـ نوفر Men-Nofer | بيبى الاول Pepi I | Phiops I | السادسة ـ ٤ |
| | خا نوفر Cha-Nofer | هيونماسوف Hunemsaf | Menthsuphis | السادسة ـ ٥ |
| | من ـ آنه Men-Anoh | نوفركارع Noferkara (Pepi II) | Piophs II | |

والنصف الأدنى من ( أبو الهـول ) مغمور في الرمال وتسـمية النقوش هو Hu، وتصفه باعتباره تجسيدا رمزيا لاله الشمس باسمه هورماشو ( هورماخو ) Hormachu ( حورس ) ، وملامح التمثال التى اعتراها ـ لسوء الحظ ـ تدمير شديد ، تمثل موجده الملكى . its royal author

وثمة شريط طويل من النقوش بين القدمين الأماميتين لجسم الأسد ، لكن هذه الكتابات مطمورة الآن فى الرمال وهى تسجل حلما مدهشـا لواحـد من الفراعين المصريين الأواخر • فقـد نسب الى تحتمس الرابع Thutmes IV ( دفن حوالى ١٥٣٠ ق٠م ) هذه الرؤيا :

« انظر ، لقد كان ميالا ليصطاد ـ للترفيه عن نفسه ـ فى زمام مقاطعة منف ـ جنوبا وشمالا ـ حيث قذف بسهامه النحاسية على الهدف ، فاصطاد أسود وادى الغزال •

لقد أتى هنا فى عربته الملكية التى تجرها خيول أسرع من الريح • وكان معه اثنان من خدمه لا أحد يعرف عنهما شيئا •

وانظـر اليه عنـدما يحين وقت الراحـة ، ذلك الوقت الذى يهبه لخـادميه ، فانه يكرس هـذا الوقت لتزيين ( أبو الهـول ) الخـاص بالاله هورماشو Hormachu ، الى جوار معبد الاله سوهـار Sohar فى مدينة الموتى ، والربة رانتونى Ranuti ، بتقديم القرابين من القمح والزهور ، ويصلى لايزيس Isis التى أمر من أجلها ببناء السور الشمالى والسور الجنوبى ، ويصلى للاله سخط Sochet فى جزايس ( سخا ) وللاله سوتيك Sutek من أجل السحر الجليل الباقى من عصور مضت فى هذه البقعة المقدسة ، بل وحتى للمناطق التى تقطنها آلهة بابليون ( القـاهرة القـديمة ) وحيث يوجد الطريق المقدس للآلهة فى الجانب الغربى من هليوبولس Heliopolis • من أجـل مشـاهدة أبى الهول الاله العظيم الشـامخ شبر Cheper الباقى فى هذا المكان ، الأعظم بين الأرواح والأكثر عظمة • الذى اليه يتوجه كل قاطنى منف وكل مدن مصر بالعبادة رافعين أيديهم نحو وجهه ، ولتنحر له الأضاحى •

« لقد حدث ذات يوم يوم أن الأمير تحتمس أتى هنا فى رحلة فى منتصف النهار تقريبا وبعد أن استظل بظل هذا الاله أخذته سنة من النوم فرأى فيما يرى النائم فى اللحظة التى تكون فيها الشمس وقفت فى السمت ، لقد بدت له كما أن هذا الاله الجليل تحدث اليه بفمه حديث الأب لابنه قائلا : « شاهدنى ، وانتبه لى جيدا أنت ابنى تحتمس • أنا

أبوك هورماشو ، أنا الاله شبر ــ را ــ تم • سأهبك الملك • ستلبس تاج مصر على عرش اله الأرض كب Keb ، ستصبح الأرض كلها لك بطولها وعرضها يغمرها نور العين المشعة لرب العالمين Lord of all ستأتيك الثروات من المناطق الداخلية وستجبى كثيرا من كل الناس وستنعم بعمر مديد • وستحظى بالأفضل لأن وجهى قد استدار لك وقلبى تعلق بك • رمال الصحراء قد غطتنى • قل انك ستفعل وفقا لرغبتى ، عندئذ سأعرف أنك ابنى المدافع عنى • اقترب منى ودعنى أتحد بك » •

« عندئذ استيقظ الأمير وكرر ما سمعه للتو • لقد فهم قول هذا الاله ووعاه فى نفسه ، بينما هو يقول :

« فى الحق انى أرى الناس فى معابد منف • يقدمون الأضحيات لهذا الاله دون أن يفعلوا شيئا لحمايته من الرمال عمل الملك خفرع ، الصورة ( التمثال ) التى رفعها ( كرسها ) للاله ثوم ــ هورماشو Tom Hormachu ... » .

واعترى النص تشويه بعد ذلك وتعذرت قراءة ما بقى منه • وان كان من السهل تخمين ما حدث بعد ذلك • فقد أزاح تحتمس الرمال من حول ( أبو الهول ) ومن ثم توج ملكا لمصر • وهى حقيقة ليست ذات قيمة تاريخية كبيرة ، لكن الطريف أنه حتى فى القرن السادس عشر قبل الميلاد كان أبو الهول ــ كما هو الآن ــ مطمورا الى نصفه فى الرمال العميقة • وساضيف هنا الى هذه المقتطفات التاريخية بعض الملاحظات عن الفيوم لأنها تمتد الى الجنوب من منف القديمة • يرجع الاسم الحديث الى الكلمة القديمة با ــ جوما Pa-Juma وتعنى أرض البحيرة ، والمقصود هو بحيرة موريس Moeris التى كانت شهيرة جدا ــ لكنها الآن تلاشت •

وكانت بحيرة موريس ــ فيما مضى ــ الجزء الجنوبى الشرقى من واحة الفيوم ، وكانت بمثابة مخزن طبيعى للمياه متصل بالنيل عن طريق قناة عريضة ونظام للتصريف يؤدى لوصول فائض مياه الفيضان اليها (٤) •

وتستقبل القنوات ما يكفى لرى الأجزاء الرئيسية فى الواحة ( الفيوم ) وتحول هذا الحوض ( مخزن المياه ) الذى كان ذات يوم غير ذى جدوى بمرور الوقت الى حديقة للاله Garden of God ونتيجة لاهمال الحكومة اختفت البحيرة بعد أن وجد ما بقى بها من مياه طريقه الى بحيرة قارون • وكل المنطقة المحيطة بالفيوم كان يعتبر بالنسبة للمصريين القدماء ــ شيطانيا Satanic لذا فهذه المنطقة لم تظهر أبدا فى القوائم المقدسة للمدن ولا قوائم أسماء المقاطعات districts .

فهنا كانت مملكة ست ، وهو بمثابة الشيطان بالنسبة للمصريين ، وهنا مركز عبادة التمساح الذى يكرهه بقية المصريين خدم أوزيريس • وكان يوجد معبد مخصص للتمساح فى مدينة كروكوديلوبولس Crocodilopolis بجاور لمدينة الفيوم الحالية •

وقبل أن أترك هذه المناطق المصرية المهمة التى لفتت انتباهنا طوال الفصلين الأخيرين للتراث الثالث للمصريين فى عصر الفراعنة سأضيف القوائم التالية (*) •

★★★

وبعد أن تسلقنا هرم الملك بيبى الأول ببعض المشقة والمعاناة ، غادرنا الصحراء وآثارها القديمة وركبنا عائدين الى الأرض الزراعية •

واجتزنا أثناء الطريق مزارع الأريقة ( أشجار نخلية ) Areca (**) التى تشكل بيئة مناسبة جدا الأغراض الصيد فرأينا أن يقوم خدمنا باثارة الطرائد فيها وشاركهم فى ذلك بعض الفلاحين ، ومما يؤسف له أن مالك الأرض ظهر فجأة ورغب البنا ألا ننتهك حرمة ممتلكاته •

وكان هذا الشخص الذى لا يعرف التراجع زنجيا عجوزا ، وكان أغا ( طواشيا ) ضخما حجمه كأنه جان ، لكنه كان نحيلا ذا ملامح مترهلة وكان يلبس عباءة واسعة وعريضة — انه واحد من أبشع واقبح من رأيت على الاطلاق ، وكانت نظرته عدوانية وقد اكتسب من مهنته المحترمة قدرا كبيرا من المال ، وهو يقضى الآن شيخوخته فى ممتلكاته الواسعة • وتجنبنا الخلاف معه فركبنا للبدرشين ومن هناك أوصلنا القطار للقاهرة فى أقل من ساعة ، وها نحن مرة أخرى — بعد هذه الرحلة الطويلة المليئة بالخبرات الممتعة — نعود للقاهرة الجميلة — مدينة الخلفاء •

---

(★) الحقنا هذه القوائم باخر هذا الفصل — ( المترجم ) •

(★★) يسمى أيضا نخيل الكوثل — ( المعجم الزراعى ) •

## الأقسام الجغرافية والادارية لمصر

## كما وردت بالآثار

### ( أ ) با – تو – ريس ( مصر العليا )

The Political And Geographical Division of Egypt According To The Statement on The Monument.

A. Pa — To — Ris, or The Land of the South.

| Province | ARABIC | GREEK | SACRED ANIMAL |
|---|---|---|---|
| 1. Tepah | Alfih | Aphroditopolis | Cow |
| 2. Smenhur | Isment | Ptolemais | Ram |
| 3. Chinsu | Ahuas | Heracleopolis Manga | Ram |
| 4. Pimaza | Pemdige | Oxyrinchus | Beaked bandolus (fish) |
| 5. Habennu | Hebe | Hipponus | Dogs |
| 6. kasa | Kais | Cynopolis | Dogs |
| 7. Hibonu | Minieh | Hiu | Ram |
| 8. Chimunu | Aschmun | Hermopolis Magna | Ibis |
| 9. Kus | Kos | Cause | Dogs |
| 10. Siaut | Ossiut | Lykopolis | Dogs |
| 11. Nientbaki | | Hieracoupolis | Falcon |
| 12. Shasholf | Sholp | Hypselis | Ram |
| 13. Tebu | Atfi | Aphroditopolis | Cow |
| 14. Apu | Abu | Panopolis | Ichneumon |
| 15. Abidu | Harabat | Abydus | Beetle |
| 16. Hau | Hon | Diospolis Parva | Cow |
| 17. Tentaris | Dendera | Tentyra | Cow |
| 18. Kobti | Kift | Koptus | Ram |
| 19. Ni-amon | Lugsor-Karnak | Thebae | He-goat |
| 20. Nechab | El-kab | Eileithyiapolis | Vulure |
| 21. Teb | Edfu | Apollinopolis M. | Falcon |
| 22. Ab | Assuan | Elephantine | Hè-goat |

## ( ب ) با ـ تو ـ انخت ( أرض الشمال ـ الدلتا )

| PROVINCE | ARABIC | GREEK | SACRED ANIMAL |
|---|---|---|---|
| 1. Kosem (Goshen of Scripture) | Fakus | Phakusa | Hawk |
| 2. Am | Far-ama | Pelusium | Serpent |
| 3. Pibast (Pibeseth of Scripture) | Tell-bast | Bubastis | Cats |
| 4. To-mchit (No-amon of Scripture). | Damiat | Diospolis | He-goats |
| 5. Bindad | Amdid | Mendes | He-goats |
| 6. Chimum | Ashmun | Hermopolis | Ibis |
| 7. Zaan (Zoan of Scripture) | San | Tanir | Falcon Gull |
| 8. On (On of Scripture) | Matarich | Heliopolis | Ox |
| 9. Thabennuter | Samanud | Sebennytus | Falcon |
| 10. Kahebes | ? | Cynopolis | Crocodile |
| 11. Hatarihab | Etrib | Athribis | Ox |
| 12. Pusisi | Abusir | Bpsiris | Ram |
| 13. Pitom (also in Scripture) | Tell-el-Kebir | Patumus | Eel |
| 14. Sontinofer | Alexandria | Gyynaecopolis | Crocodile |
| 15. Chasun | Hasse | Sais | Ram |
| 16. Sai | Sa | Prosopis | cow |
| 17. Zokpir | Shebshir | Apis | Crocodile |
| 18. Ni-ent-hapi | ? | Letopolis | Ox |
| 19. Sochem | Ausim | Memphis | Hawk |
| 20. Menofir (Noph of Scripture) | Munf | | Ox |

# تعليقات المترجم عـلى الفصل الخامس

(١) راجع تعليق رقم ٧ بالفصل الرابع ٠

(٢) راجع تعليقات الفصل الرابع ٠

(٣) يلاحظ القارىء الكريم أن دلالة الكلمة فى اللغة العربية هى الدلالة نفسها التى يحملها اسم هذه الربة المصرية القديمة ٠

(٤) فى وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية أن بحيرة قارون هى نفسها بحيرة موريس ٠

# الفصـــل الســـادس

**يوم فى القاهرة ـ حديقة الأزبكية ـ مولد الحسين ـ الى الجزيرة والجيزة ـ الصيد عند الهرم ـ الرحلة الى المنزلة ـ دميـاط ـ بقايا الهكسوس ـ جزر المنزلة ـ بورسعيد ـ البرود الانجليزى ـ ارتطام فى القناة ـ من بورسعيد للاسماعيلية ـ الى القاهرة ـ شجرة مريم ـ مزرعة النعام ـ الحمام التركى ـ القلعة ومسجد محمد على ـ شخصية محمد على ـ مذبحة المماليك ـ بئر يوسف ـ الكتبخانة ـ الحاوى ـ الى القنـاطر ـ الدراويش ـ الرحلة للسويس ـ عن برزخ السويس ـ سيناء ـ عيون موسى ـ لقاء مع دى ليسبس العجوز ـ الى بورسعيد ـ مغادرة مصر ـ رسـوم الفنـان بوسنجر • تعليقـات المترجـم •**

ووصلنا من المحطة الى مدينة الخلفاء القديمة ( القاهرة ) بعـد أن قطعنا طريقا جميلا تحفه الأشجار وعبرنا جسرا ضخما على النيل ، وكانت شوارع المدينة تغص بالحياة ، فالوقت كان عصرا •

العربات والعربجية ، والسائرون على أقدامهم • سرعة ذات طابع غربى ، ونشاط جنبا الى جنب مع قوافل الجمال والنسوة القرويـات المحجبات والحمير الناهقة والسقاءون والمتسولون العمى — وكل ما له رائحة الماضى ، وكنا سعداء أن نعود مرة أخرى للاستمتاع بالحياة فى القاهرة • وسرعان ما وصلنا بعد أن مررنا بالحى الغربى وعبرنا جسر ترعة الى طريق شبرا الذى تحفه الأشجار ومن ثم الى مقر اقامتنا فى قصر النزهة •

وبعـد أن استحممنا وتناولنا عشـاءنا شغف بعضنا سحر الليالى الافريقية المقمرة فاتخذنا سبيلنا الى داخل المدينة بعربات مستأجرة •

**حديقة الأزبكية :**

وتوقفنا فى حديقة الأزبكية وتجولنا بين الأشجار والنباتات وبالقرب من البرك وحول مساقط المياه الصناعية والصخور والأكشاك •

وكان الناس جالسين فى معظم المطاعم ــ خاصة أهل الشرق الأدنى العاملين فى التجارة ــ ورأينا الشباب يقضون وقتهم فى الشراب والاستماع للموسيقا ولعب الورق ٠

وتعتبر حديقة الأزبكية هذه نعمة عظيمة للقاهريين ٠ خاصة فى فصل الصيف ٠ انها حديقة تلقى العناية ويتم الانفاق عليها بسخاء كما أنها مزدهرة ويانعة بفضل المناخ الملائم ٠ ويبلغ تأثيرها أروع درجاته عندما يكون القمر بدرا ، أما بالنسبة لنا فقد بدا لنا قمر القاهرة شاحبا ، ولا غرو فهو بالفعل كذلك اذا قورن بقمر أسوان ٠

**مولد الحسين :**

ومن حديقة الأزبكية انطلقنا لنجول خلال الحي العربى القديم ، وقد اخترنا أمسية مناسبة ، وكان ذلك من محاسن الصدف اذ كان المسلمون يحتفلون بمولد الحسين the feast of the great El-Hossein لنا ، فقد استمتعنا بمناظر شائقة للغاية لمهرجان شرقى ليلى كان معقودا فى الشوارع القريبة من المسجد الذى يحمل اسم « مسجد الحسين » ٠

جموع كبيرة من الناس كانت تتحرك فى الشوارع الضيقة غدوا ورواحا ، والحوانيت والمقاهى مشرعة أبوابها والمصابيح والشموع مثبتة الى البيوت ، وقد بسطت سجاجيد زاهية فى الطرقات ، وتتدلى فى الشوارع الثريات الزجاجية معلقة فى حبال ملونة ، وكل المنازل مزينة بزينات غالية أو رخيصة وفقا لمدى ثراء ملاكها ٠ كان كل شىء مبهجا يغمره الضوء ، وكانت الألوان زاهية متعددة ، وكانت المشاهد خصبة خصوبة تفوق الوصف ٠

وراح المسلمون من مختلف الطبقات والمهن يدفع بعضهم بعضهم الآخر ( يزغد بعضهم بعضا ) ، لقد كان الجميع يتزاحمون وهم فى طريقهم لمسجد الحسين الذى بدا فى أحسن زينة ، وقد تدلت المصابيح من أبوابه الواسعة المشرعة ــ وترى فى هذا الجمع المزدحم المتجه للمسجد ــ الفلاحين التقايديين بأثوابهم الزرق والسقائين وهم يصيحون ، والمتسولين وهم يشكون والغجر وهم ينتحبون ، كما ترى البدو بعباءاتهم البيض والتجار المكتنزين لحما ، والمحترمين الذين يرتدون ملابس ذات ألوان مفرحة ويضعون عمائم خضرا على رءوسهم بزعم أنهم من سلالة الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) والجنود وبائعى مختلف البضائع والأشياء ٠

ومن هنا توجه الجمع المزدحم الى الجانب الأعلى من الطريق حيث الحواة الذين يلعبون بالأفاعى والمشعوذون والراقصون والراقصات مما أضفى على الطريق روح السوق الشرقية ٠

وكان معنا فى هذه المناسبة برجش باشا Brugsch فنصحنا بعدم الذهاب للمساجد ونحن فى ملابسنا الغربية لكثرة المتعصبين به فى ذلك الوقت ، ومن ثم فقد شققنا طريقنا الى حيث المشعوذين والحواة لنراقب الحياة الوطنية الحقيقية للشعب · الشارع يصعد بنا تصعدا وئيدا ، لذا فلم نتمكن من القاء نظرة فوقية شاملة على هذا الخليط وعلى الألوان الغريبة والأضواء · لقد بدا غريبا ومسعورا بالنسبة للمسلمين الشرقيين وذكرنى بشدة بالباليه البندقى ( الفينيسى ) الذى يمثل مهرجانا شعبيا صينيا ·

وبعد فترة عدنـا الى الحى الأوربى حيث كانت المقـاهى ومحلات النبيذ لازالت مزدحمة · هنا — كما فى أى مكان فى بلاد الجنوب — يتحول الليل الى نهار ورأينا الأوربيين الشرقيين من أغنياء وفقراء لكنهم كانوا يضعون الطرابيش فوق رءوسهم ويلعبون البلياردو والورق أو يستمعون الى الفرق الموسيقية ·

**زيارة الخـديو :**

وفى صباح اليوم التالى زرنا الخديو Viceroy لنشكره للكرم الفائق الذى حظينا به أثناء رحلتنا النيلية · ولم تكن زيارتنا هذه رسمية ، لذا فقد اتجهنا قبل الظهر تماما قاطعين الطرقات غير المزدحمة الى القصر · وقضينا ربع ساعة مع الخديو نشرب القهوة المعتـادة وندخن السجائر الممتازة وسأل ( الخديو ) بشوق بالغ عما جلصنا به من تجـارب فى رحلتنا النيلية المبهجة ·

**الى الجزيرة والجيزة :**

وعدنا من القصر سـالكين أقصر الطرق الى قصر النزهة لنرتدى ملابسنا الرياضية · وبعد فترة راحة قصيرة بدأ جمعنا كله للقيام بنزهة لمقرات Seats نائب السلطان فى الجزيرة والجيزة ·

الحدائق ذات جمال فريد ، ببحيراتها ومحطات مياهها ونوافيرهـا وأكشاكها ( ظلاتها الخشبية المعدة للراحة ) ومجازاتها المغطاة بالخضرة وطرقاتها الظليلة ، وروعة زروعها ، وكثرة زهورها التى تنشر عطرها على نحو لا يوجد الا فى مثل هذا المناخ · لقد أدت حرارة المناخ بالشرقيين الى أن يحيوا حياة بطالة ( حياة غير فعالة ) فنتج عن ذلك ذوق مصفى وعادات مترفة فصور مناظر وحكايات الشرق الخيالية ، يراها المرء هنا وقد تحولت الى واقع ملموس ، فالمرء يجد هنا كما يجد فى حكايات الشرق أن السعادة والمتعة هما الهدف الوحيد للحياة ، ولم يعد موجودا — لسوء الحظ — هنا

معرض الوحوش المشهور جدا ــ الذى أقامه آخر نائب للسلطان ، فلم نجد الا أقفاصا خاوية ٠

ولم يكن المنزل ( الذى أقمنا فيه ) يبعث على السرور كثيرا فقد كان المبنى واسعا ليس له نمط مميز ، وانما كان ذا طابع أوربى تماما لا يذكرنا بالشرق الا من خلال بعض الزينات العربية هنا وهناك ٠ وكان يضم من الداخل كثيرا من السلالم والقاعات ، والأهم من ذلك أنه كان يضم ما لايحصى من الغرف بدت غربية الطابع الا أنها جميعا مطلية بطلاء ذى لون فاقــع وبدت جرداء ٠ وذكرنا أننا فى الشرق بعض الدواوين التى فرشت بشكل جميل وأشغال الرخام والكوات الصغيرة فى الجدران وأوانى الزهور والمياه الجارية والحمامات الجذابة ٠

وثمة أماكن كثيرة داخل القــاهرة وحولها تكاد تكون غير مأهولة بالسكان ٠ وتتحمل بعض الأميرات كبيرات السن حياتهن الرتيبة المملة فى هذه القصور حتى النهاية ، ولأن صيانة هذه المبانى تتكلف مبالغ طائلة فانها تترك حتى يعتريها الخراب بالسرعة نفسها التى تم تشييدها وتزيينها فيها ٠ فكما أقيمت بسرعة ، فانها تخرب بسرعة ! ٠

وقد زرنا كل ركن فى هذه الحدائق وتلك المنازل ، ومن ثم اتخذنا طريقنا الى أهرامات الجيزة ٠

كانت الحرارة شديدة وكانت الرياح تقذف برمال الصحراء الى أنوفنا وعيوننا ، لذا فقد سعدنا عندما انتهينا من قطع هذا الطريق المل الطويل ، ووصلنا الى سفوح هذه المبانى العملاقة ٠

**الصيد عند الهرم :**

وكان هدفنا من زيــارتنا للأهرامات للمرة الثــانية هو اصــطياد حيوانات ابن آوى ، وتسلق هرم خوفو ، وبدأ بعض العرب فورا فى البحث ( بين صخور ) هذه المبانى الجليلة ولم يجدوا الا حيوانين من هذه الحيوانات ( حيوان ابن آوى ) : قتل الدوق الكبير واحدا منهما ، وأطلقت أنا النار على الآخر لكنهما كان بعيدين جدا ، فزحف الحيوان المصاب الى الصحراء ٠

ولم يكن ثمة أحد عند الهرم الثالث الصغير لذا فسرعان ما قررنا تسلقه ، وتحمل رفاقى المشــاق فتسلقوه فى عشرين دقيقة دون وقوع حوادث خطرة ، ورغبت أن أعطى العرب الذين تزاحموا حول السائحين وراحوا يرفعونهم خطوة خطوة ــ الفرصة لممارسة تدريباتهم الرشيقة فرحت أقفز من حجر الى حجر فوصلت الى قمة الهرم فى تسع دقائق ٠

ومن فوق صخرة مسطحة فى أعلى الهرم يمكن للمرء أن يشاهد منظرا جميلا لوادى النيل الأخضر والأرض الخصبة المتسعة لداتا نهر الصحراء ذات اللون البرتقالى من الجانبين ، ومدينة القاهرة الجميلة ببيوتها المزدحمة ومآذنها السامقة ٠

كانت الشمس تؤذن بالمغيب ، فبدا قرصها ككرة من لهب فى هذا الجو الضبابى المصفر المفعم بالحرارة ، العامر بذرات الرمال — واختفى قرصها فى صحراء مصر الغربية ( الصحراء الليبية ) وهبطت فى المساء على الجبال الشرقية وظهرت القلعة القديمة وجبال المقطم فى ألوان وردية خفيفة كألوان جبال الألب عندنا ٠

وجرى بعض المرشدين العاملين عند الهرم — خاصة البارعين منهم فى الجرى — أملا فى الحصول على بقشيش ، ليهبطوا — فى ثمانى دقائق ٠ قمة هرم خوفو ٠ ويصعدوا قمة هرم خفرع ، مع أن الجزء العلوى من هذا الهرم الأخير خطر جدا ومن الصعب تسلقه فليس به درجات يمكن الصعود عليها ٠

وبعد استعراض المهارات هذا هبطنا من محطتنا الشامخة هذه وفى الطريق أخبرنا مرشد شاب ذو ملامح جميلة وسحنة عربية أصيلة أنه ليس مصريا ، وليس واحدا من الفلاحين البؤساء وانما هو يشرف بأنه يتحدر من سلالة جزائرية نبيلة ، وأنه كرجل رأى العالم لا يعرف تونس فحسب وانما مراكش أيضا حيث يعيش العرب الحقيقيون لا البشر المخلطون البائسون الذين يعيشون فى وادى النيل ٠ وكان هذا الرجل الطيب يبدو ساخطا جدا على مواطنيه ( المصريين ) ونفس عن مشاعر السخط هذه بوضوح عندما وجد أن حواره شائق بالنسبة لى ٠

وعند سفوح الأهرامات كان علينا أن ننظر بارتياب الى ما يفعله بعض البدو ٠ لقد ركبوا ، ودابة أحدهم خلف دابة الآخر وانطلقوا بأقصى سرعة وأطلقوا النار من بنادقهم ولم يكن هؤلاء الرجال ولا خيولهم ولا ملابسهم ولا بنادقهم فى هيئة يمكن وصفها بأنها جميلة أو أصيلة ، فحيثما يذهب المرء يجد ابتزازا وخداعا تحت شعار ما يسمى بالعروض الوطنية ، وتعتبر الأهرامات هى محط أنظار السائحين ، وينتهز البدو فرصة ذلك فيمارسون خداعهم الغبى ٠ انهم ينتمون الى نفس الفئة التى تنتمى اليها الظباء المجترة التى تجدها مغرورة متشنجة فى غابات سويسرا ٠

لقد زحف المساء وكان علينا أن نكر عائدين الى مقر اقامتنا بسرعة سالكين الطريق نفسه الذى أتينا منه ، كما كان علينا — أثناء العودة —

أن نمر بشوارع المدينة التي كانت في هذه الساعة مفعمة بالحركة والنشاط ، ولما انتهينا من تناول وجبتنا اتجهنا للسكة الحديدية لنتجه الى المنزلة •

**الرحلة الى المنزلة :**

وتجمع بعض الرجال في محطة القاهرة لوداعنا ، وكان من بينهم صديقنا برجش باشا • وكان البارون ساورما حاضرا وجاهزا ليصحبنا الى بحيرة المنزلة • وفي غضون دقائق أخبرنا هر زمرمان Zimmerman رفيقنا المخلص في كل رحلة قطار أن الوقت قد حان لنبدأ رحلتنا •

لقد تحدثنا كثيرا خلال الساعة الأولى في القطار ثم شرع كل واحد منا ينسل طلبا للراحة ، وحتى لا يكون هناك سبب لقطع نومنا ، سمح لحافلتنا بالتوقف في محطة دمياط التي وصلناها ليلا • ولما استيقظنا مبكرا في صباح اليوم السابع عشر من شهر مارس وجدنا عربتنا وحيدة على جانب المحطة •

وبمجرد أن تجمع رفاق الرحلة هبطنا على شاطىء الترعة ( ؟ ) وحملنا زورق بخاري للناحية الأخرى •

**دمياط :**

لقد سرتني دمياط كثيرا • انها عربية أصيلة وحتى المناطق التي تحد الترعة Canal ذكرتني فجأة بالموانى الهولندية والبلجيكية • وبدت دمياط مثل انتورب Antwerp وقد نقلت الى بلاد العرب بفضل السفن الصغيرة التي راحت تبحر قادمة أو مغادرة بأعلامها وصواريها الجميلة •

وذهبنا سيرا على الأقدام من الرصيف الى منزل ممثلنا القنصلي وهو رجل عجوز مضحك ومهمل •انه ـ بالضبط ـ مثلنا •

وداخل دمياط ذو طابع شرقي واضح فشوارعها ـ اذا أمكن تسميتها بهذا الاسم ـ أشد قذارة وأكثر ضيقا ، وأكثر تزينا بالزوايا والسلالم الخشبية ، من معظم المدن العربية • وحيث تختفي المياه الجارية بعيدا عن المنازل ، تختفي الروح الهولندية التي تميز مدينة دمياط •

وعلى أية حال ، ففي دمياط يهب هواء ذو طابع شمالي ( أوربي ) ( ان كانت كلمة شمالي هذه مناسبة لأفريقيا ) أكثر مما يحدث في أحياء القاهرة العربية أو مدن صعيد مصر • وفي بعض الأحيان يحس المرء بالبرودة هنا كما أن وجود البحر يجعلنا نحس بالرطوبة •

والمنازل هنا غير مزدحمة ( أكثر تفردا وانعزالا ) أسقفها جيدة ، وبتعبير آخر فانها قد شيدت لتمكث فترة أطول ٠

وفي منزل ممثلنـا وجدنـا كل شيء منظما جميـلا — غرف أوربية مفروشة بسجاجيد تركية ، وخدم عرب ، ورائحة الشرق ، وعطر الزهور ذو الرائحة النفاذة ينتشر في كل أرجاء المنزل ٠ وفي كل شيء يمكنك أن تلمح أن صاحب المنزل شرقي أصيل ٠

## الى بحيرة المنزلة :

وبعد أن تناولنا افطارنا على عجل ( وكانت أمتعتنا في هذه الأثناء توضع فوق ظهور الخيول ) بدأنا رحلتنا من جديد ٠ وامتطى بعضنا حميرا وركب اثنان من جماعتنا حنطورا ( عربة قديمة الطراز ) ، وفي غضون دقائق قليلة تحركت قافلتنـا الصغيرة ينظم مسيرتها صيحات الحمارة ( بتشديد الميم ) ، وسار موكبنا في بعض الشوارع حتى وصلنا الى طريق جيدة تحفها البساتين والمنازل الريفية وبعض غابات النخيل غير الكثيفة ، على طول ترعة حتى وصلنا الى شاطىء البحيرة ٠ ورأينا ثلاثة أكواخ بائسة للصيادين على الشاطىء الرملي ، وأمامنا امتدت البحيرة العريضة لا تحدها حدود وقد اعترت مياهها الدكنة ، وشواطئها سبخات وكثبان رملية ، وكان منظرها موحشا رتيبا ساكنا سكون النوم ٠

وفي المنزلة لم أستطع — حقيقة — أن أقنع نفسي أنني لازلت في مصر حيث بهـاء الألـوان وخصـوبتها ٠ ولم يكن الجـو ملائما وكانت الرطوبة محسوسة ، والرياح الباردة غير المحببة أجبرتنا على ممارسة رياضتنا تحت السحب الممطرة الداكنة ، وكانت السماء عابسة تماما ٠ لقد بدا كأننا عدنا للشمال ( لأوربا ) مرة أخرى وتذكرنا بحسرة شمس أسوان التي لا تنسى ٠ ان هذه البحيرة الكئيبة جديرة بأن تكون احدى بحيرات سهول شمال أوربا ، ورست السفينة ( الدهبية ) أمام أكواخ صائدي الأسماك ٠ وفكرت أن قراصنة الماضي لم يكونوا يستخدمون قوارب أسوأ من تلك التي يستخدمها صـيادو بحـيرة المنزلة ، فقواربنا النمساوية الصغيرة تعتبر فرقاطات ( سفنا شراعية حربية ) اذا قورنت بها ٠ وكان يتحتم علينا أن نختار لأنفسنا بعض هذه القوارب البائسة ، فاخترت أنا والدوق الكبير والبارون ساورما والقسيس المرافق لنا أكبرها ، وكل اثنين من رفاقنا استقلا قاربا ، وتبعنا قارب آخر يضم الأعلاف والطعام ٠

ويكفي أن أصف قاربـا من هذه القوارب لينسحب وصفي عليها جميعا ٠ لقد كانت جميعا بحالة سيئة ففي المقدمة مكان مرتفع يحيط بالدقل ( الصاري ) وعلى هذه المقدمة المرتفعة مقاعد من خيزران ومنضدة صغيرة ،

وفى هذا المكان يمكننا قضاء النهار ، وهنا أيضا ينام الصيادان وطاقم القارب بالليل ، واذا رفعت فتحة صغيرة فانك تكون قد فتحت خزانة صغيرة يمكن أن تخزن فيها الأمتعة ، وفى وسط القارب الى الآدنى من هذه المنطقة الأمامية المرتفعة بخطوتين توجد كبينة ( قمرة ) صغيرة ذات نوافذ زجاجية ، وهذه الكبينة ( القمرة ) مقسمة الى قسمين ـ وفى الناحيـــة الخارجية يوجد سريران ضيقان ولا شيء آخر • وفى الحقيقة فان المكان لا يتسع لشيء آخر ، وفى الجانب الآخر يوجد نوع من الخزائن يمكن للمرء بشيء من الحذق والمهارة أن يصعد فوقها لكنها منخفضة جدا لا تتيح للمرء أكثر من الاستلقاء فوقها وثمة حشيتان تملآن هذا المكان الضيق • وفى هذا المكان يتحتم على رجلين ضئيل حجمهما أن يناما جنبا الى جنب ، دون أن تعترض أطراف أحدهما أطراف الآخر • ودفة هذا القارب موجودة عند المؤخرة •

**بقايـا الهكسوس :**

وكان طاقم السفينة كله من صيادى البحيرة يلبسون ملابس واسعة مبهجة ويضعون العمائم فوق رءوسهم ولم يكونوا على قدر كاف من النظافة وقد عبقوا المكان ( بزفارتهم ) • ولم يكن لأى منهم طبع العربى وسماته • فجلودهم بنية داكنة ووجوههم عريضة وأنوفهم مسطحة flat ( فطساء ) وبنيتهم لها طابع رجولى ، ولكنهم ليسوا نحالا جدا ولا عصبيين كمعظم العرب ، ومن النظرة الأولى يمكن للمرء أن يحكم أنهم سلالة أجنبية ( غير عربية أو مصرية ) ، وفى الحق فان المناطق المحيطة ببحيرة المنزلة يقطنها سلالة الهكسوس القدماء وهم احدى القبائل الكوشية الذين هزموا الفراعنة زمن الأسرة الرابعة عشرة ، وقد احتفظ هؤلاء الهكسوس بجنسهم نقيـا ( غير مخلط ) • وكان علينا أن نكون فى قاربنـا الصغير هذا بالقرب القريب من هؤلاء الناس ، وكان هذا أمرا شائقا من النـاحية العلمية ، لكنهم على المستوى الشخصى أناس لا يحب المرء أن يعيش معهم ان كان له مطلق الحرية فى الاختيار •

وقبل أن نبدأ مباشرة أتوا بطائر بجع أعمى لاستخدامه كشرك ، وكان ـ على أية حال ينقر بمنقاره هنا وهناك ، كما كان قذرا جدا فأعدناه للشاطىء بعد وصوله بدقائق قليلة وتم ربط كل قارب كبير بآخر صغير ، وبدأت الرحلة : ان هؤلاء الناس يحركون أشرعتهم بمهارة فائقة ، وبمعاونة الرياح الغربية القوية انسابت سفننا بسرعة فوق سطح الماء • وتعد بحيرة المنزلة احدى أكبر البحيرات المالحة فى العالم ، وهى بحيرة هائلة لا يفصلها عن البحر ( المتوسط ) سوى شريط من كثبان رملية ، وعند شواطئها

الجنوبية والغربية ألسنة طويلة من مستنقعات وسبخات ، أما الى الشرق فنجد مخرجها عند حاجز داخلي لقناة السويس ٠

Findr its outlet at the inner dyke of the Suez Canal.

واذا غادرت دمياط وجدت – الى الشمال – شريطا من كثبان رملية صفراء ووجدت الى الجنوب – لكن على مسافة بعيدة – مساحات خضراء ، ووجدت – الى الشرق – المنظر ممتدا حيث الماء واليابسة يختلطان كما هو الحال عند ساحل البحر ٠ وفى البداية لم نر الا جزرا قليلة لكن مساحاتها كبيرة ٠ وعمق البحيرة التى تبلغ مساحتها خمسا وأربعين ميلا مربعا – الآن – يزيد عن مفصل فخذ الرجل، وقاعها من طمى متماسك Stiff clay وأثناء العواصف – التى تبلغ درجة كبيرة من العنف أحيانا – لا يمكن أن يغرق المرء فيها اذ بامكانه أن يقف ويسير على قدميه فى كل أنحائها ٠

وفى شهور الشتاء تكون هذه البحيرة مغطاة تماما – بمعنى الكلمة – بكل أنواع الطيور المهاجرة خاصة البط والأوز ، وفى النصف الثانى من شهر مارس لا يجد المرء الا الطيور المحلية وبعض أسراب طيور الشمال التى تأخرت فى هجرتها ، أما نسور البحر الضخمة التى تصل للبحيرة بأعداد كبيرة شتاء ، فلا تكون موجودة فى شهر مارس باستثناء بعض النسور المنقطة قليلة العدد يمكن رؤيتها فى بعض جزر البحيرة ٠

وقد وافقنا فى البداية أن يتفرق جمعنا وأن تتخذ كل مجموعة الطريق الذى تريده شريطة أن نكون جميعا على مرأى من بعضنا وبعضنا الآخر وأن نلتقى ظهرا عند اشارة متفق عليها لتناول الغداء ٠ وسرعان ماراينا بعض البجع يسبح وفشلت محاولتنا الاقتراب منه بقارب صغير ، كما هى العادة ، فواصلنا طريقنا بالدهبية ٠

وبعد فترة يسيرة دخلنا منطقة الجزر ٠ ان وسط البحيرة ممتلىء تماما بالجزر المسطحة منها الكبير ومنها الصغير ، ومعظمها ذوات شواطىء رملية ، وفوقها أسراب من البجع بأعداد هائلة ٠ أكبر من الجزر نفسها ، وكانت تتألق تحت أشعة الشمس بألوانها الحمراء التى تخللتها بقع بيضاء ٠

واقتربنا ببطء وحذر من احدى جماعات البجع هذه ، وبحثنا بمناظيرنا المقربة ( التلسكوبات ) بدقة ، فلم نر الا بجعا ، ولم نر بشروش ( فلامنجو Flamingo) واحدا ، وكان طائر البشروش هذا هو ما نود رؤيته ٠

وعندما كنا على مســافة لا تقل عن خمسمائة خطوة ، بدأت طيور البجع تضطرب فمدت أعناقها الطويلة وحركت أجنحتها وانطلقت أربع من بنادقها لتقدم لهذه الطيور التى اعترتها الدهشة — تحية الصباح • فعم بينها اضطراب شديد ، وضربت بأجنحتها بحيوية وانطلقت محلقة فغطت الجزيرة البيضاء بسحابة هائلة سرعان ما ألقت بظلها على الماء • والآن بدأنا نطلق النار بشكل فردى ، ومن الغريب أن أقول ان هذا كان بدون نتيجة فقد كانت الطلقات تذهب هبــاء بسبب بعد المسافة كما أن هذه الطيور التى تبدو قريبة جدا ومكتظة يوجد بينها فى الواقع مسافات • لم تسقط الا بجعة واحدة — عندما أطلقنا الوابل الأول — هوت ميتة طافية فوق سطح الماء وخاض أحد البحارة لاحضارها •

ولما توغلنـــا فى الجزر زاد المنظـر حيوية ، فقد كانت النــوارس Sea-mews وطيور الخطاف Sea-Swallow والبط تسبح بين الجزر بأعداد كبيرة • وكان يســبح حــول الجزر أيضــا ( أبو ملعقة ) Spoon bills والغطاس divers وبط صغيرحجمه لم نستطع تبينها من على البعد • وثمة طيور رمادية وأخرى فضية وطيور البلشون ( مالك الحزين ) وأسراب من طيور محلية من أنواع مختلفة فى أسراب على الشواطئ الرملية ( للجزر )، ولم يكن لدينا الوازع القوى للتوقف فى أية جزيرة فلم يكن وقت الظهيرة قد حل بعد أن تجمعت سفننا وكان كل من معنا فى الدهبية قد استمتع بطعام افطـار جيد تم اعداده فى السفينة ( القــارب ) المخصص لاعداد الطعام وحمل المؤن ، وظهرت أمامنا جزيرة أكبر مســاحة مزدانة ببرج أبيض •

هذا قبر شيخ ( ولى ) يحظى بتوقير كبير فى بحيرة المنزلة • وثمة أكواخ بائسة للصـــيادين الى جانب المبنى المهدم بقبته المستديرة ومئذنته النحيلة التى تشبه المنارة ، ويفصل هذه الجزيرة عن جزيرة أخرى صغيرة ممر مائى ضيق • وقررنا أن نتوقف هنا لنمارس الصيد سيرا على الأقدام ، وقد اختــفى طائر البــلشون ( مالك الحزين ) بمختلف أنواعه عند أول محاولة منا للاقتراب ، ومن ناحية أخرى فقد وجدنا على شاطئ الجزيرة عددا من الطيور الأصـــغر حجما — أبو مجرفــة avosel or Scooper وهو طائر ملفت للمنظر ريشه أبيض وأسود وساقاه طويلتان نحيلتان ، ومنقاره مقوس لأعلى ، وطائر الراف ruff ( وهو طائر مائى تتميز ذكوره فى فترة معينة بأطواق ريشــية حول أعنــاقها ) وأربعة أنواع مختلفـة أو خمسة من عائلة طيور الشاطئ •

وتفرقت كل مجموعة منا فى اتجاه وسرعان ما دوت الطلقات مرحة وفى أقل من نصف الساعة كنا قد أطلقنا طلقاتنا فى كل أنحاء الجزيرة •

**جـزر المنزلـة :**

والجزر نفسها لا تستحق الا كلمات قليلة لوصفها فلها جميعا التكوين نفسه • فجميعها ضيقة وطويلة ، وجميعها تغطيه القواقع والأصداف ، وكل سطوحها تكسوها أشجار الطرفاء Tamarisk داكنة الخضرة ، وشواطىء الجزر رملية ومستوية ، وفى بعض المناطق يجد المرء طميا ( طينا ) على سطوحها ، وريش الطيور متناثر فى كل مكان – زغب البجع كبير الحجم ، وزغب البشروس الوردى ، وزغب أنواع أخرى مختلفة من طيور الماء •

وبعض الجزر – خاصة تلك التى تحيطها شواطىء رملية واسعة تبدو مغطاة تماما بطبقة من زرق ( بفتح الزاى والراء ) الطيور ويمكن للمرء أن يرى على الطين آثـار أقـدام كل أنـواع طيور الماء وطيور المسـتنقعات والسبخات ، وفى مكان واحد رأيت أيضا آثار أقدام نمس ، ثم تابعنـا رحلتنا شرقا بعد أن مارسنا رياضة الصيد لوقت يسير لكنه مثمر •

وقد رغبنا هذا اليوم أن نواصـل الرحلة حتى نصل لمنطقة طائر البشروس ( الفلامنجو ) ، وفى الحقيقة فاننا سرعان ما رأينا بين الجزر – الشاطىء الوردى الطويل لهذا الطائر الفريد • كان المنظر بهيجا • وكان علينا أن نعبر لسانا ضيقا من اليابسة ، لذا فقد أوقفنا الذهبية ، وحثثنا رفاقنا الآخرين – نظرا لانقضاء فترة كافية على منتصف النهار – أن ينتشروا بين الجزر وأن نلتقى فى هذه البقعة لقضاء الليل •

وتم سحب قاربنا الصغير عبر الجزيرة لقرب أسراب البشروس من الشاطىء المقابل ، ولما أصبحنا على بعد حوالى أربعمائة خطوة منها بدأت تتململ وتتحرك بينما كانت قبل اقترابنا واقفة بلا حراك • وأهدينا لها أول وابل من الطلقات ، فعلتنا سحابة وردية رائعة وابتعدت عنا مخلفة وراءها طائرا واحدا لا يكاد يقوى على الوقوف ولا يكاد يقوى على السباحة ، ورأينا من خلال التاسكوب أن الطائر جريح فسعدنا وجدفنا لنصل اليه فلما اقتربنـــا منه بدأ يضرب بجناحيه وطار فوق الماء بارتفاع منخفض واختفى عن أنظارنا خلف الجزر •

وواصلنا رحلتنا وقد حاقت بنا خيبة الأمل الى جزيرة طويلة ذات شاطىء رملى أبيض ، ومارسنا شيئا من رياضة الصيد ونحن فى سبيلنا اليها • كان هدفنا الآن هو البحث عن أماكن منـاسبة لنتخذهـا مراكز لاصطياد طيور الماء التى بدأت بالفعل تتجمع شيئا فشيئا •

ولسوء الحظ فان هذه الجزيرة الملائمة جدا كانت – بالفعـل – مشغولة فقد كان صائد طيور عجوز رث الثياب جالسا فى كوخ بناه من

فروع صغيرة ، والى جواره ابنه ، وهو ولد صغير غطاه الذباب والبعوض وكل ما يمكن وصفه من هوام • وكان هذا الصياد قد ربط نفسه بحبل متصل ببعض الشباك الكبيرة القريبة من الشاطئ •

وربط الرفاق بججة بائسة عمياء تدعو للأسى الى عصا — لتكون شركا تهوى اليه الطيور الأخرى ، بالاضافة لحوالى عشرة أو اثنى عشر طائرا من طيور الغاق العمياء • لقد بدت لنا الجزيرة أكثر المواضع ملاءمة فقد كانت أرضها مغطاة بالأسماك المتعفنة وزرق ( بفتح الزاى والراء ) الطيور والريش ، ومن الصعب أن يبقى أوربى فى مثل هذا المكان طويلا • وبدا صائد الطيور العجوز غير سعيد بالمرة بزيارتنا للجزيرة وراح يتمتم بكلمات تنم عن التذمر أخذت طريقها الى لحيته الكثة المهوشة • ولم نضايقه طويلا وانما جدفنا بسرعة الى جزيرة أخرى طويلة وضيقة فى مواجهة جزيرته • وعند وصولنا خصصنا لكل منا موضعا • وكانت الشجيرات الكثيفة فيها خير غطاء لنا وسرعان ما حل الصمت والسكون فى الجزيرة ، فأقبلت أسراب الطيور من غاق وطيور ( أبو ملعقة ) وبعض طيور البشروس وطيور مزرة البطائح moor-buzzards وبعض طيور الشواطئ الصغيرة من مختلف الأنواع ، لكنها كانت بعيدة فلم نحقق نجاحا • بل ان طيور البشروس ، فرادى أو جماعات : كل جماعة مكونة من عشرة طيور أو نحوها ، كانت تحلق هنا وهناك لكننا لم نتمكن من اصابة أى منها ، ولم تظهر الأسراب الضخمة حتى بعد الغروب • وكان أكثر أهدافنا مدعاة للسخرية هو اصطياد البشروس وهو طائر ، فقد كانت رقبته الطويلة ورجلاه الطويلتان اللتان تحملانه أفقيا تجعلانه يبدو كعصا طويلة علق بها جناحان •

واشتدت الرياح مساء وراحت الأمواج تضرب الشاطئ بشدة وانقشعت السحب شيئا ما فاستمتعنا بمنظر الشمس الجميل عند الغروب • كانت السماء من ناحية الغرب أرجوانية ، انعكست ألوانها على البحيرة وراح قرص الشمس يتوارى ببطء وراء الأمواج المرتجفة •

وانطلقنا لسفينتنا بمجرد حلول الظلمة ، وكان علينا أن نخوض الى الركبة بين الشجيرات الكثيفة لهذه الجزيرة الطويلة قبل أن نصل الى قاربنا الى الغرب منها •

وبعد عبور قصير وصلنا لجزيرة ضيقة قريبة من الشاطئ حيث ربطت دهبيتنا بشدة • وكان كل رفاقنا موجودين هناك وقد أحضر كل واحد منهم بعض الصيد ، لكن أحدا منهم لم يكن صيده وفيرا ، ولم يكن

من بين صيد أحدهم بشروس واحد رغم الطلقات العديدة التى أطلقوها على هذا الطائر الحذر من مسافات بعيدة ٠

كان المساء باردا شيئا ما ، وكان علينا أن نتناول عشاءنا فى الدهبية ونحن متدثرون فى معطفنا ٠ وكانت بعض الفوانيس تضىء المنظر الغريب : سفن قليل عددها بجانب جزيرة صغيرة فى ليل حالك فى بحيرة لا حياة فيها بعيدة عن العمران ٠ ولم يكن يقطع السكون المطبق سوى صوت الأمواج وأصوات العرب الغليظة ٠

وسرعان ما مات الحوار على شفاهنا ، وراح العرب والأوربيون فى سبات ، وعزفت سيمفونية من غطيط النائمين ٠ ولن أنسى أبدا هذه الليلة التى قضيتها فى هذه الخلية الضيقة ٠ لقد سقطنا ضحية لجيوش من الهوام ، وراحت البراغيث تلتهم أجسادنا البائسة ٠

وفى الثامن عشر من الشهر غادرنا دهبيتنا ولازالت الظلمة حالكة لننتشر مرة أخرى فى الجزيرة منتظرين مرور الطيور صباحا ٠ وجدفت بنفسى الى جزيرة ضيقة ، وزحفت فى سدفة الفجر صوب مجموعة صغيرة من طيور البشروس وفشلت فى اصطياد واحد منها عندما أطلقت النار عليها من بعد ،فاختبأت بين الشجيرات ، ومرت أمامى طيور مختلف أنواعها فاصطدت ووضعت فى حقيبتى أنواعا مختلفة منها ، وكان من بينها طائر بلشون ( مالك الحزين ) كبير حجمه ، وشكل طائر البشروس ( الفلامنجو ) سحابة حمراء تضم آلافا من هذه الطيور تتخذ مختلف الاتجاهات ، لكنها كانت أبعد من أن تصيبها بندقيتى ٠

وعندما انتهى الوقت المحدد تجمعنا مرة أخرى فى القوارب ، لقد كان هذا النهار عابسا لا يدعو للمسرة فالسماء يغطيها سحاب كثيف ، وريح باردة تأتينا عابرة مياه البحيرة ، وزخات المطر تبللنا بشكل دورى ٠ ولأن الريح وجهتنا الى الجانب الجنوبى من البحيرة فقد رأينا ــ بين الحين والآخر أسرابا ضخمة من البجع والبشروس ( الفلامنجو ) على الشواطىء الرملية فاتجهنا بالقارب الى واحدة من هذه المجموعات ، وفى هذه الأثناء عبرت الجزيرة سحابة ــ غطت الجزيرة ــ من طيور النورس وطيور ( أبو ملعقة ) ، ووجهنا طلقاتنا من مختلف الاتجاهات لطائر البشروس ( الفلامنجو ) مرة أخرى دون نتيجة ، فهبت الطيور مشكلة سحابة هائلة لتستقر على مسافة بعيدة منا ٠

وتوقفنا عند احدى الجزر الصغيرة لنتناول افطارنا عند الشاطىء ، ولأن العواصف كانت لا تزال تهب بل وتزداد ، فقد عقدنا اجتماعا وطرحنا خططا أولها أن نعود الى دمياط لكن العرب أعلنوا أنه مادامت

الرياح تهب على هذا النحو فانهم لابد أن يجدفوا وأن يسحبوا قواربنا ، وهو عمل شاق وممل ٠

وكنا قد وصلنا بالفعل الى وسط البحيرة وأصبح فى امكاننا أن نرى بالعين المجردة صوب الجنوب — على مسافة بعيدة — مآذن مدينة المنزلة الصغيرة ونخيلها ٠

ونصحنا البحارة أن نلغى برنامجنا وأن نتجه الى بور سعيد وكان هذا تغييرا مهما فى خطة رحلتنا لكنه بدا هو الحل الوحيد المعقول خاصة ان مسئول القيادة الأول وعد أن يصل بورسعيد مبحرا بأقصى سرعة هذا المساء مستفيدا من الرياح الغربية السائدة ٠

وأشفعنا القول بالعمل فانطلقت الدهبية الخفيفة بين الجزر لا تلوى على شيء ، واتضح أن الأجزاء الشرقية من البحيرة أغنى بالطيور من الأجزاء الغربية ، فقد رأينا أعدادا كبيرة من طيور أبو مجرفة Shovel-birés وأنواعا كثيرة من البط وأسرابا من النوارس وطيور الغاق ٠ وأطلقنا النار — بنجاح — على مجموعة من البجع وأخذنا منها نماذج باهرة الى دهبيتنا ٠

وبعد الظهر ظهرت فى الأفق منـازل بورسعيد البيضاء ، ورأينـا — على البعد — بعض أسراب البشروس واقفة ، بينما تحرك بعضها بعيدا ٠ وصفت السماء ، فنعمنا بشمس دافئة واستمتعنا — مرة أخرى — بمنظر الغروب المدهش الجميل ٠

**بورسعيد :**

لقد كان طاقم الدهبية ماهرا ٠ انهم رفاق ممتازون ومجدون بشكل غير عادى توثقت صلتى بهم تماما خلال اليومين ٠ وقبل أن يختفى شفق الغروب كنا نستطيع تمييز منازل مدينة بورسعيد والطريق العالى ( جسر ) لقناة السويس ، ووصلنا لهدفنا قبل حلول الظلام ٠

لم يكن يفصلنا عن الشاطىء الا مئات قليلة من الياردات لكن الماء كان ضحلا ، لذلك كان لابد أن يحملنا العرب الشجعان المرافقون لنـا لشاطىء القناة ٠ يحملوننا نحن أنفسنا لا أمتعتنا فقط ٠

وكنا قد أرسلنا مراسل ( مشهل ) Swiftist الدهبية ليسـبقنا حاملا خطابا ، لذا فقد كان فى انتظارنا — بالفعل — سفينة بخارية على شاطىء القناة ٠ وكان فى انتظارنا قنصلنا وقبطان الميناء وهو دلماشي بالميلاد ( يعود فى الأصل الى دلماشيا ) ٠ ورأينـا قناة السويس — للمرة الأولى ،

حيث تقع آسيا على شاطئها الآخر ٠ والنظرة الأولى لقارة آسيا لا تنبىء عن جمال كثير ، فقد قدمت لنا آسيا نفسها فى شكل جسر ( طريق مرتفع ) ٠

وأوصلتنا الباخرة بسرعة الى رصيف غير بعيد عن الفندق ٠ ولم نر فى الشوارع الا أوربيين ، وكان كل شىء رأيناه يعطى الميناء طابع الموانى الانجليزية ٠ وكان الفندق كبيرا ومشيدا على الطراز الحديث تماما ، ويحظى بصيانة جيدة ، وذكرنى بسويسرا ، فليس به أية لمحة شرقية ٠ وكنا نحن وأسرة انجليزية ـ نزلاء الفندق الوحيدين هذا المساء ، وحالما وصلنا قدموا لنا عشاء فاخرا وفى حوالى العاشرة كنا آمنين فى أسرتنا ٠

وغادرنا الفندق فى صباح اليوم التالى حيث توجهنا لباخرة قناة السويس ، وكان القبطان ـ وهو رجل عجوز مجرب ـ وكذلك كل طاقم الباخرة ـ من الفرنسيين ، وكقاعدة عامة فان قناة السويس وكل ما يتعلق بها من حصة فرنسا ( ملك لفرنسا ) ٠

وأمكننا أن نلقى نظرة من فوق شاطىء القناة على بحيرة المنزلة الى الغرب ، وعلى سهل الفرما Pelusium الاسيوى الى الشرق ٠

ان فكرة التحرك بين الكتلتين القاريتين ( آسيا وأفريقيا ) فكرة جذابة لكنها عند التطبيق قد تكون مملة ٠ ووقفت آلاف مؤلفه من البجع والبشروس عند السبخات الجنوبية لبحيرة المنزلة ، فأطلقنا النار عليها عبر القناة ، ولم يكن لطلقاتنا تأثير سوى أنها طارت مكونة سحابة أكبر مما يتصوره العقل ٠

**البرود الانجليزى ـ ارتطام فى القناة :**

ولما انتهت بحيرة المنزلة عن أيامننا وجدنا أن الشاطىء الغربى للقناة مهجور وغير مأهول تماما ٠ لقد حجبت الشواطىء العالية كل المناظر ، وكانت أشغال الأتربة والرمال الناتجة عن الحفر تملأ الشاطئين : الأيمن والأيسر ولا تعتبر صورة جذابة بالنسبة لنا مع أنها ـ على أية حال ـ اشغال جيدة ٠ وكان التغير الوحيد هو اصطدامنا بباخرة هندية انجليزية ضخمة اعترضت طريقنا بشكل أخرق وظن قبطاننا أنه يمكننا المرور فتقدم بجسارة فأدى ذلك الى تصادم عنيف وحدوث بعض التلفيات البسيطة فى جوانب سفينتنا ، فالتصقنا بالسفينة الانجليزية ، وعانينا لنصف ساعة حتى خلصنا سفينتنا منه ٠ لقد أعطانا هذا القبطان الانجليزى الفظ ظهره وكأن الأمر ـ على الأقل ـ لا يعنيه وأخيرا تمكنا من تحريك سفينتنا تحريكا خفيفا ، وحدث صرير من جراء الاحتكاك بين السفينتين المتصادمتين ، ثم اصطدمتا مرة أخرى ، وتخلصت سفينتنا ،

بل اننا عملنا على دفع السفينة الانجليزية ، ثم واصلت سفينتنا وسفينته سيرهما فى اتجاهين متضادين •

**شاطئ القناة الغربى :**

وكنا نذهب بين الحين والآخر لنلقى نظرة من قمرة القبطان على شاطئ القناة الآسيوى نحو الصحراء العربية ( ليقصد صحراء سيناء ) • ان طبيعتها تختلف تماما عن الصحراء الليبية ( يقصد صحراء مصر الغربية ) • ان ألوانها غير داكنة ، ورمالها وجبالها غالبا بيضاء ، وكان بها عديد من الشجيرات الصغيرة المستديرة ذوات خضرة فاقع لونها •

**الاسماعيلية :**

وبعد عشر ساعات وصلنا لبحيرة الاسماعيلية المالحة ومدينة الاسماعيلية أيضا – وهى مدينة ذات طابع أوربى تماما • ووجدنا أن الصحارى الصفراء التى اعترى صفرتها البياض والتى تحيط بالبحيرة مستوية تماما فى غالبها ، وترى على البعد – الى الجنوب – سلسلة جبال عتاقة Ataka الجميلة • والمنطقة بلا شك رتيبة عابسة الا أن لون البحيرة المالحة الأزرق بتناقضه مع لون شواطئها الصحراوى قد خلق مزاجا لونيا يسترعى الانتباه •

وكانت لدينا فرصة – أثناء اتجاهنا لمحطة السكك الحديدية – أن نرى ما يثير اعجابنا بثروة الفرنسيين وصناعتهم وذوقهم الراقى ، فقد نجحوا فى أن يقيموا فى الصحراء منتجعا بحريا للاستحمام ، ومساكن بيضاء نظيفة ذوات ستائر تمنع عنها الهوام Jalcusies ، وشوارع جيدة ، وطرقات تحفها الأشجار وبساتين تلقى العناية • ولما بدأ قطارنا فى المسير تجاوزنا بعض السبخات الصغيرة ثم قطعنا الصحراء وهى هنا صحراء عربية خالصة Which is here Completly Arab ، ووجدنا بعد ذلك بحيرة صغيرة يحفها الغاب ( البوص ) والى جوارها بعض الكبائن البائسة ولما أصبحت التلال الرملية بجوار الخط الحديدى منخفضة بما فيه الكفاية رأينا الى الجنوب جبل عتاقة الشامخ وبعده جبال آمون Ammon وهذه السلسلة هى نفسها التى يكون أنفها الغربى ( نتوؤها الغربى ) جبل المقطم المعروف •

وبعد فترة بدأت الصحراء تتراجع وأخيرا اختفت عن أنظارنا وأصبحنا مرة أخرى فى الأرض كثيفة الزروع لمصر الدنيا • فتجاوزنا مدينة الزقازيق وقرى مختلفة صغيرة وسرعان ما بدت لنواظرنا مدينة

الخلفاء الجميلة تتألق ذهبية فى ضوء الشمس ، ولما وصلناها سلكنا أقصر الطرق الى قصر النزهة ، وكنا فى حاجة للراحة ·

## عود الى هليوبولس ، وشجرة مريم :

وفى صباح اليوم التاسع والعشرين قررنا أن نمارس رياضة الصيد فى هليوبولس · كان الجو ملائما تماما فالهواء نقى والجو دافئ · وبعد أن قطعنا الطريق السيئ نفسه الذى قطعناه منذ شهر مضى وصلنا الى ( شجرة مريم ) وأطلقنا كلاب الدشهند لتبحث عن الضباع والنموس فى الحدائق الصغيرة وبين أشجار الصبار الكثيفة التى تشكل سياجا قريبا ، لكننا سرعان ما اكتشفنا أن كل ذلك بدون جدوى لأن موسم طيور السمانى ( الفرى ) قد بدأ منذ فترة وسمعنا طلقات تأتى أصواتها من مختلف الاتجاهات ، فقد كان الشرقيون الباحثون عن المتعة يوم الأحد ، وكانوا من أصول شرق أوربية من مختلف الطبقات — يفتشون الشجيرات والحقول، لذا فقد بدا أمرا غير مجد أن نطلب اخلاء الأرض منهم ·

## مزرعة النعام :

وثمة مطعم صغير بالقرب من شجرة مريم بين الحدائق والأشجار الظليلة — وهو مكان أثير لدى أهل القاهرة — وقد تناولنا افطارنا هنا ( فى هذا المطعم ) ثم ذهبنا بين الحقول والحدائق لنصل الى مزرعة النعام التى تقع على حافة الصحراء ويعمل بها جماعة يبدو أنها أنجزت عملا جيدا فقد كان كل شئ فيها مرتبا بطريقة مريحة وكان مدير المزرعة رجلا سويسريا ألمانيا جعلنا نرى الأماكن المخصصة لهذه الطيور — مساحات رملية مفتوحة، ومبايت داخلية والفتحات الصغيرة، وكل الطيور ( النعام ) هنا من النوع الفخم ، بعضها صغير وبعضها كبير ، والنعام هنا من نوعين ( صنفين ) مختلفين وبدت هذه الطيور كلها فى الغاية من الجمال بريشها الجميل ·

وبعد أن رأينا كل شئ فى مزرعة النعام هذه سلكنا أقصر الطرق الى حدائق البرتقال المشهورة فى هليوبولس ورأينا بعض آثار الذئاب لكنها لم تكن فى جحورها فى هذا الموسم · وعبثا بحثنا بين أشجار حديقة البرتقال الجميلة وفى أرضها ، فلم نجد ذئبا واحدا ، وفى طريقنا توقفنا عدة مرات وبحثنا دون جدوى بين أشجار حدائق مختلفة ، كما بحثنا فى حقل من حقول قصب السكر لكن ديانا Diana لم تتعطف علينا هذا اليوم فعدنا للقاهرة بحقائب خاوية ·

**الحمام التركى :**

ولما وصلنا لمقر اقامتنا دلفنا الى حمام تركى منعش غاية الانعاش ، ويجب على المرء أن يكون قد خاض هذه التجربة ( الحمام التركى ) فى الشرق ، فهى تستغرق بمختلف مراحلها بما فى ذلك التدليك ــ ساعة ، وذلك حتى يفهم مدى عشق الشرقيين لهذا الحمام وكل ما يتعلق به ، وخدم الحمامات التركية يشكلون طبقة ( فئة ) خاصة يمارسون عملهم بدقة لا مفر منها ، وتجد هذه الحمامات فى بيوت الأثرياء الشرقيين ، وهى تجلب سرورا بالغا وسعادة لا يمكن وصفها ٠

**القلعة ومسجد محمد على :**

وفى ٢١ مارس اتجهنا صباحا الى قلعة القاهرة الشهيرة ومررنا بعدة بوابات على جانب منحدر تلى ٠ واستقبلنا الخفراء بعزف الموسيقا العسكرية ٠

والقلعة مبنى ضخم محصن تحصينا فائقا من جهة المدينة ( القاهرة ) بصخور محلية ٠ وبعد أن تحطمت هذه القلعة سنة ١٨٢٣ تم انشاء مبنى حديث فى البقعة نفسها ليحل تماما محل قلعة صلاح الدين التى أنشئت ١١٦٦ والتى أقيمت من أحجار آثار مصر القديمة ٠ وبعد أن مررنا عبر البوابة الأولى ( الباب الجديد ) واجتزنا مجازا أدى بنا الى البوابة الثانية ( الباب الوسطانى ) وقعت أنظارنا على ميدان مربع ثان تحيط به المبانى الحكومية والعسكرية وقصر صغير لنائب الخديو ٠

**المآذن ــ شعار القاهرة :**

وأكثر أهداف السائح أهمية وأكثرها مدعاة للتشويق فى هذه البقعة هو مسجد محمد على الضخم المشيد من الألاباستر ( المرمر ) الذى يشمخ وسط القلعة ٠ وقد أنشأه مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية ، الذى حظى بشهرة كبيرة ــ انه الشجاع محمد على ، وقد أنشأه فى موضع كان به قصر قديم خرب ٠ ويرى المرء من هنا على البعد مآذن القاهرة السامقة تشمخ عالية ٠ ان هذه المآذن هى شعار القاهرة **an emblem of Cairo** ٠ ودخلنا مبنى المسجد المهيب بعد أن وضعنا نعالنا فى أخفاف (جمع خف ) كانت معدة لهذا الغرض ، ويؤثر فى المرء ــ للوهلة الأولى ــ مساحة المسجد المربع ، والقبة المهيبة وما حولها من قباب أخرى صغيرة ، والجدران المكسوة بمرمر ( الاباستر ) بنى سويف الأصفر ، لكن عند التدقيق يكتشف المرء أن التفاصيل المعمارية أدنى فى مستواها من التفاصيل المعمارية فى المساجد

القديمة ، والنوافير هنا رغم ثقلها الا أنها خالية من الجمال ، وقد فرش المسجد ببعض السجاجيد الجميلة ، كما أن المحراب الذى يشير الى اتجاه مكة ( المكرمة ) مزخرف بشكل جيد ، ويقع قبر محمد على الى جانب هذه البقعة المقدسة عند المسلمين ( يقصد القبلة ) (*) • والقبر مغطى بستائر ذوات أشغال ذهبية ومحاط بشبك حديدى وشاهد قبره على هيئة عمامة حجرية - كما تقتضى تعاليم الدين الاسلامى (**) •

## شخصية محمد على :

وسمح لنا باجتياز الشبك الذى يشكل سورا حول القبر لننظر الى الضريح الذى يضم رفات الرجل العظيم • ابن أحد كناسى قولة ، الجندى الكامل والشرقى الكامل ذو الروح الاستقلالية المتمردة Wild & undisciplined ذو الطاقة الحديدية ، والمتسم بالقسوة فوق كل هذا ، والذى وهب - بالاضافة لذلك - مواهب عظيمة وذكاء - كان يسعى لتكوين امبراطورية على نسق الخلافة ( الاسلامية ) الأولى • لقد سار عبر فلسطين على رأس جيشه الباسل ، واضعا الاسكندر الأكبر كمثل له • ولو أن القوى الأوربية لم تتدخل لاستطاع الباشا الثائر - بلا شك - أن يصل اسطنبول ليحاصر الخليفة • لكن التدخل الأوربى أجبره على الاكتفاء بمصر وتوجيه كل عنايته وطاقاته لها •

والقلعة التى بناها محمد على هى آخر آثاره الدالة على قسوته الوحشية • وكان محمد على لا يثق فى المماليك الذين كانوا يخدمون فى مصر كمجموعة مرتزقة مخلصين للسلطان faithful to Sultan •

## مذبحة المماليك ، والمملوك الهارب :

وانتهز محمد على فرصة تجمع المماليك فى ساحة القلعة الى جوار المسجد وأمر باغتيالهم جميعا ما عدا مملوكا واحدا كان تركيا شجاعا قفز وعليه كل دروعه بحصانه الجسور فوق الجدار الذى يشكل حدود الساحة واندفع الى منحدر شديد وهبط الى أكوام ناعمة من النفايات

---

(*) قبر محمد على ليس الى جوار القبلة فى المسجد ، ولعل هناك خللا فى التعبير ، فقبر محمد على يكون الى الخلف من المصلين وليس أمامهم كما هو مشاهد حتى الآن - ( المترجم ) •

(**) هذا من العادات وليس له أية علاقة بالفكر الاسلامى وليس هناك أى نص غيبى ( قرآن كريم أو حديث نبوى ) يعرض ذلك - ( المترجم ) •

أسفل القلعة ، واستطاع هذا المقاتل أن ينهض بجواده المخلص وكأنما نجا بمعجزة وهرب من ملاحقة الباشا الساخط ٠

ولقد رأينا آثار دماء هذه المذبحة على الأرض وألقينا نظرة من هذا المكان المرتفع على مدينة الخلفاء العريقة ٠ كان منظرها رائعا بمنازلها ومآذنها ، وعلى البعد رأينا الأرض الزراعية يتخللها النيل كخيط من الفضة وخلف الأرض الخضراء يشمخ الهرم ، وخلف كل ذلك صحراء صفراء لا تحدها حدود ، وخلفنا والى الأدنى منا مباشرة منحدرات جبال المقطم الداكنة ومقابر الخلفاء والمماليك التى تشملها الفوضى وعدم النظام وبقايا أثرية للمدينة القديمة التى اعتراها الخراب ــ كل ذلك يقدم للرائى صورة شائقة ٠

وقد ألحق بساحة القلعة مقر Castle صغير لنائب الخديو ، وهو مقر مرتب ببساطة ليس فيه ما يلفت النظر الا أنه كان ذات يوم مقرا لمحمد على ٠ وقد تركت غرفته وحمامه على الحالة نفسها التى كانت عليها عندما كان هو على قيد الحياة ٠ ويحسن المصريون صنعا بتوقير ذكرى هذا الرجل الجدير بالاحترام ، لأنه قد ترك أثرا قويا فى بلادهم واذا تابعت ذريته جهوده وورثت عنه ذكاءه وطاقاته فان مصر ستلعب دورا أعظم من دورها الحالى ٠

**بئر يوسف :**

وقد أرونا فى ركن خارج طريق ( ممر ) فى القلعة ما يسمى بئر يوسف ، وقد أمر بحفره صلاح الدين يوسف ، وغالبا ما يخلط الناس بينه وبين يوسف المصرى وتدير الجواميس ساقية ترفع الماء من هذا المستودع المائى القديم والبسيط (١) ٠

أما وقد أكملنا جولتنا فى القلعة فقد استأذنا من السلطات المدنية والعسكرية ومن دراويش المسجد وهبطنا التل الى المدينة ٠

**الكتبخانة الخديوية :**

وتشغل مكتبة الخديو الشهيرة ذات الرصيد الكبير مبنى كبيرا وملائما فى أحد الشوارع القديمة ٠ ومدير هذه المؤسسة ألمانى وقد استخدم خبرته وتدريبه العلمى فى ترتيب المجموعات الثرية التى كانت قبل ذلك هملا بغير نظام ٠ ومن الطبيعى أن تثير المجموعة الشرقية من هذه الكتب والمواد اهتمام الغرباء وقد وجدنا نسخا من القرآن ( الكريم ) بكل لغات المسلمين فى آسيا ، كما وجدنا نسخا من القرآن ( الكريم ) تعود

لبواكير التــاريخ الاســلامى معروضة بأسلوب فريد جميل • لقد أمر الخــديو ومن سبقوه بجمع الكتب الدينية القيمة من المساجد وايداعها هذه المكتبة للحفاظ عليها من التلف • وقد رأينا فى هذه المكتبة أيضا بعض الكتب الفارسية ذوات خطوط ورسوم جميلة • لقد ذكرتنى الأشكال الخارجية والأساليب ، والأزياء وعدة الفرسان وأسلحتهم بكثير من الأعمال الفنية فى العصور الوسطى الغربية • وبالاضافة لنسخ القرآن ( الكريم ) رأينا مجلدات توضح بالكلمة والرسم الحروب والمعارك والقنص بل وحتى المناظر الطبيعية ، وكثير من هذه المنــاظر الفارسية ذوات قيمــة بالاضافة لقيمتها التاريخية •

وبعد أن ألقينا نظرة خلال المكتبة بقدر ما سمح به وقتنا المحدود . واصلنا تحركنا ــ راكبين ــ فمررنا خلال زحام المدينه العربية ، واسرعنا نقطع بعض الشوارع الأوربية حتى وصلنــا ــ سريعا ــ الى ميدن قصر الخــديو الكبير •

وفى مواجهة القصر والثكنات يوجد مبنى جديد لمدرسة College . يولى الخديو الحالى اهتمــــاما فائقا بها فهو الذى أمر بانشائها ، وطلب منا زيارتها ، وقد جلنا فى فصولها حيث كان الدارسون يتلقون دروسهم على أيدى معلمين أوربيين • وكان معظمهم من أولاد أثرياء القاهرة المسلمين. وان كان من بينهم صبيان من أبناء الخديو ــ وكان الأطفال يبدون بمنظر حسن وصحة جيدة ويتسمون بالحيوية ، وقد رأينا قاعات المعيشة والمطاعم والملاعب ، وكانت المدرسة منظمة على النسق الأوربى وان كان هناك بذخ فى تجهيزاتها وأثاثها مما لا يتمشى مع الغرض منها كمؤسسة تعليمية •

ثم زرنــا بعد ذلك القنصلين العامين : البارون شافر Schâffer والبارون ساورما Saurma فى منزليهما الجذابين ثم تهدنا بعد ذلك للحى العربى • وتوقفنا عند شارع ضيق لا تستطيع حافلتنا المرور به وترجلنا حتى باب فندق النيل الممتاز الذى يقع فى وسط المدينة القديمة ، وهو فندق جميل وتحولت باحته الى حديقة جميلة أضافت الى جماله جمالا ، وصاحب الفندق نمساوى ، ومن هنا فقد قابلتنا مجموعات مختلفة من بلادنا وعبد القادر وبرجش باشا والبارون ســاورما ، وتناولنــا جميعا افطارا ممتازا تحت سقيفة جميلة •

**الحــاوى :**

وقضينا بعض الســاعات البــاعثة على السرور فى هذا الفندق اذ أمتعنا ( حاوى ) عربى ببعض الألعاب ( السحرية ) التى تتطلب مهارة كبيرة • وكان مساعده صبى صغير يقول ــ بالمانية مهشمة ــ قبل كل

لعبة ( سحرية ) : « تعال هنا يا عفريت » ، وعقب هذه الألعاب ( السحرية ) جاء دور ( حاوى الأفاعى ) الذى أحضر معه أفاعى ضخاما جدا ، وسحالى مختلفة ( من بينها سحلية جيكو Geko الرمادية ) وعقارب غريبة ، وقد أخرجها جميعا ( الأفاعى والسحالى والعقارب ) من تحت معطفه الواسع • ثم أتى رجل ومعه قرود سمينة مدرجة جيدة ، وعنز وكلاب مختلفة • ويشكل عام فان ما رأيناه شائع فى كل سوق فى أوربا ، لكن البشرة الداكنة للحاوى العربى وثوبه الواسع والمسلك الشرقى الوقور والأثر العام للمشاهد المرحة ــ كل ذلك قد أضفى الجاذبية على عروض ــ هى فى حد ذاتها ــ مملة وطفولية •

وعند عودتنا لمقر اقامتنا ارتدينا ملابس الصيد ، وذهبت مع الدوق الكبير والبارون ساورما خلال شوارع المدينة وعبرنا جسرا على النيل بالقرب من المنازل الريفية للخديو ، وتمركزنا فى أحد حقول القصب هناك ومعنا عنز راحت تثغو أخفيناها بين أعواد القصب الطويلة • يا خسارة ! لم يأت ذئب ولا أى حيوان غير مستأنس ، مع أن ساورما كان قد مارس الصيد بنجاح فى البقعة نفسها وبالطريقة نفسها ، لكن ديانا كانت غير عطوف معنا اليوم مرة أخرى ( لم يكن الحظ حليفنا ) ، فعدنا لمقر اقامتنا عندما بدأ الظلام يزحف • لقد كان مساء رائعا ، غروب بهى أعقبه ليل الربيع الأفريقى العظيم • فراحت الحشرات تطن وتئز ، وراحت الخفافيش تمر بسرعة حول الأشجار التى راحت ذؤاباتها تحف حفيفا رقيقا• سحر محيط من النجوم فى القبة السماوية الزرقاء ، وهدوء لا يقطع جلاله سوى نباح الكلاب الذى لا ينقطع وصياح طيور دجاجات الماء فى طريقها للنيل •

لقد كانت القاهرة تغص بالحياة ، وكان علينا أن نندفع لنشق طريقنا وسط الزحام والحركة حتى نصل الى قصر النزهة •

وذهبنا فى بكور صباح اليوم التالى الى ثكنات قصر النيل الكثيرة ، وواصلنا رحلتنا فوق ظهر الباخرة فيروز Feruz التى كانت راسية الى الأدنى من الثكنات • لقد ذكرتنا هذه الباخرة القديمة بسهول الصعيد السعيدة ، وأيامنا الطيبة هناك • وقاد الأدميرال الداكن ــ مرة أخرى ــ سفينته الجيدة ، وما هى الا دقائق قليلة حتى تحركت سفينتنا شمالا •

**الى القناطر :**

لقد تعلمنا منذ الوهلة الأولى أن هناك فرقا بين مناظر مصر العليا ، ومناظر الدلتا ، فمناظر الصعيد بثراء ألوانها وجمال طبيعتها تزداد قيمتها عندما يعود المرء الى القاهرة ومصر الدنيا ( الدلتا ) ، فما كان جذابا فى

الدلتا عندما رأيناه للمرة الأولى ،بدا لنا ــ بالمقارنة بمناظر الصعيد شاحبا لا لون له •

لقــد كانت رحلتنا هذا اليوم الى قناطر النيل الشهيرة « barrage du Nil » • لقد تجاوزنا في البدايه منازل قديمه تهبط تدريجيا حتى الماء ، ثم توغلنا في المجرى الواسع للنيل فوجدنا يخوتا متنوعة للخديو صفت جنبا الى جنب ، وبواخر بريد وعددا كبيرا من الذهبيات ( البواخر السياحية والخاصة ) وعلى الشاطئ الغربي توجد بيوت ريفية تحيطها حدائق غناء ، وناحية اليمين ( الشاطئ الشرقى ) المدينة ، وضاحية شبرا وقلعة تحمل الاسم نفسه ( قلعة شبرا ) والأشجار الباسقة للمتنزه الكبير• وسرعان ما اختفت هذه المشاهد الشائقة وبدأت المناطق الزراعية ذات المنظر الرتيب فى مصر السفلى تحف النهر مستمرة استمرارا غير منقطع •

وقد رأينــا مجموعة من الأوز البرى المرتجل وعددا كبير من البط أما دجاجات النهر فكانت عند الشاطئين لكن بأعداد قليلة ، وتجاوزت سفينتنا عددا من الجزر الرملية الطويلة ، وظهر أمام نواظرنا مبنى حاجز يشبه الجسر ( الكوبرى ) •

هنا يتفرع النيل الى فرعين : فرع دمياط وفرع رشيد • اننا الآن عند النقطة الجنوبية للدلتا • واللسان الطينى الذى يفصل الفرعين وكذلك الفرعان ، قد مد عليها جميعــا جسور ( كبارى ) حديدية وقناطر عملاقة أنشأها محمد على ، والهدف منها هو الاحتفاظ بمياه النهر أمامها أثناء فترة انخفاض المياه حتى يمكن امداد ترع الوجه البحرى كثيرة العدد بالمياه اللازمة أثناء التحاريق ( نقص المياه ) كما يتم امدادها أثناء الفيضان على سواء •

ويقال ان نتائج هذا المشروع ــ الذى عاق الملاحة فى النيــل فى الوقت نفسه ــ لا تساوى المبالغ الطائلة التى أنفقت عليه • وثمة قلعة تكلفت أيضا مبالغ طائلة على اللسان بين السدود ، وهذه القلعة المهجورة منخفضة جدا فهى لا تزيد كثيرا عن كونها دمية وثمة عدد قليل من البنادق قديمة الطراز وثكنة بها حامية صغيرة ، على أن أكثر ما يلفت النظر فى هذا كله هو الصفوف الطويلة من الأشجار الباسقة التى تزين كل جوانب هذا المكان المهجور •

وكان علينا أن نتفقد المكان كله ودرنا حول القلعة ، وكذلك السدود ( القناطر ) ، وبعد اتمام جولتنا اتخذت باخرتنا طريق العودة • وتوقفنا عند جزيرة طويلة ضيقة تغطيها الرمال والشجيرات الكثيفة ، وبحثنا فيها

عن الطرائد · لقد أطلقت بندقيتى على بعض طيور الماء الصغيرة بالاضافة الى اصطيادى لصقر جميل ذى صدر شاحب · وثمة فرع ضحل من النهر يقسم الجزيرة ، وعبر هذه المخاضة تتجول قطعان كبيرة من الخراف والماعز لتتغذى على الشجيرات النابتة فيها · وقد وجدنا على ضفتى النيل أكواخا بائسة مختلفة تمت اقامتها لأغراض الصيد ·

وسرعان ما تخلينا عن الصيد فى هذه الجزيرة وعدنا لباخرتنا وتناولنا افطارنا فى طريق عودتنا لمقر اقامتنا ، وما كدنا ننتهى من تناول القهوة السوداء وتدخين السجائر حتى وصلنا لقصر النيل وودعنا السفينة فيروز الحبيبة وداعا أخيرا ·

**الدراويش**

وقد عرف عبد القادر باشا ـ باهتمامه الذى لا يفتر ـ كم أنا مشوق لرؤية الدراويش وهم يرقصون turning ويصيحون howling فحصل من الخديو على أمر بالسماح لنا بدخول احدى تكايا Convent هؤلاء المتعصبين ، خاصة أنه لم يكن هناك يوم جمعة ضمن أيام برنامجنا فى القاهرة ( ففى يوم الجمعة يمارس هؤلاء الدراويش طقوسا خاصة فى المساجد الكبرى ) · فركبنا مارين خلال المدينة كلها حتى وصلنا لأبعد جزء فى الحى العربى · وتوقفت عربتنا عند حارة صغيرة وتسلقنا منحدرا حادا الى جدار ( سور ) ، وعندما دخلنا من البوابة وجدنا رواقا صغيرا معمدا مسقوفا وحديقة ، ووصلنا لغرفة الاستقبال بعد أن صعدنا سلما خشبيا بائسا وسرنا فى ممر · كانت الجدران مستوية وجرداء ، ولم يكن بالغرفة سوى ثلاث كنبات وبعض الأبسطة ، وظهر شابان أظنهما من خدم ( التكية ) ، وفى غضون دقائق قليلة ظهر شيخ director التكية Convent ـ وهو رجل عجوز هده التعبد بأسلوب معاقبة الذات ـ تكفيرا عن الخطيئة ـ والعمل على اماتة الشهوات · وكان مظهره الخارجى قبيحا حقا اذ كان نحيلا شاحبا بلون الشمع ، لقد كان كجثة ميت بملامحه الحادة وشفتيه الشاحبتين وعينيه الميتتين ويديه النحيلتين ذواتى العظام البارزة ، وحمله ( ظهره ) المنحنى ، بالاضافة لصوته الأجوف ـ كل ذلك كان ذا طابع شبحى شاحب شحوب الموتى · أما ملابسه فثياب طويلة ملونة مزينة بالفراء ، وحزام لامع وعباءة طويلة تزحف خلفه فوق الأرض كان يضم أطرافها الأمامية الى بدنه بيديه المرتعشتين رغم حرارة الجو · ويضع فوق رأسه عمامة مرتفعة من لباد أخضر حولها شال أخضر ـ وهو اللون المفضل لدى النبى ( صلى الله عليه وسلم ) the Colour of the prophet · وهذه العمامة headdress العجيبة تشبه عمائم الفرس ·

وقد أشار الينا ــ وفقا لما تقتضيه اللياقة ــ أن نجلس وجلس هو متيبسا على الكنبة كأنه أحد تماثيل الشمع • وأحضر الخدم القهوة فى فناجين قذرة وقدموا لنا السجائر •

وبعد مقابلة رسمية قصــيرة دعانا لقاعة الحلقة ( القاعة المقدسة Sacred hall) فى المسجد التابع لأتباعه ( مريديه ) فدلفنا الى مبنى غريب بعد أن مررنا بممر بحذاء البيت • لقد كان قبة دائرية عالية ذات حلى معمارية شرقية ، وثمة ممر ضيق سقفه قائم على أعمدة خشبية تدور مدار الجدران • انه المكان الذى يتمركز فيه مشرف الحلقة faithful والموسيقيون ( العازفون ) • والى الأدنى منا رأينا حلقة spectator تشبه حلقة التدريب فى مدارس تعليم الفروسية riding school ذات سياج يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام ، وأرضية الحلقة مفروشــة برمل ناعم كما فى حلبة التدريب فى مدارس تعليم الفروسية وثمة بســاط تركى قديم مفروش فى أحد الجوانب • ولم نجلس أكثر من دقيقة فى الممر ، وكنا تواقين لرؤية ما سيحدث بعد ذلك عندما دخل شيخ الطريقة العجــوز the old high Priest متقدما ببطء فى الحلقــة arena وجلس متربعــا على البســاط ، وتبعــه حــوالى عشرين رجلا ، وكانوا جميعا يضعون فوق رءوسهم عمائم عالية من النوع نفسه ، لكنهم يلبسون صدريات بيضاء ضيقة ذات تصميم تركى ومفتوحة من الأمام وتحت الصدرة حزام وقميص واسع كتنورة النساء • وساروا فرادى بخطوات وقورة وقد عقدوا أيديهم أمام صدورهم وانحنوا انحناء شديدا أمام شيخ الطريقة (*) Priest الجالس • ثم صفوا أنفســهم حــول الحلقة ازاء جــدرانها • وتلا شيخ الطريقة بعد ذلك دعواته بصوت خشن وراح أثناء ذلك ينحنى كثيرا فى مختلف الاتجاهات وحذا أتباعه حذوه ، ولما انتهوا من ذلك ارتفعت أصوات الموسيقا ــ فجأة ــ عالية صاخبة • وكانت الآلات الموسيقية هى نفسها التى رأيتها وسمعت أصواتها أثناء مشاهدتى لرقصة النحلة فى صعيد مصر غير أن الأجراس النحاســية والكمــان تلعب هنا دورا أكبر فى العزف ، والكمان المســتخدمة هنا تشــبه الجوزلا gusla عند أهــل دالماشيا • كان العزف وحشيا وذا طابع حربى •

وعند المقطع الأول خطا الرجال داخل الحلقة وانحنوا مرة أخــرى لشيخ الحلقة old priest وبدءوا يدورون حــول أنفسهم to turn لا أحد منهم يلمس الآخر وبقى كل شخص فى موضعه ، وفى البداية كانت حركتهم بطيئة لكنها زادت شيئا فشيئا بسرعة حتى ان تنوراتهم الطويلة

---

(*) لعله شيخ السجادة ــ ( المترجم ) •

ارتفعت عاليا · واستمرت الموسيقا صـاخبة مندفعة ، وأصبحت ملامح وجوههم ثائرة مهتاجة أكثر من ذى قبل وراحوا يهمهمون وهم يدورون كالخذروف ( النحلة أو الخذروف الذى يديره الصبية مستخدمين خيوطا ) كل فى موضعه ومدوا أذرعهم وأيديهم ، فهذا يقبض يديه ، والآخر فى الخلف يرفعها ، والثالث يبسط كفيه ، وهذا يعنى أن اليد اليمنى تحمل السيف دفاعا عن العقيدة واليد اليسرى تطلب عطايا الرحمن ·

ان المنظر الى مثل هذه المناظر يجعل الأوربى يصاب بالدوار ويجرى الدم باردا فى عروقه · ان هذا التعصب البالغ يسبب للمرء خوفا ورعبا · ان هؤلاء الناس يدورون حول أنفسهم بسرعة لا تصدق ، دون أن يتزحزح الواحد منهم عن موضعه قيد أنملة ، وتتقلص وجـوههم بعنف وكأنما زلزلوا زلزالا شديدا ، وتحملق عيونهم خارجة من محاجرها ، وأيديهم النحيلة وخدودهم الشاحبة التى اندمجت فى لحاهم القصيرة المنسقة على النسق التركى — كل هذا ينبىء عن الخلل العصبى الذى تسببه المشاعر الدينية غير السوية · وثمة رجل عجوز يرتدى ملابس كالتى يرتديها شيخ الطريقة ( أو شيخ السجادة ) يزحف بين الدراويش وهم يدورون حول أنفسهم لينظم حركاتهم · لقد استمرت هذه الطقوس الدينية فترة طويلة ، ثم توقفت الموسيقا ، فبذل كل درويش قصارى جهده ليستند للجدار · كانوا شاحبين مهزوزين وانحنى كل واحد منهم انحناءة شديدة ، وتليت دعوات أخرى ، ثم عزفت الموسيقا مرة أخرى وبدءوا يدورون من جديد ·

كم تستغرقه هذه الطقوس الدينية يوميا ؟ لا أدرى ، لأننا بعد نصف ساعة غادرنا التكية Convent · ولا أنكر أننى كنت سعيدا أن أرى الشمس مرة أخرى وأن استمتع برؤية السماء الضاحكة والحركة فى الطرقات ، وأن أهرب من هذه التكية الباردة الشبيهة بالزنزانة ومسجد الدراويش الكئيب وهلوستهم المرضية المتفسخة ·

وهؤلاء الدراويش رهبان غير متزوجين ، ويعيشـون — معيشة مشتركة — فى منزل واحد · **وثمة طرق** Sects **مرعبة مختلفة على هذا النحو ظهرت فى التاريخ الاسلامى المتأخر — ليس فى شبه الجزيرة العربية مهد الاسلام حيث العرب الأذكياء ، وانما كان ظهورها — أى هذه الطرق المرعبة — فى الشمال بين أهل آسيا الصغرى والقبائل المغولية ، وقد تأثر العثمانيون فى آسيا وأوربا بهذه الخرافات المنحطة فلعب الصـوفيون** softas **دائما دورا مهما فى هـذه الأنحـاء أثناء فترات الهياج الدينى والحروب ·**

**وقد وجد الدراويش الدوارون ( اللفافون ) والمهمهمون ( النباحون ) في القاهرة لفترة طويلة ، لكن هؤلاء الدراويش ـ خاصة الأوائل منهم ـ قد تجنبهم العرب الذين تمسكوا بشريعة دينهم الحقة ، واعتبروا ما يقوم به الدراويش انحرافا عن التعاليم الحكيمة للنبي العظيم • لقد كان كل هؤلاء الدراويش الذين رأيناهم هناك من عثمانيي أوربا وآسيا الصغرى ، وكان من الواضح أنهم على النمط التركي تماما •**

ووصلنا للجانب الأوربي من المدينة بعد أن اجتزنا الحي العربي ، وتجاوزنا قصر النائب في القصر العيني ، الذي تشغله الآن زوجة الخديو لنصل الى أقدم أرجاء القاهرة حيث وجدنا أن أكوام النفايات والمقابر وخرائب المساجد القديمة والقاذورات المختلفة ، ـ أكثر بكثير من المساكن المأهولة بالسكان • وعند نهاية شارع ضيق أغلقته الأحجار وبقايا الخرائب ، توقفنا وعبرنا بوابة تفضي الى باحة ( صحن ) حولها أروقة ظليلة تحفها النباتات اننا الآن في مسجد قديم دائري ، فوجئنا بمظهره الخرب • واستقبلنا رجل عجوز بدين وعلى وجهه ابتسامة ودود ، وعلى رأسه عمامة مستديرة ويلبس ملابس تركية بهيجة أصيلة ، فتبعناه عابرين بابا ضيقا الى داخل المسجد • كانت الأحجار مغطاة بفراء الخراف ، وثمة درع صدىء ورماح وسيوف وخناجر ، وسيوف مثلمة معلقة على الجدران ، وبينها علم أخضر بال ( ممزق ) ، لابد أن هذه الأسلحة النبيلة قد شربت من دم الكفار حتى ارتوت فاستحقت أن تعلق في هذا المكان المقدس ( المسجد ) •

وعندما تبدأ الحرب من أجل الدين الحق ، فان دراويش هذه الطريقة ( وهي طريقة ذات طابع حربي أكثر من طرق الدراويش الدوارين « أو الراقصين » ) فالواحد منهم يأخذ الدرع ويحمل الراية الخضراء شارة النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ويجري وهو يعوي خلال الشوارع صائحا معلنا الحرب والموت للكفرة داعيا المسلمين للجهاد • وقد لعب هؤلاء الناس ( الدراويش ) دورا مهما في الحروب التركية القديمة ، ولا زال الاسلام يضمن لهم أنهم سوف يجدون ميدانا ( مجالا ) لنشاطهم •

وما كدنا ندخل المسجد حتى أقبل الناس الأتقياء فجلس الرجل العجوز الذي استقبلنا في الوسط على فراء خروف • وتحلق أتباعه حوله في حلقة ، وتلا دعوات بصوت عال ، وراح يكرر دعواته مرات عدة ، ويكرر المتحلقون حوله ما يقول ، وعزفت الموسيقا ـ تماما كما هو الحال عند الدراويش الدوارين ـ أصواتا عالية بربرية ، وتوافقت حركاتهم المستمرة مع القرع الموسيقي ، وراح الواحد منهم يحرك جزء جسمه

العلـوى للخلف وللأمام • وكان هـؤلاء الدراويش يتأوهون ويندبـون ويهمهمون بالكلمات نفسها بشكل غير مفهوم ولا مبين على الاطلاق • لقد كان المنظر كله كئيبا بشكل يبعث على الألم والرثاء • كان هؤلاء الدراويش يلبسون عبـاءات براقة طويلة ويلفون خواصرهم بحبال بسيطة • وهم عكس كل المسلمين لا يضعون فوق رءوسهم أى غطاء للرأس ، وشـعر الواحد منهم طويل مهوش ولحيته طويلة ، وعندما يميل ببدنه الى الخلف ( يثنى جزءه الى الوراء ) يتهدل شعره حتى يصل الى الأرض ، وعندما يميل بجسده مندفعا للأمام يغطى الشعر وجهه بشكل مهوش • عيونهم زائغة تدور ، وأجسادهم تهتز بعنف والرغوة والزبد يغطى شفاههم ، وكان ثمة رجل ضخم منهم ــ بالذات ــ له لحية سوداء يمثل أقصى درجات الانجذاب الوحشى المتبربر •

ولم نمكث طويلا فى هذا الجو المقبض ثقيل الوطأة وتبعنا شيخ الطريقة العجوز Old high priest وكل أتباعه ( مريديه ) حتى الخارج ، ولما خرجوا وراءنا كان كل واحد منهم قد غطى رأسه ، فارتدى معظمهم طواقى بنية وقدموا لنا ــ تحت تعريشة ظليلة بدائية ــ قهوتهم السيئة •

وسألت عن أصــولهم فوجدتهم مثل الدراويش الدوارين يتحدثون جميعا التركية ، ولم يكن منهم عربى واحد • وكان شيخ الطريقة العجوز من اليونان وكان عثمانيا خالصا ، أما الآخرون فكانوا تركا من اسطنبول ، والروميللى Roumelia وغيره من ولايات البلقان وقد حضر حلقة الذكر هذه مسلمون آخرون أيضا من القرم وآسيا الصغرى ، وكردى واحد من بغداد كان يضع فوق رأسه عمامة خضراء كبيرة •

واستأذنا فى الانصراف بعد فترة قصيرة وعدنا الى قصر النزهة ، وكان يتحتم أن نسرع لأنه كان علينا أن نحضر هذا اليوم ــ دون ملابس رسمية ــ غداء خاصا فى قصر الخـديو ، وعدنا لمقر اقامتنا سريعـا بعد الغـداء لأنه كان يتعين على الخـديو أن يذهب مسـاء لمسجد الحسـين لحضور احتفال دينى وكنا سعداء ــ بعد هذا اليوم الحافل المثير ــ أن نخلد للراحة •

وفى بكور اليوم الثالث من هذا الشهر ذهبت الى مقابر الخلفاء ، وحالما انتهى الطريق الذى لا تستطيع العربة ( الحنطور ) السـير به ، وذلك عند آخر منزل فى الطريق ــ ركبنا حميرا فسارت بنا بين المقابر ، وسرعان ما وصلنـا لسفح حيد مرتفع من حيود جبل المقطم ، وسلكنا الطريق نفسه الذى سلكناه من بضعة أسابيع خلت ، وتسلقنا الحيد ولم يمض وقت طويل حتى كنا رابضين فى مكمن ضيق غير ملائم •

وبعد ثلاث ساعات طوال مملة خالية من الأحداث تماما ، ظهرت بعض الحدءات ونسور الجيف ، وبمجرد أن بدأت تتناول وجبتها حتى سمعت صوت تحريك ثقيل لجناحى طائر كبير ، وفى الحال تشتت شمل الضيوف الأقل قيمة وحط نسر كبير ذو رأس بيضاء ــ وجناحاه لم ينضما لبدنه تماما ــ على ظهر جثة الحمار وشرع يتناول افطاره دون تأخير ، ولم أتوان بدورى لحظة واحدة فالقمته طلقة فانطرح وخرجت من كهفى زاحفا وحملت فوق كتفى غنيمتى الثقيلة وهبطت الجبل متجاوزا الصــخور والحيود وأكوام الحجارة الى حيث الخدم والحمير فى انتظارى • وقبيل الظهر كنا فى قصر النزهة مرة أخرى •

وبعد الافطار استرحنا قليلا ، وقررت أنا والدوق الكبير أن نزور حديقة شبرا فحملنا بنادقنا وركبنا أحد الحناطير الذى سار بنا فى حى شبرا الفاخر حتى أسوار الحديقة العالية • انها حديقة واسعة مسورة وثمة قلعة بين الأشــجار الســامقة والشــجيرات الكثيفة ، وهى محاطة بأحواض المياه والعرائش ( الشكائف ) وأحواض الزهور ، وثمة مساحة واسعة مخصصة لاعداد الطعام ، وثمة بساتين برتقال داخل هذه الحديقة ، بل ان هناك مساحات مزروعة بالقمح الذى لم يصفر لونه بعد • وكانت البقع الندية الرطبة مزدحمة بأسراب طيور البلشون ( مالك الحزين ) الرمادية ، بينما على أشجار الصنوبر التى تزين تلا صناعيا بالقرب من القلعة ــ تحط أعداد كبيرة ــ بشــكل لا يصــدق ــ من طيور البلشون البيضاء ممتلئة الجسم plump aigrettes .

وعكرنا صفو هذه الطيور ، لكن كان علينا ــ للأسف ــ أن نغادر هذه الحديقة الفاتنة بسرعة بمجرد أن راحت أغصان أشجارها الهامسة تسبح فى الضوء الذهبى للشمس الغاربة ــ حتى نصل لمقر اقامتنا فى ميعاد تناول العشاء • والقينا نظرة مشتاقة على حقول القمح المتموجة ، وكان من السهل أن استنتج أن هذه البقعة المحاطة بالأسوار ملائمة تماما لبعض الطرائد التى نبغى صيدها • وبعد ذلك بأيام قلائل أخذ ساورما بنصيحتى ، فذهب للاصطياد فى حديقة شبرا هذه فقتل وشقا ونمسا •

وتناولنا عشاءنا عند وصولنا قصر النزهة مع الأخوين ساورما ، وكان ساورما الصغير والأمير تاكسيس Taxis قد عادا منذ يوم واحد فقط من رحلة طويلة مرهقة لجبال البحر الأحمر ليبحثا ــ عبثا ــ عن الوعل ( التيس ) العربى •

وفى الرابع والعشرين من مارس خرجت مجموعتنا كاملة ــ مبكرا ــ الى طريق هليوبولس ــ الى آخر حدود المدينة حيث نصبت لنا خيمة مزدانة بالأعلام فى الهواء الطلق ٠

## افتتاح مستشفى نمساوى :

وكان عدد من الناس قد تجمعوا هناك ، كما كانت الجالية النمساوية المجرية موجودة بأعداد كبيرة ، ذلك أننا كنا بصدد الاحتفال بوضع حجر الأساس للمستشفى النمساوى ٠ وقد دبر كاتولى بك Catouli Bey ــ وهو تاجر يهودى ثرى يحظى بالحماية النمساوية ــ بسخاء كل الأموال اللازمة لهذا المشروع الطيب ، وقد حضر هو نفسه مرتديا الزى اليهودى القديم ٠ وتم الاحتفال وسط ابتهاج الحاضرين بينما كانت تعزف الموسيقا السلام الوطنى ( النمساوى ) ٠ لقد كان احتفالا وطنيا تمت وقائعه بعيدا عن وطننا الغالى فى ركن آخر من أركان المعمورة ٠

وبعد انتهاء الحفل عدنا مباشرة الى الخديو لاستئذانه وتقديم الشكر له ، وقد عاد بدوره بسرعة الى قصر النزهة ليصحبنا الى محطة السكك الحديدية ٠ وغادرنا قلعتنا فى حى شبرا ونحن نشعر بالأسف وسارت بنا الحافلة فى شوارع شبرا وقد غمر الحزن قلوبنا ٠

## مغادرة القاهرة :

ولما وصلنا محطة السكك الحديدية وجدنا كتيبة مشاة قد اصطفت أمامها لتحيينا بالسلاح بينما تعزف موسيقا نشيدنا الوطنى ٠ وكان على درجات المحطة عدد كبير من مواطنينا مع المسئولين المصريين ، وبرجش باشا والأخوان ساوريما والأمير تاكسيس ٠ واستأذنا الخديو Viceroy الذى لاقينا منه رعاية لم تنقطع ، وكذلك ودعنا أصدقاءنا جميعا ، وتحرك القطار ببطء خارجا من المحطة ٠ لقد شعرنا بغصة ونحن نلقى نظرتنا الأخيرة على مدينة الخلفاء الجميلة وعلى منحدرات المقطم والقلعة الشامخة والأهرام الساحرة ٠ لقد كنا الآن بصدد مناطق جديدة وأراض أخرى ٠

لقد سار بنا القطار على الخط نفسه الذى سافرنا عليه منذ أيام قلائل ، ففى البداية مررنا بأرض زراعية ، وبعض المدن ، كثير منها له جاذبية تاريخية ، فعلى سبيل المثال ــ شبين القناطر ، وهى مدينة عربية حديثة ، بالقرب منها ــ فوق ما كان يسمى بتل اليهودية Tell el-Yehudiye كانت تقع مدينة محصنة فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل حقبتنا ، وكان فيها ــ زمن حكومة بطلميوس فيلوميتور Ptolemy Philometor

ـ معبد يهودى أقامه أونياس Onias كبير الكهنة ، لليهود المطرودين من فلسـطين ، والى الأبعد تقع بلبيس Bilbés ( بيلابس المصرية القديمة Pilabes) ، وهى مدينة مشهورة ـ خاصة فى العصور الوسطى ـ اذ كانت مقرا للحكام العرب المنوط بهم ادارة منطقة شرق الدلتا • ثم أتت الزقازيق ، وهى مدينة واسعة معروفة بنشاطها التجارى استقر فيها عدد كبير من أهل الشرق ( شرق أوربا وتركيا والشام ) ، وبالقـرب منهـا تل أثرى مهم هو تل بسطة Tel-Basta الذى احتفظ لقرون ببقايا معابد مدينة بوباستيس Bupastis ومنازلها ، وبوباستيس هذه مشهورة فى التاريخ القديم ( وتعنى بالمصرية القديمة بى ـ باست Pi-bast ، وتعنى مقر الربة باست Bast ، وبالعبرية Phi -beseth) وكانت الربة باست تعبد هنا فى معبد واسع باهر • ولا تزال صور هذه الربة محفورة على الحجر والبرونز تستخرج من خرائب التل ، وتمثل الربة باست بامرأة شابة نحيلة تحمل احدى يديهـا صلاصل ( صاجات Sistrum) وفى الأخرى سلة ، وليس لها رأس أنثى وانما رأس قطة ، فالقطط رمز مكرس لها • وتشير النقوش اليها ـ غالبا ـ على أنها الشكل المحلى للسلام والصحة اللذين تجلبهما الربة ايزيس •

والى الشرق من بوباست Bubastis ( التى كانت عاصمة لاقليم سـمى باسمها بوباستيتز Bubastites) ، ـ كان يقع فى العصور القديمة النصف الجنوبى من ولاية شـبه الجزيرة العربيـة المجاورة the adjoining province of Arabia التى لا نعرف عنها سوى القليل فى الكتابات الكلاسية المتعلقة بالعصور القديمة • انها الأرض التى أشار اليها الكتاب المقدس باسم جوشن Goshen (*) •

الخط الحديدى يعبر هذه المنطقة بخط مستقيم الى الشرق ، ويسير حذاء ترعة المياه العذبة فى وادى طميلات Tûmilat • وعند مدخل هذا الوادى ـ عند تل (أبو سليمان) Tell-abu-Soliman توجد بقايا مدينة Pithon أبو باتوموس Patumos التى أجبر فيها اليهود على العمل قبل الخروج ( من مصر ) • وفى الجزء الشرقى من الوادى ـ نحو بحـيرة التمسـاح ـ وجـد النصب التذكارى لرمسيس الثـانى بالقرب من Mas-Chûta مع تماثيل أبى الهـول ، وأحجار ذوات نقوش ، وبقايا مبان قديمة من القرميد • وقد عرف ليسبس Lesseps وأغلب الدارسين هذا الموقع باعتباره مدينة رمسيس التى أشار اليها الكتاب المقدس ، لذا فان محطة السكك الحديدية تحمل اسم رمسيس •

---

(*) ورد فى قاموس الكتاب المقدس الذى ألفته مجموعة من اللاهوتيين أن أرض جوشن مدينة فى جبال يهوذا وهى قرية الظاهرية الحديثة ـ ( المترجم ) •

## الى السويس :

وبعد مغادرة الوادى Wadi ( الآنف ذكره ) يمر الخط الحديدى الى المحطة الأخيرة للاسماعيلية ، ويستمر الخط الحديدى جنوبا عبر الصحراء على طول الساحل الغربى للبحيرات المرة ، وهذه البحيرات : الشمالى منها والجنوبى تقدم للرائى منظرا شائقا بمياهها الزرقاء المتألقة ، والى الغرب منها جبل جنيفة Geneffe ذو الشكل المحدد الجميل حيث المحاجرلا تزال تستخدم على نطاق واسع حتى أيامنا هذه ــ خاصة فى المواضع التى بها أحجار رخامية ، وأخيرا ألقينا نظرة على جبل عتاقة الداكن المهيب ثم أخبرنا البحر اللازوردى اللامع كالمرآة أننا اقتربنا من ميناء السويس •

ان المرء ليدهش وهو داخل للمحطة بمنظر الميناء الغاصة بالسفن القادمة من مختلف البلاد • ان السويس التى وصلناها قبيل المساء مدينة لا طعم لها ولا أهمية ( لا شخصية ) ففنادقها البائسة ومساكن القناصل الخاصة ــ كل ذلك ليس له طابع خاص البتة وانما على النسق الغربى تماما ، بل ان أرصفة الميناء العديدة وأبنيتها لا تؤكد جمال المدينة أو الميناء •

لا يجعل هذه المدينة شائقة سوى أهميتها التاريخية الفائقة ، تلك الأهمية التى تنسحب بدورها على البحر الأحمر بمياهه الصافية وسطحه الهادىء وسواحله الجميلة رغم حزنها وكآبتها • وذهبنا سراعا لتناول طعامنا فى فندقنا فقد أرهقتنا الرحلة الساخنة • لم يكن فى هذا الفندق الانجليزى المهمل سوى قليل من النزلاء : بعض رجال الأعمال الانجليز كانوا يستجمون قليلا من عناء السفر حتى يواصلوا رحلتهم التى بدءوها من الهند ــ الى أوربا ، ومبشر تعس ــ لكنه مسل تماما ــ وهو ليفتنانت سكسوتى فى الاحتياط ومبشر فى آن واحد ، وقد رغب فى تحويل الأفريقيين فى المناطق الداخلية ( للمسيحية ) ، وكان مقتنعا من الناحية النظرية بأهمية مهمته وبأهمية المناطق التى سيبشر فيها ، لكن ــ من الناحية العملية ــ بدا الرجل تنقصه البراعة والخبرة ، والأهم من كل ذلك ، ينقصه المال ، وكان ينتظر فى الفندق بالسويس حتى تحين ظروف مواتية • واستيقظنا مبكرا فى صباح الخامس والعشرين من شهر مارس وبعد أن أفطرنا على عجل غادرنا الفندق وقطعنا المدينة لنصل الى مرسى البواخر فى الميناء وانى مدين لصديقى برجش باشا ــ العالم البارز ــ لوصفه الذى يدعو للاعجاب ــ لهذه الولاية ، ولا أجد أفضل من نقل جانب من خطابه الثرى بالملاحظات العلمية •

« فى الجانب الشمالى من المدينة يوجد تل صغير به آثار قديمة ــ أسماه العرب تل القلزم Tell-Kolzum ، وهذا الاسم العربى يذكر باسمه القديم Cylsma ــ وكانت توجد هنا فيما مضى قلعة محصنة قوية لحماية الميناء • وبانتهاء القناة القديمة فقدت المدينة أهميتها لكن ذكراها بقيت فى كتابات المؤلفين العرب الذين غالبا ما استخدموا مسمى بحر القلزم ليشيروا لما هو معروف اليوم باسم خليج السويس • وزيارة الميناء الحديثة بأشغالها وحواجزها ومخارجها وسدودها ذوات البوابات ، وقنوات المياه العذبة ( الترع ) ــ كل ذلك وحده يمكن أن يدلنا على الجهود المبذولة اليوم فى مجال تطبيقات الهندسة الميكانيكية على المياه • ولما كان غير المعروف أكثر جاذبية من المعروف ، والماضى ــ يثير الفضول أكثر من الحاضر ، والموروثات المنقولة أكثر مدعاة للسرور والبهجة من الحقائق التاريخية المؤكدة ــ لذا فان الحجاج ( المسلمين ) يتلبثون على سواحل البحر الأحمر مستغرقين فى أفكار ضاعت مع الزمن ولم يترك لها الزمن فى التاريخ أثرا • فأين كانت البقعة من البحر ( الأحمر ) التى غرق فيها فرعون وجيشه ؟ وأين الطريق التى قاد فيها موسى شعبه عبر الصحراء الى جبل سيناء ؟ تلك هى الأسئلة التى تفرض نفسها على المسافر المسيحى فى هذه الأرض • أسئلة عن الماضى والحاضر لا يمكن الاجابة عنها الا اجابة احتمالية على نحو أو آخر •

والنقطة الوحيدة التى تساعد فى الاجابة على استفساراتهم هو موقع آبار موسى (٢) فى الجانب الآسيوى لخليج السويس غير بعيد عن الساحل فى واحة خصبة • وأكبر هذه الآبار قد أحيط بسور فأصبح كأنه خزان ماء ، ويعتقد أنه هو بئر موسى الحقيقى الذى فجره صاحب الشريعة اليهودية من الصخر والذى أحال مياهه المرة الى مياه عذبة بالقاء غصن فيه •

وعندما تهبط الشمس غاربة فى المساء ملقية بأشعتها البرتقالية على جبل عتاقة Ataka الشامخ ، وعندما يرسل البحر بين الساحلين الآسيوى والأفريقى أمواجه الشفافة الزمردية لتصافح الساحل بحنان ، وعندما تبهت الألوان ببطء ثم تضيع مندمجة فى اللون البنفسجى ، ثم فى الزرقة ، ثم تتلاشى فى سديم رمادى ــ عندئذ فان صورة الطبيعة البسيطة ــ والعظيمة فى آن ، تترك تأثيرها كاملا ، فتستجيب لها الروح استجابة تفوق الوصف ، يظل أثرها باقيا حتى بعد العودة لأوطاننا الشمالية ، بمناظرها المختلفة وجمالها الطبيعى ، ذلك لأن المكوث طويلا وعميقا فى الشرق يحرك القلب بأحاسيس مرتجعة باعتباره الوطن الأصلى ( الحقيقى ) •

فهنا ـ عند آبار موسى ـ نكون في آسيا ، وهناك على الساحل المقابل لهذا البحر الضيق ، تقع أفريقيا • كيف لا تنهمر الفيوضات التاريخية على عقل الانسان عند رؤيته هذه المنطقة الرابطة بين قارتين ، كيف لا يعود الانسان بعقله الى عهود قديمة ، اننا نرى في فجر التاريخ البشرى قبائل حام ( القبائل الحامية ) تبدأ من آسيا ـ مهد جنسنا الأوربى ـ وقد تملكتها غريزة الهجرة ، فاتجهت غربا عبر جسر الأمم the bridge of Nations ، برزخ السويس Isthmus of Suez لتدخل القارة السوداء وتستقر فوق تربة مصر الخصبة مبحرة جنوبا في النهر لتشييد المدن والدول ، ولتترك آثارا عظيمة دالة على وجودها •

« ويبدو أن منف كانت أقدم المراكز ( المحطات ) التى استقبلت الهجرات الآسيوية • فمن المناسب أن تسمى الأهرامات « حجارة تخوم العالم the boundary stones of the world » (*) • ثم توالت آثار مصر الوسطى والعليا بعد ذلك تبعا لانتشار جنس الآباء الأول للمصريين نحو الجنوب ـ في مصر الوسطى والعليا ـ حاملة أبلغ الشواهد على أقدم الحضارات التى أبدعها هذا الجنس أثناء توغله جنوبا حول ضفاف النيل ، وثمة هجرة حامية أخرى اختارت الطريق البحرى وأتت لمصر من سواحل فارس وشبه الجزيرة العربية ، ويقصد بهم الكوشيون Cushites ذوو الوجوه البنية المحمرة ، وهم الأثيوبيون في الموروثات الكلاسية • انهم ملاحو العالم القديم • وعلى سواحل Araby the Blest في أرض الصومال الحالية ، وفى الحبشة وفى وديان النوبة المثمرة أسسوا أوطانهم الجديدة ، وراحوا يتصارعون ـ بشكل دائم ـ مع الأجناس الزنجية التى كانت تسيطر على النيل ، وما تاخمه من أراض من أقصى الجنوب حتى أسوان •

وتقدمت جماعات الكوشيين من سواحل شبه الجزيرة العربية شمالا ، واستقرت في أرض كنعان وعلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط ، وكانت الجبيل ( بيبلوس ) وصور ، وسيدون Sidon هى الأماكن الأولى التى استقر فيها هؤلاء المهاجرون الكوشيون أسلاف الفينيقيين ، وقد جعلوا منها موانيء ، أو مراكز ( محطات ) بحرية • وثمة مجموعة أخرى ، من جنس مشابه أتت بحرا ودخلت الخليج الفارسى واستقرت على شواطيء الفرات ، وسرعان ما أصبحوا هم القوى الحاكمة في السهل العظيم الممتد بين دجلة والفرات • وأقدم السجلات عن هذه الهجرة ارتبطت باسم نمرود الصائد العظيم وابن كوش Cush الذى أسس

---

(*) أو « الحجارة الحدودية للعالم » أو « حدود العالم » •• الخ •
( المترجم ) •

ـ وفقا لمرويات الكتاب المقدس ـ مملكة قوية فى الأجزاء الشمالية من المنطقة المشار اليها • ومرة أخرى كانت هناك قبائل كوشية غزت شرق الدلتا قادمة من شبه جزيرة العرب ـ قبل الميلاد بألفى سنة ، وأسست هناك امبراطورية الهكسوس • وطول خمسمائة سنة استطاعت هذه القبائل أن توطد لنفسها فى الدلتا تحت حكم ملوك من جنسها وتابعت زحفها صوب الجنوب متتبعة مجرى النيل حتى طيبة ، ولم يهزموا الا بعد معارك حامية الوطيس شنها عليهم ملوك من الجنس المصرى • وفى متحف بولاق مجموعة ثرية من التماثيل التى تبين وجود الحكام الكوشيين فى مصر بشكل يدعو للاعجاب الشديد ، وتمكننا من دراسة خصائص هذا الجنس الكوشى الغازى • وبعد طرد الهكسوس شهدت شبه جزيرة السويس The Peninsula of Suez (*) الجيوش المصرية تزحف شرقا لتنتقم من طغاة باشروا طغيانهم على مصر قرونا كثيرة • وتقدم الفراعنة المنتصرون الى بابل ونينوى وقهروا ـ فى طريقهم ـ عديدا من القبائل والبلدان ، وحكموا ـ لأكثر من أربعمائة سنة ـ أعظم امبراطورية فى غرب آسيا وأقواها •

« ولحماية حدود مصر من الهجمات القادمة من الشرق تم انشاء الأسوار والتحصينات فى شبه جزيرة السويس ( كذا ) وبدأت هذه الأسوار وتلك التحصينات بالقرب من الفرما ( البوليزيوم ) ـ الى الشرق من بورسعيد الحالية ـ وحتى هليوبولس • وكان لابد من الحصول على اذن فرعون قبل أن يسمح لأى جنس سامى بتجاوز هذه التحصينات ـ خاصة زمن المجاعات ـ والوصول للمراعى الخصبة قرب بحيرة المنزلة • ورحلة يعقوب فى مصر تلقى الضوء على الخطوات الرسمية التى يجب اتخاذها للاستقرار فى هذا الجزء من الدلتا • وبانهيار قوى الفراعنة أصبح برزخ السويس Isthmus of Suez ـ خاصة فى جزئه الشمالى ـ مسرحا لتحركات مستمرة للقبائل ، فحدثت غارات ، ومعارك : معركة اثر معركة بالقرب من الفرما عند خط الدفاع الخارجى وعبرت الجيوش الأجنبية مستخدمة الفرع البلوزى ( الفرع الفارمى ) للنيل حتى وصلت هليوبولس ومقر الحكومة شديد التحصين فى منف •

وعندما سد الفرع البلوزى (٣) ( الفارمى ) للنيل بسبب سحب مياه البحر المتوسط من الساحل السورى ( ؟ كذا ) واهمال قنوات الرى وأعمال تنظيم المياه فى شرق الدلتا خلال أحلك فترات التاريخ المصرى ، تراجعت المنطقة وتدهورت بعد أن كانت حديقة الرب ، وأصبحت الحقول

---

(★) كذا فى الأصل ـ ( المترجم ) •

والسهول – التى كانت يوما مزدهرة بالخضرة – صحارى غير مثمرة . ومياه الفيضان التى كانت تملأ الفرع البلوزى ( الفارمى ) للنيل – بشكل أساسى – قد تحولت الى الفرع الغربى ، وأصبح الفرع الكانوبى Canopic هو الفرع القوى ( الغنى بالمياه ) وشيدت الاسكندرية بالقرب من مصبه وأصبحت مركزا تجاريا مرموقا فى عهد البطالمة والرومان ومركزا للحياة العقلية فى الدين والفلسفة والآداب . وعادت أهميتها القديمة فى أيامنا . على الأقل فى ميدان التجارة . حقيقة ان طريق برزخ السويس Isthmus of Suez يعد شريانا أساسيا من شرايين المواصلات ، لكن ما يقال غالبا من أن بورسعيد ستحتل يوما ما مكانة الاسكندرية أمر غير قائم تماما رغم كل ذلك .

« فموقع الاسكندرية المناسب الى الغرب الذى يجعلها أسرع اتصالا بالموانىء الأوربية من بورسعيد ، وكذلك قربها من الأراضى الزراعية فى الدلتا ، وما تتمتع به من وجود سكك حديدية وما يصلها من ترع ، وما بها من أسواق بضائع وصرافة وما تقدمه بشكل عام من وسائل تجعل الحياة مريحة – كل ذلك يقنعنا – رغم كل الصعوبات فى مينائها – أنه يجب أن ننظر للاسكندرية كواحدة من أهم المدن التجارية فى مصر المستقبل .

ولايمكن لبورسعيد أن تحتل مركزا مماثلا لمركز الاسكندرية الا اذا أصبحت قارة آسيا منافسة لأوربا فى مضمار التجارة – وهذا أمر لايمكن تصوره الا فى المستقبل البعيد . لقد اندرس برزخ السويس Isthmus of Suez تاريخيا ، وقبرت الصحراء آخر آثاره فى الرمال ، وطريق القناة لا تقدم اثارة خاصة ، فمن بورسعيد الى السويس تبدو القناة كخط مياه أزرق يقطع الصحراء ، فالصحراء تحيط القناة من الجانبين ، والبقعة الوحيدة التى تسترعى الانتباه معروفة باسمها القديم قنطرة الخزنة Kantara-el-Chazne الى الشمال من بركة البلاح Dattel lake . انها – أى قنطر الخزنة – تعد بمثابة علامة تبدأ عندها طريق القوافل المصرية الى آسيا .

« وفى بواكير التاريخ المصرى كانت توجد فى هذه البقعة قلعة قوية على ضفتى القناة التى كانت تربط بحيرة المنزلة ببركة البلاح Dattel lake وتبين صورة من عصر الملك سيتى الأول Seti I ( والد رمسيس الثانى ، سيزوستريس ) على الجدار الخارجى الشمالى للمعبد العظيم لآمون فى الكرنك – بوضوح جسرا يصل من جانب الى جانب عبر هذه القناة الآنف ذكرها . وعند هذه النقطة بدأ ذلك الاقليم الشرقى الذى أطلق عليه المصريون اسم هزيان ( حزيان Hazion or Hazian) الذى أسماه اليونانيون

Casium وأسماه الرومان Casion ــ وكان هذا الاســم يشير الى الجزء الجبلى من الصحراء بالقرب من بحيرة سيربونيس Serbonis (*) ( وهى الآن مجرد سبخة ) ، وتتقدم هذه الجبال داخلة البحر المتوسط مشكلة قنة ( بضم القاف وتشديد النون ) ، وكان الضريح المقدس يقع هنا ، وكان مكرسا لحارس المنطقة زيوس كاسيوس Zeus Casius • وقد حـرف العرب الاســم القديم Hazion فجعلوه خزنة Chazne وظل الاســـم ممثلا فى قنطرة الخزنة • وأخيرا ، يجب أن نلاحظ أن طريق الفلسطينيين القـديم Way of Philistines كما سمى فى الكتاب المقدس الذى سلكته جيوش فرعون وجيوش الغزاة الأجانب ــ من القنطرة الى فلسطين ــ يقع بين البحر المتوسط وبحيرة سربونيس ، الا أنه ــ مؤخرا وفى العصور الحديثة ــ جرى تفضيل الطريق الواقــع الى الجنوب من البحيرة حيث طريق القوافل الصحراوى » •

ولنعد الآن لمتابعة وقائع رحلتنا بعد أن استمتعنا بهذه الملاحظـات القيمة التى قدمها واحد من أبرز علماء التاريخ المصريين •

## سيناء ــ عيون موسى :

لقد حملتنا الباخرة باخرة القناة المصرية فوق مياه البحر الأحمـر الخضراء الجميلة الى الساحل العــربى (**) وتوقفت عند أقرب نقطة لعيون موسى ، وسرعـــان ما اتجهت مجموعتنا جميعـــا فى طريقهـا ــ عابرة الصحراء ــ الى هذه العيون ، فوق ظهور حمير صغيرة ، لقـــد كانت هى المرة الأولى التى نطأ فيها الأرض الآسيوية (***) • ان الصحراء العربية تختلف تماما عن الصحارى الافريقية ، فاللون الأبيض المتألق حل محل اللون البرتقالى بدرجاته المختلفة ، انها جرداء تماما لا يقطع قحولتها سوى شجيرات هنا وهناك •

وعيون موسى التى وصلناها بعد نصف ســـاعة تقع وسط واحة صغيرة جدا ، وثمة حديقة يانعة حول العيون التى تنبجس من حفر على شكل أقماع ، وابتهجت عيوننا بالنخيـــل والشجيرات والحشـــائش الطويلة والنباتات العريضة أوراقها • وثمـــة أكواخ قليلة يقطنها بعض البـدو الفقـــراء (٤) •

---

(★) بحيرة البردويل الآن ــ ( المترجم ) •

(★★) المقصود سيناء ــ ( المترجم ) •

(★★) المقصود هنا سيناء كما يتضح من السياق ــ ( المترجم ) •

ولم أر - بالاضافة لطيور السنونو ( طيور الخطاف ) سوى سحلية وأعـــداد كبيرة من الحرباء تغير ألوانها فى كل لحظـة ، وتتسم بالنحالة كأنها أوراق • وبدت آثار الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى مما يشير الى أن هذه الحيوانات ترد ماء العيون ليلا •

وكان البدو الذين رأيناهم عند العيون فى ثياب خلقة • ولبنادقهم البدائية ذوات الأحجار القداحة flint guns حبـــال طويلة ملفوفة حولها ، ويشعلون فيها - أى فى هذه الحبال - ويتركونها تشتعل حتى تصل النار الى البارود فى الخزنة ، ويجب أن ينتظر الصيادون البوساء لعـدة دقائق ترقبـا للحدث السعيد • وطلبنـــا منهم اطلاق بنـادقهم فى حضورنا • انها أسلحة مربكة يحتار المرء فى وصفها بسبب قلة شـــأنها وبدائيتها •

ويختلف هؤلاء الناس - كثيرا - فى مظهرهم عن البدو الحقيقيين • فقد بدوا فى عينى يهودا داكنى البشرة • كما أن قوام الواحد منهـــم وملامحه اسرائيلية تماما ، وان كان يتحتم على المرء أن ينصرف عقله الى أنهم من ذرية هاجر Hager الذين خرجوا من صحراء شبه الجزيرة العربية ، وهم ذرية اسـماعيل Ishmaelite المشهورون بالصـــيد والسلب ، وهذا ما ورد فى معظم أشكال المرويات الخرافيـــة عن فجـر التاريخ الشرقى ، وتحتل هذه الفكرة أهمية بالغة •

ومن فوق تل الجرد بالقرب من عيون موسى ألقينا نظرة من بعيد عبر الصحراء العربية البيضاء المتألقـــة بحيودها الصخرية وأوديتها - الى الجنوب حيث جبال سيناء المرتفعة ، والى الغرب - عبر البحر الأحمر - حيث جبل عتاقة فى أفريقيا ، كانت السحب الكثيفة فى السماء تضفى على المشاهد شيئا من الجهامة •

وبعد فترة قصيرة عدنا للساحل وبحثنا لبعض الوقت عن الأصداف فى الرمال ، فالبحر الأحمر مشهور بثراء أصدافه وقد وجدنا فى غضون دقائق قليلة ما لا يحصى من الأصداف الجميلة • ليس لدينا وقت وعلينا أن نعود لباخرتنا ، وبالفعل عدنا وتجاوزنا السويس ودخلنا القناة ، وهنا كما فى كل مكان ، وجـدنا ضفتيها جرداوين ، وأفضـل أن أترك برجش باشا - مرة أخرى - يحدثنا عن القناة فهو قادر على اثراء الحديث باضفاء البعد التاريخى على المشاهد الرائعة •

## برزخ السويس ـ جسر الأمم :

« ان زيارة لجسر الأمم القديم الذى يفصل أفريقيا عن آســـيا لا تعوض ـ اطلاقا ـ المسافر عن مشقته بمناظر ذوات جمال طبيعى تمر أمام عينيه ، وتدفعـه للتوقف ، بـــل العكس هو الصحيح ، فالشعور بالجفاف يملأ الروح عند النظر للصحراء الجرداء المليئة بأكوام الرمال ترتفع فى وسطها كتل جبلية حمراء تبدو متناقضـــة مع السماء الزرقاء الصافية ـ بأشكالها ذات الشقوق والصدوع المحددة تحديدا حـــادا ، ولا شىء سوى الضوء الباهر والشفافية وتدرجات الألوان الواهنة بشكل مدهش ، تلك الظواهر التى تصبها شمس الشرق على الطبيعة فتجعل حتى للصحراء جاذبية شعرية تناجى الروح وتدعوها للاجابة وتغمرها بأفكار شاعرية غامضة ، لكن بحر النور واللون الذى يغمر أرض الصـــحراء بأمواجه يدخل العين والعقل ، وان كانت النفس أيضا تتوق لأطفال الربيع الذين تخلوا عن مكانهم لعالم الضـــوء غير المحـدود وتراجعوا خجلين الى الأرض السوداء حول ضفاف النيل ·

لقد وصف المؤلفون مصر ـ عن حق ـ بأنها هبة النيل · وقد أكدت البحوث الجيولوجية الحديثة وحدها هذا القول ، فبعد أن توغل النيل فى اتجاهه نحو الشمال خلال الجرانيت والحجر الرملى وكون الشلالات مجتازا الجنادل فى أكثر المناطق صعوبة ، نجده يدخل منطقة مكوناتها من حصى وبلور صخرى ، ويتخذ طريقه للبحر بعد أن يقطع مسافة طويلة ليصل لما نعرفه الآن بوادى النيل الخالص ( الحقيقى ) ، لقد كان البحر الى الشـــمال من القاهرة خليجـا عريضـا يمس بساحله الغربى الصحراء الليبية ، ويمس بساحله الشرقى الصحراء العربيـــة · وأثبتت البحوث الجيولوجية الحديثة المعتمدة على بقايا الحياة الحيوانية والنباتيـــة فى عصور ما قبل التاريخ فى تربة الصحراء خلال شق قناة السويس ـ بشكل قاطع ـ أن برزخ السويس كان فى يوم من الأيام نقطة التقـــاء البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، فأمواج البحر المتوسط كانت تضرب فى فوهة القناة الشمالية التى صنعها هذا البحر نفسه ، بينما كانت أمواج البحر الأحمر تتوغل خلال الأجزاء المنخفضة من الصحراء العربية ( الشرقيـــة ) فاتصلت رويدا رويدا بمياه البحر المتوسط ، وبذلك انفصلت آسيا عن أفريقيا بمسافة تبلغ حوالى سبعين ميلا ·

وبمرور الزمن فان موج البحرين حمل معه بالضرورة رمالا ( جرف معه رمالا ) فتكون ـ شيئا فشيئا ـ كثيب رملى سرعان ما أصبح جسرا ( حاجزا ) متينا ، وهذا الجسر الذى يقع فى منتصف البرزخ أو الى الشمال

من المنتصف قليلا ، يرتفع الآن لحوالى ستة عشر مترا ، وهو معـروف بالفعل باسم الجسر El-Gisr ·

« وهذا الجسر هو أعلى نقطة فى المسار ( فى الخط ) الذى نصفه ـ وكان هو الرابط البحرى الوحيد الذى كان يمكن عن طريقه عبور ما يعرف الآن ببرزخ السويس ، ويجب أن نفترض أن دلتا النيل كانت تتكون فى الوقت نفسه الذى كان فيه هذا الجسر يتكون ، فالطمى المجلوب عاما بعد عام مع فيضان النيل نتج عنه فى المقام الأول تكوين الأرض الزراعية فى مصر العليا · وبالطريقة نفسها كونت الارسابات فى حوض عريض بين الصحراء الليبية ( الغربية ) والعربية ( الشرقية ) وامتد هذا الحوض شمالا حتى المدى الذى وصل اليه الآن ، فالدلتا هى ـ بالمعنى الحرفى ـ هبة النيل حيث كانت المياه تمر فيها من خلال ثلاثة فروع رئيسية وخمسة أصغر منها ـ وكلها كانت تتخذ مجراها الى البحر المتوسط ، لكن الأمواج المعاكسة للبحر المتوسط ( الأمواج المناهضة لتدفق ميـاه نهر النيل ) والمنحرفة نتيجة اصطدامها بالساحل السورى منعت تكوين تربة زراعية على الساحل الشرقى للدلتا ، واختلطت أمواج البحر بالمياه المتدفقة من مصاب النيل وشكلت حوضا كبيرا من المياه الضحلة التى تضـم جزرا كثيرة امتدت من دمياط الى بورسعيد ، وهذا الحوض يحمل الآن اســما شاملا هو بحيرة المنزلة · ومياه هذه البحيرات ( التى أطلق عليها مؤخرا اسم بحيرة المنزلة ) كانت متصلة من الجنوب ببحيرة البلاح حيث يقع الى الجنوب منها « الجسر » الذى تحدثنا عنه آنفا ، أما ميـاه البحر الأحمر فغذت حوض مياه البحيرة التالية وهى بحيرة التمساح ( بركة التمساح ) والبحيرات المرة التى كانت مرتبطة ارتباطا مباشرا بخليج السويس عن طريق قناة عرفت بذيل التمساح ، لا غرابة اذن فى أن مواضع هذه البحيرات بين البحرين الأبيض والأحمر بالقرب من النيل ، قد أيقظت فكرة ربط هذه البحيرات بقنـــاة مع النيــل ـ وذلك فى فترة باكرة من حقب التاريخ المصرى ، فاذا ما تم هذا الربط ارتبط البحر المتوسط بالأحمر ·

ووفقا للمرويات الكلاسية فان رمسيس الثانى ( وهو سيزوستريس ـ سيزتورا كما تشير النقوش ) كان أول ملك يأمر بشق قناة ملاحية من الفرع البلوزى ( الفارمى ) للنيل الى بحيرة التمساح مستغلا الانخفاض الطبيعى لوادى طميلات (Tumilat) · وبقايا المدن والآثار المندرسة والتى تحمل اسم هذا الملك لاتدع مجالا للتشكك فى وجود هذه القنـــاة ، وفى زمن متأخر بدا أن هذه القناة قد انطمرت وظلت جافة حتى ســـنة ٦٠٠ قبل الميلاد عندما قام الملك نخاو Necho بوضع خطة لاعادة ربط النيل بالبحر الأحمر ، وعلى أية حـال فقد توقف مشروعه ( الذى فنى فيـــه

١٢٫٠٠٠ عامل مصرى ) بسبب وحى الهى لأحد الكهنة يحذر نخاو من أنه ـ بمشروعه هذا ـ لايعمل الا لخدمة البرابرة أو الغزاة الأجانب ·
وبعد مئات السنين من عصر نخاو لم يخش الملك الفارسى قمبيز والملك الفارسى داريا ( داريوس Darius) من مثل هذه النبوءات التحذيرية ـ فأكملا الربط بين النيل والبحر الأحمر ، وبقايا هذه القناة تم اكتشافها فى أيامنا هذه فى منطقة البرزخ ، وقد وجدت هذه البقايا الى جوار مبان تحمل نقوشا فارسية تحدد ثلاث محطات على طول خط الماء الطويل الذى يصل بين بحيرة التمساح وخليج السويس · وثمة توسيع وتطوير فى نظم القنوات هذا تم تحت حكم البطالمة ! اذ تم انشاء قناة فرعية من فاكوسا Phakusa ( فاقوس الحالية ) على الفرع البلوزى للنيل الى بحيرة المنزلة وبهذه الطريقة أمكن الوصول لبحيرة البلاح التى كانت تتصل بدورها ببحيرة التمساح والبحيرات المرة ، وبهذه الطريقة اتصل البحران المتوسط والأحمر عند أقرب مسافة بينهما ، وأصبح هذا الطريق المائى ، فى ذلك الوقت ـ ذا قيمة لا مزيد عليها للتجارة العالمية ·
وقد تدهورت هذه القنوات تحت حكم الرومان حتى جاء عمرو (بن العاص) القائد المشهور فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فعمل على اعادة الطريق المائى الرابط القديم فربط القاهرة بالسويس عن طريق قناة ، وفى القرن الثامن للميلاد لم تعد هذه القناة صالحة للملاحة ، وفى سنة ١٦٧١ قدم ليبنتز Leibnitz خطة للويس الرابع عشر تبين أهمية ربط البحرين ، لكن اقتراحه لم يلق أذنا صاغية ، ولما قام الجنرال بونابرت بحملته الشهيرة على مصر لم تفلت منه فكرة ربط البحرين لكن مشروعه فشل بسبب الحسابات الخاطئة التى وقع فيها المهندس ليبير Lepère والتى مؤداها أن مستوى البحر الأحمر أكثر ارتفاعا من مستوى البحر المتوسط بعدة أمتار تبلغ ٩٫٩٠٨ أمتار ، وبهذا أصبح وصل البحرين أمرا غير ممكن وأخيرا فى الأربعينات من هذا القرن التاسع عشر بينت القياسات الدقيقة الخطأ الكبير الذى وقع فيه ليبير · وبعد أن حصل ليسبس Lesseps من سعيد باشا على امتياز حفر قناة السويس ، بدأ العمل الشاق سنة ١٨٥٨ وفى ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ تم افتتاح القناة فى احتفال تجلت فيه مظاهر الفخامة والاسراف ، وقد فاقت تكاليف انشاء القناة ١٩ مليون جنيه استرلينى ·

وكان من المستلزمات الضرورية للعمل فى القناة شق ترعة للمياه العذبة لامداد عمال القناة بماء الشرب ، ومد بورسعيد بالماء أيضا بعد ذلك · فتم شق ترعة تبدأ من قرب قصر النيل لتخرج من النيل فى خط مستقيم الى هليوبولس ثم تتجه شمالا بشرق ، وثم شق وادى طوميلات

وأخيرا شهد الساحل الغربى لبحيرة التمساح والبحيرات المرة لتواصل الترعة مسيرتها الى السويس » ٠

**لقاء دى ليسبس العجوز :**

وننهى الآن هذه الملاحظات الشائقة التى أرسلها لى صديقى ، ولنعد للقناة وسفينتنا البخارية الفرنسية ، فسرعان ما وصلنا الى البحيرات المرة وكان منظرها جذابا بشكل لا ينكر ، فالتناقض بين اللون الأزرق الداكن والصحراء البيضاء اللامعة لا يمكن الا أن يجذب انتباه المسافر ٠ وفى مضيق بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح لاحظنا واحدا من حيوانات ابن آوى بالقرب من شاطىء القناة يبحث عن أصداف الأسماك ، فأطلقنا عليه عدة طلقات من بنادقنا ، لكنها كانت طلقات طائشة ، وبالقرب من مياه بحيرة التمساح العميقة زرقتها استمتعنا ــ مرة أخرى ــ ببهاء الشمس الأفريقيــة ٠

وبدت منازل الاسماعيلية على الساحل الرملى الى الشمال ، وسرعان ما وصلت باخرتنا للرصيف الفرنسى الفاخـر ، وكان فى انتظـارنا مستر ليسبس المنشىء المشهور لهذا المشروع العملاق الذى وصل البحرين ، وكان معه ابنـه وعدد من موظفى الشركة الفرنسية ، وكنت سعيدا جدا أن أتعرف بهذا الرجل العجـوز الذى لازال نشطا شغوفا بالعمل لايعرف التراجع ولا ينثنى له عود ٠ وقد ذهب بنا الى منزله الريفى المحاط بحديقة صغيرة ، واستقبلتنا هناك زوجة ابنه الجميلة وهى يونانية قاهرية من أسرة سينادينو Sinadino الثرية ، وكان حاضرا أيضا أخوها وهو شاب ظريف ، وسيدة انجليزية ، وسرعان ما تناولنا عشاءنا عقب وصولنا وقضينا المساء فى حوارات اجتماعية ممتعة ، وبدأنا صباح اليوم التـالى ، مبكرا جدا ــ وكان السيد ليسبس على رأسنا ــ فركبنا القطار لمسافة قصيرة الى محطة مقسمة Maksama ، فتوقفنا ، لكننا وجدنا صعوبة فى اخراج خيولنا العديدة من القطـار ، اذ راحت تصهل وتندفع فضاع منا وقت كثير فى التجهيز لرحلة الصيد ، وكانت قبيلة بدوية قد ضربت خيامها بالقرب من المحطة وعند وصولنا خرج هؤلاء الرجال الرائعون من خيامهم وأقبلوا الينا على خيولهم وجمالهم ، وفى مقدمتهم شيخهم يمتطى صهوة فرس كستنائى رائع ٠

لقد أحسن السيد ليسبس بدعوة هذه القبيلة ــ المشهورة بمهارتها فى المطاردة ــ لتكون بالقرب من الاسماعيلية حتى نتمكن من رؤية البدو يصطادون غزلانا ٠ كان الشيخ فى المقدمة يرتدى عباءة بيضاء خالصة ، وكان سرج فرسه جميلا ، وقد ثبت سيفا معقوفا حول خاصرته ، ووقف

على يده ذات القفاز صقر نبيل حول رأسه غطاء لامع · وتبعه جمع من البدو راجلين أو راكبين جمالا أو خيولا وكانوا مسلحين ببنادق طوال وسيوف معقوفة وخناجر ، وكانوا جميعا يلبسون ثيابا بيضا - كانت وجوههم بنية ومعبرة جدا ، وكان يتبع السادة منهم كلاب آسيوية ، ومعهم بعض الصقور المختلفة لكنها ليست من النوع الممتاز نفسه الذى مع شيخهم ·

والقبيلة التى معنا الآن تتحرك خلال الصحراء ، غير بعيد عن الخط الحديدى ، وأصبح تجوالها فى أفريقيا ( مصر ) منذ فترة ، لكنها قبيلة عربية خالصة من شبه الجزيرة العربية ويمكن للمرء استنتاج ذلك بسهولة من خلال ملاحظة خيولها النبيلة وثراء دروع الرجال وثيابهم ، لقد ركبنا ـ مشكلين صفا طويلا غير متلاحم ـ خلال وديان الصحراء ومسيلاتها الجافة · لقد كنا نقصد صيد الغزلان فحسب فاذا بنا نرى أيضا الأرانب البرية ·

وظلت جهودنا ـ طوال ساعتين ـ بغير نتائج ، وبدأ البدو يتقدمون ـ وقد نفد صبرهم ـ لتوسيع دائرة البحث عن الغزلان وقد اكتشف أحد هؤلاء البدو غزالا خارجا من بعض الشجيرات الكثيفة ، فتجمع البدو بغير نظام يطاردون هذا الغزال وأطلقت الكلاب وأحاط راكبو الخيول بالغزال من كل جانب حتى لا تجد سبيلا للهرب ، فراحت تدور خائفة تلبسها الرعب حول الخيول ، فوضع أحد البدو نهاية سريعة للمطاردة فأطلق بندقيته اثرها بينما كان منطلقا بسرعة ، فهوى الغزال فى لحظة ·

وأعقب ذلك محاولة لصيد الأرانب الصحراوية ، ولأن الحرارة كانت شديدة جدا كما أن فرصنا فى الفوز بهذه الحيوانات كانت قليلة ـ فقد اتخذنا طريقنا عائدين لمحطة السكة الحديد · ولكى يستعرض الشيخ مهارة الصقر ، فقد تركه يطير ليقتنص حمامة سرعان ما هوت بعد ثوان قليلة متأثرة بمخالبه القوية ·

ووصلنا سريعا للمحطة وتناولنا افطارا متواضعا فى المركبات،وبعدها عاد بعض الرفاق للاسماعيلية ، بينما صحبنى الآخرون فى باخرة صغيرة فى نزهة قصيرة فى ترعة المياه العذبة ، وتوقفنا عند منزل عتيق مهدم وعبرنا الكثبان الرملية الى قطاع سبخى تحيطه الصحراء غير بعيدة عنه ، ويمتد هذا القطاع السبخى موازيا للترعة حتى بحيرة التمساح فى موضع غير بعيد عن الاسماعيلية ·

وقادنا رجل فرنسى ظريف ، كما أنه رياضى متحمس ـ فى هذه المنطقة السبخة التى سبق له ممارسة الصيد ـ بنجاح ـ فيها ، وفى بداية

السبخة وجدنا طيور التغلق الأفريقية الذهبية الجميلة والتى لم نرها من قبل ، وقد اصطدنا منها عددا كبيرا فى دقائق قليلة • وفى الأراضى التى تزداد فيها الروية والماء وجدنا كثيرا من الشناقب وأنواعا عديدة من الحيوانات الصغيرة سواء حيوانات الماء أو حيوانات السبخات ، كما رأينا أيضا عددا من البط وطيور الزقزاق ذوات الشوكات فى أرجلها ، وحطت طيور السمان بين الحشائش الطوال ، وكان الجراد أيضا مثيرا جدا لم أر أبدا أكبر حجما منه ، وطار هذا الجراد محدثا طنينا عاليا يسمع من بعيد نسبيا ، ولكى أتفحص جرادة منها كنت مضطرا لاطلاق بندقيتى عليها كما لو كنت أطلقها على واحد من طيور السمان • انها طلقة غريبة حقا !

وفى واد ضيق تحيطه الصحراء كانت الشمس تحرق أبداننا بشكل مرعب جالبة البخر النتن من السبخة ، وبعد عدة ساعات من الصيد المرهق ، عدنا محملين بكثير مما اصطدناه — الى ترعة المياه العذبة وركبنا — مرة أخرى — باخرتنا التى عادت بنا سريعا الى الاسماعيلية ، فتناولنا عشاءنا على ظهر احدى البواخر الفرنسية بناء على رغبة ليسبس بدلا من تناوله فى بيته ، وخلدنا للراحة مبكرا •

وفى صباح اليوم التالى ذهبنا جميعا لكنيسة صغيرة — لكنها جميلة — حيث كان الفرنسسكان يقيمون القداس لكل الجالية الفرنسية هنا ثم صحبنا ليسبس فى جولة فى شوارع وحدائق هذه المدينة الفرنسية الصغيرة ، وأطلعنا الرجل العجوز ( ليسبس ) بفخر واضح على كل ما أنجزه فى هذه الصحراء الجدباء ، انه عمل يبدو كأنه تم بسحر ساحر •

وحان وقت الرحيل فاستأذنا — على المحطة — من الكونت ليسبس والهر زمرمان الذى حبانا بفضله خلال كل رحلتنا — أثناء استخدامنا القطارات — فى مصر ، وتحركت الباخرة ، وكان بصحبتنا م • ليسبس الشاب وزوجته وبعض الفرنسيين • كانت الرحلة سريعة ، تخللها حوار جذاب وشائق فطغت خصوبته على المشاهد القاحلة •

وأطلقت بندقيتى على بعض طيور الكروان ونسر من نسور الجيف ، من فوق ظهر السفينة ، وفى المناطق الضحلة ببحيرة المنزلة وجدت آلافا من البجع وطيور البشروس تتالق بالحمرة التى ألقتها عليها أشعة الشمس •

**مغادرة مصر :**

وفى بورسعيد استقبلتنا الجالية النمساوية البلغــارية استقبالا حافلا ، ووصلنا فى القوارب الى سفينتنا ميرامار ، وما هى الا دقائق حتى كنا على ظهر سفينتنا الطيبة ، وعزف سلامنا الوطنى ، ومدينــة بورسعيد مدينة أوربية تماما ، فميناؤها الواسعة ومبانى القناة ، وأحواض السفن والورش والسفن ـ كل هذا له طابع أوربى تماما •

وتناولنا عشاءنا ـ متأخرا ـ فوق ظهر ميرامار ودعونا اليــه عبد القادر باشا وبعض الفرنسيين ، وعندما حل الظـلام زينت جاليتنا المقيمة هنا الميناء وعددا من القوارب باضاءة جميلة وراحت قوارب بهيجة مضاءة مزودة بفرق موسيقية تدور حول ميرامار ، مصدرة أعذب الألحان ، وشاهدنا ألعابا نارية على البر •

وحان وقت الرحيل سريعــا فغــادر ضيوفنــا ميرامار ، وكذلك عبد القادر باشا • لقد تعلمنا أن نقدر هذا الرجل ونحترمه فقــد كان مرافقا مخلصا وصديقا حقيقيا •

لقد أمضينا أياما عظيمة لا يمكن أن تنسى فى أفريقيا ، وحملنا معنا انطباعات عن عظمة هــذه القارة السوداء ، وعن حضــارة مصر القديمة المتألقة من قبور مضى عليها آلاف السنين • انها حضــارة عظيمة لكنهــا تلاشــــت •

★★★

# تعليقات المترجم علـى الفصـل السادس

(١) بئر يوسف ( الحلزون ) ، وقد حفرت بداخل القلعة وخلف مسجد الناصر محمد بن قلاوون بئر للافادة من مائها اذا قدر للقلعة أن يحاصرها عدو وهى البئر المعروفة بالحلزون ويبلغ عمقها تسعين مترا ، وتستخرج المياه منها بواسطة سواق وهى من عجائب البنيان ؛ لأنها محفورة فى الصخر ويستطرد الأستاذ حسن عبد الوهاب قائلا : « وانى أرجح أن تلك البئر تسبق عصر صلاح الدين خصوصا وانها خارج أسواره ، أما مياه النيل العذبة فقد كانت تصل الى القلعة فى عهد صلاح الدين وبعده بواسطة قناة على ظهر سور صلاح الدين الممتد من الفسطاط الى القلعة والموجودة بقاياه الآن » .

(٢) يتحدث ج. مونج ( من علماء الحملة الفرنسية ) عن عيون موسى قائلا انها « ... تكاد تكون مواجهة لوادي التيه .. وسنقع فى خطأ اذا ظننا أن اسم هذه الينابيع يستمد أصوله من العصور المصرية الضاربة فى القدم ، وانه قد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم ، ذلك أن اسم هذه الينابيع شانها شأن عين العذراء فى المطرية ( هليوبولس القديمة ) وشأن عيون غيرها كثيرات لا يعود الى ما قبل استقرار المسيحية فى مصر ، حيث تحورت أسماء قديمة تتصل بديانة تزعزعت مكانتها الى أسماء أخرى مشابهة فى المعتقدات الجديدة . وعلى الرغم من أن عيون موسى أقل ملوحة من مياه آبار كثيرة حفرت فى مناطق أخرى فى الصحراء فانها مع ذلك مائلة للملوحة ... » وصف مصر ، ج ٢ صص ٨١ ــ ٨٥ .

(٣) وجدنا من الضرورى أن نشير ــ بالتفصيل ــ لفروع النيـل القديمـة . لكثرة الاشارة اليها فى هذه الرحلة . وعمدنا الى جعل هذه الحاشية مفصلة قدر الامكان حتى لا يقطع التجزىء استطرادها ، على أن نحيل القارىء لهذه الحاشية نفسها اذا استلزم الأمر الاحالة اليها بعد ذلك .

ففى العصور القديمة كان للنيل سبعة مصبات على الاقل ، وقد تقلص هذا العـدد كما هو معروف الى اثنين فقط الآن ، ومن المؤكد فيما يقول الباحث الفرنسى دى بوا ــ أن الدلتا قد تضاءلت مساحتها حتى لا تكاد تبلغ مساحة الدلتا القديمة ، على أية حال فهذه الأفرع هى :

١ ــ الفرع البليوزى أو فرع بوباسطة .

٢ ــ الفرع التانيتى وهو الذى يحمل اليوم اسم ترعة أم فارج .

٣ ــ الفرع المنديسى أو فرع الديبة .

٤ ــ الفرع البلنتينى وهو فرع دمياط الحالى .

٥ ــ الفرع السبنتينى وهو فرع البرلس .

٦ ــ الفرع البولبيتينى وهو فرع رشيد .

٧ ــ الفرع الكانوبى أو فرع أبى قير .

وكان الفرع البيلوزى ( شرق الدلتا ) صالحا للملاحة عندما توغل الاسكندر الأكبر فى مصر فقد أدخل فى هذا الفرع اسطوله الذى استدعاه من غزة لكن الرمال تسد اليوم هذا الفرع ولا تزال ترى حتى أيام الحملة الفرنسية عند بيلوز ( بالوظة ) فتحته التى كانت تؤدى الى البحر وهى مليئة بالطين ، وآثار هذا الفرع كانت لا تزال واضحة أيام الحملة الفرنسية الى الشمال من بلبيس عند قرية بسطة التى كانت تعرف قديما باسم بوباسطة ، أما الفرعان التانيسى والمنديسى ( الى الغرب من فرع البيلوزى ـ وكلها شرق الدلتا ) فكانا يصبان فى مكان تشغله بحيرة المنزلة وكان يسمى فيما مضى تنيس · ويميل مالو ( أحد علماء الحملة الفرنسية ) الى أن الترعة المعروفة باسم بحر مويس هى الفرع التانيسى للنيل وان الرمال سدت جزءه الأدنى وبالتالى عاقته عن الوصول للبحر المتوسط ( عن طريق بحيرة المنزلة ) ·

وكان الفرعان البيلوزى ( شرق الدلتا ) والكانوبى ( غرب الدلتا ) يشكلان قمة الدلتا ويحدانها من ناحية الشرق والغرب ·

وصف مصر ، جـ ٣ ( المدن والاقاليم المصرية ) انظر ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧٢ ـ ٤٢٠ ·

(٤) يتحدث الأرشيدوق كثيرا عن العرب فى مصر ، فيقول : قبائل عربيا ، وقال العرب، وسكان عرب ··· الخ وقد يتبادر الى الذهن انه يقصد بدو الصحراء وهذا غير صحيح دائما ، فالواقع أن عرب الجزيرة الذين قدموا الى مصر مع عمرو بن العاص ، والذين كانوا فى مصر قبل عمرو ، قد تحول عدد كبير منهم بالتدريج الى سكنى الوادى والدلتا ، وعرفوا فى التاريخ الاسلامى باسم العرب المزارعة واستمرت عملية تحضرهم واستقرارهم مستمرة ربما حتى الآن ، ويحدثنا كتاب الحملة الفرنسية عن العربان الذين كانوا مازالوا ـ وقت الحملة ـ فى حالة بداوة وأولئك الذين استقروا وعملوا فى مجال الزراعة وغيرها ، ونفضل أن نورد هنا بعض ما ذكره دى بوا أحد علماء الحملة الفرنسية فى دراسة القبائل العربية فى صحراوات مصر ـ ( ترجمة زهير الشايب ، جـ ٢ من وصف مصر ) : « حقيقة الأمر أن صحارى مصر اهلة ، يسكنها رجال ضخام شداد يسمون بالعربان البدو وهؤلاء يتجولون بينما هم ينقسمون الى عائلات ·· ، وبامكانهم الاعتماد تماما على قطعانهم لكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصادر اخرى للمعيشة ويشاهدهم المرء يحومون حول الوادى والدلتا كأنهم ذئاب جائعة ، وان كان العربان يسعون فى بعض الأحيان ·· للحصول على اذن من الحكام للاقامة فى المناطق الخصبة وفى أحيان أخرى يستقرون عنوة فى مناطق خصبة ··· ومع هذا فهناك بعض القبائل التى لانت طبائعها بفعل سلام طويل · وانتهى بها الأمر أن هجرت الصحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل تدريجى من حياة البداوة لحياة الزراعة ، والمثل الواضح فى الصعيد على ذلك قبيلة الهوارة وأصبحوا من ثراة الملاك ، وفقدوا تدريجيا عاداتهم الرعوية ··· وتحول حبهم الطاغى للحرية الى حب للوطن ··· » صص ٣٦٣ـ٣٦٦ ·

# اقــرأ فى هــذه الســلسلة

| | |
|---|---|
| احلام الاعلام وقصص اخرى | برتراند رســـل |
| الالكترونيات والحياة الحديثة | ى ٠ رادونسكايا |
| نقطــة مقابل نقطــة | الدس هكسلى |
| الجغرافيا فى مائة عـــام | ت ٠ و ٠ فريمـــان |
| الثقـــافة والمجتمـــع | رايموند وليامز |
| تاريخ العلم والتكنولوجيا ( ٢ جـ ) | ر ٠ ج ٠ فوربس |
| الأرض الغـــامضة | ليســترديل راى |
| الرواية الانجليـــزية | والتـــر الــن |
| المرشــد الى فن المسرح | لويس فارجـــاس |
| آلهـــة مصر | فرانسوا دوماس |
| الانسان المصرى على الشـــاشة | د ٠ قدرى حفنى وآخرون |
| القاهرة مدينة الف ليلة وليلة | أولج فولكف |
| الهوية القومية فى السينما العربية | هاشـم النحـــاس |
| مجمـــوعات النقـــود | ديفيد وليام ماكدوال |
| الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق | عزيز الشـــوان |
| عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى | د٠ محسن جاسم الموسوى |
| ديـــلان تومـــاس | اشراف س ٠ بى ٠ كوكس |
| الانسان ذلك الكائن الفريد | جـــون لويس |
| الرواية الحـــديثة | جول ويست |
| المسرح المصرى المعـــاصر | د٠ عبد المعطى شعراوى |
| على محمـــود طـــه | انـــور المعــــداوى |
| القـــوة النفســية للاهرام | بيل شـــول وأدبنييت |
| فن الترجمـــة | د ٠ صـــفاء خـــلوصى |
| تولســـتوى | رالف ئى ماتلـــو |
| ســـتندال | فيكتور برومبير |

| | |
|---|---|
| رسائل وأحاديث من المنفى | فيكتور هوجو |
| الجزء والكل ( محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية ) | فيرنز هيزنبرج |
| التراث الغامض ماركس والماركسيون | سدنى هوك |
| فن الأدب الروائى عند تولستوى | ف ٠ ع ٠ ادنيكوف |
| أدب الأطفال | هادى نعمان الهيتى |
| أحمد حسن الزيات | د ٠ نعمة رحيم العزاوى |
| اعلام العرب فى الكيمياء | د ٠ فاضل أحمد الطائى |
| فكرة المسرح | جلال العشرى |
| الجحيم | هنرى باربوس |
| صنع القرار السياسى | السيد عليوة |
| التطور الحضارى للانسان | جاكوب برونوفسكى |
| هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟ | د ٠ روجر ستروجان |
| تربية الدواجن | كاتى ثير |
| الموتى وعالمهم فى مصر القديمة | ا ٠ سبنسر |
| النحل والطب | د ٠ ناعوم بيتروفيتش |
| سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى | جوزيف داهموس |
| سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤ | د٠ لينوار تشامبرز رايت |
| كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة | د٠ جون شندلر |
| الصحافة | بيير البير |
| اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى | الدكتور غبريال وهبة |
| الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها | د ٠ رمسيس عوض |
| حركة عدم الانحياز فى عالم متغير | د٠ محمد نعمان جلال |
| الفكر الأوربى الحديث ( ٤ جـ ) | فرانكلين ل ٠ باومر |
| الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥ | شوكت الربيعى |
| التنشئة الأسرية والأبناء الصغار | د٠ محيى الدين أحمد حسن |

| | |
|---|---|
| نظريات الفيلم الكبرى | تأليف : ج · دادلى أندرو |
| مختارات من الأدب القصصي | جوزيف كونراد |
| الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟ | د· جوهان دورشنر |
| حـــرب الفضـــاء | مجموعة من العلماء الأمريكيين |
| ادارة الصراعات الدوليـة | د · السيـد عليـوة |
| الميكروكمبيـــوتر | د · مصطفى عنـــانى |
| مختارات من الادب اليابانى | صـــبري الفضـــل |
| الفكر الأوربى الحديث ٢ ج | فرانكلين ل · باومر |
| تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة | جابرييـــل بايـر |
| اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة | انطـونى دى كرسبنى |
| كتـابة السـيناريو للسينما | دوايت سـوين |
| الزمن وقيـــاسه | زافيلسـكى ف · س |
| اجهـزة تكييف الهـــواء | ابراهيم القرضـــاوى |
| الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى | بيتر رداى |
| سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى | جـــوزيف داهموس |
| التجـــربة اليـــونانية | س · م بـــورا |
| مراكز الصناعة فى مصر الإســلامية | د· عاصم محمد رزق |
| العـلم والطـلاب والمدارس | رونالد ب · سمبســون<br>ونورمان د· اندرسون |
| الشـــارع المصرى والفكر | د· انور عبـــد الملك |
| حوار حول التنمية الاقتصادية | والت روســتو |
| تبسيط الكيمياء | فرد · س · هيس |
| العـادات والتقاليد المصرية | جون بوركهـــارت |
| التـــذوق السـينمائى | الان كاسبيار |
| التخطيط الســياحى | سامى عبد المعطى |
| البـــذور الكونيـة | فريد هـــويل<br>شاندرا ويكراماسينج |
| دراما الشاشة ( ٢ ج ) | حسين حلمى المهندس |
| الهيرويين والايـدز | روى روبرتسـون |
| صـــور افريقيـــة | دوركاس ماكلينتوك |
| نجيب محفوظ على الشاشة | هاشـم النحـــاس |

| | |
|---|---|
| **الكمبيوتر فى مجالات الحياة** | د٠ محمود سرى طـه |
| **المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية** | بيتـر لـورى |
| **وظائف الأعضاء من الألف الى الياء** | بوريس فيدوروفيتش سيرجيف |
| **الهنـــدسة الوراثية** | ويليام بينز |
| **تربية أسـماك الزينـة** | ديفيـــد الدرتون |
| **كتب غيرت الفكر الانسانى ( ٣ جـ )** | أحمد محمد الشنوانى |
| **الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ جـ )** | جمعها : جون ر٠ بورر وملتون جولدينجر |
| **الفكر التاريخى عنـد الاغريق** | ارنولد توينبى |
| **قضايا وملامح فى الفن التشكيلى المعاصر** | د ٠ صـالح رضـا |
| **التغذية فى البلدان النامية** | م٠هـ ٠ كنج وآخـرون |
| **بداية بلا نهـــاية** | جـورج جاموف |
| **الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية** | د٠ السيد طه أبو سديرة |
| **حـوار حـول النظـامين الرئيسيين للكـــون** | جاليليـو جاليليـه |
| **الارهـــاب** | اريك موريس وآلان هـو |
| **اخنـــاتون** | سـيريل الـدريد |
| **القبيـلة الثـالثة عشرة** | آرثر كيســتلر |
| **الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ جـ )** | جـون بورر |
| **الأساطير الاغريقية والرومانية** | ب ٠ كوملان |
| **تاريخ العلم والتكنولوجيا** | ر ٠ ج ٠ فوربس |
| **التـــوافق النفسى** | توماس أ ٠ هاريس |
| **الدليل البيليوجرافى** | مجموعة من الباحثين |
| **لغـــة الصـــورة** | روى آرمـز |
| **الثورة الاصلاحية فى اليابان** | ناجـاى متشـيو |
| **العـــالم الثـالث غـدا** | بول هاريسون |
| **الانقـــراض الكبيـر** | ميخائيل البى ، جيمس لفلوك |
| **تاريـخ النقود** | فيكتـور مورجان |
| **التحليل والتوزيع الأوركسـترالى** | اعداد محمد كمـال اسماعيل |
| **الشاهنامة ( ٢ جـ )** | الفردوسى الطوسى |
| **الحيـاة الكريمـة (٢ جـ)** | برتون بورتر |
| **قيـام الدولة العثمانية** | محمـد فؤاد ، كوبريلى |

| | |
|---|---|
| عن النقد السينمائى الأمريكى | ادوارد ميرى |
| ترانيم زرادشت | اختيار / د. فيليب عطية |
| السينما العربيــة | مونى براخ وآخــرون |
| دليل تنظيم المتــاحف | آدامز فيليب |
| سقوط المطر وقصص اخـرى | نادين جورديمر واخرون |
| جماليــات فن الاخراج | زيجمونت هبنـر |
| التاريخ من شتى جوانبه ( ٣ جـ ) | ستيفن أوزمنت |
| الحملة الصليبية الأولى | جوناثان ريلى سميث |
| التمثيل للسينما والتليفزيون | تونى بار |
| العثمانيون فى اوربا | بـول كولنـر |
| صناع الخلود | موريس بير برابر |
| الكنائس القبطية القديمة فى مصر ( ٢ جـ ) | ألفريد ج . بتــلر |
| رحلات فارتيما | رودريجو فارتيما |
| انهم يصنعون البشر ( ٢ جـ ) | فانس بكارد |
| فى النقد السينمائى الفرنسى | اختيار / د. رفيق الصبان |
| السينما الخيالية | بيتــر نيكوللز |
| السلطة والفرد | برتراند راسل |
| الأزهر فى الف عام | بينــارد دودج |
| رواد الفلسفة الحديثة | ريتشارد شاخت |
| سفر نامه | ناصر خسرو علوى |
| مصر الرومانيــة | نفتالى لويس |
| كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر | جاك كرابس جونيــور |
| الاتصال والهيمنة الثقافية | هربرت شـــيلر |
| مختارات من الآداب الآسيوية | اختيار / صبرى الفضل |
| كتب غيرت الفكر الانسانى ( ٣ جـ ) | احمد محمد الشنوانى |
| الشموس المتفجرة | اسحق عظيموف |
| مدخل الى علم اللغة | لوريتــو تود |
| حديث النهر | سوريال عبد الملك |
| من هم التتــار | د. ابرار كريم الله |

| | |
|---|---|
| ماستريخت | اعداد / جابر محمد الجزار |
| معالم تاريخ الانسانية ٤ جـ | هـ٠ج٠ ولز |
| حضارة الاسلام | جوستاف جرونيباوم |
| الحملات الصليبية | ستيفن رانسيمان |
| الطفـل ٢ جـ | أرنولد جزل |
| افريقيا الطريق الآخر | بادى اونيمود |
| السـحر والعلم والدين | فيليب عطيه |
| الكون ٠ ذلك المجهول | جلال عبد الفتاح |
| تكنولوجيا فن الزجاج | محمد زينهم |
| حرب المستقبل | مارتن فان كريفلد |
| الفلسفة الجوهرية | سونداری |
| الاعلام التطبيقى | فرانسيس ج٠ برجين |
| تبسـيط المفاهيم الهندسية | ج كارفيـــل |
| تحول السـلطة | الفين توفلر |
| فن المايم والبانتوميم | توماس نيبهارت |
| السيناريو فى السينما الفرنسية | اعداد كريستيان سالين |
| خفايا نظام النجم الأمريكى | بول وارن |
| رحلة جوزيف بتس | جـوزيف بتس |
| الفيلم التسجيلى | اعداد محمود سامى عطا الله |
| بين تولستوى ودوستويفسكى | جورج ستانير |
| المرأة الفرعونية | كريستيان دى روش |
| أنواع الفيلم الأمريكى | ستانلى جين سولومون |
| فن الفرجة على الأفـلام | جوزيف ٠ م ٠ بوجز |
| الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ | آدمز متز |
| كونتـــا المتمدد | ايفـر شاتزمان |
| رحلة فاسـكو داجاما | فاسكو داجاما |
| التفكير المتجــدد | ادوارد ويونو |
| ما هى الجيولوجيا | ويليـام هـ ٠ ماثيوز |
| الحمـر والبيض | جارى ب ٠ ناش |

مطابع الهيئه المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٣٣/١٩٩٦

ISBN .. 977 .. 01 .. 4663 .. 3

قام الأمير النمساوي رودولف برحلته لمصر والقدس في أواخر عهد الخديوي إسماعيل وقد مسح مصر من شمالها إلى جنوبها ووصف معظم المدن المصرية وأشار إشارات مفيدة للآثار ونشر ترجمات رائعة لبعض الكتابات الهيروغليفية وبعد مغادرته مصر توجه إلى حيفا ومنها زار القدس الشريف وغيرها من المزارات المقدسة ووصف الحياة البدوية حول نهر الأردن وأبدى إعجابا بروح التسامح في القدس وتعرض للمذاهب المسيحية والممارسات الطقسية المختلفة كما أورد بعض القصص اليهودية وأبدى رأيه فيها

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رحلة..
الأمير رودولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

**الألف كتاب الثانى**

الإشراف العام

**د. سمير سرحان**

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

**أحمد صليحة**

سكرتير التحرير

**عزت عبدالعزيز**

الإخراج الفنى

**علياء أبو شادى**

# رحلة..

# الأمير ردولف

# إلى الشرق

## (مصر والقدس)

### الجزء الثالث


لصاحب السمو الإمبراطوري والملكي

الأمير ردولف

ترجمة ودراسة

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ





الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

# الفهـــــرس

## مقـدمة المترجم

يتابع الأمير ردولف رحلته بعد أن غادر مصر ، فيصل الى يافا ، ويتابع طريقه للقدس الشريف ويزور أماكنها المقدسة ويصف لنا مشاعره ومشاهداته وصفا شائقا، ثم يتجه الى بيت لحم ثم أريحا وشواطىء البحر الميت ثم يتخذ طريقه ليبحر من يافا الى بلاده بعد أن يكون قد زار عين السلطان والعوجه وعبد القادر وبيسان وتل طابور والناصرة •

وقد ألحقنا بالجزء الأول دراسة مطولة نسبيا عن بعض الأفكار الواردة في هذه الرحلة ،ويهمنا في هذا الجزء التركيز على نقاط بعينها •

**القدس وما حولها: من أحق بها؟ قراءة في فكر الأمير ردولف:**

● يقول الأمير انه منذ اللحظة الأولى التى دخل فيها فلسطين ، وهو يحس أنه يرى رأى العين كل ما قرأه في العهد القديم : فالبشر هم البشر — الذين قرأ عنهم فى العهد القديم — بملابسهم وملامحهم وأشكالهم ، مع أن البشر الذين رآهم لم يكونوا فى غالبهم من اليهود ، وانما من المسيحيين والمسلمين، حتى البدو رأى فيهم — كما رأى في بدو سيناء من قبل — نفس الملامح والصفات الفيزيقية التى قرأ عنها فى العهد القديم عن المجتمع فى عهد السيد المسيح عليه السلام • وان كانت رؤية الأمير رودلف صحيحة ، فان معنى هذا أن اليهود الذين رآهم أو فى آية مرحلة تاريخية أخرى ليسوا هم بنى اسرائيل وحدهم ، وانما هناك كثيرون من غير اليهود من بنى اسرائيل أيضا ، وهذا هو المنطق الطبيعى للأمور ،

فاليهود في عهد السيد المسيح ( عليه السلام ) لم يكونوا جميعا من المنكرين لرسالته ، فقد اعتنق ـ بالتأكيد ـ عدد كبير منهم المسيحية وان كان هذا لا ينفي أنهم من ناحية السلالة أو العرق من بني اسرائيل ، وعندما ظهر الاسلام اعتنق عدد كبير من اليهود ومن المسيحيين أيضا الدين الاسلامي ، وهذا لا ينفي أنهم من ناحية العرق أو السلالة من بني اسرائيل . فمن قال ان بني اسرائيل هم اليهود فقط؟ ان كانت الملاحظات الأنثروبولوجية التي أوردها الأمير ردولف صحيحة ، فمن المؤكد وفقا لمنطق الأمور ، ووفقا لمسار التاريخ ، أن يهود اليوم هم أقل الناس تمثيلا لدم بني اسرائيل . لقد ذكر الأمير أنه رأى وجوها من المسيحيين والمسلمين في فلسطين ، تذكره تماما برسوم فناني العصور الوسطى عن شخوص عاشت زمن المسيح عليه السلام . ورأى في ملامح مسيحيات كثيرات ملامح المجدلية واليهوديات في عهد المسيح عليه السلام .

● وتابع الأمير ردولف ببساطة ووضوح مسيرةالديانات السماوية الثلاث على أرض فلسطين ، فذكر أن اليهودية كانت هي الديانة الأولى التي دعت الى عبادة اله واحد حق ، وأن المسيحية رغم جدة بعض تعاليمها الأخلاقية ، الا أنها في أصولها ووجودها ليست الا تكملة للديانات الشرقية القديمة وأولها اليهودية ، ثم ظهر الاسلام فأمكنه « أن يحافظ على الديانات السامية Semitic القديمة الشرقية في أنقى صورة وأكثرها بعدا عن الخرافة» وذلك على حد تعبيرالأمير ردولف ، ونؤثر في هذا الصدد ايراد عبارة الأمير بنصها الانجليزي :

« The ancient Eastern Semitic religions have been preserved in their purest and most incorrupt form by Islam ».

ويعزو الأمير ردولف لهذا السبب نفسه انتشار الاسلام بين شعوب هذه المنطقة بمن فيهم اليهود فنجده يقول :

« ولأن الاسلام منبثق من هذه الديانات السامية القديمة ولأنه لم يهدف الا ان يكون استمرارا لها بين الأجناس نفسها، فقد استطاع — لهذا السبب — أن تكون له السيادة في هذه المنطقة وأن ينتشر منها الى شعوب أخرى كثيرة مختلفة » .

ويورد الأمير في رحلته هذه ما هو معروف مطروق لا نجد مبررا لتكراره هنا ، وهو أن الأماكن المقدسة المسيحية ، بل واليهودية لازالت موجودة فى غالبها كما هى لم يلحقها تدمير ، فى ظل الحكم الاسلامى المتعاقب وذلك لسبب بسيط واضح وهو انها فى غالبها مقدسات اسلامية أيضا ، فالنبى موسى عليه السلام يحظى بتقدير وتوقير كل المسلمين ، ومن ثم فان كل ما يرتبط به وبشريعته يعد أيضا مزارا للمسلمين كما بين هذا الرحالة الأمير من واقع مشاهداته ، والمسيح عيسى بن مريم عليه السلام يحظى بالتوقير والتبجيل أيضا باعتباره روح الله وكلمته وباعتباره نورا من نور ، وباعتباره نبيا كريما بعثه الله ليهدى به البشرية ، وهى نظرة لا تختلف كثيرا عما تقول به بعض المذاهب المسيحية ذاتها ، ومن ثم فان معظم ما يتعلق به يعد أيضا مزارا اسلاميا .

فكثير من التراث اليهودى المرتبط بأماكن العبادة المسيحية غير مقبول لدى المسيحيين ، لنستمع الى الأمير ردولف وهو يقول :

« ويقص اليهود بعض الحكايات المتعلقة بكل بقعة وكل خطوة ، وكان على — مثلى فى ذلك مثل المسافرين الآخرين — أن أستمع اليهم ، لكننى أشكر الله كثيرا لأننى نسيت معظم حكاياتهم ، وأحيل القارىء المتسامح الى تجرع جرعات من الدواء الذى يتجرعه مرضى الهوميو Homoeopathic . فهو رغم بشاعة مذاقه يمكن تحمله أكثر مما يمكن تحمل حكاياتهم » ( ص ٢٧٤ من النص الانجليزى ، ص٣٧ ، جـ٣ من الترجمة العربية ) .

وبطبيعة الحال ، فان كل التراث اليهودى المرتبط بأماكن العبادة الاسلامية غير مقبول لدى المسلمين ٠

نخلص من هذا الى أن المسلمين وحدهم هم المقبولون لدى أصحاب كل الديانات والمذاهب ليحكموا القدس ويشرفوا على مقدساتها ٠

ويحدثنا الأمير ردولف أن ثلة من العساكر الأتراك تطوف المدينة ، لتضمن لكل أصحاب دين أو مذهب أن يجروا احتفالاتهم ويؤدوا طقوسهم ، دون ازعاج من أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى ٠

## أهى واقعة لتزوير الآثار ؟

ويحدثنا الأمير أنه بينما كان يتابع طرائده فى رحلة صيد ، قرر التوقف لارهاق ألم به ولأنه شعر أن المطاردة لن تجدى شيئا لتحقيق ما يريد ، لكنه اكتشف أثناء التوقف أثرا مقدسا شائقا على حد قوله ، ولندعه يقص علينا حكاية هذا الاكتشاف وما به من دلالة : « ٠٠٠ لقد اكتشفت فى مدخل الجحر كتاب التراتيل البروتستنطى ، ربما حمله الى هنا بعض حيوانات الجحور وفقا لعادة كثير من الحيوانات التى تحفر مساكنها ٠ وكان فى الكتاب ــ على أية حال ــ تراتيل وصلوات انجيلية ( بروتستنطية ) أصلية ، ودعوات للامبراطور وليم ، وبشكل عام كان المجلد بحالة جيدة من الداخل والخارج ، الا أن على بعض أوراقه بعض بقع دماء ٠ ان الله وحده هو الذى يعلم كيف وصل هذا الكتاب الأوربى لهذا الموضع الموحش وكيف فقده صاحبه ، ربما كانت عظامه قد تحللت فى مكان قريب فى هذا الدغل الكثيف » ٠

والبحر الذى يشير اليه الأمير موجود بالقرب من أريحا ٠ ولا يمكن فهم هذا النص الا اذا عرفنا أن البروتستنط

وغيرهم من أصحاب المذاهب المسيحية الحديثة ( غير الاورتوذكس والكاثوليك) محرومون من زيارة بعض الاماكن المسيحية المقدسة في القدس الشريف وما حولها ، وليس هنا مجال مناقشة مدى صواب ذلك فهو أمر يخص الكنائس المسيحية ، لكن الذى يهمنا فى هذا المجال أن الامير نفسه قد تشكك فى أمر وجود هذا الأثر الدينى البروتستنطى (الانجيلى) مخبأ فى جحر فى مكان مهجور فى الأرض المقدسة، ونتساءل : أيكون دس هذا الأثر الدينى فى هذا المكان قد تم بفعل فاعل تمهيدا لكشفه أو ادعاء كشفه فى يوم من الأيام . ومن ثم بناء حقوق تاريخية للبروتستنط على هذا الأساس ؟! ان الآثار لا تكذب لكن أمر تزويرها قائم !

**اليهود والغش :**

ولا أدرى تفاصيل الأسباب التى تجعل الأمير ردولف يربط « الغش » دائما باليهود ، فهو يقول انه عندما دخل الحى اليهودى بالقدس ، وجد الحوارى قذرة غاصة بالحوانيت ووجد « ... الرجال اليهود يبيعون ويشترون ويساومون ويغشون ... » ( ص ٢٨٨ من النص الانجليزى — ص ٥٨ من الترجمة العربية ، جـ ٣ ) بل انه عندما يجد مسلما يغش فانه سرعان ما يشبهه « بابن عمه اليهودى » .

**ملاحظات على الترجمة :**

**عند ترجمة الجزء الخاص بالقدس الشريف استخدمنا كلمة المقدس ( بتشديد الدال وكسرها ) لزائر الأماكن المقدسة ان كان مسيحيا ، وهي كلمة شائعة على اللسان المصرى ، واستخدمنا كلمة « زائر » ان كان المشار اليه شخصا مسلما ، علما بأن الكلمة التى استخدمها الأمير هى « الحاج » . ومن المعروف أن شعيرة الحج بالنسبة للمسلمين قصر على الكعبة الشريفة وغيرها من المناسك فى مكة المكرمة .**

وعند استشهاد الأمير بنصوص من العهدين القديم والجديد فضلنا الرجوع مباشرة للترجمات العربية المتاحة ، وقد رجعنا ـ على نحو خاص ـ لانجيل متى الذى أعادت ترجمته لجنة معتمدة من البابا كيرلس السادس بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقصية فى كل أفريقيا والشرق ( سنة ١٩٧٢ ) .

ـ ترجمنا عبارة the son of God بعبارة « المسيح عليه السلام » فالعبارة الأخيرة مقبولة من المسيحيين والمسلمين على سواء ، وأثبتنا المقابل الانجليزى مراعاة للأمانة العلمية ، وعلى أية حال فعبارة the son of God لم ترد فى نص الرحلة الا مرة واحدة .

والله من وراء القصد .

د . عبد الرحمن الشيخ

# الفصل السابع

الوصول الى يافا – ملاحظات عن الاسلام والديانات الاخرى – الشيخ على على ضفاف الاردن – الحجاب على وجوه المسيحيات واليهوديات والمسلمات – كنيسة يافا – المتسولون – الرملة – لترون – بير الجب وما حوله – خانات المقدسين – أبو جوش – موطن المكابيين – خرافات يهودية مقززة – عمواس – يهود أوربا فى القسطنطين العبرية – كنيسة القيامة ومسجد عمر – التعصب – الأتراك يحمون كل أصحاب المذاهب والديانات – القديس جيمس – الحاخامات اليهود والفريسيون – المعبد اليهودى – العلية • احفاد عثمان ( رضى الله عنه ) فى القدس – جبل الزيتون – الصيد – رسوم بوسنجر – تعليقات المترجم •

## الوصول الى يافا :

وجدنا أنفسنا فى صباح الثامن والعشرين من شهر مارس فى عرض البحر • وكان السؤال الذى يتكرر غالبا : ألم يظهر البر بعد ؟ فقد كنا ننتظر بفارغ صبر أن نرى البر الآسيوى لنترك البحر ، وأخيرا رأينا – بعد الظهر تكوينات جبال فلسطين ( يهوذا Judaea ) (*) وقد لفها ضباب أزرق، وتلا ذلك رؤيتنا للرمال الصفراء والتل المدرج الذى تقبع فوقه مدينة يافا Jaffa .

---

(★) استخدم الارشيدوق فى اكثر من موضع فى رحلته هذه مسميات العهد القديم ، لا لتعاطف منه مع اليهود ، فالحقيقة انه اشار اليهم – رغم دبلوماسيته الشديدة – ==

وعند النظرة الأولى بدت المنطقة جرداء منعزلة : مجرد كثبان رملية وجبال داكنة لا تسر رؤيتها العين • وعلى آية حال ، فعندما اقتربت سفينتنا من يافا ذات العبق التاريخي رأينا سياجا من خضرة جميلة ـ آشجار كثيفة وبساتين تقع في وسطها يافا • ولأنه ليس ليافا مرفأ لاستقبال السفن الكبيرة ، فقد كنا مضطرين الى آن نوقف سفينتنا على بعد مناسب من سياج الصخور التى تحيط بالمدينة من ناحية البحر •

---

= باعتبارهم عناصر ماكرة ، كما اشار الى بعض قصصهم عن ارتباطهم بارض فلسطين بأنها قصص مقرفة تدعو للغثيان ، وقد يكون مبالغا بعض الشيء ، لكننا نذكر ما يطالعه القارىء فى هذا الفصل والفصول الاخرى ، اما اطلاق اسم يهوذا على تلال فلسطين ، فلا يمكن فهمه دون المامة تاريخية موجزة وقد رجعنا فى ذلك للمقدمة التى كتبتها لجنة ترجمة انجيل متى (١٩٧٢) المكونة من الانبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا والثقافة القبطية والبحث العلمى والأستاذ زكى شنودة والدكتور مراد كامل والدكتور باهور لبيب والأستاذ حلمى مراد ، والجدير بالذكر ان ما كتبناه يتفق مع ما تردده المراجع التى كتبها مسلمون •

« ••• نشأ الجد الأول لليهود وهو أبو الأنبياء ابراهيم فى مدينة اور ( جنوب العراق الآن ـ المترجم ) التى كانت تقع جنوبى بلاد بابل فى بلاد ما بين النهرين ، وكانت مدينة أور مركزا للعبادة الوثنية فى حين كان ابراهيم يؤمن بوجود الله الواحد ولا يتعبد الا له ••• فرحل الى حاران ، ولما مات أبوه نزح مع قومه الى ارض كنعان المعروفة اليوم بأرض فلسطين •• وانحدر ابراهيم الى مصر زمن المجاعة ثم عاد الى فلسطين ، ولما توفى ورثه ابنه اسحق وهو الجد الثانى لليهود وانجب اسحق ابنه يعقوب • وكان لقبه اسرائيل ، ولذلك لقب اليهود كذلك ببنى اسرائيل ، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا ، كان من بينهم يوسف الذى استقر فى مصر وأصبح الوزير الأول لفرعون فاستدعى أباه وأهله •• واستفحل أمر سلالتهم وظهر من بينهم قوى هو موسى النبى فهاجر الى فلسطين ، وتاهوا فى سيناء اربعين سنة ، ولما بلغوا مشارف فلسطين مات موسى ( عليه السلام ) فتولى أمرهم يوشع بن نون •• وبعد موته تولى حكم اليهود حكام عرفوا بالقضاة وكان آخرهم صموئيل النبى ١٠٩٥ ق•م ثم أعقبه داود النبى ثم ابنه سليمان الحكيم ١٠٠٠ ق•م •• وانقسم ملكه بعد موته •• وفى ٤٧٠ ق•م • أغار « تغلت فلاسر » على أسباط اليهود فى شرق الأردن وأخذهم فى السبى ، وفى ٥٨٨ ق•م هاجم ملك بابل نبوخذ نصر القدس وساق اليهود جميعا الى الاسر ، فحاكوا سادتهم الكلدانيين فى بلاد ما بين النهرين • وعبدوا آلهتهم •• وفى عهد ( دارا ) الفارسى الذى سمح لهم بالعودة ، كانت دولتهم ولاية فارسية اذ كان اغلبهم من سبط يهوذا فدعيت بلادهم باليهودية •••• » •

من هذه الفقرة الأخيرة يمكن فهم السبب الذى جعل الأرشيدوق يطلق على جبال فلسطين وتلالها اسم تكوينات جبال يهوذا •• ان العهد القديم معشش فى رأسه ـ ( المترجم ) •

وبمجرد وصول حاكم يافا (والى يافا) ومعاونيه وقائد المنطقة لسفينتنا، وصل رضا باشا معاون القائد General Adjutant

وكان السلطان قد أحسن بارساله ـ على وجه السرعة من اسطنبول (النص : القسطنطينية)، ليرافقنا طوال رحلتنا فى الأماكن المقدسة ، وكان هؤلاء المسئولون الكبار مختلفين بشكل واضح عن المسئولين الذين قابلونا فى مصر ، اذ كانت ملامحهم أعرض وبشرتهم أشد بياضا ـ وبعبارة واحدة : كانوا أقرب الى الشخصية التركية • وكان علينا أن نعلم حالا أن هذه المنطقة مختلفة عن مصر من شتى النواحى • وقد سلمنى رضا باشا ـ وهو رجل مثقف مرح ـ خطابا من السلطان ، وقضينا معه أياما طيبة ، وقد احتفى بنا هذا الرجل اللطيف معشره احتفاء يفوق الوصف، وكان علينا أن نكون ضيوفه خلال اقامتنا وقد حظينا ـ بفضل صداقته ـ بقافلة طيبة وخيام ممتازة وكثير من التسهيلات التى خففت عناء الرحلة •

وبعد تبادل التحية ، ذهب هؤلاء السادة الأتراك ( رضا باشا ومن معه) الى الساحل، ليتخلصوا من ملابسهم الرسمية الخاصة بمثل هذه المناسبات ، وليجروا بعض الترتيبات المختلفة • وجذفنا لنصل للساحل بعد مغادرتهم مباشرة لكننا لم نكن هذه المرة فى قواربنا ، وانما فى قوارب ذات قاع عريض مسطح يستخدمها أهل البلاد ـ وذلك لخطورة الساحل • وسرعان ما ابتعدنا عن سفينتنا ميرامار بفضل المرشد الماهر الذى يسيطر على الدفة ، وبفضل التجذيف القوى لرجاله ، لن نرى ميرامار مرة أخرى طوال فصل وسيكون مرساها أثناء ذلك فى ميناء بيروت وهو أقرب ميناء آمن ، وصحبنا فى رحلتنا للأماكن المقدسة اثنان من ضباط البحرية هما الكونت كورنسكى Chorinsky واللفتنانت ساخس Sacks •

وسرعان ما وصلنا لمنطقة الشعاب المرجانية الشهيرة

بخطورتها ، ولما كان يتعين على القارب أن يمر في مجرى مائى ضيق تحفه صخور خشنة ، ففى وسع المرء ان يتصور مدى خطورة هذا الممر اذا كان المناخ سيئا والامواج هائجة ، لقد كان البحر أثناء عبورنا الممر المائى شفافا هادئا كالزجاج ، وقد وصلنا دون مشاكل لدرجات ( سلالم ) ميناء يافا الصغير الذى لا يصلح الا لاستقبال المراكب الصغيرة ٠

لقد قابلتنا بلاد جديدة بالنسبة لنا تختلف تماما عن مصر واكثر اصطباغا بالصبغة الشرقية وأثرى في ألوانها ٠ كل شيء فى هذه البلاد كان جديدا بالنسبة لى ، فقد أصبح الشرق الآسيوى الخالص أمامى للمرة الأولى ٠ وقد شيدت يافا على مدرجات فوق تل ، والمنازل الدنيا ــ مثلها فى ذلك مثل الصخور الكائنة بينها ــ تغسلها أمواج البحر ، فالأحياء العربية المشيدة من الطين لا وجود لها هنا ٠ لقد تركنا وراءنا فى أفريقيا تلك الجدران الطينية والأسقف المسطحة ، واستخدام الأخشاب فى البناء كما فى مدن ( وادى النيل ) ٠ فالتشييد بالأحجار سمة من سمات الشرق الآسيوى الثرى الذى لابد أن يكون متأثرا بالخبرات العبرية الماضية فى الأراضى المقدسة ــ وكان هذا جليا أمامنا من خلال المبانى الصلدة القوية بقبابها الدائرية على الأسقف ، والمدرجات المسطحة والبوابات ذوات العقود ، والمتسمة بالجهامة ــ وكلها مشيدة من أحجار مكعبة رمادية دون استخدام مواد لاصقة أو ملاط ٠

فالخطوة الأولى على تربة الأراضى المقدسة تذكر ــ فى المدن ــ بذكريات الحكم المنضبط للمملكة اليهودية وحكمة الملك سليمان ( عليه السلام ) أو بأيام السيد المسيح ( عليه السلام ) عندما كان يجلس بين حوارييه His apostles يعم ــ على الدرجات الحجرية فى الميدان المكشوف ، كما تذكر بالصور الريفية التى تمر أمام عيون العقل ، والتى كانت

ترفرف حولنا ونحن نقرأ الكتاب المقدس فى طفولتنا ، فابراهيم الخليل The patriarch Abraham الملك البدوى ( النبى البدوى )(*) الذى بقطعانه وخيوله الجميلة وخيامه الظريفة ونسائه الخاليات من العيوب — الرجل كبير السن بحكمته وتجاربه وعلمه ، العاقل ذو الحديث المفعم بالأسرار والمعانى الباطنية والحكمة العملية ، الرجل الذى أنجب الجنس النبيل ( أبو الأنبياء ) · لا يمكن أن يوجد الا فى الشرق ، ولا يمكن أن يكون مقره الا هذه الأرض ·

وتغير الزمن ، وغير الدين أشكاله ، لكن من بين كل الطقوس والشعائر الشرقية الكثيرة المتشابهة فى طبيعتها ، والمتشابهة فى أفكارها الأساسية — لا نجد الا اليهودى — واليهودى وحده باقيا محتفظا بطابعه ومحتفظا بعقيدته كما هى ، رغم تشتت اليهود فى كل بقاع الأرض ، فاليهودى وعقيدة الايمان باله واحد حق The true Jehovah أرسل نبيه موسى (عليه السلام) ، بل وحتى البشر(**) أنفسهم — الجنس

---

(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم ·

(★★) كثيرة هى المراجع التى تتحدث عن خرافة الجنس النقى ، فالجنس النقى تماما لم يعد له — من الناحية العلمية — وجود ، لكثرة الهجرات والحروب ، والتزاوج بين الشعوب والحضارات تزاوجا سلميا أو مفروضا بالقوة ، ومع هذا فكثيرة أيضا هى المراجع التى تؤكد خرافة زعم اليهود بأنهم جنس نقى ، ونفضل هنا نقل مقتبسات مما أوردته لجنة ترجمة انجيل متى ١٩٧٢ التى سبق أن أشرنا اليها فى حاشية سابقة بهذا الصدد :

« ··· مكث أبناء يعقوب فى أرض مصر ٤٣٠ سنة بموافقة فرعون ··· وفى ٤٧٠ ق·م أغار « تغلت فلأسر » ملك أشور على الأسباط القاطنة شرق الأردن وهى راوبين وجاد ومنسى ·· وساقها عن بكرة أبيها نحو بلاده حيث عاشت هناك فى السبى عيش العبيد ·· ثم أغار ملك أشور ····· ولما استولى الاسكندر الأكبر على البلاد سنة ٣٣٢ ق·م · خضعوا لحكمه وحكم قواده من بعده ، وخضعوا للرومان منذ سنة ٥٨ ق·م الذين ولوا على البلاد رجلا يهوديا من أصل أدومى يدعى أنتيباترا وقد حقد عليه اليهود وقتلوه فحل محله ابنه هيرودوس الذى عينه القائد الرومانى ماركوس انطونيوس ملكا ( تابعا ) على اليهود ، وقد اصطبغت أيامه كلها بالدماء بسبب جشعه ووحشيته واتسم عهده بالتفنن فى أساليب القتل وابادة الناس بالجملة ، وقد ولد السيد المسيح فى أواخر عهده ··· وارسل الرومان ٧٠ م جيشا حاصر أورشليم ( القدس ) واقتحمها ودكها دكا واضرم النار فى الهيكل ·· واعمل السيف فى رقاب اليهود ·· فانتهى بذلك تاريخ دولة اليهود الى الأبد ··· وكان يهود الجليل خليطا من شعوب كثيرة ، وكان منهم اليهود ومنهم المتهودون ، ومنهم الوثنيون ·· ومع أن يهود اليهودية ويهود الجليل كانوا يتكلمون الآرامية ، فان يهود الجليل كانوا —

المختار — رغم انتهاء وجودهم السياسى وخروجهم من البلاد nave Lost Country لايزال كل ذلك موجودا بطابعه القديم "

---

= " ينطقون بها بلهجة مختلفة ... وكانت السامرة فى الشمال الغربى من اليهودية وكانت عقائد أهلها قد اختلطت بالكثير من العقائد والطقوس الوثنية .... » .

هذا ما اوردته اللجنة انفة الذكر وقد أحالت كل كلمة فى مبحثها هذا العهد القديم والأناجيل مقدمة انجيل متى/ترجمة ١٩٧٢ ، ص ص ١٨ — ٢٢ .

واذا تركنا النقول السابقة وكلها من مصادر دينية محورها العهد القديم والاناجيل ، وطالعنا بعض الدراسات العلمية ، وجدنا ان ارثر كسلر وهو يهودى من اب مجرى وام نمساوية يتعرض فى كتابه The thirteenth tribe « القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم » الذى ترجمه المترجم القدير أحمد نجيب هاشم ( صدر فى سلسلة الالف كتاب — عدد ١٠١ ) — ليهود اليوم ذاكرا أنهم فى غالبهم ليسوا من سلالة يعقوب عليه السلام وليسوا من الأسباط الاثنى عشر ، وانما من سلالة سكان دولة الخزر اليهودية التى ظهرت فى العصور الوسطى .. وقد بلغت أوج مجدها فى الفترة الممتدة من القرن السابع الى العاشر الميلادى وامتدت من البحر الاسود الى بحر قزوين ومن القوقاز الى الفولجا وكانت عاصمتها (اتل) على نهر الفولجا .

« ... وأدرك الخزر دقة موقعهم بين قوتين عظميين : الامبراطورية الرومانية الشرقية المسيحية من جهة ، والامبراطورية العربية الاسلامية من جهة اخرى ، فكانوا هم بمثابة القوة الثالثة فى عصرهم . وحرصا على حماية دولتهم من ضغط المسيحية والاسلام فقد رأى « الخاقان » الذى حكمهم فى منتصف القرن الثامن الميلادى اعتناق الديانة اليهودية هو وحاشيته وشعبه ، ويلاحظ انه حتى قبل تحول الخزر الى اليهودية كانت بلادهم المأوى الطبيعى لهجرات جماعات اليهود التى وفدت اليها هربا من اضطهاد الحكام البيزنطيين ، بل كانت أشبه بوطن قومى لليهود ، كما ضمت بلاد الخزر ايضا عددا كبيرا من المسلمين والمسيحيين ، يقول المؤرخ العربى المسعودى الذى أطلق عليه الاوربيون لقب هيرودوت العرب « وفى المدينة « اتل » خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية ( أى الوثنيين ) ، فأما اليهود ، فالملك وحاشيته والخزر من جنسه — وكان تهود ملوك الخزر فى خلافة هارون الرشيد . وقد انضاف اليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم — وذلك ان ملك الروم نقل من كان فى ملكه من اليهود الى دين النصرانية وأكرههم .... وقد ألف ملك الخزر فى جيشه فرقة ضاربة من المسلمين وهؤلاء يعرفون « باللارسية » وهم قبيلة من نحو بلاد خوارزم وكان فى قديم الزمان بعد ظهور الاسلام وقع فى بلادهم جدب ووباء ، فانتقلوا الى ملك الخزر ، وهم ذوو بأس وشدة وعليهم يعول ملك الخزر فى حروبه ، واقاموا فى بلده على شروط بينهم : احدها اظهار الدين والمساجد والاذان ، وثانيها ان تكون وزارة الملك فيهم وثالثهم أنه متى كان للملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا فى عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم ويحاربون سائر الناس غيرهم » . وكانت هناك علاقة وثيقة بين الخزر ومؤسس الأسرة السلجوقية فقد كان « توركاك » أبو سلجوق قائدا فى جيش خاقان الخزر .

ولعب الخزر دورا مهما فى السياسة الدولية وحرص حكام الامبراطورية الرومانية الشرقية على التحالف معهم طيلة الفترة الممتدة من القرن السابع الى القرن العاشر الميلادى ، وكثيرا ما اشترك الخزر فى حروب ضد أعداء الامبراطورية البيزنطية التى تدين لهم بكثير =

. . . . . . . . . . .
. . . . . . . . . . .

= من الفضل فى بقائها صامدة أمام الهجمات المتتالية التى شنها عليها الفرس من جهة والعرب من جهة أخرى ، ووقف الخزر سدا منيعا حال دون زحف العرب نحو القوقاز ، ويقول بعض المؤرخين انه لولا وجود الخزر فى الاقليم الشمالى من القوقاز لطوق العرب بيزنطة ـ بيد انهم أقاموا منذ أواخر القرن الثامن الميلادى علاقات ودية مع الخلافة الاسلامية وحرصوا على المحافظة عليها .

وفى عصر ساد فيه التعصب والجهل والفوضى فى أوربا الغربية وغلبت البربرية على الشعوب التى احاطت ببلاد الخزر فى شرقها ، كان الخزر شعبا عصريا متقدما متحررا من الأحقاد القومية ومفتوحا لمختلف الثقافات والأديان له حكومته العادلة المتسامحة وفنونه التى تأثرت بالفنون الفارسية الساسانية وله جيشه القوى وتجارته الواسعة . وكثيرا ما تواجد التجار الخزر فى القسطنطينية والاسكندرية بل وفى جهات أخرى نائية مثل « سامراء » و « فرغانة » (٢) يقول المسعودى : « جرى العرف فى اتل عاصمة الخزر أن يكون بها سبعة قضاة منهم اثنان للمسلمين يفصلان فى القضايا طبقا للشريعة الاسلامية ، واثنان للخزر يفصلان فى القضايا بحكم التوراة ، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية وواحد للصقالبة والروس وسائر الجاهلية ( الوثنية ) يحكم بأحكام الجاهلية . وهى قضايا عقلية فاذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا الى قضاة المسلمين فتحاكموا اليهم وانقادوا الى ما توجبه شريعة الاسلام ... وفى بلاد ملك الخزر خلق من المسلمين تجار وصناع غير « اللارشية » ... لعدله وأمنه ولهم مسجد جامع والمنارة ( المئذنة ) تشرف على قصر الملك ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن .

وقد قضى الروس على امبراطورية الخزر فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، ودمروا عاصمتهم « اتل » ، ولكن الخزر ظلوا محتفظين باستقلالهم داخل حدود أضيق عن ذى قبل ، شأنهم فى ذلك شأن ما حدث لامبراطورية النمسا والمجر عقب الحرب العالمية الأولى ، التى قضت على هذه الامبراطورية ولكنها لم تقض على النمسا بوصفها دولة مستقلة أجل ـ ظل الخزر محتفظين باستقلالهم الى أن سقطت بلادهم فريسة لغارات المغول بزعامة « جنكيزخان » فى منتصف القرن الثالث عشر ـ وجدير بالذكر أنهم كانوا قبل هذا الغزو وبعده قد أرسلوا فروعا كثيرة من سلالتهم الى البلاد الصقلبية التى لم تقع فى يد المغول ، وساهموا بالتالى فى تكوين جاليات يهودية كبيرة فى شرق أوربا .

ويوضح كيستلر فى النصف الثانى من مؤلفه هذا أثر الخزر فى تكوين اليهود المعاصرين ، وخلاصة ما ينتهى اليه أن غالبية اليهود الحاليين ليسوا من أصل آسيوى ، أى انهم ليسوا من الاسباط ( القبائل ) الاثنتى عشرة نسل يعقوب الوارد ذكرها فى التوراة ، بل انهم ينحدرون من الخزر ( القبيلة الثالثة عشرة ) ، الذين انتشرت ذريتهم فى كثير من دول شرق أوربا وخاصة بولندة والمجر وروسيا ـ أى انهم لم يجيئوا من فلسطين بل من القوقاز ـ بعبارة أخرى . فان مصطلح معاداة السامية لم يعد له معنى فى ضوء هذه الحقيقة .

وفى هذا الصدد لم يفت المؤلف أن يشير الى ان الاستاذ ابراهام بولياك اليهودى الروسى الاصل والذى هاجر مع أبيه الى فلسطين سنة ١٩٢٣ ثم أصبح فيما بعد أستاذ =

فاليهودى ينتقم لنفسه ـ بوحى لا شعورى ـ بالتأكيد على وجوده ( بالتمسك بطبيعته القديمة ) . وهو ـ بوعى منه ـ يمثل قوة معينة متمثلة فى الذكاء الحاد الذى منحه اياه الشرق . لقد جرد الغرب اليهود من كل شىء وطردوهم وشتتوهم فى كل بقاع العالم لكنه لم يكن قادرا على افنائهم ومع هذا فلا زال اليهود ـ ذلك العنصر اللحوح much-tried موجودا ويطالب بالعدالة (*) .

---

= التاريخ اليهودى فى جامعة تل ابيب واصدر مؤلفات كثيرة منها «تاريخ العرب» و «تاريخ الاقطاع فى مصر» ـ قد نشر من قبل ابحاثا عن الخزر وتحولهم الى اليهودية ، اثارت بدورها جدلا كبيرا حيث هاجم فيها الفكرة القائلة بانحدار اليهود الحديثين من القبيلة التوراتية وهدم بذلك اسطورة الشعب المختار . يقول الدكتور حسين فوزى النجار : « اذا كان بنو اسرائيل هم شعب الله المختار فقد كان هذا حين كانت رسالة الأنبياء اليهم وحدهم وحين عمت الرسالة انسحب الاختيار الى كل من آمن بالله واليوم الآخر ، اسرائيليا كان أم مسيحيا أم مسلما ، والمختار هو المختار للرسالة وليس للتميز او التفضيل على البشر » .

كذلك قرر كيستلر ان الاستاذ النمساوى هوجو فرير فون كوتشيرا ( ١٨٤٧ ـ ١٩١٠ ) اثبت فى بحثه عن الخزر ، أن يهود شرق أوربا ينحدرون منهم ...

ارثر كيستلر : القبيلة الثالثة عشرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ الالف كتاب ١٠١ ، ١٩٩١ .

واذا تركنا النصوص الدينية ممثلة فى العهد القديم كما اوردناها فى صدر هذه الحاشية ، والبحوث العلمية كما اوردناها ممثلة فى نقول عن الباحث اليهودى كيستلر ، وعدنا للمنطق الخالص ، فان عددا كبيرا من اليهود ـ بل الغالبية ـ قد تحولت فى خاتمة المطاف للمسيحية والاسلام ، وبذا يكون بين المسلمين والمسيحيين من دماء يعقوب ( اسرائيل ) أكثر بكثير مما فى دماء يهود اليوم من دمه عليه السلام ، وقد لاحظ الارشيدوق ونص فى اكثر من موضع فى رحلته تلك انه رأى فى كثير من البدو والعرب المزارعة فى مصر وفلسطين الملامح نفسها التى لليهود ، .. بل انه عندما واجه بعض مظاهر الغش واللؤم عند العرب أرجع ذلك لقرابتهم لليهود ، قد يكون مخطئا فى هذا لكنه على اية حال رأى فى سحن العرب وملامحهم شبها غير بعيد عن أبناء يعقوب ـ ( المترجم ) .

(★) لم ينكر المسلمون على اليهود او غيرهم فى اية مرحلة من مراحل التاريخ حقهم فى الوجود ، بل لقد أصبح المسلمون هم الذين يطالبون بحقهم فى الوجود ، وقد اورد الامير ردولف فى اكثر من موضع فى رحلته هذه انه وجد اليهود وسائر الطوائف الدينية تحظى بحرية كاملة فى ظل الدولة العثمانية ، وان الجندرمة ( جنود الدرك الاتراك ) كانوا يضمنون لكل طائفة ومذهب اداء شعائرها بحرية كاملة ، ويرجع ذلك الى ان الاسلام دين يضم بين جناحيه كل المبادىء الأساسية للأديان السابقة عليه بشكل بعيد عن الخرافة ـ ( المترجم ) .

لقد خرجت المسيحية من العقيدة اليهـودية وأخـذت من مخزون حكمتها ، فلم تكن تعاليم المسيح ( عليـه السـلام ) لتثمر الا فى أرض كفلسطين لا مكان لها الا فى الشرق ، وان كانت المسيحية جديدة فى كثير من وصايا وتعاليمها الأخلاقية precepts ، الا أنها فى أصولها ووجودها ليست الا تكملة للديانات الشرقية القديمة · والمسيحية التى انتقلت للغرب واستمرت حتى أيامنا هذه تجد مولد أفكارها الأساسية دائما فى الشرق · **وقد أمكن للاسـلام أن يحـافظ عـلى الديانات السامية** Semitic **الشرقية القـديمة فى أنقى صـورة وأكثرها بعدا عن الخرافة ·**

The ancient Eastern Semitic religions have been preserved in their purest and most incorrupt form by Islam.

**فلأن الاسلام منبثق عن هذه الديانات السامية القديمـة ولأنه لم يهدف الا أن يكون استمرارا لها بين الأجناس نفسها ــ فقد استطاع ــ لهذا السبب ــ أن يكون له السيادة فى هذه المناطق وأن ينتشر منها الى شعوب كثيرة مختلفة** ، وقد أدى هذا الى أن يكون الشرق ثابتا (لم يلحقه تغيير) كجنس بسبب عقيدته · فابراهيم الخليل old Abraham لم يمت ، فاليهودى المجد الشغوف بالمال acquisitive المذكـور فى التراث القديم لازال موجودا · وفى المدن يؤاخيه العرب ( هم أخوة له ) ، وكل الأسرات السامية التى بقيت فى ديارها القديمة (بلادها الأصلية) مستمرة فى ( ممارسة ) طريقتها القديمة ( فى الحياة ) ·

In the lowns the Arabs are his brethern. and all the Semitic families who remain in the old home Continue in the ancient way.

## الشيخ على على ضفاف الأردن :

ويقطن الشيخ على فى السهول الواسعة على طول الأردن فى آلاف من الفرسان الذين يتحركون بحرية ولا يضبطهم ضابط ، وتتكون ثروته من قطعانه ومساكنه ونسائه مستمدا قوته من حكمته وما لديه من كتب فى العقيدة والشريعة ، ثمة — اذن — ملك بدوى عجوز على رأس شعب من سلالته • وقد أخبرنا الكتاب المقدس عن حالات كهذه • ففى الشرق لا شىء يموت • فالثورات المحمومة فى الغرب تمر دون أن تترك آثرا ، أما فى الشرق فكل شىء كما كان منذ عصور بعيدة وسيظل الشرق على هذا النحو ما ظلت الشمس تشرق كل يوم ، صابغة بلون أرجوانى التلال الجرداء والصحراء البرتقالية وسهوب الشرق الشاسعة ، ملقية بلونها الذهبى على الأرض المجيدة — مهد الجنس البشرى •

آمل أن يعذرنى القارىء لهذا الاستطراد ، لأن هذه الأفكار تفرض نفسها على المسافر الذى يصل للمرة الأولى الى الأرض الموعودة promised land •

كان المنظر الذى تبدى أمامنا ونحن على درجات ميناء يافا متألقا وجديرا بريشة فنان • وكانت كل الشرفات والمدرجات والدرجات ( السلالم ) والنوافذ الضيقة غاصة بالبشر • والملابس هنا أكثر ثراء فى الألوان وأكثر لفتا للنظر من الملابس فى مصر ، فملابس آسيا الصغرى والملابس التركية وملابس اليهود ذات الطراز القديم ، كل ذلك يمكن رؤيته هنا • أما قمصان ( جلابيب ) الفلاحين الزرقاء والطواقى البنية فلم نعد نراها فى الشوارع هنا ، ولم نعد نرى — كما كنا نرى فى مصر أشباه العراه ، كما لم نعد نحس بما أحسسنا به فى مصر من الفوضى ( قلة النظام ) • والأثواب (القفاطين) الغامرة الواسعة المثبتة بأحزمة عريضة بهيجة ، والعمائم الضخام — والطرابيش أحيانا ، والجاكتات Jackets أو السترات القصيرة المزينة بالفراء والشبيهة

بالمعاطف والسراويل التي تغطي الركبة ، والنعال الحمر ـ كل ذلك هو أهم ما يلفت النظر في ( هذا ) الساحل الآسيوى • وبين أبناء آسيا الصغرى الأصلاء الذين يقيمون هنا ، وكذلك بين الدروز تشيع الأزياء التي تذكر المرء بأزياء شبه جزيرة البلقان •

أما النسوة فيلبسن ملابس واسعة ـ جديرة بالتصوير ـ ويضعن ملاءات بيضاء وأغطية وجه ( حجابا ) بيضا أيضا ـ ويختلف لباس النساء هنا تماما عن لباس نساء مصر • وفى يافا عدد كبير من المسيحيين واليهود ، لذا فقد رأينا عددا من المسيحيات واليهوديات يرتدين ملابس تدل على الثراء ـ يسرن في الطرقات ، ومعظمهن محجبات حجابا غير مبالغ فيه ، وبعضهن دون حجاب على الاطلاق ، لذا فقد أمكننا ملاحظة كثير من الوجوه الجميلة ، بل حقا لقد رأينا بينهما وجوها نبيلة : أبشرة بيضاء متألقة وشعر أسود فاحم ؟! لقد كان هذا مما جذب أنظارنا • وبشكل عام فالبشرات في فلسطين خالية من العيوب خاصة في المدن ـ أحيانا تميل للصفرة ، لكنها نادرا ما تكون داكنة أو سمراء ، فهذا اللون غير موجود الا بين بعض القبائل البدوية خاصة الجنوبى منها •

**كنيسة يافا :**

لقد كانت النظرة الأولى على البشر بثيابهم البهيجة المتألقة تعطى احساسا شائقا ، وقد صعدنا الدرجات ( السلالم ) ببطء في طريقنا الى دار الضيافة اللاتينية ( الكاثوليكية التي تتبع الطقوس اللاتينية ) Latin hospice ويختلف العساكر الأتراك بزيهم الأخضر ـ ولهم مظهر مقاتلى آسيا الصغرى ـ من كل الوجوه عن المصريين ، وقد أخلى لنا هؤلاء العساكر ممرا لنمر ، لأن الناس قد تزاحموا حولنا تزاحما شديدا وقد اعتراهم الفضول وحب الاستطلاع ، ودلفنا للكنيسة عبر منزل وصعدنا وهبطنا عددا كبيرا من السلالم ( وليس درجات السلالم ) • وكان الطريق اليهـا

صعبا وقذرا ، وكان علينا أن نمر خـلال جو خانق مشـبع بالروائح المرعبة والمقرفة • الكنيسة قديمة لكنها غير جميلة وليس فيها ما يجذب ، وعند دخولنا قبلنا صندوق الذخائر المقدسة the relics ونصـحونا أن نتلو الدعوات ( نـؤدى الصلوات ) ونحن ممددون عـلى الأرض ، انك ترى فى كل خطوة فى الأرض المقدسة مواضع مرتبطة بالحكايات المقدسة Sacred legends ، وفى يافا بعض من هذه المواضع • لقـد آيقظت الكنيسة المظلمة ، التى تعـود للعصـور الوسطى ، وضوء المشاعل المتراقص ، وتراتيل الفرنسيسكان التى تلوها بصوت أجش ، وصوت الأرغن ، وكل ما على أرض فلسطين ــ أيقظ كل ذلك الأفكار التى سادت أيام الحـروب الصليبية عندما آقبل مقاتلون شجعان (*) من الغرب البعيد ، حيث تم منحهم البركة هنا للمرة الأولى على الأرض المقدسة ــ قبل أن يهب ابن الصحراء الباسل الفخـور ليدافع عن أرض آبائه ضد الغازى الأجنبى •

---

(★) نفضل هنا أن ننقل من بعض المراجع الاجنبية ما يبين الأبعاد الحقيقية للحروب الصليبية ، يقول ارنست باركر Barker ( ترجمة السيد الباز العرينى ) :

« منذ سقطت بيت المقدس فى يد جيوش عمر بن الخطاب سنة ٦٣٧ م •• وكان الاتصال المستمر بين الكنيسة اللاتينية فى بيت المقدس وبين المسيحيين فى الغرب وبقاؤه نشيطا لقرون عديدة ، **انما يرجع الى تسامح الفاتحين المسلمين** ، والمعروف أن شارلمان ــ بصفة خاصة ــ كان وثيق الصلة ببيت المقدس ••• وظلت الصلة بين الغرب وبيت المقدس بلا انقطاع حتى القرن الحادى عشر الميلادى •• وفى سنة ١٠١٠ دمر الحاكم بأمر الله الفاطمى كنيسة القيامة وأنهى حماية الفرنجة لها ، وانتقل الى المسيحيين البيزنطيين سنة ١٠٢١ أمر رعاية الأماكن المقدسة ( المسيحية ) التى ظلت مصدر نزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية حتى بداية حرب القرم فى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد •• وترتب على على ذلك ان صار قدوم الحجاج من الغرب أمرا شاقا وعسيرا ، فالبيزنطيون ، لا سيما بعد حدوث الانشقاق الدينى سنة ١٠٥٤ لم يحرصوا على جعل طريق الحج سهلا ميسورا ، وكان لزاما على البابا فكتور الثانى أن يجار بالشكوى الى الامبراطورة تيودورا ••• » •

**ونخلص من هذا النص وامثاله ان الحروب الصليبية كانت فى جانب من جوانبها ، وفى مرحلة من مراحلها ــ نوعا من الصراع المسيحى المسيحى ، وليس المسيحى الاسلامى • لقد كانت صراعا بين الكنيستين اليونانية واللاتينية للسيطرة على الأماكن المسيحية المقدسة وفى ثنايا رحلة الأرشيدوق يلمس القارىء بنفسه أن هذا الصراع ظل موجودا حتى بعد منتصف القرن التاسع عشر ( زمن رحلتنا هذه ) •**

=

. . . . . . . . . . .
. . . . . . . . . . .

= ومن اسباب الحروب الصليبية ايضا كما اشار باركر « حرص الكنيسة الكاثوليكية على تحقيق حلمها بقيام كنيسة عالية تخضع لسلطانها ... وقد أطلق رجال الدين اسم الحروب الصليبية على هذه الحروب ، لتبرير المصالح والمطامع التى حدث أن اتفقت على ما اختاروه من وسائل ، على الرغم من أن هذه الحروب إنطلقت لتحقيق أغراض مخالفة لأغراض الكنيسة، مثال ذلك ما كان من طموح الأمير المغامر والابن الأصغر ( لجويسكارد ) الحريص على أن يقيم لنفسه امارة فى الشرق . ويعتبر بوهمند من هذا الطراز ، وثمة أيضا مصلحة المدن الايطالية التى حرصت على أن تحصل على منتجات الشرق بسعر رخيص وبطريق مباشر ... والنوع الأول الذى يمثله بوهمند الطامع فى تأسيس امارة فى الشرق يعتبر القوة المحركة التى كفلت النجاح للحرب الصليبية الأولى ... بينما النوع الثانى ( الذى تمثله مصلحة المدن الايطالية ) يعتبر الحليف القوى المتين الذى بفضله وحده استطاع بلدوين الأول وبلدوين الثانى أن يقيما مملكة بيت المقدس ... فالحماس الدينى المضطرب غير المنظم لم يكن له فى الحروب الصليبية الا تأثير ضئيل بل يكاد لا يكون له أثر اطلاقا ، أما الحماس الذى اتخذه ووجهه النرمانى الماكر والبندقى أو الجنوى الذى لا يقل عنه مكرا ، فهو الذى أدى الى نتائج ثابتة ، والواقع أن انشاء الامارة أو اقامة المستودع لم يكن الا من أغراض الأمير أو التاجر .. وليس معنى هذا انكار العامل الدينى ، غير أنه ينبغى أيضا التسليم بأن شيئا من الأغراض الدنيوية اجتذب الى الحروب الصليبية جموع الدهماء ، فما حدث فى مواطنهم من المجاعات والأوبئة دفع الناس الى الهجرة الى الشرق ابتغاء الخروج من الضيق ، وأملا فى الخلاص منه ، ففى سنة ١٠٩٤ وقع وباء انتشر من الفلاندر الى بوهيميا ، وفى ١٠٩٥ حدثت مجاعة فى اللورين ، فلا عجب أن تدفق نحو الشرق سيل من الهجرة مثلما يجرى فى الأزمنة الحديثة من الانسياب نحو منجم من مناجم الذهب جرى اكتشافه حديثا ، وهذا السيل اشتهر بما يحمله فى ثنايا المياه العكرة من الوسخ الزائد والأفاقين والمفلسين والآبقين ... ومع هذا فقد ألقى البابا ايربان الثانى فى كليرمونت الى الجنوب من فرنسا بعد الحملة الصليبية الأولى جاء فيه أنه ينبغى تجريد جيوش المسيحيين لقهر المسلمين ... وكانت الحروب الصليبية فى بدايتها مشروعا فرنسيا ، والمملكة التى اقامها الصليبيون بالشرق كانت أيضا فى جوهرها مملكة فرنسية فى لغتها وعاداتها ورذائلها وفضائلها ، ومن الطبيعى أن تكون فرنسا مهدا للحروب الصليبية ؛ لأنها كانت ... تستطيع أن تقدم من النبلاء الاقطاعيين حشدا لم يكن شديد الارتباط بمكانته فى المجتمع ومستعدا لأن ينطلق فى مغامرة كبيرة ، بالاضافة الى أن فرنسا قاست كثيرا مما وقع بها من المعارك والحروب ، وعانت مما حدث بها من الوباء والمجاعة ، فالهروب فى هذه الأحوال انما يلقى ترحيبا .. على أن الحروب الصليبية لقيت عند النورمان بصفة خاصة قبولا طيبا .. فقد اشتهروا منذ القدم بحبهم للحركة والانتقال .. وقد استطاعوا أن يجدوا لهم منفذا فى حملة موجهة لبيت المقدس ... والحروب الصليبية تتفق آخر الأمر مع تلك النزعة فى امتلاك أراض جديدة .. وهى من خصائص الأمراء النرمانديين ... أما ألمانيا ، فان ما أصابها من التمزق بسبب الحروب الداخلية .. جعلهـــا تسخر من الصليبى ... » نكتفى بهذه الاقتباسات المعبرة التى كتبها مؤلف غربى . صص ١٤ ــ ٢٤ ــ ( المترجم ) .

وبعد ان منحنا البركة وانتهى العزف الموسيقى اتخذنا سبيلنا خارجين بصعوبة بين جحافل المتطفلين المحملقين الذين احتشدوا فوق السلالم وفى الممرات الضيقة ، وكانت غرف هذه الكنيسة ــ التى تشبه الأقبية ــ غير جارية الهواء ، كما كانت رائحتها كريهة ، وفى هــذه الغرف يسـكنون ، وهى بمثابة منزلهم أو ديرهم أو كنيستهم . فليحذر أى انســان من أن يكون تحت سقف وهو فى فلسطين خاصة فى فصــل الربيع .

كانت خيولنا عند البوابة . وكان من الصعب ان تسير قافلتنا متجمعة معا وسط هــذا الزحام من البشر الشرقيين ــ وكان بينهـم عــدد من اليهـود ــ الذين احـدثوا جلبــة وضوضاء . واخيرا فتحت لنا فرقة من الخيـالة التركيـة الطريق فسرنا يتبعنا خدمنا ، والعساكر من خلفنا . وبهذا النظام سرنا راكبين خلال بعض الشوارع المرصوفة بملاط رقيق بدلا من الاحجار ، ومررنا بسـوق خارج المدينة تعج بالقاذورات وكان الطريق فى بدايته يمر بين بساتين وتحف به أشجار كثيفة وحدائق برتقال مثمرة ، كانت تئن تحت حملها من الثمار . الفارق بين مناخ الساحل المصرى ومناخ ساحل فلسطين واضح تماما .

ففى نهاية فبراير شاهدنا جمع البرتقال فى القاهرة أما فى يافا، فان جمع البرتقال لم يكن قد بدأ حتى نهاية شهر مارس ، وسرعان ما اختفت من أمام أنظـارنا البســاتين العطرة ، ودخلنا فى سهل رتيب تتناثر فيه الخضرة الداكنة ، ولم نر فيه الا حقولا لم تزرع بطريقة جيدة ، وبئرا تســحب منها المياه وقليلا من النخيل ومواضع حجرية ومقابر للمسلمين غير منظمة ، ورأينا على البعد على حافة المشهد القاحل القمم الزرقاء لجبال يهوذا Judaea . ولم نقــابل بشرا ســوى الفلاحين بملابسهم البهيجة يرعون قطعان الجمال والماعز ، كما رأينا متسولين هم أسوأ متســولين رأيتهم ، فهم أســوأ

— حتى — من متسولى مصر ، لقد أصيب بعضهم بشلل بشع · أبشع أنواع الشلل الذى يمكن تخيله ، وكثيرون منهم مصاب بجذام حقيقى كالذى جاء وصفه فى الكتاب المقدس ·

والزروع فى الحقول تفتقد اللمسة المدارية التى فى زروع وادى النيل ، فأنت فى حقول فلسطين قد تظن أنك فى حقول أوربية · الحق أن كل شىء تركناه وراءنا لم يعد له وجود ، ورأينا كثيرا من طيور اللقلق (بتشديد اللام وفتحها) واقفة فى الحقول لكن مظاهر الحياة الحيوانية الأخرى قليلة ·

وسرعان ما وصلنا الى بعض القرى الصغيرة البائس منظرها ·

**الرملة ولترون :**

ومررنا أثناء الطريق بمقابر وأبراج مراقبة لعساكر الدرك الأتراك ( الجندرمه Gendarmerie ) ، وفى غضون ثلاث ساعات وصلنا لمدينة صغيرة ، هى مدينة الرملة ، Ramleh وهى مدينة مهدمة وقذرة قذارة لا توصف ، فما كان من قافلتنا الا أن التفت حولها ، وهذا هو الوضع مع أنها عادة ما تكون المحطة الأولى فى طريق المقدسين الى بيت المقدس ( الحجاج الى بيت المقدس ) · ولم نكن راغبين فى التوقف بالقرب منها ، ورأينا أن نجد فى السير الى قرية لترون Latrun التى تقع عند سفح الجبل ·

وقد ظهر سكان الرملة على مدى البصر بملابسهم اليهودية القديمة المبهجة ، أما المسيحيون القليلون القاطنون فيها (الرملة) فهم — فى الأساس — تابعون للكنيسة الأورثوذكسية اليونانية ، وتدفق سكان المدينة خارجين منها ليحملقوا فينا وتبعوا قافلتنا لفترة طويلة ·

وبعد أن ابتعدنا عن الأراضى المجاورة للرملة ، بدأت شخصية المنطقة تلبس لبوسا آخر ، فقد بدأ الطريق يهبط بنا رويدا الى الأسفل من التل ليفضى الى واد عريض ترتفع الجبال من عند طرفه البعيد ( طـرف الـوادى ) • وكانت الحقول مغطاة هنا وهنـاك بالأحجـار وتبدو قطع الأحجار المصقولة اللامعة واضحة بين الأشـجار الدائمة خضرتهـا • وبالقرب من مقبرة أحد الشيوخ ( الأولياء ) أطلقت طلقتين ناجحتين مكنتانى من اصطياد طائرين من طيور الحجل جميلين، وآرجلهما طويلة حمراء • وبعـد غروب الشمس مبـاشرة وصلنا لقرية لترون Latrun الواقعة بين الصخور والشجيرات دائمة الخضرة عند سفح سلسلة التلال • ان منظرها جـدير بالتصوير • وأقمنا معسكرنا الجميل بالقرب من بقايا قلعة قديمة يصعب تحديد تاريخ بنائها • لقـد كان معسـكرنا مدينة خيام تركية بكل ما فى الكلمة من معنى ، وكانت الخيام مصنوعة من مواد جميلة وزودت بكل ما هو مريح • ولم يكن من الممكن الا أن نتذكر أيام سليمان المجرب Old Soliman وتوفرت فى معسكرنا دواب التحميل ، معظمها بغال أو خيول صغيرة أما خدم الضيافة فدروز من لبنان ( والدروز هم عبدة الشمس Sun-Worshippers ) فتشبثوا بمواقعهم بالقرب من المعسكر بين الصخور •

والسيد هوارد Howard الذى يعمل كممون ، كان قد قبل أثناء حياته دائمة التغير اسما انجليزيا كمـا قبـل الحماية الانجليزية ــ مع أنه شرقى صميم ، داكنة بشرته ، وهو يعيش كمترجم ومقاول لتمـويل القـوافل والرحلات بالمؤن ، ومقره بيروت • وقد تعلمنا أن نقدر جهوده الدءوبة وصفاته الممتازة فى الأيام الصعبة التى ألقينا فيها واجبات ثقالا عليه • وقد ألحق السيد هوارد بالقافلة اثنين من البدو، أحدهما بربرى a Moor خطف وهو صبى فى أفريقيا وهو الآن يتجول مع قبيلة عربية آسيوية ، والثانى بدوى أردنى

أصيل له ملامح أوزبية واضحة ــ وذلك ليحفظا لنا الصندوق المخصص لحفظ طيور الحجل • وكان كلا الرجلين يرتديان عباءتين بيضاوين مخططتين سميكتين من أوبار الجمال • وهذا النوع من العباءات هو المعتاد بين القبائل الآسيوية •

وقد خرجت مع عمى مساء بصحبة هذين البدويين لنبحث عن حيوانات ابن اوى ، وتجاوزنا القرية وعبرنا الاسوار وسياج الأشجار ووصلنا الى بركه ماء • مع اننا سمعنا اصوات ابن اوى تاتينا من بعيد ، الا اننا لم نر ايا منها قبل اطباق الظلام خاصة ان القمر لم يكن له وجود • فعدنا نسعى سالكين الطريق نفسه الذى لم يكن مريحا حتى وصلنا لمعسكرنا • ووقفت بعض الأشباح خارج لترون Latrun تراقبنا بيقظة •

ويقال ان اسم هذه القرية قد اشتق من الكلمة اللاتينية Latro وانها كانت مسقط رأس اللص التائب ديسماس Dismas ، كثيرا من التراث يرتبط غالبا بكل قرية هنا ، وبعض حكايات هذا التراث جميلة وجليلة وهناك ما يبرهن على صدقها ، لكن كثيرا منها لا يمكن تصديقه البتة •

وعندما عدنا لمعسكرنا وجدنا عشاء كاملا فاخرا فى خيمة الطعام الواسعة ، وبعد القهوة التركية مباشرة نعمنا بنوم مريح •

وفى صباح اليوم التالى استيقظنا جميعا مبكرين ، فجمعت الخيام وحملت فوق البغال وبدأت القافلة فى الحركة ، مصحوبة بصهيل الخيول ورنين أجراس البغال وصياح الذين يقودون هذه الحيوانات ، وفى البداية كان الطريق يخترق واديا ضيقا تغطى المنحدرات التى تحفه صخور وشجيرات دائمة الخضرة ، وطبيعة الحياة النباتية فى هذه المناطق ، هى طبيعة الحياة النباتية فى منطقة البحر المتوسط ، فهى كالتى يلقاها

المرء فى سواحل اسبانيا واليونان وايطاليا والمناطق الغربية من الشمال الافريقى خاصة مراكش • وفى فلسطين، فان هذه المنطقة النباتية ( نطاق نباتات البحر المتوسط ) ضيقة وتختفى بالتدريج عند الوصول للقدس ، والى الشرق من بيت لحم Bethlehem تحل منقطة الاستبس النباتية التى تميز وسط آسيا محل منطقة نباتات البحر المتوسط •

**بير انجب وما بعده :**

وبعد أن تجاوزنا بير الجب Bir-Egyub ( بضم الجيم وتسكين الباء ) القديم ، مررنا عبر وادى على بالقرب من بقايا مسجد قديم الى حيود ( حروف ) التلال وكان منظر هذه التلال نمطيا متشابها فلا شيء أكثر من صخور بيضاء لامعة يفصلها عن بعضها وبعضها الآخر أشجار شوكية • وتبدو لنا هنا وهناك منازل آيلة للسقوط أو خرائب ــ بين الصخور ، ولم نر الا قليلا من الجروف ، وان كنا رأينا كثيرا من الألواح الحجرية الناعمة تماما على منحدرات التلال •

وراح عدد كبير من النسور والصقور يحلق فى الهواء وراحت تطلق أصواتها المميزة ، لكننا لم نر فوق الشجيرات ولا بينها الا القليل من الطيور ، وبين الحين والحين كنا نرى طيور الحجل ، تجرى برشاقة صاعدة المنحدرات ، وبعد ساعتين من الرحلة حاولنا التسلل للامساك بالأيائل ، deer-stalking على قمم التلال ، مصحوبين بالعرب الذين يعملون كمساعدى صيد لنا •

ولما صعدنا التلال تكشف أمامنا منظر الوديان والمسيلات، وهو منظر جميل ، وظهرت لنا الحياة النباتية نفسها التى وجدناها فى جبال زانطة Zante وبعيدا الى الشرق رأينا قمم الهضبة التى تقع عليها القدس ، وكذلك بعض منحدرات.

هذه الهضبة ذات اللون الأصفر الداكن ، كما رأينا بداية سلسلة التلال الداخلية وهى مختلفة تماما •

وسرعان ما عدنا الى طريق القافلة فالسير بين الصخور والكتل الحجرية والشجيرات الغاصة بالأشواك التى يصعب اجتيازها أو التوغل فيها ، كما أننا لم نجد طيور الحجل ، أما الطيور الجارحة التى كانت لا تكف عن التحليق فلم تسمح لنا بالاقتراب منها • ولما عبرنا الحيد ridge ، بدت المنطقة أكثر بؤسا وخرابا فقد أخلت الشجيرات الخضراء مكانها للحشائش الجافة ، وتخلت الصخور عن مكانها للأحجار المكسرة ، وامتد الوادى العريض أمامنا وانحدر الطريق اليه متعرجا كثعبان •

## استراحات المقدسين ( الحجاج ) :

ومررنا بخانات المقدسين ( زائرى القدس ) ، وكانت مهدمة خربة كما مررنا بحدائق الزيتون التى ذكرتنا بفوندات fondas الجبال الاسبانية ، ورأينا قرية أبو جوش Abu Gosh التى كانت تقطنها فى بداية هذا القرن أسرة شيخ يحمل الاسم نفسه وكانت تسبب رعبا للحجاج • وبعد ذلك رأينا على البعد قرية (؟) Soba وهى مدين (؟) Modin القديمة موطن المكابيين Maccabees (*) •

## خرافات يهودية مقززة :

وتعلق بعض الحكايات اليهودية بكل خطوة ، وكان على ـ مثلى فى ذلك مثل المسافرين الآخرين ـ أن أستمع اليهم لكننى كثير الشكر ( لله ) لأننى نسيت معظم حكاياتهم وأحيل القارىء المتسامح الى تجرع جرعات من الدواء الذى يتجرعه

---

(★) نسبة الى يهوذا المكابى الذى قاد حركة لطرد اليونانيين من أورشليم ( القدس ) فى الفترة من ١٦٦ الى ١٦٠ قبل الميلاد • انظر : أطلس الدارسين للكتاب المقدس ، نشر دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط ـ القاهرة ، ١٩٩٤ ـ التعليق على الخريطة رقم ١٧ •

مرضى الهوميو homoeopathic فهو ــ رغم بشاعة مذاقه ــ يمكن تحمله اكثر مما يمكن تحمل حكاياتهم ٠

وفي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وصلنا بعد رحله طويلة لباطن وادى Kuloniye العريض وتقع قرية على سطح التل تحمل الاسم نفسه ، وفي ادنى منطقه في الوادى يوجد فندق اوربى من طابق واحد لاستقبال المقدسين ( حجاج بيت المقدس ) ٠ وفلسطين أرض مألوفة للسائحين ، فعلى طول الطريق تجد قوافل الحجاج الى بيت المقدس ٠ ان فلسطين ــ والامر كذلك ــ مثل سويسرا لانهـا منتجع دينى ان صح التعبير ٠

ففي سويسرا يستغلون السائح الراغب في الاستمتاع بالجمال ، وهنا يستغلون ايمانك واعتقادك ليحولوهما الى مال ٠

لقد توقفنا في Kuloniye لأن وصولنا للقدس سيكون ــ كما حدد ــ بعد الظهر ، ورحنا نضيع الوقت بين توقفنا والوقت المحدد لدخول القدس في التجول عند سفوح التلال ، ولم نر الا بساتين زيتون داكنة خضرتها فوق مدرجات التلال وأحيانا شجيرات وصخورا ، وقد سفعت شمس منتصف النهار الحارقة وجه المنطقة القاحل ، وقد سحبنا أنفسنا بشق الأنفس لنصعد بعض المنحدرات الشديدة فلم نر من الحيوانات البرية الا حيوان كسار البندق nutcraker والأرنب البرى السورى الداكن ٠ وأطلق الدوق الكبير النار على هرة بائسة puss لكنه لم يجدها بين الصخور ، ولم يكن هويوز Hoyos أفضل حظا مع الضباع في الجانب الآخر من الوادى ، أما بالنسبة لى فقد أطلقت بندقيتى على بعض السحالى الضخمة السوداء البغيض منظرها ، وهى متوفرة عند كل صخرة في المناطق الصخرية بفلسطين ٠

أصبحت الحرارة لا تحتمل فعدنا جميعا بسرعة الى خان المقدسين ( الحجاج ) ، وتناولنا افطارنا فى ظل شجرة زيتون الوارد ذكرها فى البقعة التى تقع فيها عمواس Emmaus فى العهد الجديد بالقرب من البقعة التى قتل فيها داود David جالوت Goliath • وكان قنصلنا العام الكونت كابوجا Count Caboga قد خرج من القدس ليقابلنا وناقشنا معه بشغف خطتنا لليوم التالى • وبعد الانتهاء من الافطار لبسنا جميعا ملابسنا الرسمية كاملة full uniform والتقى بنا هنا رجال الدين من كل المذاهب المسيحية والمترجمون من القنصليات ، ومن ثم اتجهوا معنا للقدس ( الشريف ) حيث الاستقبال الكبير فى انتظارنا •

**الى القدس الشريف :**

الطريق متعرج على طول المنحدر التلى الواقع فوق الهضبة وبدات الشجيرات وكل آثار الحياة النباتية تختفى رويدا رويدا حتى انعدمت وبدأت الصحراء الصخرية المقبضة ــ انها الأرض الكريهة (*) ان المرء لا يستطيع أن يبعد نفسه عن هذا الشعور • ان المنطقة كلها تبدو ــ على نحو فريد ــ حزينة ، لكنها عظيمة فى الوقت نفسه ، وتأخذ بتلابيب المرء مشاعر غريبة خفية غامضة •

المقدسون ( الحجاج ) من كل صقع وكل طبقة راكبين حميرا أو حناطير ( عربات تجرها الدواب ) ــ كثيرون منهم رجال تعسون men of ruined fortunes ــ وهناك اليهود أيضا الذين أتوا من أقصى بقاع العالم ، وقبل أن نصل الى قمة الهضبة أقبل اثنان من الفرنسسكان Franciscans يهرولون نحونا ، أما الأول فهو راعى تراسانتا Terra Santa وهو راهب سمين ذو لحية سوداء ضخم الجثة مفعم بالحيوية ،

---

(*) النص The accursed land ( المترجم ) •

ولد فى تسكانيا ، وقد ذكرنى منظره بأبطال العقيدة ( المسيحية ) البواسل الذين سبقوا الصليبيين ( المقاتلين الصليبيين ) فى المعركة حاملين الصليب عاليا وحاثين الفرسان على الأعمال البطولية ، أما الثانى فهو من بوهيميا Bohemian وقد بذل غاية الجهد ليسيطر على بهجته وهو يتحدث معى ، لأنه الآن سيتحدث بلغته الأصلية للمرة الأولى منذ عدة سنوات • وقد حيانا الراهبان بحرارة وسارا فى ركبنا • والفرنسسكان فى الأرض المقدسة هم الممثلون ـ بكل ما فى الكلمة من معنى ـ للكنيسة الكاثوليكية Latin Church ، وهم مقاتلون شجعان يدافعون عن عقيدتهم وهم يدافعون عن حقوق المقدسين ( الحجاج ) الفرنسسكان أمام أصحاب المذاهب والعقائد الأخرى •

لقد تسلقنا التل فامتدت أمام نواظرنا هضبة القدس القاحلة ، وعلى البعد بدت لنا جبال وادى الأردن زرقاء مخضرة ، وكانت السمة العامة للمنظر هى القحولة وكان اللون الأصفر الداكن هو السائد ، وألقينا نظرتنا الأولى على القدس : المبنى الضخم للكنيسة الروسية بقبابها الخمس ، جبل الزيتون ، والى اليمين دير الصليب اليونانى • لم نستطع حتى الآن رؤية المدينة نفسها •

وفى الطريق قوس نصر ضخم يحمل كتابات مجرية (هنجارية) ، وقد وقفت جماعة من اليهود الى جوار قوس النصر هذا حاملين الشعارات ويغنون النشيد الوطنى • وقد أحاط بنا يهود بلادنا ( مواطنونا من اليهود ) وراحوا يمتدحوننا ، ويتحدثون الينا الأحاديث المعتادة محدثين جلبة • لقد كانوا اسرائيليين حقيقيين من شمال المجر • وكان الواحد منهم يلبس قفطانا Caftan وحذاء عاليا ، وطاقية من المخمل

velvet cap وللواحد منهم لحية مفتولة • يمكنك أن تتصور نفسك فى قرية كارباثية Carbathian Village .

وتبعتنا جماعة اليهود هذه عند مواصلتنا السير ، وكان الطريق ـــ على الجانبين ـــ مزدحما بالنـــاس : يهـــود من كل البلاد ، مسيحيون من آسيا الصغرى ، يونانيون ، مقدسون ( حجاج ) أوربيون ، نساء مسيحيات شرقيات بعضهن بغـــير حجاب وبعضهن محجبات جزئيا ( حجاب غير كامل ) ، وأكثر ألبســـة النســـاء لفتا للنظر هو لباس اليهـــوديات العجائز ، وبالاضافة لهؤلاء هناك القبط والسائحون الانجليز بمنظرهم الخارجى غير المهندم أبدا ( كأبيات الشعر غير الموزونة ) والمسلمون من البلاد المختلفة والمتسولون المشلولون والعرجان وخليط يستعصى على الوصف من كل أنحاء المعمورة ـــ كل أولئك يتسكعون فى الطرقات بلا هـــدف وينظـــرون الينـــا بفضول •

## كنيسة القيامة ومسجد عمر :

وتوقف الموكب فى صف ( طابـــور ) منتظـــرا وصولنا للنقطة التى يتحتم على المرء أن يدخل بيت المقدس منها، فسجد كل شخص ليصلى برأس عارية ، وأصبح أمامنا بيت المقدس The Holy Zion بحوائطه القديمـــة وقباب كنيســـة القيـــامة Church of Sepulchre ومسجد عمر الفخم •

انها مدينة القدس التى ولدت فيها عقيدتنا (المسيحية) التى بدأت منها أعظم التحولات فى تاريخ العالم مع صلب(*) المسيح ( عليه السلام ) ، انها المدينة التى ترتبط بجدرانهـــا آلاف القصص التى وردت بالانجيـــل والتى يلتصـــق بها كل

(*) من المفهوم ان المسلمين يرون أن المسيح عليه السلام قد رفعه ربه الى السماء ـــ ( المترجم ) •

تراث ديننا ( المسيحى ) • انها المدينة التى تلطخت أحجارها بدماء آجدادنا ، الصليبيين الأول ــ انها القدس ها هى ذى أمامنا • ان عاطفة غريبة جياشة وحماسا دينيا فائقا يمتلك روح كل حاج ( مقدس ) هنا ويجعله على شفا التعصب bring him near to fanaticism . وقد بدا ذلك لى مفهوما ، لأن القدس ظلت لعدة قرون ــ وستظل الى الابد ــ مركزا لأشد أنواع التعصب • فعقيدتنا وكل التراث الذى تشربناه منذ عهد الطفولة قد انبثق ( الآن ) ليتخذ له شكلا ووجودا يحيط به عالم من الغموض والجهامة ، محمل بلعنـة تطحن كل من يعيش فى هذه المدينة وتسحقه سحقا الى الأبد • فأى شـخص يعيش فترة طويلة فى القدس لابد أن يصبح متعصبا ، فمنـذ اللحظة الأولى التى يرى فيها المرء هذه المدينة يدخل منطقة من الهوس الغامض قد تسيطر على عقله سيطرة دائمة ،تلك هى المشاعر التى جعلت الصليبيين Crusaders يوجهون كل طاقاتهم اليائسة لكل الحروب الدينية ، مع أن هـذا كان يتعارض مع مصالحهم أو حياتهم •

دعنا الآن ــ على أية حال ــ نعد لمدخلنا • لقـد ركب بعض جنود السوارى التـابعين للقنصـلية حاملين هراواتهم الطويلة فى المقدمة ، وكان لباسهم المميز ذا طابع مسرحى ، وخلفهم كتيبة من المشاة الأتراك مع فرقتهم الموسيقية • كان خليطا مدهشا ــ موكب فى القدس بموسـيقا تركيـة وعلم الهلال الفضى يحلق ! ، ثم أتى دورنا خلف هـذه الكتيبـة التركية ونحن فى ملابسنا الرسمية كاملة ، يحيط بنا الكهنة ورجال الكنائس وموظفو القنصليات وأصحاب المقام الرفيع من الأتراك والمسيحيين • وحفت الشوارع بجموع مزدحمة ، ومن الموكب بمبنى ضخم يقيم فيـه المقدسـون ( الحجاج ) الروس • آلاف الفلاحين الروس يأتون للقدس كل عام قبل عيد الفصح وعلى رأسهم كهنتهم وقد حضر منهم هذا العام ــ ألفان ، وقد وقفوا فى مجموعات ينظرون الينا • وقد رأينا

الى جانب فلاحى روسيا نفسها بأثوابهم الواسعة واحزمتهم العريضة ، وبناطيلهم الواصلةللركبة، واحذيتهم التى تغطى حتى سيقانهم . وقبعاتهم الاسطوانية وأنوفهم الفطساء Snub ولحاهم الشقراء وشعورهم الناعمــة المنسـدلة المدهــونة ، وجد سلافونيا Slavonia الشمالية الذى لا تخطئه العين ـــ رأينا الى جانب هؤلاء الفلاحين رجالا بملابسهم العسـكرية الخفيفة التى تحليها الأنواط والأوسمة .

لقد ركبنا خلال هذا الزحام اللافت للنظر حتى وصلنا الى بوابة يافا **Jaffa Gate** (*) ، فترجلنا عن دوابنــا ومررنا عبر بوابة قديمة رمادية الى داخل المدينة المقدسة .

وهنا وقف البطريرك الكاثوليكى Latin محاطا بعــدد كبير على غير المعتاد من الاكليروس وخريجى الجامعات alumni والرهبان ــ وكلهم يلبسون الأرواب ويحملون الشــموع . وكان البطريرك وتابعــوه يلبســون لحى ككل القسس فى الشرق ( يضعون لحى مستعارة ) .

وركعنا وقبلنــا الارض وبعــد صــلاة قصــيرة ألقى البطريرك ــ وهو جنوى بالميلاد ــ خطبة بالايطالية ، رددت عليها بكلمــة القيتهــا بالفرنســية . ومن ثم شرع القسس والرهبان فى الترتيل وتقدموا ــ مثنى مثنى ــ الموكب الذى تحرك ببطء ، وسرت أنا عن يسار البطريرك ، بينما ســار الدوق الكبير عن يمينه ، وتبعنا الآخرون جميعا حتى الأتراك ذوو المقام الرفيع ، والى جوار الموكب سارت ثلة من العساكر المشاة الأتراك مهمتها فى مثل هذه المناسبات أن تضمن لكل أصحاب دين أو مذهب أن يجروا احتفالهم (ويؤدوا طقوسهم) دون ازعاج من أصحاب الديانات أو المذاهب الأخرى .

---

(*) المقصود بوابة القدس المسماة بوابة يافا كما لا يخفى على فطنة القارئ ــ ( المترجم ) .

وشوارع المدينة مظلمة جدا وضيقة ، وهواؤها كهواء الأقبية يعطي شعورا بالاحباط ، فبين اسوار المدينة هواء مسمم بكل انواع الروائح المرعبة ــ ليس ما هو أكثر مدعاة للفتيان منها • وقد رصفت الشوارع ببلاطات غير منتظمة تسبب تعثر العابرين ، وتحتفظ القدس بطابعها العبرى القديم الكئيب Gloomy الذى لم يتغير ، وليس فيها ــ بشكل عام ــ شيء من تألق المدن الاسلامية وأسواقها •

الشوارع مكتظة اكتظاظا شديدا ، والطرق المؤدية الى البوابات ملأى ببشر من كل حدب وصوب : مقدسون (حجاج) أوربيون ، ويهود ومسيحيون ، ومسلمون شرقيون •

وسار الموكب في عدد من الشوارع الصغيرة Small ، وأخيرا وصلنا الى منبسط يؤدى الى مجموعة سلالم متواصلة a flight of steps فهبطناها لنكون فى مجاز ( ردهة ) كنيسة القيامة church of sepulehre • كان الفناء the court مرصوفا ومسورا من جانبين بسورين عاليين ، وفى الجانب الثالث توجد الواجهة الرئيسية facade وبها اعمدة رشيقة جدا وبوابة جميلة ذات عقد فخم • وكل ذلك يعود لزمن الصليبيين •

ان النظرة الأولى لأهم المقدسات المسيحية تترك فى كل حاج انطباعا مهيبا جليلا يزيد من عمقه الموضع : فالفناء ( الساحة ) القديم يقع أدنى ( أكثر انخفاضا ) من مستوى سائر المدينة بعدة خطوات وتحيط بها المنازل الداكنة للقدس الحزينة وفى وسط الفناء تقع كنيسة القيامة بقبابها العالية ، وقد أثر الزمن فى المبنى تأثيرا واضحا •

ويتناثر فى هذا الفناء باعة الصور المقدسة ، ووقف كثير من القسس والرهبان الروس يراقبون موكبنا ودخلنا

من البوابة الرئيسية • ان الكنيسة من الداخل مثيرة للاعجاب، لكنها تعطي انطباعا بالحزن والقسوة •

وتعبق البخور وعطر الورد جو الكنيسة الرطب المقبض الثقيل •

وثمة بوابات مصليات صغيرة ( جمع مصلى Chapel ) الى اليمين والى الشمال ، ودرجات ( سلالم ) واماكن مرتفعه مخصصة للمنشدين والمرتلين والكهنة Choirs ، وسرعان ما يرى الحاج ( المقدس ) أن بيت الله العظيم هذا ما هو الا ملتقى لمذاهب شتى وطرائق عبادة مختلفة ، وكحل وسط لهذا الاختلاف تم تخصيص مكان لكل مذهب أو جماعة لتؤدى فيه طقوسها بعيدا عن أصحاب المذاهب الأخرى • وفي وسط الكنيسة بين صالة دائرية يوجد مصلى chapel واحد ، بمثابة معبد temple قائم بذاته ، انه المصلى الحقيقي للمقبرة ( المدفن ) Sepulchre وهو تابع ( أى المصلى ) للكنائس الشرقية والكاثوليكية Eastern and Latin وترتبط عقائد كل المذاهب القديمة بها • أما المذاهب المسيحية الأحدث ـ البروتستنطية والعقائد الشبيهة ـ فهى وحدها المستبعدة ( لا يسمح لها بممارسة الشعائر هنا ) •

وقبل أن نصل الى مصلى الدفن Chapel of the Sepulchre ركعنا جميعا بالقرب من الحجر المكعب العظيم الذى تم تعطير المسيح عليه ( قبل دفنه ) Stone of anointing وكان محوطا بشمعدانات ثقيلة ـ وانطرحنا أرضا وقبلناه ( أى قبلنا الحجر ) • انه الحجر الذى عطر فوقه نيقوديموس Nicodemus جسد المسيح قبل الدفن ، ففى الكتاب المقدس (*) : « ولما كان المساء اذ كان الاستعداد ، أى ما قبل السبت جاء يوسف

---

(*) فضلنا نقل ما يقابل النص الذى أورده الارشيدوق ردولف من الاناجيل العربية مباشرة • ( المترجم ) •

الذى من الرامة Arimathaea مشير شريف a disciple of jesus وكان هو ايضا منتظرا ملكوت الله فتجاسر ودخل الى بيلاطس Pilate وطلب جسد يسوع ، فتعجب بيلاطس انه مات كذا سريعا فدعا قائد المائة وساله : هل له زمان قد مات ؟ ولما عرف من قائد المائة وهب الجسد ليوسف فاشترى كتانا فانزله وكفنه بالكتان ووضعه فى قبر كان منحوتا فى صخرة ودحرج حجرا على باب القبر » .

مرقس ١٥ : ٤٢ ــ ٤٦

« ثم ان يوسف الذى من الرامة وهو تلميذ يسوع ولكن خفية ــ لسبب الخوف من اليهود ــ سأل بيلاطس ان ياخذ جسد يسوع ، فاذن بيلاطس فجاء وأخذ جسد يسوع ، وجاء أيضا نيقوديموس الذى أتى أولا الى يسوع ليلا وهو حامل مزيج مر وعود نحو مئة منا ، فأخذ جسد يسوع ولفاه بأكفان من الأطياب كما لليهود عادة أن يكفنوا ، وكان فى الموضع الذى صلب فيه بستان ، وفى البستان قبر جديد لم يوضع فيه أحد قط فهناك وضعا يسوع لسبب استعداد اليهود لأن القبر كان قريبا » .

يوحنا ١٩ : ٣٨ ــ ٤٢

« وفى المساء جاء رجل غنى من الرامة يدعى يوسف وكان هو أيضا قد تتلمذ ليسوع ، وتقدم الى بيلاطس وطلب منه جسد يسوع فأمر بيلاطس بتسليمه الجسد . فأخذ يوسف الجسد ولفه فى كتان نقى وأسجاه فى قبره الجديد الذى كان قد نحته فى الصخرة ثم دحرج حجرا كبيرا على باب القبر ومضى ، وكانت هناك مريم المجدلية ومريم الأخرى جالستين تجاه القبر » .

ــ انجيل متى ــ الترجمة الجديدة ( لجنة ترجمة الكتاب المقدس . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٢ ) الفصل السابع والعشرين ــ ص ١٢٤ .

وانتهت طقوسنا فتقدمنا الى مدخل مصلى الدفن the Chapel of the Sepulchre . لقد ظل هذا الموضع الصغير لفترة طويلة قصرا على الكنائس الشرقية ، والأثر اليوناني واضح فيه بجلاء سواء في داخله أم في خارجه ، وهو محلى بالذهب والفضة وبه صور سوداء للقديسين ، وله كل السمات الخاصة التي تميز الكنيسة الشرقية الأورثوذكسية ٠

وسمح بالدخول الى المصلى Chapel بصحبة البطريرك فدخلنا عبر بوابة منخفضة بحيث يتعين على الداخل أن يزحف — بكل معنى الكلمة حتى يصل الى ضريح العقيدة المسيحية وتظهر الصخرة الجرداء بين زينات خصبة فوقنا هذه الصخرة العارية ، لانها الصخرة نفسها التي دفن فيها المسيح ( عليه السلام ) the Son, of God was laid ٠

وطغى على المكان اريج الزهور والبخور والابهة اليونانية وضوء المصابيح الضارب للحمرة وهمهمة الصلوات الكاثوليكية ( اللاتينية ) ٠ لقد بدا هذا القبر الضيق وكأنه العالم كله ، انه مهد عقيدتنا ( المسيحية ) ٠ ان الحاج يضغط بحماس اعتقادي — بشفتيه الحارتين على هذا الحجر العاري ، ويبثه عواطفه الحارة ويتحدث ( اليه ) براحة وقوة وأمل ٠

وبعد دقائق قليلة آخرجنا البطريرك مرة اخرى فركعنا جميعا امام مصلى المدفن ، بينما كان القسس والرهبان يرتلون التراتيل المقدسة التي تردد صداها بين الصالات المهيبة ٠ واستأذنا من البطريرك عند باب مصلى الدفن ٠ وقد رغبنا أن نؤدي صلواتنا الأولى عند هذه البقعة المقدسة واقترحنا أن نزور الكنيسة ونتفحص تفاصيلها في اليوم التالي ٠ لذا فسوف اقدم وصفا سريعا لها بعد ذلك ، أما الوصف التفصيلي فقد يحتاج الى دراسة مستقلة ٠ اننا الآن نمر خلال بعض الشوارع الأكثر ضيقا الى مركز الضيافة hospice النمساوي مصحوبين بالمسئولين الأتراك ٠ ومركز الضيافة

النمساوى هذا عبارة عن مبنى واسع وبه أماكن للاقامة ذات غرف وملحق به مصلى chapel جميل جدا . ووصلنا لبوابة المبنى بعد صعود درجات سلم ، واستقبلنى مسئول المقر وهو قس من التيرول Tyrolese جدير بالاحترام .

وبعد وصولنا مباشرة ، كان علينا أن نستقبل القنصل ثم المسئولين الأتراك، وحاكم المدينة ، وكانوا جميعا فى ثيابهم الشرقية ، وبعد ذلك استقبلنا رؤساء كل الكنائس المسيحية، ورؤساء الطوائف اليهودية . وأتى البطريرك الكاثوليكى *Latin* ومعه القسس والرهبان ، وأتى البطريرك اليونانى ومعه باباواته his popes ، ثم أتى رجال الدين الأرمن فالأقباط فالبطريارك السورى . وتعتبر الكنيسة السورية هى اكثر الكنائس لفتا للنظر . ويمثلها فى القدس رجل وقور ذو لحية داكنة جاء فى طيلسان أسود يتدلى من غطاء رأسه البابوى حجاب . وعقيدة اليعاقبة القديمة Jacobeans وهى — على حد علمى — أول العقائد التى انفصلت عن الكنيسة الأولى فى عصور المسيحية الأولى . ولازال لها أتباع حتى فى آسيا الصغرى ، واليعاقبة يوقرون القديس جيمس James أكثر من توقير الكنائس الأخرى له .

وأخيرا زارنا الحاخامات اليهود rabbis وكان على رأسهم كبيرهم يرتدى زى طبقته الكهنوتية السائد بين يهود هذه الأيام . هذا الرجل العجوز بلحيته الطويلة البيضاء وبشرته الشمعية الصفراء وملامحه الرقيقة كان قد ولد فى إسبانيا وارتدى — كمعظم الحاخامات المقيمين فى فلسطين — اللباس اليهودى ( العبرى ) القديم : نعل أصفر ، وثوب طويل وعمامة وعباءة يزينها الفراء . وكنت أتخيل دائما أن الفريسيين (١) Pharisees لابد أن منظرهم كان كمنظر هؤلاء الحاخامات rabbis .

وبعد أن غادرنا هؤلاء الزوار الذين كان منظرهم شائقا طريفا غادرنا مقر الضيافة النمساوى ( الآنف ذكره ) مخترقين شارعا يؤدى الى بوابة دمشق القديمة · ونصبت خيامنا خارج البوابة مباشرة بين بساتين نخيل فريته ( لم تتم نموها الطبيعى ) بالقرب من مواضع حجرية واكوام من بقايا مبان خربة · وتركنا خيولنا ودوابنا بالقرب منا · ونام رجالنا على الأرض ، ونام الخيالة الأتراك الذين رافقونا ـ للحراسة ـ من يافا بالقرب منا فى معسكر مؤقت بالعراء ، واقام جنود مشاة القدس كردونا ( سياجا ) حول المعسكر كله حتى لا يزعجنا العامة ـ خاصة من المسيحيين واليهود ـ بأكوام من طلباتهم والتماساتهم ·

لقد سعدنا بالراحة بعد أن عانينا هذا اليوم من الحرارة والارهاق ، وأعاد الهواء المنعش ومنظر الشمس الغاربة الينا الراحة وبعد أن تناولنا العشاء عم السكون المعسكر ، وظل نباح الكلاب نصف المتوحشة يصل الى أسماعنا عبر أسوار المدينة ، بالاضافة الى أصوات الضباع التى جذبتها بقايا الذبائح التى ذبحت فى موضع لا يفصله عن معسكرنا الا واد ضيق صغير ·

وفى الصباح الباكر لليوم الثلاثين من الشهر ذهبنا جميعا سادة وخدما الى مقر الضيافة النمساوى الآنف ذكره حيث تلقى القس الملحق بالمقر ، وبعض الفرنسسكان الذين يتحدثون الألمانية الاعتراف من كل مجموعتنا ، ثم انطلقنا الى كنيسة القيامة حيث أقام القس آنف الذكر القداس ووزع العشاء الربانى Communion علينا جميعا · وبعد القداس بدأ القس يبارك الأشياء العديدة التى اشتريناها كتذكار والتى وضعناها على حجر المدفن ·

ولما غادرنا مصلى المدفن ذهبنا لنرى الكنيسة الكبيرة نفسها ، وعبرنا مصلى آخر صغيرا خاصا بالفرنسسكان الى

دير فرنسسكاني صغير متصل أيضا بمبنى كنيسة القيامة ، ووصلنا — بعد أن مررنا بسلالم ضيقة وغـرف قذرة ذات هواء خانق بشكل لا يطاق — الى صومعة متواضـعة تسـمى حجرة الطعام فاستضافنا الرهبـان الودودون وقدموا لنـا شيكولاتة طيبة .

واثناء تناول الافطار وصف لنا راعي تراسنتا Terra Santa العداوة والصراع التي تكاد تكـون متصلة والتي تسود بين مختلف المذاهب ( المسيحية ) ، والتي تتجاوز — في بعض الأحيان الكلمات الى الأفعال ، واذا حدث هذا داخـل الكنيسة ، فان العساكر الأتراك غـير المسـيحيين يتدخلون بفعالية لضبط النظام . لقـد تحـدث القس ثابت الجنـان بشجاعة وألقى اللوم كله — بعبارات قوية — على المسيحيين الشرقيين . ومن الصعب أن نقرر على أية طائفـة مسيحية يقع اللوم الأكبر ، لكن المؤكد أن هذا الاختـلاف المسـتمر لا يجعل الأتراك يقبلون على اعتناق المسيحية ، وبعد الافطار استعرضنا الدير كله . لقد كان الرهبان يعيشون في صوامع بائسة وليس أمامهم — لشم الهـواء النقي — الا شرفة فوق السطح ، وهذا الدير الفرنسسكاني الصغير ومقار الاقامة المخصصة للقسس اليونانيين والأرمن — في الجانب المقابل للدير في الكنيسة — أي انها جميعا تقع داخل حدود كنيسة القيامة التي ليست لها الا بوابة واحدة لا يفتحها الا الأتراك الذين يحكمون سيطرتهم عليها في المناسبات المهمـة وعنـد وصول عدد كبير من المقدسين ( الحجاج ) وذلك اذا طلب كل البطارقة أو أحـدهم ذلك . وفي الفترات الفـاصلة ( بين المواسم والمناسبات الدينية ) تظل الكنيسـة مغلقـة غالبـا لأسابيع بل ولشهور ، وفي هـذه الأثناء تفرض حراسـة مشتركة من الداخل وتتم مراقبتها بعيون حذرة . وليست ثمة بوابة أخرى للكنيسة تفضي للمدينة سـواء عن طـريق الدير الكاثوليكي Latin البائس أو من المناطق المخصصـة

للمسيحيين اليونانيين ، فكلتا الطائفتين ( الكاثوليك واليونانيين ) مضطرون للتزود باللحوم والشراب عن طريق سلال ينزلونها ( بحبال ) من خلال النوافذ وبالقرب من ممار هؤلاء الحراس الكنسيين ممرات تدور داخل الكنيسة ، ومنها يمكن لرجال الدين المنوط بهم حراسة الكنيسة معرفة كل ما يجرى بالداخل ٠

لقد هبطنا من الذين الموجود داخل الكنيسة وتفحصنا كل المواضع التاريخية وكل المصليات Chapels الجانبية وكل المواضع المرتبطة بالقصص الديني والجوانب العقائدية ٠ ان المرء يجمع كما كبيرا من الأفكار والمعلومات التراثية هنا ٠ انه من السهل أن يرى المرء أن هذه المباني المختلفة تعود لحقب بعيدة مختلفة وأن كثيرا منها له خصائص عمارة العصور الوسطى ٠ والمصليات الفردية والأضرحة ـ ويوجد منها عدد كبير ـ تختلف في طابعها وفقا لأصحابها ( ملاكها ) ، فبعضها كاثوليكي ( لاتيني ) تماما ، وبعضها الآخر أرمني أو سوري أو قبطي ، وان كان أغلبها أرثوذكسي يوناني وهذا النوع الأخير مزين بالذهب والفضة ويغص بصور القديسين البيزنطية الداكنة ٠

وعند الحديث عن كنيسة القيامة اكتفيت بتسجيل الانطباعات والمناظر التي حفرت في ذاكرتي بحيوية ولم أحاول الخوض في الوصف التفصيلي لها ، لأن ذلك يحتاج لدراسة تمهيدية تستغرق جهدا يحتاج لوقت طويل ، كما انه يمكن الالمام بوصف مفصل ودقيق لها ـ لمن أراد ـ من خلال بعض الكتيبات الارشادية ٠

ولم أترك آية بقعة في الكنيسة الا زرتها فرحت أصعد سلالم وأهبط سلالم أخرى ، وغالبا ما كان مسيرى على بلاطات ( ألواح حجرية ) غير جيدة الرصف وغير منتظمة بآية

حال من الأحوال . وفي كل مكان . خاصة عند الأضرحة اليونانية رأينا عددا من المقدسين (الحجاج) الروس يصلبون أنفسهم دوما بين كل سجود وآخر .

ثم تفقدنا دير القديس سالفاتور Salvator الفرنسسكاني الكبير القريب ولم يكن فيه كثير مما يستحق الرؤية فقد كان ديرا فقيرا جدا ليس به الا كنيسة ومطعم وبعض الصوامع لذا ، فقد كانت زيارتنا الحقيقية لرهبانه . وكانت زيارتنا التالية للبطريارك وقد استقبلنا في بيته المحوط بعدد كبير من رجال الدين التابعين له . ومسكنه كمساكن رجال الدين في الجنوب أجرد قليل الأثاث وثمة بعض الستائر الممزقة هنا وهناك ، والأرضية من ألواح حجرية ، والجدران مزينة بصور دينية من الفن الايطالي . والمصلى والساحة والسلم العريض ، كل ذلك بسيط غاية في البساطة ويبين كيف ان أمراء الكنيسة الكاثوليكية Latin في الشرق أبعد ما يكونون عن الثراء .

وفي بيت البطريارك الجليل كان علينا أيضا أن نلتزم بالعادة الشرقية المرعبة وهي أن نتناول مشروبا عند كل زيارة . لقد بدأنا بالشيكولاتة عند الفرنسسكان ، أما هنا ( عند البطريارك ) فكان علينا أن نتجرع شراب الليمون وعصير اللوز وكلاهما كان تفه المذاق ( غير مستساغ ) ، وكان ما هو أسوأ في انتظارنا في الصباح .

واقتربت مني فتاة مسيحية من هذه الأنحاء على سلم بيت البطريارك . كانت شرقية خالصة ، ترتدي اللباس اليهودي القديم وتضع فوق رأسها غطاء رأس أبيض ، ولم تكن محجبة . كان منظرها مدهشا وملامحها دقيقة وقوامها رشيقا وسحنتها شاحبة . انه أفضل نموذج لمن يريد أن يتصور المجدلية Magdalen . وقد سلمتني ملتمسا واختفت بين صفوف الأعمدة ( في الرواق ) .

وسرنا في الشوارع الضيقة المزدحمة بالبشر ، في طريقنا الى البطريارك السورى • مقدسون ( حجاج ) كثيرون وتجار مسلمون ومتسولون ذوو منظر بشع ، يملاون جوانب الطرقات ، واستقبلنا البطريارك السورى فى ثوب أسود عند مدخل الكنيسة ، وكان قسسه يلبسون جميعا الملابس السوداء التى يلبسونها عند أداء القداس ، ويضعون فوق رءوسهم أغطية رأس كتلك التى يراها المرء فى صور الفترة المسيحية الباكرة ، ويحملون فى أيديهم مشاعل • ودخلنا الكنيسة بوقار بين القسس وصبية الخورس ( المنشدون فى الكنيسة ) وكانوا يلبسون ملابس كملابس القسس ، وقد أنشدوا ــ بالسريانية (*) ــ النشيد الوطنى •

والكنيسة نفسها تشبه الكنائس اليونانية ، فهى ثرية فى الزينات الذهبية والفضية وباسراف ، ومع هذا فلها بعض الخصائص التى تميزها عنها (عن الكنائس اليونانية) كما أن بها مقبرة خاصة للمتحمسين للقديس جيمس S. James .

ومذبح هذه الكنيسة مرتفع جدا ، وفي مصلى جانبى بين حجر يستقر رأس القديس جيمس ويوقره أتباع هذه الكنيسة كثيرا الى حد التأليه almost as a divinity . والمحراب بما فيه من آثار مقدسة مزين بزينات ثرية كما هو معتاد • وبالقرب من المذبح يوجد عرش مذهب مرتفع يمر به القسس ويشيرون اليه بأعمق درجات التوقير • انه مقعد القديس جيمس ، وعلى هذا المقعد يتم دائما تتويج هذا القديس ، لكن ذلك ــ بطبيعة الحال ــ يتم بشكل غير مرئى invisible .

وثمة حجاج ( مقدسون ) كثيرون فى هذه الكنيسة التى تعتقد مثل هذا الاعتقاد ، ويتضح من نظراتهم أنهم ترك أو مسلمون •

---

(★) النص In Syrian وما أوردناه فى المتن هو المقصود غالبا ــ ( المترجم ) •

وتحركنا في موكب وقور من الكنيسة عبر رواق الى منزل البطريارك وكان بسيطا كما أنه ـ غالبا ـ غير ماهول، وبه كنبة في احد الأركان ، وثلاثة مقاعد تدعو للانقباض في الاركان الثلاثة الأخرى . واستقبلنا الرجل الوقور العجوز بحرارة واضطررنا لابتلاع شراب أحمر بلون الورد، لا يمكن وصفه .

**الحى اليهودى :**

وبعد زيارة قصيرة غادرناه الى الحى اليهودى . تمتد بعض الأسواق في القدس يسيطر عليها اليهود ، ويتمثل مقر اقامة الشعب المختار ( الجنس المختار ) فى تجمعات فى حوار طويلة مليئة بالمحلات التجاريه . قذارة ، ووسخ وروائح نتنه وضوضاء ـ لا يستطيع المرء الا بشق النفس معرفة مصدرها . أطفال نصف عراة يتعثرون على أحجار الشوارع. والنسوة اليهوديات ترتدى الواحدة منهن وشاحا ( غطاء رأس ) غير مهندم وتلفه حول رأسها المجزوز Shorn head وقد اطللن من النوافذ ، والرجال اليهود يبيعون ويشترون ويساومون ويغشون cheated . وثمة يهود من كل أصقاع العالم هنا لكن قليلين منهم يلبسون الملابس المعتادة ، وكثير من اليهود البولنديين يلبسون التالار latar (؟) وأحذية برقبة وطواقى من فرو، وان كانوا جميعا فى زى شرقى يشبه زى اليهود القدماء . ويمكن للمرء أن يسمع كل اللغات هنا ، وان كانت الألمانية والعبرية هما السائدتان .

ومررنا بمشقة بين هذا الزحام لنصل للكنيس ( المعبد اليهودى ) فاستقبلنا الحاخام وكبار رجال الدين ( اليهودى ) وهم يلبسون ملابس آلمانية وقدموا مقاعد لنجلس فى المعبد. كان الكنيس جديد البناء ويبدو كالمعابد اليهودية فى بلادنا، وكان عدد قليل من اليهود الحاضرين يرتدون ملابس جميلة فمعظمهم كان يلبس القفاطين ويبدون بولنديين ، وبينما كنا

جلوسا أنشدوا أنشودة دينية(*) ورتلوا الدعوات (الصلوات) بطريقتهم الطريفة المقرونة بالحركات العصبية وعيونهم المتحولة ، وسرعان ما غادرنا متبوعين ببركات الكنيس المفرطة !

ولما كانت كنيسة القيامة مفتوحة فقد كان الزحام شديدا في الشوارع ، فالناس يتحركون تحركا لا يكف جيئة وذهابا ، مشكلين خليطا مدهشا من الأجناس : روس وبلغار وفاليشيين Wallachians وأرمن ومواطنو آسيا الصغرى ويونانيون واقباط والمقدسون ( الحجاج ) الكاثوليك Latin .

وبعد أن تناولنا افطارنا في معسكرنا ركبنا الخيول متتبعين الأسوار الداكنة القديمة لكنيسة الله Sacred Zion الى مسجد عمر الرائع . والحرم الشريف عبارة عن مساحة واسعة محوطة بالاسوار . والمسجد الرئيسى قبة الصخرة يقع في وسط هذه المساحة بقبته الشامخة وأروقته وأعمدته وصالته ( صحنه ) المثمنة ــ انه أحد أكثر المباني الاسلامية شهرة . ويوجد بين مبنى المسجد الرئيسى والمباني المتاخمة لجدرانه ( الملاصقة لها ) بقايا أثرية صغيرة مختلفة آيلة للسقوط وآبار . والمعلم الأساسي بينها هو المسجد الأقصى المتسم بكثير من الجمال ، وكان كنيسة تم بناؤها في عهد الامبراطور جستنيان تخليدا لذكرى مريم ( العذراء ) وبعد ذلك جعله عمر بن الخطاب ( رضى الله عنه ) مسجدا .

وقد تفقدنا هذا المسجد بارشاد كبير الدراويش the chief dervish ، الذى يلبس لباسا ناصعا لكنه يبدو مسلما عجوزا غير قدير . والناس في فلسطين ــ كما هو الحال في كل البلاد الاسلامية في آسيا أكثر تعصبا بكثير مما عليه الناس في

---

(*) تكملة العبارة on their circular estrade ولم نفهم المعنى المقصود . ( المترجم ) .

مصر ، لذا لابد أن يكون المسافرون حذرين مخافة جرح مشاعرهم • لقد تفحصنا المسجدين بعناية ، وفي وسط المساحة المثمنة آنفة الذكر توجد كتلة صخرية ضخمة اقيم المسجد the temple حولها ، وهذه الصخرة تعتبر خير شاهد على التشابه الكبير بين التراث الديني الشرقي ، فحتى اليهود يوقرونها • وقد ذكرها التلمود والتراث اليهودى يفيد ان ابراهيم ( الخليل ) وملكيصادق Melchisedek (٢) قد ضحوا هنا ، وهنا كان ابراهيم ( الخليل ) على وشك أن يذبح ابنه اسحق Iseac (*) وأن يعقوب ( عليه السلام ) كان أيضا يجله • وموقع تابوت العهد هنا ، ويعتقد اليهود انه مازال موجودا فى المكان نفسه الذى خبأه فيه Jeremiah .

ويعتقد أن هذه الصخرة هى مركز العالم ، وان كان هناك اعتقاد آخر هو أن كنيسة القيامة هى مركز العالم وقد حدد المركز بوضع حجر صغير عليه داخل الكنيسة •

وانها لحقيقة طريفة أن المسجد الكبير يقع فوق معبد سليمان ، وأن المسلمين يؤمنون بكل التراث اليهودى وأضافوا اليه تراثا آخر خاصا بهم • فالمسلمون يقولون ان هذا الحجر يسبح فى الهواء دون ( دعامات تحته ) فوق هاوية ، وليبينوا لك ذلك فانهم يصحبونك الى مساحة مجوفة تحت المعبد ( المسجد ) حيث ترى بقايا الجدران القديمة التى تعود للعصر اليهودى • ويريك المسلمون أيضا مواضع صلاة داود ( عليه السلام ) وسليمان ( عليه السلام ) وابراهيم ( عليه السلام ) والياس ( عليه السلام ) ، وهنا أيضا ترك محمد ﷺ أثر رأسه ( أثناء الصلاة ) •

واذا أردنا احصاء كل الأساطير myths المرتبطة بهذه البقعة المهمة كل الأهمية ، فى العقائد الآسيوية ، فان ذلك

(*) كان الخليل ابراهيم عليه السلام على وشك ذبح ابنه اسماعيل ، عليه السلام. وكان ذلك فى مكة المكرمة كما هو معروف لدى المسلمين ــ ( المترجم ) •

سيكون عمـــلا شاقا مرهقا ، ولـــكن لـــكي نبين كيف أن كل العقائد التي نشأت في الشرق ترتبط معا hang together يمكننا أن نتذكر أن هذه الصخرة ـ وفقا لما يقوله المسلمون ـ هي البقعة التي سينصب فيها ـ يوم القيامة ـ عرش الرحمن، وستأتي الكعبة ( المشرفة ) من مكة الى الصخرة (في القدس)، فهنا سينفخ في البوق ( الصور ) ويبدأ الحساب • وفي أيام الاسلام الباكرة كانت هـــذه البقعـــة بأهميـــة مكة نفسها ومن هذا الحجر صعد ( عرج ) محمد ﷺ للسماء ، وكان على جبريل أن يعيد الحجر لمكانه لأنه ( أي الحجـــر ) كان ميالا للتحليق مع محمد ﷺ وقد أطلعونا هنا على شعر ذقن النبي ﷺ ورايته ، وكذلك شـــعر عمر ( رضي الله عنه ) ورايته ، ودرع حمزه ( رضي الله عنـــه ) عم عمـــر ( رضي الله عنه ) ( كذا ) ، كما أرونا بعض نسخ جميلة من القرآن ( الكريم ) وقد لاحظنا أيضا الفسيفساء mosaics ذات الأهمية الكبيرة في تاريخ الفن ، وبعض النوافذ الزجاجية الجميلة ، وبعض النفائس المعمارية مما لا مجال لذكره هنا •

وعلى أية حال ، فلابد من ذكر الكتابات الكوفية القديمة ، وآيات القرآن ( الكريم ) المنقوشة على الجدران بخط جميل • والتي تشير للمسيح ( عليه السلام ) من وجهة نظر القـــرآن ( الكريم ) :

**« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتـــاب ولم يجعل له عوجا(١) قيما لينذر بأسا شـــديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا (٢) ماكثين فيه أبدا (٣) وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا (٤) ما لهم به من**

---

(١) سورة الكهف/مكية ، وقد نقل الارشيدوق رقم السورة خطأ xvii والصحيح xviii كما ترجمت له الآيات مبتسرة هكذا :

Praise be to God who has had no Son anr none to shave his government, and no helper to save him from dishonour, praise him", etc. ( المترجم )

**علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا (٥) » (١) .**

وأتينا لمكان مكشوف وذهبنا للجدار الخارجي . انه يهبط ـ بشكل عمودى ـ الى مسيل صخرى عميق ، وهنا يمكن رؤية منظر رائع عبر أرض مسطحة الى جبال الاردن والبحر الميت . ولفتت نظرنا البوابة الذهبية فى الجدار ، وقد اخبرتنا الحكايات اليهودية المتعلقة بحياة المسيح عنها وقد ملأها المسلمون حتى آخرها بالأحجار لأن هذه البوابة ـ وفقا لاعتقادهم ـ ستكون المدخل الذى سيدخل منه ملك وسيم قادم من الغرب ليقتحم مسجد عمر ويضع نهاية لحكمهم .

وغادرنا هذه البقعة الشائقة جدا بعد زيارة طويلة ، انها الموضع الذى يقع فيه المعبد اليهودى القديم وقصر سليمان ومركز اشعاع المملكة اليهودية المتقدمة حضاريا . وهنا أيضا ـ فى وقت لاحق ـ علم المسيح ( عليه السلام ) ، وكثير من أفعاله وأقواله المرتبطة بعقيدتنا مرتبطة بدورها بهذا المكان ، وبعد ذلك دخل الرومان المنتصرون هنا وذبحوا اليهود . وهنا يقع معبد جوبيتر Jupiter وأصبح فى عهد جستنيان البيزنطى كنيسة ، وأخيرا أتى الاسلام وجعل منه مسجدا فسيحا ، وهكذا اختلطت عقائد الديانات الثلاث وتراثها فى أيامنا هذه بهذه البقعة اختلاطا غريبا ، لتذكرنا بأنها جميعا ديانات شرقية .

ومسجد عمر جعلنا أيضا نتذكر لوحة رافائيل Raphael الشهيرة عن زواج العذراء .

ومررنا محاذين لحائط المبكى اليهودى، حيث لا يزالون يذهبون لينعوا مملكتهم المفقودة وخرائب معبدهم ، وعبرنا المدينة الى كنيسة القيامة سالكين الشارع المعروف بطريق الآلام Via Dolorosa ، وكان قد تجمع هنا عدد كبير من الحجاج الكاثوليك وسلمونا جميعا شموعا مضيئة وتحركنا فى موكب على رأسه الفرنسسكان من بقعة مقدسة الى أخرى

مقدسة ، وكنا نرتل الاناشيد ونحن سائرون ، وعند المواضع المحددة نركع ونكرر الدعوات ( الصلوات ) ، واستمرت هذه الدورة ( الجولة ) ساعة ، لقد أضاءت المشاعل الكنيسة المعتمة بضوء باهت وعم صوت التراتيل الرتيب ، وانتشرت روائح البخور القوية ، والقى كل ذلك على أرواحنا شعورا باطنيا غامضا • جحافل من المقدسين ( الحجاج ) ينضمون يوميا الى مثل هذا الموكب المرتبط بمنح الغفران الكاثوليكى على نطاق واسع •

وعدنا لمعسكرنا لنركب خيولنا وندور حول المدينة ( القدس ) • وفى مساء مقمر رائع مررنا بمقابر الملوك وقبر Absolom ورأينا حقل الدم Aceldema ووادى قدرون Kedron وكان مهجورا حجريا عابسا بعظمة ــ رأينا كل ذلك فى المواقع نفسها التى حددها الكتاب المقدس •

ودنا الفجر وتشبعت أرواحنا بمشاعر عظيمة ، فعدنا ببطء بين الجدران القديمة الى معسكرنا •

وفى ٢١ مارس ذهبنا جميعا الى كنيسة القيامة لنستمع الى القداس فى مصلى جانبى واستقبلنا راعى تراساننا Terra Santa عند المدخل ، وقادنا لنصعد الى مصلى مظلم حيث كان هناك مذبحان يفصلهما شبك حديدى أحدهما مسطح وبسيط وهو المذبح اللاتينى ( الكاثوليكى ) والآخر مزين بالفضة اللامعة وهو المذبح اليونانى ، والمذبح الأول ( الكاثوليكى ) يقع حيث جلست العذراء مريم عند الصلب ، أما المذبح الثانى فيحمل اسم جولجوثا Golgotha ، وبدت الصخرة العارية بين المذبح اليونانى ، وأثناء القداس اللاتينى ( الكاثوليكى ) أقبل مقدسون ( حجاج ) كثيرون خاصة من الفلاحين الروس ليقبل الواحد منهم فى اثر الآخر ــ هذه البقعة المقدسة ، فحذونا حذوهم وكان قسسهم يرشوننا

باسراف بماء الورد المقـدس ــ أثناء ذلك ، وكان المصـلى الاورتوذكسى مجللا بالسواد لانهم بعد ساعة سيقيمون القداس على روح القيصر اسكندر الثانى •

وغادرنا الكنيسة بعد ذلك وذهبنا بعد أن مررنا بشوارع عدة الى دير الراهبـات الذى أسسـه القس المشـهور الاب راتينسبون Ratinsbonne وتقع كنيسته على the place Ecce Homo وليس فيها ما يلفت الانتباه فمبناها جـديد على النسق الفرنسى مطلية باللون الأبيض المتالق ومبنـاها ليس جليلا ولا مؤثرا، اذ يبدو كاماكن العبادة البروتستنطية ، وقد ألحقت مدرسة للبنـات بالدير ، وهى مؤسسـة تعليمية نبيلة حقا لذا، فان هذا القس الجليل يستحق الاشادة ، والمدرسة نظيفة جدا وجيدة الترتيب ، وتقـدم خدماتهـا التعليميـة للأطفال الأغنياء والفقراء على سواء ، ومعظمهم من المسيحيين ، لكن القس المتسامح يسمح للبنات اليهوديات والمسلمات أن يقتسمن مع زميلاتهن المسيحيات نعمة التعليم •

وألقينا نظرة عـلى منظر جبـل الزيتـون الرائع وعلى المنطقة المحيطة بالقدس من فوق سطح المنزل • وفى غـرفة الاستقبال كان علينا أن نشرب عصـير الليمـون المعتاد ، ثم ذهبنا الى مصلى مجاور هو مصـلى ( كنيسـة صـغيرة ) الآلام Scourging (؟) ، وبعد طرقات عدة على باب متهالك فتح لنا راعى هذا المكان المقـدس • لقـد كان فرنسسكانيا عجوزا غير مهندم ولد فى اسبانيا ، وقادنا الى سـاحة خربة داخل المصلى Chapel الصغير الذى بنى سـنة ١٨٣٩ وفى المذبح يوجد الثقب الذى ثبت فيه عمود الجلد •

وبعد ذلك ذهبنـا للمبـانى الحـكومية لتقديم واجبات الاحترام للباشا والوالى governor ، وفى سـاحة مبنى شرقى قديم اصـطف حرس الشرف مسـتقبلا ايانا بعزف

الموسيقا ودخلنا غرفة الاستقبال في الطابق الأول . كانت الارض مفروشة بالحصير والجدران عارية ، اما الكتب فكان مغطى باقمشة فاخرة وممتد على طول الجدران الأربعة ، ولم يكن من أثاث آخر في الغرفة الا هـذا الكتب ، وأحسسنا بالسرور لأننا سنجلس جلسة شرقية واستمتعنا بالقهوة التركية الممتازة ودخنا السجائر والتوباكو المجلوب من لبنان، وبعد انتهاء الزيارة القصيرة استأذنا الباشا وغادرنا المباني الحكومية ، مودعين بعزف موسيقا الأبواق كما دخلنا .

**العلية وزيارة لسلالة عثمان رضي الله عنه :**

وكانت زيارتنا التالية لموقع العلية Coenaculum أو موضع العشاء الأخير الذي يقع في منزل ــ على حافة المدينة ــ قديم جدا ، لكنه الآن ذو طابع اسلامي تماما ، واطلعونا في المنزل نفسه بين الأحجار والنفايات على قبر داود ( عليه السلام ) وهو مكان يحظى باحترام المسلمين ، وهذا المنزل ملك لأسرة تنحدر من سلالة عثمان ( رضى الله عنه ) وكانت في وقت من الأوقات أسرة ثرية ، وأفراد هذه الأسرة يعيشون في فقر مدقع ولكنهم يلبسون عمائم خضرا كبيرا حجمها وملابس زاهية لكنها بالية شيئا ما .

وفي ذكرى جدهم العظيم ( عثمان رضى الله عنه ) استقبلونا بطريقة تنم عن تنازلهم وتعطفهم باستقبالنا رغم روح الصداقة التي أبدوها ، ولم يجعلوا للزيارة طعم تفقد أثر تاريخي في هذا الموقع ، وانما عاملونا وكأننا قد أتينا لنقدم البيعة أو واجبات الاحترام لهم ، باعتبار أن أحدا ما لا يجهل قدرهم . وكان علينا أن تجلس عندهم على كنب قذر في ممر نصف مفتوح وأن نشرب القهوة في أكواب قذرة وأن تدخن السجائر . وهؤلاء الناس ذوو ملامح نبيلة ومتميزون على نحو لا تخطئه العين ، وكانوا يلبسون لحى طويلة وراحوا يقصون ــ بالعربية ــ حكايات تثير الشفقة والرثاء لم تكن

نستطيع أن نتجاوب معها الا بابتسامات ودودة . كانت الزيارة قصيرة ثم ركبنا خيولنا التى كانت فى انتظارنا خارج البوابة التالية .

وعاد الدوق الكبير والآخرون الى المعسكر ، واتخذت أنا والكونت كابوجا Caboga الطريق الشاق فى وادى قدرون Kedron . وفى هذا الوادى الكئيب العابس عدد هائل من القبور ، وحتى فى زمن اليهود كان هذا الوادى يعد غير نظيف بما يتناقض مع تل المعبد المجاور له . والتراث السابق على المسيحية يفيد أن الحساب ( فى الآخرة ) سيعقد هنا ، ويشارك المسلمون اليهود فى هذا المعتقد ويدفنون موتاهم فى الجانب الشرقى للحرم بينما يلتزم اليهود بالدفن فى المنحدرات الغربية لجبل الزيتون .

وكلاهما ( المسلمون واليهود ) يعتقد أنه عند النفخ فى الأبواق ( النفخ فى الصور ) معلنا قيام الساعة (يوم القيامة) سوف تتراجع التلال لتهيىء للأعداد الهائلة من الجثث التى ستبعث من موتها ـ مكانا ، أما المسيحيون فيعتقدون أنه هنا الموضع الذى انشقت فيه الصخور وظهر الميت فى اللحظة نفسها التى أحنى المخلص ( المسيح ) Redeemer رأسه انحناءة الموت فأظلمت الشمس وانشق ستار معبد سليمان الى شطرين .

وجبل الزيتون صخرى وشديد الانحدار فى جزئه الأدنى أما فى جزئه العلوى ، فان المنحدرات تتصعد بشكل أقل حدة ويغطيها الحصى والألواح الحجرية المنتشرة بين أشجار الزيتون القديمة كثيرة العقد ـ صورة التل ذى الخضرة الداكنة والمتسم بالعبوس . ووصلنا لقمة التل ( الجبل ) سالكين ممشى متعرجا ، فوجدنا مصلى ( مسجدا ) صغيرا به نوع من الطبل الدائرى Circular drum وعليه قبة متواضعة ،

تشغل البقعة التى صعد منها المسيح الى السماء وبقيت آثار قدمى المخلص ( المسيح عليه السلام ) واضحة على لوح رخام ·

وهذا المكان يخص المسلمين ويعدونه مكانا مقدسا لكنهم يسمحون للمسيحيين باقامة القداس فى أيام معينة ، وبجوار المصلى مئذنة وتؤدى بنا درجات ( سلم ) ضيق الى المبنى ومن ثم ــ كما هو معتاد ــ الى الخارج ، الطريق مهشم ، وأحجاره زلقة وهو غير ملائم للأشخاص المعرضين للاصابة بالدوار ( الدوخة ) ، ورأينا من فوق قمة الجبل منظرا رائعا للقدس وللتلال التى تفصل الهضبة والمناطق المجاورة للقدس وبيت لحم ــ عن وادى الأردن · انها تلال ذوات خضرة داكنة كالاستبس ، وعلى البعد يمكن للمرء أن يتبين الجبال العالية الى الشرق من الأردن والبحر الميت ، ومن خلال مدخل الوادى يمكن للمرء أن يلمح مياه هذا البحر الداخلى ( البحر الميت ) كمرآة زرقاء داكنة ·

ان جبل الزيتون والمبانى المقامة عليه معرضة لاهمال شنيع ، وحديقة جيتزينه Gethsemene عند سفح هذا الجبل ــ وهى وحدها ــ التى يبدو أنها حظيت باهتمام من قبل الفرنسسكان ، فهى تابعة لهم · ويعيش الراهب فى منزل صغير بجانبها ليتولى أمر العناية بها · وجبل الزيتون وحديقة جتسمانى توقظ فى النفس أفكارا جليلة ، فكل حجر يشهد بصدق التراث ، فكأن المرء يرى قصة آلام المسيح بين ليلة العشاء الأخير وموته فى صور حية ، لقد شعرت كما لو أننى كنت أعرف هاتين البقعتين طوال حياتى · لقد كان الواقع متفقا تماما مع الصور التى يجللها الخيال ·

وركبنا عائدين من وادى قدرون الى معسكرنا ، وعند ساحة الذبح ( المسلخ ) ترجلت وحاولت الاقتراب من أحد نسور الجيف لكن محاولتى لم تنجح • مئات من النسور الضخام تحلق عاليا ، والكلاب لا تفتأ تتردد على هذه البقعة المليئة بالدماء • لقد كانت الرائحة مرعبة لا تطاق فاضطررت للانسحاب بسرعة •

★ ★ ★

# تعليقــات المترجــم

## على الفصل الســابع

(١) الفريسيون طائفــة يهودية عرفت بالتزمت الشديد والالتزام الصارخ بالشكليات ، ومع هذا فقد كان غالبهــم أول من يخالف الشريعة ويتحايل على التخلص منها ، ونورد فيما يلى نص ما أوردتــه لجنة ترجمة انجيل متى ( ١٩٧٢ ) المشكلة من الأنبا غريغوريوس أسقف الدراسات العليا وزكى شنودة ود . مراد كامل ، وباهــور لبيب وحلمى مــراد ، والجدير بالذكر أن ما أوردته اللجنــة آنفة الذكر لا يختلف اطــلاقا مع ما أوردته المصادر الاسلامية المختلفة .

« .. وكان اليهود ينقسمون فيما بينهـــم الى عدة طوائف مختلفة ومتباينة فى مشاربها الدينية والاجتماعية والسياسية . وقد اشتهر من هذه الطوائف على الخصوص الفريسيون والصدوقيون والهيرودســـيون والكتبة والسامريون والعشارون :

والفريسيون هم طائفة متطرفة ميزت نفسها عن عامة الشعب فى الرأى والسلوك ، ولاسيما أنهــا كانت الفئة المتعلمة من الشعب ، وقد تصدت للمحافظة على الشريعة والتمسك بها وصيانة التقاليد التى تناقلها الخلف عن السلف . ولذلك حصر الفريسيون همهم فى درس الشريعــة وتفسيرها ، ولكنهم تمادوا فى التمسك بالشكليات وبحرفية العبارات ، حتى انتــفى المعنى الروحى عن الشريعـــة لديهم ، وانتهى الأمر بــهم الى اعتبار الشريعة كانما هى صنم يعبدونه . وقد كان لذلك أثره الشديد فى عامة اليهود الذين كانوا يحيطون الشريعة بهالة من الاجلال والتقديس . وكان الفريسيون فى نظرهم هم حفظة الشريعـــة ، فكانوا يحترمونهم ويطيعونهم ، ومن ثم اســـتعبد الفريسيون الشعب فلم يتركوا أى شىء للارادة الحرة ، بل وضـــعوا كل شىء تحت قيـــود العبارة الحرفيــة للشريعة ، حتى أصبح اليهودى يتساءل فى كل خطوة يخطوها عن حكم الشريعة . وباتت الحياة عذابا لايطاق بالنسبة للرجل المتزمت الذى يخشى

فى كل لحظة أن يقع فى خطر التعدى على الشريعة · ومن الأمثلة على عقلية الفريسيين وأسلوب تفكيرهم ، ما كانوا يضعونه للطهارة من درجات كثيرة لايرتقى الانسان من احداها الى الأخرى الا بعد الدرس الطويل والتمحيص الدقيق · ومن حذلقتهم فيما يتعلق بالطهارة أنهـــم كانوا يضيفون الى أحكام الشريعة فى هذا الصدد عددا لا يحصى من الطقوس ، اذ كانــــوا يوجبون غسل الأيدى مرارا قبل كل أكل وعند كل عودة من الســوق · فان لم يجد اليهودى ماء لهذا الغرض كانوا يوجبون عليه أن يفتش عنه ولو على بعد أربعة أميال · وكانت لديهم بهذا الخصوص جملة أوامـــر تحتوى على ست وعشرين صـــلاة ينبغى تلاوتها فى أثنــــاء غسل الأيدى والأوانى على المائدة ، وكانوا يعدون اهمالها بمنزلة قتل النفس انتحارا ، اذ يؤدى لديهم الى الحـــرمان من الحيــــاة الأبدية · وقد خصص التلمود أربعة أبواب كاملة منه لاجراءات الغسل والتطهير · ومع كل هذا التدقيق والتشدد فى تطبيق الفريسيين للشريعة والتقاليد ، يقـــرر التلمود أنهم لم يكونوا كلهم أبرارا ، فلم يكن أغلبهم كذلك الا فى الظاهر ، أما فى باطنهم فكانوا أول مخالفين لتعاليم الشريعة ، ومن ثم كانوا مثالا صارخا للتظاهر والرياء · وقد قســـم التلمود الفريسيين الى ســـبعة أقسام ، وذكر أن ستة من هذه السبعة لاتستحق الاعتبار لمخالفتها الغاية المقصودة · أما السابعــــة فأفرادها وحدهم هم الفريسيون الحقيقيون · وذلك أن الفريسيين مع أنهم كانوا يعتقدون أن الغرض الأسمى من وجودهم هو اقامة « السياجات » التى تصون الشريعة ، فانهم كانوا على استعداد تام لابتداع الحيل كى يتخلصوا من أحكام الشريعة اذا تعارضت مع مصالحهم ومآربهم · وربما كان أبرز مثـــال لذلك هو الوســـيلة التى احتـــالوا بها ليحلوا أنفسهم من القاعدة الشرعية القاضية بألا تتجاوز أية رحلة فى يوم السبت مسافة ألفى ياردة · واذ كان الفريسيون حريصين على الاشتراك فى الولائم اليومية العامة ، فى حين كانت منازلهم فى بعض الأحيان تبعد أكثر من ألفى ياردة عن أمكنة هذه الولائم ، كانوا يحتالون على ذلك بأن يضعوا فى عشية السبت بعض الأطعمة على بعد ألفى ياردة من منازلهم ، وبذلك يخلقون مسكنا مفتعلا يستطيعون أن يســـيروا بعده ألفى ياردة أخرى ، ومن ثم يتاح لهم أن يضاعفوا المسافة المفروضة · كما أنهم كى يتخلصوا من عقبة تحريم حمل أى شىء يوم السبت الى خارج البيت كانوا يحتالون بخدعة أخرى ، وهى أن يضعوا قوائم وعوارض أبواب ونوافذ فى مختلف الشوارع ، فتصير المدينة كلها بمثابة بيت كبير يحل فى داخله حمل الأشياء · ومن الأمثلة كذلك على تلاعبهم أن الشريعة كانت تلزم الابن بأن يعول والديه فى حالتى الشيخوخة والعوز ، ولكن الفريسيين كانوا يتيحون للأبنـــاء الهرب من هذا الالتزام بحيلة كذلك ، وهى أن يذهب

الابن – اذا طالبه أبوه – الى الكهنة ويتفق معهم على أن يوقف كل أمواله وممتلكاته على الهيكل ، وعندئذ يعجز الوالدان عن أخذ شيء منه ، ثم اذا توقفا بعد ذلك عن مطالبته ذهب واسترد كل ممتلكاته من الكهنة نظير دفع نسبة معينة من المال ، فيستمر الوقف صوريا فقط وغير نافذ المفعول • وعلى هذا القياس كان الفريسيون يخالفون أوامر الشريعة ومحرماتها في سبيل منافعهم ومآربهم •

اما الصدوقيون فكانوا هم الطائفة الكهنوتية الأرستقراطية التى كانت متحالفة دائما مع السلطة الحاكمة حتى حين كانت هذه السلطة معادية لليهود • وقد اشتق اسمهم من اسم صادوق سليل فنحاس الذى مارس الكهنوت حين انتهى نسل أولاد هارون • وقد اكتفى الصدوقيون بالطاعة الاعتيادية للشريعة المكتوبة فقط ، فى حين كان الفريسيون يعتقدون أن تقاليد الآباء وتعليقاتهم على الشريعة هى فوق الشريعة • وقد كان للصدوقيين نفوذ قوى لأنهم يشرفون على الهيكل • وقد أثروا اثراء فاحشا عن طريق العشور والهبات والتبرعات التى كانوا يجنونها من الشعب • والواقع انهم – على الرغم من وظائفهم الكهنوتية – لم يكونوا يهتمون بالدين وانما كان كل هدفهم أن تظل الأوضاع مستقرة ليحتفظوا بسلطاتهم وثرواتهم • ومن ثم كانوا يتغاضون عن وجود المستعمر ، بل كانوا يشجعون ذلك ويسعون الى بقائه • ولذلك لم يكن الشعب يحبهم • وقد كان الصدوقيون قوما ماديين دنيويين لايؤمنون بالآخرة ولا بالأرواح ولا بالملائكة ، ويعيشون فى الدنيا عيش التنعم والرفاهية ، ساعين الى جمع المال بكل حيلة ووسيلة من الشعب ، فكانوا يثرون على حسابه • وقد وقعت مشاحنات كثيرة بينهم وبين الفريسيين فى هذا الشأن • • من ذلك ما حدث بشأن توريد الضحايا اللازمة للذبيحة اليومية فى الهيكل ، اذ كان الفريسيون يرون أنه يجب شراء هذه الضحايا من مال الهيكل ، على حين كان الصدوقيون يعدون مال الهيكل من حقهم ، ومن ثم كانوا يرون أنه يجب شراء الضحايا باكتتابات مستقلة • كذلك كان الفريسيون يوجبون حرق الذبيحة على المذبح ، أما الصدوقيون فكانوا يأخذون هذه الذبيحة لأنفسهم • وقد ورد فى التلمود أن الصدوقيين اذ كانوا يبيعون الحمام فى حوانيت يملكونها تسمى « الشاتوجوت » عمدوا الى مضاعفة المناسبات التى ينبغى فيها تقديم الحمام ذبيحة ، حتى وصل سعر الحمامة الواحدة الى بضعة دنانير • ومن ثم أفتى أحد شيوخ الفريسيين ، وهو سمعان بن غمالائيل ، بانقاص المناسبات التى يقدم فيها الحمام ذبيحة ، وبذلك وصل سعر الحمامة الى ربع دينار ، فكانت تلك ضربة

عنيفة لأصحاب حوانيت الحمام ، التى كان يملكها الكهنة ولاسيما أولاد رئيس الكهنة حنان ( بتشديد وفتح النون ) .

وأما الهيرودسيون فهم طائفة من السياسيين الذين كانوا يشايعون هيرودس الكبير ، وكانوا قد ارتبطوا معه بالنسب ووحدة المنافع الزمنية ، ومن ثم ظلوا فى رئاسة الكهنوت خمسا وثلاثين سنة وشاركوا أسرة حنان فى السؤدد . فكانت رئاسة الكهنوت فى هذه الفترة مشاعا بين الصدوقيين والهيرودسيين . وقد درج الهيرودسيون — بسبب ميولهم اليونانية ومنافعهم المادية — على ادخال التجديدات والعادات الوثنية الى المجتمع اليهودى ، معلنين احتقارهم للشريعة الموسوية . بل لقد بلغ بهم الأمر أن حاولوا اقناع اليهود بأن هيرودس هو المسيح المنتظر . ولما كان هدفهم الأول هو توطيد علاقات هيرودس بالامبراطورية الرومانية ، فقد عملوا على قتل كل حماس وطنى واخماد كل ثورة يهودية . كما عملوا بكل الوسائل على محو العلامات المميزة لأمة اليهود . فكان هذا مثار النزاع بينهم وبين الفريسيين . اذ عدهم هؤلاء مرتدين عن الدين القويم .

وكان الكتبة هم علماء الشريعة وحافظى تقاليدها . فكان من وظائفهم حفظ الهيكل والمجامع تحت اشراف الكهنة . كما كان من وظائفهم تعليم الدين ، وشرح التقليد ، والجلوس على كرسى القضاء فى المجامع الاقليمية . ومن ثم كانوا معروفين بالناموسيين ، أو الربيين ، أو المعلمين ، لتفقههم فى الشريعة . وقد نشأت طائفة الكتبة فى الأصل عن أن ملوك اليهود القدامى كانوا يتخذون كتبة ونساخا من طائفة الكهنة ورجال الدين . أو من الموظفين المثقفين ، فأصبح لهؤلاء فى الدولة نفوذ عظيم . ثم فى أثناء السبى ازدادت اختصاصات الكتبة ، فدخل فيها التعليم والتبصير بالشريعة ، ومن ثم اعتزلوا وظائفهم الحكومية وأصبحوا طائفة دينية لا تعنى الا بالشريعة وحدها . ثم بعد السبى مباشرة تولى الكهنة اختصاص الكتبة الى جانب اختصاصاتهم واستمر ذلك نحو مائتين من السنين ، أى حتى عام ٢٧٠ قبل الميلاد . ثم بعد هذا التاريخ أصبح الكتبة طائفة منفصلة عن طائفة الكهنة ، واختصوا بالتحرير والنسخ ودراسة الشريعة والاجتهاد فى شرح أحكامها ووصاياها . وقد كان تعليم الكتبة حرفيا ضيقا ، صارما ، وقورا فى مظهره ، خليعا فى جوهره . وقد شغفوا بالجدل ، لا لشىء الا الاستمتاع بلذة الجدل .

وكان السامريون هم أهل السامرة التى كانت عاصمة مملكة اسرائيل ، ثم سقطت فى يد ملك آشور عام ٧٢٢ قبل الميلاد . فأسر زعماء الشعب وأعيانه وكهنته وأخذهم الى السبى وأحل محهم فى السامرة خليطا

من الأجناس الأخرى ، وجعل على هذا الخليط حاكما أشوريا • ومن ثم لم يعد لمن بقى من اليهود فى السامرة من يبصرهم بأحـــكام الشريعـــة الموسوية ، فكادوا أن ينسوها • حتى اذا عاد اليهود المسبيون من منفاهم الى أورشليم بعد ذلك فى عام ٤٠٠ قبل الميلاد ، احتقروا الســامريين ، لأن دمهم لم يعد يهوديا خالصا ، بعد أن اختلطوا بالأجنــاس الأخرى • ومن ثم تاصلت العداوة بين اليهود والسامريين منذ ذلك الحين •

أما العشارون ، فكانوا هم جباة العشــــور أى الضرائب • وكان اليهود يكرهون هذه الضرائب التى يفرضها الرومان عليهـــم كراهيـــة شديدة ، لأنها كانت رمز عبوديتهم ، وبالتالى كانوا يكرهون جباة الضرائب من الرومان ، ولكن كراهيتهم كانت أشد لليهود الذين يعاونون الرومان فى ذلك ، ولاسيما أنهم كانوا عادة من حثالة القوم • وكانوا فى الغالب ممن لاضمير لهم ، اذ كان الرومان يخولونهم جباية أكبـــر قدر من المال يستطيعون الحصول عليه من الشعب ، على أن يقوموا بتوريـــد الضريبة المقررة فحسب ، ثم يحتفظون بالباقى بعد ذلك لأنفسهم ، فكان كل منهم يبذل بطبيعة الحال أقصى ما يملك من جهد للانتفاع بهذا الوضع مهما ارتكب فى ذلك من ظلم وعنت • وقد كان هذا النظام شديد الوطأة على اليهود ، ولاسيما أنهم كانوا يدفعون الى جانب الضرائب المدنية للمستعمر ضرائب دينية للهيكل والكهنة • وكانت هذه الضرائب تشتمل على نصف الشاقل المفروض على كل فرد ، وعشر الحاصلات النباتيـــة • وقد بلغ من تزمت الفريسيين أنهم كانوا يوجبون اقتضاء العشر حتى على أعشـــاب الحقل • وذلك فضلا عن أبكار الحيوانات وأبكار المحاصـــيل والضريبـــة عن كل بكر فى العائلة ، وذبيحة الخطيئة وذبيحة الشــــكر •

وقد اشتدت كراهية اليهود لجبـــاة الضرائب الذين كانوا يعرفون بالعشارين حتى لقد كانوا يسمون بالزناة ، وصارت كلمة عشار مرادفة لكل ما هو مكروه وبغيض •• » ص ص ٣١ ـ ٣٨ •

(٢) قيل ان أول من اختط مدينـــــة القدس من اليبوســـيين ( قبل العبرانيين بفترة طويلة ) هو ملكيصادق ، ولما تولى ملكهم ســـالم اليبوسى زاد فى بناء المدينة وشيد على الأكمة الجنوبية المعروفة فى يومنا هذا بجبل صهيون ـ برجا للدفاع عن المدينة لحمايتها ، وقد أخذت المدينة اسمها منه فعرفت باسم ( أورسالم ) اى مدينة سالم ( أورشليم ) •

أحمد رمضان أحمد : تعليقاته على كتاب « اتحاف الأخصا بفضـــائل المسجد الأقصى » وهو من تحقيقه القسم الثانى • القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ ، القسم الثانى • ص ص ١٩٠ ـ ١٩١ •

## الفصـــل الثامن

**مغادرة القدس ــ طريق بيت لحم ــ بيت لحم ــ جمال النساء فى بيت لحم ــ برج ودير ــ رهبان بوسناء ــ أسقف بيت لحم ــ طبيعة المسيحية الشرقية ــ مقدسات مشتركة للاديان السماوية الثلاثة ــ الوصول للبحر الميت ــ صيد الخنازير ــ أريحا ــ رسوم بوسنجر ــ تعليقات المترجم ·**

كان يتحتم على الآن أن أغادر القدس فألقيت نظرة أخيرة على الجدران الداكنة لكنيسة الرب ، وسلكت مع كونت كابوجا Caboga طريق بيت لحم الممتاز ومررنا بالقرب من أدنى السور الغربى للقدس من بوابة دمشق التى يقع معسكرنا بالقرب منها ·

ويتعرج الطريق عند مدخل وادى قدرون بين مسطحات حجرية وشجيرات متناثرة وأعشاب قليلة ، وتتعاقب أمامنا الأسوار المهدمة للبساتين وحدائق الزيتون ذوات الاشجار القزمية والمنازل الخربة · وعن أيامننا تقع المستوطنة الألمانية بمبانيها التى تشبه الثكنات العسكرية ، اما عن شمائلنا فليس الا البرية الجرداء القفرة ، وأما أجمل المناظر فى هذا المشهد كله فهو منظر مدينة القدس الذى خلفناه وراءنا بأبراجها وأسوارها والشرفات ( الفتحات ) المرتفعة فى أسوارها ·

الطريق يصعد تدريجيا فى المنحدر المقابل للوادى · ونرى ــ بالكاد ــ تلا أجرد كان يقع عليه منزل كايافاس

Caiaphas ومررنا أيضا بالبقعة التى كان يعسكر فيها الفلسطينيون عندما قاتلهم داود ، والى الأبعد توجد بقايا منزل سمعون المسن Aged Simeon وبئر ماجى Mage حيث ظهر النجم فى الشرق مرة أخرى للرجال الحكماء . وسرعان ما وصلنا الى سرج التل ( المنحنى الذى يصل بين قمتين صغيرتين أعلى التل ) فوجدنا أنفسنا بالقرب من جدران بستان الدير اليونانى العظيم — دير مار الياس Mar. Elias بين أشجار الزيتون . المنظر من هنا جذاب — واد عريض حجرى خضرته داكنة تتخلله شقوق ويرتفع ( من جوانبه ) الى أعلى — وترقد فى أحضانه بيت لحم . انه جمال فى حاجة لريشة فنان .

والشقوق والأودية الصغيرة والانحدار العام للأرض — كل أولئك فى اتجاه الجبال التى تحيط بوادى الأردن وتمتد خلالها الى البحر الميت . والى الجنوب الغربى رأينا — على البعد — غابة من أشجار الزيتون ظهر من بين أوراقها الخضراء الداكنة برج المقر الصيفى للبطريارك الكاثوليكى Latin . والى الشمال حجب المنظر بسبب التل الذى عبرناه لتونا ، لكن الى الغرب أعطت التلال الحجرية والأودية الصغيرة والهضاب تباينا ( اختلافا ) فى طبيعة المنطقة .

وبعد أن هبطنا التل فى ربع ساعة أتينا الى جدار بستان قلعة تنتور Tantur المالطية الصغيرة . لقد بنيت هذه القلعة فى العصور الوسطى وتقع على منحدر جبل وذكرتنا بأيام الصليبيين . ويرفرف العلم المالطى ذو الصليب فوق المبنى ، وتحمل المبانى المجاورة المعدة لتكون أماكن ضيافة واقامة — شواهد على مزايا نظام الفرسان القديم ، وعبرنا البستان الى الجدار الثانى (المقابل) حيث وجدنا بئرا عميقة فى وسط ساحة مرصوفة . وقد خصص الكونت كابوجا

هذه القلعة ومبنى صغيرا ملحقا بها معدة للمقدسين Caboga ( الحجاج ) المرضى ولأهل البلاد • وقد وجد الحياة هنا طيبة طوال العام فكرس نفسه للدراسة الجادة وساعده خادمه فرديناند نيكوديموس Ferdinand Nicodemus وهو مسيحى سورى شاب ومتعلم تعليما جيدا ويعمل كصيدلى ماهر فى هذا المكان • وهو ــ بالاضافة الى ذلك ــ تابع مخلص وفارس ممتاز وحاد الذهن وبارع فى التعامل مع أهل المنطقة ، وقد صحبنا خلال كل رحلتنا فى فلسطين ، لذا فقد كان محل تقديرنا •

وفى اللحظة التى دخلنا فيها الساحة ( المرصوفة آنفة الذكر ) ظهرت الكلاب العربية الضخمة من كل جانب ــ انها مخلوقات جميلة ليست ككلابنا المجرية من نوع الولف Wolf dogs ( الكلاب الذئبية ) • وقد حيت هذه الكلاب سيدها وراحت تصدر أصواتا تنم عن فرحها • والكونت كابوجا Caboga محب للحيوانات ودجن أكثر أنواعها تباينا وظل محتفظا لمدة طويلة بضبع مروض تماما ، والآن فان خروفا آسيويا جميلا قد تبعه وصعد معه الى غرفته ، وقد هبط ببغاء ذو عرف من نوع اكوكاتو Cockatoo ــ يعيش حرا بين الحمام ــ من البرج ، ليستقر على كتفه ( كتفه الكونت كابوجا ) •

وبعد أن تفقدت القلعة كلها صحبت فرديناند ومساعد الصيد التابع لى للموضع الذى كانت تبدو فيه الضباع ليلا • لقد عدنا مسافة قصيرة فى الطريق الذى سلكناه ، أثناء عودتنا من القدس ، وتحت دير مار الياس Mar-Elyas ببضع مئين من الخطوات كان هناك جدار قديم من أحجار ضخام غير مثبتة جيدا • وصنعنا شركا خبأناه بعناية بالقرب من الطريق ، وجعلنا حمارا عجوزا ــ فى حالة تعفن شديدة ــ فى مقدمة الشرك ، فالضباع تحب الفرائس المعفنة •

ولسوء الحظ ، أننا افتقدنا القمر فى هذا الوقت ، فخمنت ان آية محاولة لرؤية الحيوانات المفترسة ستذهب سدى فى الظلام الدامس ، فما البال باطلاق النار عليها اذا كانت رؤيتها ـ مجرد رؤية ـ أمرا متعذرا ، لذا فقد كنت أحضرت معى كثيرا من الاستريكينين Strychnine (مادة سامه) تحسبنا لهذا ، لاستخدامه فى الايقاع بالضباع ، فسحبنا رجل حمار فى قربة جلدية وسممناها بقدر كبير من السم • وفعلنا كما يفعل الصيادون فسممنا قطعة صغيرة من لحم الحمار ووضعناها بالقرب من الرجل المسممة ، لأن معظم الحيوانات اعتادت تذوق قطعة صغيرة من فريستها قبل الاقبال على التهام الفريسة كاملة • وبمجرد أن انتهينا من هذه الاعدادات المترفة ، وجهزنا المكامن التى سنطلق منها النار ظهر عربى يحمل بندقية طويلة وعرض علينا خدماته • لقد كان شديد الرغبة فى صحبتنا ، وقدم لنا نصائح طيبة كثيرة وراح يقص علينا كل انتصاراته فى صيد الضباع • وكان من الصعب اسكاته • ان الوقت لم يحن بعد لمراقبة الضباع فرأينا أن نعود للقلعة وأن نصحب هذا العربى معنا ، لاننا خفنا ان تركناه آن يفسد شراكنا التى وضعناها ومكامننا التى جهزناها ، فقد كان فرديناند يعرفه ويعرف أنه شخص غير جدير بالثقة ويتعيش من صيد طيور الحجل (بفتح الحاء والجيم ) ، وهو يهيم على وجهه متشردا حول بيت لحم ، ويؤكد نظرة فرديناند هذه ما يتسم به هذا العربى من وجه ماكر ملىء بالخداع لذا ، فقد قررت أن أتحاشى ضرره وخداعه طوال هذه الليلة وحدها •

وتركت دليلى الشاب ليحرس الموقع الذى أعددناه للصيد حتى عودتى ، كانت الشمس تغرب ملقية ألوانها الذهبية على تنتور Tantur وبدت جبال وادى الأردن بأطيافها اللونية الغامضة ، وانعكست حمرة الشفق من المنحدرات الجرداء للجبال الواقعة وراء البحر الميت ، فذكرتنى بجبال الألب•

كانت السماء مغطاة بسحب ضبابية كأنها نتف الصوف وهب نسيم بارد رقيق عبر الهضبة • ولا يقارن المناخ فى المناطق المحيطة بالقدس وفى خط الجبال بين بيت لحم والساحل ، بهواء مصر المعتدل والمضطرد والمنعش • فقد ذكرتنا الرياح العاتية بمدى ارتفاع الهضبة الجرداء ، ولم تكن العواصف الثلجية فى شهر مارس نادرة الحدوث • فالغطاء النباتى وتغيرات المناخ وهواء وادى الأردن الخانق ــ كل ذلك واضح عند بيت لحم الواقعة الى الشرق من هذه البقعة بحوالى فرسخ ( ما بين ٤ر٢ الى ٦ر٤ ميلا ) •

وعدنا مع العربى المصاحب لنا الى القلعة ، فلما وصلنا اليها زودناه بلحم كثير وشراب ، وفى الوقت نفسه احتجزناه طوال اثنتى عشرة ساعة فى غرفة محكمة الاغلاق ، وتناولنا نحن أيضا عشاء فاخرا أعده رجال السكونت وفقا لطريقة الطبخ المحلية ، وأسرعت ــ بعد ذلك ــ عائدا الى مركز صيد الضباع الذى أعددته • وكان الليل قد هبط أثناء ذلك ، ولسوء الحظ فان السحب الكثيفة زادت المنطقة ظلمة على ظلمتها •

وكان هودك Hodeck يقترب من السقيفة وأخبرنى أن بعض الضباع قد ظهرت بعد غروب الشمس مباشرة • لقد مكثنا بصبر صلد فى مكمننا حتى منتصف الليل ، لكننا سرعان ما تحققنا من عدم جدوى ذلك فمن الصعب أن يرى واحد من الحيوانات التى نريد صيدها مكان الحمار الميت ، فلو أن المنطقة كانت من صخور ناعمة أو كانت صحراوية ــ كما هو الحال فى مصر ــ لتوقعت نتائج أفضل ، لكن الموقع هنا ــ كما هو الحال فى كل المناطق المحيطة بالقدس ــ يضم صخورا ضخاما ، وأحجارا تفصل بينها حشائش داكنة ، وأكثر من هذا فقد كنا مختبئين فى مكان ضيق يسبب لنا

عذابا حقيقيا . لقد كانت الريح مواتية للتريض والصـيد وكانت تهب علينا من ناحية جثة الحمار حاملة معها روائح مرعبة لا تطاق . وفي أحيـان ظننـا أننا سـمعنا أصوات الضباع تزحف ، وبين الحين والحين كان بعض الناس يمرون في الطريق وهم يغنون ، وكانت كلاب القلعة تنبح بشـدة وكانت طريقة نباحها شرقية حقا .

وفي منتصف الليل كان صبري قد نفد فعدنا للقلعة :

وايقظوني عنـد شروق الشـمس في الأول من ابريل فذهبت لأرى اثر سم الاستركينين . ولم تكن دهشـتي شديدة عندما وجدت أن الحمار الضخم الثقيل ( المتعفن ) قد اختفى . وليس من أثر لسحب أو جر على الأرض . ولم يبد تغير على الحشائش ، وبدا وكأن حيوانا مفترسا عملاقا قد حمل الحمار الثقيل بعيدا ، لأن بعض القطع الصغيرة التي نثرناها حـول جثته لم يعد لها وجود أيضا ، وبحثنا حولنا فوجدنا حيـوان ابن آوى ضخما لا يبعد الا بحوالي عشرين خطوة . كان حيوان ابن آوى هذا يختلف عن ابن آوى المصري فسيقانه أطـول وحجمه أضـخم وذيله أقصر وأكثر شـعرا . وكان فراؤه أصفر لا يقطع صفرته غير خط أزرق يعتري زرقته شيء من اللون الرمادي ـ يمتد بطول ظهره . لقد بدا المخلوق الجميل مختلفا عن أي حيوان ابن آوى آخر اصطدته من قبل .

وسرعان ما وجدنا آثار دماء تسير في خط مباشر من الموضع الى الطريق ومن ثم عبر الطريق الى السور . وهنـا أمكننا أن نرى أن الحمار ( النتن ) قد تم سحبه فوق الصخور لأن شعره ودماءه كانت متناثرة عند الزوايا الحادة ، ومن الناحية الأخرى ( الجانب الآخر ) تم حمل الجيفة مرة أخرى ، واتخذت آثار الدماء بعد ذلك اتجاه أحد الوديان العميقـة التي تؤدي للجبال بالقرب من ( نهر الأردن ) .

وزحفت ـ بحذر ـ للأمام ، ونظرت من فوق رابية صغيرة ، فرأيت على بعد خمسين خطوة للأمام شيئا داكنا والى جواره حيوان صغير برتقالى اللون ، لقد كان هذا الحيوان هو ابن مقرض ( بكسر المميم وتسكين القاف وكسر الراء ) وكان حيوانا مدهشا جميلا انيقا انه ثعلب الصحراء ferret بأذنيه الطويلتين الخفاشيتين (desert fox) • لقد كان يتناول افطارا مريحا ، فعاجلته بطلقة فهوى •

ولما أسرعت للبقعة وجدت طريدتى وقد مالت برأسها على الحمار • وكما هى العادة ، فاننى تفحصت كل شىء بعناية ودقة • أما الحمار الضخم الثقيل ـ وهو من سلالة آسيوية كبيرة الحجم ، وكان كبير السن ـ فقد تم تجريده من لحمه ، وكان يمكننى أن أرى آثار أسنان طريدتى • لقد أتى حيوانى المتوحش على بقية جسد الحمار • لقد استطاع ابن مقرض ( ثعلب الصحراء ) احضار حمار كامل الى هذه البقعة • انه لم يسحبه بل حمله فوق ظهره • والضباع ضخمة جدا وقوية ولكنها ليست قادرة ـ فيما أرى ـ أن تفعل شيئا كهذا ، كما أنها لم تتعود على نقل فريستها دون أن تتذوق شيئا منها ، وانما هذا هو أسلوب الدببة • وشعرت بالاقتناع أن الدب الايزابيلى السورى الأصفر a Yellow Syrian Isabel-beer الذى ذكر برهم Brehm أنه رآه فى فلسطين ، قد أوقعنا فى هذه الخدعة ، آه لو أن القمر كان بدرا لكنا قد استمتعنا بليلة رائعة ، وعدت الى القلعة مغيظا متعكر المزاج وتناولت افطارى • لقد كان الطريق يغص بالحياة : قوافل حمير وجمال محملة بالمؤن لسوق القدس وأمكن للمرء أن يرى أزياء متباينة ، وبشرا من رجال ونساء من أنواع تجذب العيون •

وسرعان ما ظهرت أمتعتنا وكل دواب التحميل التابعة لقافلتنا يقودها السيد هوارد Howard ، قادمة من ناحية بيت

المقدس فقد جمعت الخيام كلها فى الصباح ، وتجاوز السيد هوارد والدواب التى معه القلعة وتقدموا ليقيموا لنا معسكرا نقضى فيه الليلة التالية الى الأدنى من بيت لحم . وكان على الرفاق أن يقضوا فترة ما قبل الظهر فى القدس ولن يصلوا تنتور Tantur قبل الظهر ، فقضيت فترة الانتظار هـذه فى مراقبة الطيور الكاسرة الكبيرة عند المكمن ( السـابق اعداده ) . لقد تم سحب رأس الحمار فى الوقت نفسـه الى أعلى السقيفة ، وكان لدى خطط لوضع السم فى الليلة التالية فى البقايا الأخيرة لحمارنا الرائع هذا .

ومرت اللقالق بأعداد كبيرة من الجنوب للشمال وسرعان ما تبعتها جماعات النسور اليومية . لقد أتت من قبل جبال البحر الميت قاصدة المدن ــ خاصة القدس ــ لالتهام الجيف . مئات من النسور وطيور العقاب واحدها فى اثر الآخر ، وكان المكمن ــ لسوء الحظ ــ قريبا جدا من الطريق الذى لا تكف القوافل عن المرور به ، ومن هنا ، فان الطيور كانت تحلق عاليا ولا تغامر بالطيران على ارتفاع منخفض . نسر واحـد كان لديه الشجاعة للمرور بالقرب من السقيفة عدة مرات ، وأخيرا دفع حياته ثمنا لجرأته هذه .

## الوصول لبيت لحم :

وبعد ذلك عدت مرة أخرى للقلعة وانتظرت مع الكونت كابوجا Caboga وصول رفاق السفر ، وسرعان ما وصلوا ، راكبين خيولا تجرى خببا الى سـاحة القلعة ، وكان عـلى أن أقص عليهم ما خضته من تجارب فى الصيد وأن أعرض عليهم ما اصطدته فى الساعات القليلة الماضية . وأمتعنا الكونت كابوجا بافطار ممتاز ، وبدأنا رحلتنا القصيرة الى بيت لحم : بعضنا على ظهور الجيـاد وبعضنا الآخـر فى العربات التى تجرها الدواب .

وكان الطريق الحجرى السيىء متعرجا بين الأسوار القديمة وحدائق أشجار الزيتون والبيوت الآيلة للسقوط، كما كان الطريق ينحدر دائما نحو سفح التل الذى تقع عليه مدينة بيت لحم المشهورة مسقط رأس المسيح ( عليه السلام ) Our Saviour (*) .

واسم بيت اسم قديم جدا ويعنى باللغة العبرية ( موضع الخبز The place of breed ) ، ووفقا لما قصه الكتاب المقدس فان هذه المدينة كانت مشهورة بسبب خصوبة المنطقة حولها، وبسبب كونها مقرا لبيت داود the House of David .

واسم افراتا Ephrata — يعنى أيضا خصوبة المنطقة وكثرة ثمارها — كان يتردد فى أغانى وتحذيرات الأنبياء : « وأنت يا بيت لحم افراته وأنت صغيرة ، أن تكونى بين ألوف يهوذا ، فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطا على اسرائيل، ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » (**) .

« And Thou, Bethlehem Ephrata, Though Thou be little among the thousands of Judah, out of thee shall. He Come, forth me that is to be ruler in Irael, Whose goings forth have been from of old- from everlasting ».

لقد تم تشييد بيت لحم على سفح التل . ان منظرها جدير بريشة فنان ، وتمتد المدينة على هذا التل لمسافة . وبين المنحدرات الصخرية توجد حدائق الزيتون والأعناب ، مما يعطى المكان هواء المنتجعات الخضراء . ومنازل بيت لحم من أحجار ، وأسطحها مستوية . وتعطى قباب الكنائس وأبراجها ، وكذلك الأديرة والمدرجات فوق التل — انطباعا بأن هذه المدينة أكبر مما هى عليه فى الواقع .

---

(*) الترجمة الدقيقة : مخلصنا ، وآثرنا ما أوردناه فى المتن لأن المعنى المقصود لا يختلف — ( المترجم ) .

(**) ميخا ٥ : ٢ عن سيرة المسيح و كنيسة قصر الدوبارة ص ص ٤٢ — ٤٣ — ( المترجم ) .

وبعد أن تجاوزنا المساكن الأولى ، استدرنا لنسير فى شوارع ضيقة ، غير مستو رصفها ، وعلى الجانبين مساكن بها أشغال خشب غير رقيقة ، وجدران قديمة عابسة ، وأول انطباع يخرج به المسافر أثناء سيره فى هذه الطرقات أنه فى حالة صعود وهبوط مستمرين • وعلى أية حال، فقد كان ذلك مجالا للدراسة الاثنوجرافية الشائقة ، فبيت لحم أكثر شبها بالمدن العبرية القديمة من القدس فالبشر الذين يراهم المرء على أسطح منازلهم وفى الطرقات ، وفى الشرفات لهم صفات اليهود القدماء نفسها كما وردت فى الكتاب المقدس (*) ، تماما كما نتخيلهم • انهم يضعون على رءوسهم عمائم ضخاما وأثوابا زخرفوها بالزهور وصدريات متألقة ، والأثرياء منهم يلبسون ملابس كالتى كان يلبسها الفريسيون Pharisees أما الفقراء فيشبهون أولئك الذين سمعوا كلمات الحياة والوصايا من شفاه يسوع المسيح عليه السلام ( المخلص Redeemer ) فى الطرقات والميادين •

ان الوجوه يهودية بشكل واضح : الأنف الطويل المعقوف والبشرة الشاحبة واللحية السوداء أو الحمراء المضفورة لتنتهى بشعبتين ( تنتهى بنقطتين ) ، وهو ما نراه فى صور السيد المسيح وحوارييه ، أما النساء فأكثر لفتا للنظر فهن ملتفات فى أثواب واسعة مسبلة ملونة وقد لففن فوق رءوسهن ثيابا بيضا ، وبشرة الواحدة منهن شاحبة وعيونها فى الغاية من الجمال وكذلك ملامحها وشعرها • جمال يفوق الوصف • لم أر أبدا نساء أجمل من نساء بيت لحم • أهذا العدد الكبير من النساء الجميلات فى مدينة واحدة !! ان هذا لا يتأتى فى أى مكان آخر • ان المرء لا يستطيع أن يلاحق

(*) مع انهم من المسلمين والمسيحيين ، وهذا يؤكد ما ذكرناه فى حاشية سابقة فى الباب السابع ، ان الارشيدوق لم ير فروقا عرقية بين أهل البلاد بصرف النظر عن دينهم — ( المترجم ) •

بعينيه هنا كل النساء الجميلات · عاصفة من الجمال تتلوها عاصفة أخرى · انهن نماذج من العذراء مريم النبيلة · والنساء الكبيرات منهن اللائى قرأنا عنهن فى العهد الجديد يسرن هنا بشحومهن ولحومهن · فالمسافر المندهش يجد نفسه وقد انتقل فى حلم الى أيام السيد المسيح ( المنقذ Saviour ) عندما آوت مريم العذراء الرجل الطيب فى اصطبل بائس ، وعندما تتبع حكماء الشرق ــ القادمون من وادى الأردن حيث ممالكهم البدوية المتحررة موجودة كما هى موجودة الآن ــ النجم ·

ان بيت لحم ومواضعها المقدسة هى بالضبط كما نراها فى صور رسامى العصور الوسطى الأتقياء ، وكما نراها فى التماثيل والنماذج الملونة التى نقدمها للأطفال فى أعياد الميلاد ·

وسكان بيت لحم معظمهم مسيحيون ، وجملة سكانها خمسة آلاف نسمة ليس منهم الا ثلاثمائة مسلم (*) ·

وخرجنا من الشوارع الى ميدان تحيط به منازل شرقية ، فى أحد جوانبه تقع كنيسة العذراء العظيمة والبنايات الأخرى ملتصقة بها · ان أكثر البقاع قداسة موجودة تحت سقف واحد ، وهى أماكن مقدسة للكاثوليك Latin واليونانيين والأرمن ولكل من هذه المذاهب الثلاثة دير خاص بمعتنقيه ومتصل بالكنيسة ·

وانتظرنا راعى تراسانتا Terra Santa عند البوابة الكبرى للكنيسة مع بعض الفرنسسكان ، وكان الميدان مزدحما بالناس وتسلمنا مالا يحصى من الالتماسات فى غضون دقائق قليلة · كانت الكنيسة قديمة وجميلة ، ذات أصل بيزنطى ، وقد بقيت منذ أيام الامبراطور قسطنطين

(★) ومع هذا فقد رأى فيهم الملامح الفيزيقية الواحدة ، مما يؤكد خرافة التمييز العرقى ــ ( المترجم ) ·

الذى شيدها • وداخل الكنيسة يدهش المرء لكثرة الصوامع التى أضيفت بمرور الزمن ، كما يدهش لكثرة الأبواب الضيقة والمنخفضة والتى لا يستطيع المرء أن يجتازها الا بشق الأنفس • وهدف خفض هذه الأبواب وتضييقها هو حماية الأماكن المقدسة من غارات القبائل العربية التى لا تبعد مضاربها كثيرا عن هنا والذين لا يحكمهم قانون بالمرة • وتحمل الكنيسة بمصلياتها وصالاتها الطابع المسيحى الباكر فى العصر البيزنطى •

ومما لا يبعث على السرور أن كثيرا من أعمال الخزف القديمة وكذلك الرسوم قد تأثرت أو تساقطت وأن التماثيل قد كسرت • والكنيسة ـ بشكل عام ـ لا تحظى بالصيانة الجيدة • ويرى المرء داخلها ـ حيثما التفت ـ نتائج الحلول الوسط ( التسوية ) بين المذاهب الثلاثة ، فالمذابح ( جمع مذبح ) وأجران المعمودية fonts وأضرحة قديسى الأديان المختلفة the different religions (*) كلها جنبا الى جنب ، وثمة أعداد غير قليلة من القسس الفرنسسكان اليونانيين • وقد حضر هنا عدد قليل من المقدسين ( الحجاج ) ومعظمهم من الفلاحين الروس ، لكن العدد الأكبر كان من سكان بيت لحم لأن معظم سكانها من المسيحيين ، وقد تبعونا فى جولاتنا ، وكان من بينهم من يحمل أجمل ملامح يمكن للخيال أن يصل اليها •

وكانت المغارات المقامة تحت الأرض هى أكثر المواضع اثارة ، وقد وصلنا لمصلى الميلاد Chapel of the Nativity ذات النور المتألق عبر مجموعة طويلة من السلالم وخلال أبواب من ( داخل ) الكنيسة • ويوجد المذبح فى محراب الى

---

(★) ربما يقصد المذاهب المختلفة ، وربما كان التعبير مقصودا وهو أن الخلاف بين الكاثوليكية والاورثوذكسية اليونانية والاورثوذكسية الارمنية عميق لدرجة أنه اعتبرها اديانا ـ منفصلة ـ ( المترجم ) •

الشرق ، وبه نجمة فضية ملتصقة بالجزء الداخل منه ، وحوله هذه الكلمات :

« Hic de Virgine Maria Jesus Christus natus est ».

وتترك الحجرة الضيقة العابسة أثرا كبيرا في مشاعر المقدس ( الحاج ) ، ويثير الايمان القديم المطلق بالحقائق الروحية وثقل التراث والايمان الراسخ بأن المسيحية قد ولدت هنا ، وأنه من هنا انتشر هذا الدين الذى غير وجه العالم — كل ذلك يثير مشاعر وقورة وسامية ، فالمقدس (الحاج) يركع — من تلقاء نفسه — على ركبتيه ويقبل الحجر الذى ضغطت عليه آلاف الشفاه قبله ، آخذا على نفسه عهد الاخلاص بوجد دينى شديد .

والى الأدنى ( الأسفل ) بثلاث خطوات يوجد مصلى المهد Chaple of the Cradle ، حيث يوجد مهد السيد المسيح وفقا للمرويات — وفى مواجهته أطلعونا على البقعة التى ركع فيها حكماء الشرق الثلاثة أمام الطفل المقدس The Divine Child اجلالا وولاء .

وفى ممر تحت الأرض وصلنا لفجوة في صخرة جرداء انفجر منها ينبوع ماء للعائلة المقدسة ، وثمة باب يؤدى الى ممر آخر حيث أطلعونا على البقعة التى تلقى فيها يوسف الأمر بالهروب الى مصر ، والى الأدنى توجد مصلى كالكهف هى مصلى البراءة Chapel of Innocents حيث خبأت أمهات بيت لحم أطفالهن الذين أمر هيرودوس (*) بذبحهم .

وأدى بنا الطريق بعد ذلك الى مذبح القديس يوسيبيوس من كريمونا Cremona وقبره ، وهذا القديس كان تلميذا للقديس جيروم Jerome ، وقد تم اغلاق قبر هذا

(*) الوالى اليهودى الذى عينه الرومان — ( المترجم ) .

القديس الذى يعد من آباء الكنيسة ( يوسيبيوس ) قريبا ، ورأينا بالقرب منه مصلى منحوتة فى صخرة حيث كان يعيش ويكتب · وبذلك نكون قد رأينا كل المواضع الواقعة تحت الارض ، فصعدنا مستخدمين السلم عبر كنيسة سانت كاترين St. Catherine لندخل الدير الكاثوليكى The Latin Convent انه دير بسيط لكنه يحظى بصيانة جيدة وقد أمتعنا الفرنسسكان فى حجرة الطعام الملحقة بالدير بمشروبات حلوة معطرة liqueurs · وبعد أن مكثنا قليلا دعانا الاسقف اليونانى بعبارات ودودة للغاية لزيارة ديره ، وهو — أى الأسقف اليونانى — رجل فى مقتبل العمر ذو لحية سوداء طويلة وملامح وسيمة وهو يونانى قح لطيف ودمث ·

والدير اليونانى مبنى مسطح يسكنه رهبان مذهب القديس بازل the order of St. Basil ، وهم أرثوذكسيون — الى أقصى درجة — فى تنظيماتهم وطقوسهم التى تختلف اختلافا بينا عن الطقوس الكاثوليكية Letin · وجلسنا فى غرفة جرداء ليس بها أحد ، الا أنها — على أية حال — أتاحت لنا أن نرى من خلال نوافذها منظرا جميلا للمدينة وما حولها ·

وقد جلست أنا وعمى والأسقف على كنبة واحدة ، وما كدنا نجلس حتى ظهر القسس ليقدموا لنا شرابا كريها horrid وتعللنا بمختلف العلل لنهرب من هذا المكان وذهبنا الى مغارة ( كهف ) اللبن Milk Grotto ، فوصلناها عبر مدخل عريض ودرجات ( سلالم ) قليلة · ووفقا للمرويات فقد سقطت هنا قطرات من حليب الأم على الصخرة عندما كانت العائلة المقدسة مختبئة هنا · وتزور نسوة كثيرات هذه البقعة اعتقادا منهن أن سكب حليب أثدائهن على هذه الصخرة سيزيد من ادرارهن للحليب اللازم لأطفالهن · ويوقر المسيحيون والمسلمون هذا الغار والمذبح المقام به تابع

للكاثوليك ، وبعد أن استأذنا من رجال الدين الكاثوليك والأورثوذكس أسرعنا متجاوزين آخر مساكن المدينة على طول جانب التل بين بساتين الزيتون والأسوار الحجرية حتى وصلنا لمعسكرنا الذى يقع بالقرب من قرية بيت ساحور Betsahur وهى قرية غير نظيفة لكن موقعها جيد ·

وازدحم السكان حولنا بفضول ، ووجد العسكر الترك صعوبة فى اخلاء معسكرنا وسرعان ما ظهر صيادان وقدما خدماتهما · لقد كانا أخوين ظريفين من أهل بيت لحم يلبسان الملابس اليهودية (*) كاملة ويبدو عليهما شىء من التشرد ويتعيشان من صيد طيور الحجل · وكان أحدهما يتحدث الفرنسية بشكل جيد ويبدو أن له مقابلات مع عدة قبائل بدوية فيما يتعلق بأمور الصيد وقد أخذ على عاتقه أن ينظم أمر صيد تيوس الجبل ( الأوعال ـ جمع وعل ) وأن يقدم لنا نماذج حية وصغيرة السن منها · لقد كان مسيحيا مثل ( معظم ) سكان بيت لحم ، وحارب ببسالة فى الجيش الفرنسى ضد الألمان ·

وقابله الكونت ليسبس Lesseps خلال رحلته فى فلسطين واتخذه خادما ، وعمل على ادخاله الجيش الفرنسى الذى كان متوجها الى الرين Rhine ، وبهذه الطريقة اشترك فى معركة ١٨٧٠ وعاد الى بيت لحم ـ بعد احلال السلام ليباشر عمله الأصلى كصائد طيور حجل ·

لقد انطلقت أنا وهويوز Hoyos مع هذين الشابين لنفتش المنطقة استعدادا لفترة ما بعد الظهر ، وأثناء تقدمنا فى الوادى نحو الشرق مررنا ببعض القطعان ، وقد سرنى

(*) ليس معنى هذا انهما يهوديان ، وانما الملابس التقليدية متشابهة فى الأديان الثلاثة ـ المترجم ·

كثيرا منظر ملابس الرعاة التى تحتاج لرسام يصورها لفرط طرافتها . ان المتعبدين الأوائل عند مهد المسيح عليه السلام ( النص : the Cradle of the Son of God ) كانوا بالتأكيد يشبهون هؤلاء الذين يجوبون التلال بماعزهم وهم يغنــون آغانيهم الرتيبة .

وأصبحت التلال أعلى ، وازداد انحدارها شيئا فشيئا ، وكانت مغطاة بحشائش صفراء . لقد لاحظت الان آن هناك تغيرا فعليا فى طبيعة الغطاء النباتى . وتعد بيت ســاحور آخر قرية فى هذا الاتجاه ، وعنــد بداية الجبــال الخضراء الداكنة والغطاء النباتى ( المختلف ) للأردن تكون قد دخلت منطقة القبائل البدوية ، والحذر عندئذ واجب .

وتسلقنا التلال بجهد ـ لكن بشغف ـ ، فرأينا وسمعنا بعض طيــور الحجل ، لــكن القليــل الذى لاقيناه فى المناطق المجاورة لبيت لحم أصبح كثيرا هنا لكن فرصتنا فى اصطياده كانت قليلة . وطفنا ـ مع صــيادينا المــاهرين ـ فوق بعض التلال راجعين فى اتجاه القرية ودخلنا منطقة أشجار الزيتون وتحاشينا الحدائق .

والى الجنوب من سلسلة التلال التى تقع عليها بيت لحم وبيت ساحور يوجد واد عميق منبعج ، على جانبيه مدرجات ينمو عليها الزيتون والأعناب ، وبين هذه المنحدرات الصخرية وأكوام الحجارة تكونت فجوات وبيئات ملائمة مغطاة بنباتات ذات خضرة دائمة ـ وقد أعطت للرائى منظرا جميلا .

وكان بطن الوادى الضــيق ممتلئا بالكتــل الصــخرية الكبيرة والجدران القديمة والخزانات، وثمة ممر ضيق صغير للقطعان يتعرج من القــرية صاعدا جانب التــل المواجه . وتسلقت أنا وهويوز Hoyos بين أشجار الزيتون والصخور بحثا عن الطيور التى كان صوتها مسموعا ، لكن الدوق الكبير

وبعض الرفاق الآخرين ظهروا فجأة فى الجانب المقابل بالقرب من القرية ، وبذلوا جهدا كبيرا ليجعلونا نفهم بالاشارات انهم سيمارسون الصيد فى المنطقة الواقعة اسفل منا تقريبا ، لقد حالت المدرجات بيننا وبين القاع نظرة شاملة كاملة ، لذا فقد أسرعنا عابرين الى المنحدر الآخر وعلمنا أن حيوان ابن آوى كبيرا حجمه كان يسير بتمهل الى الادنى منا ، عند أحد المنبسطات المدرجة التى كنا نحن فوق المنبسط الأعلى منها مباشرة ٠

ومن ثم فقد تفرقنا فى مواقع مختلفة فى الوادى لنكمن فى انتظار هذه الحيوانات وهى خارجة من مكامنها عند الغروب ٠ وقد آكد رفيقى الشرقى أن الواوى Wavis يحب أيضا هذا المكان كثيرا ، فالعرب الفلسطينيون يسمون ابن آوى باسم الواوى Waui وليس ( ثعلب ) كالمصريين ، وبشكل عام فالحديث باللغة العربية هنا يختلف كثيرا عن حديث المصريين بها ، كما أن اللغة العربية هنا أكثر غموضا ( فهمها أصعب ) ٠

كان المساء جميلا وشاهدنا غروب الشمس ، وعادت القطعان ومعها الرعاه ، وكان منظرهم رائعا ، واختلطت أصوات الأجراس بأغانيهم ، وكان فى استطاعتنا أن نسمع السلام المريمى Ave Maria يدق فى بيت لحم ، وامتدت الظلال ، وتلاشى الشفق الأحمر من جبال البحر الميت وطارت الطيور الى مجاثمها ، وانزلق ابن آوى كالشبح عبر الوادى ، واتجه نحو مكمنى لكن الرياح لم تكن مواتية واختبأ الحيوان الماكر خلف بعض الصخور ٠ ان الوديان الصغيرة المنعزلة فى فلسطين تشهد تحركات غريبة ومسحورة ، فالمرء يمكن أن يتخيل أن هذه الأودية ملائمة للحيوانات المفترسة : الضباع وحيوانات ابن آوى والذئاب تتجمع وتعوى بالقرب من القبور ٠ لقد غادرت المكان الذى تسوده برودة غير شديدة ،

قبل أن تصبح الظلمة حالكة وأسرعت متجاوزا القرية الى المعسكر ، وطار شبح طائر غير بعيد عنى فأطلقت طلقة عشوائية ، فهوى لقلق مسكين مصاب بجرح مميت •

وفي صباح اليوم التالى ، بدأنا مبكرا فركبنا الى بيت لحم • وجدنا هناك — مرة اخرى — زحاما شديدا فاندفعنا بخيولنا الصاهلة بصعوبة وسط الجموع الى باب الكنيسة ، واصطحبنا الفرنسسكان الى مصلى المولد Chapel of the Nativity حيث كان القس يقيم القداس وتزاحمت الجموع أمامنا على المواضع المقدسة تحت الأرض ، وركعت بعض نسوة بيت لحم الجميلات جمالا مدهشا — ركعن على الصخرة الجرداء • لقد كن متألقات تألقا غريبا فى ضوء المصابيح الخافت •

وبعد ذلك أسرعنا للميدان حيث خيولنا وكانت هناك مفاجاة مدهشة تنتظرنى ، فعلى شرفة منزل انطرح ضبع كبير حجمه ، وله شعر طويل حول عنقه ، وجلد مدهش ، والى جواره انطرح حيوانان من حيوانات ابن آوى كانا أصغر منه حجما ، ولونهما مختلف عن حيوانات ابن آوى التى رأيناها فى اليوم السابق ، وكانا أكبر حجما من النوع المصرى Canis aureus ومنظرهما مختلف عنه • لقد أحدث السم آثره ، فمنذ يوم مضى كنا قد تركنا رأس حمار مشبعة بسم الاستركينين ، ومن الطبيعى أن هذه الحيوانات الجائعة قد أكلت هذا الطعم بشره فلاقت حتفها • وأرسلت الغنيمة على ظهر حمار الى الخيمة التى نحتفظ فيها بحصاد صيدنا •

وركبنا عائدين من الطريق نفسه ، الذى سلكناه البارحة الى تنتور Tantur — الى القلعة الملطية الرائعة • وعندما وصلنا اليها قررنا أن نمسح التلال الجرداء المجاورة شيئا فشيئا لنصطاد ما بها • فطلبنا أكبر عدد ممكن من مثيرى الطرائد من مكامنها ، فجمعنا معنا خدم الكونت كابوجا Caboga

وساتسي الخيول في معسكرنا والرعاة وأهل المنطقة الذين خرجوا للتريض ــ كل هؤلاء صحبونا • واتخذ بعض الرفاق لأنفسهم موقعا في الوادي عند المنحدر الجنوبي للتل لاطلاق النار منه ، اما انا وهويوز Hoyos ومساعدو الصيد فقد تبعنا خط مثيري الطرائد ، وعند اشارة متفق عليها بدءوا عملهم ، وساعدنا أيضا بعض جنود الدرك الاتراك ، وقد أظهروا براعة في هذا النوع من الرياضة •

وراحت بعض طيور الحجل وطائر سمان بائس تطير أمامنا وقفز ابن آوى أمامنا أيضا ــ ولسوء الحظ ، فانها ، جميعا لم تكن في اتجاه تصويب البنادق • ولم يحدث أن سقط صيد الا قرب نهاية عمل مثيرى الطرائد ، فقد طارت بعض الطيور فوق الرفاق وأطلقوا النار فسقط واحد منها • وأطلق كورنسكي Chorensky النار على ارنب برى داكن سورى أصيل ، فأصابه • لقد كان أرنبا أكثر نحولا وأصغر حجما وأدكن لونا من أرانب الحقول البرية عندنا ، وان كان يشبهها أكثر من شبهه للأرانب البرية الصحراوية في أفريقيا •

وبعد هذا النجاح غير الكبير تجاوزنا مكمن الضباع الذى كنا قد أعددناه سابقا الى دير مار الياس Mar Elyas ومنه كان يمكننا أن نحظى بمنظر رائع لمدينة القدس • لقد كانت هذه آخر نظرة نلقيها على القدس وما حولها فمنذ الآن يصبح اتجاهنا شرقا فشمالا •

ومن الدير سرنا لمسافة طويلة لصيد طيور الحجل البوهيمية Bohemian (*) التى مرت أسراب منها ذات مرة فوق معسكرنا • لقد قطعنا مسافة طويلة فوق أرض تعلو

---

(*) من بوهيميا ــ ( المترجم ) •

لتنخفض وتنخفض لتعلو ، تل يرتفع في اثر تل ، يفصل بينها ( التلال ) وديان عميقة · وجعلنا مثيرى الطرائد يسبقوننا وجعلنا مساعدى الصيد وباقى الرفاق في الوسط، وبهذه الطريقة أمكن مسح شريط أعرض من المنطقة ·

الشمس حارقة ، والهواء راكد والسماء زرقاء لا سحاب فيها ووهج الظهيرة شديد ، وفى هذا الجو فان تسلق التل الاول كان عملا شاقا ، خاصة ، وجوانب التل شديدة الانحدار والحشائش القصيرة التى تغطيها زلقة ، وليس ثمة أحجار تصلح أن يتخذها المرء مستقرا لقدميه ، وانطلقت بعض طيور الحجل بعيدا وأخطأ كورنسكى Chorinsky اصابة حيوان من حيوانات ابن آوى ، وقتل الدوق الكبير حية كبيرة جدا كان صيدها يحتاج الى طلقة مصوبة تصويبا دقيقا ·

لقد تسلقنا حتى القمة تلين أخضرين تكسوهما الحشائش ، لكن مثيرى الطرائد كانوا يتبعوننا متكاسلين · وشيئا فشيئا افتقدنا الخطط الاوربية المحكمة من حيث المساحات المتروكة بين المجموعات ، وشكل الزحف ( التقدم ) الصحيح المنضبط · ان المنطقة الآن ذات طبيعة مختلفة : منحدرات صخرية ملساء وكهوف ومغارات ، وبينها أسوار قديمة ومدرجات معدة لزراعة الأعناب ، والزيتون ، وثمة وديان صخرية مثل الوديان الكائنة خلف قرية بيت ساحور ــ موجودة هنا بين هذه التلال · وما كدنا ندخل هذه المنطقة ( الصخرية ) حتى قفز حيوان من حيوانات ابن آوى من جانب احدى الصخور، وكان أدنى منى مباشرة ، فأطلقت فى اثره طلقة فهوى ، لكن الحيوان الماكر ــ رغم جرحه المميت ــ اختفى مرة أخرى فى جحر عميق ·

ولأننى كنت راغبا فى الحصول على غنيمتى فقد أرسلت مساعد الصيد التابع لى الى المعسكر ، لاحضار كلاب الدشهند

وانتظرت بالقرب من البقعة التى اختفى فيها الحيوان وأنعشني أحمد Achmed المخلص النشط بشراب ليمون ، وواصل بقية الرفاق طريقهم الى المعسكر ، وأطلق الكونت فالدبرج Waldburg طلقة مرت قريبة جدا من واحد من طيور الحجل ·

وسرعان ما عاد مساعد الصيد التابع لى مع ثلاثة كلاب دشهند ، فجرى الكلب شيك Scheck — وهو اكبرها واقواها ، وهو سلافونى بالمولد Sclavanion — بشغف ودخل الجحر ، وتبعه الكلبان كروات Croat (لعله من أصل كرواتى) (*) وآوبكا Upeka ، لكن مرت لحظات قبل أن نسمع جلبة تحت الصخور · لقد ظننت فى البداية أن ثمة معركة تجرى مع الحيوان الجريح ، لكنني سرعان ما اكتشفت الحقيقة فقد القيت نظرة فى الجحر تبين لى من خلالها أن الكلاب الشجاعة خارج الحجر ·

اننا الآن فى طريقنا الى المعسكر عبر جرف صدعى سعب للغاية ، وتركت الكلاب تفتش بعض الكهوف التى تبدو من خارجها آثار أقدام حديثة للثعالب وحيوانات ابن اوى ، ولم نر آثار ضبع الا مرة واحدة · ولم يكن لهذا البحث — لسوء الحظ — نتيجة ، وكانت الشمس حارقة وانهكت الكلاب سريعا بفعل الصخور الساخنة ·

وسرعان ما وصلنا للمعسكر ، وكنا فى حاجة للراحة لساعات قليلة ، وقبل الغروب تسلقت مع فالدبرج Waldburg المنحدرات القريبة من الوادى نفسه التى كنا قد أعددنا فيها فى المساء الماضى مكمنا لصيد حيوانات ابن آوى ، ولم تنجح

---

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم ·

محاولاتنا فى الامساك بواحد من طيور الحجل كان يقفز حول الصخور ، كما لم يسفر بحث الكلاب عن شىء ، فاقنعنا نفسينا بتسلق المنحدر المواجه الى قمته لنلقى نظرة على جبال البحر الميت ، وكان المنظر جميلا • وعدنا ــ وقد هبط الليل ــ الى المعسكر ، وسرعان ما غمر السكون المكان واستغرق الجميع فى النوم استعدادا لرحلة الأيام القادمة فى وادى الأردن •

وفى الصباح الباكر لليوم الثالث من الشهر عم المعسكر حركة ونشاط فجمعت الخيام وتم تحميل الأمتعة فوق ظهور الجياد ، ووصلنا من تنتورTantur ضبعان بالاضافة لما عندنا ، وكانا ضبعين جميلين كانا قد تناولا جانبا من رأس الحمار المسمم •

وصل الى المعسكر بعض البدو من الجبال الواقعة الى الجنوب الغربى من البحر الميت ، كانوا أتباعا ظرفاء مفعمين رجولة ، وجوههم نبيلة وكانوا أقوياء وبشرهم أكثر دكانة • وكانوا من قبيلة فقيرة لكنها قوية وغير ملتزمة بقانون • وكان أحدهم ــ ربما كان هو شيخ القبيلة ــ يضع فوق رأسه عمامة ، جانب منها ملون ، ويلبس ثوبا أبيض تماما وحذاء أصفر وثبت فى وسطه سيفا تركيا معقوفا ذا نصل واحد ، ولم تكن تعبيرات وجهه ، ولا ملامحه الدقيقة ولا فمه المحدد بحدة والذى تلعب حوله ابتسامة ساخرة ، ولا عيناه السوداوان النفاذتان ، لم يكن شىء من هذا يبعث على الثقة •

وكان هؤلاء البدو عربا خلصا فى عاداتهم ومظهرهم ، وكانوا مختلفين تماما عن سكان بيت لحم ذوى الطابع العبرى ( اليهودى ) (*) ــ وقد أتوا الينا ليعرضوا بيع ثلاثة تيوس

---

(*) رغم انهم غير يهود ــ ( المترجم ) •

( وعول ) من تيوس الجبل وقد اشتريتها منهم • وقد رغبوا الينا ان نعد حملة للصيد بين تلالهم الجرداء ، حيث تتوفر التيوس ( الوعول ) العربية ، وهي حيوانات جميلة لها قرون غضروفية طويلة ــ بأعداد كبيرة ، ولم يكن من الممكن اجابتهم لهذا العرض ، وهذا مما يؤسف له فلم يكن لدينا وقت ، فما هي الا أيام ونتجه على طول ساحل البحر الميت الى أقصى نقطة فيه عند الجنوب الغربي ، فكنت مضطرا ــ لهذا ــ رغم حزني لضياع الفرصة ــ أن أرجع هؤلاء الأطفال داكني البشرة لمضاربهم ، بعد أن واسيتهم بدفع بقشيش •

وكانت خيام المعسكر قد جمعت بسرعه غير عادية وتوجهت القافلة بارشاد السيد هوارد Howard نحو بير سبع Mar-Saba وركبنا مرة اخرى صاعدين الى بيت لحم حيث كان القس يرتل القداس، واستأذنا من راعي ترا سانتا Terra-Santa والفرنسسكان التابعين له في الميدان خارج الكنيسة ، وأحاط بنا زحام شديد وراحت نسوة بيت لحم الجميلات يتفحصننا بفضول ، وخوفا من أن تنهمر علينا الالتماسات مرة أخرى فقد أسرعنا تاركين الموضع المقدس الذي ولد فيه المسيح ( عليه السلام ) • لقد تركنا خلفنا آخر المدن وآخر سكان للأرض الزراعية ، وأصبحنا الآن ــ ولفترة ــ من قاطني مناطق البدو الأحرار ــ البدو الحقيقيين •

وعند مغادرتنا بيت لحم كان علينا أن نمر على معسكرنا الحالي ، لكننا سرعان ما رحنا نضرب في واد ضيق تحيطه التلال الخضر الدواكن ، فاختفت من أمام عيننا بيت لحم وتنتور ومار الياس والجبال الحجرية والهضبة ومنحدراتها المزرعة •

لقد أصبحنا الآن نواجه منطقة لها طابع مناطق البحر المتوسط وطابع مناطق الاستبس الآسيوية والتلال الرتيبة ،

التى يكسوها عشب قصير والوديان المتعرجة . وكان الطريق جيدا فى البداية وكنا نستطيع فى بعض الأحيان أن نرخى مسرعين عبر المروج الخضر، لكن بعد ذلك سرنا عند منحدرات صخرية أكثر حدة وفى ممرات يتحتم فيها أن يكون سيرنا على الأقدام ، كما أصبح مسيل الوادى ( بطنه ) صخريا ، وكان البدوى يركب فى المقـدمة عـلى حصانه المسرج خلق رغم أنه حصان كميت ( بنى مشرب بحمرة ) رشيق . لقـد كان أحد شيوخ قبائل هذه الجبال . وكان يرتدى عباءة واسـعة داكنة فوق سراويل خفيفة ، ويحمل سيفه المستوى ، وكذلك حذاؤه الأصفر أثرا من آثار الفقر .

ولم نحس باختـلاف كثير فى الـوادى الضيق ، وقد غرست هنا وهناك لافتات سـيئة للتحـذير ، وكان هنـاك ما يدعونا للاعجاب بمهارة الخيـول العربيـة التى تستطيع السير على الحشائش الزلقة والصخور الناعمـة فى مواضـع يمكن أن تؤدى فيها أية خطوة غير محسوبة الى السقوط فى هاوية . ان عالم الحيوان غير ممثل كثيرا فى هـذه التـلال المنعزلة . فكل شىء ساكن خلا بعض النسور وطيور العقاب ، وبين الحين والحين تصادف بعض طيور اللقلق .

ورأينا على البعد مضارب بدو على قمة تل بعيد ، ومن الخطأ الفاحش ان نظن أن الخيام ليست الا مواطن للسـكن من قماش أبيض ولها شكل الهرم ، حيث تبدو مثلثة الشـكل ويغمرها الهواء من كل جانب ، فالواقع أنه توجـد خيـام مظلمة منخفضة من الجلد . وتصاعد عمود دخان أزرق من مضارب البدو تلك وكان الرجال والقطعان يتحركون حول مضاربهم الحالية ، ولا تسكن هـذه المنطقة الا قبائل فقيرة جدا تتحرك بين الأراضى المزروعة فى فلسطين وبيت لحم من ناحية ، ووادى الأردن من ناحية أخـرى . انهـم يتحركون بالقرب من حـدود التلال وما حولها ، ويتركون قطعـانهم وخيولهم وماعزهم تباشر الرعى فى المنحـدرات المعشـوشبة

وينقلون مضاربهم متى دعت الحاجة · وغالبا ما يأتون بالقرب من المدن ليتاجروا بماشيتهم لكنهم لا يتلبثون هناك الا قليلا ، وهم يعترفون بسلطة السلطان ( العثمانى ) ، ويدفعون من الضرائب وفقا لما يناسبهم ، وغالبا مالا يدفعون شيئا ، فالسلطة ( العثمانية ) لا تزعجهم فى شىء · وهذه القبائل الصغيرة غالبا ما تنشب المعارك بينها وغالبا ما يكون ذلك بسبب سرقة الماشية ، أو سرقة فرس وهذا الوضع الأخير ( سرقة فرس ) نادر الحدوث ·

الحياة الحقيقية للقبائل البدوية الكبيرة والقوية والغنية تبدأ عند نهر الأردن ، فعلى الساحل الشرقى للنهر تعيش الجموع الهمجية دون أى سلطان عليها بالمرة فهم لا يعترفون بالسلطان ( العثمانى ) ولا بخلافته ، واذا توانت القوات المسلحة التركية قليلا ، فان هؤلاء البدو يسبحون عابرين النهر المقدس ( نهر الأردن ) ليخربوا الارض المقدسة ·

ووصلنا لنهاية الوادى الضيق بعد رحلة طويلة ، وأدى بنا الممشى ( الذى يتحتم السير فيه مشيا على الاقدام ) الى قمة الجبل العالى ، ومن هناك تجلى لنا منظر بهى ، فتحتنا مباشرة منحدر حاد ــ وعند قاعدته واد دائرى تحيط به التلال العالية ؟ والى اليمين والى الشمال تجد مالا حصر له من القمم العالية والحيود ridges والتلال الممتدة لمسافات بعيدة وكلها ذات لون أخضر داكن ــ انه منظر استبس حقيقى ( سهوب حقيقية ) ، ويؤدى ممر ضيق يشبه المسيل الى الخروج من بطن الوادى وذلك فى الاتجاه الجنوبى الشرقى ، ومن خلال هذا الممر الضيق يمكن للمرء أن يلقى نظرة غير شاملة ( نظرة قريبة محددة ) على مياه البحر الميت عميقة الزرقة وعلى الجروف العارية البيضاء لسلسلة الجبال الجميلة على الساحل المقابل ·

الممر يهبط متعرجا على طول المنحدر الشديد الذى تقف الآن عند نهايته الدنيا ، لكن الجزء الأكبر من خيول التحميل التابعة لقافلتنا كانت لا تزال تكافح في هبوط هذا المنحدر الصلب كما يدل على ذلك رنين أجراسها المتواصل ، بينما وصل أسرعها بالفعل الى الوادى ، ونصب خدمنا الذين لا يكلون الخيام الأولى فى بقعة حجرية مستوية .

وواصل الرفاق طريقهم للخيام بينما فضلت أنا ومجى الدوق الكبير أن ننتظر على الحيد حتى يتم اعداد المعسكر بالكامل ، وفى هذه الأثناء أعددنا شركا ووضعنا طعما ( حيوانا مذبوحا ) واختبأنا خلف احدى القمم التى تتيح لنا الاقتراب دون أن تلاحظنا الطيور . مئات من النسور والعقبان ( جمع عقاب ) تأتى من جبال البحر الميت وتمر سربا وراء سرب فى الاتجاه نفسه . ان هذه الأسراب تتخذ رحلتها اليومية لمدينة القدس بدقة بالغة ، فهى ــ لهذا السبب ــ لم تلق بالا ولو بنظرة خاطفة لشركنا هذا ، غير أن غرابين وواحدا من نسور الجيف حلقت فوق الموضع دون أن تهبط .

كانت الشمس تحرق بعنف وليس من نسمة هواء تتحرك ، ولا من سحابة واحدة صغيرة فى هذه السماء الداكنة زرقتها .

وبعد ساعة غادرنا بقعتنا المختارة وسحبنا ذبيحتنا ( شركنا ) وراءنا ــ لأننا كنا راغبين فى استخدامها فى الصيد فى اليوم التالى ــ وهبطنا سيرا على الأقدام الى بطن الوادى .

لقد هبطنا أدنى فأدنى ، وكلما هبطنا أصبح الهواء ثقيلا شديد الوطأة . كان الجو البارد كالرصاص يسود جوانب الوادى . انه أول تحية يقدمها لنا البحر الميت ووادى الأردن . وفى غضون الأيام القليلة القادمة كان علينا أن نتعلم كيف نرهب هذا الجو ونخشاه .

وسرعان ما وصلنا للوادى حيث تمت اقامة معسكرنا بالكامل • لقد بدا فى موقعه كمدينة صغيرة وساد نشاط مفعم بالحيوية فى البقعة المهجورة •

وظهر الصيادان العربيان اللذان تبعا قافلتنا ومعهما مؤن كثيرة لمطبخنا ، وكانا يطلقان النار طوال الطريق أثناء قدومهما من لترون Latrun • لقد أحضرا معهما حصاد صيدهما : بعض طيور حجل الصخور الصغيرة • انها المرة الأولى التى نصل فيها لمناطق انتشار هذا الطائر الجميل •

والعرب — بأسلحتهم غير الجيدة — لا يستطيعون اطلاق النار الا على الطيور الساكنة ( غير المحلقة ) ، فهم يزحفون الى مكامنها تحت غطاء ( ساتر ) بنى أو بنى به بقع صفراء يمدونه فوق عودين من أعواد القصب ، ويتركون فى هذا الغطاء ثقوبا : ثقبان للرؤية وثقب لاطلاق النار ، ولا ترى هذه الطيور الغبية تلك الثقوب فتحدق فى الغطاء المتحرك حتى يأتيها الخبر اليقين ممثلا فى طلقات تهوى بها •

وتناولنا افطارنا حالما وصلنا ، بينما كان الخدم الشرقيون يعدون — بمهارة وحذق — مواضع لقضاء الليل ، فكان لابد من تحريك كل حجر وفحص الحشائش بدقة • لقد كانت العقارب الضخام كامنة فى كل مكان • لقد تعرفنا تماما على أصنافها الضارة الرديئة خلال الأيام الأخيرة لرحلتنا •

وبعد الافطار وافقنا على القيام بزيارة لديرMar-Saba المشهور ، الطريق من العسكر يسير خلال الوادى الضيق الآنف ذكره ، كانت جوانبه المعشوشبة تنحدر بشدة للشمال واليمين ولكن — على نحو خطر مفاجىء — يغير شكله وينتهى كجرف صخرى شبه عمودى الى مسيل حجرى عميق •

الطريق يتعرج فوق الصخور عند أدنى حافة تنمو عليها الحشائش ، الصخور الى الادنى منا في كل المسيل ("الوادى الصغير ) الغابس المظلم مليئة بالكهوف والزوايا والشقوق ، حيث تتكاثر أعداد كبيرة من حمائم الصخور والبازات الحمراء جنبا الى جنب ، بسلام وهدوء · وفى كل خطوة كنا تخطوها كنا نسبب ازعاجا لهذه الطيور التى راحت ترفرف باجنحتها فزعا ، منتقلة من أحد جوانب المسيل الى جانبه الآخر · وفى غضون نصف ساعة وصلنا لبرج قديم من أبراج المراقبة يقع على حافة الصخرة وعند انحدارنا من أعلى لم نر آية دلائل على وجود مؤسسات أخرى من المؤسسات الكنسية واسعة الانتشار والمطمورة بين صخور المسيل · وعند البرج لابد للمسافر أن يقرع بابه المحكم الاغلاق بكل قوته حتى يتحرك قاطنوه خلف جدرانه السميكة ويفتحوا الباب ببطء ·

لقد كان على هؤلاء الرهبان البؤساء أن يتخذوا كثيرا من الاحتياطات لتامين الحماية لأنفسهم ، لأن المسلمين يدبرون لهم كثيرا من المكائد غير الحسنة · وفى سنة ٦١٤ للميلاد نهب هذا الدير للمرة الأولى على يد الجيوش الفارسية الغازية بقيادة خرزويه Chosroes (*) ·

---

(★) « ... استغل ملوك الفرس من الساسان فرصة ضعف الدولة البيزنطية وغزوا بلاد الشام ، واستولوا على القدس بقيادة مرزيه خرزويه سنة ٦١٤ م فذبح من سكانها تسعين الف مسيحى وهدم كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والدور والقصور وأخذوا البطرك الى بلادهم اسيرا ، ويجمع المؤرخون أن الفرس قاموا بهذه الأعمال بتحريض من اليهود ، وان اليهود قتلوا من المسيحيين اكثر مما قتلوا من الفرس ، لذا فقد كان طبيعيا عندما استرد هرقل ايليـــا سنة ٦٢٩ م من الفرس أن ينتقم من اليهود فراح يقتلهم بالمئات ... » ·

احمد رمضان احمد : ملاحقه التى الحقها بكتاب « اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى » ص ١٩٣ ·

وفى سنتى ٧٩٦ و ٨٤٢ نهبت عناصر آسيوية أخرى هذا الدير أيضا ، ثم تكررت اعتداءات صغيرة أخرى ، ثم حدثت مذابح مهولة سنتى ١٨٣٢ و ١٨٤٢ ، حيث هاجمت القبائل الهمجية القادمة من شرق نهر الأردن الدير وذبحت كل الرهبان (١) . والآن فان كل مقدس ( حاج ) يرغب فى دخول الدير عليه أن يقدم خطابا للقس الذى عين شخصا عند شباك البرج كحارس ، ويقوم الحارس بدوره ــ مستخدما أدوات خاصة ــ بارسال الخطاب ( الطلب ) لمبنى الدير الرئيسى . وتعود الموافقة بالدخول بالطريقة نفسها ( من الدير للحارس فى شباك البرج ، ومنه الى مقدم الطلب ) ومن ثم يفتح الباب . وبعد الغروب لا يسمح لأحد بالدخول حتى لو كان معه خطاب ، كما لا يسمح لأية امرأة بالدخول قبل الغروب أو بعده بأن تطأ هذه المستوطنة الدينية الصغيرة ، وذلك وفقا للطقوس المتشددة للأديرة اليونانية .

ومررنا خلال البوابة الواقعة أدنى البرج وصعدنا عدة درجات لنصل للباب الثانى ، ومن ثم وصلنا لشرفة صغيرة مرصوفة بألواح حجرية بعد أن صعدنا درجات ( سلالم ) أكثر من السلالم التى صعدناها آنفا ، والطريق ينشعب هنا ، ويمكن للمرء أن يلقى النظرة الأولى على المناطق الداخلية لهذا المبنى المهم . انه مجموعة سلالم ( درجات ) وبسطات وشرفات وغرف معيشة ، وكلها من الأحجار ، وثمة سقائف خشبية قديمة وممرات سقوفها على عوارض خشبية ، ومصليات chapels وكهوف ومغارات تمتد على طول الجرف من البرج فى القمة الى بطن المسيل تقريبا . والجزء الأدنى لا يربطه بالدير الا سلم . وكان المدخل الى الأدنى قد تم تحصينه ــ بطبيعة الحال ــ ضد الذين يرغبون اقتحام الدير قادمين من الوادى ، باستخدام أبواب قوية ، واستخدام ممرات كثيرة معقدة للتضليل ( متاهة ) . ووصف مبنى

الدير وغرفه وملحقاته مسألة تحتاج لجهـد ، وان كان من خصائص هذا الدير أن المرء يرى فى كل مكان سلالم (درجات) وكثيرا من القذارة وقليلا من الضوء ، وأحجارا جرداء .

وقد استقبلنا أسقف بيت لحم اليونانى عند المنبسـط ( البسطة ) الأولى ، وكان يحيط به عدد كبير من الرهبـان البائسين غاية البؤس ، وفى وسط المنبسط يوجد مبنى صغير له قبة يوجد به ضريح القديس سابا St. Saba. وهـو قبر يحظى بكثير من الزخارف الثرية ، وبالقرب القـريب منـه توجد كنيسة القديس نيكولا St Nicholas الصغيرة ( وهى على نحو أو آخر مجرد تجويف صغير فى الصخرة ) ، وفيهـا تم حفظ جماجم الشهداء الذين ذبحهم خرزويه Chosroes أما الكنيسة الرئيسية للدير فهى عبارة عن باسيليقا يونانية خالصة وتضم كثيرا من الصور السوداء — على خلفية ذهبية — للقديسـين ، وكل المواد الفنيـة الفضـية المطليـة بالذهب والفضية الخالصـة التى يجـدها المـرء فى أماكن العبـادة الأورثوذكسية اليونانية . ورتل الأسقف اليونانى صلاة شكر عند حضورنا للمذبح أعقبها أغان كورالية أداها الرهبان ، وقد ترك هذا فينا تأثيرا طيبا جدا خاصـة ونحن بين هـذه الجدران العتيقة .

وتفقدنا مقبرة القديس كريسورهوس Chryssorrhoas الدمشقى ، وهو أحد آباء الكنيسة اليونانية الأوائل ، وكان علينا بطبيعة الحال أن نقبل كثيرا من المواضـع والأحجـار المقدسة ، كما كان علينا أن نستنشق كثيرا من البخور وعطر الورد . وبعد ذلك طفنـا بأرجاء الدير . ويعيش خمسـة وستون راهبا فى صوامع المبنى الرئيسى للدير — وهى — أى الصوامع — على نحو أو آخر تجويفات فى الصخر بنيت فيها سقائف Sheds خشبية . وعلى المنبسطات وفى الشرفات

وفى أى مكان متاح زرع هؤلاء الاخوة الأتقياء حدائق صغيرة ، مستخدمين تربة نقلت الى هنا بجهد جهيد ، وفى احدى هذه الحدائق الصغيرة توجد نخلة قديمة زرعها القديس Saba بنفسه ومازالت حتى يومنا هذا تثمر بلحا بدون نوى .

ان زيارة كل غرف الدير تعتبر عملا شاقا مرهقا ، فمرة نصعد سلالم ومرة نهبط ، وغالبا ما كنا نسير منحنين انحناء مضاعفا بين الممرات المنخفضة ، وبالاضافة لهذا فان رائحة كريهة تسود المكان كله . وفى مبنى صغير منفصل كانت توجد غرفة بائسة لاستقبال الغرباء ، وفيها أكرمنا راهب بتقديم شراب وردى اللون كريه الطعم .

ومن هذه الغرفة ذهبنا مستخدمين سلما خارج الباب الى مدخل كهف القديس سابا Saba . وكان علينا أن نمر خلال عدة غرف مظلمة . وفقا للمرويات ، فان القديس وأسده أو سبعه (( الذى استطاع ـ بواسطة الدعاء والصلاة ـ أن يستأنسه ) كانا يعيشان معا فى مغارتين بسعادة . وكان ثمة قش قد وضع حديثا فى المغارتين لأن الرهبان المتحمسين كانوا يقيمون من وقت لآخر فى هذه البقعة الكئيبة تأسيا بالقديس ، ورأينا بالقرب من المغارتين كهفا آخر محفورا فى الصخر اختاره راهب عجوز يرتدى أثمالا بالية ، ووجهه شاحب مغضن لفرط تعبده (النص : religious excitement ) ـ ليكون مقرا له ، ويصل هذا الراهب لمستقره بتسلق درجات عمودية وعبور لوح خشبى ضيق مثبت الى الصخرة . وهو يعبر هذا المسلك الخطر يوميا ، وقد رأيناه يعود من الكنيسة الى هذا الكهف بهذه الطريقة الخطرة .

وقد ألقينا نظرة طيبة على المسيل من فوق أحد المنبسطات داخل الدير ، وكانت الجروف المقابلة على بعد

حوالى مائة خطوة وخمسين خطوة ، وكانت بها كهوف ومغارات ايضا لا يسكنها الآن الا حيوانات ابن آوى والصقور والحمام ، أما فيما مضى فقد كان يسكنها النساك .

والطائر الذى لم اره في اى مكان اخر في فلسطين موجود باعداد كبيرة على الصخور القريبة من الدير . انه طائر الزرزور الجبلى ، فحل الابراج والمنبسطات والاسقف والصخور مغطاة ـ بالمعنى الحرفى لكلمة مغطاة ـ بهذه الطيور الذكية ذوات اللون الأزرق المختلط بسواد ، ذوات الأجنحة البنية المائلة للحمرة ، وصدى تغريدها يتردد فى كل الأركان . وقد استأنسها أحد النساك لنا ، فإنه عندما يصدر صفيرا ويستدعيها فى ساعة محددة كل نهار ، فانها ترفرف باجنحتها هابطة اليه لتستقر عند قدميه أو حتى فوق رأسه وعلى كتفيه وتأخذ قدرا ضئيلا من الخبز من يديه (*) ، وحتى الحيوانات المتوحشة يغريها هذا المكان ، ففى كل مساء عند حلول ساعة الصلاة تظهر حيوانات ابن آوى فى المسيل وتنتظر حتى يلقى النساك لها قطعا من الخبز .

**من كل هذا يمكننا ان القول ان المسيحية الشرقية قد بقيت هنا ساكنة ( لم تتغير ) عند مرحلة نساك القرون الأولى . فالمسافر مضطر للعودة بنفسه الى أيام نساك جبل أثوز Athos والأماكن المقدسة الأخرى فى فجر المسيحية ، ففى الشرق**

---

(*) لا يخفى على القارىء المثقف من اى دين أن هذا يتم بالتدريب واستخدام اساليب علمية وليس له علاقة بالمعجزة بمعناها الدينى ، وقد كنت فى الستينات أشهد عم عبد الغنى وهو ( حاوى ) كان مشهورا فى شوارع بنها وازقتها ـ يسير وقد حطت على كتفيه حمامتان ، فان طارتا عادتا وحطتا فوق كتفيه ، ولما طالت صحبتى بالرجل أخبرنى أنه حصل على الحمامتين وهما صغيرتان جدا وخاط أرجلهما فى كتف معطفه ، وراح يطعمهما وهما على هذه الحال فترة من الزمن . فلما كبرتا الفتا كتفيه كعش لهما ولم تعودا تفارقانه الا لماما ، او على الأقل انسمتا اليه الى جوار عشهما الذى هياه لهما الى جوار سريره ـ ( المترجم ) .

البعيد لازال الأتقياء يطوبون ( يطوب ــ بضم الياء وتشديد الواو وفتحها ــ هو جعل شخص ما قديسا بعد موته ) (*) . أولئك الأتقياء الذين قضوا حياتهم فى صلاة ( عبادة ) غير منقطعة فى الكهوف والصوامع Caves & dens .

هكذا كانت الكنيسة المسيحية الأولى ، انها شرقية ، وقد احتفظ دير Mar-Saba فى أيامنا هذه بالطابع القديم نفسه على مستوى النساك المتدينين فى القرنين الثالث والرابع للميلاد . انه ليس ديرا وفقا للمفاهيم الأوروبية ، وانما مستوطنة للنساك ، وهم مجموعة من المنعزلين يعيشون مستقلين ولكنهم متجمعون فى بقعة ضيقة وسط أخطار تحيط بهم ــ لا مكان هنا للتعليم أو الرفاهية فى هذا الجبل ، لا شىء سوى الصلوات ، عبادة يومية مستمرة تتم تأديتها بالطريقة نفسها كل يوم ، ومحق كامل للذات واماتة كاملة للجسد . ان طفل القرن التاسع عشر ذا الممارسة الأوروبية الخالصة لا يستطيع أن يتخيل مثل هذه الحياة ، انه الشرق وحده هو القادر على انتاج التعصب fanaticism (أو التطرف) الذى لازال ضاربا أطنابه فيه . وماذا عن الحاخامات rabbis الذين مازالوا يبكون عند حائط المبكى ؟ وماذا عن الدراويش الذين يقضون كل حياتهم فى التطواف والدوران وبتر أنفسهم ( ضرب أنفسهم ) ؟ . فى أى شىء يختلف كل هؤلاء ؟ ان الجوهر واحد ، والاختلاف فى الشكل فقط .

ونساك دير Mar-Saba لا يأكلون الا الخبز والخضروات . وجرس الدير ذو الرنين العالى يدعو النساك كل يوم للكنيسة لأداء صلاة مشتركة ، وليلا ــ فى الساعة

(*) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

الثانية عشرة يقيمون قداسا ، ويظل اليوناني العجوز يرتل دون توقف حتى يطلع الصبح · ووجدت بعض الروس بين هؤلاء الاخوة وكذلك بعض الترانسلفانيين Transylvanians والسلافونيين Sclavonian والبلغاريين ، لكن معظمهم يونانيون من أوروبا وآسيا الصغرى ·

لقد جذبتني حكاية حيوانات ابن آوى التي تظهر كل مساء ، فاستأذنت الرهبان وهبطت السلالم وعبرت الممرات حتى وصلت المسيل وربضت بجانب بعض الأحجار بالقرب من خزان قديم · كانت البقعة قاسية موحشة ــ الصخرة الجرداء في المقدمة ، ومساكن الرهبان الحجرية في الخلف ، وفوق رأسي شقة ضيقة من سماء زرقاء ، وكلما اقترب المساء حلقت طيور الزرزور الجبلية والنسور والحمائم عائدة الى أوكارها ، ولا يسمع تغريد طائر الا بين الحين والحين · يمكن للمرء أن يتخيل نفسه وكأنه يعيش أيام القديس St. Saba.

لقد بدأت الظلمة تهبط ، وارتفع صوت أجراس الدير عاليا داعيا للصلاة ، وما كادت آخر رنة من رنات الجرس تتلاشى حتى ألقيت قطعة خبز بجواري ، وبعد لحظة ظهر واحد من حيوانات ابن آوى لا يبعد عني بأكثر من عشرين خطوة ، فألقمته طلقة فتمدد · وكنت سعيدا أن أسرع بفريستي خارجا من هذا المكان الضيق المتعب الواقع على مستوى البحر المتوسط ( يقصد غير المرتفع ) ·

الهواء قارس · لقد أحسست ببرودته كما لم أحس من قبل · لقد بدا وكأنه على وشك أن يخنقني ، وشمل جسدي كله وكأنه حمل ثقيل · وفي الأيام التالية كان علينا أن نهبط أكثر ، ليكون مستوانا أدنى ( من البحر ) ومن هنا كان الهواء أكثر سكونا ، ويكاد يخنق الأنفاس ويسبب البرداء ( الملاريا ) ·

وتسلقت الطريق كله صاعدا لأعلى عبر الدير ، واستأذنت من الرهبان الاتقياء وأسرعنا خارجين من البرج عند القمة ، ولم نصل لمعسكرنا الا والظلام دامس ، فتناولنا عشاءنا ، وأعددنا خططنا لليوم التالى ، وفى العاشرة عم السكون فى هذا الوادى المنعزل .

وعند شروق الشمس تجمعنا لتناول الافطار ، وبينما كنا متحلقين حول المائدة ، هبط واحد من نسور الجيف بجرأة وتهور فى معسكرنا ، لالتهام بعض فضلات المطبخ من بين الخيام فأحضر الدوق الكبير بندقيته وأطلق النار على الطائر الجسور .

لقد وافقنا أن نتفرق أثناء ساعات الصباح فى اتجاهات مختلفة ، فصعدت ــ ومعى الدوق الكبير ــ واخذنا من أكثر التلال ارتفاعا كان يطوق الوادى ــ وذلك لنضع طعما ( شركا ) فوق القمة ، بينما ذهب الرفاق الآخرون لصيد الحمام فى مسيل Mar-Saba .

لقد تسلقنا هذا التل لكن بعد فترة طويلة من العناء ، فقد كان المنحدر حادا وزلقا ، وكان علينا ان نزحف فوق صخور حمراء ملس ، وبدأنا بالفعل نشعر بالحرارة . وعندما وصلنا للقمة وجدنا مكمنا ممتازا ، كان مساعد الصيد التابع لى قد أقامه بعد الظهر فى اليوم السابق ، وجلسنا نراقب طوال ساعتين وآذتنا الحشرات التى لم نكن نسعى لاطلاق النار عليها ، أما نسور الجيف فلم تظهر ، وبدأت تظهر مرة أخرى أسراب الطيور الجارحة ، متجهة للقدس ولم يفلح أى طعم أو اغراء فى تغيير مسارها .

وزحفنا للأسفل فلم نحصل على شىء فاتخذنا أقصر الطرق للمعسكر الذى كان قد تم تجميع خيامه بالفعل وأصبح قابلا للنقل فى غالبه ، اذ لم يبق الا المطبخ فتناولنا فيه وجبة افطار خفيفة تعيننا على تحمل بقية الرحلة .

كان الرفاق قد أطلقوا النار على عدد من الحمام والنسور وبعض الطيور الأخرى الصغيرة في المسيل .

وكان علينا أن نستأذن من الكونت كابوجا Cabaga الذى كنا مدينين له بأفضال كثيرة ، فقد كان عليه أن يعود لتنور Tantur هذا اليوم ، لكنه أعارنى طوال فترة الرحلة الباقية خادمه فردناند وحصانه العربى الجميل الذى كان قد اشتراه من قبيلة بدوية ، والذى كنت أمتطيه يوميا منذ وصولنا للقدس . لقد كنت ممتنا تماما للكونت بسبب اهتمامه وبسبب حصانه الجميل الذى يتشبث بالجبال وينطلق فى السهول ويتحمل مشاق النهار وبرد الليل . وحالما استقر كل منا على ظهر حصانه انطلقنا للأمام يتقدمنا البدو .

كانت المنطقة أمامنا ـ فى البداية ـ لها الطبيعة نفسها التى للمنطقة حول معسكرنا ، لكن الوديان سرعان ما صارت أضيق والتلال سرعان ما أصبحت أكثر ارتفاعا ، وحل محل العشب أرض جرداء صفراء ، وألواح حجرية ضخمة ملساء . وفى حقل صغير تحيطه صخور وسط البرية كان هناك طائران من طيور اللقلق ، ربما كانا مهاجرين ، وأطلقت النار على واحد منهما بينما كان يهم بالطيران .

كان الطريق شاقا متعبا تماما للخيول وكان عليها أن تخطو بحذر تام ، فقد كان عرضة للسقوط فى الهاوية اذا حدث أى خطأ ، فقد مررنا بما لا يحصى من القمم والنقاط العلوية المستدقة والجروف وعبرنا وديانا ومسيلات ، وكنا فى حالة صعود وهبوط دائمين . لقد كانت الأرض متضرسة ليس بها أى أثر لجهد انسانى يخفف وطأتها . وبعد مسير طويل غيرت الأرض من طبيعتها فأصبحت المنحدرات أخف وطأة ، واختفت الصخور وبدت الحشائش الطوال والزهور اليانعة وكأننا فى سهوب حقيقية فى فصل الربيع .

وحجبت الجبال السمراء المصفرة التى تسلقناها آنفا باتجاهها من الجنوب للشمال ـ حجبت عنا كل رؤية نحو الغرب • لقد وصلنا لهضبة تعطرها الزهور وعبرتها أفراسنا عدوا • كانت الأرض يسرا فوثبت الخيول فرحا لخلاصها من الصخور الملساء والممرات شديدة الانحدار •

كانت السهوب رائعة غير كئيبة فى رتابتها كالصحراء الأكبر بعدا والتى تتسم بتأثيرها القوى • وأعطت الزهور المنطقة ميزة فى الربيع • ومرة أخرى ترتفع التلال أمامنا متصلة بما يسمى جبال يهوذا Judaea • انها تشرد بعيدا من الاتجاه الذى ترى منه بقيتها ، وتتقدم فى الهضبة بهيئتها الحادة ولونها الخاص وطبيعتها المميزة •

وكل هذه القمم المخروطية تتكون من صخور حمراء وطفل أصفر وأحجار خضراء وأخرى بنية وليس عليها من نبات البتة • وكان علينا أن نمر خلال مسيل عميق بينها وبين جبال فاصلة أخرى • لم نر سوى صخور ملساء وجروف أدنى منا • فحتى البدو المرافقون لنا ترجلوا وفى أحد المواضع لم نستطع السيطرة حتى على خطوات الخيول ، لكن هذه الحيوانات النشطة كانت تتبع قادتها بما يلائمها • لقد تعلمنا فى أوقات كثيرة أن نقدر ما يتحلى به الحصان العربى من ذكاء فائق • لقد سقط حصان التحميل فى هوة عميقة فى أحد المواضع السيئة ، ولحسن الحظ فان السقطة كانت على ظهره ، حيث كانت أمتعتنا تحت ظهره مباشرة أثناء السقطة ، ومن المدهش أن أقول انه لم يصب الا بخدوش قليلة •

كان الصعود من المسيل أفضل ، من الهبوط اليه ، وأصبح علينا أن نعبر السهل المشوشب، فعبرناه حتى وصلنا الى النبى موسى Nebi-Musa بعد أن سرنا على طول القاعدة الشمالية للتل • وموضع النبى موسى موضع يزوره المسلمون

لقداسته (*) اذ يقولون ان موسى ( عليه السلام ) دفن هنا . وثمة مسجد صغير آيل للسقوط ، ومنزل بائس لينزل به الزوار pilgrims الذين يزورون المكان بالآلاف كل عام . ولا يجوز لمسيحى أن يدخل هذه المنطقة أثناء الأيام المقدسة ( المواسم والأعياد ) عند النبى (**) والا أصبحت حياته معرضة للخطر .

وعندما وصلنا هناك ( للنبى موسى ) لم نجد أحدا هناك خلا أسرة تركية عهد اليها بالعناية بالقبر .

وأقمنا معسكرنا بالقرب من المسجد . وكانت المنطقة رائعة جذابة فهى عبارة عن هضبة صغيرة يغطيها العشب والشجيرات الصغيرة ، تحدها من الجنوب جبال حمراء ، ومن الغرب جبال خضراء داكنة ، **وهذه الهضبة تتخذ اتجاها** موازيا لوادى الأردن . لقد استمتعنا بمنظر رائع هنا لهذا النهر المقدس .

وكانت طيور الحجل تغرد فى كل الجوانب ، وقسمنا أنفسنا لنمارس صيد هذه الطيور المتوفرة ، لكن ـ لسوء الحظ ـ كانت الشمس قد غربت بالفعل وبدا الشفق الأحمر ، فأحطت ببعض طيور السمان بين الحشائش الطويلة ، وبعض أعداد كبيرة من الطيور الصغيرة كانت تطير من شجيرة الى أخرى ، الا أننى لم أكن بمستطيع اطلاق بندقيتى ، لأننا كنا بصدد العودة جميعا الى معسكرنا لنتناول عشاءنا ، ولننام بأمان الى جوار قبر النبى موسى ذلك الحكيم العظيم .

---

(★) النص : يحج المسلمون اليه

This is a considrable place of pilgrimage for Mohammdeans.

والمعروف ان فريضة الحج عند المسلمين مرتبطة بالكعبة المشرفة وبعض المشاعر الاخرى بمكة المكرمة ـ ( المترجم ) .

(★★) لم يحدد النص النبى المقصود ـ ( المترجم ) .

وعند شروق الشمس فى اليوم التالى بدأنا جميعا مرة أخرى • فقد سبقتنا القافلة الكبيرة سالكة أقصر الطرق الى عين السلطان مارة بأريحا Jericho ، أما نحن فقد قمنا برحلة ممتعة للبحر الميت بارشاد البدو المرافقين لنا وحراستنا من جنود الحراسة ، لقد ركبنا من النبى موسى متجهين شرقا عبر منحدرات صخرية شديدة ، سالكين ممرات ضيقة وصدوعا عميقة ، فوق أرض اردوازية ( لونها رمادى ضارب للون الأرجوانى) خالية من النباتات تماما • وكانت بعض النسور تقف فوق الحيود الحادة والمساقط المتوازية التى تفصل بينها ممرات ضيقة ، وفى غضون ساعة وصلنا لسفح الجبل فوجدنا أنفسنا مرة أخرى بين شجيرات كثيفة وعلى أرض رملية ملائمة تماما للخيل • وثمة بقع غاصة بالشجيرات تتخللها مسطحات معشوشبة ، وقطعت خيولنا هذه المنطقة عدوا وهبطنا مسيلا قديما لكنه الآن جاف ، وواصلنا طريقنا بين حشائش طوال وأشجار باسقة حتى وصلنا للساحل الرملى المنبسط للبحر الميت •

كل خطوة كانت تخطوها الخيل على هذا الساحل المنبسط للبحر الميت كانت تسمع لها طقطقة ــ نتيجة تكسر القشرة الأرضية ــ كطقطقة قشرة الجليد ، فالرمال هنا مغطاة تماما بالملح الصخرى ، ويسمى العرب البحر الميت باسم بحر لوط ( أو بحيرة لوط ) منذ نزلت سورة لوط فى القرآن ( الكريم ) ، وهو بحيرة جبلية رائعة ، وهو عميق الزرقة كبير ومحدد شكله وتحفه من الشرق تلال داكنة خضرتها ، كنا نراها أثناء أيام رحلتنا الأخيرة قبل الوصول الى هنا ، وتحفه من الغرب جبال شامخة حقا ذوات ألوان رمادية فاتحة •

أما ماء البحر الميت فغير خفيف وهو مثقل ــ بشدة ــ بالمعادن الذائبة ، مما يجعل أى شكل من أشكال الحياة مستحيلا فيه ، ومن هنا فهو بحر ميت فعلا على الحقيقة ، وحاول بعض

الرفاق الغطس فيه فلم يتمكنوا فالغطس فيه غير ممكن ؛ ومن ناحية أخرى ، فان كثرة الأملاح الذائبة في مياهه تترك تأثيرها غير المريح على الجلد .

والهواء عند البحر الميت بارد كالرصاص ويشبه الهواء في المناجم العميقة ويسبب انهاكا شديدا ، ويرجع ذلك لانخفاض المنطقة فمياه البحر الميت عند مستوى ٣٩٤ مترا تحت مستوى مياه البحر المتوسط (*) .

وقد ركبنا خيولنا لمسافة قصيرة بالقرب من الساحل ، ثم انعطفنا متخذين اتجاها شماليا عبر مسطحات من رمل وطفل . فرأينا عن أيامننا سهلا يمتد الى مروج الأردن كثيفة الزروع ، أما عن شمائلنا ، والى الأدنى ، فثمة منخفضات مستنقعية مليئة بالغاب والورود البرية بكثافة شديدة .

وانعطف خنزير برى ضخم أمام الخيالة تماما بالقرب من احدى البقيع المستنقعية آنفة الذكر ، وفي اللحظة التي رأيت فيها هذا المخلوق الضخم قفزت من فوق حصاني وتتبعت آثره ، فلما درت حول مجمع النباتات الكثيفة التي لا يزيد محيطها عن مئات قليلة من الخطوات ، وجدت ما يدل على أن هذا الخنزير البرى لم يتوغل فيها بعد ، فعينت مواقع الرجال بسرعة وتركت جنود الحراسة يواصلون سيرهم ، وسرعان ما اتضح لنا عدم امكانية اخراجه من بين الحشائش والغاب ونبات العليق حتى لو كانت قصيرة ، فقد ذهبت كل جهودنا هباء ، وحاولنا اخراجه باشعال النار في الدغل لكن الحشائش فقط هى التى احترقت مرسلة أعمدة دخان ضخمة في الهواء ، أما الشجيرات والنباتات الواقعة في الداخل الى الأعمق والتى تحظى بقدر أكبر من ماء النبع

---

(★) نص القرآن الكريم على ذلك — وهذا من الاعجاز التاريخى والجغرافى المدهش حقا ، فوصف هذه المنطقة بانها « أدنى الأرض » أى أكثرها انخفاضا — ( المترجم ) .

فلم تصب كثيرا بفعل النيران ، وبالتالي فقد كانت ملجأ آمنا لهذا الخنزير . وكان فشلنا مما يبعث على المرارة ، لأن كل الطرائد من السهوب والجبال القاحلة تتخذ لها مأوى في هذه التجمعات النباتية الكثيفة التي لا يقربها بشر ، فالآثار التي وجدناها على الطفل الرطب تنبيء عن ثراء في الحياة الحيوانية في هذه البقعة . ففي رقعة ضيقة رأيت آثار خنازير برية مختلفة وآثار ضباع وذئاب وحيوانات ابن آوى ، وآثار نمور آسيوية Panther وآثار حيوانات الوشق ( بفتح الواو والشين ) بالاضافة لآثار حيوانات أخرى مفترسة لم أستطع تبينها ، وانطلقت من المياه أوزتان بريتان وكثير من حيوانات الشاطيء الصغيرة ، وانتشر سرب بجع وعقاب نساري Osprey مخترقا سحب الدخان .

أما البجع فقد وصل الى هنا فجأة من البحر الميت وتزاحم حول النار لدقائق قليلة فحييناه باطلاق بنادقنا ، وكان ذلك غير مجد فلم نصب منه شيئا ، وسرعان ما واصل تحليقه فوق الوادي مبتعدا ، متخذا اتجاها شماليا . ولأن الوقت لم يكن كافيا ، فقد غادرت هذه البقعة وعدوت بفرسي دون توقف فوق أرض ملائمة تماما : مناطق رملية ممتدة ومروج معشوشبة بين تجمعات نباتية مستنقعية كثيفة ومجموعات أشجار قصار بحيث يمكنني القول انها غابة صغيرة ، وعبرت بعض المجاري المائية الجبلية ذوات الشواطيء المهشمة والصخور الضخمة والنباتات البرية التي تنمو بوفرة ، مسرعين نحو الأردن حتى وصلنا لقرية أريحا Jericho .

وقرية أريحا Jericho تتكون هذه الأيام من بعض الأكواخ البائسة التي يسكنها أناس بؤساء يعانون من سوء المناخ وسمعتهم سيئة فهم معروفون بميلهم للسرقة ، ويحيط بالقرية سياج من شجيرات شائكة ، وثمة برج يرتفع كآخر بقايا أيام مملكة الفرنجة Frankish Kingdom والى جواره

يقع ـ كما يقال ـ منزل زاكوس Zacchaeus وثمة شجرة جميز عتيقة يقولون ان الرجل الصالح شاهد عندها المسيح ( عليه السلام ) Redeemer • ان هذا المكان بائس وخرب، بينما كان مدينة مزدهرة في الأزمنة القديمة وحتى الحروب الصليبية •

وتجاوزنا ـ ونحن نركب الخيول ـ الأكواخ الخارجية للقرية ووصلنا الى السفوح الغربية للتلال ، بعد أن مررنا بحقول شعير برى وأشجار مزهرة • لقد كان هدفنا العاجل الذى نبغى الوصول اليه هو عين السلطان ، وكانت تقع الى الأمام منا ، وعند هذه النقطة يمكن القول ان رحلتنا الحقيقية في وادى الأردن قد بدأت •

# تعليقـات المترجـم

# على الفصـل الثامن

## وثيقة العهد العمرى

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم ، ( صحيحهـا ) وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لايسكن كنائسهم ، ولا تهـدم ، ولا ينقص منها ، ولا من خيرها ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء أحد من اليهود ، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسـه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايليـاء أن يسير بنفسـه وماله مـع الروم ويخلى بيعهم وصلبانهم ، فانهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم ، من كان بها من أهل الأرض ، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل يلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع الى أهله لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

كتب وحضر سنة ١٥ هـ

شـهد على ذلك : خـالد بن الوليـد ، عمـرو بن العاص ، عبد الرحمن بن عوف ، معاوية بن أبى سفيان .

وتسلم البطريك سفرونيوس Sophronius العهدة العمرية .



ومنذ هذه الوثيقة لم يهدم المسلمون – بالفعل – أية كنيسة أو أثر مقدس مسيحى أو يهودى بشهادة كل المؤرخين · حقيقة لقد حدث بين الحين والحين – فى عصور الظلام – بعض مظاهر التعصب ، لكن الآثار المقدسة المسيحية الباقية حتى الآن خير شـــاهد على التزام المسلمين فى مختلف العصور بالعهد العمرى ·

أما ما حاق بالقدس من تغيير وتبديل أو تخريب ودمار، فكان على يد الفرس الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد كما طالع القارىء فى ثنايا هذا الفصـــــل ، ثم على يد الصليبيين أثنـــاء فترة الحروب الصليبية يقول وليم الصورى :

– ان منظر المنتصرين ( الصليبيين ) وهم ملطخون بالدماء، كان يثير الرعب حتى فى قلوب الصليبيين أنفســـهم ، أما ما أحدثه الصليبيون بالمسجد الأقصى ، فقد أنشأ جود فرى الذى اتخذ من حرم القدس قاعدة حربية له ولقواته ··· واتخذوا من أقبيته اسطبلات لخيولهم » أما ما أحدثه اليهود بعد ذلك فى المقدسات الاسلامية فمعروف مشهور ، وأما ما سيفعلونه بالمقدسات التى تخص المسيحيين وحدهم ، فأمر تمليه عليهم عقيدتهم ، ولا يمنعهم – الآن – من تنفيذه الا القوى المسيحية الكبرى ، والمصـــالح الاستراتيجية،أما صلب المعتقد اليهودى الذى يقول فى المسيح عليه السلام وأمه بهتانا عظيما ، فيحض على كل ما هو مشين ·

# الفصـــل التاســـع

**عين السلطان ــ العوجه El-Audje ــ عبــد القادر ــ بيسان ــ تل طابــور ــ النــاصرة ــ رحلة الى حيفا ــ الشيخ على ــ النظام الأبوى ــ خنزير برى يهاجم أحمد ــ كتاب التراتيل البروتستنطى فى مغارة ــ السباحة فى نهر الأردن ــ بحيرة طبرية ــ العقارب ــ تلدغنا ــ اصابتى بالحمى ــ تل طابور ــ جبل الكرمل ( مار الياس ) ــ جغرافية المنطقة من العهــد القــديم ــ ذكريات صــليبية ــ وغادرنا الشرق ــ رسوم بوسنجر ــ تعليقات المترجم ٠**

عند حدود الأرض الخضراء تتخلى الشــجيرات الكثيفة الممتدة فى خط طويل واضح ، عن مكانها لتحل محلها جبال حجرية وعيون فوارة ، تفيض مياهها فى أحواض حجــرية قديمة - وحيثما تنبثق الينابيع من الأرض أو تسيل غدرانا من الجبال ، تعم البركة فتخضر الأشجار والشجيرات وتونع الحقول - وتمتد هذه القطاعات الخضراء المتميزة بمروجها العريضة مع المجارى المائية من سفوح الجبال الجرداء حتى نهر الأردن - وعــلى طول هــذا الخط الأخضر المزهر ترى خطوطا ( قطاعات ) خضراء فرعية تخرج من الخط الأخضر الرئيسى لتلتحم بالخط (القطاع) الأخضر لمجرى مائى آخر - وسهل الأردن يشقه بالطول نهر الأردن المقــدس بشــاطئيه الخضراوين ، وهذا السهل نفسه تقطعه بالعرض شــواطىء المجارى المائية المتعاقبة التى تحفها السهوب والتربة الخصبة ، وأجمل واحة بين كل تلك الواحات هى تلك التى تبدأ من

عين السلطان وتهبط كشريط أخضر عريض حول مجراها الى نهر الأردن • وقد أقيم معسكرنا بجانب نبع عند سفح الجبال وحافة الخضرة • ومن الآن فصاعدا تصبح رحلتنا من نبع الى نبع فلابد للقافلة أن تراعي قربها من هذه الينابيع عند عبورها في هذه المناطق •

وخلف معسكرنا يشمخ تل صخرى أجرد مرتفع ، ناتيء من سلسلة الجبال المحددة للسهل ، ويفصله عنها مسيل • ويقطن نساك يونانيون في الكهوف ، في جوانب هذا الوادى المنعزل وهذه المستوطنات ــ التى كونها زهاد ونساك ــ ظلت موجودة منذ بداية الحقبة المسيحية حتي أيامنا هذه •

وكان في انتظارنا منظر رائع عندما صعدنا الى النبع فقد رأينا معسكر البدو الأحرار ( مضارب خيامهم ) عن شمال النهر • خيول مدهشة رشيقة بيضاء ترعى الحشائش الخصبة وفرس كستنائية ( بنية محمرة ) رشيقة تقف الى جانب شجرة وتقضم من فروعها ، لقد كانت فرس قتال يمتلكها الشيخ على ذو الشعر الأشيب ، وقد جلس البدو الى جوار نار أوقدوها لطهى طعامهم • كانت أثوابهم بيضاء طويلة ويضعون على رءوسهم العمائم وكانوا مسلحين بالبنادق والخناجر والسيوف المعقوفة وحيدة الحد • وقد غرست في الأرض ، جنبا الى جنب ــ حراب طويلة من أجود أنواع الخشب ، وتعد هذه الحراب بمثابة شارة ( علامة ) للقبائل الكبيرة البدوية •

انتظرنى الشيخ على أمام خيامنا محاطا بأبنائه وأتباعه • وكان هذا الملك (*) البدوى الأشيب بملامحه الدقيقة النبيلة ولحيته البيضاء المدببة وقامته الطويلة

---

(★) King والمقصود شيخ القبيلة ، والتعبير هنا مجازى ــ ( المترجم ) •

وهدوئه العصبى وهيئتــه المنتصبة ـ يرتدى ثـوبا أبيض ناصعا به كثير من الزركشات والزينات • وقد ثبت حـول خاصرته سيفا تركيا معقوفا وحيد الحد ، وكان يلبس حذاء أصفر ويضع على رأســه عمامة كبيرة ، ومـد يده المحــلاة بالاحجار الكريمة ـ بتحية ودودة ، ووقف حوله ـ باحترام ـ أبناؤه وشيوخ القبائل ، وتنم كل حركة منهم عــلى الطاعة المطلقة له والحب والثقة فى حكمة زعيمهم وحنكته •

لقد بدا متقمصا شخصية من تلك الشــخصيات ، التى وردت فى حكايات الكتــاب المقدس ، التى استوعبناها منــذ مرحلة الطفولة الباكرة والتى بدأت تتزاحم فى رأسى منــذ دخلت الارض المقدسة عن ممثلى سلالة الأنبياء وحكام العصور الأبوية ، أو الرجال الحكماء الذين أتوا بعد ذلك ليقدموا أعطياتهم للطفل المسيح وهو فى المهد ـ لابـد أنهـم كانوا يبدون كالشيخ على وهو واقف أمامنا الآن بشحمه ولحمه • انه مثلهم ، فكأننى أراهم فى شخصه قدمــوا من عمق آلاف السنين • انه مثلهم دون اختلاف •

ومرة أخرى فقد تأثرت بثبات الحياة ( عــدم حــدوث تغيير فى شكلها وأساليبها ) فى هذه المناطق ، فالمدن لم تلغ الخيام وأطفال الصحراء هؤلاء لم يأخذوا بأساليب الحضارة بدعوى التقــدم ، فلازالوا يتحركون فوق الســهوب وبين الجبال بحــرية لا يســيطر عليهم أحــد • ولازال زعماؤهم يفخرون بثروتهم من القطعان ، وقدرتهم العسكرية ممثلة فى آلاف من المقاتلين الشجعان على خيول سريعــة • ولا يحــد المنطقة التى يتحركون فيها حدود فهم يضربون خيامهم فى أية بقعة يتوفر فيها العشب •

لقد كنت سعيدا أن أرى هذا الملك الجليل ( بطريقته الخاصة ) وكنت شاكرا لأننى فهمت أثناء هــذا اللقــاء أن السلطات التركية قد وضعتنا تحت حمايته ، وبذلك هيأت

لنا صداقة ضرورية • فهذه الحماية كان لابد منها لرحلة وراء نهر الأردن ، لأن هذا النهر يشكل حداً ، فبدءاً من هذا النهر حتى بغداد يعد منطقة حرة للقبائل التي لا يحكمها قانون ، فهم لا يعترفون بأى خليفة اذ يحسون انهم اقرب الى مكة ( المكرمة ) منهم الى مقر آل عثمان ، ولا أحد يجرؤ على أن يشق طريقه بقوة السلاح بين هذه السهوب والصحارى ، حيث لا يمكن أن يوجد الا البدو الحقيقيون • والمنطقة التى يحكمها الأتراك تصل لنهر الأردن ، ولكن الحاميات العسكرية فى فلسطين ضعيفة ولا توجد الا فى المدن الكبيرة ، وكما يقال بالفعل فان كثيرا من البدو الفقراء — ولكنهم شجعان رغم فقرهم — يغزون التلال الحدودية ، كما أن علاقتهم بالحكومة ( العثمانية ) غير جيدة ، ومن هنا فان منطقة الأردن تتعرض دائما لهجمات القبائل البدوية الكبيرة القادمة من الضفة اليسرى للنهر ، وقد سجل التاريخ — حتى فى هذا القرن التاسع عشر — كثيرا من غاراتهم الهادفة للسلب والنهب •

فسرية الخيالة التى تحرس قافلتنا لا يمكن أن تساعدنا الا مساعدة قليلة ، وحتى هذا يتوقف على أوامر السلطات أو تهديدها لها ، اذا ما سبح هؤلاء البدو النشيطون حاملو الرماح عابرين النهر بالمئات فى ليلة ملائمة وأحاطوا بنا ، لذا فاننا ممتنون للباشا الذى عهد بنا وبخط سير رحلتنا لهذا الشيخ المسن ووضعنا تحت حمايته •

وقد أحس الملك البدوى — فهو حساس ككل الشرقيين — بهذا الاجراء والمعاملة الكريمة ( التى أولته بها السلطات ) وأتى بنفسه من مسافة بعيدة ( لأنه يقضى معظم وقته بعيداً ) فصحب مجموعة من الفرسان الرائعين الى ضفاف الأردن وعبر النهر سباحة وانتظرنا بجوار خيامنا •

وباختصار ، آكد لنا بكلمات تنم عن القوة والاخلاص أنه يمكننا أن نمر بأمان على طول مجرى الأردن كله ، وأن

كل ما نحتاجه من مساعدة في الصيد سيكون متاحا لنا ، وفي الحقيقة فاننا كنا نجد في كل موضع نتوقف فيه آلفة مع السكان المحليين ، الذين آتاحوا لنا صيدا ممتعا وخدمونا بلا كلل · فعندما يعد الشيخ على آحدا بالأمان فانه يكون ــ في هذه المناطق ــ آكثر آمنا ــ مما لو كان في وسط آوربا ، فكلمة الشيخ على بمثابة قانون بين كل القبائل البدوية التي لا تخضع لقانون · وفيما مضى لم تكن الحال كذلك ، لأن البدو كانوا في حالة اقتتال دائم ، لا يكفون عن حرب بعضهم بعضهم الآخر ، فاذا حدث أن صادق أحد المسافرين قبيلة ، كان عرضة لاعتداء القبائل الأخرى عليه ·

لقد وحد هذا الأب الحكيم الآن معظم القبائل تحت حكمه ، ويطيعه سكان المنطقة البدو طاعة عمياء لا تحدها حدود تقريبا · ان آلافا من الفرسان والمسلحين الشجعان من أبناء الصحراء ينفذون أوامره ، ومن ثم يمكننا القول ان نوعا من الخلافة قد ظهر · واستأذننا الشيخ على في الانصراف بعد حوار قصير · ان الوقار سمة من سمات تصرف هؤلاء البشر ، كما أن لديهم احساسا قويا بالعزة والفخار قلما يلقاه المرء بهذه الدرجة نفسها في أوربا · لقد ركبوا خيولهم النبيلة تحيط بهم مجموعة من حملة الرماح المخلصين وعاد الملك البدوى الى سهوبه التي لا تحدها حدود ·

وكان ينتظرنا عند الخيام أيضا حاكم نابلس وهو رجل تركماني أصيل ويحظى بالقبول كما أنه متحضر جدا ، وكان راغبا تماما في تحقيق رغباتنا · وكان يرتدى زى باشا لكنه بسط فوق طربوشه غطاء أبيض بسبب الحرارة ·

وتناولنا افطارا سريعا فلم يكن لأى منا رغبة في أن يأكل كثيرا ، فالهواء ثقيل ويبعث على الاختناق خاصة وقد اقتربت الظهيرة ، وقتل فينا العطش الدائم والحاجة الدائمة للماء كل شهية في هذه المنطقة المنخفضة الواقعة تحت مستوى

سطح البحر • وبعد أن استرحنا ساعة قام بعض رفاق السفر ليشغلوا وقتهم بعد الظهر وفى المساء بمطاردة الطرائد •

وكان على سالم ـ قائد جماعة البـدو المسـاعدين فى الصيد ـ أن يوجهنا الى بقعة غنية بالطرائد • لقد كان سالم قديرا وتابعا ممتازا سرعان ما ارتبطت به وقدرته كرياضى • لقد ولد على ظهر حصان سواء أكان حصان صيد أم حصـان حرب ، ويمكن اعتباره نموذجا للعربى الحر ( البدوى ) بكل ما فى الكلمة من معنى • لقد كان صغير الحجم لكنه عصبى ويتميز بملامح مفعمة بالطاقة ولحية قصيرة وعينى صقر • وبشرته داكنة اذا قورنت ببشرة أهل هذه المنطقة ، فهـو فى لونه أقرب الى لون العرب الأفريقيين ، أما لباسه فيتكون من عمامة صغيرة وثوب أبيض فوقه حزام محكم ، وحذاء أصفر تبدو من فوقه ساقاه النحيلتان ويحمـل سكينا صغيرة فى جراب يخرجها منه ويمسكها بيـده ، وكان رفاقه حـوالى خمسين . وكانوا طوالا ضامرين معظمهم ملتح ، وبشراتهم بنية داكنة مشربة بصفرة ، ويلبسون عباءات رثة ويضعون فوق رءوسهم العمائم وبعضهم يرتدى ملابس بيضاء وبعضهم الآخر ملابسه بنية مخططة بخطوط بيضاء ، وهم مسـلحون ببنادق قديمة ومسدسات عتيقة وسكاكين قصار ، وعصى أو أسواط ( كرابيج ) للتلويح بها مهددين • لقد كانوا أتباعا مخلصين طيبين يجيدون مطاردة الطرائد • وتبعتنا الكلاب ـ وهى كلاب لا سلالة لها ولا جنس ، لكننا تعلمنا كيف نقدر بعض البدو ذوى الشعور المجعدة والبشرات الداكنة ، بشكل غير عادى ، مما يشير بشكل واضح الى تأثير الدماء الزنجية فيهم •

وغادرنا المعسكر مع هذه المجموعة • لقد كان أمامنـا مسير طويل ، فقد كان الركوب غير ممكن لأن خيولنا كانت فى راحة منذ شروق الشمس ، لأننا كنا نود أن تكون قوية وبصحة جيدة فستبذل جهـدا فى الأيام التالية • وأرشـدنا

سالم في البداية بين ما يسمي غابات ، وهي أكثر من كونها مروجا خضراء مزهرة حقا وحقول شعير ( شوفان ) برى ، وتغطيها على نحو أو آخر أدغال وشجيرات قزمية • ان كل شيء في وادى الأردن شائك ، فالحشائش الطويلة تكون لها في الربيع أشواك طويلة تنغرس في جسم الانسان والحيوان، وكل الأشجار لها أشواك • ويمكن تصور مدى الضرر الذى يحيق بالملابس والجلد ، والمعاناة القاسية الحقيقية التى يتكبدها المسافر المحب للرياضة ( الصيد ) فى هذه المناطق والتى يتحتم عليه التأقلم معها •

لقد كانت ثمة أنواع كثيرة من الطيور تحدث حركة فى الأشجار ، ففى مثل هذه البقعة تتجمع الطيور والحيوانات معا ، ومن هنا يمكن رؤية نماذج جميلة — وبالنسبة لنا جديدة أيضا • لقد كان هديل الحمام الآسيوى الأصيل يسمع فى كل مكان ، وثمة قمريتان ( بضم القاف وتسكين الميم ) واهنتان طارتا عاليا فى الهواء ، وراحت طيور الصرد ( الدغناش ) (*) وطيور أخرى كثيرة تغرد بين الأدغال الكثيفة ، بينما تظهر طيور السمان الكبيرة — فى كل خطوة نخطوها — من الشعير ( الشوفان ) البرى ، وتوجد الطيور الجارحة أيضا بكثرة : نسور وصقور وحدءات • والحيوانات الأصغر حجما متوفرة أيضا : السحالى النحيلة والضفادع السمينة ، أما الحشرات الكبير منها والصغير فتجعل المكان خطرا •

وبعد فترة غادرنا هذا البستان ووصلنا للسهوب : لقد كانت الحشائش الصفراء تغطى الأرض فذكرتنى ببلادى وبالمستنقعات المجرية ، وثمة مالا يحصى من الجنادب ( الجراد الصغير ) تسقسق تحت أقدامنا ولم نستطع أن نفهم كيف

---

(*) تسمى أيضا طيور النهس بضم النون وتشديدها وتسكين الهاء — ( المترجم ) •

توجد هذه الكائنات فى آسيا فى أوقات معينة ، بشكل وبائي ·

وفجأة توقف سالم وأعلن أننا قد وصلنا لهدفنا ، لقد كان المسيل يهبط من الجبل ، مزهرا عامرا بالزروع ـ فى خط مباشر خلال سهل الأردن ـ وكان يمتد أمامنا مباشرة بيننا وبين جرف طفلى · لقد كان تركيب هذا المجرى المائى شائقا وعلى جانبى المسيل بعض المهاوى العريقة التى يبلغ عمق بعضها عدة قامات ( فاذومات ) ، وهى تمثل عقبات قاسية · وفى الوسط يجرى الغدير ( الجدول ) ، وفى هذا الوقت من السنة كان مجرد غدير صغير ضيق تحفه صخور مختلفة ومواضع مستنقعية سبخة ، وأشجار وشجيرات كثيفة لا يمكن اختراقها وجذوع منهارة وطفل وبقايا مختلفة أنواعها ـ انها بمثابة غابة صغيرة بدائية فى مكان ضيق · وفى أكثر المواضع عرضا ، فان المسافة بين جانبى الغدير لا تزيد عن مائتى خطوة ·

لقد وجهنا بعض بنادقنا الآن ذات اليمين ، وبعضها الآخر ذات الشمال أو الى الناحية العلوية للجانب الطفلى للغدير، بينما كان على البدو مع كلابهم أن يحتفظوا بالمستوى نفسه وأن يثيروا الطرائد بين الأشجار والصخور فى خط مستقيم · وقد بقى سالم الى جوارى وكان يوجه عملية المطاردة كلها ·

وراح مثيرو الطرائد بين صياح ورشق بالحجارة يقفزون هنا وهناك حول الغدير ، وزغردت الطلقات فقد راح طير فى اثر الآخر يحلق خارجا من مكمنه ليسقط مرة آخرى فى الدغل · لقد خرجت من أوكارها طيور الحجل الصخرية ذوات السوق الحمراء وطيور السمان وطيور مغردة آخرى مختلف أنواعها · وكان لطيور الشرقرق rollers والوروار bee-eaters أوكار فى جوانب الغدير المشققة ، ووجدنا فى المواضع المستنقعية آثار خنزير برى وحيوان الشيهم

( بتشديد الشين وفتحها وتسكين الياء ــ حيوان شائك من القوارض ويسمى أيضا النيص ــ بتشديد النون وفتحها ) ، ووجدنا أشواك هذا الحيوان الأخير وجحره • ولسوء الحظ فان هــذا الحيوان الخجــول قد زحف تحت الأرض دون أن يحدث صوتا لذا ، فمن النادر أن يتم اصطياده بالنهار •

ورحنا نطلق النار لبعض الوقت ومسحنا مساحة لا بأس بها من جانب الغدير ، وفي هذه الأثناء ، حدث ــ فجأة ــ أن راحت الكلاب تنبح عند أكثر مواضع الدغل كثافة • لقد كنت ابحث عن طائر من طيور الحجــل ، وكنت لهذا الســبب ، ولحسن حظي في بطن الوادى • وفي هذه اللحظة أتت طلقة من الجانب الآخر للغدير وهتف بي أحد الرفاق أن حيوان الأرماديلو ( المــدرع ) قد أفلت للتو من مطاردة الــكلاب ، فطاردت مع البدو هــذا الحيــوان بسرعة شــديدة ، وفجأة توقف الجميع ، فقد وجدنا الى جــوار شــجرة برجا يشــبه القندس ( السمور ) يبلغ ارتفاعه عدة أقدام ملتفا حــول الساق ، وقد خرجت أطرافه من بين الفروع • لا أحد يستطيع أن يصف البناء المعمارى لهــذا الحيــوان العجيب • ومن الجانبين كان هناك مدخلان دائريان ، وعندما رأى البــدو هذه المنشأة انسحبوا للخلف بحذر •

وقد جعلني سالم أقف الى جانب أحــد المدخلين ، بينما وجه أتباعه الى اشعال النار عند المدخل الآخر ، وبينما النار تشتعل بدا المبنى يطقطق ــ انه مخلوق خاص يشــبه التنين على نحو ما ، ولونه برتقالى ، ويزيد طوله بالتأكيــد عــلى أربعة أقدام ، وبدأ هذا المخلوق يزحف بحذر خارجا ، وكان يصدد العدو عندما أنهت طلقة ــ تعرف طريقها ــ حياته •

لقد كانت غنيمتى الشائقة هي عظاءة ( سحلية ) • انني لا أعرف كثيرا عن عالم الزواحف لكن في حدود علمي ، فان هــذا المخلوق كان « ورل » Varan Lizard • وكان هدفنا التالى هو ارسال هذا النموذج النــادر الى المعســكر دون أن

يلحق بدنه تشويه ، ولأن العرب رفضوا باصرار أن يلمسوا هذا الجسد البارد بأيديهم ، فقد كان علينا أن نشيد نعشا صغيرا من فروع الأشجار لوضع الحيوان الميت فيه ، وارسال أحد البدو برفقته • وواصلنا رياضتنا لكننا سرعان ما لاحظنا أن الطيور قد أصابها الذعر ، لكثرة ما أطلقنا من طلقات ، ورأينا أن هذا الوقت غير ملائم لصيد الخنازير البرية • فعمدت مجموعة اطلاق النار كلها لبقعة ظليلة تحت شجرة كبيرة ، ولأن الحرارة قد أنهكتنا فقد انطرحنا فوق العشب ، وحتى البدو فعلوا ذلك ، بينما كانت كلابهم القوية تلهث طلبا للماء ، وقد تدلت ألسنتها • ولم يكن فى الغدير ماء كثير ، ولم يكن هذا القليل صافيا بما فيه الكفاية ، لكن أحمد Achmed الرائع كان لديه ـ كما هى العادة ـ بعض زجاجات شراب الليمون كان يحملها فى حقيبة فوق ظهره •

وبعد أن استرحنا لنصف ساعة ، دعانا سالم لمواصلة الصيد ، ورأى الدوق الكبير وهويوز Hoyos وايشتباخر Eschenbacher وراث Rath أن يعودوا أدراجهم الى المعسكر ، وأن يمارسوا الصيد وهم فى طريق العودة • أما أنا وكورنسكى Chorinsky فقد كنا تواقين للعمل فتبعنا البد والى السهوب • وبعد مسير طويل وصلنا لدغل صغير منخفض ، تليه أرض سبخة وكتلة من البوص ( الغاب ) تمتد بضع مئات من الخطوات

وأوقفنا سالم عند أحد الجوانب ، وجعل مثيرى الطرائد فى الجانب الآخر • ان أية طريدة تغادر هذا الدغل يتحتم اطلاق النار عليها بمجرد ظهورها • انه كمين محكم • وكان أحمد Achmed تابعا يستحق التقدير ، لكنه لم يكن يحب اطلاق النار على الحيوانات البرية ، وبمجرد أن فهم ما سيكون استأذننى أن أسمح له أن يستريح خلف بعض الشجيرات بعيدا قليلا ، واختفى قبل أن يسمع اجابتى •

ووقفت بالقرب من مرتفع واضح استعدادا لصيد خنزير برى قوى ، واقتحمت الكلاب بعنف هذا الدغل من البوص ( الغاب ) وبدأت المطاردة ، وتتابعت أصوات المطاردة والنباح بسرعة ، واختلط نباح الكلاب بصيحات مثيرى الطرائد · وكانت صيحات مسعورة · وأخيرا بعد ربع ساعة مثيرة ، اندفع من الدغل خنزير برى ضخم واتجه بسرعة نحو الموضع الذى أقف فيه ، وأطلقت النار عليه فأصبته بجرح غائر تحت الكتف فسقط ، لكنه عاود الوقوف وهو يرغى ويزبد من الغضب وواصل طريقه ، ووقف أحمد Achmed الطبيب ــ بالضبط ــ معترضا طريق الخنزير ، لأنه لم يكن يدرى قدرة هذا الخنزير على الجرى ( بعد اصابته ) ، واندفع الحيوان الجريح وحاصر ــ بهياج مسعور ــ الرجل اليائس ، ولحسن الحظ فقد كنت أجرى متابعا الحيوان بأقصى سرعة فوجدت أحمد وقد قبض على سكينه مستعدا للضرب بها ، وراح يصرخ بصوت عال وقد وقف على رجل واحدة ورفع الأخرى فى وجه الحيوان الغاضب الذى تهيأ لانقضاض حاسم لكنه سقط طريح الأرض قبل أن يصل لبطلنا ، ذلك لأننى تحققت الخطر المـاحق فأطلقت النار عليه ، وكانت ضربة قدرية مسددة فقد أوردته موارد التهلكة ·

لقد كان الحيوان القتيل أنثى خنزير قوية تبلغ من العمر عامين ، وقد أصابتها الطلقة بينما كانت فنطيستها قد لامست بالنعل سروال أحمد الواسع · والآن ، لقد انطرح الخنزير البرى بسلام الى جانب المصرى ، وكان أحمد قد اخضر لونه لشدة الرعب وكانت كل أعضائه ترتعش ، ولم يستطع استعادة قدرته على الكلام الا بعد عدة دقائق · وسرعان ما وصل البدو لمسرح العملية وعيونهم تلمع ببهجة ·

وكان هذا الخنزير يشبه خنازيرنا تماما خاصة الخنازير الضخام فى الغابات المجرية ــ لكنه مختلف تماما عن خنازير الشمال الأفريقى ، فهذه الأخيرة أصغر حجما بكثير ،

وتكوينهـا أكثر دقة ، ولونهـا أكثر سـوادا وكأنها مطلية بالزفت . ونزع مسـاعد الصيد التـابع لى أحشاء الخنزير بسرعة وطرحه العرب على مجمـوعة أخشـاب مربوطة معا ، وحمل أربعة رجال هذا الحمل الثقيل الى معسكرنا .

وضاع أرنب برى من كورنسكى Chorinsky وتغلغل فى الدغل ــ انه أرنب صحراوى صغير أصفر ، كنا قد ألفناه كثيرا فى أفريقيا . لقد أصبح السير فى السهوب فى هـذه الشمس الحارقة لا يبعث على السرور كثيرا . وعندما غربت الشمس مخلفة وراءها شفقا أحمر خلف حدودالتلال ، وصلنا لهذه الادغال وواصلنا مسيرنا قرابة ساعة . وكانت طيور السمان تقابلنا فى كل خطوة نخطوها ، لكن الارهاق كان قد بلغ منا مبلغا شديدا فلم نعد نفكر الا فى الوصول للمعسكر . وقد جعل غدير ماؤه صاف ، يجرى بمرح ويرشرش الماء ــ جعل مسيرنا منعشا ، فواصلنا مسيرنا وقد هبط الليل تماما ، ورأينا بعض النيران تضىء بين الأدغال . لقد كانت هـذه النيران فى معسكر البدو المعينين لمرافقتنا . لقد بدا هؤلاء البدو كالأشباح بقاماتهم الطويلة وعباءاتهم البيضاءالكاسية وقد انعكس عليهم لون أحمر من جراء الجمرات والنيران . وكانت الرماح الطـويلة تشـمخ عاليا ، بينما انبعثت من الحناجر العربية الغليظة أغان غير مفرحة راح صداها يتردد خلال الليل . كانت الخيول ناعمة مستريحة فوق الحشائش بينما جرت الكلاب نابحة لمقابلتنا . ومررت أنا وكورنسكى بين هؤلاء البدو أبناء الصحراء ، فحيونا بشكل ودود وراحوا يقدمون لنا المشروبات الباردة طوال مرورنا بهم ، وبعد ربع ساعة أخرى وصلنا للدروز النشـيطين ــ خـدم هـوارد ــ والبغال ، والى جوار الخدم الدروز والبغال عسكر الخيـالة الترك . وما هى الا مائة خطوة ووصلنا لخيامنا .

وبعد الغروب زادت الحرارة شدة ، وكانت تزداد كلما أوغل الليل فغرقنا جميعـا فى العـرق وعانى بعض الرفاق والخدم معاناة شديدة من هذا الجو الخانق ، وركود الهـواء

ركودا غير مالوف • ورغم التجارب العميقة التى صادفناها أثناء النهار والنجاحات التى حققناها فى مضمار الصيد ، الا ان شعورا بالاحباط النفسى والروحى بدا وكأنه يسود بين مجموعة الرحلة ، بل وازداد هذا الشعور فىالأيام التالية • ان جو وادى الأردن جو يترك تأثيرا محـــزنا كئيبا عــلى كل الأوربيين •

وفى بكور اليوم السادس من الشهر قررنا أن نقسـم انفسنا الى مجموعات لممارسة رياضة الصيد ، فذهب عدد من الرفاق فى الاتجاه الذى كنا فيه بالأمس ، أما الدوق الكبير وأنا فقد صحبنا سالم وجماعته ، فركبنا مخترقين أراضى البساتين الرائعة نحو أريحا ، وبالقرب من هذا المكان يهبط غدير من التلال ليعبر سهل الأردن • ومرة أخرى كان علينـــا أن نغوص فى الشـــواطىء الطفلية وأن نتحرك عبر الكتـــل الصخرية ورذاذ الماء ، وبين أشجار نامية تحت أشجار كبيرة ، كانت كثافتها أشد من كثافة الدغل الذى كنا عنده قبل ذلك حول الغدير • وبقى الدوق الكبير عند الجانب الأيسر بينما تسلقت أنا نحو اليمين ، واندفع البدو بين الأشجار الكثيفة ، وبدأت مطاردة سعيدة ، فما هى الا دقائق قليلة الا وكنا قد أطلقنا بنادقنا على طيور مختلفة ، لكننا سرعان ما تركنا هذه الطرائد الصغيرة ، لأن البـــدو قد وقعوا عـــلى آثار حـــديثة للخنازير البرية •

وسرعان ما ظهر التحدى على الكلاب ، فقد ظهر خنزير برى بين الدغل ، لكن ظهوره كان للحظة فلم يكن من الممكن اصابته ، وسرعان ما ظهـــر خنزير آخـــر عقب الأول يقفز كالأرنب البرى أمام مثيرى الطرائد بين الحشائش ، فألقمه الدوق الكبير طلقة فهوى • وتم سحب الحيوان ــ وهو أنثى خنزير تبلغ من العمر عامين ــ من الغدير ، وأرسلناه محمولا على ظهر حمار الى المعسكر • وهربت منا خنازير برية مختلفة بين الأشجار اما عادت من حيث أتت أو واصلت اندفاعها ، وقد أفلت خنزير من الدوق الكبير فى وسط الغدير •

وسرعان ما نبحت الكلاب مرة أخرى، فقد تسلق خنزير جميل fine له أنياب طويلة بيضاء متألقة ــ المنحدر الكائن بيني وبين مثيرى الطرائد ، وهو يتعثر ويندفع محدثا جلبة ، قاصدا الهروب الى السهوب فألقمته طلقة تحت كتفه فتمدد ، وبلغت بي السعادة منتهاها وأنا أبعث بصيدى السمين للمعسكر • ثم عاودنا التركيز على صيد الطيور العديدة • طيور حجل الصخور الحمراء والأرجوانية وطيور مالك الحزين ( البلشون ) ، بالاضافة لطيور السمان وطيور الشنقب ( ويسمى أيضا الجهلول أو البكاسين ) لكن النسور كانت بعيدة فلم نصطد منها شيئا •

ولما كانت حرارة منتصف النهار قد أصبحت شديدة ، فقد رأينا أن نوقف الصيد لفترة ، فهبطنا للغدير ، فوجدنا فى الطفل آثار الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى وآثار حيوانات الوشق ( بفتح الواو والشين ) وأخرى لقطط أصغر حجما • ووفقا لما ذكره البدو ، فان الحيوانات الكلبية ( الشبيهة بالكلب ) تهبط من التلال ليلا فقط بحثا عن المياه ، حيث تكون حيوانات العائلة القططية ( الشبيهة بالقطط ) قاطنة فى الدغل قريبة فى متناول اليد ، وان كانت ــ حتى الكلاب ــ لا تستطيع اخراجها من مكامنها •

لقد كانت آثار الشيهم (بتشديد الشين وفتحها ــ ويسمى أيضا النيص بتشديد النون وفتحها ) ظاهرة متتابعة أيضا ، وتابعنا الكلاب التى جرت للجحر ، فوجدنا بعض أشواك هذا الحيوان الفضولى وآثارا حديثة له فقررنا اخراجه من جحره العميق ، فأرسل مساعد الصيد التابع لى للمعسكر لاحضار كلاب الدشهند وبعض الجواريف ، وفى انتظار عودة الرسول جلس مساعدو الصيد تحت شجرة ليشربوا عصير الليمون وليدخنوا السجائر • وكان الدوق الكبير قد اصطاد خلال هذا الصباح حيوانا نادرا للغاية وهو جربوع ( يربوع ) Jerbaa يشبه الكنجارو •

وحالما وصلب كلاب الدشهند وجهناها للجحر ، وسرعان ما سمعنا نباحا وأصوات تشابك ، لكن للأسف فهذه الكلاب رغم أنها شجاعة في العادة ــ سرعان ما خرجت من الجحر وقد وضعت ذيولها بين أفخاذها خوفا ورعبا ، ولم ترغب في دخول الجحر مرة أخرى ، فطلبنا من البدو أن يحفروا ــ وشرعوا في ذلك فعلا لكن ببطء فقد كانت الشمس حارقة ، كما أن طباعهم تميل للحركة والصيد في الهواء الطلق ، أكثر من ميلهم للعمل الشاق ٠

وشعرنا أن محاولاتنا كانت بلا طائل فقررنا التوقف ، لكن في الوقت نفسه اكتشفنا أثرا مقدسا شائقا ٠ لقد اكتشفنا في مدخل الجحر كتاب التراتيل البروتستنطي ، ربما حمله هنا بعض حيوانات الجحور وفقا لعادة كثير من الحيوانات التي تحفر مساكنها ٠

وكان في الكتاب ــ على أية حال ــ تراتيل وصلوات انجيلية ( بروتستنطية ) أصيلة ، ودعوات للامبراطور وليم ٠ وبشكل عام كان المجلد بحالة جيدة من الداخل والخارج الا أن على أوراقه بعض بقع دماء ٠ ان الله وحده هو الذى يعلم كيف وصل هذا الكتاب الأوربي لهذا الموضع الموحش وكيف فقده صاحبه ، ربما كانت عظامه قد تحللت في مكان قريب في هذا الدغل الكثيف ٠

وركبنا خيولنا وعدنا لمعسكرنا ٠ كان سالم يسير في المقدمة وكان فرسه يعدو عدوا غير سريع ٠ وكان سالم يمتطى حصانه الصغير الأحمر الكستنائي المشوب ببياض ــ بدون سرج ، ويوجه حيوانه اللعوب هذا برسن واحد يسحبه من جانب واحد ٠

وبالقرب من أريحا لاحظت نسرا يغتسل في الغدير فقفزت اليه مستترا بالشاطىء الناتىء ، وفي غضون دقائق قلائل استقر الطائر الباهر في حقيبتي •

وقد أطلق الرفاق الآخرون بنادقهم فاصطادوا عددا لا بأس به من الطيور الصغيرة ، وأقمنا معرضا منظما لما اصطدناه عندما وصلنا جميعا للمعسكر • وبعد ذلك تناولنا افطارنا ، وكان مما لا يبعث على السعادة أننا قضينا معظم الوقت في ذب الذباب أكثر مما قضيناه في الأكل ، ومن الصعب أن أصف حشود الحشرات التي كانت تهاجم طعامنا • لقد قضينا أكثر الساعات حرارة في المعسكر نتلمس الراحة ، فقد سببت لنا الحرارة المرعبة — للأسف — عذابا مستمرا ، وكان من الصعب على المرء أن يجمع أفكاره ليكتب ملاحظات مختصرة أو يكتب بعض الخطابات • لقد كنا نستمتع يوميا في وادي الأردن في فترة الظهيرة بدرجة حرارة مقبولة هي ١٢٢° فهرنهيت •

وفي حوالي الساعة الخامسة عصرا خرجت مرة أخرى مصحوبا هذه المرة بسالم وحده وبعض البدو • وفي البداية أطلقت بندقيتي على بعض الحمام الهادل فوق الأشجار ، ثم تجولنا عبر بعض حقول الشعير القديمة ، فاصطدت عددا كبيرا من السمان لايداعها في صندوق حفظ اللحوم ، وكان هذا ضروريا ، لأن مخزوننا من اللحم كان قد بدأ ينتن شيئا ما ، وانبعثت الرائحة الكريهة من اللحوم المحفوظة لتملأ المعسكر • ورحت أمشي الهوينى بالقرب من الأدغال والبساتين فلاحظت الغطاء النباتي الباهر للمنطقة ، لقد لاحظت على نحو خاص أشجار الضال Zizyphus Lotus (*) وأشجار العناب Spini-Christi التي يصنع من ثمارها

---

(*) عن معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية : نوع شاهدناه بريا في الغور وفي الحولة على مقربة من بانياس — ( المترجم ) •

العناب المعروف الذى يحبه الأوربيون • ويستخدمونه كعلاج للكحة ، وكذلك أشجار البلسم Solanum Sanctum • أما الورود فلم أجد الا ورود أريحا الشهيرة ، وهذه الورود موجودة أيضا ــ بشكل نادر ــ على ساحل البحر الميت • وعند الغروب عدت للمعسكر فتناولت عشائى وخلدت للراحة •

وفى صباح اليوم التالى جمعت الخيام وحدثت الجلبة المصاحبة لهذا العمل وعم الصياح ، وبدأت قافلتنا فى التحرك ، وتبعناها بعد تناولنا الافطار مباشرة يدلنا بدوى برمح طويل وعباءة واسعة يداعبها الهواء ، وكان يركب حصانا كستنائيا جميلا • ويمكن اعتبار هذا الرجل نموذجا للعربى الأصيل ، وقد استغنى الباشا عن خدمات الشيخ الذى كان حتى الآن يعمل كمرشد ، لأسباب لا أعرفها ، وفى البداية ركبنا عند سفوح التلال الحدية عند حافة الأراضى الخضراء ومررنا بين شجيرات كثيفة وتحت أشجار منخفضة كانت ــ بلا مبالغة ــ مغطاة بطيور اللقلق التى استيقظت من سباتها • وبعد برهة اختفت الأدغال ، وتجاوزنا أرض البساتين الطبيعية فى منطقة عين السلطان ، ومرة أخرى استقبلتنا السهوب •

كانت الأرض ــ بشكل عام ــ ملائمة للخيل وكان يمكن للمرء غالبا أن يجرى بحصانه خببا ، الا أنه بين الحين والحين كانت تعترضنا مواضع صخرية ، ومجار مائية بالقرب من الجبال ــ كان علينا اجتيازها • وبعد ساعتين من الركوب انفتح الوادى الجبلى العريض شيئا ما ــ عن يسارنا ، وفى داخل هذا الوادى عند آخر نهايته يوجد ينبوع العوجة El Audje وهو ينبوع يخصب التربة ، ويحافظ على ما بها من خصوبة بالفعل ، انه يفيض خلال الوادى ومن ثم عبر السهل الى نهر الأردن • وكان علينا أن نعبر أدغالا وأشجارا قصارا مرة أخرى ، وعند الجانب الآخر لهذا الشريط الأخضر الضيق ، كان سالم ينتظرنا مع جماعته ،

وكان مشتاقا للمطاردة مستعدا لقيادتنا لأرض عامرة بالطرائد .

واستدارت القافلة الكبيرة ومعظم الرفاق الى اليسار فى الوادى الجانبى الى نبع العوجة ، أما أنا والدوق الكبير وهويوز Hoyos فتبعنا البدو . كان عدد مدهش من الطيور الجارحة على الاشجار هنا ، وفى غضون دقائق خمس اصطدت نسرا من نوع جين الأبيض Jeans le blanc ونسرا آخر من نوع النسور المتنقلة botted eagle . أما هويوز فـ اصطاد نسرا منتعلا أيضا ، وامتدت حقول الشعير البرى بين الشجيرات التى احتشدت فوقها أسراب السمان وكانت تطير أمامنا فى كل خطوة ، ولما كان لدينا قدر كاف من الذخيرة فقد كان نجاحنا رائعا فى اصطياد عدد كبير من هذه الطيور . وكان طائر الحجل ذو السيقان الحمراء موجودا أيضا ولكن بأعداد قليلة ، أما طيور حجل الصخور فلم يكن لها وجود . وأدى بنا المسير الطويل شرقا الى توغلنا بعيدا فى داخل سهل الأردن . وعدنا مرة أخرى لحافة السهوب فاسترحنا فى ظل شجرة لنصف ساعة ، ثم ركبنا خيولنا يتبعنا البدو سائرين على أقدامهم ، وتقدمنا على طول سهل معشوشب مصفر .

وفى غضون حوالى نصف ساعة وصلنا لحافة مجاز عميق فى الهضبة المرتفعة ، يقع أدنى ( أكثر انخفاضا ) بكثير من غدير رقراق ، يجرى بين شاطئين مرتفعين من طين بنى لونه . وكان للمنظر ـ الذى بدا مفاجئا ـ تأثير مروع فترجلنا عن خيولنا وكان علينا أن نهبط الشاطىء المنحدر بشدة ، وأسرعنا متقدمين خلال الشعب الضيق القريب من الغدير ، الذى لم يكن ماؤه المالح ليروق لنا ـ حتى وصلنا لمسيل صغير تحيط به من الجانبين جدران طفلية عمودية يبلغ ارتفاعها بضع مئات من الأقدام . وكان داخل المسيل مليئا بحشائش المستنقعات وبعض الشجيرات القصيرة وبوص ( غاب ) السبخات والمستنقعات . وكان مخرجه الوحيد ممرا ضيقا يرتفع الى الجانب الشرقى للجرف حتى قمة الحيد .

والآن ، فان سالما يدعونا الى أن نتخذ لأنفسنا موقفا فى الجانب المقابل للدغل ، بينما كان عليه هو ورجاله وكلابه أن يثيروا الطرائد فى نباتات البردى الطويلة(*) . ولم يمض على وصولنا لمواقعنا وقت طويل ، حتى غادر خنزير برى غطاءه النباتى وسلك الطريق الوحيد للهرب وهو الممر الضيق الصاعد فى الجبل وتسلقه برشاقة الظباء ، ولم تصبه طلقات بنادقنا الأربع من البعد ، فجريت بسرعة لأكون قريبا من هذا الممر الضيق . مازلت بعيدا بحوالى مائتى خطوة على الأقل عندما ظهر خنزير برى آخر يفر متخذا الممر نفسه فأطلقت طلقتين الى بدنه ، لكن أيا منهما لم تورده موارد التهلكه . حقا لقد أصيب وراح يحجل برجله الخلفية وجر نفسه جرا بطيئا فوق حيد الجبل .

وصعد مثيرو الطرائد وتحلقوا حولى فحثثتهم على أن يتبعونى بحذر لمسافة معينة ، لأننى كنت راغبا فى أن أقص أثر الدماء بنفسى . ولما بدأنا وجدت أثرا حديثا لنمر ، وبعد ذلك مباشرة وجدت الخنزير الجريح ، وسرعان ما وصلنا لقمة الحيد فتجلى لنا منظر رائع للوادى ، فمع أنه لم يكن عريضا الا أنه ثرى بكل أنواع النبات : أدغال ، ومروج وأشجار باسقة ، وفى الناحية الأخرى جروف حادة ترتفع لتحجب الرؤية .

وبتتبع الأثر نفسه أسرعت هابطا لبطن الوادى فلما وصلت ، قادنى الأثر عبر مرج بين الشجيرات فوق غدير ينبع من بين الأحجار ومواضع مستنقعية ـ الى حافة الدغل . وهناك انتظرت وصول رفيقى والبدو ، وواصلت الكلاب متابعة الأثر ، وما هى الا دقائق قليلة حتى سمعت صوت المطاردة والنباح المرح . ان معركة حامية الوطيس تجرى .

---

(*) النص Sedge والمعنى القاموسى نبات البردى أو السقادى . معجم المورد ـ ( المترجم ) .

فاسرعت خلال الدغل فوصلت لمرج صغير تحوطه الأشجار والشجيرات من كل ناحية ، وكانت تدور فى ساحته معركة حامية • فقد هجمت الكلاب بشجاعة وراحت تعض عدوها وتسحبه ، وكان العدو مازال قادرا على الدفاع عن نفسه بهمة وشجاعة • فانتهزت اللحظة المناسبة فأطلقت طلقة صائبة على الخنزير القوى ذى الأنياب الجميلة •

وأصبح الوقت متاحا للتطلع حولى • لقد أمكننى أن أرى بين الاشجار السامقة والشجيرات ، وأمامى وغير بعيد عنى سطح بقعة مياه رقراقة ، وكان يمكننا سماع صوت خريرها ، فدعوت رفاقى بسرعة ليستمتعوا معى بالمنظر الجميل • شكرا للظروف التى أتاحت ملاحقتى للخنزير البرى ، فقد أشبعنا رغباتنا ووصلنا للنهر الذى يحظى بالتقديس ـ انه نهر الأردن الشهير • وأسرعنا لنهبط الأرض المتضرسة خلال الآجام الى الشاطىء الرملى ، حيث يمكننى أن أعاين مجراه والمناطق الجميلة المحيطة به • كان يحف النهر من الجانبين مراع خصبة تتخللها أشجار ذوات ظل ظليل وشجيرات صفصاف ونباتات مثمرة ـ وبشكل عام فالغطاء النباتى هنا يشبه الغطاء النباتى للمواضع القريبة من المياه فى أوربا • والنهر نفسه له صفات المجارى الجبلية الأصيلة : سريع يرغى ويزبد بين الصخور والأحجار •

ومياه نهر الأردن باردة جدا اذا قورنت بحرارة الجو الشديدة ، ويعد تبريد الجسم بعناية قبل السباحة فيه مسألة ضرورية • وفى غضون نصف ساعة توغلنا حتى منتصف مجرى النهر ولم يساعدنا ذلك على الانتعاش فحسب ، وانما كان مفاجأة شائقة فى رحلتنا، ومن المفترض أن الاسرائيليين عبروا هذا النهر بمعجزة فنجوا • وهنا عاد داود الى مملكته مستقلا قاربا مع بارزيلى Barzilli ، وهنا شق الياه Eljah الموج بعباءته فانفلق •

وفي الأزمنة الآخيرة فان كريستوفر الجان ولد المسيح ( عليه السلام ) بين هذه المياه نفسها ( مياه نهر الآردن)(*)، أما ارتباط هذا النهر بالمسيحية نفسها فهو أن يوحنا عمد المسيح ( عليه السلام ) هنا ، وكان يوحنا يقطن الصحراء ويرتدى وبر الجمال ويتقوت بالجراد والعسل البرى ، وقد أقبل المسيح الناصرى ( عليه السلام ) ، ليزور يوحنا الرجل التقى ، فقام يوحنا بتعميده ، فكان يوحنا أول المؤمنين بالمسيحية • وفى هذه المروج ــ أيضا ــ سمع صوت الأب : « انت ابنى الحبيب الذى به سررت » •

ويأتى المقدسون ( حجاج بيت المقدس ) عاما وراء عام فى مواكب، ليستحموا فى نهرالأردن ويحملوا بعضا من مائه وهم عائدون لديارهم • ليعمدوا به أطفالهم ، والأورثوذكس يستحمون فى النهر وهم يلبسون العباءة التى أعدوها لتكون كفنا لهم •

وبعد أن أنعشنا أنفسنا بالاستحمام فى النهر واستردنا عافيتنا أسرعنا ــ يتبعنا البدو لنستأنف طريقنا فى اثر آثار الخنزير البرى، عبر بطن الوادى ثم صاعدين الى حافةالهضبة التى كنا قد هبطنا منها آنفا • وانطلقت الخيول تجرى خببا فعبرنا السهوب من جانب الى آخر بارشاد سالم• وبالقرب من مدخل وادى العوجة الضيق قابلنا المحافظ ( المدير ) وبعض الجنود • وكان تأخرنا لفترة طويلة بالاضافة الى أن الاتجاه الذى اتخذناه لنهر الأردن قد جعله ( أى المحافظ ) قلقا ، فخرج ليتفقدنا ، وكنا قد تجاوزنا الأرض التى بدأنا فيها صيدنا صباحا ، وبعد ذلك استدرنا لداخل الوادى الذى كسته خضرة يانعة ، بينما التلال حول جانبيه لا تختلف فى طبيعتها عن بقية الجبال الحدية الأخرى ــ منحدرات طويلة شديدة قلما يغطيها العشب • وكان طريقنا الضيق الذى

---

(*) اشارة الى خرافة يروجها اليهود ضد السيد المسيح عليه السلام ــ ( المترجم ) •

بدا لا نهاية له ، يمر خلال أدغال كثيفة وشجيرات شائكة ، وبين الحين والآخر كانت تعترضه غدران تحيطها الصخور • وكانت طيور اللقلق التي لا يمكن حصرها تقف على المنحدرات • لم يسبق لى ان رأيت تجمعات لهذا الطائر بمثل هذه الكثافة التى اراها هنا خاصة في وادى العوجة ، وبشكل عام فى سهول وادى الأردن •

ووصلنا لمعسكرنا — أخيرا — بعد هذا المسير الطويل • كانت الخيام منصوبة عند سفح الجبل على حشائش السهوب ونباتات الشعير ( النص : الشوفان Oaks ) البرى ، لكنها قريبة من خضرة وافرة يانعة ، وعلى جانب غدير صغير • لقد وصلنا الآن تقريبا الى رأس الوادى(*) حيث بركة جميلة ذات حواف شديدة الانحدار • وأكلنا أكل جائع لأن الساعة الآن الثالثة بعد الظهر ، ولم نكن قد تناولنا طعاما منذ الساعة الخامسة صباحا ، بالاضافة الى أننا أرهقنا أنفسنا خلال هذه الفترة •

وقضينا فترة ما بعد الظهر ( من العصر حتى الغروب ) فى المعسكر • ان حياة القافلة فى الهواء الطلق وفى الخيام فى الغاية من الجاذبية ، وتختلف بشكل ملموس عن الحياة الأوربية الروتينية • ولسوء الحظ أنه كان فى معسكر العوجة بعض الأمور المزعجة • فقد نصبت الخيام على موضع أرضه ذات أعشاب جافة ، مما يجعلها قابلة للاشتعال ، ولما كان الرفاق يلقون بأعقاب سجائرهم بغير اكتراث ، فقد تسبب هذا فى نشوب حريق استمر دقائق قلائل وأمكن اطفاؤه بوسائل بسيطة • وكان علينا أن نضاعف من حرصنا نظرا لكثرة الذخائر معنا ، ولم يزد هذا الحرص كثيرا عن تحديد عدد السجائر التى ندخنها • وأكثر من هذا فان الغدير قد جف بعد وصولنا بقليل ، وكان هذا الغدير

---

(*) من الواضح ان الوادي منحدر وهو يقصد هنا الجانب العلوى من الوادى — ( المترجم ) •

ضروريا لقافلتنا ، ولما سألنا اتضح أنه سند وتحول عن مجراه ، ولم يعد الغدير كما كان ـ أى الى مجراه المار بجانب معسكرنا ـ الا مساء ، فانعش البغال والخيول التى كانت تعانى الظمأ .

وكان لدى الباشا من الأسباب ما يجعله يشك فى ان الشيخ البدوى الذى طرد من خدمة القافلة بالأمس ، كان هو المدبر لهذا الأذى . وفى المساء خرج عدد من الرفاق فى جولة صيد صغيرة . وقد نجحت فى اصطياد طائر حجل احمر الساقين وطائر لقلق كان فى طريقه لعشه . آلاف من هذه الطيور الطويلة مناقيرها مرت بمعسكرنا ، وحطت فوق الأشجار القصيرة ، لقد كانت كثيرة بقدر ما يتاح لها من مكان تحط فيه فوق الأشجار . وعند الغروب عدنا جميعا لتناول العشاء . وبينما أنا أتهيأ للنوم سمعت عواء حيوانات ابن آوى الجائعة بالقرب من الخيام .

وفى بكور الثامن من أبريل جمع الخدم الخيام وتحركت قافلتنا مرة أخرى . وفى البداية كان علينا أن نرجع من حيث أتينا بأن نسلك الطريق المرهق فى الوادى الجانبى ، حتى وصلنا الوادى الرئيسى فسارت الأمور على نحو أفضل ، فعدونا بخيولنا على طول السهوب عند سفوح التلال طوال ساعتين ، حتى وصلنا للمنخفض المستنقعى . كانت هناك آجام متفرقة ، بالاضافة الى بعض السبخات الممتدة ، وقد ضايقتنا هذه السبخات شيئا ما عند ممارستنا للصيد . وكان سالم ورجاله النشيطون موجودين بالفعل هناك ، لكن لأن دور سالم قد انتهى هنا ، فقد كانت هناك مجموعة أخرى من البدو فى انتظارنا على رأسهم شيخ وسيم جدا تتبعه كلاب ضخام كثيرة ، وكان أتباعه يلبسون ملابس كالتى يلبسها رجال سالم وان كان يبدو على شيخهم أنه من طبقة أغنى . وكان حصانه الكستنائى الجيد مغطى بسرج

وأغطية ثمينة مزركشة ، وكان كساء الشيخ جميلا وعمامته كبيرة ملونة وحذاؤه مغربيا جميلا مزركشا ، وكان سيفه تركيا معقوفا — كل ذلك يدل على ثرائه وغناه . لقد كان منظره — بشكل عام — يحمل طابع رجال قبائل المناطق الداخلية فى آسيا ، أكثر مما يحمل طابع العرب الخلص .

وقد رافق ثلاثتنا : الدوق الكبير وهويوز وأنا ، بأدب ملحوظ — الى مواضعنا فى الجانب المقابل للدغل ، وتابع باقى الرفاق مع بقية القافلة مسيرهم الى نقاط أبعد .

وملأتنا بعض آثار الخنازير البرية والضباع بالأمل لكن سرعان ما خاب أملنا ، فقد كانت الأرض المستنقعية واسعة جدا ويصعب العمل بها . ولم يستطع مثيرو الطرائد اختراقها والتوغل فيها ، وكل ما استطاعوا عمله هو الجرى والصياح حول أطرافها . كانت ممارسة الصيد هنا متعبة فلم يطل أى حيوان برأسه من مكمنه .

ومن ثم فقد ركبنا خيولنا مرة أخرى ولحقنا بالآخرين وعبرنا حيدا ناتئا ذا أرض صخرية ، ومن منحدره الشمالى ألقينا نظرة ممتعة على السهل العريض والتلال الخضراء التى تحده غربا والجبال الصخرية الشامخة على الضفة الشرقية لنهر الأردن .

وكان أمامنا مخرج الوادى ومنطقة عبد القادر الجميلة — لقد كان ذلك واضحا أمامنا يمكن رؤيته وهو فى الوقت نفسه هدف رحلتنا فى هذا اليوم . ان المرء يرى على مسافة طويلة فى هذه السهول ويمكنه أن يصل الى المركز الذى يرغب الوصول اليه ، وان كان ذلك ببطء . فالطريق يسير عبر السهول لا تعوقه عوائق الى جوار سفوح الجبال .

ولما استدرنا لم نر شيئا سوى طيور اللقلق . لقد كانت تترك الخيالة تمر على بعد خطوات قليلة منها دون أن تعيرها التفاتا ، وكانت بعض الطيور الجارحة تحلق فى الهواء ، وحلق زوج من النسور الآسيوية الضخمة على ارتفاع منخفض

فوق رأسي ، وصوبت بندقيتي بسرعة لكن لم تكن هناك طلقة واحدة ، فقد كانت الخزانة فارغة ٠

الشمس محرقة ، ولم تعد هناك تلك السحب التي كانت موجودة في ساعات الصباح لتخفف من وطأة حرارتها ٠ واأسفاه ! ٠ وسرعان ما لحقت بالقوافل ٠ كان منظرها يرثى له ٠ فالبغال يتلو بعضها بعضها الآخر ، وبين كل بغل والبغل الذى يليه بضع مئات من الخطوات ٠

وكانت البغال تجر نفسها جرا ، لفرط ما تحسه من ارهاق وألم تحت وطأة ضربات سائقيها ٠ لقد كان تأثير الحرارة وما عانيناه قبل ذلك فى منطقة لترون Latrun قبل أن نصل للقدس والحاجة الملحة الآن للماء ، كل ذلك ترك تأثيره بشكل واضح ، وكانت كل البغال تنوء بأحمالها فانحنت ظهورها ، لثقل ما تحمله من متاع وبدت أرجلها وكأنها مكسورة ٠

وبعد أن ركبنا لعدة ساعات ، وصلنا لمدخل وادى عبد القادر الذى يتخذ اتجاها شماليا غربيا بين الجبال المرتفعة ، وكما هو المألوف كان ثمة غدير يجرى فى بطنه ، وكان لشاطىء الغدير غطاء نباتى وافر وفرة غير معتادة ، واستمرت هذه الخضرة تحف الغدير فى هبوطه مخترقا السهل حتى نهر الأردن ٠ ولأن الغدير لم يكن يمكن عبوره ونحن على ظهور الجياد الا من نقطة واحدة ، فقد كنا مضطرين أن نستمر بعيدا داخل الوادى على الشاطىء الجنوبى الغدير ، ثم نعود المسافة ذاتها على شاطئه الشمالى ، وهناك انفتح الوادى ليصبح سهلا كبيرا ، حيث كان معسكرنا منصوبا بين مخروط صخرى وبداية الأرض الخضراء ٠

كان الرفاق قد وصلوا بالفعل ، لكن القوافل كانت ماتزال بعيدة لذا ، فقد انتظرنا وصول خيول التحميل ـ بسعادة ـ فى تجويف صغير هيأ لنا ظلا ٠ وقضى بعضنا هذا

الوقت بحثا عن مواضع للاستحمام • كان الغدير ممتلئا عن آخره بالنباتات الريانة (كثيرة العصارة) ، التى يزيد طولها عن قامة الرجل واشجار الدفلى ، التى تغطيها بكثافة زهور حمراء ضخام احجامها ذوات روائح عطرية ــ وبسبب هذه الكثافة النباتية قلما يستطيع المرء الوصول للماء ، وأكثر من هذا فان المنطقة كلها لها المنظر نفسه الذى للمواطن الجنوبية للثعابين ، وقد وضعت فى اعتبارى هذه الزواحف السامة فى هذه المنطقة ، وفضلت أن أستحم فى غدير فرعى ضيق ، بل وقذر الى حد ما بصحبة جعران الطين toads والضفادع ــ بعد أن تفحصت موضع استحمامى جيدا تحسبا لوجود زواحف سامة •

ولما عدنا للمجرى الرئيسى للغدير وجدنا خيمة ومضجعا قد نصبا فى موضعهما بالفعل ، فتناولنا افطارنا فى الحال رغم الحرارة المرعبة ، ورغم أن ذبابا كثيرا كبيرا حجمه يدعو للقرف والغثيان كان لا يكف عن الدوران حولنا • وكان على بعض الرفاق أن يتتبعوا الغدير حتى مخرجه عند السهل العريض ، بينما كان على أنا والدوق الكبير أن نندفع داخل الوادى • وبتوجه من سالم والشيوخ الآخرين حاولنا أن نثير الطرائد فى الأشجار الكثيفة على شاطىء الغدير وشجعنا على ذلك بعض آثار الخنازير البرية • لقد كان ما دخلناه بستانا حقيقيا ــ ثروة هائلة من الزهور والشجيرات الريانة والأدغال الملتفة ، كللت هاماتها باللون القرمزى لزهور الدفلى • روائح رائعة ــ انها روائح الشرق العظيم • انها فردوس كتلك الفراديس الواردة فى ألف ليلة وليلة ، لكن لكل شىء اذا ما تم نقصان ، كما هى طبيعة الأمور فى العالم كله ــ فان هذا الفردوس كان عامرا بالأشواك ، فرفضت الكلاب العمل ، وفى ظل هذه الظروف ليس ثمة مجال للحديث عن ممارسة الصيد ، ففى كل خطوة كانت الأشواك تنغرس فى أجسامنا ، فهربنا من هذا الفردوس بسرعة الى مواضع أقل كثافة فى غطائها النباتى •

لقد فاجأتنى الكثرة الهائلة للسحالى فاتحة اللون فى هذا الفردوس الذى سبب لى آلما ، ففى كل خطوة كانت الزواحف تقفز بين الحشائش • واستدرنا مطلقين بنادقنا على طيور صغيرة أثناء سيرنا وعدنا للمعسكر مساء • أما الرفاق الآخرون فكانوا أسعد منا حظا ، فقد عادوا بطيرين من طيور الدراج لونهما كلون دجاجات غينيا وحول رقبة الواحد منهما طوق من زغب أحمر • لقد أصبح لدينا الآن نماذج جديدة من عالم الطيور ، وسنتابعها فى الأيام التالية ونتعرف عليها بشكل أفضل •

وودعنا هنا سالم ورفاقه وداعا حارا دافئا ، فقد كان على الأتباع المفيدين أن يعودوا لديارهم وبعد أن تناولنا عشاءنا استمتعت بالقاء نظرة رائعة على معسكرنا وما حوله • كانت النيران تلقى ضوءا جميلا على الجروف وعلى الخدم والبدو وهم يروحون ويجيئون • كان أمامنا فى الغد انجاز كبير لأننا قررنا أن نجتاز مركزين من مراكز التوقف لا مركزا احدا ( قررنا أن نقطع مرحلتين فى مرحلة واحدة دون راحة ) •

وقبل شروق الشمس — بل والليل — فعلا — مازال حالكا ، عمت الحركة المعسكر ، فجمعت الخيام وطويت وبدأت القافلة المسير ، وسرعان ما لحقنا بها راكبين خيولنا حول المخروط الصخرى فوصلنا الى السهوب • الوادى يضيق عند هذه النقطة • التلال الغربية تتقدم فى الوادى ، وكان علينا اجتياز المنحدرات الشديدة والمسيلات العميقة والمواضع الصخرية ، وسعدنا ببعض المناظر الجميلة — عبر وادى الأردن — التى زادت جمالها الغدران الجبلية والممرات الضيقة والتلال الرائعة — على الضفة الأخرى بهيئتها الجميلة وجروفها الكثيرة خضرتها • وكان ثمة برج قديم على أحد تلك الجبال ، ولم أستطع معرفة الفترة التاريخية التى يرجع اليها ولا من بناه فى منطقة لا يسكنها الا البدو •

.. لقد وجدنا وادى الأردن في المنطقـة التى نحن فيهـا الآن . قد أصبح محدد الشكل والمسار وفقيرا جدا فى غطائه النباتى ، وقد قطعنا هذه المنطقة فى الساعات الأولى من النهار ، وكانت أعداد كبيرة من الطيور الجارحة تحلق وكان تحليق أحد النسور الضخمة منخفضـا فوق رأسى ، فأطلقت صوبه طلقة فهوى مرفرفا بجناحيه بتثاقل بين الخيول .

وكان علينا بعد ذلك أن نصعد أنفا مرهقا ناتئا للجبل ، وعندما وصلنا للحيد انكشف أمامنا منظر رائع ، فقد أصبح وادى الأردن أعرض ، اذ أصـبح فى امكان المـرء أن يرى مساحات أوسع من السهل وحتى المنطقة التلية بجوار بحيرة طبرية Tiberias حيث الجبال الجميل تكوينها عن يمينها وشمالها ــ وكانت هذه الجبال تحجب عنا رؤية المناظر الى الشمال منها ــ وقمم جبال لبنان الشامخة وحقـول حرمون الثلجية الواسعة ــ يا له من تناقض ، لقد أرهقتنا الحرارة المرعبة التى لم نعان من حرارة مثلها الا فى وادى الأردن ، وفى الوقت نفسه كان أمامنا ــ على البعد ــ الجليد يتألق فى قمة الجبل !!

وتوقفنا ــ للراحة ــ فى هذه البقعة الطريفة . لقـد قررنا أن نركب هابطين الى نهر الأردن ، لقضاء بضع ساعات على شاطىء هذا النهر المقدس ــ بينما تواصل القافلة طريقها الطويل الشاق ، واعترف لنا البدوى ــ بعباءته الطويلة التى يحركها الريح ورمحه فى يده ــ بصراحة أنه لا يعرف طريقا مباشرا يهبط بنا الى النهر ، وكان هذا البدوى قد أرشدنا ارشادا جيدا حتى الموضع الذى نحن فيه ، فقدرنا صراحته وانفصلنا عنه لنتلمس أسرع الطرق الى الشرق ، وجرى بى الحصان خببا قاطعا السهوب ، وكان على أن أتسلق بمشـقة لأعبر بعض المسيلات ، ومن ثم وصلت الى بقعة بها عين ماء بين صخور منخفضة وبستان ذى شجيرات رائعـة ، فتتبعت الغدير الخارج منها على طول شاطئه الصخرى المرتفع ، فوصلت

الى حافة الهضبة حيث وجدت منحدرا شديدا أمامي ، فلما وصلت لآخر المنحدر أدركت أنني في مرج أخضر ومراع خصبة ، وكانت سعادتي فائقة أن نهر الأردن بمجراه الفضي كان يجرى بين هذه المراعي والمروج ، وكانت في النهر ثنية واضحة في هذه البقعة ، مكونا شبه جزيرة مغطاة بأشجار وشجيرات صغيرة تحت الأشجار الكبيرة ، لقد كان الغطاء النباتي هنا كثيفا ورائعا ، وأكثر كثافة وروعة من أي غطاء نباتي رأيته قبل الآن • وعند حافة هذه الغابة وفي ظل أشجارها وشجيراتها المتطرفة غير البعيدة عن المروج والمراعي ، تركنا خيولنا ترعى وتناولنا غداء متواضعا من خبز ولحم بارد ، بعد أن استحممنا في الأمواج المندفعة الباردة • وفي هذا الموضع ـ كما في أي موضع آخر ـ احتفظ نهر الأردن بطبيعته كنهر جبلي وراح ينثر الماء على الصخور التي تحفه وبينها ، وبعد هذا الغداء المتقشف قررت أن أتفحص الدغل الكثيف وأن نقوم باثارة الطرائد لفترة وجيزة •

النصف الأول لشبه الجزيرة مغطى بالشجيرات ـ الواحدة منها أطول من قامة الرجل بقليل ، والأرض مغطاة بكثافة بنباتات كبيرة أوراقها ، متنوعة أنواعها • وتحيط النباتات المتسلقة بالأشجار فشكل الغطاء النباتي بمختلف عناصره كتلة خضراء كثيفة يصعب اختراقها ، لأن كل خطوة داخل هذا الدغل كانت تحتاج الى أن يستخدم المرء كل قوته •

وبعد أن تعبر الجزء الأول من الدغل بنجاح تصل الى منطقة خالية تقسمه ( أى الدغل ) الى نصفين ، وهنا وجدت في الطفل عددا كبيرا من آثار الحيوانات : آثار نمور وآثار حيوانات الوشق والنمور المتوحشة وخنازير برية وحيوانات الشيهم ( النيص ) ، والذئاب وحيوانات ابن آوى ونوعان من الأيائل • وأثارتنا كثيرا تلك الآثار الشبيهة بآثار الأرانب

وآثار الأيائل السوداء ، وقد وجد هر راث Herr Ra'th — كما قال — فى طريقه المنحدر الى نهر الأردن ، فى أحـد المسيلات آيلا صغيرا بقرنين قصيرين ·

والجانب الثانى من الدغل أيضا عبـارة عن شـجيرات ملتفة ذات طابع مدارى تماما ، وتنمو تحت أشجارها نباتات كثيفة يصعب اختراقها ، وقد حثتنى كثرة آثار الحيوانات على أن أحاول اثارة الطرائد من مكامنها · وكان هذا لحسن الحظ · فأوقفت أحد الرفاق فى المنطقة الفاصلة الخالية من الغطاء النباتى الكثيف عند الموضع الذى تتوفر فيـه كثير من آثار الحيوانات ، وجعلت الجنود الأتراك وبعض الخدم يثيرون الطرائد من مكامنها تحت اشراف مسـاعد الصـيد التابع لى · كانت النباتات تحت الأشجار العالية ، كثيفة جدا حتى اننا لم نفكر فى محاولة مسحها بمطاردة الطرائد بها ، فقد أدركنا أن اخراج حيواناتها من جحورها أو مكامنها فى هذه المنطقة أمر لا نتيجة له · ولاحظت فى هذه الغيضة زوجا من طيور الزقزاق وبعض الحدءات ·

لقد أسرعنا الآن عائدين الى خيولنا فوجدناها مسرجة فركبناها عائدين الى حافة الهضبة ، وكنا قد لاحظنا ونحن فى المناطق المنخفضة سديما مظلما عـلى نحو خاص ، يغشى السماء ولكننا لم نكن قادرين على تبين شـكله ، ولما وصلنا للقمة اتضح لنا بشكل جلى ، لقد كان السهب كله — من نهر الأردن حتى السفوح الشرقية للتلال — ملتفا بسحب الدخان التى تظهر بين سوادها الحالك ألسـنة اللهب · لقـد كانت المنطقة المغطاة باللهب والدخان هى المنطقة التى اجتزناها بخيولنا صباحا ، لقد أصبحت الآن طوفانا من اللهب والدخان ، فحشائش السهوب تحترق بسرعة شديدة لا تصدق ، وكان بامكاننا أن نقدر — من دقيقة لأخرى — اتساع رقعة الحريق بملاحظة اقتراب عمود الدخان الذى بدا وكأنه يتتبعنا ·

وقد ركب في مقدمة ركبنا يوسف ـ وهو ضابط فارسي تركي من مواليد تركستان ، وهو رجل قوى ذو لحية داكنة يحمل في يده كرباجا ( سوطا ) رمزا للسلطة ـ وذلك ليدلنا على أقصر الطرق • لقد ركضت خيولنا خببا بشكل رائع قاطعة السهوب يتبعها حريق كبير • انه مشهد قلما تشهده القارات الأخرى بالدرجة نفسها ، وقد اندفع خنزير برى هاربا من الحريق مثلنا ومر على بعد خطوات قليلة من حصانى •

كانت طبيعة الأرض تساعد الخيول على العدو ، فوصلنا سريعا عبر السهوب وعبر منطقة ذات أشجار شوكية آذتنا أشواكها كما آذت الخيول ، وبعد ساعتين بدأت طبيعة المنطقة تتغير ، فأصبح الوادى أكثر عرضا • وارتفعت التلال الخضراء الصغيرة وسطه مغطاة بالشجيرات والشعير القصير • أما ناحية الشمال فقد حجبت عنا الجبال الجميلة رؤية ما خلفها : أنوف جبال الكرمل ، والجبال المحيطة بالناصرة وجبل طابور ( تل طابور ) الشامخ بهيئته المحددة وجبال لبنان وجبل حرمون المجلل بالجليد وجبال بحيرة طبرية ، والى الشرق مرتفعات الجولان ، كل هذه الجبال كان يمكن رؤيتها وتمييزها ، ومررنا في طريقنا بمقبرة بدوية صغيرة ، وقد أضفت عليها أشجار الجميز العتيقة مزيدا من الوقار والحزن •

واقتربنا شيئا فشيئا لهدف رحلتنا هذه ، وهو قرية بيسان وما حولها من أراض جيدة تتخذ شكل دائرة واسعة ، انها منطقة مشهورة • وفي كل الاتجاهات كنا نجد غدرانا صغارا تنحدر من الهضبة تحف بها شجيرات كثيفة منخفضة وحشائش وبوص ( غاب ) ونباتات مستنقعية • وكنا نسمع صيحات الديوك السوداء (*) التى توجد هنا بأعداد كبيرة تأتينا من كل جانب •

---

(★) النص : blackcoak ولم نعثر على مقابلها العربى فى المعاجم الزراعية المتوفرة لدينا ـ ( المترجم ) •

وثمة أحجار مقطعة وحطام في وسط الغطاء النبـاتي اليانع الآن ، بالقرب القريب من القرية البائسة المكونة من عدد قليل من البيوت الحجرية ، وثمة شواهد على ما كانت عليه القرية من أهمية في عصور غابرة كما تدل على تراث المكان • لقد نسي كل هـذا منـذ فترة طويلة • ففي عصر التوراة سكن الكنعانيون هنا ، واستولى عليها بعد ذلك داود، ولما فتحها Scythians أسـماها اليونانيـون سـكيثوبولس Scythopolis • وفي أيام الرومان كانت غنيـة ومزدهرة والتقت فيها كليوباترا مع جانيوس Jannaeus ، وتقـدم بمباي Pompay من بيسان الى جبال يهوذا Judaea . وفي العصور المسيحية الباكرة كانت بيسان مقرا للاسـقف كما كانت مشهورة باعتبارها محلا لميلاد باسيليدز Basilides وسيريلوس Cyrillus . وقد هزم صـلاح الدين بيسـان وأحرقها وسواها بالأرض ففقدت ـ والى الأبد ـ نظمهـا وقوتها ، ولم تقم لها ـ بعد ذلك ـ قائمة •

وآخر بقايا المسرح القـديم وبعض المعـابد وكثير من الأعمدة البازلتية المشيدة بين الشجيرات وحشائش الأراضي المستنقعية ، ما تزال قائمـة يسـمع حولها نقيق الضفادع وجعارين الطين • وفي هـذه القرية ( بيسـان ) البائسـة القذرة يبدو السكان وكأنهم في مجاعة الى جانب الجـدران الحجرية الكئيبة ، ويجوس الأطفـال والـكلاب في الأراضي السبخة المشبعة بالمياه • لقد وجدنا معسكرنا مقاما بالفعل ومرتبا أحسن ترتيب ، في الجـزء الشـمالي من القـرية ، وبالقرب منه مسيل يهبط بشدة ، وقد انبجست منه عين خرج منها غدير راح يجري مرحا بين الصخور والشجيرات وأشجار الجميز بفروعهـا الممتدة ، ورأينا هنـا آثار الحمـامات الرومانية محفورة في الصخور • وعـلى مسـتوى أعـلى من معسكرنا ـ الى الغرب من القرية ـ توجد الهضبة ومنطقـة الينابيع •

وعند وصولنا ذهبت ــ ذات مرة ــ مع بدوى صياد ، كان ينتظرني الى جوار خيمتي ــ الى المستنقعات والاراضى السبخة . لقد كان الماء يسيل في كل مكان ويدت الارض وكانها قطعة كبيرة من الاسفنج . فالغاب (البوص) والبردى والشجيرات ترتوى بوفرة من الأرض السبخة . ودلت كثرة اثار الخنازير البرية ، وعملية اثارة الطرائد بشكل ناجح على وفرة الطرائد في هذا المكان ، فقد كان العمود الروماني قد اعتراه كثير من التدمير بسبب الخنازير البرية ، ففي كل مساء تاتي الى هذا العمود لتحك جلدها به اذا لم تكن الاشجار نامية بشكل كاف . ورغب الى البدو أن أختبيء خلف الدغل وأنتظر قدوم هذه الخنازير ، لكنني لم أرغب أبدا في أن أبقى في هذه السبخة النتنة حتى الغروب فعدت للمعسكر بسرعة .

كانت القافلة الكبيرة تبدو مضطربة نوعا ما ، فقد انطرحت الخيول والبغال مرهقة تماما حول المعسكر ، ولم يكن الرجال في حالة أفضل كثيرا ــ وكل هذا نتيجة المسير المستمر طوال النهار وثقل وطأة الهواء في هذه المنطقة السبخة . وبعد أن تناولنا وجبتنا أوى كل واحد منا مرهقا متثاقلا الى خيمته .

وفي العاشر من أبريل ــ وهو يوم أحد السعف (*) ، عم المعسكر النشاط عند شروق الشمس ، فجهزنا الخيمة الكبيرة لتكون كمصلى (كنيسة صغيرة) وزيناها بقدر ماتتيح الامكانات ، وأقام القسيس الملحق بالقافلة القداس وبارك السعف الذى وزع على كل المسيحيين في القافلة .

وبعد الافطار رتبنا أمورنا للخروج للقنص ، واقترح بعض الرفاق أن يجولوا جولة سريعة في المنطقة الواقعة

---

(*) وهو يوم الاحد الذى يسبق الفصح وفيه تحيى ذكرى دخول المسيح ( عليه السلام ) ظافرا الى بيت المقدس حيث استقبله الناس وهم يحملون سعف النخل ــ ( المترجم ) .

شمال المعسكر ، أما أنا والدوق الكبير فقد رافقنا بعض بدو المنطقة ـ وكانوا ذوى وسامة ومنظرهم متميز ـ لقنص الخنازير البرية في اتجاه نهر الأردن .

ومررنا خلال القرية الى المنحدر الشرقي للهضبه وهبطنا خلال غابات كثيفة ومناطق مستنقعية ، فوصلنا لغدير كان شاطئناه منحدرين ، ودل بطن واديه الصغير ـ بما فيه من خضرة ـ على أننا سنحظى بصيد وافر كالذى حظينا به في الأيام الأخيرة في وادى الاردن مع سالم . وعلى أية حال، فقد اكتشفنا ـ بعد محاولات عديدة غير مجدية ـ أنه لا البدو ولا الكلاب بقادرين على التغلغل في هـذه الغابة الكثيفه ، ومن ثم فقد واصلنا مسيرنا لنقطع مسافة طويلة عبر السهوب الى منطقة سبخة قال البدو أنها ملائمـة لأهدافنـا . وفي حشائش السهوب استطعنا اصطياد بعض السلوى وسربا من طيور الزقزاق ، وشيئا فشيئا وصلنا للأرض السبخة التى بدت واسعة ، وقد نبتت فيها الشجيرات التى ظهر من بينها حيوانان صغيران بشكل ملحوظ ـ الواحد منهما أصغر من الأيل ولونه أصـفر ، وله قرون كقرون الظبي وحركتـه رشيقة ، وله ذيل كثيف كذيل الأيل الآدم (الأسود) . ومما يؤسف له أنهما كانا بعيدين فكان اطلاق البنادق عليهما غير مؤثر . وكانت حواف الأرض السبخة مغطاة في بعض الأماكن بالمستنقعات والحشائش السميكة الطويلة هى الحشـائش السيفية ( حشائش سيف الغراب ) ، وقد اصطدنا في هذه الأرض الرطبة بعض طيور الدراج ( بتشديد الدال وفتحها ) الجميلة ، وأنثى واحدة من الطير نفسه بلونه البنى الفاتح، ولم تكن تشبه طيور التدرج ( بتشديد التاء وفتحها وضم الراء ) (*) .

وأرسلنا الدوق الكبير ـ الآن ـ للجانب الأبعد من هذا الدغل المكون من بوص ( غاب ) كثيف أصفر ، بينما بقيت

---

(★) طائر ذيال شبيه بالحجل Phaesant ( التدرج التهامي ) .

أنا والبدو لنتغلغل فيه من ناحيتنا . لقد كان البوص والبردى أطول من قامة الرجل وغصنا حتى الركب في المستنقعات وفى بقايا النباتات المتعفنة . وبعد أن سرنا سيرا مرهقا طويلا فى هذه الأرض التى تعافها النفس والمليئة بجعارين الطين، وصلت لمكان تقل فيه كثافة النباتات فوقفت في الماء ، وكان على كما وجهني البدو أن أنتظر حتى يحين وقت المطاردة . آلاف مؤلفة من حشرات المستنقعات المؤذية التفت حولى . لقد كانت ــ والحق يقال ــ بقعة مؤذية مقززة ليس من السهل على أن أنساها . وناضل البدو لاثارة الطرائد بين النباتات في كل اتجاه لكن جهودهم ذهبت هباء . وسمعنا صوت خنازير برية تهشم النباتات الكثيفة ، لكن أيا منها لم يبرح مخبأه ، كل ما في الأمر أن بعض طيور البلشون حلقت فوق رءوسنا . وسعيت للخروج من هذا المكان المرعب بأسرع ما يمكن ، فقد شعرت أننى استنشقت كثيرا من بخار عفن المستنقعات والمخلفات النتنة ، وقبيل المساء كان على أن أعانى نتيجة هذا . وسرعان ما عاد الدوق الكبير أيضا من الجانب الآخر للمستنقع بسبب فساد الهواء ، فركبنا خيولنا التى كان فرديناند الممتاز قد أتى بها ، وركبنا عائدين .

وقد أصبنا مرات عدة طيور الدراج ( بتشديد الراء ) في البردى الطويل . لقد كانت خيولنا تسير فوق حشائش السهوب ورغبت أن أجرب كيف يبدأ الحريق ثم ينتشر بسرعة ، فرحت ألقى بعض أعواد الثقاب المشتعل بينما حصانى منطلق ، وفى ثوان قليلة شب حريق هائل وراح ينتشر بسرعة شديدة ، حتى اننا اضطررنا لاطلاق العنان لأفراسنا مخافة أن يلحق ( الحريق ) بنا . وفى اليوم التالى كان يمكننا رؤية هذا الجزء من السهوب ما يزال غارقا فى سحب الدخان . وعدنا سريعا الى بيسان فوجدنا باقى الرفاق قد وصلوا ومعهم بعض الطرائد .

وبعـــد أن تناولنـــا وجبتنـــا مارس بعض البهلوانات المصريين rope dancers العابهم أمامنا ، وكانوا يسافرون مارين ببيسان • ورأينا منهم بعض الألعاب السحرية بعضها ناجح وبعضها أقل درجة ، كما رأينا امرأة ـ بينهم ـ رقصت رقصة النحلة وهى رقصة شهيرة فى مصر ، وبعد الظهـر غادرنا ـ مرة أخـرى ـ معسكرنا وانتشرنا بين الأعشاب السيفية ( أعشاب سيف الغراب ) المنتشرة بالقرب من القرية وكانت طيور الدراج لا تفتأ تغرد بها طوال النهار ، وكان من السهل اطلاق بنادقنا على هذا الطائر الكبير الجميل ، ذى المذاق الطيب لذا ، فهو من أفضل الطيور التى يرغب المسافر فى اصطيادها • وأخذ كل واحد من الرفاق بعض البدو أو الخدم معه ، الى البقعة المحددة له لاصطياد هذا الطائر • لقد قسمنا بيننا أفضل البقع بالقرب من القرية فى دوائر محددة حتى لا تتداخل طلقاتنا •

وبينما كنت فى ذروة نشـاطى أحسست فجـأة بدوار عنيف كما أحسست كأن شللا أصاب قدمى • صداع عنيف • كما أحسست ـ رغم أن حرارة الجو شديدة ـ برودة شديدة تعم جسـدى كله وكأننى فى جـو بارد ثلجى ، فاضطررت للزحف ، والعودة للمعسكر بأسرع ما يكـون • انها الحمى التى يمكن أن تصيب الانسان فى مثل هذا الجو فى غضون دقائق قليلة ، فتحولت من رجل سليم معافى الى رجل مريض • كانت كل عضلاتى تؤلمنى ، وأية حركة أقوم بها تسبب لى ألما كذلك • وعاد باقى الرفاق الى المعسكر ومعهم عدد طيب من طيور الدراج • وخلال الليل لدغت عقرب كبيرة سيىء الحظ كورنسكى ، ثم لدغت بعـــد ذلك ســاخس Sachs . لقد تلقى كرونسكى الجرعة القـوية الأولى من سـم هـذه الحشرة البغيضة • فظهرت عليه أعراض تسمم حادة سببت أقصى درجات القلق • وفى صباح اليوم التالى عم الاحباط سائر المعسكر ، فكان كل شخص فيه يعانى على نحو أو آخـر نتيجة سوء المناخ ، وكنت أنا وكرونسكى واهنين بائسـين

لابد من أدراجنا في قائمة المرضى، وسقط بعض الخدم أيضا مرضى نتيجة سوء المناخ • وكانت كل لحظة تهدد المعسكر باضافة مرضى جدد بالحمى وعم القافلة خوف شديد مسعور من العقارب الآسيوية •

لقد كانت خطتنا الأصلية تقضي بأن نمضى هذا اليوم أيضا فى بيسان، ثم نتجه الى بحيرة طبرية ومنها الى الناصرة ، وأن نقضى وقتا فى توقير الأسبوع المقدس ( أسبوع الآلام ) حتى أحد عيد الفصح • ولكى نهرب من الحمى قررنا الآن أن نقضى الليلة التالية على قمة جبل طابور ، وأن نسافر نهار اليوم التالى الى حيفا، حيث تنتظرنا سفينتنا ميرامار التى تم استدعاؤها من بيروت، لقد كانت أمامنا ــ اذن ــ رحلة طويلة سنبدؤها مباشرة بعد الافطار • واستطعت بصعوبة أن أستوى فوق حصاني من شدة الوهن ، وستمضى فترة طويلة قبل أن أنسى ذلك • وكان علينا ــ فوق ذلك ــ أن نمر خلال مناطق كئيبة غير شائقة ، فى الشمس الحارقة • لقد تركنا الآن السهوب الشبيهة بسهوب الأردن لنصل الى حدود مستوية طويلة وأودية لا متناهية • مسطحات صخرية ، وشجيرات قليلة تتخلل بعض الحقول التى لم تزرع زراعة جيدة • ومررنا بقطعان من الجمال والماعز • المنطقة البدوية وراءنا ، والسكان هنا يلبسون ملابس متباينة ، فالتباين فى اللباس هنا أوضح من ذى قبل ــ ففى المناطق الشمالية ــ ان جاز التعبير ــ نجد الطراز الأسيوى فى اللباس أكثر وضوحا مما هو فى يافا • لقد لاحظنا عمائم ضخاما وعباءات واسعة يحركها الهواء ، ومعاطف مزركشة ، وأحذية متميزة حمراء •

كانت الرحلة مملة ، وكان عزاؤنا الوحيد أن نغض الطرف عن المناظر البائسة حولنا ، لننظر الى الجبال الجميلة ، وأخيرا وصلنا الى سفح تل طابور ، ذلك الجبل القائم بمفرده دون سلسلة ينتمى اليها ، كما أن سفوحه شديدة الانحدار • وكانت كل منحدراته من السفح الى

القمة مغطاة بألواح حجرية وكتل صخرية غير ثابتة وشعير ( شوفان ) برى متقزم · وتعرج الطريق على جانب التل مارا بقرية بائسة من عدة بيوت صغيرة حجرية ، وبدا من غير المفهوم أن تستطيع الخيول التحكم فى نفسها لاجتياز هذه المنطقة ، وبين الصخور نمت شجيرات دائمة خضرتها ولم يكن منظر الشعير القصير كثير العقد جذابا · ان نوع الغطاء النباتى هنا هو الغطاء النباتى لساحل البحر المتوسط · لقد تركنا وراءنا بالفعل الغطاء النباتى الآسيوى الجذاب ·
وكان ركوبنا فوق قمة تل طابور بعد الظهر ــ بعد هذه الرحلة الطويلة ــ آمرا باعثا على السرور شيئا ما · ووصلت خيولنا المرهقة آخيرا ــ بعد انزلاق وتعثر ــ الى الجدار الخارجى لدير صغير · لم آكن بقادر على الاحتفاظ بعينى مفتوحتين لفرط ما آلم بى من ارهاق، فقد كنت لاأزال أعانى من آثار الحمى · وكان الدوق الكبير قد ألم به المرض من جراء الركوب لفترة طويلة ، وفى الليل هاجمته حمى كالتى هاجمتنى بالأمس ــ لكن بشكل أقسى ·

وكانت خيمة واحدة قد تم ارسالها لتسبقنا الى تل طابور ، آما بقية القافلة فبقيت فى الناصرة فلم يكن من الممكن حث البغال المرهقة على صعود الجبل مع بقائها حية فى الوقت نفسه · وقد اضطجعنا فى هذه الخيمة لننام فى انتظار الطعام · لقد تركنا الآن هواء الأردن الكئيب الرطب ــ لوقوع المنطقة تحت سطح البحر ، وأصبحنا الآن فى منطقة جبلية هواؤها عليل ونسائم مسائها منعشة وبرودة ليلها ثلجية ، بينما نهارها حار ·

كانت المناظر البعيدة تبدو رائعة من فوق تل طابور ، فالى الجنوب الشرقى يمتد سهل الأردن الواسع وقد غطاه بخار الهواء الثقيل وحفت به الجبال من الجانبين ، وكانت سلسلة الجبال الغربية ( فى الضفة الغربية للنهر ) خضراء

داكنة مع عدد لا يحصى من القمم والأشكال المخروطية ، وكانت الجبال الشرقية شامخة جرداء ــ انها موطن القبائل البدوية النبيلة · والى الشمال الشرقى بدت بحيرة طبرية كمرآة صافية تحفها التلال · والى الشمال جبال لبنان وحرمون يجللها الجليد ، والى الأدنى منا ــ عند سفح جبل طابور توجد المنطقة التلية التى تقطعها الأودية والمسيلات التى تغطيها الأحجار والشمير البرى والتى تمتد حتى الجبال ، الكتلة الصخرية لجبل الكرمل أو جبل مار اليـاس Mar-Elias الشامخ الذى يقف متفردا غير مرتبط بسلسلة جبلية ·

وفى ساعات المساء استمتعنا بهـذا المنظر الجميل · وكانت بعض النسور الذهبية والصقور الملكية تدور معلقة فوق الوديان الهادئة العامرة بالأشجار · هدوء تام يخيم حولنا ، فليس من صوت سوى صوت جرس الدير الواضح ينادى بالسلام المريمى (تحية جبريل للعذراء : سلام عليك يا مريم ) فى هذه البقعة النائية الخالية · وبدأت أحس أننى قادر على أن أدب ببطء حول قمة التل لأتفقد المبانى والآثار · كان الدير اليونانى يقع فى مواجهة دير لاتينى (كاثوليكى) نصبت فى ساحته خيامنا ، وبين هذين المبنيين ، وحولهما توجد أسوار آيلة للسقوط وأحجار وبقايا تحصينات قديمة ــ أصبحت النباتات تنمو ــ الآن ــ بينها · ولفتت انتباهى بوابة ذات قمة مستدقة تحظى بالصيانة ، والى جوارها توجد خرائب ( بقايا ) من كل العصور مختلفة صفاتها ، كبقايا قلعة تبدو عائدة للعصور الوسطى العربية ·

وفى العهد القديم نجد تل طابور يمثل الحد الفاصل بين قبيلة يساكر Issacher وقبيلة زبولون Zebulon ، وقد جمع Deborah جيشا هنا ، ومن هنا هبط العبرانيون الى السهل وذبحوا Sisera قائد ملك هازور Hazor المدعو جابن Jabin · وكانت مدينة تسمى ايتابيريون Iabyrion تقع على قمة تل طابور تحت حكم أنتيوكوس الكبير Antiochus the great

وفي سنة ٥٣ للميلاد شن جامبينيوس Gambinius حربا ضد اليهود ، وقد جعل جوزيفوس Josephus من تل طابور قلعة حصينة ، وفي عهد فسباسيان Vespasian م ذبح عدد كبير من الاسرائيليين على يد قائده بلاسيدوس Placidus ٠

وقد ارتبط هذا الجبل ــ دائما ــ منذ عصور المسيحية الباكرة بتجلى المسيح ( عليه السلام ) ، لذا فهو جبل يحظى بالتوقير ٠ وقد وصفه كل من أورجن Origen وجيروم Jerome ، وقد شيد الصليبيون أول دير فوقه ، الا أن المسلمين دمروه على أية حال ٠

وفي سنة ١٢١٢ بنى الملك العادل ــ أخو صلاح الدين ــ قلعة فوقه ، حاصرها الصليبيون ــ بعد ذلك ــ دون نتيجة ، ثم بمرور الوقت دمرها المسلمون أنفسهم لتضاؤل أهميتها ، ولا ترجع الأديرة الحالية هنا لأزمنة قديمة وان كان قد تم تشييدها على اطلال الأديرة الأولى ٠

وكل المنطقة المحيطة بتل طابور مليئة بالذكريات التاريخية لذا ، فهي منطقة جذابة تحظى من المرء باهتمام مضاعف ٠ وبالقرب من تل طابور يوجد تل آخر دائرى يرتفع من وسط واد صغير أخضر ، حقق صلاح الدين عند سفحه أروع انتصاراته في الثالث والرابع من شهر يوليو سنة ١١٨٧ ، ومن يومها بدأت القوى الصليبية في الانحدار النهائى ٠ وتم أسر الملك جاى Guy ملك لوزجنان Lusignan وآخرين كثيرون غيره ، وبيع الفرسان للعبيد ، وتم اعدام فرسان الهيكل Templars ورهبان القديس يوحنا جميعا ، وقتل صلاح الدين بنفسه رئيس فرسان الهيكل ٠ وهذا التل نفسه يشار اليه باعتباره الموضع الذى ألقى فيه المسيح عظاته ( عظات الجبل ) ، كما يشار اليه كموضع لمعجزة الخبز والسمك Loaves & fishes ٠

وفى المساء تناولنا عشاءنا فى غرفة واسعة بالدير ثم آوينا الى فراشنا مبكرا للراحة • كان الدوق الكبير يعانى كثيرا من الحمى وتناول قدرا كبيرا من دواء الكينين • وفى ١٢ ابريل استيقظنا مع شروق الشمس . لقد ولت أيام الاقامة فى الخيام واسعدت كثيرا لهذا • وهبطنا الجبل على الاقدام ، فقد كان الهبوط راكبين مستحيلا ، كنا بما فينا المرضى والناقهين نتحرك ببطء فوق الأحجار والدبش وبين الشعير البرى • كان الهواء باردا ومنعشا ، كما كانت الجبال حولنا ، وقد لمستها أشعة الصباح تتألق بتدرجات لونية فاتنة ، وبعد مسير مرهق وصلنا أخيرا للوادى وركبنا خيولنا •

وأمكننا أن نعبر فوق ظهور جيادنا سلسلة تلال تغطيها الصخور والشجيرات ، ومن منحدراتها المقابلة أمكننا أن نلقى نظرتنا الأولى على الناصرة الواقعة فى بطن واد صخرى . ووصلنا لطرف المدينة الصغيرة البعيد بالمرور فى الشوارع الضيقة . وكان الطبيب قد منعنى — بسبب الحمى — من دخول اى سراديب باردة ، وأية أماكن ضيقة ، لذا لم أكن قادرا على زيارة الكنيسة ومصلى البشارة ( المقصود بشارة الملك جبريل لمريم بحملها بالمسيح ) الشهيرة وكل الأماكن المقدسة •

وتذكرنا العمارة فى الناصرة بعمارة بيت لحم ، ويدين السكان بديانات مختلفة ، ويختلفون فى ملامحهم عن أهل جنوب فلسطين فألوانهم أكثر بياضا ، وأزياؤهم — رجالا ونساء — جميلة جدا ، وكانت الخيمة المعدة لطعامنا قد نصبت فى مكان مكشوف واستراح جانب من أفراد القافلة على الحشائش المحيطة بها • وسبقنا العدد الأكبر من البغال محملا بالأمتعة الى حيفا • تناولنا افطارنا سريعا وركبنا حناطير ذوات أسقف منخفضة تجرها خيول صغير حجمها ، وقد عمل رجل سويسرى منذ سنوات كثيرة مضت فى تنظيم هذه العربات ( الحناطير ) بين الناصرة وحيفا • كان الطريق

ـــ ان جاز اطلاق هذا الاسم عليه ـــ مربكا فقد معالمه ، وراحت العربات ( الحناطير ) تكسر عظامنـــا ، فمرة ترتفع ومرة تنخفض فوق الصخور والأحجـــار • وعبرت عربتنـــا بعض حيود التلال المغطاة بمساحات من الشعير غير الكثيفة وبأشجار دائمة خضرتها • وفى الوديان الكائنة بين هذه التلال توجد مروج سبخة للغاية كانت العربات مهددة بأن تسيخ فيهـــا ( تنغرس فيها ) • كان الطقس ـــ لحسن الحظ ـــ لطيفا غـــير ممعن فى حرارته ، وكانت المنطقة جميلة ، ونمت أشـــجار كثيرة نموا حسنا ، وكثرت الزهور ، وبعـــد مســـير طـــويل وصلنا لسهل عريض يمتد على طول الخليج تقع عنـــد آخـــر نقطة فى شماله مدينة عكا .. Akha أو بطولمياز Ptolemias الشهيرة ، أما الرأس الجنوبى مع جبل الكرمل الذى ينحـــدر بشدة نحو البحر ، فيتاخم حيفا • والســـهل نفســـه مزروع زراعة جيدة ، وعـــلى ضـــفاف نهـــر صـــغير هو نهر المقطـــا El-Mukatte نجد أشجارا مثمرة ، لقد أرهقنا الطريق وسبب لنا آلاما ، بسبب كثرة حفره فى آخر ساعة نقضيها فى آسيا •

ســـحب كثيفة فى الأفق ، والشـــمس غائمة والـــرياح الباردة تهب من البحر وكأنما قدمت من أوربا الباردة ترحب بعودتنا الوشيكة • لقد كان علينا الآن أن نلقى ـــ بشغف ـــ نظرة أخيرة عـــلى قوافل الجمـــال والمـــاعز بآذانه الطويلة ، والخيول العربية والبشر بعباءاتهم الواســـعة ، والمـــلابس البهيجة والعمائم الكبيرة والمنازل الشرقية والمقابر الآسيوية وكل حركات الحياة الشرقية ، التى شوقتنا وأمتعتنا لفترة طويلة والتى كنا قد بدأنا نتآلف معها • لقـــد راح كل منـــا يحاول حفر مايراه فى ذاكرته حتى اذا ما عاد لأوربا ، حيث البرودة وحيث العواصف الشمالية التى يعانى منها الأوربيون البؤساء ـــ فان هذه المناظر الشرقيـــة ستمثـــل أمام عيـــون

الذاكرة ، فيشعر الانسان وكأنه عاد للشرق مهد الانسانية ، وحيث فلسطين ، والشرق المقدس الذهبي العظيم .

وهبطنا في طريق ضيق من طرق حيفا لنصل سراعا الى الميناء ، ومدينة حيفا مشيدة على درجات المنحدرات الحادة لجبل الكرمل . خطوة أخرى في الأرض الشرقيــة ، نظـرة أخرى أخيرة على الحياة الشرقية المبهجة ، وانتزعنا أنفسنا انتزاعا من الشرق ، وحملنا قارب – راح يتمايل مع الموج – الى مرسى سفينتنا ميرامار .

★ ★ ★

## الفصـــل العـــاشر

**العـــودة ـ المـــرور بكانديا ـ زانطة ـ قناة ايثــــاكا Ithaca ـ كورفو ـ تأخر اضطرارى لساعات فى كورفو ـ بوشى دى كاتارو Bocchi di Cattaro راجوسا ـ زارا ـ تريست ـ الرحلة الى فينا ـ نهاية الرحلة ٠**

بدأت باخرتنا ابحارها قبل أن يسدل الليل سـدوله ، وغطت ظلال الليل تلال الساحل الآسيوى فألقت عليها غلالة من غموض ، وارتفع الموج يضرب سفينتنا ، وبدت سفينتنا غير مستقرة لساعات ٠ وقضينا معظم الثالث عشر من الشهر فى هواء بارد فى عرض البحر ٠ كانت السحب الكثيفة تجلل السـماء وعم السـكون فى ميرامار ٠ وراح الركاب الذين لا يعانون مرضا يراقبون الموج من فوق سـطح السـفينة ، سارحين بأفكارهم فى بلاد الشرق العظيم ٠ لا شك أن المرء سيغرق فى ذكريات الأيام السعيدة عندما يركن للهدوء ٠

وفى اليوم الموافق للخامس عشر من هـذا الشهر ظهرت لنا جزيرة كانديا بمناظرها الجذابة ، ومررنا بالقـرب من سواحلها متأملين جبل ايدا Ida الذى يغطيه الجليد ٠ وفى اليوم التالى رأينا رأس ماتابان Matapan الجبل اليونانى ، وبعد الظهر رأينا زانطـه Zante ومررنا بين الجـزيرة والساحل اليونانى الرئيسى ، لنرى بعد ذلك قمم سيفالونيا المعتمة Cephalonia ، وفى نور القمر الرائع مررنا بقناة ايثاكا Ithaca الشهيرة ـ موطن أوليسيس Olysses ورأينا صخرة سابهو Sappho والجزر التى أحاطتها الأساطير

الاغريقية بهالة من القداسة . وفى بكور اليوم السابع عشر . دخلت ميرامار ميناء كورفو . وحيتنا جلجلة الاجراس . فقد كان هذا اليوم هو عيد أحد السعف بالنسبة لليونانيين ، فقد كانت المواكب المزدانة والقسس بملابسهم الثمينة يتبعهم أهل البلاد بأزياء جميلة — يتحركون على طول الشاطىء . وكان لابد من زيادة خزيننا من الفحم فأرسلنا لهذا الغرض مندوبنا الى خليج ابسا Ipsa ، ووضعنا قاربنا بجانب منزل صغير مطل على البحر وتسلقنا — خلال حدائق يانعة وحقول شعير الى القمة ، حيث ألقينا نظرة على الجزيرة الجميلة والجبال الألبانية المقابلة . وعندما عدنا الى ميرامار وواصلنا رحلتنا كانت فترة ما بعد الظهر هادئة ، والهواء دافئا فاستمتعنا بمناظر الساحل الجميل ونحن نمر ازاءه .

وفى يوم ١٨ استيقظنا عند بونتا دسترو Runta d'Ostro .

ولآن معظم رفاق الرحلة لم يسبق لهم التعرف على بوشى دى كاتارو Bocchi di Cattaro ، فقد أبحرت ميرامار بين جروف رمادية عالية الى كاتارو ذات الموقع الرائع ، وقمنا بنزهة قصيرة داخل المدينة الصغيرة وآثارت اعجابنا ملابس الفلاحين الجميلة المتباينة ، وبدا جذابا أن يستجم المرء فى هذه المنطقة الصخرية المرتفعة التى يقطنها جبليون شجعان لهم أخلاق الفرسان .

وبعد الظهر وصلنا لاكروما Lacroma ورست سفينتنا على هذه الجزيرة الصغيرة الجذابة . كان كل شيء فيها أخضر ومزهرا ، وتنسمنا — لآخر مرة — هواء الجنوب الحقيقى ونعمنا بأشعة الشمس فى يوم ربيع حقيقى ، وجدفنا بقارب لنصل الى راجوسا — وهى دوبروفنيك القديمة السلافية — وتجولنا حول المدينة الثرية بقصورها ومبانيها الجميلة ، وقضينا الليل على سطح ميرامار فى ميناء جرافوزا Gravosa .

وفى التاسع عشر من هذا الشهر لم يكن البحر هادئا ، وكانت السماء غائمة وهبت رياح باردة وسقطت زخات من

المطر . ان الرحلة بين الجزر الدلماشية الجميلة جدا بشكل عام – لم تقدم لنا الا القليل من المتعة . وقد بقينا فى زارا Zara طوال المساء والليل .

وفى اليوم العشرين بدأنا مبكرا من عاصمة دلماشيا ووصلنا تريست بعد الظهر ، والمطر ينزل والسماء عاجة بالسحب ، وقضينا يوما ممتعا هناك ، وغادرنا بعد ظهر اليوم الواحد والعشرين وودعنا – وداعا مؤثرا – قبطان السفينة ميرامار التى لم تخذلنا ، وكل العاملين معه ، وفى كارست Karst ألقينا نظرة مودع للبحر الجميل فسنمضى منذ الآن فترة طويلة فى البر الأوربى .

وانقضى الليل سريعا . فقد كنا أثناء الليل نحلم بالبدو على خيولهم العربية ، وبالمآذن الرشيقة ، والجبال الشامخة ، والصحراء الشاسعة والنيل المقدس وغابات النخيل المتموجة ، وأشجار الجميز ، وأسرار معابد ايزيس ، لكن أحلامنا السعيدة تلك سرعان ما بددها الواقع ، فقد استيقظنا فى سمرنج Semmering ، فاستقبلتنا بريح الشمال القارصة وثلج ، وقد تدثرت بعباءة من جليد . وفى فينا ، كانت السحب الكثيفة تحجب السماء ، واعترت المسافرين – الذين اعتادوا على شمس الجنوب – قشعريرة . انه مناخ الشمال الأوربى البارد الكئيب .

وانتهت الرحلة وتفرق جمعنا ، لكن أفكارنا ظلت مرتبطة ارتباطا لا فكاك منه بالشرق البعيد .

تحية لك يا هذا الشرق الذهبى العظيم المشمس !

## اقرأ فى هـذه السـلسلة

| | |
|---|---|
| رسائل واحاديث من المنفى | فيكتــور هــوجو |
| الجــزء والكل ( محــاورات فى مضــمار الفيزياء الذرية ) | فيرنر هيزنبــرج |
| التراث الغامض ماركس والماركسيون | ســـدنى هــوك |
| فن الأدب الروائى عنــد تولستوى | ف ٠ ع أدنيـــكوف |
| ادب الأطفـــال | هادى نعمــان الهيتى |
| احمــد حســن الزيات | د٠ نعمــة رحيم العــزاوى |
| اعــلام العــرب فى الكيمياء | د٠ فاضل أحمــد الطـائى |
| فكرة المسرح | جـــلال العشرى |
| الجحيـــم | هنــرى باربوس |
| صــنع القــرار الســياسى | الســـيد عليـــوة |
| التطــور الحضارى للانسان | جاكوب برونوفســكى |
| هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال | د٠ روجــر ســتروجان |
| تربيـــة الدواجن | كـاتى ثيـــر |
| الموتى وعالمهم فى مصر القــديمة | ا ٠ ســـبنسر |
| النحـــل والطب | د٠ ناعوم بيتروفيتش |
| سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى | جوزيف داهمـــوس |
| سياسة الولايات المتحــدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤ | د٠ ليفوار تشامبرز رايت |
| كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى الســـنة | د٠ جـــون شـــندلر |
| الصــــحافة | بييـــر البيـــر |
| اثر الكوميـــديا الالهية لدانتى فى الفــن التشـــكيلى | د٠ غبـــريال وهبـــة |
| الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعـــدها | د٠ رمسيس عــوض |
| حركة عدم الانحياز فى عــالم متغير | د٠ محمد نعمان جــلال |
| الفكر الأوربى الحديث ( ٤ جـ ) | فرانكلين ل ٠ باومـــر |
| الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥ | شـــوكت الربيعى |
| التنشئة الأسرية والأبناء الصــغار | د٠ محيى الدين احمد حســين |

| | |
|---|---|
| نظريات الفيلم الكبرى | ج. دادلى اندرو |
| مختارات من الأدب القصصى | جوزيف كونراد |
| الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد | د. جوهان دورشنر |
| حرب الفضاء | طائفة من العلماء الأمريك |
| ادارة الصراعات الدولية | د. السيد عليوة |
| الميكروكمبيوتر | د. مصطفى عنانى |
| مختارات من الأدب اليابانى | صبرى الفضل |
| الفكر الأوربى الحديث ٢ ج | فرانكلين ل . باومر |
| تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة | جابريل باير |
| اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة | انطونى دى كرسبنى |
| كتابة السيناريو للسينما | دوايت سوين |
| الزمن وقياسه | زافيلسكى ف . س |
| اجهزة تكييف الهواء | ابراهيم القرضاوى |
| الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى | بيتر رداى |
| سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى | جوزيف داهموس |
| التجربة اليونانية | س . م بورا |
| مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية | د. عاصم محمد رزق |
| العلم والطلاب والمدارس | رونالد د. سمبسون<br>ونورمان د . اندرسون |
| الشارع المصرى والفكر | د. انور عبد الملك |
| حوار حول التنمية الاقتصادية | والت وتيمان روستو |
| تبسيط الكيمياء | فريد س هيس |
| العادات والتقاليد المصرية | جون يوركهارت |
| التذوق السينمائى | آلان كاسبيار |
| التخطيط السياحى | سامى عبد المعطى |
| البذور الكونية | فريد هويل<br>شاندرا ويكراما ماسينج |
| دراما الشاشة ( ٢ ج ) | حسين حلمى المهندس |
| الهيروين والايدز | روى روبرتسون |
| نجيب محفوظ على الشاشة | هاشم النحاس |

| | |
|---|---|
| صور افريقية | دوركاس ماكلينتوك |
| المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية | بيتر لورى |
| وظائف الأعضاء من الألف الى الياء | بوريس فيدروفيتش سيرجيف |
| الهندسة الوراثية | ويليام بينز |
| تربية أسماك الزينة | ديفيد الدرتون |
| الفلسفة وقضايا العصر ( ٣ ج ) | جمعها : جون ر · بورر وميلتون جولد ينجر |
| الفكر التاريخي عند الاغريق | أرنولد توينبى |
| قضايا وملامح الفن التشكيلي | د· صالح رضا |
| التغذية في البلدان النامية | م·هـ· كنج وآخرون |
| بداية بلا نهاية | جورج جاموف |
| الحرف والصناعات في مصر الاسلامية | د· السيد طه أبو سديرة |
| حوار حول النظامين الرئيسيين للكون | جاليليو جاليليه |
| الارهاب | اريك موريس وآلان هو |
| اخناتون | سيريل الدريه |
| القبيلة الثالثة عشرة | آرثر كيستلر |
| التوافق النفسي | توماس ا · هاريس |
| الدليل الببليوجرافي | مجموعة من الباحثين |
| لغة الصورة | روى أرمز |
| الثورة الاصلاحية في اليابان | ناجاى متشيو |
| العالم الثالث غدا | بول هاريسون |
| الانقراض الكبير | ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك |
| تاريخ النقود | فيكتور مورجان |
| التحليل والتوزيع الأوركسترالى | اعداد محمد كمال اسماعيل |
| الشاهنامة ( ٢ ج ) | الفردوسي الطوسي |
| الحياة الكريمة ( ٢ ج ) | بيرتون بورتر |
| كتابة التاريخ في مصر | جاك كرابس جونيور |
| من النقد السينمائي الأمريكي | ادوارد ميرى |
| تراتيم زرادشت | اختيار / د· فيليب عطية |

| | |
|---|---|
| السينما العربية | اعداد / مونى براح وآخرون |
| دليل تنظيم المتاحف | آدامز فيليب |
| سقوط المطر وقصص اخرى | نادين جورديمر وآخرون |
| جماليات فن الاخراج | زيجمونت هبنر |
| التاريخ من شتى جوانبه ( ٣ جـ ) | ستيفن اوزمنت |
| الحملة الصليبية الأولى | جوناثان ريلى سميث |
| التمثيل للسينما والتليفزيون | تونى بار |
| العثمانيون فى أوربا | بول كولنر |
| صناع الخلود | موريس بيير برابر |
| الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ) | الفريد ج · بتلر |
| رحلات فارتيما | رودريجو فارتيما |
| انهم يصنعون البشر ( ٢ جـ ) | فانس بكارد |
| فى النقد السينمائى الفرنسى | اختيار/ د· رفيق الصبان |
| السينما الخيالية | بيتر نيكوللز |
| السلطة والفرد | برتراند راسل |
| الأرض فى ألف عام | بيارد دودج |
| رواد الفلسفة الحديثة | ريتشارد شاخت |
| سفر نامة | ناصر خسرو علوى |
| مصر الرومانية | نفتالى لويس |
| الاتصال والهيمنة الثقافية | هربرت شيلر |
| مختارات من الآداب الآسيوية | اختيار / صبرى الفضل |
| كتب غيرت الفكر الانسانى ( ٣ جـ ) | احمد محمد الشنوانى |
| الشموس المتفجرة | اسحق عظيموف |
| مدخل الى علم اللغة | لوريتو تود |
| حديث النهر | اعداد/ سوريال عبد الملك |
| من هم التتار | د· ابرار كريم الله |
| داستريخت | اعداد / جابر محمد الجزار |
| معالم تاريخ الانسانية ( ٤ جـ ) | هـ · ج · ولز |
| الحملات الصليبية | ستيفن رانسيمان |
| حضارة الاسلام | جوستاف جرونيباوم |
| رحلة بيرتون ( ٣ جـ ) | ريتشارد ف · بيرتون |
| الحضارة الاسلامية | آدمز متز |
| الطفل ( ٢ جـ ) | ارنولد جزل |

| | |
|---|---|
| افريقيا الطريق الآخر | بادى أوتيمسود |
| السحر والعلم والدين | فيليب عطية |
| الكون ذلك المجهول | جلال عبد الفتاح |
| تكنولوجيا فن الزجاج | محمد زينهم |
| حرب المستقبل | مارتن فان كريفلد |
| الفلسفة الجوهرية | سونداري |
| الاعلام التطبيقي | فرانسيس ج · برجين |
| تبسيط المفاهيم الهندسية | ج · كارفيل |
| فن المايم والبانتومايم | توماس ليبهارت |
| تحول السلطة | الفين توفلر |
| التفكير المتجدد | ادوارد وبونو |
| السيناريو في السينما الفرنسية | كريستيان سالين |
| فن الفرجة على الأفلام | جوزيف · م · بوجز |
| خفايا نظام النجم الأمريكي | بول وارن |
| بين تولستوى ودستويفسكي ( ٢ ج ) | جورج ستاينر |
| ما هي الجيولوجيا | ويليام ·ه · ماثيوز |
| الحمر والبيض والسود | جارى ب · ناش |
| انواع الفيلم الأميركي | ستالين جين · سولومون |
| رحلة الأمير رودلف ٢ ج | عبد الرحمن الشيخ |
| رحلات ماركوبولو ٣ ج | عبد العزيز جاويد |
| الفيلم التسجيلي | محمود سامي عطا الله |
| الرومانتيكية والواقعية | يانكو لافرين |
| نظرية التصوير . | ليوناردو دافنشي |
| تاريخ العلم والحضارة في الصين | جوزيف نيدهام |
| الحب | د · ليوبوسكاليا |
| كنوز الفراعنة | ت · ج · ه · جيمز |
| اطلالات على الزمن الآتي | د · السيد نصر الدين |
| الرواية اليوم | مالكولم براد برى |
| مشكلات القرن الحادى والعشرين | يوسف شرارة |

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٨٤١٤

ISBN — 977 — 01 — 4912 — 8

عن القدس الشريف يحدثنا الأمير ردولف في هذا الجزء الثالث والأخير من رحلته. يصف لنا المقدسات المسيحية واليهودية، ولايعجب من بقائها مصانة موقرة طوال حكم المسلمين لأنه يرى أن الإسلام يضم الديانات السابقة عليه بين جناحيه، فهي أيضا مقدسات إسلامية. ويبدى لنا رأيه في كثير من الحكايات اليهودية المتعلقة ببعض المواضع في فلسطين. والحق أن الأمير ردولف منذ وطأت قدميه أرض الشرق وهو يسهب في وصف القداسة والدفء اللذين يشعان في أجواء المنطقة وقد أسقط الرجل كل ما قرأه في التاريخ علي مارآه على أرض فلسطين وعلي ما رآه من قبل في أرض مصر.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

چيرار دى نرڤال

ترجمة : د. كوثر عبد السلام البحيرى

# رحلة إلى الشرق

## الجزء الرابع

# رحلة إلى الشرق

## چيرار دى نرڤال

### الجزء الرابع

ترجمة : د. كوثر عبد السلام البحيري







الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

الإخــراج الفنى

زهــور الســـلام شــاكر

## الوضع الاجتماعي للنساء

ظل الناس يعتقدون لمدة طويلة أن الإسلام يضع المرأة في مكانة وضيعة للغاية بالنسبة لمكانة الرجل حين جعل منها إلى حد ما ـ جارية لزوجها . وتلك فكرة سرعان ما تسقط إزاء الدراسة الجادة لعادات وتقاليد الشرق . والأجدر أن نقول إن محمداً قد رفع مكانة المرأة كثيرا عما كانت عليه من قبل .

وقد أقر موسى أن نجس المرأة التي تلد بنتا وتدخل في العالم سببا جديداً من أسباب الخطيئة ينبغي أن يكون أطول من تلك التي تلد مولوداً ذكراً . ويستبعد التلمود النساء من الاحتفالات الدينية ويحظر عليهن دخول المعبد . أما محمد فعل العكس من ذلك فقد أعلن أن المرأة فخر الرجل وسمح لها بدخول المساجد وأعطاها من أمثلة عظيمات النساء آسيا زوجة فرعون ومريم أم المسيح وابنته فاطمة . ولتسقط هنا تماما تلك

الفكرة الأوربية التي تصور محمداً كما لو كان لا يعتقد في وجود الروح لدى النساء ، وثمة رأى آخر مازال واسع الانتشار وهو الذى يقول بأن الأتراك يحلمون بسماء خاصة بالحوريات من دائمات الشباب اللائى يتجددن دوما ، فذلك خطأ . لما الحوريات الا الزوجات بعد أن يستعدن شبابهن ويتغير شكلهن فيصبحن أكثر بهاءً ، ذلك أن محمداً سوف يطلب من المولى أن يفتح جنات عدن للمؤمنين وأقاربهم وأزواجهم وأطفالهم ممن يكونون قد اتبعوا الفضيلة وسوف يقول لهم : «ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم واستمتعوا فيها ما شئتم ! »

ومن هذا النص وغيره مما نستطيع تقديمه لابد أن نتساءل من أين وجد ذلك الحكم الخاطئ المتجمد الذى مازال منتشراً بيننا . وربما كان علينا ألا نبحث عن سبب آخر للذلك غير ذلك الذى يدل عليه أحد كتابنا القدامى[1] إذ يقول : «إن ذلك الحكم التقليدى مبنى على دعابة أرسلها محمد لامرأة عجوز كانت تشكو له من مخاوفها حول مصيرها من الجنة لأنه قال لها «لن تدخل الجنة عجوز» . وحين رأى ماآلت اليه من يأس أضاف أن جميع النساء سوف يستعدن شبابهن قبل دخول الجنة» .

ومع ذلك ، فإذا كان محمد مثل القديس بولس ، يعطى الرجل السلطة على المرأة فقد عنى ببيان أن ذلك مقابل إلزامه بإطعامها وإسكانها

(١) ملاحظات تاريخية ونقدية عن المحمدية ( ١٧٥١ ) ترجمة بمقدمة ترجمة معانى القرآن إلى الإنجليزية لجورج سال gorge mle ( ١٧٣٤ ) .

ونفقتها . أما الأوربى فهو على العكس من ذلك يطلب بالنة من المرأة التى يتزوجها .

أما الأرامل أو النساء غير المرتبطات بأزواج لسبب أو لآخر فلهن مثل الذى للرجل من حقوق ، فلهن حق الاكتساب والبيع والميراث . صحيح أن إرث البنت لا يبلغ إلا ثلث[٢] إرث الابن الا أنه قبل محمد كانت أموال الأب تقسم بين الأبناء القادرين على حمل السلاح دون غيرهم بل إن مبادئ الإسلام لا تتعارض الا قليلا مع فكرة أن تحكم المرأة . ويمكننا أن نذكر فى تاريخ العرب عدداً كبيرا من السلطانات المطلقات وذلك بخلاف السيطرة الحقيقية التى تمارسها داخل سرايات السلطانات الأمهات والمحظيات .

وإن جميع النساء الأوربيات اللاتى اتيح لهن الدخول إلى أى حريم مسلم يتفقن على إطراء السعادة التى تستمتع بها النساء المسلمات . وفى ذلك تقول ليدى مورجان[٣] : «إننى مقتنعة بأن النساء فى تركيا هن وحدهن اللاتى يستمتعن بحريتهن» . بل إنها ذهبت إلى حد الأسى على مصير الأزواج الذين يضطرون لاخفاء خياناتهم إلى اتخاذ وجوه حذر تزيد

---

(٢) واضح أن هذا خطأ فالمعروف أن الابن يرث مثل حظ الأنثيين

(٣) ليدى مورجان (١٧٨٦ ـ ١٨٥٩) كاتبة قصص ورحلات لمذكرتها بصفة خاصة : «المرأة وسيدها» (١٨٤٠) .

عن تلك التي يتخذها الأزواج لدينا . وربما لم تكن تلك الملاحظة الأخيرة صحيحة الا بالنسبة للأتراك الذين يتزوجون من امرأة من أسرة كبيرة . وتلاحظ ليدى مورجان بحق أن تعدد الزوجات ـ الذى لم يفعل محمد سوى أن قبل مبدأه ـ هو أقل ندرة فى الشرق مما هو فى أوربا حيث يوجد بصور أخرى . لابد إذن من العدول تماماً عن فكرة هذه الأحرمة ( جمع حريم ) التى صورها كاتب «الخطابات الفارسية»[٤] حيث كانت النساء اللاتى لم يرين الرجال فى حياتهن يضطررن إلى استلطاف أوزبك للطفه معهن رغم ثقله .

ويقودنا ذلك إلى الحديث عن عقاب النساء الزانيات . ويعتقد بصفة عامة أن للزوج الحق فى اللجوء إلى العدالة والقذف بزوجته إلى البحر فى كيس من الجلد يضع فيه معها ثعبانا وقطة . وإذا كان هذا اللون من التعذيب قد حدث فى بعض الأحيان فلم يصدر الأمر به إلا من بعض السلاطين والباشوات من ذوى النفوذ ممن يستطيعون تحمل مسئولية ذلك . وقد شهدنا مثل تلك الوسائل الانتقامية فى العصور الوسطى المسيحية .

ولنعلم أنه إذا قتل رجل زوجته بعد أن يفاجئها متلبسة فقلما يعاقب اللهم إلا إذا كانت الزوجة من أسرة كبيرة . ولكن الأمر كما يحدث لدينا

---

(٤) مونتسكيو .

حيث يرى القضاة عادة القاتل في مثل هذه الظروف . وإلا فلابد له من إحضار أربعة من الشهود الذين إذا أخطئوا أو اتهموا بالباطل يتحمل كل منهم ثمانين جلدة . أما الزوجة وشريكها المقران تماماً بجريمتها فيتلقى كل منهما مائة جلدة بحضور عدد من المؤمنين . ومما يذكر أن الإماء المتزوجات لا يتلقين الا خمسين جلدة بمقتضى فكرة جميلة للمشرع تقضى بأن تكون عقوبة العبيد نصف عقوبة الأحرار لأن العبودية لم تعطهم إلا نصف متاع الحياة .

كل ذلك مذكور في القرآن . صحيح أن كثيرا مما ذكر في القرآن مذكور في الإنجيل ، وأن ذوى النفوذ يفسرون ويعدلون حسب إرادتهم . إلا أن الانجيل لم يصدر أحكاماً متعلقة بالعبودية ، ودون أن نتحدث عن المستعمرات الأوروبية فقد كان للشعوب المسيحية عبيد في الشرق كما كان للأتراك . وقد ألغى باى تونس منذ قليل العبودية في ولاياته دون أن يكون بذلك قد ارتكب خرقا للقانون الإسلامي .

المسألة إذن لا تعدو كونها مسألة وقت . ولكن أين هو الرحالة الذى لم تدركه الدهشة إذ لمس رقة العبودية الشرقية ؟ إن العبد هو أشبه شيء بالابن المتبنى وهو جزء لا يتجزأ من الأسرة . وكثيرا ما يصبح وارثا لسيده . وغالبا ما يعتق بعد موت سيده وتكفل له وسائل العيش . لا ينبغي أن نرى في العبودية في البلاد الاسلامية الا لونا من الامتصاص يمارسه مجتمع واثق من قوته على الشعوب الهمجية .

ومن المستحيل أن نسىء تقدير الطابع الاقطاعى العسكرى
فالمؤمن الحق هو الرجل الطاهر القوى الذى ينبغى أن تكون ل
بالشجاعة والفضيلة معاً . وهو أكثر تحررية من نبلاء العصور الوسد
يمنح امتيازاته إلى كل من يعتنق دينه . وهو أكثر تساعاً من عبرانى
لأن كلا من هؤلاء لا يقبل أن تعتنق الشعوب المغلوبة دياناتهم بل
عليها لفضاء مبرما . أما المسلم فيترك كلا على دينه وعاداته وتقال
يطلب إلا السيطرة السياسية . وما تعدد الزوجات والعبودية بالنسد
وسائل لتجنب أضرار أكبر ، أما الدعارة ، وهى لون آخر م
العبودية ، فتفترس كالجزام فى المجتمع الأوروبى بضرب الكرامة
وبطرد تلك المخلوقات البائسة ، اللائى كثيرا ما تكن ضحايا لجن
أو للبؤس من الدين وكذلك تطردهن الأخلاق من السلم الط
ترسمه . هل تود أن تسائل كذلك عن وضع اللقطاء فى مجتمع
يشكلون تقريبا عشر السكان ؟ إن القانون المدنى يعاقبهم على خ
ويطردهم من الأسرة ومن الميراث . أما أبناء المسلم فكلهم يولدو
ويقسم الميراث بينهم بالتساوى .

أما عن الحجاب الذى تلتزم به المرأة فالمعروف أن تلك
القدم تتبعها فى الشرق النساء المسيحيات من اليهود والدرو
ليست اضطرارية إلا فى المدن الكبيرة . أما النساء فى الريف أو ا
يخضعن لها مطلقاً ولذلك فإن القصائد الشعرية التى تتغنى بغرام

وليلى وخسرو وشيراى ، وجميل وشمبا(*) «كذا» وغيرهم فلا تشير أية اشارة إلى الحجاب ولا تحجب النساء العربيات . إن الوفاء الذى تتسم به عواطف الحب هذه يشبه في أغلب تفصيلات الحياة تلك التحليلات الغرامية التى دقت لها جميع القلوب ابتداء من دافنيس وكلويه حتى بول وفرجينى .

ولابد أن نستخلص من هذا أن الاسلام لايصد أى شعورسام من المشاعر التى تنسب إلى المجتمع المسيحى . فالخلافات قامت حتى الآن في الشكل أكثر منه في جوهر الأفكار فالإسلام لايشكل في الحقيقة إلالونا من المذاهب المسيحية . وأن كثيرا من ألوان الكفر البروتستانية ليست أقرب إليهم من المبادىء المسيحية . وهذا صحيح والدليل على ذلك أن ليس ثمة ما يضطر المسيحية التى تتزوج من تركى الى تغيير ديانتها . ولاينهى القرآن المؤمنين إلا عن الزواج بالمشركات ويسمح لهم بالاقتران بأية امرأة من أى دين مبنى على التوحيد .

---

(*) ربما كان يقصد بثينه .

## الحياة الخاصة فى القاهرة

إن الرجل الذى يبلغ سن الزواج فى مصر ولايتزوج إذا لم يقدم أسبابا مقبولة تضطره إلى البقاء أعزب فإن سمعته تتأثر بذلك . ولذلك فإنك تشاهد الكثير من حفلات الزواج فى هذا البلد .

وفى اليوم التالى للعرس تسيطر الزوجة على الحريم وهو جزءمن المنزل منفصل عن بقية الأجزاء . ويأتى أولاد وبنات فيرقصون أمام بيت العروسين أو فى أحد أفنيته الداخلية . وفى هذا اليوم . اذاكان العريس شابا فان الصديق الذى أوصله فى الليلة الماضية الى الحريم يأتى إلى بيته مصحوبا بأصدقاء آخرين ويصحبونه إلى الريف حيث يقضون اليوم بطوله ويسمى هذا الاحتفال«بالهروبه» . وفى بعض الأحيان ينظم العريس نفسه هذا الاحتفال ويقدم جزءا من النفقات إذا تعدت جملة المساهمات التى فرضها أصدقاؤه على أنفسهم(النقوط ) . ولكى تشيع البهجة فى الحفل فكثيراما يستأجرون بعض الموسيقيين والراقصات . أما إذا كان العريس من طبقة دنيا فإنه يعاد إلى بيته فى موكب يتقدمه ثلاثة أو أربعة

من الموسيقيين الذين يعزفون على المزمار ويقرعون الطبول . أما الأصدقاء ومن يصحبون العريس الجديد فإنهم يحملون باقات الزهور . فإذا حدث وكانت العودة بعد غروب الشمس فإن رجالا من حاملى المشاعل يصحبونهم . وهى أشبه بعصا ذات حوض أسطوانى الشكل من الحديد يوضع فيه الخشب المشتعل وفى بعض الأحيان تحمل تلك العصا فانوسين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة فتلقى ضوءاً ساطعا على مكان مرور الموكب . وثمة أشخاص آخرون يحملون المصابيح بينما يحمل أصدقاء العريس الشموع المضاءة وباقات الزهور . وإذا كان العريس ذا يسر فإنه يتخذ استعداداته بحيث تستطيع أمه أن تقيم معه هو وزوجته حتى تسهر على شرف تلك الأخيرة وشرفه . ولذلك يقولون إن أم الزوج تسمى « حماه » ومعناها الحامية أو الحارسة .

وأحيانا يترك الزوج زوجته لدى أمها ويدفع نفقات الاثنتين . ويظنون أن هذا التصرف لابد أن يدعو أم الزوجة إلى السهر على سلوك ابنتها على أقل تقدير لكى تحتفظ بالنفقة التى يدفعها لها الزوج وتمنع هذا الأخير من البحث عن حجة للطلاق . ولكن كثيرا ما يخيب هذا الأمل .

وعلى العموم فإن الرجل الحذر الذى يتزوج يخشى كثيرا لقاءات زوجته بحماته ويحاول انتزاع كل فرصة تتيح للحماة رؤية ابنتها وهذه الفكرة لدى الزوج متغلغلة الجذور فى نفسه بحيث يعتقد البعض أنه من الأضمن البحث عن زوجة لا أم لها ولاقريبة مقربة : بل إنه من المحظور على بعض

النساء استقبال أية صديقة من جنسهن فيما عدا قريبات الزوج . ومع ذلك فإن هذا القيد كثيرا مالايلتفت إليه .

وكما ذكرنا فيما سلف فإن النساء يقمن فى الحريم وهو جزء منفصل عن منازل المصريين . ولكن بصفة عامة فإن من يحملن لقب « زوجات » لا يعتبرن سجينات . فلهن عادة حرية الخروج والقيام بالزيارات ويستطعن استقبال النساء من صديقاتهن ما شاءت لهن رغباتهن ذلك . والجوارى فقط هن اللاتى لا يتمتعن بتلك الحرية بسبب حالة العبودية التى تجعلهن خاضعات للزوجات والسادة .

ومن أهم اهتمامات السيد وهو يعد الأجنحة المنفصلة التى سوف تصبح سكنا لزوجاته هو إيجاد الوسائل التى تكفل عدم رؤية أحد لهن سواء من الخدم الذكور أو غيرهم من الرجال دون أن يكن محجبات حسب تعاليم الدين . ويضم القرآن بهذا الصدد من النصوص ما يوجب ويحتم على كل مسلمة زوجة أو غير زوجة أن تخفى عن الرجال كل ما يثير الفتنة ويلفت إليها الأنظار ، ومن ذلك قوله تعالى :

**« يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن »**

الآية ٥٩ : الأحزاب

وقوله تعالى فى سورة النور : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن

خمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن إلى آخر آية ٣١ من سورة النور .

وهذه الفقرة الأخيرة تشير إلى عادة كانت لدى الشابات العربيات في زمن النبي بأن يضربن الحلى اللاتي كن يلبسنها عادة فوق عرقوب القدم الواحدة في الأخرى . وكثيرات من النساء المصريات تحتفظن بهذا النوع من الحلى .

ولكي نفسر الفقرة السابقة من القرآن التي بدون هذا التفسير قد تؤدى إلى فهم خاطئ للعادات الحديثة بخصوص استقبال بعض الأشخاص في الحريم وعدم استقبالهم لابد هنا من ذكر ملاحظتين هامتين استقيناهما من بعض مشاهير المعلقين[٦] .

أولى الملاحظتين تتعلق بعبارة : « أو زوجات هؤلاء » ومعنى هذا أن هؤلاء النسوة يجب أن يكن على دين محمد ذلك أنهم يعتبرون أنه من غير المشروع أو على الأقل غير المناسب أن تتكشف المرأة أمام من يسمونها بالكافرة ذلك لأنهم يعتقدون أن هذه الأخيرة لن تتورع عن وصفها للرجال . ويعتقد آخرون أن النساء الأجنبيات بصفة عامة يجب استبعادهن من الحريم إلا أن علماء الدين لم يتفقوا على هذه النقطة . ويحدث دائما في مصر ، وربما في غيرها من البلاد التي يدعى فيها

---

(٦) لنأخذ كل ما يذكر جيرار لنا على سبيل الدعابة والطرافة فهو أقرب إلى التهريف بحيث لا نجد ما يدعو لاجهاد أنفسنا في تصحيحه .

للإسلام ، ألا يكون ثمة احراج فى استقبال أية امرأة فى الحريم سواء أكانت حرة أم خادمة أم عبدةمسيحية كانت أم يهودية أم مسلمة أم مشركة .

أما فيما يختص بالنصف الثانى من الفقرة المشار إليها والتى تتحدث عن العبيد فإننا نقرأ فى القرآن ما يتضمن معنى ما يلى : « يستثنى من ذلك العبيد من الجنسين ، ويعتقد أن الخدم من غير العبيد داخلون فى الاستثناء وكذلك من ينتمون إلى بلاد أجنبية »(٧) واستناداً إلى تلك الحجة يذكر أن محمداً قد أهدى ابنته فاطمة يوماً عبداً من الرجال : فلما رأته هذه يدخل عليها ولم تكن تضع الا حجابا رقيقا كان عليها أن تختار بين ضرورة ترك رأسها مكشوفا أو كشف الجزء الأسفل من جسمها ، فالتفتت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، أبيها ، الذى شاهد حيرتها فقال لها أن ليس عليها أى حرج ما دام ليس فى حضرتها سوى أبيها وأحد العبيد » .

وربما كانت تلك العادة سائدة لدى العرب فى الصحراء ولكن فى مصر لا يرى أبداً أى عبد بالغ يدخل حريم رجل ذى جاه سواء أكان فردا منه أم لا . أما عبد المرأة من الذكور فقد يحصل على مثل هذا الامتياز لأنه مادام عبداً لا يمكن أن يصبح زوجاً لها .

---

(٧) لسنا فى حاجة إلى إيضاح أن كل ما يقول جيرار من أمثال تلك الملاحظات هراء لا يدل إلا على ماكان فى الغرب من فهم خاطىء للإسلام وعاداته .

ويدهش إذ نلاحظ أن فى تلك الفقرة من القرآن التى نتحدث عنها لم يأت ذكر للأعمام والأخوال من حق فى رؤية بنات إخوانهن وأخواتهن بدون حجاب . ولكن يعتقد أن ذلك لكى لا يقمن بوصف بنات العم والخال لأبنائهن وصفا مغريًا . ويعبر المصريون أن وصف ملامح المرأة وصفا تحليليا من الأمور غير اللائقة للغاية وأنه لأكثر لياقة أن يقول المرء وإنها ذات عينين جميلتين وأنف يونانى وفم رقيق الخ .. وحين يكون الحديث مع شخص من جنس الذكور يحظر عليه القانون رؤيتها . ولكن فى الإمكان وصفها بعبارات عامة بأن يقال إنها لطيفة وأنها تتزين بالكحل والحناء . (٨)

وعلى العموم فإن الرجل لا يستطيع أن يرى بدون حجاب إلا زوجاته الشرعيات وجارياته من النساء أو النساء اللاتى يحرم عليه القانون الزواج منهن بسبب قرابتهن المقربة إليه وصلة الدم أو لأنهن كن أمهات مرضعات له أو لأبنائه أو مقربات من مرضعته . والحجاب يمت الى العصور الموغلة فى القدم .

ويعتقد فى مصر أن الأجدر بالمرأة أن تغطى الجزء الأعلى او الخلفى من الرأس من أن تغطى وجهها ولكن الأهم من ذلك أن تغطى وجهها أكثر من الأجزاء الأخرى من جسمها : وعلى سبيل المثال فإن المرأة التى

---

(٨) يقول جيرار فى تفسير الكحل إنه قطرة معطرة تظلل الأجفان العليا والسفلى ويحصلون عليها بحرق قشر اللوز المضاف إليه بعض الأعشاب . ويقول فى الحناء إنها مسحوق نباتى تصبغ به النساء أجزاء من أيديهن وأقدامهن .

لا يمكن إقناعها بنزع الخمار أمام الرجال ، لا تجد أدنى حرج من تعرية صدرها أو فخذها بالكامل تقريبا .(٩)

ومعظم نساء الشعب يظهرن أمام الناس عاريات الوجه ، ولكن يقال إن الحاجة تضطرهن إلى ذلك لأنهن لا يملكن ما يشترين به البرقع .

واذا فاجأ أحدهم امرأة محترمة بدون خمار فإنها تهرع إلى تغطية وجهها بطرحتها (أى الخمار الذى تغطى به رأسها ) وتصيح قائلة :

« باللتعاسة ! يا للشقاء الأعظم ! » ومع ذلك فقد لاحظنا أن التأنق يدفعهن أحيانا إلى إظهار وجوههن للرجال ولكن كما لو كان ذلك حدث بمحض الصدفة . ومن أعلى أسطح منازلهن ومن خلال الشرفات المغطاة يبدو عليهن أنهن يتابعن ( دون انقطاع ما يدور حولهن . ولكن كثيرا ما يكشفن عن وجوههن مع النية المبيتة بأن يراها الرجال .

والبيوت فى القاهرة عادة صغيرة والأجنحة الخاصة بالرجال لا توجد لذلك فى الطابق الأرضى . ولذا فعليهم أن يصعدوا إلى الطابق الأول حيث توجد عادة أجنحة النساء ولكن لتجنب اللقاءات التى يسميها المصريون غير مرغوب فيها والتى يراها الفرنسيون مرغوبا فيها ، فإن الرجال وهم يصعدون السلم لا يكفون عن الصياح بصوت عال جداً : « دستور ! (أى عن إذنك ) ياستى ! » أو إصدار غير ذلك من صيحات

---

(٩) يكثر جيرار من هذه التفصيلات الخاطفة على سبيل الدعابة وإثارة إهتمام القارىء الفرنسى .

التحجب لكى تستطيع النساء الانسحاب أو على الأقل اسدال خمرهن ، وهذا ما يفعلن حين يسدلن الخمار على الوجه بحيث لا يتركن مكشوفا إلا عينا واحدة .

ويبالغ المسلمون فى طابع تقديسهم لكل ما يتعلق بالنساء بحيث أنه من المحظور على الرجال دخول مدافن بعضهن . وعلى سبيل المثال فإنهم لا يستطيعون دخول مدافن المدينة ، بينما يسمح للنساء بزيارة جميع تلك المقابر[١٠] . ولا يحدث أبدا أن يدفن رجل وامرأة فى مقبرة واحدة إلا إذا أقيم حائط عازل بين النعشين[١١]

وليس جميع المسلمين عثل تلك الصراحة فيما يختص بالنساء ، فإن مسترلين[١٢] William lane كاتب تلك التفاصيل الطريفة يقول إن احد أصدقائه من المسلمين قد أراه أمه ، التى تبلغ الخمسين من عمرها ولكنها كانت لأناقتها ونضارتها تبدو كما لو كانت لم تتخط الأربعين . وفى ذلك يقول : «إنها تقدمت حتى الباب الخارجى للحريم وهو الحد الأقصى بالنسبة للزوار ، وجلست خلف باب الغرفة دون أن تقبل الدخول إليها . وكما لو كان الأمر محض صدفة تركت السيدة الخمار ينسدل وتركت وجهها

---

(١٠) قول خاطىء من أساسه والعكس هو الصحيح وإن كان ذلك يمت للعادات المعمول بها لا لتعليمات دينية .

(١١) لا يدفن المسلم فى نعش وجيرار يتكلم حسب تقاليد مجتمعه هو .

(١٢) جزء كبير من هذا الملحق مترجم من وليام لين أو مستقى منه وهذا ما يقول جيرار نفسه .

يظهر مكشوفا . وكانت عيناها يخطها الكحل ولم تحاول إخفاء ما تلبسه من ماس وزبرجد وغير ذلك من الحلى بل على العكس كان يبدو عليها أنها تريد إظهارها فإن هذا المسلم لم يشأ أبداً أن يريني زوجته مع أنه تركني أتحدث معها فى حضرته على زاوية جدار بالقرب من الشرفة فى مكان لا أستطيع رؤيتها منه ، ومهما يكن من أمر فإن النساء فى مصر أقل تحفظا منهن فى الأجزاء الأخرى من الامبراطورية العثمانية ، وليس من النادر رؤية نساء يمزحن فى الأماكن العامة مع الرجال ولكن ذلك لا يحدث إلا فى طبقات الشعب . ويعتقد بناء على ذلك أن نساء الطبقة المتوسطة والأعلى من ذلك كثيراً ما يشعرن بأنهن تعيسات ويكرهن العزلة المفروضة عليهن إلا أن الأمر على العكس من ذلك تماما فإن المصرية المرتبطة بزوجها إذا تمتعت بمزيد من الحرية فتظن أنه يراقبها بشدة . وهذا ما ينبغى له أن يفعل حسب العرف السائد ، فإن زوجها قد تترحه بالنسبة لها وكثيرا ما تشعر بالحسد نحو النساء الحاظيات بحراسة أكثر شدة وصرامة .

ورغم أن القانون يسمح للمصريين بالزواج من أربع خلاف ما يحوز من محظيات من الجوارى فعادة ما تراهم لا يتخذون إلا زوجة واحدة أو محظية واحدة من الجوارى . ومع ذلك فإن الرجل حين يكتفى بامتلاك امرأة واحدة يستطيع أن يغيرها ما دعته نزواته إلى ذلك ومن النادر أن تجد فى القاهرة أناسا لم يطلقوا على الأقل مرة واحدة إذا كان قد أمضى فى الزوجية مدة طويلة . فالزوج يستطيع حين يروق له ذلك أن يقول لزوجته : « أنت طالق » سواء أكانت تلك الرغبة التى تساوره تتمشى مع

العقل أم لا . وبعد أن ينطق بهذا القرار ينبغي للزوجة أن تغادر منزل الزوج وتبحث عن ملاذ لدى أقاربها . والحق الممنوح للرجال بالنطق بالطلاق غير العادل هو أكبر مصدر للقلق بالنسبة للنساء ، وهذا القلق يتعدى أي لون آخر من ألوان العذاب حين تكون من نتائجه الهجر والبؤس . وثمة نساء أخريات يجدن ، على العكس من ذلك ، في الطلاق وسيلة لتحسين أحوالهن فهن يفكرن بطريقة مخالفة ويركزن أمانيهن في الحصول على الطلاق .

ويستطيع الرجل أن يطلق المرأة الواحدة مرتين ثم يستعيدها بعد ذلك دون أية مراسم . إلا أنه في المرة الثالثة لا يستطيع أن يستردها شرعا إلا إذا عقدت أثناء فترة الطلاق ، زواجها على آخر وإذا حدث طلاق من هذا الزواج الأخير .

ويقول مسيو لين : « استطيع أن أذكر استنادا لما أقول حالة قام بها أحد أصدقائي بدور الشاهد . فقد كان ذات يوم في مقهى مع رجلين آخرين وكان يبدو على أحدهما أنه مغتاظ من زوجته التي نشب بينها وبينه خلاف خاص بحياتهما المنزلية . وبعد أن شرح الزوج الحانق ما يضايقه أرسل في طلب زوجته وبمجرد أن وصلت قال لها : أنت طالق ثلاثاً ! ثم توجه بكلام إلى الرجلين الآخرين وقال ، وأنتما أيها الأخوان شاهدان على ذلك . ومع ذلك فقد ندم بعد ذلك على اندفاعه وأراد استرجاع زوجته إلا أن هذه رفضت ودعته إلى شرع الله . وعرضت الدعوى على القاضي وكانت الزوجة هي الشاكية والمدافع هو الزوج . وقالت الزوجة إن الزوج

نطق يمين الطلاق مبا ثلاثا وأنه الآن يريد استرجاعها والعيش معها كزوجة مخالفا بذلك القانون وبالتالى تكون حياتهما حراما . وأنكر المدافع أنه نطق الكلمات الشرعية التي تتضمن الطلاق . فقال القاضي للشاكية :- هل لديك شهود؟ فقالت : نعم هاهما شاهدان . وكان الشاهدان هما الرجلين اللذين كانا فى المقهى حين نطق بالعبارة التى تشكل الطلاق . ودعى الرجلان للمثول أمام القاضى والادلاء بشهادتهما . فأعلنا ان هذا الرجل فى الواقع قد نطق بكلمات الطلاق ثلاثا من هذه المرأة وأن ذلك قد تم بحضورهما . وحينئذ أعترف الزوج من جانبه أنه فى الواقع قد نطق بيمين الطلاق ولكن كان ذلك خاصاً بزوجة أخرى من زوجاته . وأكدت الشاكية أن ذلك مستحيل مادام المدافع ليس له إلا زوجة واحدة . وقد رد القاضى على ذلك بأنه ليس من المستطاع بالنسبة لها أن تعرف ذلك . ثم استدار ناحية الشاهدين وسألهما عن اسم المرأة التى طلقت بحضورهما فأعلنا أنهما لا يعرفانها ، وسألهما بعد ذلك عن شخصية المرأة فقال الشاهدان إنهما لا يستطيعان تأكيد أى شيء فى هذا الصدد ما داما لم يرياها إلا محجبة . وإزاء الشك الذى بدا محيطا بالقضية فقد وجد القاضى أنه من العدالة أن يرفض شكوى المرأة ويأمرها بالعودة إلى بيت الزوجية . وكان بمستطاعها أن تطلب إحضار المرأة التى نطق بيمين الطلاق مبا فى المقهى إلا أن ذلك ما كان ليخدمها كثيراً إذ أنه كان فى استطاعته بسهولة إحضار امرأة لتلعب هذا الدور إذ أن تقديم عقد الزواج فى مصر ليس ضروريا حيث تتم معظم الزيجات دون عقود مكتوبة بل وكثيرا ما تتم بدون شهود » .

وكثيرا ما يحدث للرجل الذى ينطق بعبارة الطلاق للمرة الثالثة من زوجته والذى يريد أن يستردها برغبتها ، لا سيما حين يكون الطلاق قد نطق به دون حضور شهود ، كثيرا ما يحدث ألا يراعى هذا الرجل القانون الذى يحرم عليه استعادتها مالم تتزوج بغيره فى فترة الطلاق .

والرجال الذين يراعون القانون لتعلقهم بالدين يجدون الوسيلة للتمشى معه وذلك بإيجاد رجل يتزوج المرأة المطلقة ويتعهد بطلاقها فى اليوم التالى للزواج وردها إلى زوجها السابق فتصبح زوجة له من جديد بمقتضى عقد جديد رغم أن هذا التصرف يعتبر مناقضا للقانون تماماً . وفى مثل هذه الحالة تستطيع المرأة إذا كانت بالغة الرشد أن ترفض الموافقة ، أما إذا كانت قاصراً فإن والدها أو الوصى عليها يستطيع تزويجها لمن يجده صالحا .

وحين يريد الرجل استرجاع زوجته المطلقة طبقا للعرف الذى يستلزم حدوث زواج وسيط قبل أن يستطيع استرجاعها فيحدث عادة أن يزوجها إلى رجل فقير ودميم جداً وأحيانا لأعمى . وهذا الرجل يسمى مستحل ( محلل ) .

ونستطيع أن ندرك أن السهولة التى يتم بها الطلاق لابد أن تكون ذات تأثيرات ضارة بمعنويات الجنسين . ونجد فى مصر رجالاً تزوجوا بعشرين أو ثلاثين امرأة فى مدى عشر سنوات ، وليس من النادر أن نجد نساء شابات كن على التوالى زوجات شرعيات لاثنى عشر رجلاً . وثمة رجال يتزوجون كل شهر بامرأة . وهذا المسلك يمكن أن يوجد بين

أشخاص محدودى الثروة . ويستطيع الرجل أن يختار وهو يمر بشوارع القاهرة أرملة شابة وجميلة أو مطلقة من الطبقة الدنيا تقبل أن تتزوج بالرجل الذى يصادفها فى الطريق مقابل نفقة تبلغ تقريبا عشرين فرنكا وخمسين سنتيمًا . وحين يطلقها لايضطر إلاالدفع ضعف هذا المبلغ لنفقة العدة التى لابد لها أن تكملها . ومع ذلك فلابد من القول بأن مثل هذا المسلك يعتبر عادة غير أخلاقى وأن قليلا من الآباء من الطبقة المتوسطة أو الطبقات العليا يقبل أن يعطى ابنته إلى رجل عرف عنه أنه كثير الطلاق .

وتعدد الزوجات الذى يؤثر هو الآخر بطريقة ضارة للغاية على معنويات الأزواج ، والذى لايتقبله الناس إلا لأنه يمنع من المسالك اللا أخلاقية أكثر مما يتسبب فيها ، أكثر ندرة بين الكبراء والطبقة الوسطى منه فى الطبقة السفلى رغم أنه ليس كثير الحدوث حتى فى تلك الطبقة الأخيرة . ويحدث أن يسمح الرجل الفقير لنفسه بزوجتين أو أكثر تستطيع كل واحدة منهن بما تقوم به من عمل أن تكفل نفقتها . إلا أن معظم الناس من الطبقات المتوسطة والعليا يعدلون عن هذه الطريقة لتكاليفها والمضايقات التى تسببها من كل نوع . ويحدث للرجل الذى تكون فى حوزته امرأة عاقر يحبها بحيث لا يستطيع طلاقها أن يضطر إلى الزواج من زوجة ثانية على أمل واحد هو أن يرزق بأطفال . ويستطيع أن يتزوج حتى أربع زوجات لهذا السبب نفسه إلا أنه عادة يكون عدم الثبات على المشاعر هو العاطفة الرئيسية التى تدفع أولئك الذين يستسلمون لتعدد الزوجات أو للطلاق المتكرر . وقلة من الرجال هم الذين يمارسون هذا

الحق ولا تصادف إلا رجلا من كل عشرين رجلا يكون له زوجتان شرعيتان .

وحين يرغب الرجل المتزوج فى الزواج من ثانية سواء أكانت امرأة أم بنتا فإن والد هذه الأخيرة أو المرأة نفسها يرفض الموافقة على هذا الزواج إلا إذا طلق مسبقا زوجته الأولى . ومن هذا يتبين لنا أن النساء عموما لايوافقن على تعدد الزوجات . أما الرجال الأغنياء ومحدودو الدخل بل حتى الرجال من الطبقة الدنيا فيفردون لكل زوجة من زوجاتهم منزلاً خاصاً . وتحصل الزوجة ، أو تستطيع أن تستلزم ذلك من الزوج ، على وصف مفصل للمسكن الذى يفرده لها إما فى بيت مستقل أو فى شقة لابد أن تحتوى على غرفة للنوم والمعيشة ومطبخ والملحقات . ولابد أن تكون تلك الشقة مستقلة أو يمكن أن تكون مستقلة أو مغلقة لاتتصل بأية شقة من شقق البيت .

والزوجة الثانية كما قلنا من قبل ، تسمى ضرة (وهذه الكلمة تعنى البيغاء وربما كانت تستعمل لغرض تهكمى) . ويكثر الحديث عن المشاجرات اللاتى يتسببن فيها وهو أمر يمكن فهمه ، وذلك أنه حين تقتسم امرأتان اهتمامات رجل واحد وعواطفه فمن النادرأن تعيشا معاً فى وفاق . وكثيرا ما ينشب الشجار كذلك بين الزوجات والجوارى المحظيات اللاتى يعشن تحت سقف واحد . ويفرض القانون على الرجال ممن لهم زوجتان أو أكثر أن يكونوا عادلين تماماً بينهن . إلا أن المراعاة الدقيقة لهذا القانون نادرة .

وإذا كانت الست الكبيرة عاقرا وولدت زوجة أخرى أو جارية طفلا لرب الأسرة فكثيرا ما تصبح أم الطفل المفضلة لدى الرجل فتحتقر الست الكبيرة كما حدث حين احتقرتِ هاجر زوجة ابراهيم . وحينئذ كثيرا ما يحدث أن تفقد الزوجة الأولى مكانتها وامتيازاتها وتصبح الأخرى هى الست الكبيرة . ويجلب لها لقبها كزوجة مفضلة للسيد ، من قبل غريمتها أو غريماتها وكذلك من قبل جميع نساء الحرم والنساء اللاتى يحضرن للزيارة ، جميع المظاهر الخارجية للاحترام الذى كانت تتمتع به تلك التى حلت هى محلها . ولكن ليس من النادر أن يقصد السم هذا الاحترام ، فحين يعطى الرجل الأفضلية لزوجة ثانية فكثيرا ما يترتب على ذلك أن تعلن الأولى ناشزًا ، سواء من قبل زوجها أو بناء على طلب تقدمه هى للقاضى ، ومع ذلك فثمة عدد كبير من النساء المهجورات يتصرفن بخضوع تام تجاه أزواجهن وروح الود تجاه الزوجة المفضلة .

وبعض النساء لهن جاريات يعتبرن ملكًا خاصاً لهن اشتريهن أو تلقينهن هدية قبل زواجهن . وهؤلاء الجاريات لايصبحن محظيات للزوج إلا بموافقة سيدتهن . وهذه الموافقة يحدث أحيانا . ولكن فى أحوال نادرة . أن يحصل عليها ، وثمة نساء لايسمحن لجارياتهن حتى بمجرد الظهور بدون خمار أمام أزواجهن . وإذا أصبحت احدى الجاريات محظية للزوج بدون موافقة زوجته وولدت له طفلا يصبح هذا الطفل عبداً إلا إذا بيعت الجارية أو منحت للأب قبل مولد الطفل .

والجاريات البيضاوات يملكهن عادة أغنياء الأتراك ، والجاريات

المحظيات لا يمكن أن يكن مشركات ، فهن يأتين عادة من الحبشة ثم يمتلكهن أثرياء المصريين وأبناء الطبقة المتوسطة . ولون بشرتهن بنى قاتم أو برونزى . وتدل ملامحهن على أنهن من جنس وسط بين الزنوج والبيض إلا أنهن يختلفن اختلافا بينا عن هذين الجنسين . وهن أنفسهن يعتقدن أن الفارق طفيف بين جنسهن والجنس الأبيض ولذا فإنهن يرفضن القيام بأعمال الخادمات وأن يخضعن لزوجات أسيادهن .

أما الزنجيات فهن بدورهن يرفضن خدمة الحبشيات إلا أنهن على استعداد دائم لخدمة النساء البيضاوات . ومعظم الحبشيات لايقدمن رأساً من الحبشه ولكن من بلاد الغالا[١٣] المجاورة ، وهن عادة جميلات . والسعر المتوسط لهذه الفتيات يتراوح بين ٢٥٠و٣٧٥ فرنكا إذا كانت جميلة نوعاً ما ومنذ بضع سنوات بلغ سعرهن أكثر من الضعف .

والباحثون عن المتعة فى مصر يعولون كثيرًا على هؤلاء النسوة إلا أنهن من الرقة بحيث لايعشن طويلاً وعتن كلهن تقريبا من الذبول . وسعر الجارية البيضاء يبلغ عادة ثلاثة أضعاف حتى عشرة أضعاف سعر الجارية الحبشية ، فى حين أن سعر الزنجية لا يبلغ إلا النصف أو الثلثين . إلا أن هذا السعر يرتفع بشكل محسوس إذا كانت طاهية ماهرة . والزنجيات يستخدمن عادة كخادمات .

---

(١٣) شعب من الجنس القوقازى يعيش جنوب أثيوبيا .

ويعتنق أغلبية العبيد الدين الإسلامى إلا أنهم نادرًا ما يكونون على شىء من الثقافة بالنسبة لتعاليم دينهم الجديد أو نظرياته . ومعظم الجوارى البيض كن فى الأزمنة الماضية فى مصر من اليونانيات وكن ضمن أسرى الجيش التركى والمصرى من الشعب اليونانى التعس تحت إمرة ابراهيم باشا . وهؤلاء التعيسات ، وكان من بينهن أطفال لا يكدن يستطعن المشى قد تم بيعهن فى مصر . وتبين انحدار الطبقات العليا فى هذا البلد إلى الفقر من قلة الطلب على شراء الجوارى البيض . وقد استقدم بعضهن من بلاد الشراكسة وجورجيا بعد أن لقن فى القسطنطينية شيئا من الثقافة الأولية وتعلمن الموسيقى وبعض الفنون الترفيهية . ولما كانت الجوارى البيض هن وحدهن رفيقات الأتراك من الطبقة العليا وأحيانا ما يصبحن زوجات لهم ، ولما كانت مكانتهن فى مصر تفوق مكانة نساء مصر من الأحرار فإن مكانتهن لدى الرأى العام أكثر ارتفاعا من هؤلاء النساء وتلبس هذه الجوارى أغلى الثياب ، والهدايا من المجوهرات القيمة تتدفق عليهن ويعشن فى ترف وبحبوحة من العيش بحيث إنه إذا لم تفرض عليهن العبودية فإن وضعهن يبدو سعيداً للغاية . والدليل على ذلك فى رفض كثير من النساء اليونانيات اللائى كن يعشن فى الحريم فى مصر ، رفض حين كفت الحرب مع اليونان ، الحرية التى عرضت عليهن . ذلك أننا لا يمكن أن نفترض أنهن جميعا كن يجهلن الوضع الاجتماعى لآبائهن وأنهن خفن أن يتعرضن للفاقة إذا لحقن بهم ، إلا أنه لا مجال للشك فى أن بعضهن سعيدات على الأقل سعادة مؤقتة . ومع ذلك فثمة ميل إلى الاعتقاد بأن معظمهن قدر لهن أن يكن فى خدمة زميلات لهن فى الأسر كن أسعد حظاً أو فى خدمة

السيدات التركيات أو أن يضطررن إلى تحمل دعابات بعض الأثرياء من الشيوخ أو الرجال ممن أنهك الإفراط فى كل شيء أجسامهم وأذهانهم ، فهن لسن سعيدات إذ يتعرضن لإعادة البيع أو للعتق دون أن تكون لديهن وسيلة للعيش بعد حياة أسيادهن أو سيداتهن ، وأن يتنقلن هكذا إلى أبد حياة جديدة إذا لم يرزقن بأطفال أو يضطررن إلى الزواج من صناع بسطاء لا يستطيعون أن يوفروا لهن اليسر الذى اعتدن عليه .

والجاريات فى بيوت أبناء الطبقة المتوسطة فى مصر يعاملن عادة معاملة أفضل من تلك التى تتلقاها من يعشن فى حريم الأغنياء . فإذا كن محظيات . وهذا أمر لا يمكن تجنبه فى معظم الأحوال . فلن يكون لهن غريمات يعكرن صفو حياتهن . وإذا كن خادمات فإن الخدمة بالنسبة لهن تكون لطيفة وحريتهن أقل قيوداً . وإذا كان ثمة ارتباط عاطفى متبادل بين المحظية وسيدها فإن مكانتها تصبح أسعد حالا من الزوجة لأن هذه الأخيرة قد يطلقها زوجها . ففى لحظة من لحظات الكدر يستطيع أن ينطق بالطلاق البائن عليها ويغرقها هكذا فى البؤس إلا أنه من النادر أن يرد أحدهم جارية قبل أن يجزل لها العطاء لكفاية حاجتها حتى لا تحيق بها الخسارة من التغيير إذا لم يكن قد أفسدها التدليل والترف الزائد .

وحين يسرح السيد جاريته فإنه عادة يعتقها ويمنحها نفقة ويزوجها برجل شريف أو يهديها الى أحد أصدقائه . وبصفة عامة لا يستحب بيع الجارية التى تكون قد خدمت مدة طويلة . وحين ترزق الجارية بطفل من سيدها ويعترف هذا الأخير به فإن هذه المرأة لا يمكن بيعها ولا إهداؤها

وتصبح حرة لدى موت سيدها . وكثيرا ما يحدث بمجرد ولادة الطفل واعتراف السيد به أن تعتق الجارية وتصبح زوجة له . وذلك أنها إذا أصبحت حرة لا يمكن أن يستبقيها في بيته دون زواج شرعي .

والجاريات سعرهن عادة أعلى من العبيد من الذكور . وسعر العبيد ممن لم يصابوا بالجدري أعلى من سعر أولئك الذين أصيبوا به . ويمنح الشاري ثلاثة أيام يضع فيها العبد تحت التجربة . وفي تلك الأثناء تظل الفتاة المشتراة في بيت الشاري أو أحد أصدقائه . وتتكلف نساء الحريم بتقديم تقرير عن القادمة الجديدة : ويعتبر الشخير والصر على الأسنان والكلام أثناء النوم من الأسباب الكافية لفض البيعة وإعادتها الى البائع . وتلبس الجواري نفس ما تلبس النساء المصريات .

أما الفتيات أو النسوة المصريات ممن يضطررن إلى الخدمة فيكلفن بأحط الأعمال . وفي حضرة أسيادهن يحتفظن عادة بالخمار . وحين يكن مشغولات بعمل ما من أعمال الخدمة فإنهن يضعن الخمار بحيث لا يكشف إلا عن أعينهن ويتركن يدا واحدة من أيديهن تتحرك بحرية .

وحين يستقبل سيد المنزل ضيفا غريبا في إحدى غرف الحريم (وحينئذ تنسحب نساء أسرته الى غرفة أخرى) فإن النساء الأخريات يقمن على خدمته ولكن مع احتفاظهن بالخمار .

تلك هي الظروف الاجتماعية لمختلف طبقات الحريم وينبغي لنا الآن أن نلقي نظرة على عادات ومشاغل شاغلات الحريم .

إن الزوجات والجاريات يستبعدن عادة من امتياز الجلوس إلى المائدة مع السيد أو أسرته . ويمكن دعوتهن لخدمته حين يتغدى أو يتعشى أو حتى حين يدخل إلى الحريم ليدخن أو يشرب القهوة . وحينئذ كثيرا ما يقمن بدور الخادمات فيملأن ويشعلن غليونه ويعددن له القهوة ويعددن الأصناف التي يريد أن يأكلها لاسيما حين يكون الأمر يتعلق بأصناف مخصوصة أو غير مألوفة . والصنف الذي يوصيك به مضيفك ويقول إن زوجته قد أعدته هو عادة طيب للغاية . والنساء من الطبقات العليا والمتوسطة يقمن بدراسة خاصة يتعلمن فيها كيف يحصلن على إعجاب أزواجهن ويسحرنهم بمداعبات ونوادر لاحد لها . وإن المرء ليلاحظ تأنقهن وغندرتهن حتى في مشيتهن . وحين يخرجن فهن يعرفن كيف يمنحن أجسامهن حركة تموجية خاصة يسميها المصريون «غنجا» وهن دائما متحفظات في حضرة الزوج ولذلك فإنهن يفضلن أن تكون زياراته النهارية قليلة وألا تطول تلك الزيارات . وفي غيبته فإن مرحهن يبدو متدفقا فياضا .

وغذاء النساء رغم تشابهه مع غذاء الرجال الا أنه أكثر تقشفا . فهن يتناولن وجباتهن بنفس طريقة الرجال . ويسمح لكثير من النساء بالتدخين ، حتى من نساء أعلى الطبقات إذ أن رائحة الطباق المصري الراقي معطرة للغاية . وغلايين النساء أرفع من غلايين الرجال وأكثر زخرفا . وطرف الغليون يكون أحيانا من المرجان بدلا من أن يكون من العنبر . وتستعمل النساء المسك وغيره من العطور ويستعملن كذلك الدهون

التجميلية . وكثيرا ما يعددن توليفات يأكلنها أو يشربنها بقصد اكتساب قدرما من الامتلاء . وعلى النقيض من ذوق الاوربيين أو الشعوب الشرقية عامة فإن المصريين ليسوا شديدى الاعجاب بالنساء المفرطات فى السمنة . ذلك أنه فى أناشيد الحب لديهم يتحدث الشعراء عن محبوباتهم على أنهن إنسان رشيق نحيل القوام . ومن بين الأصناف التى تظن المصريات أنها كفيلة بجعلهن أكثر سمنة صنف مقزز للغاية ويعد أساساً من الخنافس المدقوقة . وكثير من النساء يمضغن البخور واللادن من أجل تعطير أنفاسهن . وعادة الوضوء المتواتر تجعل أجسامهن غاية فى النظافة ، و تزيينهن لا يستغرق وقتا طويلا . ومن النادر أن يبدلن ثيابهن وزينتهن فى وسط النهار بعد أن يكن قد فعلن ذلك فى الصباح . وهن يضفرن شعورهن أثناء الحمام وتصفيف الشعور بهذه الطريقة يكون جيدا بحيث لا يحتجن لإعادة تصفيفه لأيام كثيرة .

وأهم شاغل يشغل النساء المصريات هو العناية بأطفالهن وعليهن كذلك الاشراف على الأعمال المنزلية . ولكن فى أعم الحالات فإن الزوج هو الذى يشرف على المصروف . وتستخدم النساء ساعات الفراغ فى الحياكة والتطريز لاسيما تطريز مناديل اليد والطرح . والتطريز يتم عادة بخيوط الحرير الملونة والخيوط الذهبية . ويتم التطريز على أداة تسمى المنسج ، وهى عادة من خشب البندق ومطعمة بالصدف واللؤلؤ وقشور السلحفاة ، (وأكثرها شيوعاً من الزان) . وكثير من النساء - حتى النساء الغنيات ، يملأن أكياسهن الخاصة بتطريز المناديل وغيرها مما يعطين

للدلالة التي تتولى عرضها في أحد الأسواق أو التي تصرفها في حريم آخر . وزيارة نساء حريم ، لحريم آخر تشغل عادة يوماً كاملاً تقريبا . اذ تتجمع النساء فيأكلن ويدخن ويشربن القهوة والمرطبات ويثرثرن ويستعرضن ما يلبسن من حلي وأدوات فاخرة ويكفي كل ذلك لتسليتهن . وسيد البيت لا يسمح له بحضور هذه الاجتماعات النسائية الا لأمر ملح ، وفي هذه الحالة عليه أن يعطي إنذاراً بمقدمه حتى يكون لدى الزائرات الوقت الكافي لوضع خمرهن أو الانسحاب في جزء آخر من الشقة . وفي هذه الحالة تنطلق النسوة الشابات وقد تخلصن هكذا من كل خوف من المفاجأة . ينطلقن في مرحهن الطبيعي ويتركن العنان لروح المجون والصخب التي يتسمن بها .

## حفلات خاصة

يقيم المصريون حفلا حين يقبل أحد أبنائهم عضوا فى جماعة التجار أو الصناع . ويتم القبول فى جماعات النجارين والخراطين والحلاقين والخياطين والمجلدين وغيرهم من الطوائف بالطريقة التالية :

يأتى الشاب الذى يطلب قبوله فى طائفة المهنة يصحبه والده لدى الشيخ ويحيطه الأب علما بنيته فى ادخال ابنه كعضو فى الطائفة . وحينئذ يرسل الشيخ فى دعوة « معلمى » هذه الحرفة التى يعتبر الشاب مستجداً فيها وبعض أصدقاء المتقدم لحضور حفل استقباله . وحينئذ يأتى ضابط يسمى النقيب يحمل حزمة من العشب الأخضر أو الزهور التى يوزعها على جميع المدعوين وهو يقول : « الفاتحة للنبى » ويضيف النقيب على ذلك قائلا : « تفضلوا هنا فى يوم كذا والساعة كذا لتناول قدحا من القهوة » .

ثم يتجمع هؤلاء المدعوون إما فى بيت الأب أو فى بيت الشاب وأحيانا فى الريف حيث تقدم لهم القهوة ويتناولون العشاء .

ويؤتى بالمستجد أمام الشيخ وتتلى الأشعار فى مدح الرسول ثم يلف حول جسمه شال معقودة أطرافه . وتتلى آيات من القرآن ثم تعقد فى الشال عقدة أخرى . وعند عقد العقدة الثالثة بعد تلاوة آيات أخرى من القرآن تعقد فى الشال عقدة على شكل وردة ويعتبر الشاب قد قبل عضوا فى طائفة المهنة التى يكرس نفسه لها . وحينئذ يقبل يد الشيخ وأيدى جميع الحاضرين ويدفع مبلغا بسيطا ويصبح منتميا الى طائفة المهنة .

والمصريون ، الذين يعيشون عادة بأكثر الطرق تقشفا يحرصون على جعل ولائمهم على أكبر قدر من التنوع والكثرة . الا أن الوقت المخصص لراحتهم قصير جداً . وفى الاجتماعات التى من هذا النوع يدخن القوم عادة ويشربون القهوة فى فناجين صغيرة أو المرطبات و«يدردشون» .

وأثناء تلاوة القرآن يمتنع الأتراك عادة عن التدخين . والتبجيل الذى يحيطون به الكتاب المقدس جعل الناس يقولون عنهم :

«إن الله قد وضع الجنس العثمانى فوق بقية المسلمين لأنهم يجلون القرآن أكثر مما يفعل الآخرون» .

والتسلية الوحيدة فى مثل هذه الإجتماعات هى بعض الروايات والقصص إلا أن الجميع يحبون الرقص وعزف الموسيقى مما يتم فى مثل هذه الحفلات حبا جما .

ومما يلاحظ أن المصرى يحب التسلية بأية لعبة الا اذا كانت تحتاج لمجموعة صغيرة من شخصين أو ثلاثة أو فى أسرته . ورغم أن المصرى

اجتماعي بطبيعته الا أنه نادراً ما يقيم الحفلات الكبيرة ولابد من مناسبة غير عادية ليفعل ذلك . مثل الأعراس ومولد طفل ... الخ .

وثمة حفلات تقام بمناسبة الزواج . واليوم السابع . الذى يسمى يوم السبوع ، بعد الزواج تستقبل العروس النساء من صاحباتها فى الصباح والمساء . وأحيانا ، أثناء ذلك الوقت . يستقبل العريس أصدقاءه الذين يسليهم فى المساء بالموسيقى والرقص . وجرت العادة فى مصر على أن يتخلى الزوج عن الحقوق التى يمنحها اياه الزواج حتى بعد اليوم السابع اذا كانت من يتزوجها عذراء صغيرة السن . وبعد انتهاء هذا الوقت جرت العادة على أن يقيم حفلا ويدعو أصدقاءه . وبعد أربعين يوما من الزواج تذهب العروس إلى الحمام برفقة بعض صديقاتها . وحين تعود الى منزلها تقدم لهن الحلوى ثم ينصرفن . وفى تلك الأثناء يولم العريس ولمة مصحوبة بالرقص والموسيقى .

وفى اليوم التالى لمولد طفل يأتى اثنان أو ثلاثة من الراقصين أو الراقصات ويقمن بالرقص أمام البيت أو الغناء . والحفلات التى تقام لمولد طفل ذكر أجمل من تلك التى تقام لمولد طفلة أنثى . ومازال العرب يحتفظون فى ذلك بالمشاعر التى جعلت أجدادهم يئدون أولادهم من البنات .

وبعد مولد الطفل بثلاثة أيام أو أربعة يقعد نساء المنزل ، إذا كانت الوالدة تنتمى الى احدى الطبقات العليا . يعددن أصنافا مكونة من العسل

والزبد المقدوح وزيت السمسم والتوابل والمواد المضيفة للنكهات ويضاف إلى ذلك أحيانا البندق المحمص .

ثم يزف المولود بعد ذلك تحمله النسوة أو البنات فى الحريم بأسره . وكل واحدة منهن تحمل شمعة كبيرة من ألوان مختلفة ومضاءة : وهذه الشموع تقطع كل واحدة منها نصفين ويغرش فى عجينة جامدة من الحناء . ويوضع الكثير منها فوق صفحة . وتقوم الداية أو غيرها من النساء الحاضرات برش الملح المختلط بحبوب الشمر . وهذا الخليط الذى يكون قد بات فى الليلة السابقة على رأس مهد المولود فائدته حفظ الطفل من الأعمال السحرية . والمرأة التى ترش الملح تقول : «حصوة فى عين اللى مايصلى على النبى » .

أو «ليسقط هذا الملح النجس فى عين الحسود ! » وترد كل واحدة من الحاضرات قائلة «اللهم صل على سيدنا محمد» !

وتقدم صفحة من الفضة إلى كل من النسوة الحاضرات فيقلن بصوت مرتفع : «اللهم صلِّ على سيدنا محمد» ! «ربنا يطول عمركم» الخ . وتقدم النساء عادة منديلا مطرزا عقدت فى طرفه قطعة من الذهب ، وكثيرا ما يوضع هذا المنديل فوق رأس الطفل أو الى جواره . ويعتبر تقديم المنديل هدية ديناً مكتوبا يسدد فى مثل هذه المناسبة أو يستخدم فى دفع دين سبق تقديمه فى مناسبه مماثلة . وتستخدم القطع النقدية المتجمعة بهذه الطريقة فى تزيين رأس الطفل لبضع سنوات . وبخلاف هذا الانفاق السخى تعطى النساء كذلك ما شاء للداية . وعشية

اليوم السابع يوضع على رأس مهد المولود النائم إبريق ملء بالماء ويحاط له بمنديل مطرز . ثم تأخذ الداية إبريقا وتضعه على صفحة وتقدم لكل سيدة تأتى لزيارة الوالدة كوبا من هذا الماء فتقدم الضيفة مقابل ذلك هبة من المال .

وبعد وقت ما من الولادة يختلف حسب الوضع الاجتماعى أو تعاليم المذاهب المختلفة ، ولكنه عادة يبلغ أربعين يوماً ، وبعد الزمن الذى يسمونه نفاساً تذهب للحمام ومنذ ذلك الوقت تكون قد طهرت .

## راقصات مصر

إن أكثر راقصات مصر جميعا شهرة هن «الغوازى» اللاتى أطلق عليهن اسم قبيلتهن . والمرأة من هذه القبيلة تسمى غازية والرجل يسمى غازى والجمع وهو غوازى يطلق عادة على النساء . ورقصهن لا يتسم دائما بالرشاقة . فهن يبدأن بشىء من التحفظ ثم لا يلبثن أن تشتعل عيونهن ويصبح صوت الصاجات النحاسية فى أيديهن أسرع وتزداد حركاتهن كلها زيادة مطردة وينتهى بهن الأمر الى تقديم صورة تامة لرقص نساء قادش كما صورها مارسيال Martial وجوفنال Juvenel (١٤) . والثوب الذى يظهرن به يشبه ثياب المصريات من الطبقة المتوسطة اللاتى يرتدينها داخل الحريم . وهو مكون من يلك أو عنترى وشنتيان(١٥) الخ .. من أجمل

(١٤) cf Guvenal: Sateres'XI, 162-164 martial Bigrammes V.' 78

(١٥) اليلك شىء يشبه الروب دى شمبر مفتوح الى منتصفه من الأمام والعنترى يشبه ذلك ولكنه أقصر والشنتيان البنطلون .

الأقمشة ويضاف اليه زينات مختلفة . وتحدد دوزان أعينهن بلون من القطرة السوداء . أما أطراف الأصابع وراحة اليد وبعض أجزاء من القدم فتلون بصبغة حمراء من الحناء حسب العادة السائدة لدى المصريات من جميع الأوساط . ويتبع هؤلاء الراقصات عادة موسيقيون ينتمي معظمهم إلى القبيلة نفسها وأدواتهم الموسيقية هي الربابة والتار (الدف) أو الدربكة والزراب . إلا أن «التار» يرى عادة بين يدى امرأة عجوز . ويحدث كثيرا بمناسبة بعض الحفلات العائلية مثل الزواج والولادة أن تترك الغوازى يرقصن في فناء المنزل أو في الطريق أمام الأبواب ، ودون أن يسمح لهن أبدا بالدخول الى حريم الشرفاء ، وعلى العكس من ذلك فليس من النادر أن يستأجرن لتسلية اجتماع من الرجال . وفي هذه الحالة كما يمكننا أن نتصور فإن رقصهن يكون أكثر خلاعة مما قلنا فيما سبق . وبعضهن لا يرتدين من ملبس في مثل هذه الاجتماعات الخاصة الا الشنتيان (أو الكلسون) والطب أو القميص وهو ثوب فضفاض من القماش الخفيف الملون نصف الشفاف ومفتوح من الأمام حتى منتصف الجزء الأسفل من الثوب . فإذا تكلفت الغازية فضلا من الحياء فإن ذلك لا يدوم طويلا تحت تأثير المشروبات المسكرة التي يصبونها لهن في غزارة .

وبعضهن ذات جمال رائع ومعظمهن يرتدين الملابس الغالية وهن عموماً أجمل نساء هذه الجهات . ومن الملاحظ أن بعضهن يتميزن بالأنف الأخيلية بعض الشيء بينما تتميز ملامحهن حسب جميع التقديرات بالنمط الأصيل للمصريات .

ورغم أن الغوازى يختلفن اختلافا طفيفا ، فى المظهر عن سائر المصريين فنحن نشك فى أن يكن من جنس مميز كما يؤكدن هن أنفسهن . وعلى كل فإن أصلهن يحاط بكثير من عدم اليقين . فهم يدعون أنهم يسمون بالبرامكة أو البرمكى ويفخرون بأنهم من سلالة تلك الأسرة الشهيرة أسرة البرامكة التى كانت موضع عطف هارون الرشيد فأغدق عليها ثم تلقت جام طغيان نزواته وقد ورد ذكر ذلك مرات عديدة فى القصص العربى .

وعلى كثير من القبور المصرية القديمة رسمت بعض الغوازى من النساء وهن يرقصن فى أكثر الأوضاع تحررًا .

على أنغام مختلف الآلات الموسيقية . أى على طريقة الغوازى المحدثات أو حتى بتحرر أكبر . ذلك أن أكثر من واحد من هذه الوجوه رغم أنها تصور بجوار بعض الشخصيات الرفيعة الا أنها عادة تمثل فى حالة عرى تام . وهذه العادة فى تزيين الآثار التى نتحدث عنها بهذه الصورة ، تلك الآثار التى يحمل معظمها أسماء قدامى الملوك ، تدل على مدى انتشار هذه الرقصات* فى مصر كلها فى الأزمنة السحيقة حتى قبل هروب بنى إسرائيل . فمن المحتمل إذن أن تكون الغوازى المحدثات من سلالة هذه الطبقة من الراقصات اللاتى كن يرفهن عن الفراعنة الأوائل .

والغوازى من الرجال والنساء يتميزون عادة عن بقية الطبقات بأنهم لا يتزوجون الا فيما بينهم . ولكن يحدث أحيانا أن نرى احدى الغازيات

تقسم قسم التوبة وتتزوج من أحد كرام العرب الذى لا يمسه عادة سوء من هذا الرباط . والغوازى قدر لهن ألا يحترفن الا المهن الحقيرة وليس كلهن مكرسات للرقص . والعدد الأكبر منهن يتزوجن ولكن لا يحدث هذا أبداً قبل أن يمارسن الحياة التى اخترنها .

والزوج يخضع لزوجته ويصبح لها خادماً ومتعهد تموين وإذا كانت راقصة يكون هو موسيقيها . ومع ذلك فبعض الرجال يكسبون عيشهم عن طريق أعمال الحدادة أو صنع الأدوات الحديدية أو بيع القدور .

ورغم أن بعض الغازيات يملكن ثروات كبيرة وأدوات زينة ثمينة فإن كثيرا من ملابسهن تشبه ملابس البوهيميين الذين نراهم فى أوربا والذين نفترض أنهم من أصل مصرى .

ولغة الغوازى العادية بالنسبة للجنسين هى نفسها لغه سائر المصريين الا أنهم احيانا يستعملون عددا من الكلمات الخاصة بهم وحدهم حتى لا يفهمهم الغرباء . أما عن الدين فهم يعتنقون الإسلام علنا ويحدث أن يتبع بعضهم القوافل المصرية الى مكة . ونرى عددا كبيرا من الغوازى فى جميع المدن المصرية الكبرى . ومساكنهم عادة عبارة عن أكواخ منخفضة أو خيام مؤقته لأنهم كثيرا ما يسافرون من مدينة الى أخرى . ومع ذلك فبعضهم يقيمون فى منازل كبيرة ويشترون جاريات سوداوات شابات ثم يشترون الجمال والحمير والبقر ويتاجرون فيها . وهن يتبعن المخيمات ونجدهن فى جميع الحفلات الدينية وغيرها مما يجعلهن السبب الرئيسى لاجتذاب كثير من الناس فى هذه الحفلات . وفى هذه المناسبات

نرى عددا كبيرا من خيام الغوازى . وبعضهم يضيفون الغناء إلى الرقص وينافسون العوالم وهن من أحط الطبقات . وبعضهن كذلك يرتدين القميص أو الظب من القماش الشفاف فوق لباس آخر مع الشنتيان والطرحة المصنوعة من الكريب أو الموسلين . وهن يتزين عادة بالكثير من الحلى والزينة مثل الدنتلا والأساور والخلاخيل . وهن يرتدين كذلك صفًا من القطع الذهبية على الجبين ويضعن أحيانا حلقة فى أنوفهن . وجميعهن يستعملن الحناء فى صبغ أيديهن وأقدامهن .

وفى القاهرة كثير من الناس ممن يتظاهرون بالاعتقاد بأن المثلبة الوحيدة لهذه الرقصات هى اللاتى يقمن بها من النساء اللاتى لا ينبغى لهن أن يعرضن أنفسهن هكذا للجميع ، تراهم يستخدمون الرجال من أجل هذه الألوان الترفيهية . الا أن عدد هؤلاء الراقصين ، وجلهم من الشبان ويطلقون عليهم المخنثين ، محدود للغاية . وهم من مواليد مصر . ولما كان عليهم أن يقوموا بأدوار النساء فإن رقصاتهم لها نفس طابع رقصات الغوازى وهم يهزون الصاجات بنفس طريقة هؤلاء . ولكن ، وكما لو كانوا يريدون ألا يؤخذ الدور الذى يقومون به على محمل الجد ، فإن لباسهم الذى يتناسب مع مهنتهم الفريدة نصفه لباس رجل والنصف الآخر لباس امرأة . وهو يتكون عادة من سترة مقفلة وحزام ونوع من التنانير ( الثوب النصفى ) . ومع ذلك فشكلهم العام نسالى أكثر منه رجالى ذلك لأنهم بلا شك يطيلون شعورهم ويضفرونها على طريقة النساء . وهم يقلدون النساء بدهن الجفون وتلوين الأيدى بالحناء . وفى الشوارع

حين لا يكونون يرقصون نجدهم فى غالب الأمر محجبين لاحياءً ولكن لكى يحسنوا تقليد طريقة النساء . وكذلك كثيرا ما يفضلون الغوازى للرقص فى الأفنية أو أمام أبواب المنازل فى المناسبات العائلية . وفى القاهرة ثمة طبقة أخرى من الراقصين من الرجال والصبيان يشبه رقصهم ولباسهم ومظهرهم تماما مظهر المخنثين الا أنهم يتميزون عن هؤلاء بأنهم يسمون الجنك وهى كلمة تركية تعبر تماما عن طابع هؤلاء الراقصين . وهم عادة من اليهود أو الأرمن أو اليونانيين .

# المشعوذون

توجد فى مصر طبقة من الرجال يظنون انهم يملكون ذلك الفن الغامض الذى أشارت إليه التوراة[١٦] والذى يحصن المرء ضد لدغ الثعابين كما كان يفعل مشعوذو سيرينايكا ( ليبيا القديمة أيام اليونان ) وقد كتب كثير من الكتاب قصصا مدهشة عن هؤلاء الحواة الحدثين الذين ينظر إليهم أكثر المصريين ثقافة على أنهم دجالون . إلا أن أحدا لم يقدم التفاصيل الكافية حول مهاراتهم العادية أو الأكثر إثارة .

---

(١٦) قد تكون تلك إشارة إلى الآية ٦ من النشيد ٥٨ التى تشير إلى مصادر السحر : صوت السحرة والساحر الخبير فى السحر إلا أن هذا النص لا يشير إلى ساحرى الثعابين المصريين . وثمة إشارة واضحة إلى سحرة الثعابين من المصريين بمناسبة حدث ذكر فى سفر الخروج ٧ ـ ٨ ـ ١٣ « ألقى هارون أمام فرعون ورجاله عصاه التى تحولت إلى حية . ودعى فرعون بدوره الحكماء والسحرة . وقام سحرة مصر كذلك باستخدام السحر بإتيان نفس المعجزة » .

وكثير من الطبقات السفلى للدراويش يعيشون من ممارسة هذه الألوان من السحر حول المنازل لإبعاد الثعابين . فهم يجوبون مصر فى جميع الاتجاهات وكثيرا ما يجدون من يطلبهم الا أن مكاسبهم ضئيلة . ويدعى الحاوى أنه يكتشف الثعابين دون الاستعانة بالنظر اذا وجدت وحين توجد الثعابين فهو يؤكد مقدرته على جذبها اليه بسحر الصوت وحده . وفى هذه الحالة يتخذ هيئة غامضة ويضرب على الجدران بعصا صغيرة من خوص النخيل ويصفر ويقلد صوت الدجاج بلسانه ، ويبصق على الأرض ويقول : « سواء أكنت أعلى أم أسفل استحلفك بالله أن تظهر فوراً – استحلفك بالاسم الأكبر إذا كنت مطيعا أن تظهر ! وإذا كنت غير مطيع فمت ! مت ! مت ! » وعادة يحدث أن يخرج الثعبان من شقه بتأثير العصا أو يسقط من سقف الغرفة .

والحواة كثيرو العدد فى القاهرة . ويشاهدهم الناس فى الميادين محاطين بحلقة من المشاهدين . ويشاهدونهم كذلك فى الأعياد العامة وهم يجتذبون التصفيق من المتجنين الذين لا يعتقدون عادة فيهم . وهم يقومون بعدد كبير من الحركات والنوادر هذه أكثرها شيوعا : يساعد الحاوي عادة اثنان من الصبيان ، فيسحب أربعة أو خمسة من الثعابين من أحجام متوسطة من جراب من الجلد ويضع أحدها على الأرض ويجعله يرفع رأسه وجزءا من جسمه . وبالثعبان الثانى يصنع عمامة لأحد مساعديه ويلف له اثنين حول عنقه ثم يسحبها ويفتح فم الصبى ويتظاهر بأنه يدخل له فى خده شيئا أشبه بحديدة الأقفال ثم يقفلها ، ثم يتظاهر بأن يغرس له سنا

من الحديد في حلقة إلا أنه في الحقيقة يدخله في يد من الخشب تكون مثبتة فيها . وثمة لعبة أخرى من نفس النوع هي تلك : يرقد الحاوي أحد صبيانه على الأرض ويسند سلاح أحد السكاكين على أنفه ثم يضرب على السلاح حتى يبدو كما لو كان قد غار إلى منتصف عرضه . والألعاب التي يقوم بها بمفرده أدعى للتسلية : فمثلا يسحب من فمه كمية كبيرة من الحرير يلفها حول ذراعه ، ومرات أخرى يملأ فمه بالقطن ويبصق النار ، ومرات أخرى كذلك يخرج ( من فمه كذلك ) عددا كبيرا من قطع القصدير في استدارة الدولار ثم يبصقها بأنفه إلى الأرض في صورة ماسورة غليون .

ومن الألعاب الشائعة للحواة أن يضع عددا ما من شرائط الورق الأبيض في آنية من الصفيح على شكل قالب الحلوى ثم يخرجها منه وقد صبغت بمختلف الألوان . ثم يضع الماء في نفس هذه الآنية ويضيف اليه قطعة من القماش ثم يقدمها الى المشاهدين وقد تحولت الى حلوى . وأحيانا يقطع الحاوي شالا الى قطعتين أو خرقه من منتصفه ثم يعود فيصلحه فوراً . وأحيانا أخرى يتجرد من جميع ملابسه إلا سراويله ويطلب من شخصين أن يربطا له قدميه ويديه ويضعوه في كيس ، ولما يفعلون ذلك يطلب قرشا فيقول له أحدهم إنه سيحصل على القرش لو استطاع سحب إحدى يديه لأخذه . وفي الحال يسحب إحدى يديه خارج الكيس ثم يعود فيدخل ويخرج بعد ذلك بأكمله مربوطا كما كان . ثم يعود فيدخلونه في الكيس ويخرج على الفور وقد تخلص من جميع قيوده ويحمل صينية صغيرة محاطة بالشموع المضاءة ( وتتم هذه اللعبة مساء ) وعليها خمسة أو ستة من الصحون الصغيرة مملوءة بمختلف الأصناف التي يقدمها للمشاهدين .

وفى القاهرة ثمة نوع آخر من الحواة يسمونهم سكيم . وفى معظم ألعابهم يستعين الا سكيم كذلك بأحد الصبيان فمثلا يضع هذا الأخير تسعة وعشرين حجراً صغيرا على الأرض ويقف بالقرب منها ويرتبها أمامه . ثم يطلب من أحد المشاهدين أن يخفى قطعة من النقود تحت أحدها . وبعد ذلك ينادى السكيم الذى يكون واقفا على بعد أثناء هذا الترتيب ويخبره أنهم خبئوا قطعة من النقود تحت أحد هذه الأحجار ويطلب منه أن يدل على هذا الحجر فيفعل ذلك للتو . وهذه اللعبة بسيطة للغاية فإن الحجارة التسعة والعشرين تمثل الحروف الأبجدية العربية ويعنى الصبى بأن يبدأ طلبه بالحرف الذى يمثله الحجر الذى خبئت تحته قطعة النقود .

وفن العرافة وقراءة الطالع من الفنون التى تمارس فى مصر ويمارسها عادة بوهيميون يشبهون أمثالهم لدينا . ويسمونهم الغجر . وهم عادة يدعون أنهم من سلالة البرامكة مثل الغوازى ولكنهم من فرع آخر .

ومعظم العرافات من النساء وكثيرا ما يشاهدن فى شوارع القاهرة وهن يرتدين ملابس تشبه ملابس نساء الطبقة الدنيا بالطب والطربوش ولكن وجوههن دائما سافرة . والغجرية تحمل دائما معها كيسا من الجلد يحتوى على أدوات مهنتها . وهى تجوب الشوارع صائحة « أنا العرافة ! أشوف الحاضر والمستقبل » .

وتكشف معظم الغجريات الطالع بواسطة عدد من القواقع وقطع الزجاج الملون وقطع النقود الخ .. وهى تضعها مختلطة ثم تدلى بعرافتها

حسب النظام الذي تكون الصدفة قد رتبتها به . وأكبر القوقعات تمثل الشخص الذى يراد رؤية طالعه والقواقع الأخرى تمثل الخير والشر ... الخ . وحسب أوضاع هذه القواقع بالنسبة بعضها للبعض تحكم الغجرية ما اذا كان هؤلاء أو هؤلاء سيحضرون الى الشخص المعنى . وتصيح بعض هذه البوهيميات كذلك قائلات «ندق ونطاهر» (أى نحن نرسم الوشم ونجرى عملية الختان !) .

ويقوم بعض البوهيميين بدور البهلوان وهى تسمية كانت تطلق على بعض المهرجين والسائقين أو الأبطال المشهورين وكل من كان ذا شهرة فى القاهرة فى الماضى باستخدام قوتهم ومهارتهم الا أن ألعاب البهلوانات من المحدثين تقتصر تقريبا على الرقص على الحبل ، وكل من يمارسون هذا الفن من البوهيميين . ويربطون جبلهم أحيانا فى مئذنة أحد المساجد على ارتفاع شاهق ويمتد الى مئات عديدة من الأقدام ، ويسندونه من مكان إلى مكان على عصى يدقونها فى الأرض .

وتمارس النساء والبنات والأولاد عن طيب خاطر تلك اللعبة ، الا أن الأولاد يقومون كذلك بلعب أخرى مثل ألعاب القوى والقفز بداخل الأطواق الخ .

والقرداتية (وهذه التسمية مستقاة من كلمة قرد ) يسلون الطبقات الدنيا فى القاهرة بالألعاب التى يجعلون القرد يلعبها بمصاحبة حمار وكلب وجدى صغير . فيقوم الرجل والقرد (وهو عادة من فصيلة كلبيات الرءوس ) بمضاربة الثلاثة الأخر بالعصى . ويلبس الرجل القرد بطريقة

غريبة فاحيانا يلبسه ملابس العروس أو ملابس امرأة محجبة ويتقدمه وهو يقرع طبلته ويستعرضه هكذا فوق ظهر الحمار ووسط حلقة كبيرة من المتفرجين . وعلى القرد كذلك أن يقوم بعدد كبير من الرقصات المضحكة . ثم يقال للحمار أن يقفز فوق أجمل فتاة ليفعل ذلك على الفور وهو يقرب خياشيمه من أجمل فتاة فتكون بذلك راضية كل الرضا وكذلك جميع الشاهدين .

ويطلب من الكلب أن يقلد اللص فيأخذ فى الزحف على بطنه . وأخيرا وأفضل هذه الألعاب هى لعبة الجدى . فهو يقف على قطعة صغيرة من الخشب تشبه تقريبا وعاء النرد يبلغ طولها تقريبا الأربع بوصات وعرضها بوصة ونصف ، يقف عليها الجدى بحيث تكون أقدامه الأربعة متجمعة على هذه المساحة الضيقة . وترفع قطعة الخشب هذه وهى تحمل الجدى ويدس تحتها قطعة خشب أخرى مشابهة ثم ثالثة ورابعة وخامسة دون أن يغير الجدى من وضعه .

ويسر المصريون كثيرا برؤية تمثيليات هزلية تهريجية يسمونها «المعبزين»[١٧] (كذا) وتمثل تلك التمثيليات عادة فى الحفلات التى تسبق الأعراس وحفلات الختان لدى العظماء وتجتذب أحيانا أعدادا كبيرة من المشاهدين فى الميادين العامة فى القاهرة . ولكن نادراً ما تكون تلك العروض تستحق الوصف لأنها تعتمد على النكات السقيمة البذيئة التى

(١٧) ربما يقصد جيرار المدابون ؟

تجتذب بها تصفيق المشاهدين . وجميع الممثلين فيها من الرجال ، حتى أدوار النساء يقوم بها الرجال أو الفتيان فى ملابس النساء .

وكمينة لتلك التمثيليات تلك احداهن وقد تم عرضها أمام محمد على بمناسبة ختان أحد أبنائه حيث كان يتم حسب العادة المتبعة ، ختان عدد كبير من أبناء العظماء .

وشخوص التمثيلية هم : الناظر (أو الحفظ) وشيخ البلد ، وخادمه ، وكاتب قبطى ورجل مسكين مدين للحكومة وزوجته وخمسة أشخاص آخرين يدخلون إلى المسرح واثنان منهم يدقان على الطبول واثنان يعزفان على المزمار والخامس يرقص . وبعد أن يعزفوا على آلاتهم ويرقصوا بعض الوقت يدخل الناظر والشخوص الآخرون ويقفون فى دائرة .

ويقول الناظر سائلا : «ما هو مقدار دين عوض بن رجب ؟» فيرد الموسيقيون والراقصون الذين يقومون هنا بدور الفلاحين ، يردون قائلين : «قل للكاتب يرجع للدفتر» وهذا الكاتب يرتدى ملابس الأقباط أى العمامة السوداء ويحمل فى حزامه كل ما يلزمه للكاتب . ويقول له الشيخ : «كم على عوض بن رجب ؟» فيجيب الكاتب قائلا : «ألف قرش - ويضيف الشيخ : وكم دفع منها ؟ فيرد عليه الكاتب قائلا : «خمسة قروش» فيقول حينئذ للمدين : «أيها الرجل ، لماذا لم تحضر النقود ؟» فيرد الرجل قائلا : «ليس عندى نقود . فيصيح الشيخ قائلا : «ليس معك نقود ؟ أرقدوا هذا الرجل على الأرض» . ثم يحضرون سوطا يشبه عصب الثور يضرب به الفلاح المسكين . فيصيح فى الناظر قائلا :

« يابك ! وشرف ذيل حصانك ، يابك ! وشرف رباط عمامتك يابك ! »

وبعد أن يكرر الفلاح هذه النداءات الغريبة مستحثا عطف الناظر يكفون عن ضربه ويسحبونه ليلقوا به فى السجن . وثمة مشهد آخر : تأتى زوجة السجين لرؤيته وتسأله كيف حاله ، فيجيبها قائلا : « من أجل خاطرى يازوجتى ، خذى بعض البيض والفطير الى منزل القبطى وجهى اليه الرجاء بالتوسط فى اطلاق سراحى » . وتجمع المرأة الأشياء المطلوبة وتحملها فى ثلاث سلال الى منزل القبطى وتسأل هل هو موجود فيردون عليها بنعم . فتمثل أمامه وتقول :

« يا معلم حنا ! اصنع فى جميلا بتقبل هذا والحصول على إطلاق سراح زوجى » — ومن هو زوجك ؟ — إنه الفلاح المدين بألف قرش — ادفعى منها مائتين أو ثلاثمائة الى شيخ البلد كجزية » . وتذهب المرأة لاعداد النقود وإطلاق سراح زوجها .

ونرى من ذلك أن الملهاة تهدف بالنسبة للشعب إلى انذار العظماء للحصول على بعض الاصلاحات . وكان هذا فى أغلب الأمر هدف الفن التمثيلى فى العصور الوسطى . والمصريون ما زالوا فى العصور الوسطى

# منازل القاهرة

إن العاصمة الحديثة لمصر تسمى القاهرة التى كون مها الأوربية كلمة Lecaireأما الشعب فيسميها مصر ( بفتح الميم أو كسرها ) وهى اسم مصر بأكملها . والمدينة تقع فى مدخل وادى مصر العليا ، بين النيل والسلسلة الشرقية لجبال المقطم . ويفصلها عن النهر لسان من الأرض كله مزروع تقريبا ، ومن الناحية الشمالية حيث يوجد ميناء بولاق ويبلغ عرضه ربع ميل إلا أن هذا العرض يبلغ نصفه من ناحية الجنوب .

وإن الأجنبى الذى لا يكون له سوى أن يجوب شوارع القاهرة سوف يظن أن هذه المدينة ضيقة ولا تشغل الا مساحة بسيطة الا أن من يرى المدينة من سطح منزل عال أو من مئذنة أحد المساجد سوف يلاحظ عكس ذلك . والشوارع المأهولة أكثر من غيرها تتميز بصف من الحوانيت على كلا الجانبين . أما معظم الشوارع البعيدة فهى مزودة بأبواب من الخشب لدى كل طرف من طرفيها . وهذه الأبواب تغلق ليلا ويحرسها

بواب مهمته أن يفتح لكل من يريد المرور . وما يسمى حيا هو تجمع بعض الشوارع الضيقة ذات مدخل مشترك واحد .

والمنازل الخاصة تستحق الوصف بصفة خاصة . فالجدران من الأساس حتى ارتفاع الدور الأول مغطاة من الخارج وفى أحوال كثيرة من الداخل بحجارة جيرية رخوة تستخرج من الجبل المجاور . وهذا الحجر حين يكون حديث القطع يبدو سطحه فى لون أصفر خفيف الا أنه ما يلبث أن يتحول الى اللون البنى بفعل الهواء ، أما أقسام الواجهة فهى أحيانا تبيض بالآجر الأحمر والجير الأبيض فتبدو على التوالى ذات خطوط حمراء وبيضاء . وهذا يتم بالنسبة للبيوت الكبيرة والمساجد . أما المنازل الممتازة التى تبرز واجهتها عادة بروزا يبلغ القدمين فهى تستند الى أعمدة . وهذه الأبنية تشيد بالطوب الأحمر وتغطى عادة بطبقة من الجبس . والطوب عادة محروق ولونه أحمر داكن . وبياض المنازل عادة مسطح ومغطى بطبقة من الجبس . والنوافذ الناتئة فى الأدوار العليا التى ترى فى مواجهة بعضها البعض تكاد تتلامس وتحجب هكذا أشعة الشمس عن الشوارع تماماً مما ينتج عنه فيئا لطيفا أثناء الصيف .

وأبواب المنازل عادة تنتهى من أعلى باستدارة وزخارف على الطراز العربى . وفى وسطها قسم يكتب عليه عادة كتابات عربية هى : « هو الله الخالق المبدع الخالد » . وهذه التقليبات وغيرها من نفس الشكل ولكن : أصغر قليلا مما توجد على الأبواب تراها مطلية باللون الأحمر بإطار أبيض . أما بقية مساحة الباب فتطلى باللون الأخضر . واختيار هذه

الألوان يرجع الى أفكار خرافية . والأبواب مزودة بقادوم من الحديد وقفل من الخشب ، وعلى جميع الأبواب تقريبا تجد بجوار الأبواب مكانا مرتفعا ذا درجتين حتى يمكن منه امتطاء الحمار أو الحصان .

وشقة الدور الأرضى المجاورة للشارع مزودة بنوافذ صغيرة ذات قضبان من الخشب الا أن فتحتها عالية بحيث لا يستطيع المار النظر فيها الى الداخل . وشرفات الشقق تخرج فى بروز يقدر تقريبا بقدم ونصف . وهذه النوافذ تزين عادة بعرائس من الخشب المخروط وهو من الضيق بحيث يمنع ضوء الشمس من النفاذ مع سماحه بدخول الهواء . وهذه العرائس نادراً ما تكون مطلية واذا كانت كذلك فغالبا ما يكون الطلاء هو اللون الأخضر . وتسمى هذه النوافذ بالمشربيات . وهذه الكلمة الأخيرة تعنى مكانا للشرب . وفى بعض المنازل يضعون فى تجويف هذه البروزات قليلاً من الفخار ذى المسام ترطب الماء بفعل البخر الذى يسببه تيار الهواء فوق النافذة البارزة هذه مباشرة توجد أخرى مسطحة ومزودة بعريشة أو قضبان من الخشب أو الزجاج الملون . وهذه النوافذ العليا حين تكون مزودة بعرائش فإنها تحلى عادة ببعض الرسوم الزخرفية التى تمثل عادة إما حوضا وإبريقا ، والإبريق بداخل الحوض فوق هذه النافذة أو وجه أسد أو اسم الله أو كلمات مثل «حسبى الله» الخ وبعض النوافذ الناتئة تلك تكون مبنية بالكامل من الخشب وبعضها مزدان ببلاط القيشانى .

وبصفة عامة ترتفع المنازل دورين أو ثلاثة . ولكل بيت فناء غير مبلط يسمى حوش يدخل اليه عن طريق ممر مبنى بحيث يعترضه كوع أو

اثنان وذلك من أجل منع المارة من النظر الى الداخل . وبهذا الممر يمتد ما يشبه المقعد يستند الى الحائط بطوله كله ويسمى مصطبة خصصت للبواب والخدم . وبالحوش عادة بئر من الماء ذى الملوحة الذى يتسرب من النيل عبر التربة . وجانب هذا البئر الأكثر وقوعا فى الظل يكون عادة مزودا بجرتين تملآن كل يوم من ماء النيل الذى يجلب من النهر فى قرب وأهم الشقق تطل على الفناء وأحيانا يكون للبيت فناءان يتبع الفناء الثانى منها الحريم وتزدان هذه الأفنية بكوات صغيرة ذات قبوات تزرع فيها الأشجار الصغيرة والزهور . والجدران الداخلية للبيوت التى تكون مربع الأفنية تكون عادة مبنية بالطوب الأحمر ومبيضة بالجير . وللأفنية عدة أبواب تصلها بالداخل أحدها يسمى باب الحريم ، ومن هذا الباب نصل الى السلم المؤدى الى الشقق المخصصة فقط للنساء والسادة وأطفالهم .

والدور الأرضى به شقة تعرف عادة باسم المندرة يستقبل فيها الضيوف من الرجال . وهذه الشقة ذات نافذة عريضة ونافذة أو نافذتين أصغر مبنية على نفس الطراز . والأرضيات الخشبية لهذه الشقق ذات حافة تبلغ من ست الى سبع بوصات وهذا الجزء الأسفل يسمى دركاه .

وفى بيوت الأغنياء تكون الدركاه مغطاة ببلاط من الرخام الأبيض والأسود ، وجميع الفراغات محشوة بالمزايكو المكون من قطع من القرميدذى لون أحمر زاه فيشكل بذلك تطعيما أنيقا وساحراً . وفى وسط الفناء نجد نافورة يسمونها فسقية تسقط مياهها ثانية فى حوض مبلط بالرخام الملون . والنافورات ، ومياهها ترتفع الى ارتفاع كبير تواجه عادة ما

يشبه المنضدة من الرخام أو من الحجارة العادية يبلغ ارتفاعها أربع أقدام تقريبا وتسمى الصفة . وهذه المنضدة تستند الى باثكتين أو أكثر وأحيانا باثكة واحدة يوضع تحتها الأدوات التى تستعمل يوميا أى أوانى العطور أو أوانى الوضوء التى تستخدم قبل وبعد الوجبات استعداداً للصلاة .

والجزء الأعلى من الشقق يسمى الديوان وهى تسمية فيها تشويه لكلمة قصرPalais [١٨]وحين يدخل المرء إلى هذا الجزء من المسكن يخلع ـ نعليه قبل أن يستطيع الولوج الى الديوان . وهذا الجزء الذى هو فى واقع الأمر لا يعدو أن يكون غرفة انتظار مبلط بالحجارة العادية . وفى الصيف تغطى الأرضية بالحصير وفى الشتاء بالسجاد . وفى ثلاثة جوانب من الغرفة تشاهد وسائد وحشايا ، وكل حشية يبلغ سمكها ثلاث بوصات عادة وعرضهاثلاث أقدام . وتعد الفرش إما على الأرض أو على أسرة من السيور ؛ والوسائد وطولها عادة هو عرض السرير نفسه ونصف هذا العرض سمكا فإنها تستند الى الحائط . وتحشى الوسائد والحشايا بالقطن فى وجوه وسائد من الكليكوت[١٩] المطبوع أو الصوف أو أى نوع من الأقمشة

---

(١٨) هذا الجزء غريب فى غموضه يدفع إلى التساؤل عما إذا لم يكن ثمة أحد يترجم لجيرار شفوياً النص الذى كذبه لين . ذلك أن هذا الأخير يتحدث عن جزء من المنزل يسمى إيوان ولن كلمة تعنى هى الأخرى القصر وقد تكون تلك الكلمة إذ تنطق بالإنجليزية قد إختلطت فى ذهن جيرار مع الكلمة الفرنسية divan لا سيا أن هذه الكلمة نفسها من أصل شرقى ( الناشر ) .

(١٩) قماش قطنى خشن يصنع أصلاً فى مدينة كليكوت على شاطىء مالابار .

الغالية . وجدران المنزل مطلية بالجبس ومبيضة من الداخل . وفى كل مكان تقريبا تجد صوانين أو ثلاثة قليلة العمق صنعت أبوابها على شكل تقسيمات صغيرة للغاية . وهذه العادة سببها شدة الجفاف وحرارة الجو التى تطرد القطع الخشبية الكبيرة لدرجة أن المرء يظن أنها تعرضت لنار الفرن . وأبواب الشقق تتكون لنفس السبب من قطع مركبة . وتوزيع التقسيمات الخشبية المختلفة التى نلاحظها على كل ما هو مصنوع من الخشب تعطى صورة فريدة غنية بالخيال والتركيبات .

والأسقف من الخشب ، والعروق العرضية منحوتة وتطلى أحيانا بالألوان وأحيانا تذهب . وسقف الدركاه فى البيوت الكبرى تزينه زخارف غاية فى الثراء ذات معينات متقابلة تكون رسوماً طريفة ومنتظمة ذات تأثير زخرفى من أرق الأذواق .

وفى وسط المربع الذى تكونه تلك القطع تعلق نجفة . والطريقة الفريدة التى تطلى بها الأسقف وغرابة الرسوم التى تتمثل فيها والتى تبدو متقابلة فى غير نظام بينما أن جميع هذه الفراغات مكونة من أجزاء ليس ثمة ما هو أكثر انتظاماً منها وتكون معاً كلاً مبهرًا للعين .

وفى داخل بعض البيوت ثمة غرفة تسمى «المقعد» تخصص لنفس الغرض الذى تخصص له المندرة . وسقفها محمول على عمود أو عمودين وعدة قبوات قاعدتها مزودة بالقضبان . والدور الأرضى كذلك له غرفة استقبال تسمى «تختبوش» ، وهى عادة مربعة . وواجهتها المطلة على الفناء مفتوحة ، وفى الوسط يرتفع عمود لحمل الجدران المبنية فى أعلى .

وهذه الغرفة مبلطة بالبلاط الكبير وبها صفة تشغل ثلاثة جوانب من الحائط . وهذه الغرفة التي يمكن أن تعتبر فناء كثيرا ما ترش بالماء ، لتزويد الشقق المجاورة ، أو على الأقل شقق الطابق الأرضي بالرطوبة الغالية في مثل هذه الأجواء .

وفي الشقق العليا ، وهي شقق الحريم ، يوجد مكان يسمى «الكعب» ذو ارتفاع كبير ، ويوجد به ديوانان يمتد كل منهما بطول أحد الجدران ، وأحدهما أعرض من الآخر والعريض هو الذي يجلس فيه عادة الأشخاص الذين يراد تكريمهم . وجزء من سقف هذا الصالون الذي يتوسط الديوانين أكثر ارتفاعاً من بقية الأجزاء . وفي الوسط يعلق مصباح يسمى ممرك memrak زينت أسطحه بالعرائس مثل المشربيات التي تحمل قبوة صغيرة . ومن النادر ما تكون الدركاه مزودة بنافورة صغيرة الا أنها غالبا ما تكون مبلطة بنفس طريقة المندرة .

ونجد في كثير من الغرف وزرات خشبية ضيقة محملة بكافة أنواع الأواني الصينية المجلوبة من الصين الغرض منها تجميل المكان . وهذه الوزرات المركبة على ارتفاع أكثر من سبع أقدام من الأرض تحيط بالغرفة بأكملها فيما عدا فتحات النوافذ والأبواب . أما الغرف فجميعها تقريبا مرتفع جداً ، وارتفاعها يبلغ على الأقل أربع عشرة قدماً ، بل إن كثيرا منها تزيد عن ذلك . والكعب هو أوسعها جميعا وأكثرها ارتفاعاً وفي منازل الكبراء يشكل الكعب أجمل غرف الاستقبال .

وفى بعض الأدوار العليا لبيوت الأغنياء ترى بخلاف النوافذ ذات العرائش طاقات صغيرة من الزجاج الملون يمثل سلال زهور أو موضوعات أخرى بهيجة وأنيقة أو يكتفى ببعض الرسوم الغريبة ذات التأثير الساحر . وهذه النوافذ الزجاجية الملونة تسمى خماسية وكلها تقريبا يبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثا وعرضها قدمين تقريبا . وتركب هذه النوافذ الزجاجية الملونة على الجزء الأعلى من النوافذ البارزة أو على الأجزاء العليا لفتحات الجدران فترسل من ثم ضوءاً هادئا سحريا ذا انعكاسات لا يمكن تصوير سحرها . وهذه النوافذ تتكون من قطع صغيرة من الزجاج من مختلف الألوان مثبتة فى إطار من الجبس الناعم مركب بدوره على إطار من الخشب . ونرى على الجدران المبنية من الجص فى بعض الشقق رسوما رديئة تمثل الكعبة وقبر الرسول أو تمثل زهورا وغيرها من موضوعات الزينة . ونجد كذلك حكما عربية وعبارات دينية . ومعظم هذه الحكم والعبارات تكون مكتوبة على ورق جميل وتجملها الزخارف الخطية الجميلة وموضوعة فى إطار يغطيه الزجاج . وغرف النوم ليست مؤثثة لهذا الغرض لأن الفراش يفك أثناء النهار ويلف ويوضع فى ركن من الغرفة أو فى غرفة أخرى تستخدم للنوم أثناء الشتاء . أما فى الصيف فمعظم السكان ينامون على أسطح المنازل . فيفرش الحصير أو السجاد فوق الحجارة التى بلطت بها أرضية المكان وأريكه هذا هو كل ما فى غرفة النوم من أثاث ، وهذا عادة هو ما يوجد فى الغرف الأخرى .

وتقدم الوجبات على صحاف مستديرة توضع فوق كرسى صغير

منخفض . ويجلس المدعوون على الأرض حول الصحفة . واستخدام المدافئ غير معروف . وتدفأ الشقق فى فصل الشتاء بواسطة حجر يوضع فى موقد ولا تعرف المدافئ الا فى المطابخ .

وكثير من البيوت بها محازن على الأسطح تكون متجها جهة الشمال أو الجنوب الغربى ومهمتها ترطيب الغرف العليا .

ولكل باب قفله الخشبى ويسمى دب : وبه نقاط بارزة من الحديد تتناسب مع ثقوب فى المفتاح .

وتعانى كثير من منازل القاهرة نقص الانتظام فالعرف عادة ذات ارتفاعات مختلفة ابتداء من الأرض مما يجعل من فى البيوت يصعدون ويهبطون للدخول من غرفة الى أخرى والهدف الرئيسى للمهندس هو أن يجعل البيت فى معزل بقدر الإمكان لاسيما الجزء المخصص لسكنى النساء وتجنب كشف الشقق من النوافذ أو البيوت المجاورة .

وفى بيوت الأثرياء أو أبناء الطبقة المرموقة يهتم المهندس بإضافة باب سرى ، وهذه التسمية تطلق كذلك على أبواب الحريم وذلك لتسهيل الهرب حين يكون ثمة تهديد بالقبض على أحد أو القتل أو إدخال احدى العشيقات التى تستطيع هكذا أن تدخل وتخرج سراً . وتحتوى بيوت الأثرياء كذلك على بعض المخابئ للثروات وتسمى «مخبأ» ويجد فى حريم البيوت الكبيرة حمامات تسخن بنفس الطريقة التى تسخن بها الحمامات العامة

وفى حين يشغل الخدم الجزء الأسفل من البيت تقسم الأدوار العليا إلى مساكن منفصلة وهذا الجزء من البيت يسمى ربعا وهذه المساكن منفصل بعضها عن البعض الآخر تماماً . وكذلك الحال بالنسبة للجوانب أسفل البيت ، وهى تؤجر إلى أسر لا تملك القدرة على دفع إيجار منزل بأكمله . وكل من هذه المساكن التى يتكون منها الربع يتكون من قاعة أو أكثر وغرفة نوم وعادة من مطبخ والمرافق الأخرى . ومن النادر أن تجد مثل هذه المساكن ولها مدخل خاص من الشارع .

## مراسم الجنازات

إن المراسم المتبعة بمناسبة وفاة أو دفن أحد الرجال أو النساء متشابهة تقريبا . فحين تحدث الحشرجة أو غيرها من العلامات التي تدل على موت وشيك لأحد الرجال فإن أحد الحضور يعدل وضعه بحيث يكون وجهه تجاه مكة ويغمض له عينيه . وحتى قبل أن يلفظ أنفاسه أو بعد ذلك بلحظة يصيح الحاضرون قائلين : « لا حول ولا قوة الا بالله ! انا لله وإنا إليه راجعون ! اللهم ارحمه ! » وفي تلك الأثناء تصدر نساء الأسرة صيحات والتي تسمى الولولة ثم يصدرن أصواتا أكثر نفاذا وهن ينطقن باسم المتوفى . وأكثر الصيحات استعمالا والتي تفلت من بين شفتي زوجته أو زوجاته وأولاده هي :

« يا سيدى ! ياجملي ! (ومعنى ذلك أنت يامن كنت تجلب لي مئونتي وتحمل أثقالي ! ) يا سبعي ! ياجمل البيت ! ياعزى ! يا موردى ! يا أبي ! ياحسرة ! »

وبعد الموت مباشرة يجرد المتوفى من الملابس التى كان يرتديها ويلبس ملابس أخرى ثم يسجى على فراشه أو مرتبته ويغطى بغطاء وتستمر النساء فى ولولتهن . ويأتى الكثير من الجيران للانضمام اليهن .

ويحدث عادة أن ترسل الأسرة فى استدعاء ندابة أو ندابتين (أى الباكية العمومية) . وتحضر كل منهما دفا غير مزود بالرقائق المعدنية المعتادة التى نراها فى الدفوف العادية . وتضرب هذه السيدة على هذه الدفوف وهى تصيح : ياحسرة عليه ! وتمتدحن عمامة المتوفى وجماله ... الخ وذلك بينما ترى نساء الأسرة والخادمات وصديقات المتوفى وقد انتفشت شعورهن وأحيانا مزقن ثيابهن وهن يصحن بدورهن : ياحسرة عليه ! ويلطمن وجوههن .

ولا يلبث المغسل أن يحضر (أى غاسل الموتى) ومعه مقعد طويل يرقد عليه جثة الميت ، ونعش . وإذا كان المتوفى ذا مركز محترم يستدعى الفقراء الذين يشتركون فى موكب الجنازة الى منزل المتوفى . وفى أثناء مراسم غسل الجثة يجلس هؤلاء فى غرفة مجاورة أو خارج البيت على باب الشقة . وبعضهم يقرأ أو يرتل سورة الأنعام (السورة السادسة من القرآن) بينما يرتل الآخرون جزءا من البردة وهى قصيدة مشهورة فى مدح الرسول . وينزع الغاسل ملابس المتوفى التى تئول إليه على سبيل الصدقة . ثم يربط فكه ويغمض عينيه ويقوم للجثة بشعائر الوضوء العادى الذى يتم استعداداً للصلاة فيما عدا غسل الفم والأنف ويغسل من الرأس الى القدم

بالماء الساخن والصابون بليف النخل أو بماء يغلون فيه بعض أوراق الغبيراء الجافة المطحونة وماء الورد . ثم تربط قدماه وتوضع يداه فوق صدره .

والكفن ، وهو رداء القبر بالنسبة للفقراء ، يتكون من قطعة أو قطعتين من القماش القطني تعد على شكل كيس . أما بالنسبة للرجل الغنى فعادة يلف أولاً فى طبقة من الموسلين ثم فى ملاءة من القطن أكثر سمكا ثم فى قطعة من القماش الحريرى والقطن المقلم وأخيرا يلف فى شال من الكشمير . والألوان المفضلة لهذه الطبقات هى الأبيض والأخضر علماً بأنه يمكن استعمال جميع الألوان ماعدا الأزرق وكل ما يقترب منه . وحين تعد الجثة بهذه الطريقة من أجل الدفن توضع فى النعش الذى يغطى عادة بشال من الكشمير الأحمر أو من لون آخر . وحينئذ يقف الرجال الذين سيشتركون فى الموكب حسب النظام المتبع ، وهو بالنسبة للمواكب العادية كما يلى :

يتقدم الموكب ستة من الفقراء أو أكثر . وهؤلاء الرجال الذين يطلق عليهم اسم «اليمنية» يختارون دائما من بين العميان . ويتلو هؤلاء الفقراء أقارب وأصدقاء المتوفى وفى مناسبات كثيرة ينضم الى الموكب عدد كبير من الدراويش وغيرهم من رجال الدين الذين يحملون رايات طوائفهم . ثم يأتى ثلاثة أو أربعة من الطلبة يحمل أحدهم مصحفا (أى نسخة من القرآن) أو مجلدا يحوى واحداً من الأجزاء الثلاثين للقرآن . ويوضع هذا الكتاب على ما يشبه المنضدة الصغيرة صنعت من عصيان صغيرة من خوص النخل ويغطى عادة بمنديل مطرز . وينشد هؤلاء الفتية بصوت

أعلى وأشد حماسة من صوت المغنية بعض فقرات من قصيدة تسمى هوبرجة (كذا) Haubigsh تصف أحداث يوم الحساب .

وهؤلاء الطلبة الفتيان يتقدمون النعش مباشرة . ويحمل النعش بحيث يكون رأسه الى الأمام . وقد جرت العادة على أن يحمله أربعة من أصدقاء المتوفى لبعض الوقت ثم يحل محلهم غيرهم وهكذا على التوالى . وكثيرا ما يشترك المارة فى هذه المجاملة مما يعتبر ذا مثوبة عظيمة .

ويتبع النعش عدد من النسوة يبلغ أحيانا العشرين وتغطى هؤلاء شعورهن المنفوشة بالخمار .

وتستطيع أن تميز النساء من قريبات أو خادمات المنزل بأن كل واحدة منهن تلف حول رأسها بعقدة واحدة لفة من القماش القطنى أو الموسلين عادة زرقاء وتترك الطرفين يتدليان على ظهرها[20] . وتحمل كل منهن كذلك منديلا يكون عادة مصبوغا باللون الأزرق ، يضعنه عادة على أكتافهن ، وفى بعض الأحيان تلوى بعضهن هذا المنديل بأيديهن فوق رءوسهن أو أمام وجوههن .

وفى بعض المناسبات ينتهى الموكب بثور جعل للذبح أمام النعش يوزع لحمه بعد ذلك على الفقراء .

---

(٢٠) كثيراً ما نرى على جدران مقابر قدماء المصريين التى تشتمل عليها المشاهد الجنائزية نساء يضعن لفة مشابهة على رءوسهن (جيرار دى مرفال) .

أما النعوش المخصصة للنساء والفتيان فتختلف عن نعوش الرجال . صحيح أن لها غطاء من الخشب يغطى بشال كما يحدث في نعوش الرجال ، إلا أن هذه النعوش تتميز بأن لها قطعة خشبية مستقيمة على الرأس تسمى الشاهد . وهذا الشاهد يغطى بشال ويوضع على الجزء الأعلى منه (حين تكون المتوفاة من الطبقة المتوسطة أو من الطبقة العالية ) مختلف الزينات التي تستعملها النساء في تصفيف شعورهن . ولما كان الجزء الأعلى مسطحا أو مستديراً فكثيرا ما يوضع فوقه ما يسمى « بالقرص » (وهو عبارة عن حلية مستديرة من الذهب أو الفضة مرصعة بالماس أو الذهب المنقوش بزينات بارزة تضعه النساء في أعلى رؤسهن ) . ومن الخلف تعلق الصفا (وهي عبارة عن عدد من الضفائر الحريرية السوداء المزدانة بحلى من الذهب . وتضيف النساء تلك الضفائر إلى ضفائرهن الأصلية وتتركها تتدلى فوق ظهورهن ) . وتستطيع ان تتبين نعوش الصبيان بأن فوقها عمامة تكون عادة من الكشمير الأحمر وتوضع في أعلى الشاهد . وحين يكون الصبي صغير السن جداً يضاف اليها القرص والصفا . أما إذا كان الأمر يتعلق بطفل في سنواته الأولى فإن رجلا يحمله بين يديه إلى المقابر . ولا يغطى جثمانه الا بشال ، وأحيانا كذلك يضعونه في نعش صغير جداً يحمله أحد الرجال على رأسه .

ونتنقل الآن الى وصف الشعائر والمراسم داخل المسجد وداخل القبر .

وحين يدخل النعش إلى المسجد يوضع على الأرض فى المكان المحدد للنعوش بحيث يكون جانبه الأيمن متجها إلى مكة . ويقف الإمام على الجهة اليسرى من النعش ووجهه متجه إليه وفى اتجاه مكة . بينما يقف أحد رجال الدين الأقل درجة والمكلف بتكرار كلام الإمام . يقف لدى قدمى المتوفى . ويصطف حضور الجنازة خلف الامام وتقف النساء منفصلات خلف الرجال . ذلك لأنه من النادر ما يحظر عليهن دخول المساجد أثناء الاحتفالات . وحين يصطف الناس بهذه الطريقة يبدأ الإمام صلاة الجنازة ويبدأ بهذه الكلمات : «اقترح قراءة التكبيرات الأربع (وهى صلاة جنائزية تكرر فيها عبارة : «الله أكبر») على الميت المسلم الحاضر» . وبعد هذه المقدمة يرفع الإمام يديه مفتوحة ويلمس بطرف إبهامه أعلى أذنيه ويصيح قائلا : «الله أكبر !» ويقوم المبلغ بتكرار هذه الصيحة وكذلك يكررها جميع الأشخاص الواقفين خلف الامام . وبعد أن يقرأ الفاتحة يصيح الإمام مرة أخرى قائلا : «الله أكبر !» وبعد ذلك يضيف «اللهم صل على محمد النبى العظيم وعلى آله وصحبه وسلم !» وللمرة الثالثة يصيح الإمام قائلا : «الله أكبر» ثم يستنزل رحمة الله على المتوفى ويتوجه إلى الحاضرين قائلا : «اشهدوا له» فيردون قائلين : «كان رجلا فاضلا» . ثم يرفع النعش وإذا كانت تلك المراسم قد تمت فى مسجد أحد الأولياء المعروفين يوضع النعش أمام المقصورة ذات القضبان التى تضم رفات الولى . ويتلو بعض الفقراء وبعض الحضور صلوات جنائزية أخرى ثم تبدأ الجنازة من جديد المسيرة حسب الترتيب السابق

حتى المقابر . ومقابر القاهرة تكون عادة خارج المدينة فى الجهات الصحراوية الواقعة إلى الشمال . أو الشرق أو الجنوب من سورها . والمقابر فى المدينة قليلة العدد ومساحتها ليست كبيرة .

وسوف نقوم الآن بوصف دقيق لإحدى المقابر . فهى تتكون عادة من قبو يميل إلى الاستطالة وله سقف أشبه بالقبة . وهو مبنى عادة من الطوب ومدهك بالجبس والقبر عميق لكى يستطيع من يدفن فيه أن يجلس حين يأتى الملكان منكر ونكير (كذا) لزيارته وحسابه . وأحد جوانب المقبرة يكون فى اتجاه مكة أى إلى الجنوب الشرقى . أما مدخله فيتجه إلى الشمال الشرقى . وأمام هذا المدخل يوجد قبو صغير مربع الشكل مغطى بالحجارة التى تعبره من جهة إلى أخرى من أجل الحيلولة دون دخول التراب إلى القبو . وهذه الفجوة المبنية كما قلنا تعاد فتغطى بالتراب . ويبنى فوق القبو أثر ذو استطالة يسمى « التركيبة » يكون عادة من الحجارة أو الطوب . وفوق هذا الأثر يوجد حجران متقابلان أحدهما فوق الرأس والآخر فوق الأقدام . وهذه الحجارة عادة غاية فى البساطة ومع ذلك فنها ما يزين بالزخارف . وعادة يحمل الحجر الذى فوق الرأس كتابة لآية من القرآن واسم المتوفى وتاريخ وفاته وهذا الحجر يعلوه أحيانا حجر منحوت يمثل شكل عمامة أو طاقية أو ما أشبه ذلك من غطاءات الرأس مما يدل على مكانة الأشخاص المدفونين فى القبر أو طبقتهم الاجتماعية . وفوق التركيبة الخاصة بالشيوخ الأجلاء أو بالأشخاص ذوى المكانة الرفيعة يبنى عادة مبنى صغير تعلوه قبة . وكثير من القبور التى بنيت تكريما لوجهاء

الاتراك أو المماليك تحتوى على تركيبات من الرخام مغطاة بغطاء على شكل قبه يستند إلى أربعة أعمدة من الرخام . وفى هذه الحالة فإن الحجر المقام فوق الرأس يحمل كتابات مذهبة على قاعدة لازوردية . وفى المقبرة الكبيرة الواقعة إلى الجنوب من القاهرة نشاهد الكثير من المقابر المبنية بهذه الطريقة . ومعظم مقابر السلاطين مساجد أنيقة .

وحيث إن القبر يفتح قبل وصول الجثمان فإن الدفن لا يتأخر إطلاقا . ففى الحال يسحب دافن الموتى ومساعداه الجثمان من التابوت ويضعونه فى القبر وتفك الأربطة التى تحيط به . ويوضع على جانبه الأيمن أو بحيث يميل ناحية اليمين بحيث يكون الوجه فى اتجاه مكة . ويثبت فى هذا الوضع بواسطة بعض الطوب النئ . وإذا كان غطاؤه الخارجى هو شال من الكشمير فإنه يمزق حتى لا تكون قيمته سببا فى إغراء اللصوص على فتح القبر . ويضع أحد الحضور حفنة من التراب بالقرب من الميت وعلى جسمه ثم تغلق فتحة القبر بواسطة حجارة الغلق الموضوعة فوق الفجوة المربعة التى تسبقه ويضاف التراب الذى كان قد أبعد عنها . لم تتم بعد ذلك شعائر يقوم بها الجميع ماعدا الأطفال صغار السن الذين لا يعتبرون مسئولين عما يقومون به من أعمال . ويقوم أحد الفقراء بعمل الملكين (كذا ) أى معلم الموتى فيجلس إلى جوار المقبرة ويقول : يا عبد الله ! يابن أمة الله ! اعلم أن الآن ينزل ملكان أرسلا إليك وإلى أمثالك . فحين يسألونك : من ربك ؟ رد عليهما قائلا : «إن ربى هو الله حقيقة . وحين يسألونك عن نبيك أو الرجل الذى أرسل إليك قل لهما : إنه محمد رسول

الله . وحين يسألونك عن دينك قل لها : إن دينى هو الإسلام . وحين يسألونك عن الكتاب الذى تتخذه أساساً لسلوكك قل لها : إن القرآن هو الكتاب الذى ينظم سلوكى والمسلمين إخوتى . وحين يسألونك عن دينك قل لها : لقد عشت ومت على عقيدة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وحينئذ سيقول لك الملكان : استرح يا عبد الله ! فى رعاية الله ! »

ويعتقد المصريون أن الروح تظل مع الجثمان خلال الليلة الأولى والتالية للدفن وأن حساب الملكين السابق ذكرهما واللذين يستطيعان تعذيب الجثمان يتم فى تلك الليلة .

والليلة التالية للدفن تسمى ليلة الوحشة (أى ليلة العزلة ) حيث إن مكان المتوفى يظل مهجوراً .

وما أن تغرب الشمس حتى يؤتى باثنين أو ثلاثة من الفقراء إلى منزل المتوفى حيث يتناولون عشاء من الحساء واللبن فى المكان الذى توفى فيه الميت وبعد ذلك يقرءون سورة الملك (السورة ٦٧ من القرآن ) . ولما كان ثمة اعتقاد بأن روح الميت تظل مع جثمانه خلال الليلة الأولى للدفن وبعد ذلك تتوجه إما إلى حيث توجد الأرواح الفاضلة حتى يوم الحساب الأخير أو إلى السجن الذى ينبغى الأشرار أن ينتظروا فيه مصيرهم النهائى ، وهذه الليلة كذلك تسمى ليلة الوحدة .

# سكان مصر

من الصعب تقدير سكان بلد لا يسجل فيه لا المواليد ولا الوفيات . ومنذ سنوات أرادوا عمل تقدير حسابى لذلك مع أخذ عدد البيوت فى مصر كلها فى الاعتبار وافتراض أن كل بيت فى العاصمة يحتوى على ثمانية أشخاص وفى الأقاليم لا يزيد عدد سكان البيت الواحد عن ستة . وهذا التقدير يقترب كثيرا من الحقيقة ومع ذلك فإن نتيجة التقديرات لم تعط لمدينة كالإسكندرية وبولاق ومصر القاهرة الا متوسطا لا يزيد عن خمسة أشخاص أما رشيد فقد رؤى أنها نصف مهجورة .

أما دمياط فهى كثيرة السكان ويمكن بسهولة أن يضم كل بيت فيها ستة أشخاص . وإذا لم نقبل هذه التقديرات فلن نصل إطلاقا إلى الرقم الاحتمالى لعدد سكان مصر . وإن إضافة شخص أو شخصين فى كل بيت لكل هذه المدن لايمكن أن تكون ذات تأثير كبير فى تقدير عدد سكان مصر كلها الذين قدروا بـ ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة . وضمن هذا العدد ثمة

۲٫۲۰۰٫۰۰۰ من الذكور ثلثهم أى ٤۰۰٫۰۰۰ صالحون للخدمة العسكرية . والطبقات المختلفة التى يتكون منها السكان هى تقريبا كما يلى :

مصريون مسلمون (وهم من الفلاحين وسكان المدن) ۱٫۷٥۰٫۰۰۰ ، مسيحيون (أقباط) ۱٥۰٫۰۰۰ ، عثمانيون أو أتراك ۱۰٫۰۰۰ ، سوريون ٥٫۰۰۰ ، يونانيون ٥٫۰۰۰ ، أرمن ۲٫۰۰۰ . يهود ٥٫۰۰۰

أما الباقى ويبلغ عددهم تقريبا ۷۰٫۰۰۰ نسمة فيتكونون من العرب الغربيين والنوبيين والعبيد الزنوج والمماليك (أو العبيد الذكور) ، والجوارى البيض ، والإفرنج ... إلخ ، ومن الصعب تصنيفهم . ولم يحسب عرب الصحارى المجاورة ضمن تقدير السكان هذا .

والمصريون من مسلمين وأقباط والسوريون ويهود مصر لايتكلمون إلا العربية ، فيما عدا القليل من الاستثناء . والعربية هى اللغة التى يتحدث بها كذلك الأجانب المقيمون فى البلاد .

وتشتمل القاهرة على ۳۰۰٫۰۰۰ نسمة . ونخطىء كثيرا لو أردنا الحكم على سكان هذه المدينة بالزحام القائم فى شوارعها العامة والأسواق ذلك لأن الشوارع والأحياء الأخرى أقل كثيرا من ناحية تآهلها بالسكان .

## ( ملحق )

## ـ ١ ـ

## ( الفنون لدى الشرقيين )

ثمة فكرة ثابتة لدينا تمثل البلاد الشرقية على أنها عدوة للوحات والتماثيل . وتلك فكرة قديمة ينبغى أن تصف بجوار الفكرة القديمة الأخرى التى نسبت إلى قائد عمر تهمة إتلاف مكتبة الأسكندرية . تلك المكتبة التى تبددت بعد الحريق وتخريب السيرابيوم وكان ذلك قبل قدوم ذلك القائد بكثير.[٢١]

ونعرف جميعا أنه كان ثمة لوحات مرسومة على الرق فى قصر الحمراء فى غرناطة . وأن أحد الملوك المور ممن حكموا هذه المدينة قد أقام تمثالا لعشيقته فى مكان اسماه حديقة الفتاة Jaxdun de la Fille ولقد قلت من قبل اننا نجد فى إحدى قاعات السراى فى القسطنطينية مجموعة من اللوحات لوجوه السلاطين قام برسم أقدمها مشاهير الرسامين مثل بلان

(٢١) يبدو أن جيرار كان راغباً فى إبعاد كل مسئوليه حول تخريب مكتبة الإسكندرية الشهيرة عن الشرقيين . انظر ما يقول عن ذلك فى قصته « بنات النار » ، أنجليك ، الخطاب الأول .

وردى Bellin فيسي Devenise اللذين دعوا لهذا الغرض بأجر كبير.

بل لقد سنحت لى فرصة شهود معرض لوحات و القسطنطينية أقيم خلال أعياد رمضان و حي جالاتا Galata بالقرب من مدخل قنطرة السفن التى تعبر القرن الذهبي. ومع ذلك فينبغى الاعتراف بأن هذا المعرض كان يستحق الكثير من نقد الباريسيين. فقد كان تقسيم اللوحات مختفيا تماماً بينما كانت المناظر والأشياء الجامدة تسيطر على اللوحات و وتيرة واحدة.

وكان ثمة ما يقرب من خمسمائة أو ستمائة لوحة ذات إطارات سوداء يمكن تقسيمها كما يلى: لوحات دينية، لوحات معارك، مناظر، لوحات بحرية، لوحات حيوانات. والطائفة الأولى تتعلق بنقل أشكال جميع المساجد الهامة فى الامبراطورية العثمانية، فهى إذن تمت إلى العمارة الخالصة فيما عدا بعض الأشجار التى تظهر قيمة المآذن. وكانت السماء الزرقاء والأرض سمنية اللون والطوب الأحمر والقباب الرمادية كانت كل ما تصل إليه تلك اللوحات قليلة التنوع التى يتحكم فيها نوع من العرف الكهنوتى. أما عن المعارك فقد كان تنفيذها يعوقه كثيرا الاستحالة الدينية فى تصوير أية مخلوقات حية حتى ولو كان الأمر يتعلق بحصان أو حتى جمل أو حتى حشرة الجعل. وتلك هى الطريقة التى كان يتصرف بها الرسامون المسلمون: كانوا يفترضون أن المشاهد بعيدة جدا عن مكان المعركة، فكانت ثنيات الأرض والجبال والأنهار ترسم بمفردها مع بعض الوضوح، أما خطط المدن وزوايا وخطوط القلاع والخنادق ومواقع التشكيلات

المربعة والمدفعية فتوضح بعناية كبيرة . وثمة مدافع كبيرة منطلقة ومدافع هاون ينبعث منها أقواس ملتهبة من القذائف التى تحى المنظر وتشكل الحركة فيه . وأحيانا يمثل الناس بنقاط . أما الخيام والأعلام فتبين الجنسيات المختلفة . وثمة ملاحظة مكتوبة فى أسفل اللوحة تخبر المشاهد باسم القائد المنتصر . وفيما يختص بالمعارك البحرية يصبح التأثير أكثر وقعاً بسبب وجود السفن حيث يكون الصراع بينها أكثر حركة وحياة . وحركة هذه السفن تكتسب كذلك الشئ الكثير من التأثير بسبب تصوير بعض مجموعات من الحيتان والحيوانات البرمائية التى يجعلون منها شهودا على الانتصارات الحربية للسفينة .

والواقع أنه من الغريب حقا أن نرى أن الإسلام لا يسمح الا بتصوير بعض الحيوانات الموضوعة فى عداد الوحوش . فهذا نوع من أبى الهول نصادف رسمه بالألوف فى المقاهى ولدى الحلاقين فى القسطنطينية . وهو عبارة عن رأس امرأة جميلة جداً على جسم حيغريف ( حيوان خرافى مجنح ) . وينتشر شعرها الأسود الطويل على الصدر والظهر وعيناها الحانيتان تحف بهما خطوط بنية وحاجباها المقوسان يتقابلان على جبينها . ويستطيع كل رسام أن يمنحها ملامح عشيقته وكل من يراها يستطيع أن يحلم من خلالها بالمثل الأعلى للجمال لأنها تمثل مخلوقا سماويا هو البراق الذى حمل محمد إلى الجنة الثالثة[٢٢]

(٢٢) قلنا ان لا داعى للتعليق على مثل تلك الملاحظات ولتطبيلها على سبيل المفاهيم الغربية أو الدعاية الطريفة ( المترجمة ) .

تلك إذن هى الإمكانية الوحيدة لدراسة الوجوه . ولا يستطيع المسلم أن يعطى صورته لحبيبته أو لأقربائه . ومع ذلك ثمة طريقة لمنحهم الصورة العزيزة بطريقة دينية سليمة بأن يكبر أو يصغر شكل المسجد الذى يروق له فى القسطنطينية أو غيرها على علب أو مداليات . ومعنى هذا أنه يريد أن يقول : «هنا يوجد قلبى ، وهو يحترق من أجلك تحت أنظار الله» .

ونجد بطول ميدان سيراسكييه Setasquier بالقرب من مسجد بايزيد حيث تطير الحمائم بالآلاف ، صفًا من الحوانيت للرسامين وصانعى الرسوم المصغرة . وهنا يأتى للعشاق والأزواج الأوفياء فى بعض المناسبات ويطلبون رسم هذه المساجد العاطفية : ويدلى كل واحد منهم بآرائه عن الألوان والملحقات . وعادة يضيفون إلى الرسم بعض الأشياء التى تصور مشاعرهم .

ولا نفهم كيف أن الأرثوذكسية الإسلامية تسمح بوجوه خيال الظل الواضحة والدقيقة تماماً لاستخدامها فى القراقوز . ولابد كذلك من ذكر بعض العملات والمداليات فى الماضى بل وكذلك بعض الرايات لدى الفرق القديمة للانكشارية التى كانت تحمل وجوه حيوانات . وتزين سفينة السلطان بنسر ذهبى ذى جناحين مفرودين .

وثمة ظاهرة أخرى غريبة . فقد اعتاد الناس فى القاهرة تغطية منازل جميع الحجاج العائدين من رحلتهم إلى مكة بالرسوم . وذلك بلا شك لتصوير البلاد التى رآها الحاج . ذلك أنه فى تلك المناسبة وحدها

يسمح بتصوير الأشخاص الذين يصعب على المشاهد مع ذلك أن يتصورهم من الأحياء.

وهذا التعصب ضد الوجوه لا نصادفه ، كما هو معروف الا لدى المسلمين الذين يدينون بمذهب عمر (كذا) ، ذلك أن المسلمين من مذهب على يملكون اللوحات والمصغرات من جميع الأشكال . ولذلك فلا ينبغى اتهام الإسلام ككل بموقف هادم للفنون . والخلاف يقع على تفسير نص مقدس يتيح الظن بأنه محظور على المرء أن يخلق الأشكال مادام لا يستطيع خلق الأرواح . وحدث ذات يوم أن قام رحالة إنجليزى برسم وجوه تحت أنظار أعرابى من الصحراء . فقال له هذا بلهجة غاية فى الجدية : «حين تمثل جميع الوجوه التى ترسمها ، أمامك فى يوم الحساب الأخير ويقول لك الله : ها هى قد أتت تشكو من أنها قد وجدت ومع ذلك لم تستطع الحياة فقد صنعت لها جسدا ، والآن امنحها الروح ! فماذا تجيب ؟ — فقال الإنجليزى :

« سأقول للخالق : مولاى ، أما عن خلق الأرواح فسوف تقوم أنت بتلك المهمة خير قيام فلا أستطيع منافستك .. ولكن إذا كانت تلك الوجوه تبدو لك تستحق الحياة فامنحنى فضل إحيائها ! »

ووجد العربى هذا الرد مرضيا أو على الأقل لم يجد ما يرد به عليه . وقد بدت لى فكرة الرسام الأنجليزية غاية فى الذكاء . فإذا كان الله حقا يريد يوم الحساب الأخير أن يمنح الحياة لجميع الوجوه المصورة أو المنحوتة بواسطة كبار الفنانين فإنه سيملأ العالم بطائفة كبيرة من المخلوقات اللطيفة

التى تستحق الحياة فى بيت المقدس الجديد ليوحنا الرسول .

ونلاحظ مع ذلك أن الأتراك قد أولوا الآثار الفنية فى البلاد الخاضعة لنفوذهم من الاحترام أكثر مما كان متوقعا . وإن الفن ليدين بالحفاظ على مجموعة كبيرة من التماثيل الأشورية واليونانية والرومانية إلى سماحتهم واحترامهم للآثار ، ولولا ذلك لأتلفتها التطاحنات الدينية عبر العصور . ومهما قيل فى ذلك فإن تحطيم الأشكال الفنية لم يتم إلا فى العصور الأولى للتعصب حين ظن فى بعض الشعوب أنها تتجه لعبادتها .

واليوم إن أكبر دليل على سماحة الأتراك فى هذا الصدد يقدمه لنا وجود مسلة وسط ميدان أتميدان nadiemr.A.L فى مواجهة مسجد السلطان سليم وقاعدتها مغطاة بالرسوم البيزنطية البارزة تتميز فيها أكثر من ستين وجهاً احتفظ بها فى حالة جيدة تماماً . ومن الصعب تعديد التماثيل الأخرى التى تمثل كائنات حية وقد احتفظ بها فى القسطنطينية بخلاف تلك التى توجد فى الكنائس الكاثوليكية . فى قبة أيا صوفيا كانت وجوه الرسل المصنوعة من الفسيفساء قد غطيت بطبقة من الألوان ورسم عليها أشكال عربية من الزهور . أما بشارة العذراء فقد غطيت فقط بغطاء(٢٣) .

(٢٣) إن إعادة حالة كنيسة أيا صوفيا على ما كانت عليه قد قام على تنفيذها اليوم السادة الإخوة فوساتى . وأعيدت حالة لوحات الفسيفساء حسب الرسوم التى وصفها مسيو فورناري ، ولم يحدث شيئ من تلك الإعادة بقلم مسيو نوجيس Mr. Nogues ( ملاحظة جيرار ) . والأمر يتعلق هنا ولا شك بفرنسوا نوجيس رئيس تحرير جريدة القسطنطينية Gournal de Coustantinlfle .

وفى كنيسة الأربعين شهيدا التى تقع بالقرب من قناة فالنسيا Valens لم تمس اللوحات الفسيفسائية رغم أن المبنى قد تحول إلى مسجد .

ولكى انتهى من الحديث عن الرسوم التى يسمح بعرضها للجمهور أذكر ملهى ليليا يقع فى طرف بيرا على حافة الطريق الذى يفصل هذه الضاحية عن قرية سان - ديمترى . وهذا الطريق كونه مجرى أحد الأحراش حيث كانت تنساب مياه جدول صغير يتحول إلى نهر فى الأيام العاصفة . والموقع من أجمل المواقع التصويرية بفضل الأفق المتغير بسبب التلال التى تمتد من ساحة الموتى الصغيرة إلى الشاطئ* الأوربى للبوسفور . وثمة منازل مطلية مختلطة بالخضرة قد كرس معظمها لأن يكون حانة ريفية أو مقاهى ترتسم بالمئات على قمم وسفوح المرتفعات . ويندفع جمهور مختلط من مختلف الألوان حول هذه الأبنية المتنوعة فى حى الحانات الريفية الإسلامية حيث يصم أذنيك باعة الفطائر والمقليات والفاكهة والبطيخ بصياحهم العجيب . فتسمع اليونانيين منهم يصيح : a dka Paras (أى ١٠ بارات والبارة أكثر قليلا من الفلس ) ؛ ثم ترى أهرامات من سنابل الذرة المسلوقة فى ماء مضاف إليه الكركم . ولندخل الآن إلى الحانة : إن داخلها شاسع المساحة فثمة أروقة عالية ذات درابزين من الخشب المخروط تحيط بالقاعة الكبيرة . وإلى اليمين يوجد عداد صاحب الحان ، وهو مشغول دواماً فى صب أنبذة تينيدوس Tenedos فى أكواب بيضاء

ذات يد يتلألأ فيها السائل العنبرى . وفى عمق القاعة توجد أفران الطبخ الخاصة بطائفة كبيرة من التوابل . ويجلس الرواد للعشاء على كراس صغيرة بلا ظهر أمام موائد مستديرة لا ترتفع إلا إلى ارتفاع ركبة الساق . ويجلس من لا يرغبون الا فى الشراب بالقرب من الباب أو على مقاعد وضعت بطول دوران القاعة .

وهنا يبدو اليونانى بطربوشة الاحمر والأرمنى بذقنه الطويلة . والكلبك Kalpack الأسود واليهودى ذو العمامة الرمادية يبدون تحررهم من تعليمات محمد . ومن مكملات تلك اللوحة الزخارف المحلية التى أردت التنويه بها والتى تتكون من طائفة من الوجوه والأشكال التى رسمت على لوحة كبيرة على حائط الخان . إن اللوحة تمثل متنزها للمجتمع ويرجع حسب ماتدل عليه الملابس إلى نهاية القرن الماضى . ترى على اللوحة قرابة عشرين شخصا ذوى أطوال طبيعية بملابس لمختلف البلاد يسكن أبناؤها القسطنطينية . فتجد فيهم الفرنسى بملابس حكومة الديركتوار مما يدل على التاريخ الدقيق الذى رسمت فيه اللوحة . والألوان مازالت محتفظ بها والتنفيذ مرض جداً بالنسبة لرسم من العهد البيزنطى الحديث . وثمة لمحة ساخرة تحتوى عليها اللوحة تدل على أن من قام بها ليس رساماً أوربيا ذلك أنك ترى فيها كلما يرفع قدمه للعبث بجوارب الرجل الأنيق الذى يحاول بلا جدوى أن يصده بدرهم . تلك فى الواقع هى اللوحة الوحيدة التى يتمثل فيها أشخاص وتعرض للجمهور والتى استطعت اكتشافها فى القسطنطينية . وهكذا نرى أنه ليس من العسير على أى فنان أن يعرض

مواهبه على أصحاب الحانات كما كان يفعل لنتارا Lantara [(٢٤)] ولم يبق أمامي إلا الاعتذار عن طول هذه المذكرة التي يمكن الاستفادة منها على الأقل في تحطيم فكرتين أوروبيتين خاطئتين وذلك بإثبات أنه توجد في بلاد الأتراك لوحات وحانات . والكثير من فنانينا يعيشون هناك حياة طيبة للغاية برسم وجوه القديسين للأرمن واليونانيين .

(٢٤) رسام بولمى (١٧٢٩ ــ ١٧٧٨) هو بطل مسرحية لفرليه لبار يه Barre بإسم لانتارا أو رسام الحان (١٨٠٩) . ويتحدث عنه أرسين هوسى a. Houssay صديق جيرار في رواق الوجوه في القرن الثامن عشر Galarie de Portraits du XVIII .

# خطاب عمرو

كانت قصة الخليفة الحاكم بالنسبة للمؤلف ذريعة لاتمام وصف القاهرة الحديثة بوصف للقاهرة القديمة الخاصة بذكريات أجمل العصور التاريخية .

وثمة مستند لا ينبغي نسيانه كأول انطباعة عن مصر بعد أن أصبحت إسلامية ، ذلك هو الخطاب الذي كان قد وجهه عمرو إلى الخليفة عمر الذي كان قد طلب إليه بعض التفصيلات عن ذلك الذي أتم غزوه منذ قليل . وهذا الخطاب هو (٢٥) «من عبد الله ابن العاصي ابن هاى ( Vail ) السحامي (كذا ) إلى خليفة رسول الله الذي أولاه الله السلام والرحمة . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وأحد الخلفاء المتبعين للطريق القويم ، الذي تلقيت خطابه وقرأته وفهمت ما يطلبه . ولذا فإنى أريد أن

(٢٥) هذه ترجمة لما زعم جيرار بأنه الخطاب الموجه من عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب ومسئولية صحة هذا الكلام من عدمها تقع على جيرار وحده .

أنتزع من فكره سحابة الشك بصدق حديثى . وإن القوة والسلطان من الله وكل شئ مآله إلى الله واعلم يامولاى أمير المؤمنين أن بلاد مصر ليست إلا أراضى سوداء ونباتا أخضر بين جبل مغبر ورمل محمر . وبين جبلها ورملها توجد سهول رفعت ومرتفعات خفضت . ويحيط بها منحدر يمنحها ما تتعيش به ويمتد من أسوان حتى آخر الأرض وإلى شاطئ البحر . مسيرة شهر بالنسبة لرجل على صهوة جواده . وفى وسط البلاد يهبط نهر مبارك فى الصباح وترعاه السماء فى المساء ينساب وهو يزيد وينقص حسب دورة الشمس والقمر . وله زمن تنفتح له فيه ينابيع وعيون الأرض بأمر خالقها الذى يحكم سريانه ويطلقه لكى يمنح للإقليم ما يتعيش منه فيجرى حسب ما يؤمر حتى تنفتح مياهه وتدور أمواجه فى صخب . وحين تصل أمواجه إلى أقصى ارتفاعها لا يستطيع سكان القرى المرور من قرية لأخرى إلا بالقوارب الصغيرة فترى الزوارق تلف وتدور وتبدو كجمال سوداء وبيضاء فى مخيلة رائيها . وحين يصل إلى تلك الحال يبدأ فى الدوران إلى الخلف وإلى الانحسار فى مجراه كما خرج منه من قبل حين ارتفع شيئا فشيئا . وحينئذ يستعد أنشط الناس وأكسلهم للعمل . وينتشرون فى الريف فى فرق منها رجال القانون الذين يحرسهم الله والخلفاء الذين يحميهم الناس . تراهم يسيرون كالنمل بعضهم ضعيف وبعضهم قوى أمام المهمة التى انيطوا بها . وتراهم يشقون الأرض وما تشرب منها ويلقون فيها بجميع أنواع الحبوب التى يطلبون مضاعفتها بعون الله . ولا تتأخر الأرض قط فى أن ترتدى بعد سواد سمادها حلة خضراء وتنشر رائحة ذكية طيبة

أنبتها للسيقان والأوراق والسنابل فيكون منظراً بهيجا وأملاً طيبا حيث إن الندى يرويها من عل وتغذى الرطوبة تاجها من أسفل . وفى بعض الأحيان تأتى بعض السحب بمطر قليل وفى بعض الأحيان لا تسقط إلا قطرات من الماء وفى بعضها لا يسقط شيء قط . وبعد ذلك يامولاى أمير المؤمنين تعرض الأرض زخرفها وتستعرض محاسنها وتسعد سكانها وتطمئنهم على أنهم لابد حاصدو ثمراتها لغذائهم وغذاء مطاياهم ولنقل بعضها إلى الخارج ومضاعفة مواشيهم . وهى تبدو اليوم يامولاى أمير المؤمنين كأرض مقفرة ثم لا تلبث أن تتحول إلى بحر أزرق أو لؤلؤة بيضاء ثم كطمى أسود ثم كبساط أخضر ثم كوشى مختلف الألوان أو كذائب الذهب الأحمر . وحينئذ يحصد قمحها ويضرب لاستخراج الحبوب التى تمر بين أيدى الرجال فيأخذ منهم ماله ويأخذ منهم ما ليس له . وهذه التفاصيل تعود كل عام كل حال فى وقته بأمر الله القادر وقدره : فالحمد لله العظيم وتبارك أفضل الخالقين . أما عن ما هو ضرورى لصيانة هذه الأعمال مما يجعل البلاد أكثر سكانا وأفضل زراعة والمحافظة عليها فى حالة طيبة ودفعها للتقدم لما هو أفضل محسب ما قال لنا العالمون بأمورها ممن كانوا يمسكون بزمام حكمها بين أيديهم فقد لاحظنا بصفة خاصة ثلاثة أمور أولا هو عدم تقبل الخبيث من القول الذى توجهه الغوغاء ضد أعيان البلاد حسداً منها وجحودا للخير الذى يقدم إليها . والأمر الثانى هو استخدام ثلث الجزية التى تجبى فى صيانة القناطر والطرق ، والأمر الثالث هو ألا تجبى الجزية عن نوع إلا إذا كان فى أوج نضجه . ذلك هو وصف مصر يا مولاى أمير المؤمنين الذى تستطيع منه أن تعرفها كما لو كنت قد

رأيتها بنفسك . ليحفظك الله فى حسن تصرفك ويجعل حكمك لامبراطوريتك سعيداً ويساعدك فى تحمل المسئولية التى فرضها عليك . والسلام عليك والحمد لله وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه » .

## ديانة الدروز[٢٦]

سؤال : هل أنت درزى ؟

جواب : نعم بعون سيدنا ومولانا القدير

سؤال : وما هو الدرزى ؟

---

(٢٦) ديانة الدروز هذه عبارة عن تركيبه من مصادر مختلفة أهمها سيلفستر دى ساسى ( عرض لديانة الدروز ١٨٣٨ ) والديانة التى نشرها الشيقاليه رينو Regnault فى نشرة للجمعية الجغرافية ( يناير ١٨٣٧ ) ويقال حول تاريخ السابقة للبارون دى بوك de Bock ١٧٨٨ ( أنظر ج ريشيه G. Richer بمجلة تاريخ فرنسا الأدبى يناير — مارس ١٩٥٣ ) وجدير بالذكر أن المكتبة الأهلية تملك مخطوطاً بالعربية عن ديانة الدروز ( معرض مرقال ١٩٥٥ رقم ١٨٩ ) وقد يكون هذا النص هو الأصل الذى ترجمه نرقال لأنه قريب منه . وهذا يحمل على الاعتقاد بأن جيرار قد يكون استعان كذلك بنصوص عربية . ونذكر فى هذا الصدد أنه حكى فى « رحلة إلى الشرق » كيف أنه إرتبط بالصداقة لدى مغادرته لمصر بأرخى إستخدمه بعد ذلك باشا عكا كمترجم ( نساء القاهرة ٧ — ٤ ) .

جواب : هو الذى كتب الشريعة وعبد الخالق

سؤال : وما هو الذى أمرك به الخالق ؟

جواب : الصدق ومراعاة دينه ودين الأحوال السبعة

سؤال : ما هى الواجبات الصعبة التى اعفاك منها المولى وألغاها ، وكيف تعرف أنك درزى حق ؟

جواب : بالبعد عن الحرام وإتيان ما هو حلال

سؤال : وما هو الحرام والحلال ؟

جواب : الحلال ما هو خاص برجال الدين والزراعة والحرام هو ما يتعلق بالأماكن الوقتية والمرتدين

سؤال : متى وكيف ظهر مولانا القدير ؟

جواب : سنة ٤٠٠ من هجرة محمد . وكان يقول وقتئذ أنه من نسل محمد إخفاء لألوهيته .

سؤال : ولماذا كان يريد إخفاء ألوهيته ؟

جواب : لأن ديانته كانت مهملة وكان عدد من يعبدونه قليلا .

سؤال : ومتى ظهر مبديا ألوهيته ؟

جواب : سنة ٤٠٨

سؤال : وكم من الوقت مكث على هذه الحال ؟

جواب : سنة ٤٠٨ بأكملها ثم اختفى سنة ٤٠٩ لأنها كانت عام نحس . ثم عاد فظهر فى بداية سنة ٤١٠ وظل ومكث طوال عام ٤١١ وأخيرا فى بداية سنة ٤١٢ اختفى عن الأعين ولن يعود إلا يوم الحساب .

سؤال : وما هو يوم الحساب ؟

جواب : هو اليوم الذى يتجلى فيه الخالق بوجه بشر ويحكم العالم اجمع بالقوة والسيف

سؤال : ومتى يحدث هذا ؟

جواب : هذا أمر غير معروف . إلا أنه ستكون له دلائل تنبىء عنه

سؤال : وما هى هذه الدلائل ؟

جواب : حين يتغير الملوك ويتفوق المسيحيون على المسلمين

سؤال : وفى أى شهر يحدث ذلك ؟

جواب : فى شهر دجاز (كذا ) وشهر رجب[٢٧] حسب التاريخ الهجرى

(٢٧) رجب كتبها جيرار رجد ـ هنا يضيف جيرار ملاحظة عن النصارى أو الأنصارية والمتولية وأنها شرب من لبنان من مقاطعتى طرابلس وصيدا .

سؤال : وكيف يحكم الله الشعوب والملوك ؟

جواب : سوف يتجلى بقوة السيف ويسلبهم الحياة جميعا

سؤال : وبعد موتهم ماذا يحدث ؟

جواب : سوف يولدون من جديد بأمر القدير الذى سوف يأمرهم بما يشاء

سؤال : وكيف سيعاملهم ؟

جواب : سوف يقسمون إلى أربعة أقسام هى: المسيحيون ـ اليهود ـ المرتدون وعباد الله المخلصون

سؤال : وكيف ينقسم كل دين من هذه الديانات ؟

جواب : المسيحيون سينشأ عنهم مذهب النصارى والمتوليه[٢٨] ، واليهود سوف يخرج منهم الأتراك . أما المرتدون فهم الذين تركوا دين الله .

سؤال : وكيف يعامل الله من يعبدون وحدانيته ؟

جواب : سوف يعطيهم الامبراطورية والملكية والسلطة والأموال والذهب والفضة . وسوف يبقون فى العالم أمراء وباشوات وسلاطين .

سؤال : والمرتدون ؟

---

(٢٨) انظر الملاحظة فى الصفحة السابقة .

جواب : إن عقابهم لفظيع . ويتلخص في أن غلماءهم حين يريدون أكلا أو شربا يصبح مرا كما أنهم سيصبحون عبيدا ويتعرضون لأقصى المتاعب لدى عباد الله المخلصين . وسوف يتحمل اليهود والمسيحيون نفس ألوان العذاب إلا أنها ستكون أخف كثيرا .

سؤال : كم مرة تجلى فيها مولانا في صورة بشرية ؟

جواب : عشر مرات تسمى « محطات » . والأسماء التي حملها هي على التوالي : العلي ـ البار ـ علي ـ المعلي ـ القيم ـ المعص (كذا) ـ العزيز ـ أبو زكريا ـ المنصور ـ الحاكم .

سؤال : وأين كانت أولى المحطات أي محطة العلي ؟

جواب : في مدينة من مدن الهند تسمى رشين ـ مارتشين - Rchine-- ma - Tchine

سؤال : وكم مرة ظهر حمزة وكيف تسمى في كل مرة ظهر فيها ؟

جواب : لقد ظهر سبع مرات في القرون المتتابعة ابتداء من آدم حتى النبي الصامد . وكان في قرن آدم يسمى شاتنيل chattinl . وفي قرن نوح كان يسمى فيثاغورث . وكان داود هو الاسم الذي حمله في زمن إبراهيم . وفي زمن موسى باسم شعيب وفي زمن عيسى تسمى باسم المسيح الحق أو لازار وفي زمن محمد كان اسمه سليمان الفارسي . وفي زمن سيد كان اسمه صالح .

سؤال : اخبرنى عن أصل كلمة درزى

جواب : هذا الاسم مشتق من طاعتنا للحاكم بأمر الله ، وهذا الحاكم هو سيدنا محمد بن اسماعيل الذى كان يتجلى نفسه بنفسه ولنفسه . وحين يتجلى كان الدروز بأمره يدخلون فى طاعته مما جعلهم يسمون بالدروز لأن الكلمة العربية اندرز أو اندرج لها نفس معنى دربب darbcb(كذا ) ومعناها يدخل . ومعنى ذلك أن الدرزى قد كتب الشريعة ونشبع بها ودخل فى طاعة الحاكم . ويمكننا أن نجد أصلا آخر بكتابة كلمة درزى بالسين وحينئذ يكون أصلها درس يدرس ويكون معنى ذلك أن الدرزى قد درس كتب الحاكم وعبد الله القدير كما ينبغى له أن يعبده .

سؤال : وما هى نيتنا حين نعبد الإنجيل ؟

جواب : لنعلم أننا نريد من ذلك تعظيم اسم ذلك الواقف بأمر الله وهو حمزة لأنه هو الذى نطق بالانجيل . وعلاوة على ذلك فمن الملائم أن نعترف بديانة كل أمة . فنحن نعبد الانجيل لأن هذا الكتاب يرتكز على الحكمة الإلهية وأنه يحمل العلامات الأكيدة للدين الحق .

سؤال : ولماذا نرفض أى كتاب آخر غير القرآن حين نسأل فى هذا الموضوع ؟

جواب : لأننا فى حاجة إلى ألا نعرف على ما نحن حين نوجد وسط معتنق

مذاهب الإسلام . لمن المناسب إذن أن نعترف بكتاب محمد . ولكى لا يساء الحكم علينا اعتنقنا جميع الشعائر الإسلامية بما فيها الصلاة على الموتى وكل هذا فى الظاهر فقط حتى نظل مجهولين .

سؤال : وماذا نقول عن هؤلاء الشهداء الذين يمجد المسيحيون كثيرا شجاعتهم وكبر عددهم ؟

جواب : نقول ان حمزة لم يعترف بهم قط حتى ولوكان جميع المؤرخين قد شهدوا بوجودهم .

سؤال : ولكن إذا أتى المسيحيون وقالوا لنا إن دياناتهم ليست موضع شك لأنها تستند إلى براهين أقوى وأكثر مباشرة من أقوال حمزة فبماذا نجيب ، وكيف اعترفنا بعدم قابلية وقوع حمزة فى الخطأ ، هذا العمود من أعمدة الحق الذى يأتينا السلام عن طريقه ؟

جواب : بالشهادة التى أدلى بها هو نفسه عن نفسه حين قال فى قصيدة باب الحكم والدفاع : « إنى أولى خلق الله . إنى صوته ومقصده ، وإن لى العلم بأمره . إنى القلعة والبيت المشيد إنى سيد الموت والبعث ، إنى من سينفخ فى الصور وإنى سيد الكهنوت وسيد النعمة الإلهيه ، البانى والهادم للعدالات ، إنى ملك العالم وهادم الشهادتين إنى النار الملتهمة »

سؤال : وما هو الدين الحقيقى للقساومة الدروز ؟

جواب : إنه ضد كل عقيدة لأية أمة أخرى أو قبيلة وكل ما هو حرام لدى الآخرين نعتقد نحن فيه كما ذكرنى باب « الخديعة والتدبير » .

سؤال : ولكن إذا تعرف شخص على ديانتنا واعتقد فيها وسار بمقتضاها فهل ينقذ ؟

جواب : أبدا : فالباب مغلق وانتهى الأمر وكسر القلم . وبعد الموت سوف تلحق روحه بأمته الأولى وديانته الأولى .

سؤال : ومتى خلقت جميع الأرواح ؟

جواب : خلقت بعد الحبر حمزة بن على . فبعده خلق الله من النور جميع الأرواح وعددها محدد لا ينقص ولا يزيد حتى نهاية القرون .

سؤال : وهل ديننا العظيم يقر مبدأ السلام بالنسبة للنساء ؟

جواب : بلا شك لأن مولانا قد كتب فصلا عن النساء ولقد أطمن لغوهن كما هو مذكور فى باب قانون النساء وكذلك فى باب البنات .

سؤال : وماذا نقول فى بقية الأمم التى تؤكد أنها تعبد الله خالق السماء والأرض ؟

جواب : مهما قالوا ذلك فهو قول خاطىء مهما عبدوه حقا وإذا كانوا يعرفون أن المولى هو الحاكم نفسه فإن عبادتهم خرق للدين .

سؤال : من من القدامى علم حكمة الخالق إلى هؤلاء الذين أقروا أسس ديانتنا ؟

جواب : إنهم ثلاثة وأسماؤهم هى : حمزة واسماعيل وبهاء الدين

سؤال : وإلى كم قسم ينقسم العلم ؟

جواب : إلى خمسة أقسام : قسمان منها ينتميان إلى الدين واثنان آخران للطبيعة . أما الجزء الخامس وهو أكبرها جميعا فلا ينقسم إطلاقا . إنه العلم الحقيقى ، علم الحب والله .

سؤال : كيف نعرف أن هذا الرجل أو ذاك أخ لنا يرعى الدين الحق إذا ما صادفناه فى الطريق أو إذا اقترب منا وهو يمر بنا وقال إنه درزى ؟

جواب : هو ذاك : بعد المجاملات العادية نقول له : « هل يزرعون فى بلادك حبوب الأهليلج ( نبات هندى ذو ثمر ) ؟ » فإذا أجاب قائلا : نعم إنهم يزرعونه فى قلب المؤمنين » حينئذ نسأله عن ديانتنا ، فإذا رد ردوداً صحيحة فهو مواطن لنا وإذا لم يفعل فهو ليس إلا غريبا

سؤال : ومن هم آباء ديانتنا ؟

جواب : إنهم أنبياء الحاكم وهم : حمزة وإسماعيل ومحمد والكليم وأبو الرهير[٢٩] وبهاء الدين

---

(٢٩) ربما يقصد أبا هريرة ( المترجمة ) .

سؤال : وهل الجهلاء من الدروز يحصلون على السلام من قبل الحاكم أو يكون لهم عمل معين لديه إذا ماتوا وهم فى هذه الحالة من الجهل ؟

جواب : ليس ثمة سلام بالنسبة لهم على الإطلاق وسوف تضرب عليهم الذلة والعبودية لدى مولانا إلى خلود الخلود .

سوقال : وماهو دوماسا Doumassa ؟

جواب : إنه آدم الأول ، إنه أرخنور ARkhnour ، إنه هرمس ، إنه إدريس ، إنه يحيى ، إنه إسماعيل بن محمد التيمى ، وفى عصر محمد بن عبد الله كان يسمى بالمقداد

سؤال : وماهو القديم والخالد ؟

جواب : القديم هو حمزة والخالد هى الروح أخته .

سؤال : وماهى أقدام الحكمة ؟

جواب : إنهم المبشرون الثلاثة

سؤال : ومن هم ؟

جواب : يحيى ومرقص ومتى

سؤال : وكم من الوقت ظلوا يبشرون ؟

**جواب** : احدى وعشرين سنة بشر كل منهم منها سبع سنوات .

**سؤال** : وماهى هذه الأبنية فى مصر التى يسمونها الأهرام ؟

**جواب** : هذه الأهرام بناها الله القدير لبلوغ غرض مملوء بالحكمة عن له فى قدرته الإلهية .

**سؤال** : وماهو هذا الغرض المملوء بالحكمة ؟

**جواب** : هو أن يحتفظ فيه إلى يوم الحساب حيث تكون أوبته الثانية ، بالحجج والابراءات التى حصلت عليها يده الإلهية من جميع المخلوقات .

**سؤال** : ولأى سبب تجلى لدى كل قانون جديد ؟

**جواب** : لإشعال الحماس فى عبيد دينه الحق حتى يثبتوا عليه ويعلموا أنه هو الذى يغير بإرادته العدالة وحتى لا يؤمنوا بأحد غيره .

**سؤال** : وكيف تعود الأرواح إلى الأجسام ؟

**جواب** :كلما يموت رجل يولد آخر وهكذا نشأ العالم .

**سؤال** : وكيف يسمى المسلمون ؟

**جواب** : التنزيل

**سؤال** : والمسيحيون ؟

جواب : التأويل . وهاتان التسميتان يعنيان بالنسبة للمسيحيين أنهم فسروا أقوال الإنجيل ، وبالنسبة للمسلمين القول الشائع بأن القرآن نزل من السماء

سؤال : وماهى إرادة الله فى خلق الجن والملائكة الذين تحدث عنهم كتاب الحكمة لحمزة ؟

جواب : الجن والأرواح والشياطين مثلها مثل نظرائها من البشر الذين لم يستجيبوا لدعوة مولانا الحاكم . والعفاريت هى أرواح أمام الجسدين . أما الملائكة فيجب أن نتمثلهم كالعباد الحقيقيين لله الذين لبوا دعوة الحاكم وهو المولى الذى يعبد فى جميع ثورات العمر

سؤال : وماهى ثورات العمر ؟

جواب : إنها عدالة الأنبياء الذين ظهروا الواحد تلو الآخر واعترف بهم معاصروهم بنبوتهم مثل آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسيد . وكل هؤلاء الأنبياء ما هم إلا روح واحدة مرت من جسد إلى آخر ، وهذه الروح وهى الشيطان الحارس اللعين لابن ترماح Ebn Termahh وكذلك شيطان آدم العاصى الذى طرده الله من الجنة أى أن الله حرمه من التعرف على وحدانيته .

سؤال : وكيف كان استخدام الشيطان لدى مولانا ؟

جواب : لقد كان عزيزا عليه إلا أنه شعر بالغرور ورفض طاعة الوزير حمزة ولذلك فقد لعنه الله وطرده من الجنة .

سؤال : وما هم هؤلاء الملائكة الذين يحملون عرش الله ؟

جواب : هم الخمسة الأوائل الذين يسمونهم : جبريل وهو حمزة وميكاييل وهو الأخ الثانى وإسرافيل سلامة ابن عبد الوهاب ، وعزرائيل بهاء الدين ، ومتالرون على ابن أحمد وهؤلاء هم الوزراء الخمسة الذين يسمون بالسابق والثانى والجسد والرثة ElRathh(٣٠) والفيال (٣١) . ElFhial

سؤال : وماهى النساء الأربع ؟

جواب : إن اسماءهن هي : اسماعيل ومحمد وسلامة وعلى وهن : الكلمة والنفس وبهاء الدين وأم الخير .

سؤال : وماهو الإنجيل الذى أنزل على المسيحيين وماذا نقول نحن عنه ؟

جواب : إن الإنجيل قد صدر حقا من فم الله مولى المسيح الذى كان اسمه سلمان الفارسي فى عصر محمد . والمسيح هو حمزة ابن على . أما المسيح الدجال فهو الذى ولدته مريم لأن هذا المسيح هو ابن يوسف .

---

(٣٠) جيرار يشرح هذه الكلمة على أن معناها الفتحة .

(٣١) جيرار يشرح هذه الكلمة على أن معناها الفارسى وربما يقصد الخيال .

سؤال : وأين كان المسيح الحقيق حين كان هذا مع حوارييه ؟

جواب : كان بين هؤلاء الحواريين . وكان يعلم الانجيل ويعطى التعليمات للمسيح ابن يوسف ويقول له : « افعل هذا وذاك طبقا لتعاليم الدين المسيحى وكان ابن يوسف يطيعه . ومع ذلك فقد أضمر اليهود الكراهية للمسيح الدجال وصلبوه .

سؤال : وماذا حدث بعد صلبه ؟

جواب : لقد وضعوه فى قبر . وأتى المسيح الحقيق وأخفى الجسد من القبر ودفنه فى الحديقة ثم أشاع أن المسيح قد بعث حيا .

سؤال : ولماذا تصرف المسيح الحقيق بهذه الطريقة ؟

جواب : للإبقاء على الدين المسيحى ومنحه القوة .

سؤال : ولماذا حبذ الكفر كذلك ؟

جواب : حتى يستطيع الدروز أن يتخفوا تحت غطاء من الدين المسيحى فلا يعرف أحد أنهم دروز .

سؤال : ومن هو الذى خرج من القبر والذى عاد إلى الحواريين والأبواب مغلقة ؟

جواب : إنه المسيح الحى الذى لا يموت أبداً وهو حمزة .

سؤال : وكيف حدث أن المسيحيين لم يتحولوا إلى دروز ؟

جواب : لأن الله أراد ذلك .

سؤال : ولكن كيف يقبل الله الشر والكفر؟

جواب : لأن عادته المستديمة هي أن يصلح البعض ويهدى البعض الآخر كما قيل فى القرآن «أعطى الحكمة لمن يشاء وحرم منها من يشاء»[٣٢]

سؤال : ولماذا أمرنا حمزة بن على بإخفاء الحكمة وعدم كشفها ؟

جواب : لأنها تحتوى على أسرار وإيراءات مولانا ولا ينبغى أن يكشف لأحد عن أشياء يكمن فيها سلام الأنفس وحياة الأرواح .

سؤال : إننا إذن مصابون بالأثرة إذا كنا لا نريد الخلاص للجميع ؟

جواب : ليس ثمة أثرة فى ذلك على الإطلاق لأن الدعوة غير قائمة ، والباب مغلق والكافر هو الكافر والمؤمن هو المؤمن وكل شىء كما ينبغى أن يكون .

والصيام الذى تقرر منذ القدم قد أُلغى ولكن إذا صام الرجل فى غير الوقت المحدد لذلك وعذب نفسه بالصيام فإن ذلك أمر حميد لأنه يقربنا من الذات الإلهية .

سؤال : لماذا أُلغيت الصدقة؟

---

(٣٢) هذه بالطبع هى أقوال جبرار وليست آية من القرآن .

جواب : ان الصدقة لدينا نحو إخوتنا الدروز مشروعة ، إلا أنها جريمة بالنسبة لأى أحد آخر ولا يجوز ارتكابها

سؤال : وماهو الغرض الذى يبغى المنعزلون الذين يهذبون أنفسهم بلوغه

جواب : هو أن يستحق كل منهم حين أوبة الحاكم أن يعطيه وزارة أو ولاية أو حكومة كل حسب عمله .

## أسطورة سليمان

لا ينبغي أن ندهش للاتجاه الفلسفي ، وإذا شئنا ، الفولتيرى لهذه القصة . فإن أغلب القصص العربي والفارسي قد تشكل بهذه الروح . بل غالبا ما تؤخذ الأمور الغريبة على محمل الجد : ومثال ذلك أننا نجد في سوريا آثارا عديدة للديانة القابيلية أو ديانة أبناء قابيل[٣٣] .

ولقد هاجم القرآن في مواقع عديدة غرور سليمان وارتكابه المحرمات في الفترة الأخيرة من حكمه[٣٤] . وغني عن الذكر أن بعض أجزاء تاريخ التوراة تتخذ آفاقا جديدة بمرورها عبر العبقرية العربية . وربما لا يدرك الأوربيون إلا بصعوبة ما يقصده الشرقيون بالأجناس قبل الآدمية . فهم يفترضون أن الأرض قبل أن تصبح ملكا للإنسان كان يسكنها لمدة سبعين

(٣٣) لا سيما لدى اليزيديين (ملاحظة جيرار) .

(٣٤) لا يذكر القرآن سليمان إلا بالتقدير الكبير وتلك الملاحظة من عنديات جيرار .

ألف عام الأجناس الأربعة التى خلقت فى بدء الخليقة حسب ما ورد فى القرآن «من مادة سامية دقيقة ومضيئة»[٣٥].

وهذه الأجناس الديف[٣٦] Les Dives والجن والعفاريت والبيرى[٣٧] التى تنتمى أصلا للعناصر الأربعة مثلها فى ذلك مثل حوريات الماء والأقزام من ساكنى بطن الأرض وجنيات الهواء والسمندل كما وردت فى أساطير الشمال. وثمة عدد كبير من القصائد الشعرية الفارسية تتحدث عن التاريخ التفصيلى للأسر الحاكمة قبل الآدمية.

فبعد أن ترك الله هذه الشعوب البدائية تحتل الكرة الأرضية لمدة تزيد عن اثنى عشر ألف من السنين وتعب من مشهد حروبها وغرامياتها وانتاج عبقريتها الهشة أراد أن يخلق جنسا جديداً يتصل بالأرض اتصالاً وثيقا ويحقق بشكل أفضل التزاوج العسير بين المادة والروح. ولذلك قيل فى القرآن: «لقد خلقنا آدم جزءا من الأرض الرملية وجزءا من الطين. ولكن بالنسبة للجن فقد خلقناها وشكلناها من نار حامية جداً»[٣٨].

---

(٣٥) ذلك النص الذى يدعى جيرار أنه من القرآن من إختلاف عيله.

(٣٦) جنس أسطورى تنسب إليه القمامة.

(٣٧) جنيات أسطورية فارسية قابلة للتشكل بمختلف الأشكال.

(٣٨) هذه الآية من إختلاف جيرار.

ولذا فقد شكل الله قالبًا يتكون أساساً من هذا الرمل الدقيق الذى اتخذ من لونه اسما لآدم (اللون الأحمر) . وحين جف الوجه عرضه على أنظار الملائكة وجنس الديف المقدس حتى يقول كل رأيه فيه . وأتى إبليس . الذى يسمى كذلك أزازل . وهو نفسه الشيطان لدينا . أتى يلمس النموذج وضربه على بطنه وعلى صدره ولاحظ أنه أجوف . فقال : « هذا المخلوق الأجوف سوف يتعرض للإمتلاء ، وللإغراء طرق كثيرة للولوج إليه » . ونفخ الله الحياة فى خياشيم الإنسان وأعطاه رفيقه هى ليليت المعروفة التى تنتمى إلى جنس الديف ، وقد أصبحت فيما بعد ، وبناء على نصيحة إبليس ، خائنة ، وقطعت رأسها .

وأدرك المولى أنه أخطأ بإدماج طبيعتين مختلفتين فقرر أن يستخلص المرأة هذه المرة من ذات المادة المكونة للرجل . فأغرق الرجل فى سبات عميق وأخذ ينتزع أحد ضلوعه كما ورد فى الأسطورة التى نعرفها .

وهنا ترد قصة على شىء كبير من الطرافة . فبينما الله مشغول فى إغلاق الجرح وتحولت عيناه عن الضلع الثمين الذى وضعه على الأرض بجانبه ، أتى قرد ، أرسله إبليس ، فالتقطه بسرعة واختفى فى أعماق الغابة المجاورة . وتضايق الخالق من هذه الدعابة السمجة ، وأمر أحد ملائكته بملاحقة الحيوان . وتوغل الحيوان بين أغصان متزايدة الكثافة . وتمكن الملك من الإمساك بذيله ، إلا أن الذيل انفصل وبقى فى يده وكان هذا هو كل ما استطاع العودة به إلى سيده وسط الضحكات المتعالية للجمع . ونظر الخالق إلى هذا الشىء بشىء من الامتعاض وقال : « لا علينا ،

ما دمنا لا نملك شيئا آخر سوف نحاول التصرف » . وربما يكون قد خضع دون تفكير لاعتزاز الفنان بفنه فحول ذيل القرد إلى مخلوقة جميلة من الخارج ولكنها من الداخل مليئة باللؤم والخسة .

ترى أنكتفى فى تلك القصة بسذاجة الأسطورة البدائية أم نجد فيها نوعاً من السخرية الفلسفية التى ليست غريبة على الشرق ؟ وربما كان من المستحسن . من أجل تفهمها أن نرجع إلى عصور التطاحن الأولى بين أديان التوحيد المختلفة التى كانت تنادى بسقوط منزلة المرأة وذلك تعبيرا لكراهية تلك الأديان لاديانة السورية متعددة الآلهة التى كان المبدأ السائد فيها هو سيطرة المرأة التى كان اسمها على التوالى استارتيه Astarte وديكريتو Decrto وميليتا Mylitta .

وترجع تلك الأديان المصدر الأول للشر والخطيئة إلى ما قبل حواء نفسها ، إلى أولئك الذين رفضوا فكرة الله الخالق الأوحد دواماً . وتتحدث عن جريمة كبيرة ارتكبتها الزوجة الإلهية القديمة لدرجة أن عقابها عليها اهتز له الكون وحرم على أى ملك أو مخلوق أرضى أن ينطق باسمها أبداً . ولا تحتوى المعلومات الغامضة عن نشأة الكون الأولى على شىء أكثر هولا من هذا الغضب الإلهى الذى حطم كل ذكرى لأم العالم .

وتمتلىء آلاف من الأساطير العربية بهذه المفاهيم الغريبة التى اشتملت على طائفة كبيرة من الكفر . وقصة آدم وحواء هى قصة طويلة من قصص المعارك التى خاضها الرجل الأول ضد جنس الديف الذى كان ينافسه على ملك الأرض ، وقد هزم آدم آخر أباطرتهم مما حقق له الخضوع التام

لجميع الأجناس قبل الآدمية .

وفى أحد أروقة جبل قاف تجمعت صور الأباطرة السبعين أو السلطانين الذين حكموا قبل خلق الإنسان . وأقدمها بشعة الشكل ولاعلاقة لها ببعض سلالات الحيوانات . وربما يكون علم تسلسل الآلهة لدى العرب قد استقى فكرة هذه المخلوقات الأسطورية من أشكال الآلهة الهندية والأشورية والمصرية . ويمكننا أن نرجع فى جميع تلك النقاط إلى المكتبة الشرقية لهربلو Herbelat .

يلاحظ كاتب أحد الكتب التى ظهرت حديثا ( ١٨٥١ ) عن تركيا . السيد أوبيسينى Ubicini . بحق أنه رغم اختراع السفن البخارية والتقدم الاحصائى الحديث فإن معرفتنا بالشرق ليست أكثر وضوحاً اليوم مما كانت عليه خلال القرنين الماضيين أو من المؤكد أنه وإن كان عدد المسافرين إلى الشرق قد زاد فإن العلاقات التجارية التى كانت قائمة فيما مضى بين مقاطعاتنا الجنوبية ومدن الشرق قد ضعفت كثيراً والسواح العاديون لا يقيمون مدة طويلة تتيح لهم التغلغل إلى أسرار المجتمع الذى تخفى عاداته وتقاليده بعناية على النظرة السطحية لأى مسافر . كما أن النظم التركية قد تغيرت تماماً ابتداء من المؤسسة الحديثة التى تسمى « التنظيمات » والتى حققت الانجاز الذى طال انتظاره فى هاتى ـ شريف فى قصر جول هانه[٣٩] . فتركيا اليوم تعيش آمنة فى ظل حكومة نظامية مبنية على المساواة

---

(٣٩) هذا الاسم هو إسم فناء قصر السلطان فى القسطنطينية حيث وقع الأمر بالتصديق على جملة

المطلق بين مختلف رعايا الامبراطورية[40] .

إن الخطابات وذكريات الرحلة التي جمعت في هذين الجزءين وكانت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في جزأين لم تكن سوى سردًا لمغامرات حقيقية ولذا فلم تستطع أن تعطي القارئ انطباعا بانتظام الحدث والعقدة وحلها كما يحدث في الأشكال القصصية . والواقع لا يعطي أكثر من حقيقته ، ولذا فقد بدا الجزء الأول من هذا الكتاب كما لو كان يستقي نجاحه أساساً من الإثارة التي أحدثتها قصة الجارية الهندية التي اشتريتها في القاهرة من الجلاب عبد الكريم . إن الشرق أقرب إلينا مما نتصور . ولما كانت تلك الفتاة مازالت على قيد الحياة فقد كان لابد من تغيير اسمها في القصة المنشورة . وهي الآن متزوجة في إحدى مدن

---

* الإصلاحات التي سميت بـ « تنظيمات خيري » (٣ نوفمبر ١٨٣٩ ) هذه هي أحدث الأرقام التي يمكن تطبيقها على الوضع في الامبراطورية التركية :

(٤٠) الجنس العثماني ١١٫٧٠٠٫٠٠٠ نفس .
أما الشعوب الأخرى بمختلف أجزاء الإمبراطورية من يونانيين وسلافيين وعرب وأرمن ألخ فيكون عدد رعايا الإمبراطورية وهم ٣٥٫٣٥٠٫٠٠٠ نفس . وسكان القسطنطينية يبلغ عددهم ٧٩٧٫٠٠٠ منهم ٤٠٠٫٠٠٠ من المسلمين والباقي يتكونون من أرمن ويونانيين الخ .. وميزانية الدولة هي ١٦٨ مليوناً .
ويتكون الجيش النظامي من ١٣٨٫٦٨٠ جندياً قد يصل عددهم بالاحتياطي إلى أكثر من ٤٠٠٫٠٠٠ رجل ( ملاحظة جيرار ) . وهذه الأرقام مستقاه من « خطابات من تركيا للكاتب أوبيسيني التي نشرت في المونيتور بينما كان جيرار دي نرفال يعد الطبعة النهائية لرحلة إلى الشرق ( ١٨٥٠ـ ١٨٥١ ) .

سورية ويبدو أنها تنعم بالاستقرار والسعادة . والمسافر الذى ألقى نفسه ، دون تفكير منه ، يغير مكان حياة هذه الإنسانة لم يبدأ بالأ بالنسبة لمستقبلها إلا بعد أن علم أن مصيرها الحالى من اختيارها وحدها . وقد ظلت تلك الجارية على الدين الإسلامى رغم أن ثمة جهوداً بذلت لتحويلها إلى الأفكار المسيحية . ولن يستطيع الفرنسيون بعد اليوم شراء الجاريات من مصر فلن يجازف أحد اليوم بأن يلقى بنفسه فى مضايقات تجر عليه شيئا من المسئولية المعنوية .

## على هامش رحلة إلى الشرق

نقوم هنا بجمع بعض النصوص التى وإن كانت لا تتصل اتصالاً مباشراً « برحلة إلى الشرق » إلا أنها توضح بعض الأسباب التى دفعت جيرار إلى الاهتمام بالشرق أو سوف نلاحظ فى تلك النصوص ظهور تلك الموضوعات الخفية أو الشاعرية التى لم تكن تلاحقه ( مثل القابيلية ) . وفى نفس الوقت سوف نرى إلى أى حد تقترب « رحلة إلى الشرق » من الأحلام لدرجة أنها لم تلبث أن بدت وكأنها انحدار لهذه الأحلام ، وتلك التجربة هى التى جعل منها مارسيا بروست فيما بعد نقطة انطلاق « بحثه عن الزمن الضائع » . كما لم يلبث أن ظهر الشرق الساحر وموضع تعلق الكثير من الرومانسيين ، ظهر خداعاً ومخيبا للآمال بحيث يحتاج إلى إعادة تقييمه باللجوء إلى مختلف مصادر الأدب والأحلام .

وحينئذ لاشك أننا سندرك بطريقة أفضل لماذا كانت القصة الخالصة لرحلة إلى الشرق ، التى خضع فيها جيرار كثيرا لتأثير الرومانسية كما

أوحى له شيطان الأدب النابع فى نفسه ، قد تغيرت واستبانت معالمها بفضل تلك القصص الشاعرية القريبة التى يتخذ وجودها فى السرد قيمة رمزية .

ولن تجد هنا النص الكامل لمذكرات رحلة إلى الشرق التى نشرها لأول مرة بيير مارتينو Pierre Martino فى مجلة الأدب المقارن Revue de btterature Comparee ( يناير - مارس ١٩٣٣ ) والتى أعاد الناشران بيجن وريشيه Beguin et Richer نشرها فى مكتبة لابلياد Bibbiotheque la Bleiade ( فى جزئين سنة ١٩٥٦ ) . ولقد رأينا أن نشر نص جزئى كمستند بدون أى إعداد لا يتفق مع روح هذه الطبعة التى تعنى بألا تقدم للقارىء إلا مؤلفات بالمعنى الأدبى الخالص للكلمة . ومع ذلك فلم نقصر فى الرجوع عند الاقتضاء إلى هذا المستند فى مقدمتنا وفى ملاحظاتنا الهامشية وإنما لنقدم منه هنا بعض المقتطفات المميزة .

## — ١ —

### ديوراما [٤١]

إن أشد ما جذب جمهور المسرح هذا الأسبوع هو اعادة افتتاح الديوراما وعرض المسرحية القوية الجديدة ، مسرحية الطوفان وهى مسرحية خيالية فى استعراض كبير . ويقوم بتمثيلها العناصر الأربعة الهواء والماء والتراب والنار ، تلك الشخوص العتيقة التى تحولت فى العصور الحديثة إلى كائنات أسطورية تتصارع من أجل السيطرة على العالم فنراها تندفع خلال فصول المسرحية الأربعة فى رباعى مروع ومثير للغاية . إلا أن طبيعة الموضوع نفسها تعطى للماء الدور الرئيسى ، عنصر الرطوبة الهائل

(٤١) ظهر هذا النص فى مجلة الأرتيست EL Artiste ( ١٥ سبتمبر ١٨٤٤ ) بعد عودة جيرار من الشرق ببضعة أشهر . وكان بوتون وداجير Bouton de Daguerre قد أنشآ الديوراما وحققت نجاحاً كبيراً . وهى تشكل تحسيناً للبانورامات التى كانت منتشرة فى بداية هذا القرن وتعد من العناصر السابقة للسينما والتى أعدت لها .

الذى جعل منه طاليس مصدر وغاية كل شىء والذى يهدد بإفناء الخليقة التى ما زالت شابة والقضاء على الأجناس الحية فيما عدا الأسماك وحدها .

وقد كان الموقف خطيرا وكم كان بودنا أن نعرف ماذا يقول باريسيو الغد لو تجددت تلك الظاهرة بالنسبة لنا ، وكما حدث لسكان مدينة إينوك الهادئة حين تمر مع المطر من الطل إلى الوابل إلى الشلالات التى عرضها علينا مسيو بوتون فى تلك اللوحة !

إن مدينة إينوك أو هينوك السابقة للطوفان ، مدينة الخبائث الأولى التى لا تذكر عنها التوراة إلا كلمة واحدة قد بناها قابيل وسماها باسم ابنه . ولا ينبغى أن نخلط بين هذا الابن وبين هينوك الآخر ، حفيد ست ، الذى يسميه الشرقيون إدريس والذى يشترك مع إيليا ودلشيزويك فى ميزة الاختفاء من الأرض بدون موت . وكانت مدينة هينوك هى أهم مقر هذا الجنس المهجن الذى فاق ظلمه ظلم البشر ، ومازلنا نجهل ما إذا كانت تلك الكائنات الغريبه من انتاج الملائكة أم الشياطين باختلاطها ببنات البشر .

فالنص ليس واضحا فى هذا الصدد والتراجم تتغير حسب عقائد من قاموا بها . فنجد فى العبرية بنى إلوام Bnieloim وبنى معناها أبناء والوام معناها الآلهة ، وهذا هو ما يراه فيلون Philon والغنوصيون ( من يبحثون فى تكوين الآلهة ) والقابليون ( العالمون ببواطن التوراه ) ، فهذا هو ما يراه كذلك كورت دى جبلان Court de gebelin وفابر دوليفيه Faler d Olivet ولاكور Lacour مؤلف الكتاب المثير الذى يسمى

« إلوام أو آلهة موسى » Eloim ou les Dieux de moise . ومن أجل تفسير تلك الآية التي تحتاج لدقة متناهية افترض البعض أن اسم الوايم Eloim أي « من الآلهة » كان يطلق على الأرواح الرئيسية وكذلك على الله الأعلى الذي يسمى كذلك أدوناي . ويرى البعض الآخر أن هذا الاسم يطلق على الله القدير بصفته شخصية متعددة حينا ادعى فريق آخر أن موسى كان يعتقد في تعدد الآلهة ما دام لا يذكر الخالق أبداً إلا في صيغة الجمع . وهذا الفريق يرى أن « الإلوام » هم آلهة آمون المصورة على الآثار المصرية على أنها هي التي قامت بعجن وتشكيل الخليقة كلها بناء على أمر أول إله فيهم .

ولم تقم الكنيسة قط ، على الأقل كنيسة روما ، بالتصديق على هذه الخزانات الكافرة . ولقد انغمست في الغرور الكهنوتي حين ترجمت الجمع بالمفرد فقالت : « إن ابناء الله حين رأوا بنات البشر جميلات اتخذوا ممن أحببنهن منهن زوجات » وتقول التفسيرات الكنيسة إن ابناء الله « بالمفرد » هم جنس هابيل وأن البشر هم أبناء قابيل[42] . إلا أن هذا

(٤٢) انظر سفر التكوين ( ٦ : ١ – ٢ ) ولنرجع هنا إلى تفسير آخر ترجمة رومانية للتوراة ، توراة أورشليم ( انظر دي سير Ducrf ، باريس ١٩٥٦ ) « إنه جزء صعب رجع فيه الكاتب المقدس إلى أسطورة شعبية عن العمالقة الذين خلقوا من التزاوج بين نساء فانيات من البشر وبين مخلوقات سماوية .. وترى اليهودية التي تلت ذلك وجميع الكتاب الكنسيين في أبناء الله هؤلاء ملائكة مذنبين . ولكن ابتداء من القرن الرابع بدأ الأحبار بالإجماع يفسرون أبناء الله على أنهم سلالة ست وبنات البشر مثل سلالة قابيل » . أما عن الجمع في كلمة

الجنس يصدر عنه مجرد رجال ونساء فكيف نفسر إذن الآية التالية التى تقول إن هذه الروابط قد نتج عنها العمالقة ؟ وقد ترجم البروتستانتيون أبناء الله بالملائكة ونحن ندين لهذا التفسير بغراميات الملائكة لتوماس مور و « بقابيل » Cain للورد بايرون .

وهذه التفاصيل مهما بدت غريبة فلا نعتقد أنها وصفت فى غير مكانها المناسب لا من وجهة نظر النقد ولا من وجهة نظر الفن . فالرسم والشعر يعيشان على هذه القضايا التى يتوجه فيها العقل البشرى فى ارتياع إلى القصص القديم يستفسره . ومن بين الكتب المزيفة عن التوراة ثمة كتاب يسمى « كتاب إينوك » وهو الذى ندين له « بالفردوس المفقود » لميلتون و « سقطة الملاك » للامرتين . وهو ليس إلا قصة النضال بين الأرواح الثائرة ضد الله القادر الذى تساعده جوقاته المقدسة . ويقص الأب كيرشيه Kircher جزءا كبيرا من ذلك الكتاب مترجما إلى اليونانية واللاتينية . وهو مصدر ينبغى للرسامين الذين يعالجون موضوعات دينية أن يرجعوا إليه . ولو أن مسيو بوتون قد تصور أن أنصاف الآلهة قد ساهموا فى بناء مدينة إينوك فربما كان ذلك يدفعه إلى إعطائنا مشهدًا أكثر تعقيدا وأكثر روعة . وبفضل معرفة لامرتين للمصادر الدينية فقد جعل من

■ Elohim تفسر اليوم بالإجماع على أنها اللانهاية متعددة الجوانب لله الواحد والجدير بالملاحظة أن ثمة إتفاق على أن التوراة تجمع بين شكلين تقليديين من أشكال التوحيد اليهودى يرمز إلى كليهما باسم الله وهما التقليد اليافى Yahviste وتقليد الإلوى Elahiste اللذين يبرزان أحدهما شخصية الله والآخر لا نهاية الله

سكان مدينة إينوك أناساً أكثر تقدماً منا أنفسنا فيما يختص بروائع الحضارة . فقد توصلوا حتى إلى فن الملاحة الجوية التى يشرح الشاعر فنها العبقرى[٤٣] . وفى هذا المجال الحق يتحول الإنسان إلى إله لمهارته وفنه فيوقفه الله ويبين له أن الإنسان لا ينبغى له أن يرتفع إلى الله إلا بالروح والحب[٤٤] .

ومع ذلك فقد شيد مسيو بوتون مدينة غريبة بالقدر الكافى وذات طابع بدائى أسطورى جميل . فهى تمتد بشكل رائع فى واد شاسع وتغمس فى الأفق أقدامها المرمرية فى البحر . وثمة سور كبير ذو باب شاهق مبنى بلا ملاط يحيط بالمدينة الشيطانية حيث نشاهد هنا وهناك المسلة والهرم . وتنتشر القصور الشاهقة يمينا ويسارا وإلى اليسار نرى قنطرة مهدمة . ولاريب أنها فكرة شاعرية تلك التى جعلته يظهر الأطلال فى مدينة ناشئة . ومما يثير الانتباه بصفة خاصة هو بناء شاسع لم يتم ، وهو المحاولة الأولى لبناء الأبراج البابلية التى تكاد ترتفع بحلزوناتها إلى السماء[٤٥] .

---

(٤٣) انظر سقطة للملك Chute dun Onge .

(٤٤) ثمة شيء ما يذكرنا هنا بالقابيلية التى إهتم بها جيرار كثيراً أو بعقدة الذنب التى تلعب دوراً هاماً فى قصته Geurcim .

(٤٥) كان موضوع المدينة الأسطورية شائعاً فى الوقت الذى كان جيرار يكتب فيه هذه السطور . فكتب عنه بيكفور Beckford وصورة جون مارتن فى كثير من لوحاته التى تمثل بابل ( وهى

ويتغطى الأفق تدريجيا وتأخذ السحب لونا داكنا وتصبغ بلمحة حمراء ، ويلمع البحر بتأثير أشعة الشمس البالغة فى الغروب ، وتسيل المياه على الجدران وتمتلىء الميادين والشوارع بمياه فائرة تلهبها العاصفة بسياطها . وتمتلىء الأفنية فتفيض مياهها من فوق أسوارها كما لو كانت أوان امتلأت عن آخرها ، ويلجأ السكان إلى الأسطح والأبراج والجبال ثم يختفى كل شىء تحت كثافة السحب وأعمدة الماء المعتمة التى تغطى السحب محدثة ضوضاء شديدة .

وثمة حادث حرمنا من المشهد الثالث الذى يمثل اللوحة الحادثة للطوفان والسفينة العائمة فوق الماء . ثم تم إصلاح العطب ولن يفقد الجمهور شيئا . أما المشهد الرابع فنرى فيه الأرض وقد انحسر عنها الماء جزئيا ومازالت رطبة[٤٦] وقد عجنتها وشققتها المياه وهى تنحسر وتترك وراءها القواقع والمخلفات . وجثت أسرة نوح على قمة جبل أرارات وشاهدت قوس قزح علامة العفو السماوى يخط قوسه الشاسع على الضباب الأخير للطوفان .

---

لوحات معروفة وواسعة الانتشار نرى فيها برج بابل . ولم يكن جيرار يجهلها وقد تحدث عنها الكسندر دوماس فى الكونت دى مونت كريستو ) بل لقد أثر هذا الموضوع فى بناء المدن الحديثة وهى أحد مصادر الطراز البابلى الذى لفت نظر جيرار فى أحد أسفاره إلى لندن .

(٤٦) ربما كان ذلك هو مصدر البيت المشهور لفيكتور هوجو فى مقطوعته المعروفة « بوعز النائم » ... الأرض ... كانت ما تزال مبتلة ورطبة من الطوفان ... » .

وإن الملاحظة الوحيدة التي يمكن أن نوجهها لمسيو بوتون هي أنه جعل شخوصه أطول مما ينبغي لاسيما في اللوحة الأخيرة . فإن الإنسان من التفاهة على هذه الأرض بحيث يصبح من المستحيل أن نصور الأفق المتسع دون حاجة إلى أن نجعل منه كائنا لا تكاد العين تراه . ولقد قال دافيد يوما لباور لورميان Baour Lormien : «كم أنت سعيد لكونك شاعرا ، إنك تريد أن تصور الحب في جبال الألب فترسم عشرين صفحة للمحبين وعشرين صفحة للجبال وكل هذا يبدو متلائما تماما بعضه مع بعض . أما أنا فعلى العكس من ذلك فحين أريد أن أرسم لوحة فإما أن أصور المحبين كبيرى الحجم والجبال صغيرة جداً أو الجبال عملاقة والمحبين ليس أكبر حجما من هذا » وأشار بأصبعه الخنصر . ولقد بدا لنا جبل أرارات أصغر كثيرا من طول نوح . ويستطيع مسيو بوتون أن يرد على ذلك بأن أناس هذا العصر الذين كانوا يعمرون ألف عام كان حجمهم يبلغ عشرة أضعاف حجمنا . وربما كان على حق . ومع ذلك فلوحاته رائعة وتتسم بالحقيقة المدهشة في تصوير طبيعة إلى حد ما مثالية والسماوات بدت ذات ضوء يضيف كثيرا إلى الصورة الخيالية وكذلك تغير التأثيرات الضوئية والظل وكذلك التغيرات التي حدثت في الأرض نتيجة انحسار المياه جعلت من تسلسل هذه المشاهد عرضا مسرحيا رائعا بمفاجآته وتأثيراته وكل ما أثاره من اهتمامات .

## — ٢ —
# رسالة إلى تيوفيل جوتييه[٤٧]

إلى صديقى تيوفيل جوتييه

أى سعادة تلك فى أن تكتب لى من خلال إحدى الصحف لا عن طريق الخطابات ! فالرسالة كانت ستنام إلى هذه الساعة فى أحد أدراج البريد المنتظر فى القاهرة الكبرى التى غادرتها أو كانت مازالت تعدو فى إثر صديقك الطائر من هذا السلم إلى ذاك من سلالم المشرق .

أما الجريدة ، وهذا مالابد أنك توقعته ، فهى تصل فى وقت واحد إلى جميع الأماكن التى يحتمل أن أكون فيها ، ولقد لقيتنى فعلا فى

(٤٧) هذه الرسالة نشرت فى جريدة القسطنطينية Journal de Constantinople فى ٧ سبتمبر ١٨٤٣ ثم فى مجلة Le Sylphide ( ١٨٤٣ الجزء ٨ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ) فهى إذن رسالة أدبية إنه شكر يوجهه جيرار لصديقه الذى كان قد أهدى له الباليه الصامت من فصلين الذى يدعى « البيرى » فقد عرض فى الأوبرا فى ١٧ يوليه ١٨٤٣ . ولقد نشر إهداء جيرار فى مسلسل ليتونيل نشر فى Le Presse فى ٢٥ يوليه .

القسطنطينية حيث أنا الآن . كما أن العالم جد صغير والصحافة جد كبيرة لذا فسوف أستطيع الرد عليك بعد عشرين يوماً فى جريدة البوسفور أكثر الصحف انتشارا فى باريس ولى فيها أصدقاء قدامى يجعلون صفحاتها رهن إشارتى . وقد لايكون هذا موضع سرور إدارة البريد بل ربما كان مصدر قلق بالنسبة لها . أما عن الجمهور فربما كان على أتم استعداد لكتمان أسرارنا : أو بصفة خاصة أسرارى أنا .

ولكنك تحدثنى عن أمر يهمه كما يهمنا ولا ينبغى أن يكون أقل شعبية فى استامبول عما هو فى باريس ، مادام العمل الأدبى الذى أنتجته ، حسب ما تقص على ، يعتبر مشرفا لخيال الشاعر المسلم الحقيقى .

والبيرى هى فى ذات الوقت باليه وقصيدة شعرية ، قصيدة مثل مجنون ليلى وباليه كأمثاله من الباليهات الساحرة العديدة التى رأيتها ترقص لدى بعض الشخصيات الشرقية من الكرام الظرفاء . ولن تدهش هذه الشخصيات فى هذا البالية إلا من شىء واحد : ذلك أنه لابد فى باريس إذا أراد المرء رؤية باليه ما أن يذهب فيتكدس وسط ألوف غيره فى قفص من الخشب المذهب بالنحاس وقلما توجد فيه الأرائك ، وحيث لا توجد لا نرجيلة ولا شبوك ولا قهوة ولا مرطبات .

أما الشخص الميسور هنا فيستطيع جمع أصدقائه على وسائد مريحة وتجلس نساؤه خلف حاجز من القضبان ويتم رقص باليه البيرى بواسطة راقصات أو راقصين حسب ذوق الداعى . وإنى على يقين أنه سيستفيد جداً من تكوين هذا الباليه هذا وسوف تعجبه جداً التفاصيل التوقيعية التى

زخرف بها الراقص التوقيعى كورلى Corlay الباليه . ومع ذلك فسوف تتقصه كارلوتا الساحرة[48] التى تمسك بها الأوبرا بخيط من ذهب . ولكن من يدرى ؟ فربما حلت محلها جنية «بيرى» حقيقية بناء على دعوة ذلك المؤمن الهام ، ومع ذلك فإنى أقول ان الشرق لم يعد أرض المعجزات ولم تعد الجنيات يظهرن فيه منذ أن فقد الشمال حورياته وجنيات الهواء المحاطة بالضباب . ولن يكون فى القاهرة على وجه التحديد قدوم فتيات السماء تلك بحثا عن الهوى العذرى والقلوب الوهية بناء على معتقدات الحجاز العتيقة . وربما فسر البوليس الصارم ماديا الاستخدام الالهى لهذه السيدات فيبعث بهن بالقرب من الشلال الأول ووسط أطلال إسنا بحثا عن المعجبين .

إيه أيها الصديق ! لقد طلبت منى تفصيلات محلية تصويرية عن «عوالم» القاهرة ورقصاتهن التى طالما تغنى الشعراء بها . وقد انهمكت فى أبحاث حول رقصة النحلة وغيرها من الرقصات المحلية . وكنت آمل أن أقوم بدور فى الرقص التوقيعى يشبه الدور الذى قام به شارل تكسييهCharles Texier[49] وليبسيوس Lipsius [50] فى مجال الآثار ، كمراسل

---

(48) كارلوتا جريزى (١٨١٩ ــ ١٨٩٩) التى لعبت دور الجنيـة البيرى .

(49) عالم آثار فرنسى (١٨١٩ ــ ١٨٩٩) .

(50) مستشرق ألمانى كان على رأس بعثة للآثار إلى مصر وقد ذكره نرفال فى «نساء القاهرة» و «الأهرام» من أبواب هذا الكتاب .

لأكاديمية الموسيقى . ولقد دهشت لأننى بدلا من أن أستجيب لمهمة سهلة ولطيفة مثل تلك التى طلبت إذا بى أصف لك الملابس الإنجليزية وثياب الافرنج الرثة وأسمال الفلاحين ...[51] يا للأسف ! ففى الوقت الذى كنت تربط فيه كل ما فى الأوبرا من فخامة بالقاهرة التى رسمتها فى مخيلتك كنت أنا لا أربط بالقاهرة الحقيقية إلا العناصر التى لا تخضع لأية قاعدة كما فى تمثيليات الممثل الصامت ديبورو Debourau .

وإذا كنت لم أحدثك بشىء عن رقصات القاهرة فذلك لأنه كان من الخطير فى ذلك الوقت انتزاعك من أوهامك . فقد كانت أول رقصة رأيتها فى مقهى لامع من مقاهى الحى الافرنجى الذى يسمى شعبياً بالموسكى . وكنت أود أن أجسد لك بعض الشىء هذا المشهد إلا أن الديكور لا يحتوى لا على أوراق النقل ولا أعمدة صغيرة ولا على ثريات جانبية من الصينى ولا على بيض النعام المعلق . إنك لا تجد تلك المقاهى الشرقية إلا فى باريس . ولتتصور مكانا حقيرا مربعاً مبيضا بالجير كل ما فيه من زخارف عربية هو تكرار صورة ساعة حائط موضوعة وسط أحد

(51) أنظر خطاب إلى تيوفيل جوتييه ( دمباط مراسلات جرار ، سبق ذكره ، رقم 97 ) : « أحسنت صنعاً بإظهار القاهرة فى باليه قبل أن تراها والأفضل وصف العصر المملوكى لا العصر الحاضر إلا إذا جئت فى الأدوار الثانية إلى إنجليز من الكاوتشوك بقبعات من القطن وعيار أخضر ، أو فرنسيين يثيرون الدهشة يرتدون موديلات 1816 أو أتراك يثيرون الضحك بالملابس المميزة لإستامبول .

المراعى بين شجرتين من أشجار السرو . أما بقية الزخارف فتتكون من المرايا المطلية بلون واحد والغرض منها عكس ضوء نجفة معلقة على عصا من جريد النخيل ومحملة بقناديل الزيت الخافتة التى تعطى مع ذلك تأثيراً طيبا . وأمام الأرائك المصنوعة من نوع من الخشب الصلب والتى تحيط بالغرفة توجد أقفاص من جريد النخيل تستخدم كسنارات لأقدام مدخنى التبغ أو متعاطى الحشيش . هنا يستسلم الفلاح بصديريته الزرقاء ، القبطى بعمامته السوداء والبدوى بمعطفه المقلم إلى الأحلام التى تتناقض تماماً مع أحلامك . ربما كانوا يحلمون بوطن بدون نخيل ولا جمال أو بأنهار خالية من التماسيح وسماء يحف بها الضباب وجبال من الثلج وجنة لا يكون

محمد على هو إلهها . أما الجنيات « البيرى » التى تظهر لهم حقيقة وسط غبار دخان التبغ فقد استأثرن بمشاعرى لأول وهلة لبريق طواقيهن الذهبية التى تعلو شعورهن المضفرة . إن كعوبهن التى تضرب الأرض بينما تكرر الأذرع المرفوعة صدى تلك الضربات الشديدة تجعل الجلاجل فى الخلاخيل ترن بينما ترتعد الأرداف من تلك الحركة التى تشبهها وتبرزها لدينا حركة الرقص الرومانى . كان الوسط يبدو تحت الموسلين بين الصديرية والحزام الفخم المرخى كما لو كان حزام فينوس . ولا نكاد وسط الدوران السريع نميز ملامح تلك الفتيات الفاتنات اللائى يتحركن بقوة على النغمات البدائية للطبول والمزمار . وكان من بينهما اثنتان غاية فى الجمال يتميزان بمحيا فخور وعينين عربيتين زادتهما الأصباغ حيوية والخدود الممتلئة الرقيقة الملونة تلوينا خفيفا .

أما الثالثة ... ولماذا لا نقول ذلك فوراً ؟ الثالثة ، وهي جنية من الطبقة الأقل فتكشف عن جنس أقل رقة تدل عليه ذقن طولها ثمانية أيام ! وأنا ، الذى كنت استعد لتقديم أقنعة مغطاة بالقطع النقدية الذهبية لهن حسب التقاليد الشرقية الأصيلة ، فقد وجدت أن من الأولى العدول عن هذه المجاملة الرقيقة بالنسبة لوجهي الراقصتين الأخريين اللتين تتصببان عرقا فهما ليستا بعد الفحص الدقيق ، إلا اثنتين من « العوالم » الذكور . وتستطيع أن تفهم الآن أنه لم يعد لدى أى ميل لأن أطلب إليهما تنفيذ رقصة النحلة التى يقولون إن نجاحها فى الأوبرا لم يكن كاملاً إلا لأن كارلوتا لم تقم بتنفيذها بالكامل وبجميع تفاصيلها .

وسوف تسألني لماذا نلتقى فى القاهرة ، وربما تحت مظاهر خداعة جدا أحيانا ، بالحقيقة النهائية وهى أن العامل المسكين كان بلا عمل ... وأرد على ذلك بقولى ، بعد التقصى الدقيق للحقائق ، إنه من أجل الحفاظ على الأخلاقيات العامة نفت الحكومة إلى إسنا العوالم الحقيقيات وغيرهن من غانيات الدلتا . وهذه الأخلاقيات التى أفلحت فى إحلال جنس مكان الآخر قد احتفظت لسكان القاهرة بنوع من التعويض التوقيعى سوف يكون من العسير على إعطاؤك فكرة ملائمة عنه .

ولكى تذهب من ميدان الأزبكية فى الموسكى (الحى الإفرنجى) فإنك تتبع شارعاً طويلا وملتويا وعلى شىء من الاتساع ومزدحما بالشحاذين والحمارين وبائعى البرتقال وبائعى قصب السكر . وإلى اليسار تمتد أسوار الدراويش الدوارة حتى حظيرة سيارات السويس التى يعلو

بابها تمساح محشو بالقش . وإلى اليمين توجد بعض المنازل الجميلة والمقاهي والمعارض الزجاجية بل وحتى حان إيطالى . وبالقرب من هذا المكان نسمع رنين آلات النفخ المصاحبة لفرقة من الراقصين التوازنيين اليونانيين .

والمكان ، كما تستطيع أن تتصور مأهول جداً شديد الضوضاء وغاص ببائعي المقليات والفطائر والبطيخ . ويوجد كذلك بعض منشدى الأغانى الحزينة ، والمصارعين والمشعوذين الذين يعرضون القرود والثعابين . وهنا يدور علنا المشهد الذى أريد الحديث عنه والذى يحقق أكثر الصور التى صورها رابليه فى قصصه غرابة . والشخصية الرئيسية ، وجسمها مربوط بخيط يوصله بركبة شخص مسن مرح يجعلها تتكلم وترقص وتتحرك ليست كما تتوقع ، إلا القراقوز الخالد هذا الكاريكاتير القديم الذى اخترعه قاض من القاهرة كان يعيش فى عصر صلاح الدين . ولم أكن قد سمعت عنه إلا على أنه نوع من خيال الظل إلا أنهم فى مصر يعطونه حياة تشكيلية للغاية . ولن أقص عليك المسرحيات التى تمثل كلاما وغناء وحركة ورقصا وسط دائرة شديدة الانبساط من النساء والأطفال والعسكريين . إن هذا المشهد كلاسيكى فى الشرق والرقابة المحلية لم تقص أو تلغى منه شيئا كما يقال إن رقابتنا تفعل فى مدينة الجزائر . وبعد هذا المشهد الساذج ازدادت صعوبة فهمى لنفس تلك العوالم المسكينات اللاتى يضطررن إلى إفساد طيبة بحجة الحفاظ على أخلاقيات القاهرة وتلك هى عينات منها .

إيه يا صديقى ! لكم نحقق نحن الاثنان أسطورة الإنسان الذى

يعدو وراء الثروة وذلك الذى ينتظرها فى فراشه[٥٢] . وليست الثروة هى التى ألاحق ولكن المثل الأعلى واللون والشاعرية وربما الحب ، وكل ذلك لك أنت الجالس فى مكانك ويهرب منى أنا الذى أعدو . ولم يحدث إلا مرة واحدة ، أيها المتهور ، حين أفسدت رحلتك إلى أسبانيا ثم كنت بعد ذلك فى حاجة إلى مهارة كبيرة وقدرة على الاختراع ليكون لك الحق فى عدم العودة منها .

أما أنا فقد فقدت مملكة تلو مملكة وولاية بعد ولاية وأجمل شطرى العالم وبعد قليل لن أدرى أين تسكن أحلامى . إلا أن مصر أكثر من غيرها هى التى آسف على طردها من مخيلتى وإسكانها بشكل حزين فى ذكرياتى !...

وأنت مازلت تعتقد فى طيور أبو منجل وفى زهور اللوتس الحمراء القانية والنيل الأصفر ، وتعتقد فى شجرة النخيل الزبرجدية والصبار المندى وربما فى الجمل ذى السنامين .. يا للأسف ! إن أبا منجل ماهو إلا طير برى واللوتس من الأبصال المبتذلة ، ومياه النيل حمراء ذات إشعاع اردوازى والنخيل يبدو كريشة ضعيفة والصبار المندى ليس إلا صباراً عاديا ، والجمل لا يوجد إلا بسنام واحد ، والعوالم من الذكور ، أما النساء الحقيقيات فيبدو أن المرء يكون سعيدا بعدم معرفتهن ؟

---

(٥٢) انظر أقاصيص لامرتين ٧ – ١٢ .

كلا ، لن أفكر فى القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة دون أن أذكر الانجليز الذين حدثتك عنهم وعربات السويس المعلقة ببغاوات الصحراء . والأتراك الذين يرتدون الملابس الأوروبية والإفرنج الذين يلبسون الملابس الشرقية وقصور محمد على الجديدة المبنية كالثكنات ومؤثثة وكأنها مراكز ريفية بمقاعد كبيرة وأرائك من الأكاجو وموائد بلياردو وساعات حائط ومصابيح ذات ضاغط ولوحات زيتية للسادة أبنائه فى ملابس المدعمية ، أى كل ما يشكل المثل الأعلى للريفى الثرى ! ..

إنك تتحدث عن القلعة . إن مناظر الديكور التى أعدها لك فى الأوبرا لابد أن تظهر أعمدة الجرانيت الأحمر لقصر صلاح الدين القديم . أما أنا فقد وجدت فيها بناء شاسعاً مربعا يشرف على المدينة ويبدو وكأنه سوق لبيع الغلال ويدعون أنه سوف يصبح مسجداً بعد إتمامه : حقا إنه لمسجد كما أن المادلين كنيسة . إن الحكومات الحديثة تعنى بأن تشيد لله بيوتا يمكن استخدامها فى أغراض أخرى حين يكف الناس عن الإيمان به !

آه ! كم أتوق لأن أرى فى باريس تلك القاهرة كما صورها رساما المسرح فيلاستر وكامبون[٥٣] . وإنى على يقين من أنها ستكون قاهرتى التى كنت أتصورها فى الماضى ، تلك التى رأيتها مرات عديدة فى أحلامى

---

(٥٣) من بين مهندسى الديكور الذين كان تيوفيل جوتيه يسميهم : « دى لاكروار ديكامب وماريلا » فى مجال الرسم المسرحى .

لدرجة أنه خيل إلى ، كما خيل إليك ، أنى عشت فيها فى زمن ما ربما فى عصر السلطان بيبرس أو الخليفة الحاكم ! .. هذه القاهرة كنت أصورها أحيانا وسط حى مقفر أو مسجد متهدم وكان يبدو لى أننى أطبع شكل قدمى على آثار أقدامى الماضية . كنت أمضى وأقول فى نفسى : حين أدور حول هذا الجدار أو أمر أمام هذا الباب سوف أرى هذا الشىء أو ذاك ، وكان يحدث أن أرى ذلك الشىء متهدما ولكنه حقيقة .

لنكف عن التفكير فى ذلك ! إن هذه القاهرة ترقد تحت التراب فروح العصر والاحتياجات الحديثة قد انتصرت عليها كما ينتصر الموت . وما هى الا عشر سنوات حتى نرى الشوارع الأوربية تقسم الى زوايا قاتمة المدينة القديمة المغبرة الصامتة ، التى تتهدم فى هدوء فوق رأس الفلاحين المساكين . أما ما يلمع ويتلألأ وينمو فهو الحى الافرنجى ، مدينة الانجليز والمالطيين وفرنسيى مرسيليا . آه ! إننى لم آت لأرى هذه المدينة تأكل الأخرى ، هذا الوكر لتجارة الهند ، هذا المحل التجارى المزدهر الذى يملكه التاجر الوحيد فى مصر ، هذا الدكان الذى يملكه المنتج الوحيد فيها ؛ سوف تفقد فكرة تطيير الجنيات الساحرة فوق جبين أحد المسلمين الطيبين النائمين فى سعادة . لاتأت لرؤية النيل التى تتصارع فيه الحيوانات الأسطورية ، ولا الصحراء التى خططتها العجلات الإنجليزية ولا جزيرة الروضة التى حولها إبراهيم إلى حديقة انجليزية وأمدها بأنهار صناعية وبجبل وكبارى صينية . تصور أن ضاحية شبرا تضاء بالغاز وأن المقطم ملىء بطواحين الهواء ويتحدث الناس عن تغيير حالة الأهرام ، من الجيزة حتى

دارفور وتحويلها إلى أعمدة تلغراف !.. أه ! لتبق فى باريس وليت نجاح الباليه الذى تقدمه يستمر حتى عودتى ! فسوف أجد فى الأوبرا القاهرة الحقيقية ، مصر النقية ، الشرق الذى يهرب مني والذى ابتسم لك بشعاع من عينيه المقدستين . أيها الشاعر السعيد لقد بدأت فى تنفيذ مصرك الخاصة بواسطة الأوراق والكتب . أما اليوم فإن الرسم والموسيقى والرقص التوقيعى تسارع لإيقاف كل ما تصورته فى أحلامك عنها بحيث إن جنيات الشرق لم تكن أبداً فى مثل تلك القدرة . إن أعمال الفراعنة والخلفاء والسلاطين تختفى كلية تقريبا تحت غبار الخماسين أو تحت معارك الحضارة الثرية . أما تحت أنظارك أيها الساحر ! فإن شبحها يحيى وينهض ويتحقق بالقصور والحدائق التى يكاد المرء يتصورها حقيقة ، والجنيات الرائعة ! إننى أومن بعصر الخيالية هذه لا بالأخرى ، ولذا فقد انصرمت الأشهر الستة التى قضيتها هنا ولم يبق منها شىء . ولقد رأيت الكثير من البلاد التى تدفن تحت خطوات أقدامى وكأنها ديكورات مسرحية ، فماذا بقى لى منها ؟ صورة مختلطة كصور الأحلام : إن أفضل ما نجده فيها ما زلت أعيه عن ظهر قلب .

## ـ ٣ ـ
## ذكريات من الشرق

على هامش رحلة إلى الشرق اكتشف مسيو جيلبير روجيه Gilbert Rouger في متحف الأسر Musee des Familles وهي مجلة منافسة لمجلة الحانوت التصويري Magasin Pittoresque ، عدداً من المقالات التي نشرت فيما بين ١٨٤٤ و ١٨٥٩ وبتوقيع لا يمكن في واقع الأمر إلا أن يكون اسماً مستعارا وهو ج . دي شاتوفيل C.de chatouville . ونذكر أن احدى قصائد ديوان جيرار المسمى Pdelettes وهي Gaiete (المرح) تحمل في المخطوط عبارة :

كتبت في شاتو أمام منزل ميرى Mery (٤٤). ومن جهة أخرى ففي خطاب إلى جرفيه شاربنتييه Gervais Charpentier ناشر رحلة إلى

(٤٤) قال جيرار كذلك في إحدى رسائله إلى فرنسيس ول Frencis Wey ( مراسلات رقم ٨٨ ) : « سوف أذهب هذا المساء إلى شاتو ... » ( وربما كان والده يقيم هناك ) ( الناشر ) .

الشرق . كتب جيرار التوضيح التالي : «لقد نشر متحف الأسر أمس مقالاً ويقصد بذلك التعليق على «مشاهد من الحياة الشرقية» وهو مقال كتبه رئيس تحرير هذه المجلة . ولاشك أنه من الواضح أن هذا الاسم المستعار كغيره مثل «لورد بيلجرم» و «الفنان» ، هذه الأسماء كانت مألوفة لعدد من المجموعة الأدبية التي كان جيرار ينتمي اليها . إلا أنه من الواضح كذلك أن النصوص التي نوردها فيما يلي ، بعد أن نشرها مسيو جيلبير روجيه ، والتي نشرت بتوقيع ج . دي شانوفيل هي بلا مراء من كتابة جيرار ، بل أحيانا من جيرار في أفضل صوره .

## ابراهيم باشا ابن محمد علي(٥٥)

## كم من الثورات توجد في هذا الخبر البسيط :

«لقد سافر ابراهيم باشا ابن والي مصر وبطل عكا ونزيب ، سافر إلى فرنسا للاستفادة من مياه البرانس» ! وكما يذهب الآلهة والملوك يذهب كذلك الأتراك والعرب أو بالأحرى يأتون إلينا .

ومنذ أربعين عاماً كانت كلمة باشا ترسم في مخيلتنا رجلا هو أشبه شيء بكاهن لامي ( بوذي ) مغطى بالذهب والأحجار الكريمة ومختف في أعماق الحريم مع مائة امرأة وألف جارية وهو يستقبل كل صباح وسط سحب من دخان النرجيلة قبيلة بأسرها من رءوس أعدائه يصبها الجلاد تحت قدميه . إن كل هذا لم يعد له وجود إلا في ألف ليلة وليلة . أما باشوات هذه الأيام فيتدثرون مثلنا بمعاطف ضيقة وبنطلونات ذات بطانة للأقدام . وقد فكوا رباط عمائمهم الكشميرية لكي يغطوا رءوسهم

(٥٥) ديسمبر ١٨٤٥ .

بأغطية الرأس اليونانية وهم يسيرون فى شوارع سان ـ دينيس . إنهم مغرمون بمواسير المداخن التى نرتديها نحن على أنها أغطية للرأس . وهم يدخنون على أسفلت الأفاريز سيجارا بخمسة وعشرين سنتيما ويأكلون ، بدلا من رءوس المسيحيين ، رءوس العجل المسلوقة . وهم يتزوجون من أول حى فى القسطنطينية أو فى القاهرة .

وهم أوفياء لزوجاتهم مثل وفاء أثرياء حى الماريه Marais ويربون أطفالهم حسب طريقة جاكتو Jactot[٥٦] ..

ولقد كان الشيئان اللذان يرتاع لهما محمد هما شرب النبيذ والاحتفاظ باللوحات فى البيت . ولننظر الآن إلى سكرتيرى السفارة التركية وهم يحتسون أنبذة مقاطعة شمبانيا الفرنسية بعد ضربها بالثلج ! وهم فى ذلك لا يفعلون إلا أن يقلدوا سيدهم السابق السلطان محمود الذى انتقل من النبيذ إلى ماء الحياة إلى الكحل ومن الكحل إلى الإثير .

وهم يقولون : «حين يأخذ المرء بأسباب الحضارة فإنه لا يدرى كيف ينهل منها» . أما عن اللوحات فإن رشيد باشا السفير العثمانى ، وهو اليوم رئيس للوزراء ، فقد كان يجلس عشية سفره أمام مسيو مكسيم دافيد رسام الصور المصغرة المفضل لدى كبار الشخصيات . ولما كان فخامته

---

(٥٦) جان جوزيف جاكتور ( ١٧٧٠ ـ ١٨٤٠ ) وهو صاحب نظرية التعلم العالمي الذى تلجأ بصفة خاصة إلى الإرادة والانتباه والذاكرة .

يعرف فى التحف الفنية فقد أمر بطبع ثلاثمائة نسخة من صورته باللیتوغراف لكى يوزعها فى القسطنطينية وفى باريس ! ولو أن رشيد باشا قد خطرت له مثل تلك النزوة منذ عشرين عاماً فإن السلطان العظم لابد كان سيرسل له حبلا من الحرير مع الأمر بتعليق نفسه به ...

## الحلاقون الأتراك وحوانيتهم

حين تدخل لدى الحلاقين الاتراك (وإن محلاتهم لمزدحمة منذ أن بدأت اللحى تتساقط بعد إصلاحات رشيد باشا) تبدأ بخلع حذاءك أو نعليك (شبشبك) ثم تجلس القرفصاء على حصير أو تتسلق منصة خشبية مفروشة بالصفة . وهنا يحضرون إليك غليونا وقدحا من القهوة . والغليون كبير الحجم بقدرقدح القهوة ماهو صغير الحجم . وتدخن الغليون عدة مرات وتملأ قدحك ما طاب لك ذلك . والمسلمون يتعجلون في بطء مثلهم في ذلك مثل بجعة الأقصوصة . ومنهم من يقضي ساعتين في استنفاذ الشيبوك ويستعين في قطع ذلك بخمسة عشر قدحا أو عشرين من القهوة .

وحين تفرغ من شرب القهوة والتدخين يقترب منك غلام وهو يسن موساه على قطعة من الجلد معلقة في حزامه . وتسلم له رأسك فيتصرف فيها كسيد مطلق . وبالنسبة لأهل البلاد فهذه عملية غاية في البساطة . وبالنسبة للأوربيين فتلك مسألة عادية أو غير عادية . ويغرق الحلاق

وجهك بالماء والصابون . وحذار حينئذ من فتح عينك وتنفس من أنفك إذا كان ذلك ممكناً . أما إذا كان ذلك غير ممكن فلتختنق فى بطء : لديك الوقت كله لذلك لأن القائم بالتنفيذ متسم ببرود يتناسب مع بطئه . وتراه يأخذ بعد ذلك موساه فى جلال ويروح ويجىء به فوق بشرتك بنفس البرود الذى يدركه إذا كان يضرب تمثالا « دمية ، مانيكان » . وهو يمسك بك من أنفك أو من شاربك أو من شعرك ، ويضرب رأسك فى الحائط ويسنده على ركبته إلى اليمين وإلى اليسار وإلى الأمام وإلى الخلف . وهو يشد خديك ويضغطها ويلاحق الذقن حتى يغور فى اللحم وهو يروح ويجىء على الرغوة الوردية اللون ، ولا يقلق أبداً إذا ألق الدم على وشك التدفق مثله فى ذلك مثل الدباغ المنهمك فى دبغ جلد إحدى الدواب . وإذا تأوهت فهو أصم لا يسمع ، وإذا صحت فهو لا يشعر بأية شفقة ، وإذا عصلجت فهو أعمى وإذا عنفته فهو أبكم . إن كل ما سوف تحصل عليه منه هو أنه سيمسك بك بطريقة أقوى ويسيطر عليك فى صلابة ويمشطك بطريقة أكثر إيلاماً . وأخيراً تخرج من هذه الملزمة ذات الألف سلاح وترى جلادك وهو راض عن نفسه كل الرضى يجفف موساه بين السبابة والإبهام . وهو يحييك تحية صغيرة وهو يهز أصابعه وقد يحدث أن يلطخك برذاذها . وبعد ذلك يسحب أداة أخرى من جعبته ويمسك بأذنيك ، ويثنيها ويفتحها وينفخ فيها لدرجة قد تصيبك بالصمم ، ثم يسلكها من الداخل كما تنظف الطباخة قدراً صدئا .

وبالنسبة للأوربي تكون الأزمة هكذا قد انتهت ، وليس أمامه إلا أن ينظر في مرآة صغيرة يقدمونها له وأن يريح أخيرا عضلاته المنقبضة وهو يدخن غليونه الأخير ويساعد التدخين ببعض رشفات من القهوة .

أما بالنسبة للمسلم فالعملية لم تبلغ سوى منتصفها . فبعد الوجه لابد من حلق الرأس . وأنت ترى في الصورة[٥٧] هذا القمع الأنيق المستدير المعلق فوق رأس الزبون . ويقوم الحلاق بإسالة الماء الدافىء من هذا القمع فتسقط كالدش على أم رأسك ووجهك ورقبتك وكثيرا ما تسقط كذلك على ملابس العملية . فإذا غرق المسكين فتلك هي مشكلته هو ! لأن الصبي قد وضع له صحنا كان عليه أن يجمع فيه هذا الشلال بقدر المستطاع . إلا أنه مادام مضطرا لإغلاق عينيه إغلاقا محكماً فيحميها من حمام الماء والصابون الكاوى فإن الخزان المزعوم لا يتلقى إلا بعض قطرات من الماء في حين يمتص قفطانه وجبته بل وحتى حذاؤه ما شاء لها الامتصاص . إلا أن المسلمين يستسلمون لكل شيء ! مادموا يقولون : هذا أمر مكتوب ! إن هذه الكلمة تقف حجر عثرة أمام التقدم لديهم وكأنها سور أبدى .

وحين تم حلاقة الرأس بالطريقة التي رأيتها يقوم الحلاق بتعطيرها بزيت معطر ويعطيها لمحة حمراء وكأنها رأس دمية جديدة . ويتوج الغليون والقهوة هذه العملية ويعتقد التركي أنه الآن في جنة محمد .

---

(٥٧) صورة بالحفر على الخشب الإرنست بريفون «حانوت الحلاق» بالقرب من القنطرة الجديدة بالقاهرة » .

وإن من يعرف الصخب الذى يسود مقاهينا الفرنسية وثرثرة حوانيت بيع الشعور المصطنعة ( الباروكات ) فإن هذا السكون وهذا البرود يشكلان تناقضا مضحكا .

والأتراك الذين تربوا فى أوربا لايتخلون لحظة واحدة عن برودهم فى الشرق إلا لينغمسوا فيه بشكل أقوى .

وذات يوم ، فى القسطنطينية ، هرع أحد الإنجليز الذى انتزعوا له شعره إلى ضابط الشرطة الذى كان يدخن فى صمت وبلا حركة فى أحد المقاهى . وتحدث المجنى عليه عن شكواه . لا جواب . ورفع صوته ، وأقسم وهاج وماج ... لا جواب . ومع ذلك فقد كان الضابط يفهمه جيدا لأنه كان يكلمه بالفرنسية وكان التركى ممن تربوا فى باريس . وأخيرا بلغ الأمر بالانجليزى أقصى مداه فأعلن أنه سوف يبلغ سفير بلاده وأن الأمر سوف يبلغ السلطان وأنه لابد من تقديم ترضية لبريطانيا العظمى ! .

ولكن لا جواب كما كان الأمر من قبل .

كل ما فعله الضابط هو أنه فتح فاه بين نفختين من نفخات دخان غليونه وأفلت بضع كلمات ليبين للإنجليزى أنه فهمه تماما وبتعبير فرنسى فقال له : «إنى لأهزأ من ذلك» .

ثم عاد إلى بروده . وكان هذا التعبير الفرنسى هو أحسن ذكرى احتفظ بها فى الشرق من ثقافته الباريسية .

وأسقط فى يد الانجليزى فانصرف وهو يعدو .

## ذكرى من شبرا ( القاهرة )[٥٨]

منذ سنين زرت فى القاهرة مقر والى مصر ، وهو مقر جميل فى شبرا جعل منه محمد على جنة شرقية . وكان مرشدى فناناً أرمينياً يعرف القاهرة كما لو كان هو بانيها . ووصلنا إلى شبرا عن طريق الممر الكبير الذى لا مثيل له فى العالم حيث يتجول حول الملاهى الظليلة جميع الذين يقضون وقت فراغهم من سكان القاهرة : فترى ورقا بأسرها من الضباط ، ومسلمين يتبعم حاملو غلايينهم ، ونساء وجاريات ذوات خمر طويلة والأنيقات والمتغندرون من الحى الإفرنجى ... إلخ . ولتتصور مكانا تحف به أشجار الجميز والأبنوس الشاهقة وتكون قبابا لا تنفذ الشمس إليها وفيئا يتناقض تماما مع ما إلى يمينه من رمال ملتهبة . وإلى اليسار يروى النيل الحدائق الشاسعة ويضيء هذا المتنزه بالانعكاسات الحمراء لأمواجه .

---

(٥٨) أكتوبر ١٨٥٠ .

ويطل القصر على النيل ذاته فى مواجهة سهل إمبابة الذى شهد المعركة الشهيرة التى هزم فيها المماليك . ونقلنا الكشك القائم فى المدخل بأروقته المطلية والمذهبة بكثرة إلى جو ألف ليلة وليلة : فثمة أكشاك للطيور تغص بالطيور من جميع الألوان ، وحمامات تسيل فيها المياه بصفة مستديمة ، وقاعات للاستقبال مذهبة على الطريقة التركية ومهيأة بالأثاث الأوربى الذى تتضاءل فخامته أمام بريق الرسوم .

ولقد أدهشتنى اللوحات بطرافة طابعها الإسلامى . إنها لوحات جانبية أو أعالى أبواب أو تجويفات سقوف مرسومة بالبيضة . ولا ترى فى هذه الرسوم ، حسب القاعدة التى وضعها القرآن ، أى كائن حى اللهم إلا بعض الحيوانات الخيالية مثل أبى الهول والتنين والحيتان . والرسام المسلم الذى يصور كائناً حياً يتصور أنه سوف يحكم عليه فى محكمة النبى بأن يمنحه روحاً . ومع ذلك فإن مواقع معارك إبراهيم البحرية فى اليونان قد صورت فى رسوم شبرا . إلا أنك لا ترى على السفن بحاراً واحداً ، وكذلك لا ترى على القلاع جندياً واحداً . وتتقابل القذائف والقنابل كما لو كان ذلك بفعل ساحر . وقد يظن الرائى أنه ثمة آلات من الحجارة أو الخشب تتصارع بواسطة زمبركات غير مرئية . ليس ثمة ما هو أغرب ولا أطرف من هلع الحرب حين تترجمه الطبيعة الجامدة .

وفى قاعة العدل الخاصة بالباشا لاحظت عبارة مكتوبة تحتبر عربية

بالنسبة لمحمد على تقول : إن سبعين ساعة من الصلاة لا تعدل ربع ساعة من التسامح[٥٩] .

ونظرت إلى مرشدى وأنا أفكر فى مذبحة المماليك[٦٠] وسألته عما إذا كان الفنان الذى قام بأعمال الديكور كان يقصد هجاء الباشا . فأجابنى وقد أحمر وجهه :

« إنها لقصة مؤثرة . وأستطيع أن أقصها عليك لأننى أعرف جيداً هذا الفنان . لقد قدم إلى القاهرة شاباً إلا أنه كان مشهوراً فى الرسم بالبيضة . واستخدمه محمد على فى شبرا فاستأجر منزلاً جميلاً فى المدينة واستقر به مع ثلاثة من الخدم . إلا أنه ابتداء من اليوم التالى طرده صاحب المنزل حفاظاً على الفضيلة وقال له :

أنت تعيش بلا نساء ، وفى سنك كان ينبغى أن يكون لك منهن ست . وأهتز إيمان الرجل بسبب هذه القاعدة القرآنية . فغادر المنزل واستشار أحد أصدقائه الذى أرسله إلى أحد « الوكلاء » ( وسيط زيجات ) يقوم بنفس عمل مسيو فوا Fay . فى باريس . وأخذ هذا الرجل يتجول به

(٥٩) إن نص الفقرات الثلاث السابقة يكاد يكون مطابقاً حرفياً لما قاله الكاتب فى رحلة إلى الشرق ( نساء القاهرة ٣٠٣ ) .

(٦٠) فى أول مارس ١٨١١ دعى المماليك لحضور تنصيب ابن محمد على ، طوسون باشا ، الذى عين على رأس حملة ضد الوهابيين . إلا أنهم ذبحوا فى القلعة فى القاهرة بأمر من الوالى .

من حريمات البيوت إلى أسواق الجوارى ويعرض عليه عشرين زوجة فى اليوم بمعدل يتراوح بين ٥٠ و ٦٠ فرنكا للرأس الواحد . ولما كان يرفضها الواحدة تلو الأخرى فقد ضرب الوكيل جبهته وواتته فكرة تفوق صاحباتها وصاح قائلا : أقسم لك بمحمد أن لدى طلبك . إنه خادم تركى على استعداد لأن يتزوج من أجلك أى عدد من الزيجات تطلبها منه أمام الشيخ والقاضى والقسيس القبطى وحتى أمام القنصل . وهذا «المتزوج» الشجاع يمارس تلك المهنة من أربعين عاماً فى خدمة الإنجليز الذين يضطرون مثلك إلى احترام التقاليد . وهو لا يتقاضى إلا مائة قرش (عشرين فرنكا) عن كل زيجة . وكما ترى أنه مبلغ تافه . فاذا أمرتنى بكلمة منك آتيك به وتستطيع هكذا أن تعود إلى بيتك الجميل . وأمام هذه المشاهد التى تسىء إلى دينه كان ثمة ما يدعو هذا الرسام إلى أن يدوس عمامته بالأقدام . وقرر أن يظل أعزب ويظل ينتقل كل يوم من بيت إلى آخر . إلا أنه وجد مأواه لدى أسرة مسيحية وجد لديها زوجة ساحرة أوحت اليه بمتع الزواج الحقيقى وسموه ، ووجد بجوارها أختا لها أكثر سحرًا ترسم مثله ، بل ربما أحسن منه ، وانتهت بأن محت من نفسه كل سحر للقرآن . وباختصار فبعد شهر تبادل الفنان والمسيحية الحسناء خواتم الزواج فى دير الفرنسيسكان . لقد ارتد الفنان عن الاسلام ولم يحتفظ هو وزوجه من الإسلام إلا بغطاء الرأس التركى ذى الشرابة الطويلة والطربوش الأحمر ذى الضفائر الحريرية . ولكن لسوء الحظ إن الأسرار تنتشر فى القاهرة كما تنتشر فى باريس . ووصل ارتداد الرسام عن دينه إلى مسامع محمد على الذى أمر بحمله من قصره الصيفى ووضعه فى سجن

المرتدين المظلم . وعلى الفور حلقوا له رأسه ولم يتركوا له إلا خصلة من الشعر لكى يعرضوا الرأس على الجمهور يوم قطعها . وما كان هذا اليوم ليتأخر لو لم يكن الله الذى لجأ إليه أكثر قدرة من النبى .

فى اليوم التالى لاعتقاله تقدم فنان شاب من الوالى لاكمال المهمة التى انقطعت . وكانت لحيته من القلة بحيث ظنوه طفلا ولكنه أراهم عينات جميلة من عمله حتى أنهم عهدوا إليه ببقية أعمال الزخارف . وتفوق على سلفه وأصبح مقربا من الباشا . ولم يكن للباشا من مأخذ يأخذه عليه إلا أنه فى كل يوم كان يغادر عمله فى منتصف النهار تماما . وفى تلك الساعة بالذات كان محمد على لدى خروجه يرى امرأة باكية تأتى فترتمى عند قدميه وتصيح فيه قائلة :

— «اعف عن المرتد» .

وانتهت هذه الدموع الملحة التى لا تكل ولا تمل بأن هزته . فأجاب المرأة ، قائلا : «سوف استخير الرسول فى الصلاة» . وأجل تنفيذ حكم الاعدام فى السجين إلى اليوم الذى يتم الرسام الذى تلاه فيه عمله . ياللمعجزة ! فقد كان هذا الرسام يواصل عمله مادامت الشمس ساطعة وأتم زخارف قصر شبرا فى أسبوعين ! وسر الوالى أيما سرور وطلب منه للفور أن يطلب المكافأة التى يريد . فصاح الرسام وهو يترامى على ركبتيه : «العفو عن المرتد» . وفى هذا الوضع وبهذا الصوت المتوسل تحت التخفى الذى خدع الناس جميعا تعرف الباشا على المرأة التى طالما استمع إلى توسلاتها أنها زوجة الفنان السجين المسيحية ! وقد أرته آخر ما

خطته ريشتها ، وهى تلك العبارة التى كنا نقرأها منذ قليل بشىء من الدهشة : إن ستين ساعة من الصلاة لا تعدل ربع ساعة من التسامح !

وأسقط فى يد محمد على وأنهض المرأة الشجاعة وأرسلها لتأخذ زوجها من السجن ...

وأضافت سيدة من الحى الافرنجى كانت قد لحقت بنا فى تلك اللحظة وهى تزيح خمارها :

وهاهما الاثنان أمامك !

وأخذت أضغط على يد هذا الرجل ذى القلب والعبقرية وواصلت فحص أعماله وأعمال زوجته التى كانا هما الاثنان يشرحانها لى وسط اعجابى الشديد .

إن تحفتها الفنية بلاشك هى السرادق المرسوم إلى أعلى[٦١] . ولاريب أن خلفاء قصة ألف ليلة وليلة لم تكن لهم أبدا مثل هذه الاستراحة اللذيذة . ولتحكم بعينيك على التأثير الأثيرى الساحر لهذه الخيمة ذات الكتابات العربية على الطراز البيزنطى وهذه الأعمدة التى تحف بمناظر بقدر ما تستطيع العين أن ترى ، وهذا التسلسل من المآذن التركية والنافورات اليونانية والنافورات المتدفقة والأحواض الرقراقة والقنوات التى تخططها القوارب الذهبية والأغصان التى تصدر شرارات

---

(٦١) هى لوحة محفورة على الخشب لبرجرن : نافورة وكشك شبرا لقصر صيق بالقاهرة .

من الضوء إلى جانب ثمار الليمون والبرتقال والتي تنعكس في مياه النيل الصافية النائمة تحت جذورها . أضف إلى ذلك الستائر الذهبية والحريرية التي ترفرف بين أكاليل الخضرة والزهور . ولتتخيل ذات مساء جميل حريم الوالي المنعم يعبر هذه الممرات تحت أشجار الليمون المقصوصة في أشكال مغزلية وأشجار الموز المشعة كالزبرجد الشفاف والمعتم في وقت واحد . ولتتبع هذه المجموعة ذات الزينات المبهرة حتى الحمام المرمرى الأبيض الذى لاتتوانى تماسيح النافورة العالية أن تمد أفواهها إليه .

ماهي هذه الضجة الشبيهة بجلبة من الطيور تغوص وسط الأمواج ؟ إنهن جاريات الحريم اللاتي يلقين بأنفسهن إلى حمام السرادق الفسيح وهن مرتديات برانسهن الحريرية .

وماهي هذه الهمهمة التي تتناقص فوق القناة التي تفوح عطرا ؟ إنه قارب الباشا المذهب الذى تقوده عشرون من النساء المسلحات بالمجاديف المطلية وكأنها أجنحة الشعار الملكى .

وغنى عن الذكر فى تلك الساعة الخفية يغلق قصر شبرا للجمهور . إلا أن ما يستطيع الجمهور أن يراه طوال اليوم ويستمتع به هى تلك الروائع الشرقية التي وصفتها لك وهذه الحدائق التى لا مثيل لها التى تحيط بالمقر الجميل حيث تتكاثر الزهور والتفاح الذهبى لدرجة أنه يتساقط كالمطر تحت الأقدام ، وإن أوربا كلها لاتملك من الورد مثل ما تملك حدائق محمد على وحفيده عباس باشا .

ـ ٤ ـ

# مذكرات
# رحلة الى الشرق

## ( مقتطفات )

**ص ٧**

إن الذى بنى بوابة النهر هو الحاكم بأمر الله ثم هدمت فى عهد السلطان بيبرس . وفى غرة محرم ٦٧٢ صدر أمر بهدم احدى بوابات القصر المقابل الكلية الكامل من أجل الاستفادة بأعمدتها فى مبنى آخر . واكتشفوا صندوقا فى الحائط وجد به قناع من النحاس الأحمر موضوع على عرش شبيه بأحد الأهرامات ارتفاعه شبر ويستند إلى أربع عجلات . وكان التمثال جالساً القرفصاء وقد عقد ساقيه . وكانت يداه تحملان موسياً يبلغ محيطه ثلاثة أشبار وقد وضعت عليه عدة أشكال وجوه بارزة . وفى الوسط رأس بلا جسد حوله كتابات بالخط القبطى والخط الكوفتيرى Kolfatyry وعلى أحد جانبى هذا الرأس ثمة وجه بقرنين ويشبه الشكل الذى يتمثل فيه شعار العذراء . وعلى الجانب الآخر يوجد وجهان على أحدهما صليب فوق رأسه والآخر يمسك بيده عصا ويضع على رأسه صليبا . وعلى الأقدام توجد أشكال طيور تعلوها كتابات . وقد وجد

كذلك لوح ملمع كما لوكان يراد استخدامه لتعليم الأطفال الكتابة فكان أحد وجهيه أبيض والآخر أحمر .

ص ٢٩

إننا فعلاً الآن على ضفتى التيجر (النمر) : ألا تريد أن تشرب ؟ — فقلت له : «إنى أفعل كل ما ترغب فلم أخلق إلا لطاعتك» . فأحضر كأساً كبيراً من النبيذ التى أعرف أنها تعجبه . فقال لى :

— ألا تريد دعوة أحد ليرد عليك ؟ » فقلت له :

— «هذا ليس ضروريا بالنسبة إلى» . ومع ذلك فقد أصر على دعوة إحدى الآنسات التى كان يحيطها بالتقدير وتسمى ديجاف Degafe وهذا الاسم معناه الضعيفة مما جعلنا نتشاءم من هذا الاسم لاسيما فى الحالة التى كنا فيها .

وقال لها : «غنى» .

فأخذت تغنى تلك الأبيات للشاعر نابيج لى جيجاديت Nabegue le gegacrite : «إنى فى نهاية حياتى . إن معظم أهلى وأقاربى المقربين يطلبون الثأر» .

فقال لى : «خذ فألك من هذا» . ثم قال لها : «غنينا شيئاً آخر» فبدأت بهذا القول : «لتبك يا عينى ، لتبك لرحيلهم فإن فقد الأصدقاء يستأهل ذرف الدموع» فقال لها :

«ليلعنك الله ، ألا تعرفين من الأغانى غير هذه ؟ فقالت :

ــ يا سيدى ، إننى لم أغن إلا ما رأيت أنه سيلقى استحسانا منك ، ولم أكن أقصد أبداً أن أضايقك » .

ثم غنت تلك الأغنية الأخرى : «يا إله الراحة والحركة ، ما أسرع ، ما تبلغنا أقدارنا ! إن الليل والنهار ودوران الكواكب فى مسراها لا تتغير أبدا ، إلا أن الملكية قد تترك ملكا لتلحق بآخر ثم آخر . أيها الإله الكبير الذى تملك عرشك الذى لا يتزعزع دوامًا دون أن يكون لك خليفة ولا رفيق .. »

فقال لها : «إليك عنا لتلحق بك اللعنة » .

فذهبت ، وأثناء انصرافها ضربت بقدمها كأسا من البللور جميل الصنع كان يحبه كثيرا فكسرته .

فقال «المخلص » : «يا للأسف يا إبراهيم ، ألم تر ما فعلته هذه الفتاة ؟ وما حدث للكأس ؟ وحق الله لا أظن أن موضوعى سيتم على خير .

فقلت له : ليمنحك الله طول العمر والعهد السعيد ويحطم أعداءك ! »

ولم أكد أتم كلامى حتى سمعنا صوتا من فوق «النهر » يقول : «إن الأمر الذى يهمكما أنتما الاثنين قد أفرغ »

فقال «المخلص » : «ألم تسمع شيئا يا ابراهيم ؟ »

فقلت : «لاشيء على الإطلاق» . ومع ذلك فقد كنت سمعت جيدا ما قيل ، بل واقتربت أكثر من حافة النهر . ثم أعيدت العبارة نفسها وبصوت أكثر ارتفاعا : «إن الأمر» .. وظل بعض الوقت ثابتا فى مكانه وهو يفكر فى حزن ، ثم امتطى صهوة جواده وعاد إلى قصره فى المدينة . ولم يمض يوم أو يومان حتى قتل ...

( هذه بعض ملاحظات جانبية من المذكرات تتصل بأهم الموضوعات التى كانت تهم نرفال ) .

أحس بالحاجة إلى احتواء الطبيعة كلها (النساء الأجنبيات ) وثمة ذكريات بأنى عشت فيها .

إنى أتتبع نفس الملامح فى نساء مختلفات .

إنى عاشق لنمط معين لا يتغير .

آل مديتشى ، مارى دى مدنسى (القديس دنيس ) . بالنسبة لى إنها إحدى آل مدتشى .

قرين سليمان . أفضل أجزائه كان يبعث الحياة فى الآخر (طرف النقيض )

العالم اللا عالم

البطل ابن قابيل

الإله الذى يتمتع بجميع النساء فى الحلم .

القرين : ابن السماء

ابن النار
الذى يفرض أن يكون كل شخص إله عالم أحلامه .
يتبعه قرينه أو جنيه الداخلى .          الملوك .

أشباح النبيذ . ما يشرب وما يؤكل ، الروح الشريرة تأكل لحم ملائكتها الثائرة .

## اختيار لبعض النصوص المتغيرة

حسب عادة جيرار طبعت «رحلة إلى الشرق» قبل الطبعة النهائية التي صدرت سنة ١٨٥١ عدة طبعات جزئية . ولذلك فإن اختيار عدد متميز من النصوص المتغيرة يجعل الناشر في حيرة . بل إن فكرة النص المتغير في حد ذاتها كانت موضع جدل . والواقع أن جيرار لم يكن يكتفي بمراجعة بعض التفاصيل أو تحسين العبارة الأدبية بل كان يحدث أن يعدل مجموعات بأسرها وأن يحذف أجزاء هامة . وكان يحدث له كذلك أن يحذف ، في الطبعة النهائية ملاحظات اعترف المؤرخ الصحفي أنها من مصادر ومراجع أكيدة رغم الروائي – القاص أن يفرد لها أي مكان .

ولذا فسوف يجد القارىء هنا اختياراً هزيراً نوعاً ما للنصوص المتغيرة الهامة وأكثرها دلالة مرتبة حسب الفصول والموضوعات التي كثيراً ما كان جيرار ينشرها منفصلة . وسوف تجد على رأس قائمة هذه النصوص المتغيرة مراجع هذه الطبعات .

## مقدمة : نحو الشرق

ص ٩

من الخير أن نعترف اليوم بأن أوربا معروفة تماماً للناس جميعاً ولذا فإن المسافر لا يمكن إلا أن يكتب مسلسلة لما رآه فى طريقه وقصة مغامراته ، وقد يستطيع إذا انقضى الأمر نقل بطاقة عشائه كما كان يفعل لويس الثامن عشر فى أكثر كتب الرحلات إمتاعاً وإثارة . أليس من المثير مثلا أن نعرف أن من العسير جداً الحصول على سمك التروته فى جنيف وأن هذا النوع من الأسماك من الندرة فى بحيرة ليمان بحيث يذكرنا بندرة المحار فى أوستاند والشبوط فى نهر الراين ؟

ولقد كنت أدهش على مائدة فى مانهايم ، بأننى لم آكل الشبوط أبداً فى تلك المدينة رغم حبى الشديد له ( لابد أن أضيف أننى لم أستطع أبداً الحصول على شراب التفاح فى روان ولا فطيرة الكبد فى ستراسبورج بحجة أننا فى غير الموسم ) . ورد على أحد الألمان من سكان هذه المدينة الطيبة مانهايم : أتظن أنهم يصطادون الشبوط هكذا فى نهر الراين ؟ فرددت عليه فى برود قائلا : لقد رأيت لدى كورسليه ولدى شيفيه بعض

هذه الحيوانات التى تدعى أنها عاشت فى هذا النهر . فأجاب الألمانى : انى لا أقول يا سيدى أنه لا توجد أشباط فى نهر الراين ... ـ بل قل ذلك ، لو شئت يا سيدى ، فنحن نسمى ذلك فى باريس أمرا خارقا للعقل ، أما هنا فقد يكون الأمر صحيحاً تماماً . فقال الألمانى : إن أشباط نهر الراين جميلة جداً ولذا فهى الصحن المفضل للرءوس المتوجة . وهم يعرفون قيمتها ، وصيادو الراين الذين يكونون نقابة قد تقاسموها منذ مدة طويلة . إنهم يعرفونها وحين يصادف صياد إحداها فإنه يقول : «حسن إنه شبوط فلان» ويعيدها فى شرف الى الماء» ، وأظن أن ثمة تروتات بهذه الطريقة فى بحيرة ليمان .

٢ ـ الملحق بالسفارة

ص ١٠

أنت لا تؤمن باللصوص ولا أنا كذلك ، فلم أر أحداً منهم قط وإن كنت تخيلت منهم الكثير) . حسن ! إن ثمة أناسا هنا يصدقون ما يروى عنهم ؛ وتؤكد لنا الصحف أن بفاريا ملغمة بهم . أما عن الجليد فهم يقصون عنه قصصًا مروعة . فنسمع أحيانا عن مرشد يختفى تحت أنظار المسافر الذى يرشده ، كما يختفى الشبح فى فتحة الباب ، وأحيانا أخرى عن عربة مسافرين تظل مدفونة فى الجليد سبعة عشر يوماً ، ويضطر المسافرون إلى أكل لحم الخيول ليتغذوا بها . وهناك مسافر انجليزى ذهب

الى ايطاليا بحثا عن الربيع فضل وسط الثلوج ولم ينقذه أى كلب من كلاب جبل سان برنار لأن مسرح الأمبيجو Ambigee أهمل إعادتها الى مراكزها الا أن قصص الفيضانات أشد من ذلك هولاً .

ص ١٣

وسافر بعربة وتمنيت أن يصادف عربة أفضل من تلك التى نقلتنى الى فرنى Ferney وبعد ذلك فقد يومان هباءً بالنسبة للبرقيات ، ومن يدرى أية تعقيدات حدثت بسبب ذلك بالنسبة لمشكلة ما ... أتريد أن تعرف الآن اسم الملحق ؟ انه ابن عمى هنرى ، الذى سافر من باريس فى نفس الوقت الذى سافرت فيه منها وصادف من المتاعب أكثر مما صادفت فى العربات المتواضعة التى التقيت بها .

ص ١٤

لست أجد فى نفسى أية رغبة لتسليتك بالأخطار التى صادفتها والمتاعب التى لقيتها كما حدث لكاتب « رحلة الى سان كلو » المعروف[٦٢] ومع ذلك فلن تمنعنى من الأسف على هذه الأسفار الصعبة فى فرنسا العتيقة كما نقرأ وصفها فى « سيرانودى برجراك »

وفى كتابات الشيفالييه داسوسى بل حتى فى الجولة الذواقة التى قام بها باشومون وشابيل . أتذكر مغامرات البارون دى فينست المرحة حيث

---

(٦٢) إنه لويس بلترار بيل ( ١٧٤٨ ) .

كان يعنى بتعويض نفقاته من الفنادق التى كان ينزل بها بأن يستولى من غرفته على الأقل على المناشف والأمشاط أو حتى قدر الماء لو كان من المعدن ؟ وفى الفصول الأولى من قصة ماريان أية رحلة تلك التى كانت تقوم بها عربة بوردو الضخمة التى كانت تقضى ثلاثة أسابيع للوصول الى باريس وتجنح من خمس الى ست مرات فى الطريق وتصادف على أقل صدمتين من صدمات هجوم اللصوص !

تلك متع فقدناها كما فقدت قصص الأسفار الحديثة منها مصدرا كبيرًا للإمتاع . وما أن يجد المسافر نفسه خارج فرنسا حتى يحدوه الأمل فى العثور مرة أخرى على هذا العرق الطيب للمتعة لاسيما فى البلاد الجبلية . لكن يا للأسف ! كم أصبح غير المتوقع نادراً ، حتى فى سويسرا حيث يسافر المرء معظم الوقت سيراً على الأقدام وغير المتوقع هو سيل يحول عربتك الى سفينة (إنك لم تنس بعد قصة الملحق ) أو اعصار يبتلعك أو دب من برن يأتى ليشم رائحتك فى طريقه أو موجة من بحر الثلج تتكسر تحت أقدامك . أو ربما ( اذا كنت من المحظوظين جداً ) مغامرة صغيرة مع اللصوص .

معذرة ، لقد ابتعدت كثيرا فأنت لا تؤمن باللصوص واللصوص فى الواقع لا وجود لهم فى أى مكان . وأنت تعرف كما أعرف أن المرء يضطر الى دفع النقود الى بعض التعساء لكى يعترفوا بأنهم مذنبون حتى يتمكن القضاة ورجال النيابة والمحامون والشرطة المحلية من أن يبرروا وجودهم يتقاضوا رواتبهم وحتى تعمر سجون الأشغال الشاقة والسجون . اما

مسرحيات هزلية صغيرة تلعب فى وضح النهار بين الأرواب السوداء والثياب المثقبة ويمكننا أن نرى بقراءة أوراقنا القضائية كم يبذل فيها من اختراع وفن .

ولكن اذا لم توجد المغامرات ، فما زال أمام السائح الأديب مهمة الوصف . فهو يعد أحجار الآثار وأوراق الغابات ، ويخلق الأراضى الخلفيات العابرة والآفاق . ويأتى التصوير فيسد أمامه الطريق . وفى كل مدينة تصادف من المصورين اثنين أو ثلاثة لا ينتظرون إلا شعاع شمس ليبدءوا فى العمل . ولكن الشمس نادرة فى هذا الفصل وليس أمام مصورى المناظر الميكانيكيين الا الذهاب والبحث عنها فوق السحب باللجوء الى عمليات صعود خطرة .

ذلك أنها جبال الألب العالية هى التى يكتشفونها فى كل جانب من الأفق . واعترف أننى لم أكن قد عرفتها بعد . وكان بعضهم قد ادعى فيما سبق أنه أوانى إياها فى ليون من أعلى فورفيير Fourviares ، وفى نيس من فوق جبل يشرف على المدينة . ولكنى لم آخذ من ذلك الا فكرة ضئيلة أو غامضة للغاية . وهأنذا فى مواجهة الجبل الأبيض ont Blanc. وكم أود تذكر الأبيات العشرين التى قالها لوكونت دى ليل والتى جعلته شهيراً ولكنى لم أذكر الا الأبيات التى خلدت القهوة :

وتخيلت ، وقد شعرت بصحوة العبقرية ،

أننى أحتسى مع كل نقطة شعاعاً من الشمس ! .

ولكن هذه الأبيات لا تنطبق إطلاقاً على تلك الحالة .

ومن المؤكد أنه كان شاعراً مريعا ذلك الذى دق على كل منظر لوحة جميلة من البحر الطويل . وهكذا فإن الطبيعة بأسرها أصبحت تحمل لافتات وكأنها حديقة نباتات . ويرى رجال المجتمع فى ذلك لونا من الحماس المعد مسبقا مثل مجاملات رأس السنة . ولا يزال فى جنيف كثير من المعجبين بدى ليل .

لقد ظللت إذن طول السهرة أبحث عن الجبل الأبيض . ولقد تتبعت شواطىء البحيرة وصعدت إلى أعلى الأسطح فى المدينة ، ولففت حول الأسوار .

ودخلت إلى المسرح ، وهو كبير نوعاً ما ، ولكنه يبدو قليل الازدهار من الداخل . وكانت الفرقة التمثيلية تقدم ثلاث مسرحيات من نوع الفودفيل . وكان الممثلون من مشوهى الحرب الذين لم استطع الاعجاب كثيرا بمواهبهم . وقد وقعت جنيف فى ذات المسوأة التى وقعت فيها بلجيكا إذ وجدت نفسها فرنسية دون رغبة منها فى ذلك . وهذه البلاد الضالة لابد أن تكون تعسة سواء إذا قبلت التبعية الذليلة أو ادعت الاستقلال . ومنذ سنة ١٨٣٠ قدمت فرنسا يدها لمساعدة إحداها وأعطت ضربة قدم للأخرى وتسبب عن ذلك أن أصبح الفرنسيون مكروهين فى كلا البلدين . وقد رأيت فى جنيف كما رأيت فى بروكسل رسوما كاريكاتورية كثيرة عنا معشر الفرنسيين وكلها من عهد التهديدات

بالحرب سنة ١٨٣٦ . وأحدهما يصور جندى مشاة فرنسيا يتقدم على الحدود وقد بدا فى هيئة حامل السيف المتوحش . ومن ناحية الحدود السويسرية يوجد فى الرسم متطوع من جنيف ، قصير القامة ، ولكنه شجاع . وهويصيح فى الفرنسى مستشهداً بذلك البيت لشهير ا

صحيح أنى شاب ، ولكن بالنسبة للنفوس طيبة النشأة الخ ...

وقد راعنى أن هؤلاء السادة قد وجهوا إلينا بدل المدافع بيتين من الشعر لكورنى . ومع ذلك فلنعترف بأن هذا أقل مرارة من الرسم الكاريكاتورى الشهير الذى نراه على مدخل الفرانكيلون Franquillons فى بلجيكا .

ص ١٦

ولما كنت لا أدرى كيف أقضى بقية السهرة حتى رحيل عربة بريد ، فقد جلست فى أحد المقاهى حيث وجدت نفس أعداد الصحف الفرنسية ، الدستور والقرن ، التى صدرت يوم سفرى ، وهذا ما دفعنى إلى أن اندفع نحو الصحف المحلية . إن سياسة هذه البلاد الصغيرة مسلية من ناحية أنها تتسم بنفس النغمات ونفس التقسيمات ونفس ألوان الغضب ، ونفس الشعارات المبتذلة التى تتسم بها سياستنا إنها ثورة فى كوب ماء إذا كان يمكن أن نقول ذلك . ومازالت الخلافات الدينية تضيف هناك تعقيدات لم يعد لها مكان لدينا ، ويبدو من جريدة لوزان Le Pr ewicr lousanne التى أراها تحت عينى أن الاستراوسيين يعانون من المكانة الأقل فى أماكن كثيرة . فحزب ستراوس الذى هزم فى زيورخ قد رفع رأسه فى لوزان . وقد ضرب المجلس الكبير ضربة كبيرة فقد كان ثمة

أستاذ متحيز لحزب ستراوس يدعى شير Scherr كانت المدينة تعطيه كما تعطى بقية الأساتذة خمسين جنيها ذهبيا بخلاف المسكن والحديقة فلكى يعاقبوه على خطبة غير معتدلة ألقاها انتزعت منه الحديقة فإذا تحدث ثانية انتزع منه الخشب وهكذا .

وهذه الطرق الحادثة هى أفضل ولاريب من إشهار السلاح فى زيورخ وأنسب لإقناع الانفصاليين . ولو حدث ذلك فى الماضى لعوملوا بقسوة فى نفس هذه المقاطعة التى أمر فيها كالفان Calvin بشوى ميشيل سيرفيه ichel Servet بالخشب الأخضر حتى يستمر التعذيب مدة أطول . أما اليوم فيكتفى بانتزاع الخشب منهم . وبدلا من حرقهم فى ميدان عام فإنهم يتركونهم يتجمدون من البرد فى منازلهم .

وأنا هنا فى حالة تعطل تام بحيث انى انتقل من السياسة إلى الإعلانات ، حيث أجد منها ما هو شيق للغاية ، وهذا هو أحدها : للإيجار رقم ٢٤ ميدان البالود La Polud شقة كاملة مكونة من صالون يشكل مطبخا وغرفة نوم . وإنى لسعيد إذ استطيع الترويج لهذا الإعلان . والإنذارات القضائية تكتب بهذه الصيغة :

مدير المرافعات Les Delats (ولنلاحظ أن الأمر لا يتعلق بمسيو برتان ولكن ربما بقاضى التحقيق فى البلاد ، الذى يكتب فى الجريدة إلى المجرم العاصى : «إليك يافرنسوا بن برنار الذى يعمل عادة خياطا وهو الآن هارب بموجب القرار الصادر فى ١٧ أكتوبر ننذرك بأنك فى سوق يوم ٩ الجارى وجهت طعنة فى البطن إلى السيد برسون Persond . والآن

تنذرك بأن تسلم نفسك إلى سجن أفانش Avanches وعلى السجان إذا تقدمت إليه أن يقوم بسجنك . توقيع كاتب المحكمة بورنان Bornand »

(٢) إليك (وهنا لم يذكر الاسم لأنه غير معروف ) تنذرك بأنك سرقت من غرفة السيدة ميليك خمسة تماثيل ذات دماء مختلطة ، وبخلاف ذلك فقد فتحت « بوفيها » وأخذت مختلف الأشياء التى تلائمك إلخ » . ونحن نوصى بصيغة « الرسالة » هذه إلى قضاة التحقيق لدينا فهى كفيلة بتوفير الكثير من رجال الشرطة . ولو كان المجرمون يقرأون الصحف لتأثروا ولاريب بهذه الإعلانات المهذبة .

ألست أنا الذى قلت أخيرا ان جميع نساء جنيف فى سن الأربعين ؟ ويأتى هذا بلاشك من أنه ، بسبب جمالهن المفرط ، فإن باريس تحتفظ بهن فى ريعان شبابهن ولا تعيدهن إلى وطنهن إلا بعد أن تكون قد أذبلتهن قليلا وحطمتهن قليلا ...

وهنا يمكثن بضع سنوات فى حالة أوهام ضائعة . ثم يذهبن ليعكسن جوارحهن الزرقاء فى البحيرة الزرقاء . إنها المدرسة التى مازالت قوية مدرسة روسو ومدام دى ستال وبلزاك (وبنجمان كونستان ) . ثم لما تبدأ الأعوام الأربعون ، التى تعنى بالنسبة لهن الثلاثين ، تقترب من نصف القرن تعبر هؤلاء الجميلات من جنيف إلى لوزان عن طريق بحيرة ليمان الهادئة . وهنا تكون مدرسة سيبانكور ومدام كرودنر وسانت بيف ــ الخ مما يخلق ملائكة ساقطة ومحطمة و مدفونة فى هوة سحيقة لدرجة غير عادية . فهل يستطيع بلزاك أن ينهضها يوما بأنفاسه القوية !

إن المرأة فى سن الخمسين فى حاجة إلى أن تستند إلى عصا صديقنا ، وأنا لا أفعل إلا أن أنقل إليه هذه الرغبة وأخبره كم هو محبوب فى هذا البلد وموضع الآمال .

ص ١٨

فمثلا لابد أن أقول إننى أطلب بفتيك خوفا من أن يكون من لحم الدب وقد علمت من صديقنا أنه فى «الشاليهات» وهى مقر إقامة الكرم ، فإن فنجان اللبن يباع بأربعة فرنكات ، وقد رفضت لذلك تناوله . ولذا فإن تجارب رحالة الماضى ليست عديمة الجدوى وهذا ما يشفع لهذه الرسالة من قبلكم .

وهكذا فحين تغادر برن وتقضى يوماً ملولاً فى عبور غابات الصنوبر والسندر المزدانة بالشاليهات المتواضعة وقريتين مكتظتين بسكان أقل جمالاً من جمهور الأوبرا فانك تكون سعيدا لو تناولت عشاءك فى الساعة الحادية عشرة فى آرو Aarau فى بيت مضيفة رائعة الجمال عارية الصدر جداً وترتدى الثوب الوطنى . وهناك ، وبعدد معقول من عملة الباتز Batz تتناول وجبة لا ينقصها شىء وتظهر فيها أخيرا تروتة البحيرات والسيول ، التروتة الزرقاء المنقطة ، فرأولة الجنس الحيوانى ، البسيطة الرفيعة المعطرة التى ينبغى ألا نخلط بينها وبين تروتة جنيف التى ، لو سلمنا جدلاً بأنها مازالت موجودة ، ماهى إلا إحدى سمكات السلمون المتخفية .

وجدران غرفة الطعام مزدانة بمناظر مدينة آرو التى تلاحظ بينها منظر نزل زوك Zchookke الروائى المشهور . ومن الحزن أن تضطر أخيرا إلى مغادرة هذا الخان اللطيف التى تحب أن تقضى الليل فيه لاعتبارات كثيرة . وتودعك المضيفة بتحية رقيقة ويحمر وجهك وأنت تدس فى يدها لحظة رحيلك النقود المتواضعة التى تسميها سويسرا باتز .

وسوف نعود للحديث عن هذه العملة بخصوص الكروتزر Krutzers الألمانية وهى ليست أقل خداعا من الأخرى بالنسبة للرحالة .

ص ٢٥

إن كل حكومة من حكومات ألمانيا تحتكر المرور ، ولابد من استثناء بلاد الاتحاد الألمانى الصغيرة التى تخططها شبكة المراكز الاقطاعية التى تنتمى لأمير الجولات وسيارات التاكسى . وهذا الأمير ، ولابد أنك سمعت اسمه يتردد ، هو المركيز دى كاراباس الألمانى . فإذا سألت لمن هذا القصر ؟ قيل لك لأمير الجولات والتاكسى . لمن هذه الجياد والعربات والصحف الخ فتتلقى نفس الإجابة (لأنه يمتلك أيضا بعض الصحف فى مختلف البلاد ، باسم الاقطاع ، لاسيما جريدة Gazette des Posts وجريدة فرنكفورت) . وهذه الإقطاعات الصناعية لا حصر لها . وهذا الأمير والإمارة التى لا تكاد تتبينها العين له دخل أكبر الملوك المطلقين نفوذا . وشعبه المكون من رجال محطات الأسفار والكتاب والعمال يبدو سعيدا فى حياته تحت قوانينه فى مساحة قد لا تعدو مائتى فرسخ من الشمال إلى الجنوب . وعلاوة على ذلك فهو سعيد الحظ إذ يحتفظ دائما بطبيب

إلى جوار شخصه وقد جعل منه أحد وزرائه ، فماذا تظن قد حدث أخيرا ؟ إنه الطبيب الذى مات . وقد بكاه أمير الجولات والتاكسى ولم يشأ الحصول على آخر . إن هذا الرجل لن يموت أبداً ومع ذلك فالناس ينتظرون موته لإنشاء شبكة من الخطوط الحديدية التى تعوق حقوقه الإقطاعية إقامتها من كل جانب .

ماذا أقول لك عن البلاد التى أجوبها فى هذه الساعة ؟ إنه طريق واحد الوتيرة وسهول وجبال أو على الأصح أكمات ، وتجد أشجار الصنوبر فى كل مكان . إن الجزء الأكبر من ألمانيا على هذه الشاكلة وهذا ما يجعلها خضراء يانعة فى أغانى الشعراء .لنسرع الخطا إذن للوصول إلى أوجسبورج ، وهى مدينة جميلة لا مثيل لها فى هذه الجهات ، تذكرنى بمدن شاطىء نهر الراين الجميلة . إن هذه المدينة تستحق أن يكون لها نهر أو بحيرة لسقيا جدرانها ومع ذلك فليس لها حتى ولا جدول صغير . والكاتدرائية جميلة جداً والشوارع ساحرة ببيوتها الكبيرة المطلية باللوحات الضخمة من أعلى إلى أسفل . وهنا يوجد رسامون مجهولون فى مهارة كارافاج وميكل انجلو لأن الأمطار تقلل من قيمتهم كل يوم . إنها أروقة لا نهاية لها من اللوحات الضخمة الدينية أو المدنية تعترضها الأبواب والشبابيك كالثقوب وتمنع منظرها عين المار . ومعظم هذه الرسوم من طراز الروكوكو الذى ساد القرنين الماضيين ، وتجملها أحيانا التماثيل والألوان المذهبة الزاهية . وفى أكبر الشوارع ، وهو تقريبا ميدان طويل ، نرى مقر البلدية التى يشاهدفيها الأجانب الغرفة الذهبية الشهيرة

المتألقة بالذهب والخشب المنحوت والتي ينيرها عدد لا حصر له من النوافذ . وثمة نافورة كبيرة من المرمر والبرونز على طراز عصر النهضة تزين الميدان المجاور لهذا القصر وهي من أثرى وأرشق النافورات التي رأيتها مما يشيع الخجل فى مجموعات النافورات الصغيرة من الزهر التي تزين ميادين باريس بطريقة اقتصادية .

وبعد أن أعجبت بكل هذا الجمال وزرت مكاتب جريدة أوجسبورج أولى صحف ألمانيا ، أردت إكمال سهرتى فى المسرح . ورأيت إعلانين فى كل جوانب الشارع أحدهما يعلن عن مسرحية « برسيوزا » وهى أوبرا لفيبر Weber والآخر عن مسرحية دكتور فوست فى مسرح العرائس . وكان من سوء حظى أن أهملت فرصة رؤية الدراما الساذجة التي أوحت إلى جوته بتحفته الخالدة وحجزت مكانى فى الاوبرا . وعرض أولاً فصل مترجم لفودفيل فرنسى . وهكذا تبدأ العروض المسرحية فى ألمانيا بأسرها . ثم كان لابد من سماع مغنية فيينا الأولى أثناء الاستراحة . والواقع أنه ماكاد الفودفيل ينتهى حتى فتح الباب الداخلى وبدأت امرأة ضخمة مرتدية الملابس السوداء . وغنت المقطع الأول بصوت رائع منخفض النبرات . أيكون هذا رجلا متخفيا ؟ إطلاقا فقد غنت المقطع الثانى بصوت سوبرانو أكثر حدة من صوت الآنسة بيجازيه Bejazet .

ماهو هذا الوحش الموسيقى ؟ وفى المقطع الثالث غنت البيت الأول بصوتها منخفض النبرات والثانى بصوتها المتوسط وهكذا . وبعد هذا الجهد غير المعقول ارتفع حماس الجمهور وانهالت الزهور على المرأة البدينة





وكان الأمر يحتاج لكمية كبيرة من الزهور لتغطيتها . ثم بدأ عرض برسيوزا . ولكن لم ألبث أن لاحظت شيئا هو أن الممثلين كانوا لا يفعلون سوى قراءة الأبيات الشعرية بطريقة تمثيلية بينما الأوركسترا يعزف موسيقى فيبر Weber بصوت يصم الآذان . وأسرعت بالخروج من المسرح على أمل أن أجد مسرح العرايس مايزال مفتوحا ولكنى لم أصل إلا لأسمع الأنغام التى أغرقت الدكتور فوست فى الجحيم .

**ص ٢٩**

إنى أرثى كثيرا لملك هذه البلاد الذى يدافع مع ذلك عن نفسه بأنه ملك دستورى وأنه فرض على نفسه عادة استقبال ثلاثين شخصا مرتين فى اليوم فى سكنه الخاص . وحين يغادر المائدة يجد أرضياته الخشبية وأثاثه وقد تلوث بآثارٍ مجهولة ؛ وإن ما يلمسه قد لمسه الآخرون للتو والهواء مازال مليئا بأنفاس غير نقية . وقد حفر بعض الإنجليز سراً أسماءهم على المرايا وعلى رخام « الكونسولات » . من يدرى ماذا أخذوا وماذا تركوا ؟

وهذا يذكرنى بأننى قد رأيت يوماً فى التريانون حوض الدوق دى نيمور بجوار حوض جوزيفين وقطعة صابون صغيرة كان الأمير قد استعملها فى آخر مرة قضى ليلته فيها فى التريانون .

وسوف امتنع عن الوصف المفصل لقصر ميونخ الذى طالما عدد مرشدو المسافرين ثرواته الفنية .

ص ٣٠

إنى أبعد ما يكون عن محاولة الإقلال من قيمة جمال المقر وذوق ملك بافاريا للفنون التشكيلية لا يتيح أى لون من الاستهزاء . ولكنى أتساءل ما اذا كان صحيحا أن السيد كورنيليوس حين قدم إلى باريس منذ بضع سنوات لم تدهشه ثروات قصر فرساى وأنه تحدث عنها كما فعل الجاسكونى الذى رأى أن قصر اللوفر يشبه حظائر قصر والده . ونحن نعتقد أنه رجل ذواقه وحسن النية بحيث لا يمكن أن تكون تلك القصة صحيحة لاسيما أن قصر ميونخ يحتوى على نواح من الجمال لا جدال فيها وهى نقطة لا تهم إلا مواهب السيد كورنيليوس . كما يتوقف علينا وحدنا أن ننسب إليه هذا المجد .

أتتصورون أيها الباريسيون أن أسبانيا وإيطاليا تنقصها الزبد تماما ؟ وربما لم يحدث لكم أبداً أن أوليتم اهتماماً كبيراً إلى هذا العنصر المتواضع المسمى بالزبد . حسن ! فحين توقفت السفينة البخارية القادمة من نابولى لدى نيس كانت الفكرة الأولى لدى المسافرين هى أن يهرعوا إلى المقهى الملكى فى الميدان الكبير وأن يتناولوا بشراهة إفطارا من الزبد واللبن ، اللبن !

وهل تعرفون كيف تصنع السيدات الإيطاليات قهوتهن فى الصباح ؟ إن هؤلاء التعسات يذبن بياض البيض فى القهوة السوداء ، لعدم وجود اللبن ، ويشربن هذا الخليط . هذا ما لا يعرفه أحد .

وميونخ ينقصها المحار وطبعا أسماك البحار ، ونبيذها متواضع وغالى ثمن ولكنها تطرى البيرة التى تنتجها وهى تتمتع فى الواقع بسمعة كبيرة فى لمانيا بأسرها . ولا ينبغى الحديث عن بيرة ميونخ أمام المسافرين الذين ذوقوا البيرة البلجيكية والإنجليزية . والفارو واللامبيك هى أنواع من لبيرة لا يعرف عنها أحد شيئا حتى فى باريس . إنها حقا مثل أنبذة الشمال لتى تجعل المرء مرحا وتسكره أسرع من النبيذ نفسه . والبيرة الامبراطورية والملكية فى النمسا وبافاريا لا علاقة لها بهذه المشروبات النبيلة . ولذا فهى تنافس التبغ فى ميزة تخدير وتنويم هذا الجسد الكبير جسد الشعب الألمانى .

وسوف يغفر لى القارئ فاتحة الشهية هذه التى لا تخلو من فائدة ذلك لأن المسافرين جائعون كالأبطال والطعام من انطباعات السفر التى لا جدال فيها .

ص ٣١

مادمنا نتحدث عن الآذان فلنتكلم فوراً عن المدافىء . والمدافىء البافارية أجمل مدافىء فى العالم وبناؤها هندسى وزخارفها نحوت حقيقة . ولو عرفوا فى باريس المدافىء الألمانية لزهدوا فى مدافئهم . إنها أجمل قطعة أثاث . وهى تلائم غرفة النوم كما تلائم قاعة فى قصر . وقد رأيت مدفأة ألمانية فى قصر رستاد وقد جملت بالرسوم والقيشانى يقدر ثمنها بمائة ألف فلورين . وأجمل هذه التحف تختفى شيئا فشيئا من ألمانيا لأن الأمراء

وكبار السادة قد تبنوا فى كل مكان المدافىء الفرنسية . إلا أن البورجوازية مازالت تتمسك بمدافئها القديمة وإنها لعلى حق .

ص ٣٢

لنا إذن الحق فى رفض ذوقنا الباريسى الردىء لاسيما إذا عنينا بملاحظة أن ملك بافاريا فى زخرفة قصوره ومتاحفه قد ابتعد دائما عن الذوق السقيم الذى ازدهر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ويبدو لنا أن هذا موجه ضد قصر فرساى وثمة تلميحات كثيرة لا توجد الآن تحت يدى تؤكد لى صحة هذه الفكرة .

وقد استسلم الرسامون فى أسقف الجليبتوتيك Glyptotheque إلى عدم الاعتدال فى اختيار الألوان مما نحن أبعد من أن نؤيده . وإن الرسوم البارزة السفلية الرائعة لفيدياس والتحف المرمرية النقية لكانوفا Canova التى نلتقى بها إذا خفضنا النظر كان ينبغى أن تخجل التكوينات المتحذلقة للرسامين الجرمان . ومع ذلك فنحن نستثنى رسوم السيد كورنيليوس التى ماهى فى الواقع إلا تكوينات مادام لم يقم هو برسمها ، وقد حدث أن قام بزخرفة قاعة بأسرها بموضوعات مستقاة من الإلياذة وقد رأينا تلك الرسوم فى باريس . ولست فى حاجة لتكرار ما يعرفه الناس جميعا هذه الأيام من أن الرسوم التى ترسل إلى هنا كنسخ للوحات الكبيرة فى مدرسة ميونخ لا تعطى إلا فكرة خاطئة عن تأثير الرسوم الحقيقة : ولا يوجد مسافر واحد لم يبد تلك الملاحظة .

ص ٣٤

هذه الأخيرة قطعة يفخر بها أهل مدينة روان . والمعروف أن سهم روان القديم الذى ينافس سهم مدينة ستراسبورج وأنفرس قد أحرق منذ عدة سنوات . وقد قرر مجلس بلدى روان إعادة بنائه من الحديد الأجوف وقد تم ذلك . والآن سوف يعيش هذا السهم أكثر من الكنيسة نفسها . فهو خفيف واقتصادى وغير قابل للاحتراق ويمكن فكه وبيعه بالوزن . ولكن إذا نظرت إليه من أسفل فإن برج الجرس يبدو هزيلا سقيما . إنه برج العنكبوت ويشبه دقة مزدانة بججالها . إنه سهم ضامر هزيل مما يسيء بإطار مدينة روان التى تحملت من قبل الإساءة فى الكوبرى الحديدى ورصيف المنازل الجميلة .

حين دخلنا إلى المدينة صادفنا آثارا جديدة عديدة كفيلة بتخليد مجد بافاريا فى كل صوره . ونلاحظ بصفة خاصة مسلة تشبه مسلتنا تماما ولكنها كلها من النحاس الأحمر مثل تمثال مكسيمليان . وهى مهداة الى الآلاف الثلاثة من البافاريين الذين فقدوا حياتهم فى حملة روسيا . ونحن لا نعترض على ذلك .

وكان ثمة عرض مسرحى لفودفيل مترجم وعرض لميلودراما نثرية ، ميديا ، تقوم بتمثيلها مدام شرودر ـ ديفريان وهى على حد قولهم ممثلة التراجيديا الأولى فى ألمانيا . وقد ذكرتنا تلك الممثلة بالآنسة ديشنوا فى أيامها الأخيرة . وكانت المسرحية هزلية ومليئة بالمعارك المدبرة والحرائق

والقتل وانتهت بعرض ضوئى بلهب البنجال . هل هذا هو كل ما وصل إليه الفن التمثيلى فى ألمانيا ؟ ولكن على الأقل ممثلونا فى المسارح الشعبية لا يختارون الموضوعات الكلاسيكية . وإذا عرضت ميلودراما باسم ميديه medee فى مسرح بورت ـ سان ـ مارتان Porte Saint mortin ll صادفها التوفيق .

## الحب فى فيينا

ص ٣٥

تأمل أن نقدم قريبا بقية مقال السيد جيرار دى نرفال الذى ننشر منه اليوم الجزء الأول . فقد أصيب الكاتب فجأة بمرض حاد رأى أصدقاؤه الذين استسلموا بسرعة للانزعاج أنه غير قابل للشفاء ولكنه سوف يستطيع فى خلال بضعة أسابيع أن يستأنف هذا السرد الذى تبدو فيها عادات فيينا وتقاليدها تعيش فى استسلامها ومرحها البرىء . ونحن ننتهز فرصة هذا المقال لطمأنة الأشخاص الذين يهتمون بفكر هذا الكاتب المرح الرقيق . فقد زال الخطر وما هى إلا أيام قلائل حتى يعود السيد جيرار دى نرفال إلى أصدقائه واهتماماته .

... منذ اللحظة التى تنازل فيها السيد وزير الخارجية بناء على توصيتك القوية بأن يفتح أمامى باب العمل الديبلوماسى بتعيينى فى سفارة السويد أستطيع القول بأن يوما جديدا قد طلع بالنسبة لى ! وقد كبر

فكرى بفضل نصائح تجاربك وأراد أن ينفرد بشكل واسع فى هذا المجال الذى حققت أنت فيه فيما مضى انتصارات جميلة . ورغم أننى ينبغى لى ، بناء على نصائحك ، أن اكتفى فى الوقت الحاضر بكتابة البرقيات بشكل يقرأ والملاحظات والمذكرات والمؤتمرات الخ ... مما يقدم لى صورة منه ، وأن أقدم التصديقات والتأشيرات فى غياب المستشار وألخص التقريرات وافتح المظاريف وأكون أختام الشمع فى استدارة كافية فإنى أشعر أننى لن أتوقف كثيرا لدى هذه البدائيات للفن الدبلوماسى التى لا ينبغى بلاشك أن تهمل إلا أنها تغطى بستار خفايا السياسة العميقة التى أتحرق شوقا لتعلمها فوراً .

ولكن ، بما أنك سمحت لى بأن أقدم لك ملاحظاتى الشخصية بكل ما ينبغى من حذر فإنى انتهز فرصة بريد غير عادى لكى أبعث إليك بهذه الرسالة التى لن تقرأ فى البريد مثلها مثل تلك التى سوف أرسلها لك بالطريق العادى فى خلال سفرى .

ألا تدهش وأنت تعرف أننى سافرت إلى بلاد السويد الباردة بأن ترى خطابى مؤرخا من فيينا عاصمة النمسا ؟ فأنا نفسى مازلت مندهشا لذلك ولا أستطيع أن أنسب ما حدث لى إلا إلى التعقيدات الجديدة التى ظهرت فجأة فى المسألة الشرقية .

منذ سبعة أيام بالضبط ذهبت للاستئذان فى السفر من رؤسائى لكى أسافر فى مساء اليوم نفسه إلى مقر عملى . وكنت قد اخترت طريق البر بسبب تقدم الموسم ونويت أن أتوجه رأسا إلى فرانكفورت ثم إلى

هامبورج وأن أستريح فى كلتا المدينتين إذ لن يتبقى أمامى ، كما تعرف ، إلا عبورا صغيرا للبحر من هامبورج إلى استوكهولم . وقد درست مائة مرة الخريطة فى انتظار استقبال الوزير لى . إلا أن هذا الأخير كان قد قرر أمراً آخر . وفخامته كان فى ذلك اليوم مشغولا بشكل واضح . ولقد استقبلنى بين زائرين بعد صعوبات كثيرة وقال لى :

«آه ! أهذا أنت ياسيد برجماس ؟ إن عملك مازال فى صحة طيبة أليس كذلك ؟ ـ بلى يا سيدى الوزير إلا أنه يشكو المرض قليلا ... أى أنه يعتقد أنه مريض ـ إنه ذكاء جميل يا سيدى ! هذا هو نمط الرجال الذين مازلنا فى حاجة إليهم ، الذين قال عنهم بونابارت : إنه جنس لابد من خلقه ! وقد قام بخلقه . ولكنه هاهو ينطفىء كغيره » وهممت بأن أرد قائلا إنى آمل أن أخلفك فى كل شىء حين دخل مدير مكتبه وقال للوزير : «لا يوجد بريد ! وهذا الذى حضر من أسبانيا مريض ؛ والآخرون قد سافروا أو لم يصلوا بعد . والطرق رديئة للغاية !

وقال الوزير : حسن ! لدينا الآن السيد دى برجماس فاعطه خطاباتك . وينبغى أن يصلح الملحق لشىء ـ وقال لى السكرتير : هل تستطيع السفر الآن ؟ ـ كنت أنوى السفر هذا المساء ـ أى طريق سوف تتبع ؟ سأسافر عن طريق تريف وفرنكفورت ـ حسن ! سوف تحمل هذه اللفافة إلى فيينا ـ وقال الوزير فى طيبة : سوف يكلفك هذا بعض اللفات ولكنك سوف تدرس ألمانيا فى الطريق وهذا أمر مفيد ... لعلك حجزت لنفسك عربة سفر ؟

ـ نعم يا سيدى الوزير ـ إنك تحتاج لستة أيام ـ فقال السكرتير ربما ستة أيام ونصف بسبب الفيضانات ـ حسن إن اليوم هو يوم الخميس وسوف يصل السيد دى بريجانس يوم الخميس القادم ، وكان ذلك هو آخر ماقاله الوزير وسافرت فى هذا المساء نفسه .

ولتحكم على فرحتى إذ أرانى حاملا لرسالة من رسائل الدولة ! ويالها من نصيحة طيبة تلك التى أعطيتنى إياها بشراء عربة نقل وجدتها عمى غالية جداً ! ولقد قلت لى إن الملحق الذى لا يملك عربة نقل هو ... أظن أنك استعملت هذه المقارنة : إنه حلزون بلا قوقعة ، وأرى أن التشبيه صحيح فيما عدا السرعة التى لم تكن قط من صفات الحيوان الذى أشرت إليه .

إنى أحب المزاح ولقد كان لى الكثير من جنونيات الشباب . إلا أننى أفكر فى مهنتى تفكيراً جاداً واهتم بمستقبلى وأتبع فى ذلك نصائحك الطيبة . ولكن لسوء الحظ ان جميع الشبان لا يفكرون بنفس هذه الطريقة . من تظن قد التقيت به على مائدة فندق انجلترا ؟ ...

لقد سمعت أحدهم ينادينى من طرف المائدة المقابل فالتفت وظننت أنى أخطأت ... ولكن على الإطلاق . إنه ابن عمى فريتز الذى سافر من باريس قبل سفرى بثمانية أيام وسافر لزيارتك فى أرضك فى مقاطعة بريجور .

وأنت تدرك يا عمى أن الفكرة ليست من عنده ولكن من إيحاء

أبيه الذى يظن دائما أننى أتقرب إليك على حساب ابن عمى . ول
رحمه الله فأنت تعلم أننى لم أذكره بسوء قط . وإذا كان قد رفض
عمل معقول أو انخرط فى أعمال تافهة كثيرة ، وإذا كان قد بدد كل أم
والدته وثلث إقطاعيتنا وإذا كان قد تجول فى العالم مع أذواقه الفنية واد
الحذق فى القول وغرامياته الجنونية ونزواته الكثيرة التى تصطدم بجميع ا
الموروثة ، فأنت تعلم يا عمى أن كل ذلك لا يشغلنى كثيرا . ومع ذ
فإنى اعترف أنه ليس من الأمور اللطيفة بالنسبة لى أن التقى بطائش ،
هذا فى المجتمعات الراقية التى يدعونى إليها مركزى .

ولم يصل الأمر بعد إلى هذا الحال فازلنا على مائدة فندق ميونخ
ولا أدرى لماذا لم أطلب أن يقدم لى الطعام فى جناحى مما كان يعفينى
هذا اللقاء . وفى كل مرة لا يتصرف فيها المرء كرجل ممتاز يلقى ما يلوم ؛
نفسه . هذا هو أحد مبادئك التى لن أنساها وهذا هو الحديث الذى
على بعد بيننا ؛ وتتصور طبعا أننى لم أكن أرد إلا بكلمات من مقد
واحد . ولم يكن حول المائدة إلا مسافرون من الانجليز والألمان ولك
كانوا يفهموننا جيداً ، كان يمزح معى ، بخفة دمه التى تعرفها عنه حـ
مركزى الديبلوماسى الجديد ويسألنى ما إذا كنت أحضر السلم أم الحرب
وغير ذلك من ألوان الجنون . وأشرت إليه أن ليس من الحذر أن يتـ
بهذه الطريقة . وفعلاً علمت بعد ذلك أن كان ثمة جاسوس برو
وجاسوس انجليزى إلى هذه المائدة . وأنا نفسى كانوا يعتبروننى جاسو
فرنسيا رغم لقبى كملحق . وبجهل الألمان ، أولا يريدون الاعتراف بـ

حكومتنا لا تلجأ إلى مثل هذه الوسائل ، وأننا لا نمارس أبداً إلا سياسة صادقة ودستورية .

وانتهى بى الأمر أن نهضت وأخذته على انفراد وأفهمته كل مافى تصرفه من مظهر فاضح لى . وقلت له : «إننا لم نعد من الشبان المخبولين ، وإن ثقة الحكومة قد خلقت لى لقبا وواجبات جدد . وإن عربة التنقل التى أقلتنى إلى فيينا ربما كانت تحمل أقدار بلد كبير ... فقال لى ابن عمى على الفور : هل لك عربة نقل ؟ ـ أنا لا أسافر إلا بهذه الطريقة ـ هذا أمر مريح للغاية إذا لم تكن تريد السفر سيراً على الأقدام . أما أنا فأسافر على الاقدام إذا كان البلد جميلاً ـ إنها لمتعة ـ مثلا هذا البلد حزين للغاية ، فالريف باهت ورملى وغابات الصنوبر مهمتها تغيير المنظر ، والأنهار بلا ماء والمدن بلا حجارة والحانات بلا نبيذ والنساء ... » وسارعت بقطع حديثه وإلا لفضحنى أكثر . وقلت له : «لابد أن أستأنف السفر ، وأنا لم أتوقف فى ميونخ إلا لتناول الغداء ـ تقصد تناول العشاء لأنهم يتناولون الغداء هنا الساعة الواحدة ، والساعة الآن الثامنة ـ وداعاً إذن . ألا تبقى لرؤية السيدة شر يدو ديفربان العجوز فى رواية ميديه ؟ ـ لدى واجبات أكثر إلحاحاً ـ إنى قادر على القيام بعمل جونى ... ـ أعتقد ذلك ـ هذا هو مركزى . وكنت قد سافرت من باريس لزيارة عمنا واخترت طريق بورجونيا لتجنب طرق وسط البلاد ذات الوتيرة الواحدة . وقمت بلفة لرؤية جبال جورا ثم لرؤية كونستانس ، مدينة المجامع الدينية (إن زخارف الأوبرا غير صحيحة

إطلاقا ، وهى على حق ) وأجمل ما فى كونستانس السفينة البخارية التى تبعدك عنها والتى تجعلك تشاهد فى ست ساعات خمس أمم مختلفة . ولم أكن أرغب إلا فى أن أضع قدمى فى بافاريا ولكن فى ليندرو ذكروا لى الأعاجيب عن ميونخ . وجبت المدينة فى يوم واحد واكتفيت منها بذلك إن لديك مكانا شاغرا فى عربتك وأنت ذاهب إلى فيينا ولذا فسوف أرافقك . فأنا متشوق جداً لرؤية هذه العاصمة » .

وظننت أننى أوقفه إذ أسأله ما إذا كان يحمل خطابات اعتماد فأرانى نشرة من أحد أفراد آل روتشيلد توصى به لدى مراسليه . ولا أدرى ما هى قيمة هذه الورقة التى بدت لى مجرد خطاب عاملة . ولكن سوف نحكم على الأمر فى فيينا . وقد علمت من مصدر موثوق به أنهم فى فيينا لا يسمحون للأجنبى الذى لا تكون حافظة نقوده مليئة تماما بالبقاء أربعا وعشرين ساعة .

ورغم كل شىء فقد تسليت بحديثه أثناء الطريق الذى لم يكن مريحا لاسيما فى سالزبرج وهى أحد الأماكن ذات الأرض البكر . وفى فيينا نزل فى خان الضواحى مدعيا أنه يريد أن يظل مجهولا . وقد فرحت لذلك وودت لو التقيت به بأقل قدر ممكن . ولابد أنه سيكتب إليك ليعتذر عن أنه أخذ طريق فيينا بدلا من طريق بريجور . صحيح أن الأرض كروية ـ وليس ثمة ما يمنعه من الذهاب لزيارتك وتقديم احترامه لك خلال العام القادم .

## هنرى دى برنياس

### خطاب من فرتيز

### إلى صديقه تيموتيه أونيل فى باريس :

لقد أخذت منى وعدا يا عزيزى تيموتيه بأن أرسل لك انطباعاتى .... وكنت أود أن أكتب لك خطابا طويلا عن فيينا ولكنى تأخرت كثيرا فى ذلك حتى أنى لم أعد أعرف ما أخبرك به ولا كيف أثير اهتمامك . وقد تكون تلك المهمة سهلة بالنسبة لى بعد وصولى بخمسة عشر يوماً لأن كل شىء حينئذ كان يثير دهشتى ، وكل شىء كان جديداً بالنسبة لى ، الملابس والعادات والتقاليد واللغة ومظهر هذه المدينة الكبيرة الواقعة فى طرف أوربا المتحضرة تقريبا ، الغنية الغرور مثل باريس والتى لا تستعير منها لا جميع مستحدثاتها ولا جميع متعها . كانت هذه المتناقضات تأسرنى بشدة وكنت كفيلا بالتعبير عنها بحرارة وشاعرية . أما اليوم فإن إقامة ثلاثة أشهر قد جعلتنى أعتاد كل هذه الأمور الجديدة . وهأنذا فى حيرة الباريسى الذى يطلب منه وصف باريس . لقد أصبحت

كأنى من أبناء فيينا تماماً وأعيش عاداتها دون أن أفكر فيها وأبذل جهداً لأكتشف أوجه الخلاف بينها وبين عاداتنا .

صحيح أنى وقد تغلغلت أكثر فى المجتمع فلابد لى من الهبوط كثيرا إذا أردت البحث عن الخصوصية المحلية التى لاتوجد فى كل مكان إلا فى الطبقات الدنيا . ولابد لى من أن أفعل ما فعله هوفمان الطبيب الذى خرج فى ليلة القديس سيلفستر بالمعطف والبنطلون القصير من سهرة المستشار الخاص حيث شرب الشاى الجميل . وفى الطريق تذكر المخلوق المسكين الذى يدعى البيرة الصغيرة . وحينئذ ورغم احتقار جمهور من ذوى المكانة الاجتماعية والخاصة لم يخش الهبوط بملابس الاحتفال على الدرجات المتآكلة لهذا الخان الشهير حيث التقى على نفس المائدة مع الرجل الذى فقد ظله والرجل الذى فقد انعكاسه .

لا تدهش إذن إذ حدثتك مرة عن القصر وأخرى عن الخان . إن صفة الأجنبى تعطينى الحق فى التردد على هذا وذاك والاحتكاك بفلاح بوهيميا أو ستريا الذى يرتدى جلود الحيوان أو الأمير أو العظيم ممن يرتدون الفراك الأسود مثلى . أما هؤلاء الأخيرون فأنت تعرفهم جيداً فهم أناس من مجتمعنا فى باريس وهم يدعون أنهم مواطنون لنا وعلى قدم المساواة معنا ما استطاعوا ، مثل ملوك الشرق الذين اختالوا زهوا فيما مضى بلقب بورجوازى رومانى . لنبدأ إذن بالشارع والخان ثم فلنتوجه بعد ذلك إلى القصر متى أردنا حين يتجمل ويضاء ويملأ بالثياب الباهرة والفنانين الممتازين ، وحين يكف لفرط فخامته وثرائه أن يشبه فنادقنا وبيوتنا

إنها مدينة تستحق أن تراها بجميع طوابقها لأنها مسكونة بطريقة غير عادية رغم أن مظهرها لأول وهلة لا يبدو إلا مبتذلاً .

ولكن تلك انطباعة جد متحررة وجد فرنسية لم يعرفها أبداً شعب فيينا السعيد بكل تأكيد . أما أنا فقد تذكرت بضع صفحات من قصة اسمها على ما أظن« فردريك ستندال »[٦٣] شعر فيها البطل بحزن مميت يوم وصل إلى العاصمة .

... « ليس ثمة مكان هنا إلا للأغنياء والتجار وخدمهم . فالعربات تتقابل بضجة فى الظل الذى يهبط سريعا وسط هذه الشوارع الضيقة بين هذه المنازل العالية . ولا تلبث الحوانيت أن تتألق بالضوء والثروات وتضاء الأبهاء . وثمة سويسريون ذوو أجسام ضخمة وملابس مزدانة بالكثير من الأشرطة ينتظرون تحت كل باب تقريبا المواكب التى تعود شيئا فشيئا . إن كل هذا الترف الوقح كان يخيف فردريك ستندال وكان يقول فى نفسه أن لابد من الجرأة للتغلغل فى هذا العالم الفريد فى نوعه المقفل والشديد الحراسة . وأظن أنه ، أثناء تفكيره فى هذه الأمور ، قلبته عربة سيدة جميلة نبيلة أصبحت فيما بعد مرشدته ومصدر سعادته » .

وإذا لم تخنى ذاكرتى كانت تلك بداية تلك القصة التى سقطت الآن فى ظلام النسيان . وآسف لأنى لم احتفظ بانطباعة أخرى لأن هذه الانطباعة صحيحة وحقيقية . كما أنه ليس ثمة ماهو أكثر كآبة منها .

---

(٦٣) فردريك ستندال أو السنة القاتلة ( ١٨٢٧ ، خمسة أجزاء ) بقلم أوجست كبرائرى .

## ٧ ــ بقية المذكرات

**ص ٤٩ .**

إن الأمر لا يتعلق هنا إطلاقا برقص الحواجز لدينا ، تلك الرقصات الصاخبة البسيطة التي ينطلق فيها الباريسي المرح حيث يمثل جندي الحرس دور الحياء ويقف من بعيد لبعيد كعمود في شكل تمثال صارم . أما هنا فجنود الحرس لا وجود لهم (أو من يحل محلهم في فيينا ) ، والفالس هو الرقصة الشعبية الوحيدة ، إلا أن الفالس بالطريقة التي يفهمونه بها ينبغي أن يكون رقصة الملذات الوثنية أو السبت القوطي . وكان جوته يتصور هذا المثال أمام عينيه حين رسم ليله « فالبورجيس » وجعل فوست يتقلب بين ذراعي تلك الساحرة المجنونة التي كان فمها يسقط الجرذان الحمراء وسط ثمل اللذة .

وعلى كل فإن هذه الرقصات المجنونة لا تحتوي على أية نوايا أو حركات تحتمل اللبس من تلك التي قد يحمر لها خجلا سكان الضواحي المنحطين في بلادنا . إنها رقصات بسيطة وجادة مثل الطبيعة والحب . إنه

فالس عاطفى وليس شهوانيا ، جديرًا بشعب حاد المزاج وبسيط لم يقرأ فولتير ولا يغنى بيرانجيه . وإن ما يدهش هو قوة هؤلاء الناس والسحر والهدوء والنضارة الدائمة لهؤلاء النساء اللاتى لا يتكلمن واللاتى لا يخشين أبداً أن يظهرن بالنهار ملامح أضناها التعب والذبول . وينبغى أن نلاحظ كذلك أنهن لا يبدين اهتماما بالراقصين . إنهن يرقصن الفالس مع الرجل وسوف أشرح لك فيما بعد كيف أنهن يبدون كما لو كن يتمادين فى هذه السهولة وهذا البرود وهذا الاستسلام .

ص ٥٠

وبعد ذلك يأتى بعض المرتجلين فيقدمون أشعاراً يقرأونها بلهجة تمثيلية متصنعة .

وذات يوم صدم أذنى اسم نابليون الذى بدا لى أنه يرن من أعلى هذه القباب وسط هذا الاجتماع نصف السلافى ونصف الألمانى . إنها أنشودة سدلتيز الرائعة ، المجلة الليلية التى يتغنون بها هنا . وقد قوبلت هذه المقطوعة الشعرية الكبيرة بالتصفيق والحماس لأن ألمانيا لم تعد تذكر إلا أمجاد الفاتح . ولكن هذا لم يمنع الفالس من أن يستأنف فى نشاطه بعد هذه الأنشودة الحزينة مباشرة التى أثارت ذكرى الكثير من الظلال المقدسة من أرض ألمانيا أو من أرض فرنسا ...

... وقد ذكرنى بهذا الجزء من «**الاعترافات**» الذى يصف فيه روسو المتعة الكبيرة التى كان يشعر بها وهو جالس فى مقعد وثير أمام نافذة

مفتوحة على أفق شاسع ساعة غروب الشمس ، وهو يقرأ كتابا يعجبه ويغمس بعض البسكويت فى كأس من نبيذ شمبانيا . وفى تلك الأثناء تدق أجراس الكنائس من بعيد وترسل له الحديقة أنفاساً معطرة . هل نعتقد أن الانطباعات الكثيرة متجمعة بعضها بعضا أو تتعب الحواس ؟ ولكن أليس الأصح أنه ينتج عن اختيارها نوع من التناسق ثمين بالنسبة للعقول ذات النشاط الواسع ؟...

... كتبت إليك ... سوف تعتقد أنى مجنون من السرور ولكن كلا فإنى هادىء جداً يا صديقى والأمر كما سأقول لك ... فإنى عشيق سيدة كبيرة ، إنهن هؤلاء السيدات الكبار كما ترى ! كما كان يقول صديقنا بوكاج . رباه ! ربما كنت مخطئا إذ كتبت لك كل ما تقدم . يجب أن أعطيك تأثير الإنسان التعس ، الأحمق ، الموظف الصغير المتنقل الذى لا يمثل بلده إلا فى الحانات والذى يقوده مذاق بيرة أو نبيذ المجر إلى غراميات سهلة للغاية . ومع ذلك فسوف تخطىء لو حكمت حكما سيئا على ألوان الجمال التى ستمر أمامك . إنهن سوف يحتللن مكانا جميلا فى كتالوجى وإذا كان لابد أن أدون يوما : فى ألمانيا ، ٢٣٠ ! إننى مازلت بعيدا عن إصدار حكمى . كانت للمغامرة الأولى نهاية منطقية مرضية ، أما الثانية فقد طارت من يدى والثالثة .. آه ! آسف لأنى لم أكتب لك عنها . ص ٥٥

لست أدرى ما إذا كانت كل تلك التفصيلات تهمك ، ولكنها ثمينة بالنسبة لى فى الوقت الحاضر لاسيما أن عدد الصور التى أملكها يقل

من يوم ليوم . ولا تدعنا نتوقف لدى هذا التفصيل ولنذهب لتناول القهوة وسط المدينة بالقرب من ميدان جرابن المتلألىء الذى لا يدل اسمه الكئيب (القبر) على كل هذه الروائع .

**ص ٥٦**

إنه سعيد ذلك الشعب الذى مازال يسلى نفسه بهذه التفاهات ! وإنى لأتساءل ماإذا كان من الممكن أن تقوم ثورة فى فيينا . إن طرق الجرانيت المنحوتة نحتا رائعا تبدو كما لو كانت ملحومة بالقار وملتصقة إحداها بالآخرى بشكل يبدو معه من المستحيل نزعها لإقامة متاريس . إن كل طريق قد كلف الحكومة ثروة . فهل يتوصلون بهذه التضحيات إلى تجنب نشوب ثورة ؟

**ص ٥٩**

لم أدهش إطلاقا لهذا الاعتراف فقد كنت أعرف أن جميع الرسائل تمر «بمكتب أسود» لا فى النمسا فقط ولكن فى معظم بلاد ألمانيا . فأدرت الحديث ناحية المزاح حتى أننى اكتسبت ثقة البارون دى سى *** الذى سوف يقدم لى هو نفسه موضوعات جديرة بالملاحظة ... ألسنا نحن معشر الكتاب أعضاء فى نوع من الشرطة الأخلاقية ؟ ...

١٤ يناير : بالأمس استدعانى البارون دى سى *** ! إلى منزله وقال لى : «سل نفسك بقراءة هذا الخطاب» وكانت دهشتى كبيرة إذ رأيت أنه موجه إلى عمى بريجور وأنه نسخة من خطاب ابن عمى هنرى الديبلوماسى الذى غادر فيينا منذ بضعة أيام . وهذا هو الخطاب ...

... هذا هو خطاب الغلام ... فما رأيك ؟ هكذا يقوم الأهل بخدمة الأبناء . وأوصانى دى سى * * * بالسرية التامة فيما يختص بتوصيلاته الودية . ولكن ألا ترى أن شرطة فيينا الأبوية تصلح لشىء ما ... على الأقل حين يكون للمرء أصدقاء ! وسوف أحيطك علماً فيما بعد بأفكارى .

ص ٦١

أحدهم ، الذى يدعى بعض الأفكار الاشتراكية ، عنى بأن يعلن للأمير دى      ولا تنس أنه كذلك صديق للأميرة ــ إنه يريد أن يبدو مجرد مدعو فى الحفلة الأولى التى سوف تقام فى القصر ولن يلعب بأية آلة .

وقال له الأمير : إن الأمر سهل ، سوف أقول إنك مريض »

ــ كلا ، إنى متمسك بعدم الظهور بمظهر المرض ــ حسن ! يا صديق ، سوف أتحدث إلى أصدقائى » . والنتيجة أن الفنان لم يتلق دعوة وسافر ثائراً إلى المجر حيث عوضته الترحيبات الرائعة عن التقاليد السخيفة لصالونات فيينا .

... ولكى لا نغادر حلقات المتع الشعبية فى فيينا ، لأنها أول شىء يلفت نظر الأجنبى لدى قدومه ، ينبغى أن أحدثك كذلك عن الحفلات الراقصة سبرل Sperl وبرن Birn التى تتجه فى واقع الأمر إلى الطبقة الأكثر يسراً . وال سبرل Sperl هو مبنى واسع رائع الزخرف كان ستراوس يقود فيه الجوقة كما كان يقود لانر Lanner جوقه برن Birn .

وهنا النساء أكثر أناقة رغم أنهن لا يتعدين إطلاقا طبقة العاملات . والجمهور هو نفس جمهور موزار تقريبا ولكن الفالس فى نفس قوة وجنون فالس الحانات وسحب الدخان التى يهزها الرقص ليست أقل كثافة . وفى السبرل يتناول الناس العشاء وسط الرقص والموسيقى والجموع تعدو بين الموائد دون أن تقلق من يتناولون عشاءهم . وأول مظهر من مظاهر السبرل ذكرنى برقصات موزيكوس musicos فى هولندة . وأحب أن أعتقد أن مستوى الراقصات ـ يمت إلى مستوى أكثر احتراماً من ذلك الذى قدمت جداته النماذج إلى الرسام روبنز Rubens .

ولابد أن هؤلاء الجدات لم تعذبهن حكومة النمسا الأبوية . ويؤكد الأجانب الأدعياء أن هذا النظام أبعد من أن يصلح الأخلاق . ولا يكاد أحدهم شتاء فى فيينا حتى يعد لك على الأقل مائتين وثلاثين مغامرة غرامية تكون فيلق ألمانيا فى قائمة دون جوان .

ولكن تلك مبالغات سببتها سهولة نساء فيينا فى الدخول فى الحديث مع الفرسان الذين يجلسون بجوارهن فى المسارح أو المراقص . فإذا قالوا لك إن السيدات الكبار يتمين نوعاً ما إلى القرن الثامن عشر فى هذا البلد حيث القرن التاسع عشر لم يبدأ بعد فلا تصدق كل ما يردده أمثال كازانوفا من المحدثين ، ولكن لا تنس كذلك أن عدد النساء الجميلات من الكثرة فى النمسا بحيث إن معظمهن يتناسب اعتزازهن بأنفسهن بمقدار ما يعطى جمالهن من تقدير .

إن جمال النساء مازال يستجلب دهشة الأجنبي الذي يمر بلنتز Lintz أولى مدن النمسا من ناحية بافاريا . وقد وصلت إليها يوم أحد ورأيت نساء الريف يذهبن إلى الكنائس . وكن يرتدين جميعا تقريبا الملابس الوطنية : وهي أنصاف أثواب ذات ألوان زاهية وميدعات مطرزة وعقود وغطاء رأس من الصوف المذهب الكفيل بالاستحواذ على إعجاب السيد ديبونشيل Duponchel . كانت هذه النساء بصفة عامة رائعات الجمال . وإن كتب الأسفار لم تقصر فى تحذير المسافرين من ذلك إن بياناتها ، فى هذا الصدد على الأقل صحيحة تماماً . وقضيت اليوم أجوب الميادين والطرقات دون أن أمل من هذا الإعجاب . ومع ذلك فى لينتز فإن نمط الملامح واحد تقريبا :

إنهن نساء طويلات القامة ويتسمن بوجه منتظم هادىء وعينين زرقاوين . وهن شقراوات بيضاوات البشرة ذوات لون رقيق مشترك بين الفلاحات وساكنات المدن . ومع الوقت يمل المرء هذا الشكل الموحد الذى يفسر جمالهن كما يفسر نقاء الدم وروعة المناخ السلالات الطيبة بين الحيوانات .

أما فى فيينا فعلى العكس فالوجوه متغيرة جداً رغم أنه مازال فى الامكان تصنيفها فى عدد قليل من الانماط المتشابهة . وعلى العموم سواء أكن شقراوات أم سمراوات فبشرتهن جميعا بيضاء رقيقة وقوامهن مكتمل وأذرعتهن رائعة . ويمكننا القول بأن الطبقة المتوسطة هى أقل الطبقات حظا . إلا أن جمال الارستقراطية التى نراها مجتمعة فى السهرات الكبرى

وفى الحفلات الموسيقية ، وجمال الطبقة الدنيا الذى لا ينقص فى اجتماعات السبرل والفولكس جارتن تتنافس فى فرص متساوية بين الجمال والنضارة بل حتى الاناقة والجاذبية .

إنها بلاد سعيدة لاسيما إذا فكرنا فى المخلوقات التعسة التى تملأ مدننا وريفنا . إنه دليل الحياة الطيبة التى تحياها الطبقة الدنيا والعمل السهل الذى يكفل لها تلك الحياة . ودون أن أدعى إطراء حكومة النمسا فإنى أؤكد أنها أفضل حكومة بالنسبة لسعادة الشعب وسعادة الطبقات العليا على السواء . أما البورجوازية فنحن نعلم أنها هى التى تكسب فى الثورات ....

ص ٦٢

إن أكبر حدائقها العامة توجد على مسافة قريبة فى حى ليوبولدستار . وحين دخلت إليها كانت ممراتها الطويلة خالية وأرضياتها مصفرة . ومع ذلك كانت ثمة زهرات مازالت بادية وبعض شجيرات الورد التى حطمتها الريح قد تركت ورودها تتردى فى الوحل . ومن بعيد لبعيد نكتشف آفاقا ساحرة . فالجبال التى تعلوها القصور تدل من بعد على شاطىء الدانوب . وثمة حديقة أخرى يسمونها حديقة الشعب تقع داخل الأسوار بالقرب من القصر الامبراطورى .

ص ٦٣

حين وصلت إلى فيينا كان ثمة مسرحية ميلودراما للممثلة مدام

بيرشفيفر mme Birchpfeiffer تسمى «الستيريون» تعرض بنجاح كبير . وفى تلك الأثناء كان يعرض فى ليوبولدستار مسرحية ثانية لنفس السيدة تسمى «روبير المر» . ومدام بير شفيفر تعادل بوشاردى فى المسرح الألمانى . وهى تسمى مسرحياتها بصراحة دراما شعبية . ولكن نكون قد بالغنا فى تكريمها لو قارناها بمواطنتنا الشابة اللهم إلا بالنجاح الذى تحققه . وقد شاهدت كذلك فى مسرح فيينا عرض مسرحية «جيللوم تل» لشيلر مما يدل على أن الرقابة الامبراطورية ليست بالشدة التى يصورونها بها ، ذلك أن أحداً لن يعترض على حقها فى منع عرض مسرحية «جيللوم تل» .

ولكن الرقابة سمحت لنا كذلك برؤية عرض مسرحية «روى بلا» Ruy Bles فى ليوبولدستار باسم «سيد وخادم» . صحيح أن الخاتمة تغيرت قليلا . ولا يفعل روى بلا سوى تهديد سيده بهذا السيف الشهير الذى انتزعه منه فى جرأة كبيرة . وتفسير ذلك أن الخادم عثر على أهله كما حدث لفيجارو ولكنه كان أسعد من هذا الأخير حظا فقد وجدهم أغنياء ومن كبار السادة . وأظن كذلك أنه فى الخاتمة قد تزوج الملكة وأصبح يشغل وظيفة زوج الملكة الرسمية وهى دستورية للغاية .

... إن مسارح ليوبولوستار وفيينا تخدمها جميعا فرقة المدير كارل . وقلب مجموعة التمثيليات التى تعرضها تلك الفرقة تتكون من «مهازل محلية» وهى نوع من المسرحيات الغريبة ذات المشاهد الكبيرة التى لا يملها أهل فيينا . ولكى نأخذ فكرة عن ذلك فى فرنسا ينبغى أن نجمع بين

التمثيليات الصامتة لدى بيرو Debureau فى أغرب أنواع الفودفيل التى تعرض فى مسرح المتنوعات . أما مسرح البهلوانات فيعرض ما يشبه العرض السريع . ولا يتحمل العقل المنطقى المنتظم للبورجوازى الباريسى الحرية الجنونية والمرح الساخر لهذه التركيبات . وأشهرها ، والتى تعتبر نموذجا لهذا النوع تسمى : «**ثلاثون عاما من حياة متشرد**» . ومعظم المسرحيات الهزلية المحلية هذه يقوم بتركيبها ممثل يدعى نستروى ويلعب فيها أهم الأدوار بكثير من القوة وخفة الدم .

أما مسرح جوزيفستاد الذى يشبه من الداخل قاعة الجمنيزيوم لدينا فقد شغلته لمدة شهرين جلسات عرض مسرحى لطبيب يدعى دوبلر . وهذا الفنان لا يرتفع إلى مستوى أعلى من بوسكو الذى يستحوذ حاليا على إعجاب جمهور القسطنطينية . ومنذ رحيله قام جوزيفستاد بتجديد موضوع «**ثورة فى السراى**» العتيق الذى يحقق نجاحاً ساحقا هذه الأيام بسبب الممثلات الجميلات ومغامرات الاتراك التعساء الذين تحولوا إلى أوربيين . ولم يبدأ شعب فيينا يضحك من الأتراك إلا منذ سنوات قلائل وهذا يفسر غلوه فى المرح .

وفى جوزيفستاد شهدت عرضا لا نعرف عنه أدنى فكرة فى فرنسا . إنها مسرحية «الأكاديمية» للكاتب الشهير سفير ، وهو من ألمع الصحفيين والشعراء فى ألمانيا . وقد اشترك فى هذه الجلسة الأدبية مجموعة من الفنانين . وبدأت الجلسة بمشهد شعرى لسفير يسمى : «تصريف فعل يحب» وكانت تمثل فيه ثلاث من أجمل ممثلات المسرح الأمبراطورى

فتقوم إحداهن بدور المدرسة والاثنتان الأخريان بدور التلميذات . وكانت هذه الفكرة اللماحة معروضة عرضا رائعا . وبعد ذلك «المجلة الليلية لنابليون» قام بغنائها ممثل من مسرح كورنثيا بمصاحبة بيانو من ليست . وخلف بريو ليست . ثم أتت الآنسة كارولين ميللر لتقوم وحدها بتمثيل كوميديا من ثلاثة فصول قصيرة جدا لحسن الحظ من تأليف سفير كذلك . وهى نوع من السخرية الكاريكاتورية يقوم الكاتب فيها بنقد مسرحياتنا الحديثة . وقد اقتسمت الآنسة كارولين ميللر التصفيق الموجه للمسرحية . ومعروف أن هذه الممثلة يسمونها «مارس» ألمانيا . وقد لاحظ صحفى من فيينا أخيرا بهذا الخصوص أنه قد يكون من الأنسب أن نقول إن الآنسة مارس هى كارولين ميللر فرنسا . وقد أعلنا أننا لا نعترض على ذلك .

واختتمت الجلسة الأكاديمية بعد قراءة الكثير من الأشعار بقراءة ساخرة قام بها السفير بنفسه . وقد شعرنا فى أول الأمر ببعض القلق على هذه المسرحية الأدبية الطويلة التى تعرض بعد الممثلين والمغنيين وبعد ليست وبريو . ثم بعد ذلك يقرأون لجمهور فرنسى مقالا غير منشور لفولتير يحيث يطلب بسرعة جياده وحذاءه الخفيف مثل مسيو دى بوفون Buffon . ولكن ! إن جمهور فييناالممتاز هذا قد ظل ساكنا لدى قراءة هذا المقال الذى يدور حول موضوع فلسفى غريب . وصفق السفير وطلب إعادة القراءة مرتين . تلك هى الأكاديمية فى مدن ألمانيا : فالأديب يقدم حفلات شعرية وموسيقية شأنه شأن أى ممثل ممارس . وقد جلبت «الأكادمية» لسفير ثلاثة آلاف فلورين .

وفى خطابى القادم سوف أحاول ادخالك إلى فيينا نفسها وإعطاءك فكرة عن متم مجتمعها الكبير . وقد ظننت أننى يجب أن أفصل هذا عن ذاك ذلك لأن فى فيينا كذلك يوجد مجتمع كبير وينبغى ألا تشك فى ذلك .

## ١٠ ــ بقية المذكرات

ص ٧٣

قال أبوللو لقسيسه : «سوف أعرفك الحقيقة حول عرافة دیلفی وكلاروس . فنى الماضى كان يخرج من بطن الأرض والغابات عدد لا نهاية له من الإخراجات والعرافات اللاتى يوحين بالغضب الإلهى . ولكن الأرض بسبب التغيرات المستمرة التى تحدث مع الوقت أخذت تدخل فى بطنها النافورات والإخراجات والعرافات » .

هذا هو ما حكاه بورفير كما يقول أوزيب Eusebe

وهكذا فقد انطفأت الآلهة نفسها أو غادرت الأرض التى لم يعد حب الناس يستدعيهم إليها ! وقطعت حدائقهم ونضبت ينابيعهم ، ودنست معابدهم . فكيف يتسنى لهم الظهور بعد ذلك ؟ إيه يا فينوس — أورانى ! يا ملكة هذه الجزيرة وهذا الجبل حيث كانت ملامحك الجميلة تهدد العالم . يا فينوس المسلحة ! التى حكمت فى الكابيتول حيث حييت

(فى المتحف) تمثالك الذى مازال قائما . لماذا لا توجد لدى الشجاعة للإيمان بك ودعوتك أيتها الإلهة ! وكما فعل آباؤنا مدة طويلة بورع وبساطة ؟ ألست مصدر كل حب وكل طموح نبيل ، ألست ثانية الأمهات المقدسات اللاتى يحكمن وسط العالم ويحمين ويحرسن الأنماط الخالدة التى خلقت لتقاوم الموت الذى يغيرها أو العدم الذى يجذبها إليه ؟ ... ولكنكن مازلتن هنا بكواكبكن المتألقة والرجل مضطر إلى الاعتراف بكن فى السماء والعلم إلى أن يسميكن بأسمائكن . أيتها الآلهات الثلاث الكبيرات هل تصفحن للأرض عقوقها ! إذ نسيت مذابح معابدكن ؟[٦٤]

ص ٧٤

ومع ذلك فمن ذا الذى يتعرف فى التمثال الموغل فى القدم الذى قمنا بوصفه على فينوس اللعوب ملهمة الشعراء وأم الحب وزوجة فولكان الأعرج الطائشة ؟

كانوا يسمونها الحذرة والمنتصرة والمسيطرة على البحار ، والتى تغير العواطف الإجرامية والابنة البكر للغازلات الثلاث ، وهو لون من التسامى الكئيب . وعلى جانبى التمثال المطلى والمذهب يقوم إلها الحب إروس Etos وأنتروس Anteros ويقدمان لأمهما الخشخاش والرمان .

---

(٦٤) إستشهاد أوزيب مفقول حرفيا من « دررة الطرمات » لفوشيل ، المقال الثانى الفصل الأول .

والرمز الذى يميزها عن غيرها من الآلهة هو الهلال الذى تعلوه نجمة ذات أشعة ثمانية . وهذا الرمز المطرز على القطيفة القرمزية مازال يسيطر على الشرق ولكن لدى الذين يتباهون به فإن فينوس تحتفظ دائما بالخمار على رأسها وبالسلاسل حول قدميها .

هذا هو ما كانت عليه الإلهة الوقور التى كانوا يعبدونها فى سبرطة وكورينثيا وجزء من جزيرة سيتير Cipthere ذات الصخور الصلدة . لقد كانت حقا ابنة البحار التى يخضبها دم أروانوس المقدس والتى انفصلت باردة من جوانب الطبيعة والخضم المختلط .

أما فينوس الأخرى ، ذلك أن الكثير من الشعراء والفلاسفة الإغريق ، لاسيما أفلاطون ، قد اعترفوا بوجود إلهتين مختلفتين باسم فينوس ـ كانت ابنه جوبيتر وديونيه . وكانوا يسمونها فينوس الشعبية وكان لها فى الجانب الآخر من جزيرة سيتير معابد ومؤمنون مختلفون عن معابد وعباد فينوس ـ أورانى . وقد اهتم الشعراء بهذه الإلهة التى لم تكن كالأخرى فى حماية القوانين المدينية الصارمة وقدموا لها كل ما لديهم من فن الحب الجسدى الذى نقل إلينا صورة خاطئة جدا عن الديانة الجادة لدى الوثنيين . وماذا يقولون فى المستقبل عن طقوس المسيحية إذا اضطروا إلى الحكم عليها من خلال تفسيرات فولتير الساخرة أوبارنى ؟ إن لوسيان وأوفيد وآبوليوس ينتمون إلى عصور ليست أقل شكا وقد أثروا وحدهم على عقولنا السطحية التى لا تهتم كثيرا بدراسة الشعر القديم المتعلق بنشأة الكون والمشتق من مصادر كلدانية أو سريانية .

## ١٥ ـ سان نيكولو

ص ٨٢

... ربما نعثر على بعض آثار لفينوس الثالثة ابنة الغزالات الثلاث ، وملكة جزيرة Hades الغامضة . ذلك أنه لابد أن نلاحظ للخروج من المتاهة التي ألقى بنا فيها الشعراء اللاتينيون المتأخرون وعلماء الميثولوجيا من المحدثين أن كلا من كبار الآلهة كان له ثلاثة أجساد وكانوا يعبدونه في صوره الثلاث : الصورة السماوية والأرضية والجهنمية . وهذه الثلاثية لا غرابة فيها بالنسبة لحكم العقول المسيحية التي تقبل وجود ثلاث شخصيات في الله .

لم يأت أحد على الأقل في اللحظة التي أبحرنا فيها يطلب منا أوراقنا . إن الجزر الإنجليزية لا تغالي في استخدام قوانين الشرطة . وإذا كانت تشريعاتهم تنتهي دائما بضربة سوط من أسفل ومن أعلى على المشنقة فليس للأجانب على الأقل أن يخشوا شيئا من هذه الأنواع من الردع .

كنت متشوقا لتذوق أنبذة اليونان بدلا من نبيذ مالطة الغليظ القاتم الذى يقدمونه لنا منذ يومين على ظهر السفينة البخارية . ولذا فلم آنف من الدخول إلى الحان المتواضع الذى يستخدم كملتقى مشترك فى الساعات الأخرى بالنسبة لحرس الشواطىء الانجليز والبحارة اليونانيين . وكانت الواجهة المطلية للحان ، كما فى مالطة ، تحمل أسماء البيرة والخمور الانجليزية بحروف من ذهب . ولما رآنى صاحب الحان ارتدى اللباس الذى يسمى ماكنتوش mantoch اشتريته من ليفورن Livoutne أسرع بشراء كأس من الويسكى لى . وحاولت تذكر الاسم الذى يطلقه اليونانيون على النبيذ ونطقت به بطريقة جيدة فلم يستطع أحد أن يفهمنى .

ماذا استفدت من الحصول على درجة البكالوريا أمام السادة فيلمان وكوزان وجيزو مجتمعين وأننى قد سلبت فرنسا عشرين دقيقة من حياة هؤلاء الأساتذة لإظهار علمى ؟ لقد خلقت الكلية منى اخصائيا كبيرا فى الاغريقيات ولكن فى حان سريجو Cerigo حيث ذهبت أطلب النبيذ عاد صاحب الحان بكأس الويسكى الذى رفضته وقدم لى قدحاً من البورتر . وحينئذ استطعت تجميع ثلاث كلمات إيطالية ، ولما كان أحد لم يعلمنى تلك اللغة من قبل فقد نجحت بسهولة فى استحضار زجاجة مغلفة بالقش من السائل المعتق بجزيرة سيتير .

لقد كان نبيذا أحمر طيبا يحمل قليلا طعم القربة التى عاش فيها وبعض طعم القطران إلا أنه ملىء بالحرارة ويذكر بنبيذ أسبوتو الايطالى . إيه يا دم العنقود الكريم ! كما كانت تسميك جورج ساند ، ما كدت

تدخل إلى جوفى حتى لم أعد نفس الشخص . ألست حقا دم أحد الآلهة ؟ وربما كما كان يقول اسقف كليون Cloyne دم العقول المتمردة التى كانت تناضل فى العصور القديمة على الأرض والتى هزمت ودمرت فى صورها الأولى فعادت فى النبيذ تثيرنا بعواطفها وغضبها وطموحها الغريب ! .. ولكن كلا ! إن ما يخرج من عروق تلك الجزيرة المقدسة ، من أرض بورفير المباركة حيث كانت تحكم فينوس السماوية لا يمكن أن يوحى إلا بالأفكار الطيبة الهادئة . ولذا فلم أمكر بعد ذلك فى شيء .

ص ٩٩

لم يعد لى أن أكثر من الكلام معك عن اليونان . ولكن كلمة واحدة فقط . فقد جررتك معى إلى قمة هذا الجبل المبنى من الخبز والسكر والذى تتوجه إليه المنازل ، الذى كنت أقارنه بالمدينة المعلقة فى الهواء ، مدينة لابوتا Laputa . ولابد من إنزالك من هذ القمة وإلا لظل فكرك ماثلا أبداً نحو شرفة كنيسة القديس جورج الكبير التى تشرف على مدينة سير syra القديمة . ولست أعرف ماهو أكثر حزنا من رحلة لاتتم . ولقد تألمت أكثر من أى شخص آخر لوفاة جاكمون[٦٥] المسكين . الذى ترك قدمى معلقة فى الهواء لست أدرى على أية قمة من قمم الهيمالايا ، وهذا

---

(٦٥) رحلة فرنس ( ١٨٠١ ـ ١٨٣٢ ) توفى فى بومباى بعد أن اكتشف جبال الهيمالايا ، وهو معروف لدى الرومانسيين وقد ذكره مانت ـ بيف كتلميذ لستندال حررته رحلته إلى الهند .

يضايقنى فى كل مرة أفكر فيها فى الهند إن يوريك الطيب نفسه لم يخش أن يسلمنا طوعاً إلى التطلع الدائم الألم لمعرفة ما دار بين القسيس المبجل والسيدة البيمونتية فى هذه الغرفة الشهيرة ذات الفراشين التى نعرفها . ويدرج هذا ضمن عدد حالات البؤس الصغيرة والكبيرة للحياة البشرية . ويبدو أننا نواجه هؤلاء السحرة التعساء الذين يأخذونك فى دوامة سحرية لا يعرفون كيف يخرجونك منها فيتركونك هيا وقد تحولت ـ إلى ماذا ؟ إلى علامة استفهام .

إن ما كان يوقفنى ، وينبغى أن أقول لك ، كان الرغبة فى أن أحكى ـ والخوف من عدم القدرة على الكلام بطريقة ملائمة ـ أن أحكى المغامرة التى حدثت لى وأنا أنزل من الجبل فى أحد هذه الطواحين ذات الأجنحة الثمانية .

ص ١٠١

ياله من منظر حزين منظر النساء فى بلاد الشرق حيث ألغى المفهوم الخاطىء للأخلاق العاهرة المرحة غير المكترثة للشعراء والفلاسفة . هنا خلفت عاطفة كوريدون عاطفة ألسيبياد . إنه الجنس كله الذى يفسد من أجل تجنب ضرر أقل وأخذت البقعة تتسع دون أن تمحى والبؤس يحقق مكسبا خفيا يفسده ولا يفنيه لم يعد الأمر حتى صورة الحب الباهتة بل إنه شبحه المشئوم الألم ، سوف ترى إلى أى حد تمتد الأحكام الاجتماعية المتجمدة الغاشمة والعاجزة فى وقت واحد . واليونانيون يحبون المسرح

اليوم كما كانوا يحبونه فى الماضى فأنت تجد قاعات مسرح فى أصغر المدن إلا أن جميع أدوار النساء يقوم بها الرجال .

ص ١٤٧

وبعد الغد كان عيد الفصح . وفى القاهرة ثمة ثلاثة أعياد فصح مختلفة . وعيد اليهود يتفق مع يوم الزعف وعيد اليونانيين والأقباط يأتى بعد أسبوع من عيدنا . والأمر يختلف مع السنين . ولكن بالنسبة للقاهرة ثمة ثلاثة أعياد مختلفة فتحتفل كل جماعة بعيدها بحرية فى حبها . وعيد الفصح لدى الأقباط هو أكثرها بريقا بسبب عدد هؤلاء المسيحيين الذين يفتخرون بأنهم سلالة أقدم سكان مصر . ويتم الاحتفال العام بالعيد فى ميدان الأزبكية فى الطرف الذى يلامس الحى القبطى . وهو تقريبا صورة من أعيادنا السوقية حتى فى الملابس وألعاب التوازن والشعوذة .

ص ١٤٨

البيت يفتح ويسمح بالدخول لامرأتين صحبهما الشاب بالقرب منى وكشفت المرأتان عن وجهيهما . كانتا أمه وأخته . وكان بيتهما يطل على المتنزه . وبعد التحيات الودية الأولى أخذ كل منا ينظر للآخر وينطق بكلمات تلقائية وهو يبتسم من هذا الجهل المتبادل . ولم تتكلم الصبية الصغيرة طبعا بدافع التحفظ . ووجهت إليها بعض كلمات بالإيطالية فردت فى رقة ولكن اختلاف اللهجة جعل الحديث يتسم بعدم الوضوح .

وحاولت أن أعبر عما فى التشابه بين السيدتين من لطف . فقد كانت

إحداهما فى الواقع صورة مصغرة للأخرى . وكانت الملامح التى مازالت غامضة للابنه يكمل رسمها ويزداد وضوحا لدى الأم ويمكن أن تتصور بين هذين العمرين موسما جميلا يحلو للنفس رؤيته يزهر . إيه ايها الزواج ! لماذا لا تكون هذه المرة سوى الأخ الأكبر للحب ؟

ومهما فعلنا فثمة تقليد دينى يمسك بالأورف فى الشرق ويسيطر عليه على الأقل فى الظروف الخطيرة . فالزواج من صبية صغيرة جدا لا يمكن أن يكون اختيارها حراً دون أن يكون الرباط الذى يربطكما إجباريا بالنسبة لك مسئولية أخلاقية كبيرة . ولقد أعطانى هذا اللقاء لحظة فكرة زواج أكثر جدية مما يسمونه فى القاهرة بالزواج على الطريقة القبطية . ولم أستطع فهم الموقف بطريقة أخرى . والتفت ناحية الأب وطلبت من المترجم أن يقول له أن ثمة أعمالا ...

ص ١٤٩

بهذا الثمن سوف تحصل على نساء كثيرات ... فى السوق ـ ولكن كيف ، وأنت الذى ينبغى أن تدفع ! ـ (أنا الذى أدفع المهر ؟) آه ! إن الأمر إذن يختلف ! ينبغى أن أدفع المهر (على الأقل عشرين قرشا) بدلاً من أن أتلقى أنا المهر ؟ ـ بطبيعة الحال . أتجهل أن تلك هى العادة هنا ؟.

الوكيل ـ نعم ولكن لابد من دفع المبلغ (والأهل يحتفظون به إلى اليوم الذى قد يحدث فيه فراق) إنه تعويض صغير للأسرة .

وفهمت منذ ذلك الحين لهفة الأهالى فى هذا البلد على ترويج

فتياتهم الصغيرات . وفى رأيى أنه ليس ثمة ماهو أكثر عدلا من أن تدفع لتحصل على زوجة شابة وجميلة تعب أهلها فى تربيتها من أجلك . ولكن كل ما أسفت عليه هو أن حافظتى كمسافر لم تكن تسمح لى ببلوغ ذلك .

ويبدو أن البائنة ، أو على الأصح ، المهر يتغير كثيرا حسب جمال وشباب الزوجة الموعودة وكذلك حسب اختلاف مكانة الأهل . فالتطلعات تهبط حينئذ إلى نصف المبلغ المطلوب . وتلك تجارة يلعب فيها كل من الوكيل والخاطب دورهما كممثلين للطرفين . أضف إلى ذلك تكاليف العرس وسوف ترى أن الزواج على الطريقة القبطية قد أصبح هو كذلك إجراء مكلفا للغاية .

وفى رأى عبد الله أنه بنفس التكاليف يمكن الحصول على سراى كاملة من سوق الجوارى .

ص ١٦٤ .

إن مصر لا تملك حتى الآن سوى جريدتين ، إحداهما « المونيتور » وتطبع فى بولاق والأخرى « النهار » وتظهر فى الإسكندرية . وفى حقبة كفاحها ضد الباب العالى استجلب الباشا محررًا فرنسيا بتكاليف كبيرة أخذ يكافح بضعة أشهر ضد صحف القسطنطينية وأزمير . وكانت الصحيفة آلة من آلات الحرب كغيرها . لقد ألقت مصر السلاح حول هذه النقطة ولكن هذا لم يمنعها من أن تتلقى كثيرا فيض المنشورات العامة من البسفور .

## ١ ـ الماضي والمستقبل

ص ٢٠٠

حين سقطت الاسكندرية الكبيرة هذه تحت ضربات العرب أنفسهم كانت مصر كذلك هي أهم البلاد التي تحتفظ بالعلوم وتساعد على تقدمها بعد أن نهل منها العالم المسيحي . ولقد أطفأ حكم المماليك هذه الأنوار الأخيرة وينبغي أن نلاحظ أن الظلام الذي تردى فيه الشرق منذ ثلاثة قرون ليس نتيجة للمبادىء المحمدية ولكن للتأثير التركي . إن العبقرية العربية التي غطت العالم بالعجائب قد اختنقت تحت هؤلاء الحكام الأغبياء ففقدت ملائكة الإسلام أجنحتها وجنيات ألف ليلة وليلة شهدت تحطم طلاسمها . وانتشر نوع من البروتستانتية على جميع شعوب المشرق . وأصبح القرآن بفعل التفسير التركي ماكانت عليه التوراة للطهريين Puntaus الإنجليز أي وسيلة للتسوية بين كل شيء . واختفت الفنون والآداب والعلوم ابتداء من هذا الوقت لم تترك شاعرية التقاليد والمعتقدات الأولية هنا وهناك إلا آثاراً وكانت مصر كذلك هي التي حفظت أكثرها عمقا .

واليوم فإن هذا الشعب الذى تحمل القهر مدة طويلة لا يعيش إلا على الآراء الأجنبية . وهو فى حاجة إلى أن تعاد إليه الأنوار المتفرقة التى كان مهداً لها مدة طويلة . ولكن بأى عرفان وأية مهارة دائبة تراه ينطبع ويتقوى اليوم بكل ماهو آت من أوربا إن تحفنا العلمية والأدبية قد ترجمت إلى العربية وضاعفت المطابع من عددها . والآلاف من الشبان الذين ينتشلون من أجل الحرب ينفقون أوقات فراغهم السلمية مع هذه التحف . هل يجوز أن نيأس من هذا الجنس القوى الذى فتح به ، فى الآونة الأخيرة ، محمد على امبراطورية الخلفاء وجددها دون تدخل من أوربا وكان فى إمكانه فى بضعة أيام قلب عرش عثمان ؟ يمكننا أن نتنبأ منذ الآن بأنه إذا لم يكن هذا النصر العسكرى الذى لم يترك لمصر الإجهاد بعد الجهد الضائع ، إذا لم يكن هذا النصر قد تحقق فإن الحضارة والصناعة سوف تشغل القوى والذكاء والمحبة للعمل لتحقيق أمل آخر . وفى القسطنطينية نرى أن النظم الحديثة عقيمة . وفى القاهرة سوف تؤدى إلى نتائج كبيرة حين تؤدى سنوات عديدة من السلام إلى تنمية الرفاهية المادية .

## ٧ - حريم الوالى

**ص ٢٢٩**

ورأيت أن التركى وسط كل هذا لا يستطيع أن يتبع إلا شبح اللذة . لم يعد فى الشرق لا مغرمون كبار ولا باحثون كبار عن اللذة . إن الحب المثالى للمجنون أو عنتر قد نسيه المسلمون المحدثون كما أن حمية دون

ـنَ غير الشابة ليست معروفة لديهم . إن لهم قصورًا جميلة دون أن الفن وحدائق جميلة دون أن يحبوا الطبيعة ، ونساء جميلات دون يفهموا الحب . وأنا لا أقول ذلك من أجل محمد على ، مقدونى ـمل والذى أظهر روح الإسكندر فى أكثر من مناسبة . ولكنى آسف لا هو ولا ابنه قد استطاعا أن يعيدا إلى الشرق تفوق الجنس العربى الماضى الملىء بالذكاء والفروسية . ذلك أن الفكر الذكى يسيطر ـيا من جهة والفكر الأوربى من جهة أخرى تلك نتيجة ضئيلة لجهود ـة .

## ٢ ــ الأفريز

**٢٢٤**

فقلت له : لقد أخطأوا بتنظيف وتجديد هذه الكتابة . فأجاب : ولكنك إذن لا تفهم !

فقلت : لقد أقسمت على ألا أفهم الكتابات الهيروغليفية ... وقد ـت الكثير جداً من الشروح . فقد بدأت بسانشونياتون Sauchoniaton ـممت بأوديب مصر للأب كيرشير Kircher وأنهيت بنحوشامبليون بعد ـة ملاحظات واربيرتون Watburton والبارون بو leboron pow . مالم يعجبنى فى هذه الآراء هى نشرة للأب آفر Affre الذى لم يكن قد أصبح اسقفا لباريس والذى ادعى بعد أن ناقش معنى كتابات ـيد أن علماء أوربا كانوا قد اتفقوا على تفسير وهمى للهيروغليفية حتى

يمكنهم إنشاء كراس فى الجامعات للغة الهيروغليفية ومرتب هذه الوظيفة عادة ٦٠٠٠ فرنك .

وأضاف الضابط البروسى مصححاً :

— أو ١٫٥٠٠ تليرى ، هذا هو المبلغ المقابل بعملتنا تقريبا . ولكن لندع المزاح حول هذا الموضوع . فأنت لديك النمو ونحن لدينا الحروف الأبجدية وسوف أقرأ لك هذه الكتابة بمثل السهولة التى يقرأ بها التلميذ اليونانية حين يعرف حروفها ولو أنه يتردد أكثر أمام معانى الكلمات » .

وأخذ الضابط فى القراءة وهو يدون المقاطع فى مفكرته ، ويقول لى : «إن هذا يعنى (...) لرسالته » .

وندمت للتو على شكى فى الهيروغليفية وأنا أفكر فى التعب والخطر الذى تحداه هؤلاء العلماء الذين يكتشفون فى هذه اللحظة بالذات أطلال قصر التيه .

... وقلت له : هيا ، إن هذا يجرى مضرب الأمثال ويقبله الجميع ! وتذكرت حينئذ أن نابليون نفسه حين زار داخل الأهرام برفقة زوجة أحد الكولونيلات قد تعرض للخطر الذى كان يتوقعه المرشد . فقد أتى البدو فجأة ، كما يقولون ، وشتتوا حرسه وسدوا مدخل الهرم بحجارة كبيرة بطول متر وعرض متر . وأتت كتيبة من المطاردين فجأة فأنقذته من هذا الخطر لحسن الحظ .

**ص ٢٤٥**

قد تتردد الثعابين فى سكنى مثل هذه المساكن المنعزلة . أما الخفافيش فهى موجودة وتتعرف عليها بصيحاتها وطيرانها حول النار .

... من الصعب أن تفهم أن هذه المساحة الصغيرة المخصصة إما للمقابر أو لبناء كنيسة أو معبد قد أصبحت المنعزل الرئيسى الممد فى الكتلة الحجرية الكبرى المحيطة بها .

وقد اكتشفت غرفتان أو ثلاث مشابهة بعد ذلك ، وقد أسودت جدرانها الجرانيتية بفعل دخان المشاعل . ولست تجد فى كل هذا أثرًا لقبر ، فيما عدا كهفا من المرمر طوله ثمانى أقدام . يمكن أن يكون قد استخدم فى حفظ جثمان أحد الفراعنة . ومع ذلك فإن أقدم تقاليد الحفر لا تدل ، فيما يختص بالأهرام ، إلا على اكتشاف عظام الثيران .

وإن ما يدهش المسافر وسط هذه المساكن الجنائزية هو أنك لا تتنفس إلا هواء ساخنا مشبعا برائحة القار . وفيما عدا ذلك فلست ترى إلا أروقة وجدرانا ولا توجد كتابات هيروغليفية ولا تماثيل ولكن أعمدة مدخنة وقباب وأطلال .

وعدنا إلى المدخل ونحن مستاءون جدا من هذه الرحلة الشاقة ، وكنا نسائل أنفسنا عما يمكن أن يمثله هذا المبنى الشاهق الضخم . وقال لى الضابط البروسى : «مما لاشك فيه أنها ليست مقابر . فما هى الضرورة لبناء هذه المبانى الضخمة لحفظ تابوت ملك . ومما لاشك فيه أن مثل هذه

الكتلة من الحجارة المجلوبة من صعيد مصر لا يمكن أن تجمع وتشغل فى حياة شخص واحد . وماذا تعنى بالنسبة للملك تلك الرغبة فى أن يعزل فى قبر ارتفاعه ٧٠٠ قدم حين نرى جميع أسر الملوك المصريين قد دفنت فى تواضع فى توابيت ومعابد تحت الأرض » .

لابد من الرجوع إلى رأى قدماء اليونان الذين كانوا أقرب منا للقساوسة والأنظمة المصرية فلم يروا فى الأهرام إلا آثاراً دينية مخصصة لإيقاف الأعضاء الجدد على أسرار الديانات .

ص ٢٥٢

لنعد إلى السهل ولنزر أبا الهول فى الجيزة .

ولقد قام الكثيرون بوصف أبى الهول فليس ثمة حاجة منى لأن أتحدث عن عدم تغير ملامحه المثيرة للإعجاب ووجهه الذى يبلغ طوله ثمانى عشرة قدما . ومما لاشك فيه أن هذه الصخرة الجرانيتية قد نحتت فى عصر كان الفن فيه متقدماً جداً . إن أنفه المسكور يعطيه من بعيد ملامح حبشية ، ولكن بقية الوجه يمت لشخص من أجمل الأجناس الأسيوية . واكتفينا بعد ذلك بالإعجاب بالهرمين الآخرين اللذين احتفظا بجزء من الطبقة التى كانت تغطيهما ، وقد فتح الهرم الثانى ولكن لم يجدوا فيه إلا قاعتين أو ثلاث تشبه تلك التى زرناها فى الهرم الأول . والثالث وهو أصغرها ويسميه العرب الهرم الابنة ، على ذكر العاهرة رودوب التى يظن أنها هى التى أمرت ببنائه فهو لم يمس ولم يستكشفه أحد . وحول الهضبة

الرملية للأهرام الثلاثة توجد أطلال معابد وتوابيت . وثمة بعض التوابيت المحطمة راقدة هنا وهناك كطائفة من الوجوه الصغيرة من عجينة خضراء من النادر أن نجد بينها تابوتا كاملاً . وأراد العرب أن يبيعونا بعضا منها ولكننا احتملنا ألا يكونوا قد جمعوها من المكان نفسه . ولابد أن ثمة مصانع فى القاهرة لصنع ذلك كما يحدث بالنسبة لأوانى الزهور الأترورية التى يبيعونها فى نابولى .

...وحين زار جيش مصر[٦٦] مقابر سقارة دهش لعدد القطط التى يحتوى عليها بعضهم . وأتت لبعض الجند فكرة إشعال النار فى هذه الأماكن تحت الأرضية لمعرفة عمقها . واشتعلت مومياء القطط التى اختلطت بالقار لمدة ثمانية أيام ثم انطفأت النار من تلقاء نفسها . وحين ظنوا أن الدخان قد تبدد نزلوا إلى هذه الأماكن تحت الأرضية . وفيما عدا المساحة الشاسعة التى اكتشفتها النار وفيما وراء المواد التى تحولت إلى فحم والتى يجب إخراجها وجدوا صفوفا جديدة من القطط كان يبدو أنها تتحدى التخريب أن يصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه .

**ص ٢٥٣**

إذا كنت أتحدث هنا عن هذه الأحداث التى أصبحت قديمة ذلك أننى تلقيت فى القسطنطينية نبأ وفاته التعس . وفى وسط مقابر جالات

(٦٦) أى الجيش الفرنسى الذى فتح مصر .

وأمام لوحة القسطنطينية وسكوتارى الرائعتين اللتين يحدان أمام عينى شاطىء أوربا وشاطى أسيا ، أفكر فى حزن فى هذه النهاية المبكرة وفى هذا الرجل الذى كشف لى آخر حديث معه عن كثير من العلم المتواضع واللطف الثمين بالنسبة للمسافر على هذه الأرض العربية التى عليك فيها أن تختار بين اثنين لا ثالث لهما :

القبور أو الأطلال .

## مذكرة خاصة بالخاتمة [٦٧]

إن جميع تفصيلات هذه الرحلة صحيحة . ومع ذلك ففيما يختص ببعض النقاط كان لابد من تجميع الأحداث تجنبا للإطالة .

وقد علم الكاتب منذ بضعة أشهر أن الجارية الجاوية قد هربت من المنزل الذى وضعها فيه . وبطبيعة الحال لا يخلو الأمر من بعض التعصب الدينى .

أما عن مصيرها الحالى الذى اهتم به مسيوب ... قنصلنا ، فيبدو أنها تنعم بالاستقرار والسعادة حسب الملحوظة الغامضة المذكورة فى أسفل الرسالة التى أرسلها كامى روجييه Camill Rogier ، الرسام الذى يقوم برحلة فى سوريا ، إلى الكاتب حيث قال : إن المرأة الصفراء فى دمشق وهى متزوجة من أحد الأتراك ولها طفلان

---

(٦٧) هذه المذكرة بقلم الناشر .

## (نهاية رحلة الى الشرق)

## ٤ ـ قصور الباشا

ص ٣٣٤

إنهم الانجليز الذين انتزعوا سنة ١٨٤٠ من الحكومة المصرية مساندة هذه الشعوب القوية . ومنذ ذلك الحين اتجه نظامهم دائما إلى تقسيم الأجناس التى قد يجمعها شعور عام بالوطنية تحت قواد بعينهم . وبهذه الروح سلموا الأمير بشير لتركيا ، وهو آخر الأمراء اللبنانيين ووريث هذه القوة متعددة الأطراف ، الغريبة فى مصدرها التى كانت تجمع منذ ثلاثة قرون جميع المشاعر والأديان فى حزمة واحدة .

## ١ ـ الصباح والمساء

ص ٣٨٠

ينبغى أن أذكر لك أولا ما حدث لى منذ عودتى من رحلة فى الجبل ، وقد أرسلت لك مؤخراً قصتها .

فقد عدت لأستقر لبضعة أيام فى فندق باتسقا فى انتظار فرصة للذهاب الى صيدا ، أى سيدون القديمة ، بحرًا . وكان الطقس قد أصبح رديئا بحيث لم يجرؤ قارب واحد على الخروج ، ومع ذلك فقد كانت الشمس ساطعة على الأرض ولا تشوب الأفق الأزرق سحابة واحدة . لم يعد أحد يشكو إلا من الريح التى كانت تثير هنا وهناك أعمدة من التراب . ولكن على البحر ، كان كل شئ يتحرك ويتأرجح ، والسفن السكرى تتقابل دفافها ومداخنها . وليس ثمة ما هو أكثر بعثا للدهشة من هذه الفوضى وسط الهدوء وهذه العاصفة ، على الناشف ، وهذا البحر الغادر الذى يفتح هوته السحيقة السوداء تحت أشعة الشمس الزاهية . ولابد أنه مما يحدث أسى مزدوجا أن نرى غريقا فى مثل هذا الجو الجميل .

والتقيت على مائدة الفندق بالمبشر الانجليزى الذى كنت قد تعرفت به قبل ذلك . ولم يكن أقل ضيقا بالعاصفة منى فقد عرقلت كذلك مشروع سفره على نفس الرحلة . وحين توقع أن نكون بعد قليل رفيقى سفر أعطى لعلاقتنا مزيداً من الألفة فخرجنا معاً بعد الغداء لرؤية البحر الهائج وما يعرضه من منظر جميل .

وحين هبطنا إلى الميناء التقينا بالأب بلانشيه الذى توقف وأراد التحدث بعض الوقت معنا . وليس أقل ما يدهش فى بلد المتناقضات هذا أن ترى أحد اليسوعيين وأحد المبشرين الإنجيليين يتحدثان فى ود . الواقع أنه مهما كان من شأن كفاحهما الخاص الملتوى فإن هذين الغريمين الورعين يلتقيان بصفة مستمرة على مائدة القناصل ، ويحسن كل منهما استقبال

الآخر حيث إنهما لا يستطيعان أن يفعلا غير ذلك . وفيما عدا التأثير الخفى الذى قد يحصلان عليه من كفاحهما مع سكان الجبل فليس ثمة ما يجازفان به فى مجال التبشير حين يلتقيان على أرض واحدة .

يدونون فيه أعمالهم فيثبتون للجدد أن الانجليز هم تقريبا دروز . وهذا يفسر المثل الدرزى القائل : « الانجليز والدروز سوا سوا » . وبهذه الطريقة يكون المبشرون أنفسهم هم الذين يغيرون دياناتهم .

وقد عدل المبشرون الكاثوليك منذ مدة طويلة عن تبشير الدروز ولم يعودوا يتجهون إلا الى اليونانيين الانفصاليين حيث ثمة تقارب بين آراء هاتين الطائفتين أكثر من غيرها . أما المبشرون الإنجليز فإن مهمتهم على العكس تنحصر فى جميع المذاهب البروتستانتية على اختلافها ، وقد عثروا أخيرا على نقاط تقارب غريبة بين دينهم وديانة الدروز . والمسألة تتوقف أولا وأخيرا على تسجيل أكبر عدد ممكن من الأسماء فى الدفتر الذى

## ٧ - الرحيل

ص ٤٤١

إن التفاصيل القادمة يمكن أن تستخدم كهامش لا كتفسير لقصة الحاكم ، تلك القصة الغامضة بسبب الحكايات الكثيرة التى ترتبط بهذا المصلح كما ترتبط الأناجيل المختلفة بالمسيح وقد نشر مسيودى ساس جزأين

عن هذه الحكايات المختلفة . أما قصتنا فلم تستند إلا إلى أهم هذه الحكايات مع الامتناع عن كل اختراع رومانسى فى هذا الصدد . إنها ما هى إلا ملخص ومختارات مما يحكى .

ص ٤٤٣

... وقال الشيخ : هذه هى الحقيقة . فبعد المشهد الدامى الذى حدث بالقرب من المقابر هرب العبدان اللذان كانا يحملان أوامر ست الملك وعادا إلى المدينة . ومر شيخ تتبعه فرقة مسلحة وطلب من أحد أتباعه أن يفحص جروح الخليفة ويوسف بن دوامس وصب عليها سائلا ثمينا . وبعد ذلك حملوا الجثتين إلى مقابر الفاطميين ، وهى ساحة جنائزية شامخة بناها المعز لدين الله بانى القاهرة . ووضع الصديقان ، وأحدهما خليفة والآخر صياد أسماك ، فى قبرين متشابهين فقد كان كلاهما أميراً وكان كلاهما حفيدا للمعز لدين الله . وكان هذا الأخير مازال حياً .

وقلت للشيخ :

معذرة ، لقد كان من الصعب على أن أتبين فى قصتك ما هو خيالى وما هو حقيقى ، وتلك هى الصعوبة بالنسبة لنا فى جميع قصصكم العربية ...

فقال الشيخ :

ـ ليس فيما قصصت عليك ما يبعد عن الاحتمالات البشرية فلم أقل إن الحاكم كان صاحب معجزات ولم أحلل إلا مشاعر نفسه التى نقل إلينا

نبيه حمزة أسرارها . إن الحاكم بالنسبة لنا إله ، ولكم الحق ، معشر المسيحيين ، ألا تروا فيه إلا مجنونا .

ـ وجده ، هل كان هو الآخر إلهاً ؟

ـ كلا ، ولكنه كان كما تعرفونَ قابلا[٦٨] كبيراً . وقد وضعه إيمانه الفريد على اتصال بروح البر (وهو الاسم السماوى للحاكم ) . وقال له البر يوماً : «إن وقت نزولى إلى الأرض ليقترب وحينئذ سوف أظهر فى صورة بشر ، سأكون حفيدك وشبيهك ، ولن تعرفنى » . وكان للمعز لدين الله حفيدان ولد أولهما وريثا للعرش وربى الثانى كفلاح بسيط فى بلاد قطمة Ketema (بالقرب من ولاية قسنطينة ) . وحين لقب المعز لدين الله من العرش أشاع بفضل نصائح طبيبه ابن سينا avicenne أنه مات . وكان المعز يجهل أى حفيديه هو الإله فأراد وضعهما موضع التجربة فى ظروف مختلفة . فاعتزل فى تكية من تكايا الدراويش ، وشاهد دون أن يعرفه أحد جميع مراسم عقيدة الحاكم . ولما لم يستطع فهم أسباب ذلك (يالعمى البشر ! ) أخذ يدبر سراً لكى يحل الآخر محله على العرش . ويقال إنه هو الذى أعد كمين المقطم . ولم يكن الشقيقان إلا فاقدى الوعى تحت تأثير ضربات الجماهير ولم يستعيدا وعيهما إلا فى مقبرة أسرتهما حيث ظهر الجد كشبح وسألهما حسابا عن حياتهما السابقة . وفى هذه المقبرة المجاورة للتوابيت والأهرام بدا الحاكم كفرعون يتولى أجداده الملوك محاكمته .

---

(٦٨) أى كان عالماً بيواطن التوراة .

فتكلم وشرح أعماله ونظرياته . وخر جده وشقيقه سجداً تحت قدميه واعترفا به إلهاً . ولكن الحاكم لم يشأ العودة إلى القاهرة بل توجه مع المعز لدين الله إلى صحراء آمون وأقر نظريته التي تولى شقيقه نشرها بعد ذلك باسم حمزة . ومنذ ذلك الحين ظهر الحاكم في بقاع مختلفة من الأرض وأخيراً انسحب إلى لبنان حيث آمن به الشعب » .

وأدارت تلك الأسطورة رأسي كالدوامة . وكانت الزيارات التي أقوم بها للشيخ الدرزي تكفي بالكاد للتفسيرات التي أطلبها منه . وفي تلك الأثناء كانت العاصفة التي حجزتني في بيروت قد هدأت وكان لابد لي من الرحيل إلى عكا لأحاول ممارسة تأثيري على الباشا لصالح الشيخ الدرزي . ولذا فقد حييته مودعاً ...

١ ـ السفينة

ص ٤٤٨

إن هذه اللوحة المليئة بالمبالغة بلا شك كانت تؤثر في لما فيها من بعض لمحات حقيقية . أما أن عدد الأتراك قد نقص كثيرا فهذا أمر لا شك فيه . إن أجناس البشر تتغير وتضيع تحت بعض التأثيرات مثل أجناس الحيوان .

ومنذ مدة طويلة كانت القوة الرئيسية للامبراطورية التركية تعتمد على قوة الميليشيا الأجنبية في الأصل عن الجنس العثماني مثل المماليك والانكشارية . واليوم يحتفظ الباب العالي بمساعدة بعض فيالق من الألبانيين بعشرين مليونا من اليونانيين والكاثوليك والأرمن تحت سلطة

الهلال . هل يستطيع الباب العالى ذلك حتى اليوم بدون المساندة المعنوية للدبلوماسية الأوربية والمساعدات الانجليزية المسلحة؟ وحين نفكر فى أن سورية هذه التى دكت المدافع الانجليزية جميع موانيها سنة ١٨٤٠ لصالح الأتراك هى نفس الأرض التى جمعتها جميع أوربا الاقطاعية مدة ستة قرون كانت دولها فيها تعتبرها مقدسة فإنها تقتنع بأن الشعور الدينى قد هبط كثيراً فى أوربا . إن الانجليز لم يفكروا حتى فى أن يحتفظوا للمسيحيين بالتراث الذى انتزعه ريتشارد قلب الأسد . لقد أردت نقل هذه الأفكار للقس المبجل ولكن حين عدت الى جواره استقبلنى ...

## ٥ ـ الخاتمة

ص ٤٨٧

إن رياح الجنوب التى تظل تهب مدة خمسين يوما تقريبا تتخللها مع ذلك فترات هدوء ،وذات مساء ، وبعد يوم أجمل من المعتاد دعانى القنصل إلى مرافقته فى اليوم التالى لزيارة أهرام الجيزة . وخرجنا لدى طلوع الفجر فى عربته وتوقفنا للإفطار فى جزيرة الروضة ـ تلك الجزيرة الخضراء وكأنها إحدى جزر البلطيق . وقد أعدت تلك الجزيرة على الطريقة الانجليزية بفضل عناية ابراهيم باشا . وقد ازدان جزء منها بأشجار الصفصاف والسرو والأكاسيا ، والآخر بالبرك والأنهار الصناعية الغاصة

بالجمع والكبارى الصينية على ممرات من النجيل .

وقدم لنا طعام الافطار فى كشك يقع فى شمال الجزيرة مبنى من قطع صغيرة من الصخور ، وقد كان هذا الكشك لمدة طويلة حريماً صيفيا لابراهيم . ولما كان هذا الأخير يقيم بصفة دائمة تقريبا فى الإسكندرية فلم يعد يشغله منذ عدة سنوات .

وقال لى القنصل : « إن القصر الذى نحن فيه الآن قد وضعه إبراهيم تحت تصرفى ، وأنا أسكنه حين تثقل علـى سكنى القاهرة » . وذهبنا بعد ذلك لزيارة جميع أجزاء الجزيرة ، ذلك المكان المنعزل اللذيذ حيث بنى الخلفاء الفاطميون قصرهم من قبل . ولدى طرف ذراع النيل الذى يمر بمصر القديمة أرانى القنصل المكان الذى يفترض أن موسى قد التقط فيه من مهده العائم بواسطة ابنة فرعون . وتقع هذه النقطة بالقرب من المقياس . المخصص ، كما هو معروف ، لتقدير ارتفاع الفيضان . وثمة عمود من الرخام مسدس الجوانب كان مخصصا فى الماضى لسيرابيس ، ويقوم هذا العمود وسط بئر . وقد ظل هكذا طيلة ثلاثين قرنا يدل على ارتفاع النهر المقدس . وأهل منتصف النهار دون أن يتكلم رفيق طريقى عن التحرك إلى ما هو أبعد من ذلك . ولذا فقد ذكرته بالهدف من نزهتنا ...

## ٤ ـ سان ديمترى

فى أحد الكباريهات وجهت أخيرا الى عشيقة أحد اليونانيين إهانة تسببت فى حدوث اصطدام مروع بين بعض اليونانيين من المودة وبعض

الأيونيين . ويتسم هؤلاء الأخيرون عادة بالوقاحة والميل للشجار لأنهم من رعايا انجلترا . وقد تسبب هذا فى معركة حقيقية لم تخل من المشاهدين . وقد اصطف أكثر من مائة وخمسين شخصا من الدولتين ، اصطفوا فى ساحة المقابر الكبرى . وأطلقت طلقات كثيرة من المسدسات كما وجهت ضربات خناجر وأخطرت السلطات التركية ، وصاح الباشا قائلا : «بكالوم (لا يهم !) ليقض هؤلاء الكلاب على أنفسهم إذا شاءوا فسوف يصبح عددهم أقل» . صحيح أن الشرطة التركية قليلة الفاعلية فى بيرا بسبب العدد الكبير من الأجانب ممن يوضعون تحت حماية القناصل .

## ٧ ـ وجوه أربعة

ص ٥٢٥

إن تفاصيل هذه النزهة خلال أحياء القسطنطينية لن تكون ذات فائدة إذا كان عيبها هو الدقة . والمغامرة التى قصصتها فى الحلقة السابقة لم تكن مخترعة ، فهى تتعلق فى واقع الأمر بأخت أحد السلاطين السابقين وربما كانت من عهد السلطان سليم . ففى ذلك العصر كانت الانكشارية تقوم بأعمال الشرطة المسائية وكان افرادها يدخلون حتى إلى القصور الامبراطورية إذا ما ساورتهم بعض الشكوك . إن حب النساء للبهلوانات والمشعوذين كان كذلك سببا فى مشهد مماثل فى عصر السلطان محمود . وكادت تذهب ضحية ذلك فرقة من معلمى الفروسية التعساء . ولم ينقذهم إلا بهلوان من كوروشزميه Kourouchezme تصادف وجوده حينئذ بالقرب من القصر .

## ٣ ـ الرواة

ص ٥٦٤

في تركيا يسود شعور خالص بالمساواة لدى الجميع . ومما يؤيده أن الجميع على ثقافة متواضعة كافية لفهم كل شيء والشعور بكل شيء حيث إن التعلم إجباري والناس من جميع الطبقات يرسلون أولادهم للتعلم مدة طويلة في المساجد ، حيث يتعلمون بالمجان.

ولذا فإنه ليس ثمة من يدهش لرؤية رجل من أحط الطبقات يصل إلى أعلى المراكز التي لا يحتاج لبلوغها إلا إلى اكتساب بعض المعلومات الخاصة .

## قصة ملكة الصباح وسليمان أمير الجن

## ٣ ـ المعبد

ص ٦٠١

وخلال الوجبة الأولى لهذه الجلسة ، دار الحديث عن مختلف المشاعر التي أثارتها القصة. وبدا على أحد الحاضرين ، وقد عرف من لون ذراعيه الملطخ بالأزرق أنه صباغ ، إنه لا ينضم إلى شعور التأييد العام الذي استقبل به المشهد السابق . واقترب الصباغ من الراوي وقال له : «أيها الأخ ، لقد أعلنت أن هذه القصة تهم جميع طبقات العمال . ومع ذلك فإني أراك حتى الآن تتغنى بأمجاد عمال المعادن والنجارين ونحاتي

الحجارة ... فإذا لم يكن هذا الذى تقول يهمنى فلن أعود إلى هذا المقهى ثانية وكذلك سيفعل كثيرون غيرى » . وقطب صاحب المقهى حاجبيه ونظر الى راويه بشعور اللوم .. ورد الراوى قائلا : «أيها الأخ ، سوف يكون ثمة شئ خاص بالصباغين ... سوف تكون لدينا الفرصة للحديث عن حيرم الطيب ، ابن صور ، الذى نشر الأقمشة القرمزية الجميلة فى العالم أجمع ، والذى كان حاميًا لأدونيرام » . وعاد الصباغ فجلس واستأنف الراوى حكايته . ...

## ٧ ـ مسارح القسطنطينية

عدت الى خان يلدز وأنا مشغول الرأس بالتفاصيل الغريبة للقصة لاسيما تلك اللوحة التى صورت لنا عن سقوط سليمان بعد وفاته . وتخيلت العجائب الداخلية لجبل قاف الذى يتحدث عنه الشعراء الشرقيون كثيرا . وقاف ، حسب المعلومات التى حصلت عليها من رفاقى ، هو الصخرة المركزية التى تشكل التسليح الداخلى للكرة الأرضية . أما مختلف سلاسل الجبال التى تظهر على السطح فما هى إلا امتداد لفروعه . إنها جبال أطلس والقوقاز وهيمالايا التى تمثل أقوى دعاماته . ويضع الشعراء القدامى غصنًا آخر فيما وراء البحار الغربية نحو نقطة يطلقون عليها اسم إلى دنيا ، أى الدنيا الجديدة ، ولابدأنها أطلنطا التى تحدث عنها أفلاطون ، فى حالة ما إذا استبعدنا أنه كانت لديهم فكرة عن قارة أمريكا .

ومن المحتمل أن المشهد الذى اختلط فيه كبرياء سليمان ، حسب مايقول القرآن ، قد دار فى رواق ارجنك Argenk الذى بنى وسط الجبل

بواسطة الجن ، والذى ترى فيه التماثيل الأربعين للأباطره الذين يحملون اسم سليمان والذين حكموا الأرض فى العصور قبل الآدمية وكذلك الوجوه المرسومة لجميع المخلوقات العاقلة التى سكنت الأرض قبل خلق أبناء الطين . وكان لمعظم هذه الوجوه أشكال غريبة تقترب من أشكال الحيوانات ، مما يدخل بلا شك فى مجال الأساطير البدائية للهنود والمصريين والبيلاجيين .

ولقد ذكرنى عدد هؤلاء الملوك الأربعين قبل الآدميين الذين حكم كل منهم ، حسب ماتقول الأسطوره ، ألف عام ، ذكرنى ذلك بفرض ألقاه العالم ليترون Letronne وقد رأيت بدوره يطبقه . ويرجع هذا العالم العصور القديمة . إلى أربعين ألف عام تقريبا قبل خلق آدم المفترض . وقد استقى الدليل على ذلك من انحسار مياه البحر المنتظم عن أرض مصر ، واعتقد كذلك عن بعض الحجارة التى تدل طبقاتها على العدد السابق لفيضانات النيل . وقد تؤدى أبحاث كوفييه Cuvier كذلك إلى افتراضات مماثلة لو أن هذا العالم لم يصر على ربط اكتشافاته بقصص التوراة .

ومهما يكن من أمر فمن المستحيل فهم قصص الشرق أو أشعاره دون أن نقنع أنفسنا بأن ثمة سلسلة طويلة من الشعوب الغربية ، كان آخر ملوكها جيان بن جيان ، قد عاشت قبل ادم . ويمثل آدم بالنسبة للشرقيين مجرد جنس جديد قد عجن وشكل من أرض خاصة بواسطة أدوناى إله التوراة الذى ربما يكون قد تصرف فى هذة الظروف مثل تيتان بروميتيوس الذى انعش بالنارالإلهية الجنس الأولى الممتهن الذى كان العالم ، حتى

ذلك الحين ، ينتمي إليه . ولكن مهلاً للرموز : فإنى لم أرد أن ألقى بعض الضوء على الجزء الخيالى للقصة التى سمعنا ها فيا سبق . ولكنه الشعاع التائه وسط الظلمات الذى ، حسب تعبير ميلتون ، لايستخدم إلاف جعل الظلمات صالحة للرؤيا .

## ٤ ـ العيد

ص ٦٨٤

تستطيع هذه القصة أن تعطينا فكرة عن قوة الميول لدى النساء اللاتى تنساب حياتهن منفصلة عن مجتمع الرجال دون أن يكون ثمة عازل إيجابى .وربما كانت امرأة سكوتارى هذه امرأة تقية كانت تأمل أن تستطيع حمل الفنان على اعتناق الإسلام لكى يستطيع الزواج منها . وعلى العموم فإن سلوك النساء التركيات وقور ومتحفظ .أما الحظوظ السعيدة التى يفخر بها الأوربيون فهى تتعلق بطائفة من النساء غير المحاطات بالتقدير واللاتى يستفدن من السهولة التى تمنحها لهن ملابسهن الغربية ، لزيارة بعض الأوربيين ممن تقودهن إليهم بائعات الملابس القديمة أو الجاريات الفاسدات . وبصفة شبه دائمة فإن سحر بعض الملابس التى يرفض الزوج العجوز أو البخيل شراءها لهن هو الدافع لهن على الإخلال بواجباتهن ولايحيق الخطر فى هذه الحالة إلابهن وحدهن لأن أحداً لايستطيع مهاجمة بيت أحد الأوربيين ، أما هو فيستطيع الهرب إلى أحد البيوت التركية .

## ١٣ ـ العيد

لاحظنا ، لدى العودة من توفانا إلى بيرا عن طريق الشوارع الصاعدة التى تمر بين مبانى السفارات ، أن الحى الافرنجى كان أكثر تألقاً بالأضواء وأكثر ضجيجاً من العادة . ذلك أن احتفالات العيد التى تتلو شهر رمضان كانت تقترب . ويتعلق الأمر بأيام ثلاثة من البهجة تتلو هذا الصوم المختلط بالكرنفال الذى حاولت وصف مراحله المختلفة .

إن العيد هو تقريبا عيد رأس السنة بالنسبة للأتراك .

## ٣ ـ حفلات السراى

يكفى أن نقول إن كلا من الرجل والمرأة ينام بكامل ملابسه وأن عينى المسلم لايمكن أن تهبط ، بمقتضى أحكام الدين ، إلى أسفل حزام المرأة . والأمر متبادل . حتى السلطان محمود نفسه ، وهو أكثر السلاطين تقدمية ، حين دخل يوما ، إلى حمام زوجاته حكمن عليه بحرمانه من حضرتهن مدة طويلة . ولما علمت المدينة بالأمر عن طريق الخدم الذين يفشون الأسرار ثارت غضباً ونشب بينه وبين الأئمة مشاهد عنيفة . واعتبر الحادث بالنسبة لأنصار السلطان لونا من التشنيع ربما كان مرجعه أنه بنى فى قصر المرايا قاعة حمام مدرجة . وأنا من ناحيتى أحب أن أصدق هذه التشنيعة .

ملحق (١)

## عادات المصريين المحدثين

### ١ ـ مركز النساء الاجتماعي

ص ٧٠١

إن الحقبة الأدبية التي نعيشها تشبه كثيرا تلك التي بدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. كان الناس كما هم اليوم شديدي الاستطلاع يغرقون أنفسهم في الأبحاث الغريبة وفي غموض الكلمة . وإذا كانت الغرابة قد فقدت القرن الثامن عشر ، كما يقولون ، لماذا نفعل بغرابتنا ؟ ألسنا نجد أنفسنا خليطا من نوع مهلهل للآراء السياسية والاجتماعية والدينية لم نشهد له مثيلا منذ عهد الانحلال الروماني ، إن ما ينقصنا هو عبقرية متعددة الأشكال قادرة على إعطاء مركز لكل هذه النزوات الضالة . وإذا لم يوجد عبقري مثل لوسيان أو فولتير فلن يهتم الجمهور إلا اهتماماً طفيفا بهذا العمل الضخم من أعمال التحلل الذي ينشط فيه الكثير من الكتاب العباقرة .

لقد نشر القرن الثامن عشر « الدفاع عن المحمدية » كما حاول إحياء الأبيقورية والنظريات الأفلاطونية الجديدة . ولا ينبغي أن ندهش لذلك بعد الأعمال التي أخذت تظهر في هذا الاتجاه إذا رأينا كاتبا بين ظهرانينا يرفع لواء النبي . وليس ذلك بأكثر غرابة من أن نرى مسجداً يبنى في باريس ، ذلك الحدث الذى أعلن عن قرب إتمامه . وعلى كل فإن هذا البناء أمر حق مادام المسلمون يبيحون في بلادهم بناء كنائسنا . ويزور أمراؤهم روما كما كان يفعل ملوك الشرق في الماضي . وثمة نتائج كبيرة يمكن أن تنتج من احتكاك هاتين الحضارتين اللتين ناصب كل منها الأخرى العداء مدة طويلة واللتين سوف تعثران على نقاط الالتقاء إذا تخلصنا من الأحكام المسبقة التي مازالت تفرق بينهما . وعلينا نحن أن نقوم بالخطا الأولى وأن نصحح الكثير من الأخطاء وفي آرائنا عن العادات والنظم الاجتماعية في الشرق . إن وضعنا في الجزائر يجعل ذلك بالنسبة لنا واجبا . وينبغي أن نتساءل عما إذا كنا سوف نجني شيئا من الدعاية الدينية ، وعما إذا كان ينبغي لنا أن نكتفي بالتأثير على الشرق عن طريق أنوار الحضارة والفلسفة . إن هاتين الوسيلتين في أيدينا متساويتا المفعول . ومن الخير أن نعرف كذلك ما إذا لم يكن علينا أن ننهل من هذه الدراسة بعض المعلومات المفيدة لنا أنفسنا .

وحين استولى الجيش الفرنسي على مصر ، لم تكن ينقص صفوفه الوعاظ والمصلحون الذين قرروا إضاءة شعلة العقل ، كما كانوا يقولون حينئذ ، فوق هذه المجتمعات البربرية . وبعد بضعة أشهر ذكر نابليون

نفسه فى تصريحاته اسم محمد كما اعتنق خليفته كليبر دين المهزومين . وقد حذا حذوه من ذلك الحين الكثير من الفرنسيين . وإذا نظرنا إلى الشخصيات التى اعتنقت الإسلام لصعب علينا ذكر المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية وهذا وحده يكفى لإثبات أن الإسلام يمنح الانسان ميزات معينة لا وجود لها بالنسبة للمرأة . إن تعدد الزوجات مثلا قد أغرى من بعيد بعض العقول السطحية . إلا أن هذا السبب لم يؤثر إطلاقا بكل تأكيد على من يستطيع دراسة العادات الحقيقية للشرق عن كثب . وقد جمع السيد دى سوكو ليكى فى كتاب يكتنفه الكثير من الغموض إلا أنه يحتوى على الكثير من الملاحظات والعلم ، جمع جميع آيات القرآن والكتب الشرقية الأخرى التى تتعلق بوضع المرأة . ولم يجد هذا الكاتب صعوبة فى إثبات أن محمداً لم يقر فى الشرق لا تعدد الزوجات ولا الطلاق ولا العبودية ، بل إن هذا الأمر لا يمكن أن يكون موضع مناقشة . كما أنه عنى فقط بإبراز جميع جهود المشرع من أجل إشاعة الاعتدال إلى أقصى حد ممكن فى النظم القديمة التى كان جزء منها يخضع دائما لمسائل الجنس والمناخ .

إن فكرة سقطة المرأة والتقليد الذى يظهرها كسبب أولى لخطايا الجنس البشرى وتعاسته ترجع بصفة خاصة إلى التوراة وبذلك فقد أثرت لا محالة فى جميع الأديان المشتقة منها . إن هذه الفكرة ليست أكثر وضوحاً فى دين محمد منه فى الدين المسيحى . وثمة أسطورة عربية قديمة تؤكد التقليد الموسوى ومع ذلك فإننا نتردد كثيرا فى الاعتقاد بأنها أخذت فى يوم ما على محمل الجد .

نعرف أن الشرقيين يقرون أن آدم هو أول البشر بالمعنى المادى للكلمة ، ولكنهم يعتقدون أن الأرض قد سكنها أولا أرواح بدائية خلقها الله قبل ذلك من مادة سامية رقيقة ومضيئة .

... إن هزيود الذى طالما صور التناسخ بين المخلوقات الوحشية والكفاح بين الإلهات الأمهات فى دائرة أورانوس لم يقدم أسطورة أكثر كآبة من ذلك . ولنعد إلى المفاهيم الأكثر وضوحا فى التوراة ، والتى أصبحت أكثر لينا وأكثر إنسانية فى القرآن .

ص ٧٠٣

إن جميع المسافرين قد التقوا مرات عديدة فى شوارع القسطنطينية بنساء السراى . والحق يقال إنهن لا يتجولن سيرا على الأقدام كمعظم النساء ولكن بالعربة أو على الخيول كما تفعل نساء الطبقة الراقية . وهن يتمتعن بحرية كاملة فى رؤية كل شئ والتحدث إلى الباعة . ولقد كانت الحرية فى القرن الماضى أكبر من ذلك حيث كانت السلطانات تستطعن دخول حوانيت اليونانيين والفرنسيين « ذلك أن حوانيت الأتراك ليست إلا أماكن للعرض » . وثمة أخت للسلطان يقال إنها جددت عجائب برج نسل Nesle فأمرت بأن تأتى إليه البضائع بعد اختيارها . أما الشبان التعساء الذين عهد إليهم بهذه المهمات فكانوا يختفون عادة دون أن يجرؤ أحد على الحديث عنهم . وقد زودت جميع القصور المبنية على البسفور بقاعات منخفضة يدخل البحر تحتها ، وثمة سقف يغطى المساحات المخصصة لحمام بحر النساء . ويفترضون أن الذين كان يقع عليهم اختيار

هذه السيدة كانوا يمرون من هذا الطريق . وقد حكم على السلطانة بالسجن المؤبد لا أكثر ، وما زال شبان بيرا يتحدثون بهلع عن اختفاء هؤلاء الشبان الفتيان الغامض .

ص ٧٠٥

إننا ، بتأثرنا بهذه الملاحظات الصحيحة وبتخلصنا من الأحكام المسبقة التي مازالت تؤثر فينا سوف نسقط تدريجيا الأحكام المسبقة التي شككتنا حتى الآن في إمكانية تحقيق تحالف بيننا وبين الشعوب الإسلامية ، أو تحقيق خضوعهم لنا .

ص ٧١٨

إن معظم بنات الحبشة والزنجيات الشابات قد أسلمهن جلابوهن من النخاسين أو تجار الرقيق في مصر العليا والنوبة إلى الفاحشة . إنهن ، حتى في سن الثامنة أو التاسعة ، يقعن ضحايا لشراسة هؤلاء الرجال . ويشعر هؤلاء الأطفال التعساء من بنات وصبية ، لاسيما من يقدمون منهم من الحبشة ، بارتياح من المعاملة التي يفرضها عليهم الجلابون حتى أن كثيرين منهم يلقون بأنفسهم أثناء الطريق في النيل حيث يموتون مفضلين الموت على الوضع النفسي الذى ترددوا فيه .

٤ ــ راقصات مصر

وتحب النساء ، شأنهن في ذلك شأن الرجال ، أن يتجمعن حولهن في الطرقات إلا أن علية القوم وأبناء الطبقات الراقية يبتعدون عنهن .

... ويمكن أن نستدل من التشابه بين رقص الفاندانجو ورقص الغوازى أن ذلك الرقص قد أدخل إلى أسبانيا مع الغزاة العرب . ولكن من المعروف أن نساء قادش قد اشتهرن بهذه الألوان من التمريثات منذ أوائل العصور الرومانية .

ص ٧٢٩

وفى معظم هذه الجولات ينفخ مرات عديدة فى أنبوبة طويلة تسمى الزمارة يشبه صوتها ذلك الصوت الذى نحصل عليه من النفخ فى قرن .

## ٦ ـ بيوت القاهرة

إن المساكن المعنية لا تؤجر مفروشة أبداً . ومن النادر أن يقبل شخص لازوجة ولا جارية له كمستأجر لمثل هذه البيوت ، بل إنه لا يقبل حتى فى منزل مستقل . إن مثل هذا الشخص ، إن لم يكن له أقرباء مقربين يعيش معهم يضطر للسكن فى مبنى يسمى الوكالة ويستخدم كمأوى للتجار وأتباعهم .

## ٧ ـ الاحتفالات الجنائزية

ص ٧٤٠

حين يشعر أحد العلماء أو الأتقياء من المسلمين باقتراب منيته فإنه أحيانا يتوضأ الوضوء المعتاد قبل الصلاة حتى يكون وهو يغادر الحياة فى حالة طهر جسدى . ويكرر عادة شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وحين يخرج المسلم لغزوة أو لسفر طويل ، لاسيما إذا كان عليه أن

يخترق الصحراء ، فإنه يحمل معه عادة كفنه . وفى هذه الحالة ليس من النادر أن يضطر المسافر إلى حفر قبره بنفسه . ذلك أنه كثيرا ما يحدث أن ينهكه التعب والحرمان أو أن يسقط تحت وطأة المرض . فإذا لم يستطع رفاق سفره أن ينتظروا حتى يشفى أو يموت فإنه يتوضأ بالماء إن أمكن ، وفى حالة عدم وجود الماء يتوضأ بالرمل والتراب . وبعد ذلك يحفر مكانا فى شكل حفرة ينام فيها وقد تدثر بكفنه . وبعد هذه المراسم يغطى نفسه ما عدا الوجه بالرمل المستخرج من الحفرة . وفى هذه الحالة ينتظر الموت الذى يضع حدا لمتاعبه تاركا للرياح مهمة إكمال تغطية لحده .

وإذا قضى أحد كبار العلماء فى القاهرة نحبه فإن مؤذنى الأزهر وغيره من المساجد الكثيرة يعلنون من فوق المآذن عن هذا الحدث بتلاوة التراتيل التى يسمونها «أبرار» مما يقرأ فى شهر رمضان حسب تعاليم القرآن .

ويستمر هذا الندب على الأقل ساعة من الزمن . وإذا حدثت الوفاة فى الصباح يحمل الجسد إلى القبر فى اليوم نفسه ، ولكن إذا حدثت فى المساء أو فى الليل فلا يتم الدفن إلا فى اليوم التالى . وحينئذ تقضى الندابات المأجورات الليل بطوله مع النساء الأخريات ليكملن ندبهن .

ص ٧٤١

يستخدم الفقراء أوراق الغبيراء الجافة المفروكة بدلاً من الصابون ، وكثيرا ما يرش الكفن بماء زمزم التى توجد فى معبد مكة .

... ويمشون اثنين اثنين أو ثلاثة بخطا بطيئة وهم يترنمون بشهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بلهجة كئيبة .

ص ٧٤٤

هذه ترجمة لبداية تلك المقطوعة الشعرية :

«أمدح كمال الذى خلق كل شيء له شكل والذى قهر عبيده بالموت ؛

«سوف يرقدون جميعا فى القبر ؛

امدح كمال إله الشرق ؛

أمدح كمال الذى يضيء بالنورين الشمس والقمر ؛

كماله : كم هو كريم !

كماله : كم هو رحيم !

كماله : كم هو كبير !

وإذا عصاه عبد فإنه يحميه !

إن صراخ النسوة وأناشيد الصبية الحارة واللهجات الكئيبة التى يترنم بها اليمانية ، كل ذلك يحدث نغماً نشازاً غريباً .

وكان النبى قد منع ندب النسوة والتغنى بفضائل المتوفى فى أثناء الجنازة . وقد أعلن محمد أن الفضائل التى تنسب إلى الميت بهذه الطريقة تصبح سببا لتوجيه اللوم إليه لو لم يكن يتحلى بها فى حياته المقبلة . ومن المثير أن نرى كيف يخرق المسلمون المحدثون تعاليم النبى باستثناء الوهابيين وحدهم . وقد رأينا فى بعض الأحيان باكيات من الطبقة الدنيا يتبعن أحد النعوش بوجه مكشوف بعد أن يلطخنه بالطين كما يلطخن به رءوسهن

وصدورهن . وكانت هذه العادة قائمة لدى قدماء المصريين . وفى حالة ما إذا كانت الجنازة لرجل غنى أو حتى من الطبقة المتوسطة فقد يسبقها أحيانا بعض الجمال المحملة بالقمح والماء اللذين يوزعان على الفقراء أمام القبر . وهذه المواكب تتكون من أشخاص مختلفين ومتعددين . ويفتتح اليمانية المسيرة وهم يترنمون ، كما قلنا فيما سبق ، بشهادة لا إله إلا الله . ويتبعهم أصدقاء المتوفى وبعض العلماء والأتقياء الذين يدعون للاشتراك فى الجنازة . ثم تأتى مجموعة من « الفقراء » وهم يرتلون سورة الأنعام (السورة السادسة من القرآن) يتبعهم غيرهم من رجال الدين الذين يرتلون مختلف الدعوات حسب الطريقة التى ينتمون إليها والتى أسسها شيوخ مشهورون . ويتبع هؤلاء رايات هذه الطريقة أو تلك من طرق الدراويش العليا وهى نصف مفرودة ، ثم يأتى تلاميذ المدارس ثم النعش والنائحات كما يحدث فى المواكب الأخرى . وفى بعض الأحيان ، إذا كان حاملو النعش من ذوى المكانة فإن جيادهم تتبعهم .

... يشاهد الكثير من الناس مواكب جنازات الشيوخ الأتقياء أو بعض كبار العلماء . ولا تغطى نعوش هؤلاء الشخصيات بالشيلان . ذلك أن الشيخ فى مناسبة الجنازة هذه يكرم بطريقة خاصة . فالنساء يتبعن نعشه ولكن بدلا من أن يبكين ويندبن كما يفعلن بالنسبة للميت العادى فإنهن يرسلن صيحات حادة وأناشيد مرحة تسمى الزغاريد . فإذا توقفن عن هذه النغمات المرحة ولو دقيقة واحدة فإن حاملى النعش يعلنون أنهم لا يستطيعون التقدم وأن قوة غير عادية تمسك بهم فى المكان الذى يقفون فيه .

ص ٧٤٣

أما دفن النساء وصغار الصبية ، رغم أنه أكثر بساطة إلا أنه يشبه تقريبا دفن الرجال اللهم إلا إذا كانت الأسرة غنية أو ذات مكانة مرموقة . وكان من أفخم المواكب الجنائزية التى رأيناها موكب فتاة من أسرة كبيرة . لقد افتتح الموكب رجلان يحمل كل منهما علماً أخضر مطويا كبير الحجم . ويتبع ذلك ثمانية من «اليمانية» ثم مجموعة من الفقراء وهم يرتلون سورة من القرآن . يأتى بعد ذلك رجل يحمل غصنا من أغصان النبق وهو شعار صغار السن ويسير بين رجلين يحملان عصا طويلة يعلوها عدد كبير من الأطواق المزدانة بشرائط من الورق بمختلف الألوان . وخلف هؤلاء الثلاثة يسير جنبا إلى جنب جنديان من الأتراك . ويحمل أحد الجنديين صحنا صغيرا من الفضة المذهبة عليه قمقم (أى قنينة) من ماء الورد . أما الآخر فهو مزود بصحن مشابه يحمل مبخرة من الفضة المذهبة تحترق فيها بعض العطور . هذه الأوانى التى تعطر الجو مخصصة لتعطير غرفة القبر . ومن حين لآخر تراهم يرشون المشاهدين بماء الورد . ويتبع الجنديين أربعة من الرجال يحمل كل منهم على صينية عدداً كبيراً من الشموع الصغيرة المشتعلة المثبتة على قطع من عجينة الحناء . أما النعش المغطى بشال بادى الثراء فله شاهد مزدان بغطاء رأسى رائع محلى ، بخلاف الصفا ، «بقصب الماس» وهى زينة من الذهب والماس لتحديد مكان الجبهة . وعلى قمة الشاهد يوجد قرص من الماس بادى الثراء . وهذه المجوهرات من ممتلكات المتوفاة أو كما يحدث أحيانا فإنهم يستعيرونها من

أجل الموكب . أما النساء وعددهن ثمان فكن يرتدين الثوب الحريرى الأسود الذى ترتديه النساء المصريات . ولكن بدلا من أن يسرن على الأقدام كما هى العادة فقد ركبن حميراً ذات براذع عالية .

... وإذا كان المتوفى يسكن أحد الأحياء الواقعة شمال المدينة فإنهم يفضلون حمل جثمانه الى مسجد حسنين (كذا) إلا إذا كان فقيرا ولم يكن من جيران هذا المسجد المبجل . وفى هذه الحالة فإن أصدقاءه يحملونه الى أقرب مسجد اقتصادا للوقت وللنفقات التى لا جدوى منها . وإذا كان من العلماء ، أى ذا مهنة علمية ، مهما كانت متواضعة ، فإنهم ينقلونه عادة إلى مسجد الأزهر الكبير . أما سكان الجزء الجنوبى من العاصمة فيحملون عادة موتاهم إلى مسجد السيدة زينب أو إلى مسجد ولى من الأولياء المعروفين . وسبب هذا التفضيل الذى يعطونه لهذه المساجد على المساجد الأخرى هو الاعتقاد بأن الدعوات التى ترسل بالقرب من مقابر الأولياء تقبل بصفة خاصة .

... ثم قال : « يا إلهى ! هذا عبدك ، وقد ترك راحة الدنيا وأتساعها وكل ما كان يحبه ومن كانوا يحبونه من أجل ظلمات القبر وما يشعر به . وقد شهد بأن لا إله إلا أنت وحدك ولا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك ، لك العلم بكل ما يهمك . يا إلهى ! لقد رحل ليقيم معك أنت الذى ليس ثمة ما هو أطيب من المقام إلى جوارك إن رحمتك لا غنى له عنها وأنت لست فى حاجة إلى عقابه . لقد جئنا إليك متوسلين أن تسمح لنا أن نتوسط لصالحه . يا إلهى ! إذا كان عمله طيبا فزد كمية حسناته ،

وإذا كان عمله سيئا فتغاض عن سيئاته . لتسعه رحمتك ولتعفه من امتحان القبر وعذابه . اجعل لحده واسعاً واجعل الأرض بعيدة عن جنبيه (يعتقد المسلمون أن الأرض تعذب أجسام الأشرار التى تنكش فى القبر على جنبيها رغم أن القبر عادة عميق ) . اجعل رحمتك فى إعفائه من عذابك حتى الوقت الذى تبعثه فيه بسلام إلى الجنة . ياأرحم الراحمين ! .

وبعد أن يصيح الإمام للمرة الرابعة : «الله أكبر» يضيف «ربنا ! لا ترفض مثوبتنا على ما قدمنا له من خدمات ولا تجعلنا نمر بالامتحان بعده واغفر لنا واغفر له ولجميع المسلمين يارب العالمين ! » . وهكذا يختتم الإمام صلاته ويحيى الملائكة . إلى اليمين وإلى اليسار ويقول :

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ! » كما يحدث فى نهاية الصلوات العادية . ثم يوجه كلامه إلى الحاضرين ..

ص ٧٤٤

ويمكن للقبر أن يتسع على الأقل لأربعة توابيت ونادراً ما يحدث أن تدفن النساء مع الرجال فى قبر واحد ، ولكن حين يحدث ذلك يقام حائط يفصل بين الجنسين .

... ومع ذلك فإن النبى قد نهى عن حفر اسم الله أو أية آية من القرآن على القبور التى أوحى بأن تكون منخفضة ومبنية فقط من الطوب النئ» .

ص ٧٤٥

وتدفع أجور الأشخاص الذين يستأجرون لحضور الجنازة لدى القبر ، أما اليمانيون فيتقاضون قرشا واحداً عن كل رأس . وقد قيل أن الناس الأثرياء يأتون بالقمح والماء على ظهور الجمال فيوزعونها على الفقراء بعد الدفن . ولذا فإن هؤلاء التعساء يهرعون إلى المدفن فى جماعات حين يذبحون عجلاً ، حيث يوزع لحمه كذلك على الفقراء . ويسمى ذلك الكفارة . وهم يعتقدون أن هذه الضحية تكفر عن الذنوب الصغيرة لا الذنوب الضخمة . وبعد الجنازة يعزى كل من والدى المتوفى بهذه العبارة! عوضكم الله خيراً فى فقده أو يهنئونه لأن حياته طالت .

ص ٧٤٦

وقد ذكر سال ، فى حديثه الأول ، القسم الرابع ، بالطريقة التالية ، عدد آراء المسلمين حول حالة الروح فى الفترة ما بين الموت والحساب فقال : «إنهم يقسمون أرواح المؤمنين إلى ثلاث طبقات : الأولى هى طبقة الانبياء الذين تقبل أرواحهم فورًا فى الجنة ، والثانية هى طبقة الشهداء الذين تستريح أرواحهم حسب سنة محمد فى حويصلة الطيور التى تأكل فاكهة الجنة وتشرب من مائها ، والثالثه هى طبقة المؤمنين الآخرين وقد اختلفت فى شأنها الآراء بالنسبة لحالة الأرواح قبل البعث .

١ ـــ ذلك أن البعض يقولون إنها تبقى بجوار القبور محتفظة بحريتها فى الذهاب حيث تشاء وهذا ما يؤكدونه وهم يذكرون الطريقة التى كان

محمد يحييهم بها فى قبورهم وتأكيده بأن هذه التحية يسمعها الأموات كما يسمعها الأحياء . وربما من هنا كانت العادة المنتشرة لدى المسلمين بزيارة قبور ذويهم .

٢ ـ وآخرون يفترضون أن هذه الأرواح تبقى فى السماء الدنيا مع آدم ، وهم يبنون رأيهم على قول النبى الذى أعلن انه وهو عائد من رحلته الليلية المزعومة فى السماء العليا رأى فى السماء الدنيا الأرواح الموعودة على يمين آدم والأرواح المحكوم عليها بالنار على يساره .

٣ ـ ويتصور آخرون أن أرواح المؤمنين تبقى فى بئر زمزم وأرواح غير المؤمنين تبقى فى بئر فى ولاية حضرموت تسمى بارابوت إلا أن هذا الرأى اعتبر كفراً .

٤ ـ ويقول آخرون إن الأرواح تظل سبعة أيام بالقرب من القبور لايعرف على وجه اليقين أين تذهب بعد ذلك .

٥ ـ ويقول آخرون كذلك إنها تجمع كلها فى البوق الذى سوف يوقظ صوته الموتى . وأخيرا .

٦ ـ فإن آخرين يعتقدون بأن أرواح الخيرين تظل فى صورة طيور بيضاء تحت عرش الله . أما عن أرواح الأشرار ، خلافاً للاراء التى وردت فيما سبق ، فإن أكثر الناس اعتدالاً يؤيدون ، وقد منحتها الملائكة للسماء ، فان السماء ترفضها لأنها ذات رائحة كريهة نجسة ، ثم تمنح للأرض فترفضها للسبب نفسه فيلقى بها إلى الأرض السابعة حيث توضع فى زنزانة

تسمى « سلجين » تقع تحت صخرة خضراء ، أو حسب السنة المحمدية ، تحت فلك الشيطان ، لكى تتعذب حتى تلحق بأجسادها . إلا أن الرأى الذى يتحدث عن بئر بارابوت هو المرجع اليوم .

... وثمة احتفال آخر يسمى المسبحة يتم بهذه المناسبة لتسهيل دخول المتوفى فى حالة الغبطة . وهى تستمر بين ثلاث وأربع ساعات . وبعد العشاء يتجمع عدد من الفقراء ( عادة خمسون شخصا ) فى منزل المتوفى . وإذا لم يكن ثمة فناء ولا قاعة كبيرة لاستقبالهم يفرش الحصير أمام البيت فيجلسون عليه .

ويحمل أحد هؤلاء الفقراء مسبحة مكونة من ألف حبة كل منها فى حجم بيضة الحمامة تقريبا . ويبدأون الاحتفال بترتيل سورة الملك (السورة ٦٧ من القرآن ) ، ثم يرددون ثلاث مرات : «الله أحد ! » ثم يرتلون سورة الفلق (السورة قبل الأخيرة من القرآن ) (كذا ) والسورة الأولى الفاتحة . ثم يرددون ثلاث مرات : « ربنا ! أكرم عبدك سيدنا محمدا وآله وصحبة وسلم ! » ويضيفون : «إن كل الذين يدعونك هم السابقون والذين يهملون دعوتك هم المهملون » ثم يرددون ثلاث مرات : « لا إله إلا الله ! » . ويمسك أحدهم بالمسبحة وبعد كل تكرار من هذه الكلمات يرسل حبة . من حباتها من بين أصابعه . وبعد تكرار بضعة آلاف من المرات يحدث غالبا أن يستريحوا ويتبادلوا القهوة . وبعد إتمام الألف الأخيرة ، وبعد الاستراحة وتناول المرطبات فإنهم يرددون مائة مرة ! «أوجه مديحى لله الكامل ! » ، ثم يرددون عددا مماثلا من المرات :

«استغفر الله العظيم !» ثم يكررون خمسين مرة : «أحيى كمال الله الخالد ، كمال الله الخالد !» ثم يكررون هذه الآيات من القرآن (كذا) : «أذكر صفات ربك رب القدرة بتنزيهه عما ينسب إليه (المسيحيون وغيرهم) من أن له ولد أو شريك فى الألوهية ، والسلام على الرسل والحمد لله رب العالمين !»[٦٩] . ثم يرتل اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الفقراء ، كل على انفراد ، آية من القرآن . وبعد ذلك يطلب أحدهم من رفاقه الطلب التالى : «هل نقلتم إلى روح المتوفى ثواب ما قرأتم ؟» فيرد الآخرون قائلين : «لقد نقلناه ، الصلاة والسلام على الأنبياء إلخ» . وبهذا يختتم احتفال المسبحة الذى يكرر لدى الأغنياء فى الليلتين الثانية والثالثة . ويقام هذا الاحتفال كذلك فى الأسر التى تتلقى نبأ وفاة قريب مقرب .

ولا يغير الرجال شيئا فى ملابسهم علامة على الحداد . وكذلك الحال بالنسبة للنساء حين يتعلق الأمر برجل مسن أما فى غير تلك الحالة فإنهن يرتدين الحداد . وفى هذه الحالة فإنهن يصبغن قمصانهن وطرحهن ومناديلهن بالنيلة التى تعطى تلك الملابس لونا أزرق يقترب أحيانا من اللون الأسود . وبعضهن يصبغن كذلك أيديهن وأذرعهن إلى ارتفاع الكوع ويطلين جدران غرفهن باللون نفسه . وحين يموت صاحب البيت أو مالك الأثاث ، وفى حالات أخرى من حالات الحزن كذلك ، فإنهن يفرشن

---

(٦٩) غنى عن الذكر أن هذا ليس قرآناً بل ترجمة لما جاء فى قول برقال

البسط والحصر والحشايا وأغطية الأرائك مقلوبة على الوجه الآخر . وأثناء الحداد لا تضفر النساء شعورهن ويمتنعن عن لبس بعض مجوهراتهن ، وإذا كن يلبخن فإنهن لا يستعملن إلا الغاب .

وفى نهاية أول يوم خميس يتلو الجنازة ، بل حتى فى صباح ذلك اليوم فى كثير من الأحيان ، تبدأ نساء أسرة المتوفى فى الندب فى منزل المتوفى وينضم إليهن بعض صديقاتهن . وفى عصر أو مساء اليوم نفسه يأتى الرجال الذين كانوا أصدقاء للاسرة كذلك للزيارة . ويقوم ثلاثة أو أربعة من الفقراء فى ترتيل الأدعية . وفى صباح يوم الجمعة يذهب النساء إلى القبر حيث يحتفلن بنفس الطريقة التى تمت أثناء الدفن . ولدى مغادرتهن للقبر يضعن غصنا من النخيل على القبر ويوزعن الفطير والخبز على الفقراء . وتتجدد هذه المواسم فى الأيام المشابهة لمدة أربعين يوماً بعد الجنازة .

**(انظر سفر التكوين ٥٠ ، ٣ )**

وبين فلاحى مصر العليا ثمة عادة غريبة : فإن أهل وصديقات المتوفى يتجمعن أمام منزله لمدة الأيام الثلاثة الأولى للجنازة لكى يرسلن صيحات مروعة ويقمن برقصات غريبة وهن يلطخن بالطين وجوههن وصدورهن وجزءاً من ملابسهن ، ويلففن حول وسطهن بدلا من الحزام حبلا من الحشائش الجافة يسمونها الحلفا . (كانت تلك العادة قائمة لدى قدماء المصريين ، انظر هيرودوت الكتاب الثانى الفصل ٨٥ ) . وتلوح

كل منهن فى يدها بعصا من جريد النخل فى تشنج عصبى أو تمسك بحربة أو سيف عار ، وترقص فى ذات الوقت بخطوة بطيئة وبطريقة غير منتظمة وهى ترفع وتخفض جسمها . وتستمر هذه الرقصة ساعة أو حتى ساعتين وقد تتكرر مرتين أو ثلاث مرات يوميا . وبعد اليوم التالى يزور النساء قبر المتوفى ويضعن عليه الحبال التى اتخذتها أحزمة . ويحدث عادة أن يذبحوا حملاً أو جديا كضحية للتكفير عن سيئات المتوفى ، وينتهى الحفل بوليمة .

## ٨ ـ شعب مصر

باستثناء العاصمة وبعض المدن الأخرى فإن مصر لا تملك إلا القليل من البيوت الجميلة . إن مساكن الطبقة السفلى للشعب لاسيما الفلاح ذات بناء تعس . فبيوتهم مبنية عادة من الطوب الذى يستخدم الطين فيه بدلا من الأسمنت ، وهى ليست فى غالب الأمر إلا أكواخا ؛ ومعظمها مكون من غرفتين ، ومن النادر أن تكون ذات طابقين . وفى مصر السفلى نرى عادة فى إحدى هاتين الغرفتين . وفى مواجهة الداخل ، ولكن فى أبعد مكان من المدخل يوجد الفرن الذى يحتل عرض الحائط الداخلى بأكمله . وهذه الأفران تشبه المقاعد الكبيرة ولها قبة من الداخل ، وارتفاعها فى ارتفاع اليد وغطاؤها مسطح . ولما كان من النادر لسكان هذه البيوت أن يكون لديهن بطاطين للشتاء فإنهم ينامون فوق الفرن بعد إشعاله . وفى بعض البيوت لا يوجد إلا الزوج والزوجة اللذان يستمتعان بهذا الامتياز . أما الأطفال فينامون على الأرض . وللغرف

فتحات صغيرة فى أعلى الحائط لإدخال النور والهواء . وتزود أحيانا هذه الفتحات بأسياخ من الخشب . أما الأسقف فهى مبنية من سعف النخيل وأوراق الأشجار أو سيقان الذرة الخ ثم تغطى بغطاء من الطمى والقش الرقيق . ويتكون الأثاث من حصير وأحياناحصيربن بدلاً من السرير ، وبعض القدور الفخارية ورحى لطحن القمح . ونرى فى كثير من القرى أبراج حمام مربعة كبيرة مقامة فوق الأسطح تميل أعمدتها كما يحدث فى المبانى المصرية القديمة قليلا نحو الداخل وأحيانا تأخذ هذه الأبراج شكل أقماع السكر . وهى مبنية من الطوب النى والطين والقدور البيضاوية ذات الفتحة الكبيرة من الخارج وثقب صغير من ناحية الأخرى . ويشغل كل زوج من الحمام قدراً منفصلاً . ومعظم القرى المصرية مبنية على ربوة مكونة من أطلال مما يجعلها أعلى من ارتفاع الفيضانات ببضع أقدام . وهى محاطة فى بعض الأحيان بالنخيل . وتتكون الأطلال التى يكونون بها هذه الارتفاعات من مواد أكواخ قديمة . ونلاحظ أنها تبدو فى ارتفاع الطمى ومجرى النهر .

## الحياة العائلية لدى المصريين

إن الحياة المنزلية لدى الطبقات الدنيا بسيطة جداً فى العادة بالقياس إلى الحياة لدى الطبقات الأكثر ارتقاء مما يجعلها قليلة الأهمية .

وفيا عدا جزءا صغيرا من السكان يعيش فى المدن فإن معظم الطبقات الدنيا تتكون من أناس يسمون « الفلاحين » ( أى المزارعين ) .

أما سكان المدن الكبرى ، أو حتى ما هى أقل منها اتساعاً ، وكذلك عدد قليل من سكان القرى ، فهم من صغار الباعة أو الحرفيين أو من الخدم ويتقاضى هؤلاء مرتبات ضئيلة جداً وهى فى غالب الأمر غير كافية لأكلهم وأسرهم .

وغذاؤهم الرئيسى هو خبز الذرة واللبن والجبن الطرى والبيض والسمك الصغير المملح المسمى « فسيخ » . وهم يأكلون كذلك الخيار والبطيخ والقرع الموجود بكثرة والبصل والكرات[٧٠] والفول والحمص والعدس والبلح الطازج أو المجفف والخضروات المملحة . وهم يأكلون الخضروات فى معظم الأحوال نيئة . ويتحف الفلاحون أنفسهم ببعض سنابل الذرة شبه الناضجة التى يشوونها على النار أو فى الأفران . ولا يسمح ثمن الأرز للفلاحين بأكله وكذلك الحال بالنسبة للحم .

والمتعة الكبرى بالنسبة لهؤلاء الناس البسطاء وهى التبغ رخيص الثمن الذى يزرعونه ويجففونه بأنفسهم . وهذا التبغ مخضر اللون ورائحته لطيفة نوعاً .

---

(٧٠) الذى يطلق عليه المصريون اسم الكرات او شرشه .

ورغم أن جميع المواد الغذائية المذكورة فيما سبق رخيصة فإن الفقراء لا يستطيعون الحصول إلا على الخبز الخشن الذى يغمسونه بخليط يسمونه الدقة وهو مكون من الملح والفلفل والزعتر أو النعناع والكمون . ولدى كل قضمة يغمسون الخبز فى هذا الخليط . ورغم هذا الحديث عن مدى فقر طعام الفلاحين المصريين فإنك تدهش لمظهر الصحة البادى عليهم وهيكلهم الصلب وكمية العمل التى يستطيعون تحملها .

أما نساء الطبقات الدنيا فمن النادر أن يكن فاقدات النشاط ، بل ان الكثيرات منهن يتحملن أعمالا أشق من أعمال الرجال . وهن يهتممن عاده بإعداد طعام الزوج وإحضار الماء الذى يحملنه فى قدور كبيرة على رءوسهن وغزل القطن والكتان أو الصوف ، وعمل فطائر كبيرة مستديرة مكونة من روث الماشية والقش الرقيق يعجنها معاً ويستخدمنها كوقود .

بهذا الوقود المسمى «الجلة» توقد الأفران وتعد الأطعمة . وفى الطبقات الدنيا نلاحظ أن خضوع النساء لأزواجهن أكبر منه لدى الطبقات المرتفعة . وليس من المسموح دائما لهؤلاء النساء المسكينات بتناول العشاء مع الرجال . وحين يخرجن بصحبة الزوج فإنهن يمشين دائما فى الخلف . وإذا كان ثمة ما يحمل فإن المرأة هى التى تتحمل ذلك .

وفى المدن تملك بعض النساء الحوانيت التى يبعن فيها الخبز والخضروات الخ .. بحيث يشاركن مثل الزوج بل ربما أكثر منه فى أعمال الأسرة .

وحين يرغب أحد المصريين الفقراء فى الزواج فإن همه الأول هو إعداد المهر الذى يبلغ عادة عشرين ريالاً (أى من ١٢ إلى ١٣ فرنكا) . وإذا وجد الرجل إمكانية لتقديم المهر ... فإنه لا يتردد مطلقا فى الزواج . ذلك لأن ما يتبقى أمامه بعد ذلك قليل بالنسبة لإعالة امرأة وطفلين أو ثلاثة . ويصبح الأطفال ذوى فائدة فى قيادة وحراسة الماشية ابتداء من سن الخامسة أو السادسة . وبعد ذلك ، وحتى وقت زواجهم فإنهم يساعدون الأب فى أعمال الحقل . ويعتمد الفقراء عادة فى مصر اعتمادا كليا فى شيخوختهم على أعمال أبنائهم . ولكن كثيرا من الآباء محرومون من هذه المساعدة . ولذا فهم يضطرون إلى التسول أو الموت جوعاً . ومنذ وقت قليل نزل الباشا خلال رحلة من الاسكندرية إلى القاهرة فى قرية فى شمال النيل . وأمسك رجل فقير بكم ثوب الباشا وذهبت جميع الجهود لتخليصه منه هباء وأخذ هذا المسكين يشكو من أنه كان فى الماضى فى يسر ثم تحول إلى الفقر المدقع لأنه إذ بلغ سن الشيخوخة انتزع منه ابناؤه لتجنيدهم . وهب الباشا الذى يهتم عادة بالطلبات التى تقدم له شخصيا لنجدة هذا التعس ، ولكن بأن أمر أغنى رجل من أهل القرية بأن يعطيه بقرة .

ويحدث أحيانا أن تكون أسرة صغيرة عبئا لا يحتمل بالنسبة للأهل الفقراء . ولذا فليس من النادر أن نرى أطفالا يعرضون للبيع ، وتقدم الأم نفسها بهذا العرض أو بواسطة بعض النساء اللاتى يكلفهن الأب بهذه المهمة . ولكن لابد أن يكون بؤس هؤلاء الناس قد بلغ أقصى مداه . فإذا

حدث وتوفيت الزوجة تاركة طفلا أو أكثر بلا فطام ، وإذا كان الأب أو غيره من الأقارب فى فقر مدقع بحيث لا يستطيعون الحصول على مرضع فإنهم يعرضون الأطفال للبيع أو يعرضونهم على باب أحد المساجد حين يكون ثمة تجمع للناس لدى صلاة الجمعة .

ويحدث عادة أن يتأثر أحدهم شفقة بهذا المخلوق الذى يعرض بهذه الطريقة فيحمله ليربيه فى أسرته لا كعبد ولكن كطفل متبنى . وإذا لم يتم ذلك فإنهم يعهدون به إلى شخص ما حتى يتسنى العثور على أم أو أب له بالتبنى .

ومنذ بعض الوقت عرضت امرأة على سيدة طفلا منذ بضعة أيام وزعمت أنها عثرت عليه أمام باب أحد المساجد . وقالت لها السيدة إنها على استعداد لتربيته لوجه الله على أمل أن يبعد ذلك كل شر عن ابنها الوحيد الذى تحبه جزاء لهذا العمل الخير وفى ذات الوقت وضعت عشرة قروش (أى ما يساوى فرنكين ونصف ) فى يد المرأة ولكنها رفضت هذه الهدية . وهذا يدل على أنه يحدث أحيانا أن تمارس هنا تجارة تهريب الأطفال وأن من يدفعون نقودا يستطيعون أن يحولوهم الى عبيد أو يعيدون بيعهم . وقال لى أحد تجار الرقيق ، كما أكد لى غيره ذلك ، أنهم أعطوه للبيع كثيرات من الفتيات بمحض موافقتهن . فقد أقنعوهن بذلك بأن صوروالهن الملابس الغالية وأدوات الترف التى سوف يحصلن عليها . وعلموهن أن يقلن إنهن أجنبيات وانهن جلبن إلى مصر فى سن الثالثة أو الرابعة ونسين لغتهن الأصلية ولم يعدن يعرفن إلا العربية .

ويحدث كثيرا للفلاحين أن يسلمن لحالة من الفقر الشديد بحيث يضطرون من أجل النقود إلى وضع أطفالهم فى حالة أشد من العبودية العادية ، فحين يطلب من قرية ما أن تسلم قدراً معينا من الدخل فإن الشيخ يتبع عادة الطريق الأسهل ألا وهو أخذ أغنى أبناء الناحية . وفى هذه الظروف فإن الأب ، كى لا يحرم من ابنه يمنح أحد القرويين الفقراء من خمسة وعشرين إلى خمسين فرنكا لكى يحصل على بديل وهو ينجح فى هذه المهمة فى معظم الأحوال رغم أن حب المصريين لأبنائهم فى مثل حب الأبناء لآبائهم يرتاعون عادة من فكرة تجنيد أبنائهم . وهذا الارتياع يبلغ حد اللجوء إلى وسائل عنيفة لتجنب هذه المصيبة . ففى أيام حرب سنة ١٨٣٤ مثلا لم يجدوا تقريبا شبابا صالحين لاينقصهم على الأقل سن أو سنين حطمت عمداً لجعلهم عاجزين عن عض الخرطوشة ، أو قطع لهم أصبع أو سملت لهم عين . بل أنه فى بعض الحالات فقعت العينان لكيلا يؤخذ الأبناء ويرسلوا إلى الجيش وقد عرف عن بعض عجائز النسوة وغيرهن بالتجول فى القرى لإجراء هذه العمليات للأولاد . وفى بعض الحالات يقوم الآباء أنفسهم بهذه العمليات .

ولا يمكن أن يذكر فلاحو مصر بالخير لا من حيث حالتهم الأسرية والاجتماعية ولا من حيث العادات والتقاليد . وثمة وجه شبه كبير من هذه النواحى بينهم وبين أجدادهم البدو دون أن تكون لهم فضائل سكان البادية . وحتى إذا كانت لهم بعض الفضائل فقد انحلت . أما عن المثالب التى يتسمون بها فهى كثيرا ما تمارس تأثيرا سيئا على حالتهم الأسرية . وقد

قيل فيما مضى أنهم من سلالة مختلف الأجناس العربية التى استقرت فى مصر فى عصور مختلفة . ومازال سكان القرى بأجمعهم يلاحظون ما بين القبائل من تمييز وبفعل الزمن انقسمت كل قبيلة أصيلة إلى عدة فروع . أصبحت أسماء هذه القبائل الصغيرة تحملها القرى أو المراكز التى يسكنونها . وأقدم القبائل استقراراً فى مصر قد احتفظت من البدو الأوائل بقدر أقل واختلط نقاء جنسهم بالزواج المتبادل مع الاقباط الذين اعتنقوا الاسلام أو مع سلالتهم مما جعل القبائل الأحدث استقراراً فى البلاد تحتقرهم وتسميهم « الفلاحين » وتحتكر التسمية بالعرب أو البدو . وحين يرغب هؤلاء الزواج من بنات الأوائل فلا يجدون صعوبة فى الزواج منهن . ولكنهم لا يسمحون أبداً بزواج بناتهم من هؤلاء الذين يسمونهم بالفلاحين . وإذا قتل أحدهم بواسطة شخص من قبيلة فإنهم ينتقمون له بقتل اثنين أو ثلاثة أو حتى أربعة من هذه القبيلة . ويعاقب القتل عادة بقتل أحد أفراد أسرة القاتل . وحين يتم القتل بواسطة شخص من قبيلة الضحية تحدث عادة عدة معارك صغيرة تتحول إلى حرب مفتوحة بين القبيلتين تمتد عادة لسنوات بسبب إهانة طفيفة يوجهها شخص من قبيلة إلى آخر من قبيلة أخرى .

وفى حالات كثيرة يتم الثأر بالدم بعد قرن أو يزيد من حدوث القتل إذا أثاره شخص أو آخر بعد أن بدا أن هذه المدة الطويلة قد جعلت الأمر فى طى النسيان . وفى مصر السفلى توجد قبيلتان : سعد وحرم ، وهما يتميزان ، بمعاركهما وأحقادهما (وتوجد الحالة نفسها بين قيس وعيد فى

سورية ) . ومن هنا يأتى إطلاق هذه الأسماء على أشخاص أو أحزاب تعيش فى حالة عداء . ومن الغريب أنهم يتحملون ، حتى فى هذا الوقت ، مثل هذه الجرائم التى لو حدثت فى مكان آخر أو فى مدن مصر الكبرى لعوقبت بأحكام الاعدام التى يروح ضحيتها العديد من الأشخاص الضالين . والثأر بالدم مسموح به بمقتضى القرآن . ولكنه يوحى فى تنفيذ ذلك بالاعتدال والعدل[71]. والحروب الصغيرة التى يسببها الثأر فى زماننا تتعارض إذن مع تعاليم النبى الذى قال : «إذا سحب مسلمان السيف أحدهما ضد الآخر فإن القاتل يعاقب بالنار[72] .

وفى حكايات أخرى فإن الفلاحين يشبهون البدو . وحين تثبت خيانة فلاحة لزوجها فإنه هو نفسه أو شقيق المرأة الزانية يسقطانها فى النيل بحجر مربوط فى عنقها أو يلقون بجثتها فى النهر بعد تقطيعها إربا . والابنة أو الأخت غير المتزوجة حين ترتكب إثما تعاقب غالبا بنفس الطريقة ويقوم الأب أو الأخ بتنفيذ الإعدام . ويعتبر والدا مثل هؤلاء البنات أكثر تحملا للعار من الزوج بالنسبة لخيانة زوجته . وإذا لم يأخذ بثأره فإن الأسرة تتعرض لاحتقار القبيلة كلها .

---

(٧١) القرآن ٢ ـ ١٧٣ ، ١٧ ـ ٣٥ ( حسب رأى جيرار ) .

(٧٢) القرآن ٤ ـ ٩٥ ( فى إدعاء جيرار ) .

## عيد محمد

في بداية شهر بابيا الأول BJM [٧٣] (أي الشهر الثالث) ، يستعد الناس للاحتفال بمولد النبي . وهذا الاحتفال يسمى مولد النبي والمكان الرئيسي للاحتفال هو الجزء الجنوبي الغربي من الساحة الكبيرة ببركة الأزبكية التي تصبح كلها تقريبا أيام الفيضان بحيرة . ويحدث لعدة سنوات متتالية أن يأتي المولد في هذا الموسم فيحتفل به على ضفاف البحيرة . ولكن إذا كان مكانها جافا فيتم الاحتفال فيه . فتقام السرادقات الكبيرة التي تسمى «صيوان» والتي يتجمع في معظمها الدراويش في جميع ليالي المولد . وفي وسط كل من هذه السرادقات يقام صاري يثبت جيدا بالحبال ويعلق عليه نحو اثنا عشر من المصابيح الصغيرة أو يزيد . وحول هذه الصواري تتجمع فرقة من نحو خمسين أو ستين درويشا يصطفون في دائرة ينشدون الذكر . وبالقرب من هذا المكان يقام ما

---

(٧٣) صحتها ربيع الأول .

يسمونه «بالقائم» ، وهو عبارة عن أربعة من الصوارى التى تقام فى صف واحد ، ويبعد كل واحد عن الآخر بضعة قضبان ، وتثبت جميعا بالحبال التى تمر من أحدهما إلى الآخر وتثبت فى الأرض من الطرفين .

وتعلق المصابيح على هذه الحبال بين الصوارى مكونة أحيانا أشكال الزهور أو الأسود ألخ .. وأحيانا أخرى تشكل كلمات مثل أسم الله واسم النبى محمد أو بعض العبارات الأخرى وأحيانا تكون مجرد زينات زخرفية . وتنتهى الاستعدادات فى ثانى يوم من أيام الشهر . وفى اليوم التالى تبدأ الاحتفالات والابتهاجات التى ينبغى أن تستمر بلا توقف حتى الليلة الثانية عشرة من الشهر ، ويعنى ذلك حسب الطريقة التى يحسب بها المسلمون حتى الليلة التى تسبق اليوم الثانى عشر ، وهى فى الواقع ليلة المولد . وخلال هذه الفترة المكونة من عشرة أيام وعشر ليال يتجمع جزء كبير من سكان البلاد فى الأزبكية .

وفى بعض أجزاء من الشوارع المجاورة للمكان تقام الأراجيح وغيرها من الألعاب وكذلك عدد كبير من جوانب العرض لبيع الحلوى .

وذهبنا الى شارع يسمى سوق البكرى ، ويقع فى جنوبى ميدان الأزبكية لنرى الذكر الذى قيل لنا ان به أحسن المنشدين . وكانت الشوارع التى ينبغى لنا أجتيازها للوصول إلى المكان غاصة بالجماهير ، ولم يكن مسموح لأحد بالتجزل دون مصابيح ، كما هى العادة حين يجن الليل . وكنا نرى بالكاد بعض النسوة ضمن الحاضرين .

وفى مكان الذكر نفسه علق شمعدان كبير جدا يحمل مائتين أو ثلاث مئات من المصابيح الزجاجية الصغيرة المتقابلة فيبدو أنه يتكون من مصباح واحد . وحول هذه الحزمة من النور كان ثمة عدد كبير من المصابيح الخشبية يحتوى كل منها على عدد كبير من المصابيح الصغيرة الشبيهة بمصابيح الشمعدان .

والذكير (أو منشد الذكر) يجلس مع رفاقه وعددهم عادة ثلاثون ، وقد عقدوا السيقان على حصر مفروشة لهذا الغرض بطول منازل جانبى الشارع ، ومصطفة فى شكل دائرة طولها أكبر قليلاً من عرضها . وفى وسط هذه الدائرة كان ثمة ثلاث شمعات تحملها شمعدانات منخفضة جداً . ومعظم رجال الذكر أو الذكيرة ، كانوا من الدراويش الأحمدية ، وهم أناس من الطبقة المتواضعة ويلبسون ملابس رثة وبعضهم فقط كان يلبس العمامة الخضراء . وفى أحد أطراف الدائرة المستطيلة كان ثمة أربعة منشدين (أى من يتغنون بالشعر) ، وأربعة من عازفى آلة تشبه الصفارة تسمى الناى . وتوصلنا إلى العثور على مكان لنا وسط هؤلاء من أجل حضور مجلس الذكر بأكمله (أى المشهد) وسوف نصفه بأكبر قدر ممكن من الدقة لنعطى فكرة عمن يحاطون فى القاهرة بأكبر قدر من الاعجاب . وقد بدأ هذا المجلس فى الساعة الثالثة تقريبا ، وبناء على تقديرنا ، أى الساعة الثالثة بعد غروب الشمس . وقرأ المنشدون أولا الفاتحة معاً حين صاح رئيسهم أولا قائلا : «الفاتحة» ! . واصل الجميع الانشاد قائلين : «يا إلهى ! أكرم سيدنا محمدا عبر

القرون ، أكرم سيدنا محمدا فى أهل مكان يوم الحساب وأكرم جميع الأنبياء المرسلين بين سكان السماوات والأرض . وليرض الله الذى نمجد اسمه ونباركه عن سادتنا وموالينا أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ويرفع ذكرهم . الله ملاذنا وحارسنا . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! يا إلهى ! يا مولانا ! يا غفار ! يا أكرم الأكرمين يا الله ! آمين ! » .

وبعد هذه الأناشيد يظل الذكيرة صامتين بضع دقائق ، ثم يبدأون بصوت منخفض .

وهذه الطريقة فى بدء الذكر منتشرة بين جميع طرق الدراويش فى مصر وتسمى استفتاح الذكر . وبعد ذلك يبدأ المنشدون وقد اصطفوا كما ذكرنا فيما سبق ، يبدأون الذكر قائلين : «لا إله إلا الله» بنغمة بطيئة وهم يحنون مرتين لدى كل تكرار للا إله إلا الله ، ثم يستمرون هكذا نحو ربع الساعة ويكررونها ربع ساعة آخر فى حركة أكثر قوة بينما المنشدون ينشدون على النغمة نفسها أو يغيرونها بأجزاء من قصيدة أو موشح أو أنشودة من نوع أناشيد سليمان وهم عادة يذكرون النبى كموضع حبهم ومديحهم .

ويدور الذكر حتى يدعو الصباح الناس إلى الصلاة . ولا يستريح الذاكرون إلا بين كل مجلس ومجلس بأن يشرب البعض القهوة ويدخن البعض الآخر .

وكان الوقت قد تعدى منتصف الليل حين غادرنا مكان الذكر فى

شارع سوق البكرى لكى نتوجه إلى ميدان الأزبكية وهنا كان ضوء القمر مضافا إلى ضوء المصابيح يحدث تأثيرا فريداً . ومع ذلك فقد كان الكثير من هذه المصابيح مطفأ على قائم السارى وفى السرادقات . وكان الكثيرون من الناس ينعسون وقد تمددوا على الأرض العراء وهم يأخذون هكذا قسطهم من الراحة الليلية . وانتهى ذكر الدراويش حول السارى ولن نصف هذا الذكر إلا حسب الملاحظات التى أبديناها الليلة السابقة . أما هذه الليلة فبعد أن حضرنا الكثير من الأذكار فى السرادقات نهضنا منسحبين .

وفى اليوم التالى (أى الليلة السابقة مباشرة لليلة المولد ) عدنا إلى الأزبكية قبل الظهر بساعة تقريبا . وكان الوقت مبكراً جداً لكى يكون الزحام شديدا وأن تكون وسائل التسلية متوفرة فلم نر إلا بعض المشعوذين والمهرجين و «الشعراء» الذين جاهدوا لجمع حلقة صغيرة من المشاهدين حولهم . ولكن ما لبث الجمهور أن ازداد تدريجيا لأن الأمر كان يتعلق بمشهد مرموق يجتذب كل عام فى مثل هذا اليوم جمهوراً دائم التشوق لرؤيته . هذا المشهد يسمى الدوسة وهذه هى أوصافه :

بعد أن يقضى ، كما يقولون ، شيخ الدراويش السعدية (السيد محمد المنزلة «كذا» ) وهو «كاتب» مسجد الحسنية[٧٤] ، بعد أن يقضى

---

(٧٤) ربما يقصد الحسين .

جزءا من الليلة السابقة فى الخلوة وتكرار بعض الأدعية والنداءات الخفية وبعض آيات القرآن ، يظهر فى المسجد سابق الذكر يوم الجمعة ، وهو اليوم السابق لليلة المولد ، لأداء الشعائر المعتادة ، شعائر الدوسة . ولما تنتهى صلاة الصبح والأدعية يغادر المسجد لكى يتجه على ظهر جواده إلى منزل الشيخ البكرى سيخ جميع طرق الدراويش فى مصر . وهذا المنزل يقع فى جنوب ميدان الأزبكية فى مواجهة البيت الواقع فى الزاوية الجنوبية الغربية . وأثناء قيامه بهذا المشوار يتبعه جمع من الدراويش السعدية من مختلف أنحاء البلاد والشيخ هو رجل مسن ذو لحية بيضاء وبنيان جميل وملامح طيبة تدل على الذكاء . وفى اليوم الذى نتحدث عنه يرتدى الشيخ معطفا أبيض وقاوونا (أى غطاء رأس مبطن ومغطى بالصوف ) . أما عمامته المصنوعة من قماش موصلى فهى خضراء فى لون الزيتون القاتم الذى يصعب تمييزه من الأسود ، وعليها رباط من الموصلى ( الموسلين ) الأبيض يعبر جبهته بشكل مائل . والحصان الذى يركبه من حجم متوسط ووزن عادى . وسوف نرى الآن لأى سبب أبدينا هذه الملاحظة .

ودخل الشيخ إلى بركة الأزبكية يسبقه موكب كبير من الدراويش الذين يعملون تحت رئاسته . وعلى مسافة قليلة من بيت الشيخ البكرى توقف الموكب وأتى عدد كبير من الدراويش وغيرهم . ولم نستطع عدهم ولكنهم كانوا بلا شك أكثر من ستين شخصا انبطحوا على بطونهم على الطريق أمام خطوات الحصان الذى يركبه الشيخ . واصطفوا الواحد بجوار

الآخر بحيث يكونون على أكبر قدر ممكن من التقارب وقد فردوا سيقانهم وسندوا جباههم على أذرعهم المعقودة وهم يترنمون بلا توقف بكلمة : « الله » ! ثم أخذ اثنا عشر درويشا أو يزيدون يمرون على ظهور زملائهم الراقدين ، وبعضهم يقرع الطبول الصغيرة التى يمسكون بها بيدهم اليسرى وهم يصيحون : « الله » . وحينئذ اقترب الشيخ ، وتردد حصانه لبضع دقائق فى وضع قدمه على أول هؤلاء الرجال المتمددين فى طريقه . ولكن لما دفع من الخلف زال عنه التردد ، ودون خوف ظاهر بدأ السير بخطوة عالية مر عليهم جميعا يقوده رجلان يمسك به كل منهما من ناحية ويجرى أحدهما على أقدام الراقدين والآخر على رءوسهم . وللتو بدرت صيحة طويلة من المشاهدين :

« لا إله إلا الله ! » فإن أحداً من هؤلاء الرجال الذين داستهم أقدام الحصان ومن يتولون قيادته لم يصب بسوء . وكان كل منهم ينهض فى قفزة واحدة . بمجرد أن يمر الحصان فوقه وينضم إلى الموكب الذى يتبع الشيخ . لقد تحمل كل منهم خطوتين من خطوات الحصان إحداهما من إحدى القدمين الأماميتين والأخرى من إحدى القدمين الخلفيتين دون أن ننسى خطوات من يقودون الحصان . ويقال إن هؤلاء الناس وكذلك الشيخ نفسه يرددون بعض الأدعية وبعض الدعوات فى اليوم السابق حتى لا تحدث أى مجازفة فى هذا الاحتفال وينهض الجميع سالمين وقد بلغت الجرأة ببعضهم إلى حد الاشتراك فى هذا الاحتفال دون أن يكونوا أعدوا مسبقا لذلك . وقد حدث فى مرات عديدة أن قتلوا أو شوهوا تشويها

شديداً . ويعتبر نجاح هذا الاحتفال الديني معجزة تحققها قوة خارقة تنسب على التوالي لكل شيخ من مشايخ السعدية(٧٥)

ومن عادات بعض مشايخ الطريقة السعدية في هذه المناسبة أن يأكلوا الثعابين الحية أمام جمع مختار في منزل الشيخ البكري نفسه . إلا أن الشيخ الحالي قد اعترض أخيرا على هذه العادة في العاصمة وأعلن أنها ممارسة مقززة ومعارضة للدين الذي يعد الزواحف من الحيوانات التي لا ينبغي أكلها . ومع ذلك فإن السعديين قد أكلوا كثيرا من الثعابين والعقارب أثناء رحلتنا الأولى في هذه الجهة . ونضيف أنهم يقتلعون أسنان الثعبان التي تحتوي على السم فيصبح الحيوان عاجزا عن العض فتثقب شفتاه وينفذ منهما حبل من الحرير يربطهما معاً . ويستبدل الحبل الحريري بحلقتين من الفضة إذا أخذ الثعبان لعرضه في الموكب .

وحين يأكل أحد السعديين لحم الثعبان الحي فإنه يأخذه نوع من الارهاص ، أو لعله يدعي ذلك . فيرتكز بقوة بطرف أصبعه على ظهر هذا الحيوان الزاحف على بعد بوصتين من الرأس تقريبا ولا يأكل إلا المكان الذي ارتكز عليه أي ما يكفي لثلاث قضمات أو أربع . أما بقية الجسم فيلقى به .

---

(٧٥) يقال إن ثاني شيوخ السعدية ( وهو الذي تلا مؤسس هذه الطريقة مباشرة ) قد جرى بحصانه على كومة من القطع الزجاجية دون أن تتكسر قطعة واحدة منها .

ومع ذلك فقد يتعرضون أحيانا لخطر الثعابين حتى ولو كانوا من السعديين . وقد قصوا علينا أنه منذ عدة سنوات ، عن لأحد الدراويش من هذه الطريقة ، وكانوا يسمونه الفيل لضخامة جسمه وقوته العضلية ، وكان أشهر آكلى الثعابين فى زمنه .وفى كل زمن ، عن) له أن يستأنس ثعبانا من نوع سام للغاية جلب من الصحراء . فوضع هذا الزاحف فى سلة واحتفظ به أياما عديدة لكى يضعفه . ثم أراد أن يمسكه لينزع له أسنانه فمد يده إلى السلة فشعر بالثعبان يعضه فى أصبعه الابهام . فطلب النجدة ولكن لما لم يكن بالمنزل إلا امرأة خافت أن تهرع إليه فقد خر بعد بضع دقائق دون أن يهب أحد لمساعدته . وحين حضروا إليه كان ذراعه كله قد أصبح أسود وملتهبا ومات الرجل بعد بضع ساعات .

ص ٧٥٠

الملاحظة القادمة ، المستقاه من جريدة القسطنطينية ، تثبت أن ثمة تقدم فى صالح الفنون يتم بشكل ملحوظ بين عام وآخر :

« وكم من أحكام مسبقة قد تم القضاء عليها فيما يختص بالرسم وهو فن يمارسه الكثير من التلاميذ بنجاح كما يشهد بذلك معرض متنوع للمصورات والرسوم المائية والمناظر ألخ ... وقد لاحظنا منظرًا للكوبرى الجديد Lapant wey فى باريس أخذ من الافريز الذى يوجدبه تمثال هنرى الرابع بحيث يمكننا رؤية منظر الأرصفة ومتحف اللوفر حتى التويلرى . وقد قام بتنفيذ المنظر تحسين أفندى من جلاتا وهو تلميذ فى

الصف الرابع . وكذلك رأينا منظرًا للتويلرى أخذ من الحوض الكبير مع مسلة الأقصر فى الخلفيه ، وقد قام بتنفيذه عبد الله أفندى ، وكذلك منظر شلالات سان كلو للشخص نفسه .

**ص ٧٥٣**

أما فيما يختص برسم الزخارف والذوق وتناسق الأشكال العربية فأنت تعرف تفوق الأتراك فى هذا الصدد . إن ناعورة توبانا الجميلة التى نلاحظها فى رسوم روجييه[٧٦] قد تكون ذات فائدة لقرائك حول عبقرية الزخرفة فى القسطنطينية .

## خطاب عمرو

لن تكون ثمة طريقة أفضل لختام هذه الملاحظات حول مصر المعاصرة من ذكر الخطاب الرائع الذى كتبه عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر أيام غزو المسلمين لهذا البلد وهذا التفصيل يتيح لنا أن نثبت نقطة تاريخية يبدو أنها حيرت الكثير من العلماء . فقد وقع مسيو أمبير الابن ، الذى نشر منذ وقت قريب بحثا هاماً حول مصر ، وقع فى الخطأ المشترك

(٧٦) ألبوم تركيا ، سلم توب ـ هانيه .

الذى يفترض أن الخليفة عمر قد قام هو نفسه بحصار الاسكندرية . وسوف نرى فى الأحداث التالية أن قائده عمرو هو الذى كلف بهذه الحملة . وقد حافظنا هنا على الأسلوب القديم لمستشرق قديم هو بيير فاتييه الذى ينقل الأسلوب العربى بطريقة تدعو للإعجاب .

هذا هو الخطاب الذى كتبه أمير المؤمنين عمر إلى عمرو « إن اللغة الفرنسية لا تحسن نقل الحروف الساكنة العربية »

« من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : السلام عليك يا عمرو ورحمة الله وبركاته وعلى المسلمين أجمعين . وبعد فإنى أحمد الله على نعمه التى أولاك إياها ، لا إله إلا هو ، أسأله أن يبارك محمداً وآله . علمت يا عمرو ، من التقرير الذى قدم إلى أن الولاية التى تحكمها جميلة وقوية وحسنة الزرع والنسل ، وأن الفراعنة والعمالقة قد حكموها وانجزوا بها أعمالاً رائعة وأشياء ممتازة وأنهم عرضوا بها دلائل عظمتهم وعليائهم . وهم يتصورون أنهم خالدون ويأخذون دون حساب . ومع ذلك فقد أقرك الله فى بيوتهم ووضع تحت سلطانك أموالهم وعبيدهم وأطفالهم وجعلك وارثا لأراضيهم فالشكر له والحمد له وإليه يعود الفضل والمجد . وحين تقرأ خطابى هذا اكتب لى عن صفات مصر الخاصة سواء عن أرضها أو بحرها ، واجعلنى أعرفها كما لو كنت قد رأيتها بنفسى » .

وحين تلقى عمرو هذا الخطاب ورأى محتوياته رد على عمرو بادئا خطابه بالعبارة التالية : « من عبد الله عمرو بن .. وحين قرأ أمير المؤمنين

عمر خطاب عمرو ، كما يقول الكاتب ، قال : «لقد أحسن فى وصف أرض مصر وما يئول إليها ، لقد أحسن وصفها لدرجة أنه لا ينكرها إلا من لا يستطيعون معرفة الأشياء . الحمد الله معشر المسلمين على النعم التى أولاكم إياها فملككم مصر وغيرها من البلاد . إنه هو الذى يجب أن نطلب منه العون » .

## فهـــرس

**مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب**

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٦١٢/١٩٨٨

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٨٩٣ - ١

هذا الكتاب يعرض وجهة نظر غربية لفترة من فترات تاريخنا المعاصر .. فمن خلال مشاهد من الحياة الشرقية ، يتناول الكتاب الوضع الاجتماعى للنساء فى هذه الفترة ، والحياة الخاصة فى القاهرة من خلال حفلاتها ، ومراسم الجنازات وذكريات عن بعض أحياء القاهرة ، والعادات والتقاليد السائدة فى هذه الفترة التاريخية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٩٠ قرشا